

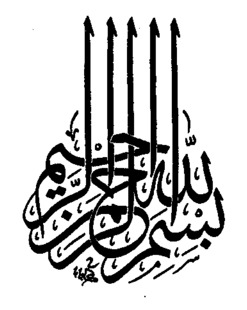
تأليف

محمد محمد حسن شراب

المجلد الأول

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت



المدينة النبوية

في فجر الإسلام والعصر الراشدي

الطّبْعَة الأولىٰ
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدّار الشّاميّة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ هاتف : ٣١٦٠٩٣

الهَدَفُ وَالمِنهَاجُ

كتاب «المدينة النبوية ــ فجر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين» هو الكتاب الخامس في سلسلة خصصتُ بها تاريخ المدينة النبويّة.

الأول: المدينة في العصر الأموي.

الثاني: أخبار الوادي المبارك (العقيق).

الثالث: المعالم الأثيرة في السُّنَّة والسيرة.

الرابع: الإمام محمد بن مسلم الزهري.

وكان مِنْ حقّ الكتاب الخامس أَنْ يكون الأول من حيثُ الترتيبُ الزمنيُّ للأحداث التي ترصدها هذه الكتب الخمسة. ولكن ليس من الصعب على الناقد أن يعتذر عن هذا التأخير، وأن يلتمس له التبرير الفني.

ذلك أن هذه الأحداث ــ منذ فجر الإسلام حتى نهاية العصر الأموي ــ لم تكن مشمولة في كتاب واحدٍ، لأقوم بترتيبها حسب ورودها الزمني.

ثم إن انفعال الكاتب بالتاريخ لا تقيّده حدودُ الزمان، ولا تثيره الأحداثُ مرتبةً، وإنما ينفعل الإنسان للأحداث الجارية في واقع الحال الذي يعيشه، وينفعل للأحداث التاريخيّة التي يبعثها الناسُ للخوض في تفاصيلها. وللناس فيما يبعثون من الأحداث مذاهبُ ومآرب، تصطرع بينهم المعارك.. فهذا يَلْبَسُ

الثوبَ الجاهليَّ، ويطعن فيما عداه، وهذا يلبسُ ثوب الإسلام ويطعن في العصر الجاهلي، وذاك يلبسُ الثوب الصليبيَّ ويغمزُ من جانب صلاح الدين، والآخرُ ينقضُّ على أُسرةٍ حكمتْ فيمزقُ عِرْضَها. . إلخ.

كل هذه الصراعات التاريخية تكادُ تكون موجودة في مجتمعنا، وقد يعلو صوت إحداها فيطغى ويغطي على الصراعات الأخرى، مع أَنَّ محركها وباعثها واحد. ولكن المغيرين يُثيرون قضايا شتى، ويغمزون جوانب من عصور متفرقة ثم ينتظرون، ليروا أيّ النواحي أَشدّ تحصيناً وأكثر جُنْداً، فيصرفوا وجوههم عنها إلى جوانب أقلّ تحصيناً وأضعف جُنْداً؛ لينقصوا التاريخ من أطرافه، ويبتّوا صلة المركز بالأطراف. فقد قسموا التاريخ إلى دوائر، وجعلوا مركز الدائرة الأولى، القرآن والنبوّة، ووجدوا أَنَّ الهجوم على مركز الدائرة، أو مركز الدوائر يُثير عليهم جُنوداً لا قِبَلَ لهم بالوقوف أمامهم، فأوقفوا هجومهم عليه إلى أجل، وانتقلوا إلى الدائرة الثانية، فالثالثة الخ. وكلما بَعُدت الدائرة عن المركز، ازداد هجومهم وكثرت دسائسهم، لأن الدائرة الأبعد يقلُّ جنودها، لضعف مكانتها في قلوب العامّة.

وهذا الذي وصفتُه كان من دواعي البدء بالعصر الأموي، والموضوعات التي تلتْه، قبل العصر النبويّ؛ لأن المؤرخين في العصر الحديث شوّهوا تأريخ المدينة في عصرٍ من أزهى عصوره العلمية ــ في الفقه والحديث ــ معتمدين على روايات كُتُب الأدب التي لم يصنعها أصحابها للتأريخ، ولم يكن مؤلفوها من الرواة المعتمدين في رواية أخبار أهل الصلاح. واستغل المؤرخون اختلاف الآراء حول بني أُميّة، ووجدوا مَنْ يوافقهم على افتراءاتهم، واتخذ المؤرخون من أخبار وادي العقيق الأدبيّة، شواهد لإثبات أحكامهم على تأريخ المدينة في العصر الأموي، فأحببتُ أن أفرده بكتاب، لأثبت فيه الأحكام الصحيحة على هذا العصر، ولآخذ من أخباره الدلالات الحضاريّة في العمران، والاقتصاد، ولأبيّن أسباب تعلّق قلوب الشعراء به. و «المعالم الأثيرة في السُّنَّة والسيرة» ليست

محصورة في المدينة النبوية، ولكنَّ المدينة لها منها النصيبُ الأَوْفَرُ، ولأَنَّ هذه المعالم ــ البعيدة عن المدينة ــ كان من أسباب دخولها في المعالم الأثيرة، أنها كانت نهاية رحلة من الرحلات الأثيرة ابتدأت من المدينة. . . وكان مؤلفو السيرة، ومحققو الحديث النبوي في العصر الحديث يعتمدون على ما جاء في كتب الأقدمين في تحديد المعالم. وكثير من تحديدات القدماء فقدتْ مدلولها في العصر الحديث، للتغيرات الجغرافية الجديدة، ولغموض مدلولات مقاييس المسافات القديمة. . ولذلك اجتهدتُ في جمع أكثر هذه المعالم في كتاب، لتقديم التعريف المناسب لمفهوم العصر الحديث.

وجاء الكتابُ الرابعُ «الإمام محمد بن شهاب الزهري» في وقت اقترب فيه الأعداء من مركز الدائرة، وطعنوا في الحديث النبويّ، واتخذوا من رُواة الحديث ــ بعد عهد الصحابة ــ وسيلة للطعن.

والثابت أَنَّ المدينة دارُ الحديث، ومنها انتقل إلى الآفاق، إلى أهلها كان العلماء يشدُّون الرحال لسماع الحديث، وقلّما رحل واحدٌ من أهل المدينة إلى الأقاليم الأخرى لطلب الحديث. كان ذلك في عهد الصحابة، وفي عهد التابعين وتابعيهم إلى زمن التأليف والتدوين. فكان لا بدَّ من إصلاح مفهومات ودفْع مفتريات. وقد سبقني إلى الدفاع عن الحديث النبوي أعلامٌ لم يقصّروا، ولكنهم تناولوا الحديث والسُّنَّة بعامة وتناولتُ جانب الرواية، ممثلاً في عَلَم من أعلامِ الحديث في عهد صغار التابعين. هذه هي قصة البداية في تاريخ المدينة. . .

أما كتابُ «المدينة النبويّة فجر الإسلام، وعصر الخلفاء الراشدين» فكان من دواعي تأليفه: أنني أَردتُ أَنْ أربط الفروع بالأُصول، وأن يكون للموضوعات السابقة نسبٌ يصلها بالشرف الأعلى في فجر الإسلام، ولتكون فروعاً من شجرة المدينة النبويّة التي استظل المسلمون في ظلالها منذ فجر الإسلام، وما زالوا. وأرجو ــ إنْ أَمدَّ الله في الأجل ــ أنْ أجلو المراحل التالية من تاريخ هذه الدوحة المباركة، بالصورة التي رضي عنها البحثُ العلميّ للتأريخ. وإنْ لم يكن في

الأجل فُسْحةٌ بعد هذا الكتاب، فإنني أكونُ قد وضعتُ الأساس والمنهاج، لمن يحمل هذه الأمانة من بَعْدُ.

فالحجاز بعامّة، والمدينة بخاصة ـ مَهْبط الوحي، ومنبعُ الحضارة الإسلامية، ومبدأ كل شرفٍ وسؤدد فخر به ملوك المسلمين، ومع ذلك لم ينل من المؤلفين عنايتهم بوصفه مكان فيض الحضارة وانطلاقها، فكان ذلك عقوقاً من الفرع للأصل. ولكن الحجاز ـ مكة والمدينة ـ مع هذا العقوق بقي مِعْطاءً كريماً، على مرّ العصور، . . ويحتاج هذا العطاء إلى مَنْ يجلّيه في صُحُفٍ يقرؤها الناس.

ومن دواعي تصنيف هذا الكتاب، مع كثرة ما كُتب في تأريخ المدينة النبوية: أنني نظرتُ فيما صُنّف من الكتب، قديمها، وحديثها ـ فوجدتُ أكثرها يعتني بتحديد الآثار النبويّة في المدينة. ومع أهميّة هذه الآثار، إلا أنها أصبحت معدومة العين والأثر، لأَنَّ المدينة النبويّة لم تعد هي المدينة النبوية التي كانت يوم كان فيها النبيُّ ﷺ. ولم يكن المؤلفون قريبي عهد بالعصر النبويّ فكانت أكثر تحديداتهم مبنيّة على الظنِّ والوهم. فأقدم كتاب وصلنا في تاريخ المدينة هو «تاريخ المدينة» لابن شبّة، المتوفى في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. . والمدينة النبويّة التي كانت مبنية بيوتها من الطين، لن تبقى على صورتها بعد ثلاثة قرون، ثم كانت تغيرات عبر القرون أدت إلى أن يعيش الناس داخل سور. . ويكون ازدحام سكاني يعصف بما تبقى من الآثار. . وجاء المؤلفون بعد ابن شبّة، فعُمّيَ الأمر عليهم، واعتمدوا على روايات منقطعة، أو ضعيفة، أو موضوعة، وذكروا مساجد، ومعالم وآثاراً، لم يذكرها أهل الصدر الأول. . وجاء العصر الحديث ومعه العمران، والشوارع الواسعة، فمحا التليدَ والطارف من الآثار ولم يبق من الآثار النبويّة إلا ما حمته الرعاية الإلهية، مما ذكرتُ بعضه أو جلّه تحت عنوان «الآثار الباقية».

وهناك قسم آخر من المؤلفات، حررّها أصحابها في العصر الحديث منها

ما أرّخ للحياة الأدبيّة، وعرّج بمناسبتها على الحياة الاجتماعية، ومنها ما عرّج على بعض الأحداث التاريخيّة، ومنها ما اختص بالسيرة النبويّة (المغازي) دون أن يربطها بالمجتمع المدني. وقد وقع جلُّ أصحاب هذه المؤلفات، في مستنقع الروايات الآسن. منهم مَنْ فعل ذلك لجهله بقيمة الروايات التاريخيّة، فظنَّ أنَّ كلَّ ما رُوي في كتب التاريخ يصلح للاحتجاج به، واستنباط الأحكام منه، وكان جلّ الاعتماد على كتب المؤرخين التي تحشدُ في الموضوع الواحد كلَّ ما رُوي، صحت الرواية، أو سقمتْ. ولم يرجع المؤلفون إلى كتب الحديث، وإلى كُتُب رجال الحديث، لجهلهم بما تتضمنه من التاريخ.

ومن المؤلفين مَنْ حشد لكتابه ما حَشَد من الروايات، لأنه لا يفرق بين تواريخ المدن الإسلامية، وجعل ما يُقالُ في المدينة النبويّة، بمنزلة ما يقال في تأريخ دمشق، وبغداد والقاهرة والرباط، وشتّان بين تأريخ وتأريخ.. فالمدينة النبويّة بنى تاريخها رسولُ الله ﷺ، وصحابتُه، وتابعوهم، أمَّا المدنُ الأخرى فقد بنى تاريخها ناسٌ من الناس.

أما نظرتي إلى تاريخ المدينة، ولا سيما تاريخ المدينة في القرن الأول، فتنطلق من كَوْنِ تاريخ المدينة في هذه الحقبة، هو تاريخ ولادة الأمَّة الإسلامية القويّة منهاجاً وسلوكاً، وأنه تاريخ الحضارة التي سادت وما بادت، ولن تبيد. في المدينة قامت أولُ دولةٍ إسلامية بناها وحيُ السماء وهو يتنزل منجمّاً. وفي المدينة نزلت آياتُ التشريع الذي لا تبلى جدته. وفي المدينة عاش النبيُّ ﷺ، وعاش الصحابةُ، كما يعيش الناس، ولكنهم تفوقوا بسلوكهم السامي، ليعطوا دليلاً على أنَّ هذا التشريع الإلهي صالح للتطبيق على الأرض، وليثبت الصحابة أن وَحْي السماء لم ينته العمل به، وأنه باقٍ بعد وفاة النبيّ ﷺ، المُوحىٰ إليه.

تاريخ المدينة، هو تاريخ الحضارة الإسلامية في أنقىٰ صورها وأسمى مراحلها. وهو تاريخ القدوة الصالحة، حيث شهدت المدينة الزمن الذي كان التشريع يوجّه الحياة: في الحرب، والسلم، والسياسة والاجتماع والاقتصاد

والتربية والتعليم. فهو تاريخ مجتمع فهم التشريع وعمل به والسعادة تملأ جوانحه. لم يُطبق هذا التشريع ـ في المدينة ـ عشرة، أو عشرون، أو مئة، وإنما طبقه عشرات الألوف من الرجال والنساء. وفي هذا دليل على يُسر هذا التشريع وسهولة العمل به، وليس هو مثلاً أعلى، لا يقدر عليه إلا الأنبياء والحواريون.

وهذا التاريخ، لا نقبل فيه إلا الروايات المسندة إلى رجال عُرف عنهم الصدق والأمانة في النقل، ولِنَقُلْ إنها طرائق أهل الحديث في النقل، أو ما هو قريب منها.

وربَّ سائل يسأل: هل نطبقُ قانون نقْد السند والمتن المعمول به في الحديث على النصوص التاريخيّة إذا لم تتصل بحكم شرعي؟ وهل نتشدد في قبول الخبر التاريخيّ إذا كان لا يُحلُّ حراماً، ولا يُحّرم حلالاً؟.

إنني لا أُجيب عن السؤالين بـ «نعم» أو «لا» ولكنني أُسجّل الملحوظات التالية:

* **الأولى**: كان التاريخ في بدايته ممتزجاً بالقصّة. والقصة معناها الموعظة، وكان القصاص يعظون الناس برواية التاريخ الواقعي والمخترع وعندما دوَّن المؤرخون التاريخ، لم يستطيعوا أن يخلصوه من مخترعات أهل القصة، لأن القصاصين وضعوا الأسانيد المخترعة لقصصهم، فنقل المؤرخون كلَّ ما وصلهم بأسانيده ولم يحكموا على رواياتهم، وقالوا: العهدة على الراوي. فلو أطلقنا العنان للتساهل في نقل كل خبر ورد في كُتُب التاريخ، واستنباط الأحكام منه، لَبَنَيْنا تاريخنا على أوهام وخُرافات. ولنأخذ مثالاً لذلك: فقد روتْ بعض المصادر أنَّ بلالاً رضي الله عنه كان يجعلُ الشين سيناً في الأذان، ويقول: «أسهد» بالسين المهملة، مكان «أشهد» بالشين المعجمة، وَرَوَوْا الأثر «سين بلالٍ عند الله تعالى شين».

ولو وقع أحد المؤرخين في العصر الحديث على هذا الخبر، لاستنبط منه شيئاً من تاريخ اللغة، والمجتمع، ولأوصلوا هجنة اللغة التي حدثت في القرن الثاني إلى العصر الجاهلي، ذلك أنَّ استبدال السين بالشين يذكرونه على ألْسنة العجم المتعرّبين. ولكن القول «إن بلالاً كان يُبْدل الشين في الأذان سيناً» لا أصْل له، ولم يَرْوه أحد بسندٍ صحيح. قال ابن كثير في «البداية والنهاية» وما يُرْوى أنَّ سين بلال عند الله شين فليس له أصلٌ، ولا يصحّ. وقال العجلوني في «كشف الخفاء» فقد ترجمه غير واحدٍ بأنّه كان نديّ الصوت حسنه، فصيح الكلام. وقال النبيّ ﷺ لصاحب رؤيا الأذان (عبد الله بن زيد) أَلْقِ عليه ـ أي على بلال ـ الآذان، فإنه أندى صوتاً منْك. ولو كانت فيه لثغة لتوفرت الدواعي على نقلها، ولعابَها أهلُ النفاق، المبالغون في التنقيص لأهل الإسلام.

وقال العلامة إبراهيم الناجي في مولده: «وأشهدُ بالله، لله، أنَّ سيدي بلالاً ما قال «أسهد» بالسين المهملة قطُّ، كما وقع لموفق الدين ابن قُدامة في مغنيه، وقلّده ابن أخيه الشيخ أبو عمر شمس الدين في شرح كتابه «المقنع». . وردَّ عليه الحفاظ ـ بل كان بلالٌ من أفصح الناس وأنداهم صوتاً».

* **الملحوظة الثانية**: إنَّ تاريخ الصدر الأول مختلطٌ بتاريخ الأدب والشعر. ذلك أنَّ تاريخ أهل القرن الأول، هو تاريخ أهل الفصاحة. . . وأهلُ الأدب يروون النصوص مقرونة بالتاريخ، ولذلك عجّت كتبُ الأدب بالأخبار التاريخيّة التي تأتي في مناسبة قول النصّ. وأهل الأدب قد يروون بلا إسناد، وإذا أسندوا، فإنني لا أراهم يشترطون في رجال أسانيدهم ما يشترط أهل الحديث، ولو فعلوا ما بقي من أخبارهم شيءٌ. فهم لا يريدون من رواياتهم استنباط الأحكام التاريخية، وإنما يريدون استنباط الأحكام الأدبية واللغوية والنحوية. وقد ذكرنا في الفصل الأول من الباب الثاني وفي الفصل الثاني، نماذج من الروايات التي نقلها الأدباء، ولم يصحَّ لها سندٌ تاريخي.

* **الملحوظة الثالثة**: روى مسلم في الصحيح عن أنس «أن النبـيّ ﷺ مرَّ بقوم يلقّحون، فقال: لو لم تفعلوا لصلح، قال: فخرج شيصاً، فمرَّ بهم فقال: ما لنخْلكم؟ قالوا: قلت: كذا وكذا، قال: أنتم أَعْلَمُ بأمر دنياكم».

وفي رواية أن رسول الله قال: «إنما أنا بشرٌ إذا أمرتكم بشيءٍ من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيءٍ من رأْيٍ فإنما أنا بشر». وفي رواية «فإني إنما ظننتُ ظنّاً فلا تؤاخذوني بالظنّ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً، فخُذُوا به فإني لن أكذب على الله عزّ وجلّ». [صحيح مسلم ــ باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي] من كتاب الفضائل. وحديث تأبير النخل رواه أحمد في المسند ٣/ ١٥٢.

قال النووي في شرح صحيح مسلم: «قال العلماءُ: قوله ﷺ «من رأْيٍ» أي: في أَمْر الدنيا ومعايشها، لا على التشريع، فأمّا ما قاله باجتهاده، ورآه شرعاً فيجبُ العمل به، وليس إبار النخلِ من هذا النوع، بل من النوع المذكور قبله. وقال العلماءُ: ولم يكن هذا القولُ خبراً وإنما كان ظنّاً، كما بينه في هذه الروايات. قالوا: ورأيه ﷺ في أمور المعايش، وظنه، كغيره، فلا يمتنع وقوعُ مثل هذا ولا نقص في ذلك».

أقول: ومما يدلُّ على أنَّ ما أبداه رسولُ الله في قصة تلقيح النخل، كان بصفة الرأي الشخصي الإنساني، ولم يكن تشريعاً ــ أنَّ القصَّة كانت خاصة بقومٍ مخصوصين في مكان مخصوص، ولم تكن عامة في أهل المدينة، لأنَّ الحديث يقول «مرَّ بقومٍ» ولم ينتقل هذا الخبر إلى غيرهم، لأن الشيص (ثمر البلح الذي لم يلقح) ظهر في البستان عينه الذي أشار النبـي على أصحابه بأن لا يلقحوا.

ولو كان تشريعاً يُراد به العموم، لأعاد النبـيُّ ﷺ ذكْر القصة في مجمع من المسلمين، أو أرسل مَنْ يُخبر أهل النخيل بذلك.

وأنا لا أستبعدُ أن يكون قول رسول الله لهؤلاء بأن لا يلقحوا، هو نوع من الوحي لإظهار الصفة البشرية في رسول الله، أو لإظهار الجانب الإنساني فيه، وأنه بشرٌ من البشر أوحى الله إليه بالتشريع، وأن التشريع لم يأت ليعلم الناس كيف يصنعون معايشهم، وإنما جاء لينظم هذه المعايش عندما تتصل بشؤون المجتمع. فالمعايش لها شقّان: الأول: كيفيّة الصنعة، وقد ترك المشرِّعُ هذا الجانب للناس. والثاني: كيف يكون التعامل بين الناس في أمور المعايش. وقد نال هذا الجانب عناية كبيرة من التشريع. فالتشريع لم يدلنا على كيفيّة زراعة الأرض، وإنما دلنا على كيفية المزارعة التي يشترك فيها اثنان، ولم يدلنا على كيفية صنع القماش أو الحذاء ولكنه دلّنا على كيفية التبايع في الأسواق. ولم يدلنا على كيفية صنع الطعام، ولكنه دلنا على الحرام والحرام منه، ووجهنا إلى السُنَّة في الطعام. ولهذا، ليس كلُّ ما كان من أمر المعايش، كان من أفعال رسول الله البشرية وأقواله. وكيف نقول ذلك، ونحن نجد أكثر من نصف أبواب الفقه في المعاملات، وهل المعاملاتَ إلا من أمور المعايش؟ وقد جاء في القرآن كثير من الآيات التي تنظم شؤون المعاملات التي هي من معايش الناس: فقد جاء تحريم الربا في القرآن، وجاء الأمر بكتابة الدَّيْن في القرآن، وجاء توزيع الميراث في القرآن، وجاء في القرآن تقسيم الوقت بين العبادة، وكسب العيش ﴿فإذا فرغت فانصب﴾، ﴿فإذا قُضِيَت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله..﴾ وكما نظّم الشرعُ المعاملاتِ المالية والمعاشية، نظَّم أيضاً العلاقات الاجتماعية التي تخصُّ البشر، فذكر العهود والمواثيق، والإصلاح بين فئتين متخاصمتين من المؤمنين ودعا إلى التعاون بين المسلمين في أمور الدنيا، فأمر بالزكاة والصدقة، وأمر برعاية حق الجار.. ونظم العلائق الزوجية.. فهذه كلها من أمور الدنيا المعاشية ولم يتركها الإسلام هملاً دون تنظيم.

فلا يصحُّ أن تتخذ من قصّة تأبير النخل شاهداً لتقسيم السيرة النبويّة إلى قسم نبويّ (لا ينطق عن الهوى) وقسم دنيوي، يقع فيه ما يقع للناس من الصحة

والخطأ. وبناءً عليه، لا يصح تقسيم السيرة النبويّة إلى قسمٍ نتشدد في روايته، وقسم نتساهل في روايته.

أقول ذلك، لأن بعض المؤرخين المعاصرين توسّع في هذا التساهل، وأدخل قسماً من السيرة النبوية في الدراسات التاريخية التي لا تتطلب في الرواية درجة الصحة التي تقتضيها الأحكام الشرعية...

وقد اختار بعضهم مثالاً للدراسات التاريخيّة، الكتاب الذي رواه ابن إسحق، بدون إسناد، وقال: «إنَّه كتاب كتبه رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود». وجعلَ المؤلف المعاصر هذا الكتاب من الوثائق السياسيّة، وسماه «دستور المدينة» ولما أعيته الحيلة لإثبات سندٍ صحيح لهذا الكتاب، قال: «فإنها تصلح أساساً للدراسات التاريخيّة التي لا تتطلب درجة الصحّة التي تقتضيها الأحكام الشرعيّة».

وكيف تكون وثيقة سياسيّة نبويّة، وتكون بعيدة عن الأحكام الشرعيّة؟ وكأنَّ المؤلف يقول: إنَّ الإسلام لم ينظم العلائق السياسيّة بين المسلمين والكافرين.

وقد فصّلنا القول في قصة الكتاب النبويّ، في الفصل الثاني من الباب الأول.

* **الملحوظة الرابعة**: إنَّ تاريخ ما قبل الإسلام لا يصحُّ عندنا منه إلا ما جاء في القرآن الكريم، وما أخبر عنه رسول الله ﷺ في الأحاديث الصحيحة. وقد قصَّ علينا القرآنُ من أخبار الأمم الماضية، ما فيه العبرة والعظة، فجاء البيان موجزاً ومعجزاً، وترك التفصيل. ولو علم الله فيه خيراً لنا لفصّله.

ثم جاء المؤرخون فذكروا ما سكت عنه القرآن، وتوسّعوا في ذلك وأطالوا فكان مصدرهم الوحيد لهذا التطويل، الكتب الإسرائيليّة، أو ما سماه اليهود «التوراة» وما هو من التوراة الموسويّة في شيء. فقد روى البخاريُّ أنَّ

عبد الله بن عباس قال: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ، أحدثُ الأخبار بالله، محضاً لم يُشبْ. وقد حدّثكم اللَّهُ أنَّ أهل الكتاب قد بدّلوا من كتاب الله وغيّروا فكتبوا بأيديهم، قالوا: هو من عند الله ليشتروا بذاك ثمناً قليلاً. أو لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله ما رأينا رجلاً مِنْهم يسألكم عن الذي أُنزل عليكم» [البخاري ك ٩٧ باب ٤٢].

ومع هذا فقد نقل المؤرخون القدماء، وتبعهم المعاصرون، أنَّ لليهود أوليات وأسبقيات في تاريخ المدينة، وغيرها من ديار الإسلام، وليس لهم مصدر إلا الإسرائيليات. وهذه الأوليات التي رواها القدماءُ، يظهر أنها لم تكن فيما يتعلق بالعقيدة، وليس فيها إحلالُ حرام، أو تحريمُ حلال.. ولم تكن لهذه الأخبار تأثيرات في مجريات الأحداث يوم نقلها المؤرخون القدماءُ في كتبهم، حيث كانت الدولة الإسلامية قويّة مهابة الجانب... ثم تحول أمرُ الأمة من قوةٍ إلى ضعفٍ، وتكالبت عليها الأمم، وانتهز اليهود هذه الفرصة، وزعموا أن لهم حقاً موروثاً في ديار الإسلام، ونشروا توراتهم المحرفة بين الناس، ولقيت رواجاً عند الأعداء وصدّقها الأهلُ والجيران لإلباسها ثوب التاريخ، حتى صار مؤرخو العرب في العصر الحديث، يعدّونها مصدراً لا يُكذّب، ونقلوا منها في مؤلفاتهم ودوائر معارفهم.. وإذا قلتَ لهم: قال الله في القرآن، وقال رسوله ﷺ في الحديث، اتهموك بالبُعد عن المنهجيّة ووصفوك بالجهل والتعصب.

وقد زعزعت هذه الأخبارُ الإسرائيلية عقيدة العرب وإيمانهم بحقّهم في أرضهم وألّبت علينا الأعداء والأصدقاء، لأنها تُظهر العرب أنهم معتدون مغتصبون، وتظهر اليهود بمظهر المقهورين المظلومين، في وقت سادت فيه شريعة (حقوق الإنسان) التي وضعها يهود الأمم المتحدة، وتحكّمت مطامع الدول الكبرى في تسيير أمم الأرض. في هذا الوقت تفتحت عيونُ المتعلم العربي على أخبارٍ في كتب التاريخ العربي، وجدها موافقةً لما يروّجه الأعداءُ،

فضعفت عزيمتُه وتثاقلت أقدامه عن الجهاد لردّ كيد الأعداء. . وقد كان هذا في تاريخ القدس وفلسطين. . وفي تاريخ كل إقليم من الإسرائيليات، ما قد يكون له من الأثر ما كان في تاريخ فلسطين في مرحلة قادمة، ولكن أهل الأقاليم الأخرى نيامٌ، أو مخدّرون، أو مضللون. وما زالوا ينقلون في الكتب التي تؤرخ لأقاليمهم: أخبار ما كان لليهود في أقاليمهم من وطن مزعوم. ومن هذا القبيل: ما يرويه المؤرخون في تاريخ المدينة النبوية قبل الإسلام. . . وقد نبهنا على ذلك في الفصل الأول من الباب الأول. ولما ذكرتُ من الملحوظات، ولاعتبارات عُمرانية، فإنني لا أرى شيئاً من التاريخ يُتساهل في روايته، لأنَّ كلَّ خبر له مدلول حضاري في حقول الزراعة والاقتصاد والعمران، وهذه كلها تمثل مراحل نموّ الأمّة، نعرف منها تليدنا، وطارفنا وما كان من العوايد، وما طرأ. . الخ.

وقد قالوا في علم الحديث: «إنَّ هذا العلمَ دينٌ، فانظروا عمّن تأخذون دينكم».

ونقول في وصف التاريخ: إنَّ هذا التاريخ، هو كيانُ الأمّة، وهو الواقع الاجتماعي لدين الأمّة وتُراثها، وهو مصدر الاعتزاز والفخار الدافعَيْن إلى حماية الثغور فانظروا عمّنْ تأخذون تاريخكم.

وبسبب هذه النظرة إلى التاريخ الإسلامي بعامّة، وتاريخ صدر الإسلام بخاصة ولخصوصية تاريخ المدينة النبويّة في القرون المفضّلة، فإنني اعتمدتُ على الروايات المأخوذة من كتب الحديث النبويّ، وعلى الروايات المسندة.

فإن جاءَ الخبرُ في كتب الأحاديث التي تعتمد الروايات الصحيحة والحسنة، فقد كُفينا مؤونة دراسة السند والمتن، لأنَّ الأمّة رضيت بما رووا في شؤون العبادات والمعاملات.

وإن كانت الرواية مسندة، ولكنها ترد في كتب التاريخ والتراجم، التي

تجمع بين الصحيح والسقيم من الروايات، توقفنا عند هذه الروايات، لنقول لراويها: من أين لك هذا؟! وعرضنا الرواية على قوانين نقد السند والمتن.

وموقفنا من متون الأخبار: أنَّ المتن إذا كان صحيح السند، أو حسن السند، آمنا به، واعتمدناه شاهداً لا يُعارض، ولو خالف ما يراه العقل والمنطق، لأن النصوص الصحيحة لا يحكمها العقلُ والمنطق، وإنما يحكمها النقل الصحيح. فليس كل نصّ صحيح يستطيع العقلُ أنْ يدرك الحكمة فيه، فقد تظهر لنا بعض الحكمة فيه، وقد يختفي عنا الكثير منها، ليأتي أقوام آخرون من أجيال تالية، ليكتشفوا بعض ما فيها، فما يرفضه عقلي قد يقبله آخرون.

أما إذا كانت المتون ضعيفة الأسانيد، فإننا نبيح لأنفسنا نقْد المتن، فنردّه أو نأخذ به.

ومع ذلك فإننا قد نستفيد من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة في تأريخ وجود مظاهر معينة في المجتمع، دون أن نعتمد صحة وقوع الحدث من رسول الله ﷺ، أو الصحابة. ذلك وإن واضعي الحديث كانوا قريبي العهد من الزمن الذي وضعوا له الحديث، وعندهم ذكاء ومعرفة بالواقع الاجتماعي، فيحاولون أن تكون أحاديثهم مطابقة لحال المجتمع ليمكن تصديقها: من ذلك مثلاً أنهم وضعوا أحاديث في فضائل بعض الأطعمة: كالعدس، والبطّيخ والعنب، والرمان. والذي لا يثبتُ في هذه الأحاديث أن رسول الله ذكر فضلها، ولكن وجود هذه المطاعم ثابت في العصر النبويّ من غير وجه.

هذا وقد جعلتُ هذا الكتاب بابين، وقسّمت كلَّ باب إلى فصول، وجعلتُ الباب الأول لتأريخ المدينة في العصر النبويّ، والباب الثاني لتأريخ أحداث المدينة في العصر الراشدي. ولا يعني هذا التقسيم أنَّ هناك فواصل زمنية، يقف عندها موضوع الفصل، ولكن امتداد التأريخ، والأثر قد يتصل، ما عدا الأحداث الحربية والسياسية فإنها مرهونة بزمن حدوثها. فإذا تحدثنا عن الغزوات النبويّة،

فإن زمنها يتوقف عند وفاة النبيّ ﷺ. أما إذا تحدثنا عن العلوم، والعوايد في العهد النبويّ، فإنها تتصل بالعهد الراشدي، لاستمرار النهج المحمدي، ولتقارب الأزمنة.

وأنا لا أزعم أنني استغرقتُ كلَّ ما يمكنُ أن يُقال في العصر الذي أرّختُ له، فهذا موضوع غنيّ قد يتوارد عليه عشرات المؤلفين، ويأتي كلُّ واحدٍ منهم بجديد، ولكنني أرى أنني أتيت بجديد في هذا الكتاب.

ومن جديد هذا الكتاب: أنني بدأت الباب الأول بفصل عن المدينة في العصر الجاهلي، وربطته بتاريخ المدينة في العصر الإسلامي، ولم أجعله مقدمة مبتوتة الصلة، ومن مبررات هذا الدمج أن كثيراً من مظاهر الحياة في فجر الإسلام هي امتداد للحياة في العصر الجاهلي: في الزراعة والمطاعم، والعادات الاجتماعية، وكون الناس في صدر الإسلام هم الناس في العصر الجاهلي، ولم يفصل بين الحياتين إلا العقيدة الإسلامية.

ومن الجديد: الربط بين المغازي النبويّة وتاريخ المدينة وجغرافيتها، وكانت الكتب قبل ذلك تعدها منفصلة، فتخصها بالتأليف.

وفي باب الحياة العلمية: أثبتُّ وجود أصول التربية والتعليم، منذ العهد النبويّ وناقشت كثيراً من الآراء المتداولة سابقاً وأثبتُ بطلانها بالأدلة القطعية وبخاصة في موضوع الكتابة، وتدوين العلم.

وفي مجال الشعر، حققّت بعض النصوص والأخبار، ونفيت صلتها بالحياة النبوية وبالصحابة، وكانت تعدُّ من المسلمات الأدبية.

وفي مجال المجتمع: أعماله وعاداته، كتبت فصلين: الأول: في الحرف والأعمال، والثاني: في الحياة الاجتماعية: الأطعمة، والألعاب، والزواج.. إلخ.

وفي باب الخلفاء الراشدين: قدّمتُ نماذج نقدية لبعض النصوص التي

كانت شائعة ويظنّ كثير من الناس صحتها، ويعتمدونها أساساً للحكم على المجتمع. وسوف يرى القارىء أنها بعيدة عن روح العصر.

بالجملة، فإنَّ كتاب «المدينة فجر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين» يقدّم لقارىء التاريخ صورة حضارية لما كان عليه الحال في المدينة النبويّة، ويقدم المدينة بصفتها عاصمة دولة ناجحة تضمُّ كلّ مقوّمات العاصمة الأبديّة للدولة الإسلاميّة.

فإن كنتُ قد وُفقتُ، فذلك بفضل الله تعالى وتوفيقه، وببركة الجوار الشريف، وحبّ لا يبيدُ، بل ينمو ويزيد، لثلاث مدنٍ شهدت آثار النبيّ الكريم: مكة، والمدينة والقدس الشريف.

ورجائي أن يكتب الله لي حُسْنَ الختام.

محمد محمد حسن شُرّاب
المدينة النبويّة ــ حيّ النَّصْر
بجوار ثنيّة الوداع



البَابُ الأوَّل

المَدِينَة في العَهْدِ النَّبَوِيِّ



الفَصْل الأَوَّل

يَثْرِبُ فِي العَصْرِ الجَاهِلِيِّ



ـ ١ ـ

الاســـم

للمدينة النبويّة في الوثائق التاريخيّة اسمان: الأَول، نعثر عليه في الآثار الجاهلية، وفي الكتب التي ذكرت العصر الجاهلي وهو «يثرب». والآخر «المدينة» ولا يُذكر في المصادر الإسلامية غيرُه[1].

(أ) أما «يثرب» فقد اختلفوا في سبب وضعه على المكان: فقال قوم: سميت المدينة «يثرب» باسم الذي نزلها من العماليق، وهو «يثرب» بن عبيل، وبنو عُبيل، هم الذين سكنوا «الجُحْفة»[2] فأجحفت بهم السيول، فسميت الجحفة.

ويرى آخرون أنه عَلَمٌ وُضع على هذا المكان، لدلالته على معنى فيه: فقالوا: قد تكون من التثريب، وهو التوبيخ والملامة. وفي الحديث «إنْ زنت أمةُ

---

(١) أي: إن اسم «المدينة» هو المستخدم في التدوين والتأليف، في التاريخ والجغرافية والحديث والفقه والتفسير... الخ ويذكرون للمدينة مئة اسم، ولكنها صفات مشتقة من معاني المحبة التي يكنها المسلمون للمدينة، ولا تستخدم عند التعريف بالمدينة والمدنيين، فهم يقولون فلان مدني ولا يقولون (طابي) ويقولون فلان من أهل المدينة، ولا يقولون من أهل طيبة.. وسيأتي مزيد شرح لهذه المسألة.

(٢) الجُحْفة: موضع بين مكة والمدينة، يقع شرق مدينة رابغ مع ميل إلى الجنوب على مسافة اثنين وعشرين كيلاً، وهو ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة.

أحدكم فليضربها الحدَّ، ولا يثربْ»[1]. قال الأزهري: معناه ولا يبكتها ولا يقرعها بعد الضرب.

قال ابن منظور: والثاربُ: الموبخُ. يُقالُ: ثَرَبَ، وثرَّبَ، وأثْرَبَ إذا وبّخ، قال الشاعر:

إنـي لأكـرهُ مـا كـرهـتَ مـن الـذي ... يُـؤذيـك سـوءُ ثنـائـه لـم يَثْـرِب

فـ «يثرب» مضارع ثَرَب. ومن شواهد «ثرّبَ» أو «أثرب» قول الشاعر:

ألا لا يَغُـــرَّنَّ امـــرءاً مـــن تِـــلاده ... ســـوامُ أَخ دانـــي الـــوسيطـــة مُثْـرِبِ

ومعنى «مُثرب» قليل العطاء، وهو الذي يمنُ بما أعطى.

ومن معاني التثريب: الإفسادُ والتخليط.

وكلا الرأيين في وضْع الاسم مقبول، وليس ممتنعاً.

فإن كان اسم «يثرب» مأخوذاً من «يثرب» بن عُبيل العمليقي، فإنه مقبولٌ، لأن العرب قد يطلقون اسم الإنسان أو القبيلة على المكان، والأصل فيه مجمع القبيلة، ثم أطلق على مكانها.

وإن كان اسم «يثرب» وضع علماً على المكان لمعنى فيه، فإنه يوافق الواقع الجغرافي، أو يوافق العادة العربية في وضع الأسماء، ويجتمع مع كونه اسم إنسان في صحة التعليل.

فالاسم «يثرب» فعل مضارع، من «ثَربَ» بمعنى وبّخ، أو لام، أو فسد. فإن كان أصله اسم إنسان، فالعرب قد تسمّي أبناءها، بالأسماء المستبشعة، على

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٢٤٩ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إذا زَنَتْ أمة أحدكم فتبين زناها فليحدها الحدَّ ولا يثرب» قال سفيان: لا يثرب عليها أي: لا يعيرها عليها في الثالثة أو الرابعة، فليبعها ولو بضفير. الحبل. ورواه أحمد ٦/ ٦٥، عن عائشة أن رسول الله قال: «إذا زنت الأمة فاجلدوها وإن زنت فاجلدوها وإن زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضفير، والضفير: الحبل».

مذهب مَنْ قال: إنَّ العرب تسمي أبناءَها لأعدائها أي: ليكون مخيفاً لأعدائها، أو تفاؤلاً أن يكون ما في الاسم من معنى الفساد والأذى، واقعاً على الأعداء، عند اللقاء. وقد يكون السبب طرداً للعين والحسد عن الولد، على طريقة مَنْ قال: «قاتله الله ما أشجعه» وإن كان «اسم يثرب» وضع علماً على المكان ابتداءً، فيكون ذلك لعلتين: الأولى: ما ذكرناه في علة تسمية الولد، بالأسماء المستبشعة. فقالوا هذا المكان «يثرب» تفاؤلاً أن يكون فساداً لكل مَنْ نزله من الأعداء أو لِتهابَهُ الأعداء فلا تغزوه.

والعلة الثانية كامنة في المكان نفسه، لأنهم قالوا إن اسم يثرب لم يكن يشمل المدينة الحالية كلها، وإنما كان يُطلق على جزء من المدينة الحالية، واقع في الجزء الشمالي من المدينة، ابتداءً من شمال جبل سلع إلى منتهى زغابة، ومنطقة العيون. وهذا المكان منخفض، وعنده ملتقى سيول المدينة الثلاثة، ويجاوره إلى الشمال، بعد ملتقى السيول أرض كان يقال لها الغابة، لكثرة أشجارها ووجود الوحوش الضارية فيها. . ويحتمل أن يكون هذا المكان موبوءاً مخوفاً، يُثربُ مَنْ يسكنه، أو مَنْ يقترب منه، ويدل على ذلك، أن أكثر سكان المدينة في الجاهلية، قد ترفعوا عن هذا المكان، وسكنوا في عوالي المدينة، لأنها أنقىٰ هواءً.

وقد ذكرتْ المصادر الأجنبية أن اسم «يثرب» جاء في جغرافية بطليموس اليوناني، الذي عاش نحو ٦٠ ـ ١٦٨م، وذكرها أيضاً باسم «يثرب» أصطفيانوس البيزنطي في القرن الرابع الميلادي وهذا يدل على أن نشأة المدينة قديم، وما ذكره بطليمونس إلا لشهرته وذيوع صيته قبل بطليموس بمئات السنين. . ويفسّر هذا القدم ورود اسم يثرب في الكتابات «المعينيّة» ودولة «معين» دولة قديمة في اليمن ورثتها الدولة السبئية في القرن السابع قبل الميلاد، وكانوا يسيطرون على معظم طريق التجارة القديم بين الشام واليمن، وكانت لهم مستعمراتهم ومحطاتهم على طوله.

والأغلب أنَّ المعينيين، وبطليموس، لم يضعوا هذا الاسم «يثرب» على هذا المكان، وإنما وجدوه موضوعاً فسجلوه.

ووجود المادة اللغوية «ثرب» في معاجم اللغة العربية، واستخدام مشتقاته في اللغة القرشية، لغة القرآن، والحديث الشريف، دليل على قدم اللغة العربية القرشية، وسعة انتشارها في الجزيرة العربية وإذا وُجد اختلافٌ بين اللغة القرشية، ولغات العمالقة وأهل اليمن القدماء، فإن هذا الاختلاف ناتج عن التطور والتجديد في اللغة، فاللغة العربية لغة اشتقاق ووضْع مستمرين، والاشتقاق والوضع يكونان بسبب الحاجات المتجددة في المجتمع، ومن الطَّبعيّ أن توجد ألفاظ، وأعلام، وأسماء، في كل قرن، لا يعرفها القرن السابق، بل قد تُهجر بعض الألفاظ القديمة، ويحلّ محلها ألفاظ جديدة، أو يستغني عنها لعدم الحاجة إليها، لتغيّر طرق المعاش في كل قرن. وقد وُجدت في القرون الإسلامية المتوالية، حتى وقتنا الحاضر، ألفاظ وعبارات، وتراكيب، لو بُعثَ جاهليٌّ من قبره ما فهم مدلولاتها، لأنها لم تكن معروفة في زمانه. وهذا التطور اللغوي جعل الباحثين في القديم والحديث يقولون بوجود لغاتٍ سابقة على اللغة القرشية، وربّما وقتوا ظهور اللغة القرشية، بظهور أسواق العرب في الحجاز، وبخاصة سوق عكاظ.. وهذا ظنٌّ لا يقوم على دليل، والأقوى ما ذكرناه من وجود أطوار لغوية لا وجود لغات متباينة.

وأما قول «دائرة معارف القرن العشرين» أن كلمة يثرب محرفة عن الكلمة المصرية «أتريبي» وأن العمالقة بنوها بعد خروجهم من مصر.. فهو كلام باطل، لأن أول مَنْ نزل يثرب من بني عبيل أخوة عاد، وعاد قوم هود عليه السلام، وقوم هود من العرب، ونبيهم هود أول نبي أرسله الله بعد الطوفان، فهم أقدم حضارة ووجوداً من فراعنة مصر، وإذا صح انتقال العمالقة من الجزيرة العربية إلى مصر، فإن الاسم المصري «أتريبس» جاء بعد نشأة يثرب في الحجاز، وقد يكون العمالقة نقلوا هذا الاسم إلى مصر، لأن «أتريبس» قريب من لفظ «أثرب» لغة في «يثرب».

.. هذا، ولم تعرف «المدينة» في الجاهلية اسماً غير «يثرب» وهو الاسم الذي التزم به شعراء يثرب في الجاهلية، والشعر الجاهلي الذي وصلنا من شعر المخضرمين.

بقي في قصة اسم «يثرب» ما جاء في روايات قصة المثل المشهور «مواعيد عُرقوب» فعرقوبٌ هذا ضُرب المثل بخلفه الوعد، واختلفوا في أصله وموطنه، بناءً على البيت المفرد الذي روته المصادر لابن عُبيد الأَشجعي وهو قوله:

وَعَـدتَ وكـان الخُلْـفُ منـك سجيّـةً ... مـواعيـدَ عـرقـوبٍ أخـاه بيثـربِ

فروي البيت «يثرب» بالثاء المثلثة، و «يترب» بالتاء المثناة الفوقية، والراء المفتوحة.

وأنشد الأغاني للشماخ:

وواعـدنـي مـالاً أُحـاول نَفْعَـه ... مـواعيـد عـرقـوبٍ أخـاه بيتـرب

... فقال أكثر الرواة إنه «بالتاء» المثناة لا غير. ونقل ياقوت إن «يثرب» قرية باليمامة عند جبل وشم. وقيل: اسم موضع في بلاد بني سعد بالسودة. وأنشد لعبيد بن الأبرص:

فـي كـلِّ وادٍ بيـن يَثْربَ والقصـور إلـى اليمـامـة

عَـانٍ يُسـاقُ بـه وَصـوْتُ محـرَّق وزرقـاء هـامـة

وقال الحسن بن يعقوب الهمداني اليمني ـ صاحب كتاب الإكليل، وصفة جزيرة العرب ـ : «ويثْرب مدينة بحضرموت، نزلها كندة. ويقال إنَّ عرقوب صاحب المواعيد كان بها».

ونقل ابن هشام الأنصاري في شرح قصيدة كعب بن زهير، عند شرحه البيت:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً   وما مواعيدها إلا الأباطيل

.. وذكر بيت الأشجعي، وقال:

قال التبريزي: والناسُ يروون «يثرب» بالثاء المثلثة والراء المكسورة، وإنما هو بالمثناة، والراء المهملة المفتوحة: موضع بقرب مدينة الرسول ﷺ، قاله ابن الكلبي، وأبو عبيدة.

قال: وقد خولفا في ذلك. قال ابن دريد: اختلفوا في «عرقوب» فقيل: هو من الأوس، فيصح على هذا أن يكون بالمثلثة وبالمكسورة وقيل: من العماليق، فيكون بالمثناة وبالمفتوحة، لأن العماليق كانت منازلهم من اليمامة إلى «وبار» وَ «يَتْرَب» ــ بالمثناة ــ هناك. اهـ

أما كون العماليق، في اليمامة فقط، فهذا لا يصحُ، لأنهم كانوا في المدينة أيضاً. وأما قولهم: «يترب» بالتاء، موضع قرب المدينة، فلا يوجد بقرب المدينة هذا العلم..

وأنا أرى ــ إن صحت القصة، وقد تكون خرافة ــ أنَّ البيت بالثاء المثلثة وأن المقصود «يثرب» التي هي المدينة، والذي يرجح ذلك عندي أنَّ مواعيد عرقوب كانت في ثمر نخلة، ومع وجود النخيل في كثير من أرجاء الجزيرة العربية، إلا أن «يثرب» أكبر شهرة من غيرها في النخيل. ويرجح ذلك أيضاً ما نقله ياقوت عن الهمداني، أن عرقوب من قدماء يهود يثرب (بالثاء المثلثة) واليهود مشهورون بالبخل والإمساك، وخُلْفِ الوعد، ونقض العهد، والغدر ولكن هناك رواية في تفسير كلمة «عرقوب» نقلها ابن هشام الأنصاري، في شرح قصيدة «بانت سعاد» إن صحت فمن المحتمل أن تكون «يثرب» بالتاء المثناة، حيث قال: ومن الغريب قول بعضهم: إنَّ «عرقوباً» جبل مظلل بالسحاب وإنه لا يمطر أبداً، وإن الإضافة في «مواعيد عرقوب» إلى المفعول، كأنه وَعَد بالمطر ولم يمطر، أو إلى الفاعل على المجاز كأنه وعد الناظر إليه أن يمطر، ولم يوف

بذلك. فإن صحت هذه الرواية تكون «يترب» بالتاء المثناة هي المقصودة، لأنها محددة في إحدى الروايات بأنها في جنوب الجزيرة العربية، والجبال الملفعة بالغيوم في تلك الديار أكثر من وجودها في ضواحي المدينة والله أعلم.

* * *

(ب) أما «المدينة» فهو الاسم الإسلامي، الذي اختاره القرآن الكريم، ونصَّ عليه الحديث الشريف الصحيح. لما روى البخاري في صحيحه، قال رسول الله ﷺ: «أمِرْتُ بقريةٍ تأكل القرى، يقولون: يَثْرِبُ، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد».

وقوله عليه الصلاة والسلام يقولون: «يثرب» أي أن بعض المنافقين يسميها يثرب، واسمها الذي يليق بها المدينة. قال ابن حجر: وفهم بعض العلماء من هذا كراهة تسمية المدينة «يثرب» وقالوا: ما وقع في القرآن إنما حكاية عن قول غير المؤمنين. وروى الإمام أحمد من حديث البراء بن عازب، رفعه «مَنْ سمى المدينة يثرب، فليستغفر الله، هي طابة، هي طابة». وروى عمر بن شبة من حديث أبـي أيوب «أن رسول الله ﷺ، نهى أن يُقال للمدينة يثرب».

ولهذا قال عيسى بن دينار من المالكية: «مَنْ سمى المدينة يثرب، كتبت عليه خطيئة». وسبب هذه الكراهية، لأن يثرب إما من التثريب الذي هو التوبيخ والملامة، أو من الثرب وهو الفساد. وكلاهما مستقبح وكان النبـيّ ﷺ يحبُّ الاسم الحسن ويكره الاسم القبيح.

أما الأسماءُ الأخرى التي تُذكر للمدينة في العهد الإسلامي، فإنني أظنها صفات مشتقة من منزلتها في نفوس المسلمين، ومن دورها في الدعوة الإسلامية. وقد روى البخاري في صحيحه عن أبـي حميد قال: أقبلنا مع النبـيّ ﷺ من تبوك حتى أشرفنا على المدينة، فقال: «هذه طابة». وفي صحيح مسلم: «إن الله سمّى المدينة طابة».

قال ابن حجر: والطابُ والطيب، لغتان بمعنى، واشتقاقهما من الشيء الطيب، وقيل: لطهارة تربتها، وقيل: لطيبها لساكنيها، وقيل: من طيب العيش بها. وقال بعض أهل العلم: وفي طيب ترابها وهوائها دليل شاهد على صحة هذه التسمية، لأن مَنْ أقام بها يجد من تُربتها وحيطانها (بساتينها) رائحة طيبة لا تكاد توجد في غيرها. قال ابن حجر: وقرأت بخط أبي علي الصدفي في هامش نسخته من صحيح البخاري، قال الحافظ: «أمرُ المدينة في طيب ترابها وهوائها يجده مَنْ أقام بها، ويجد لطيبها أقوى رائحة، ويتضاعف طيبها فيها عن غيرها من البلاد، وكذلك العود وسائر أنواع الطيب».

هذا، ويذكرون للمدينة في الإسلام أسماء كثيرة، منها: طيبة والمطيبة والمسكينة، والدار، وجابرة، ومجبورة، ومنيرة، والمُحبَّبَة والمحبوبة، والقاصمة، ويزيد بعضهم حتى يوصل الأسماء إلى أربعين اسماً.

ولكن الاسم الوحيد المتداول هو «المدينة» بدون وصفها بالمنوّرة، ولن تجد اسم المدينة موصوفاً بالمنورة إلا في الكتب المتأخرة التي أُلفت في العهد التركي. ولفظ «المدينة» عربيٌّ لا شكَّ في ذلك، سواءٌ أكانت من الفعل «دان» أو من الفعل «مَدَن» قال ابن منظور: وإذا نسبت إلى المدينة فالرجل والثوب «مدنيّ» والطير ونحوه «مدينيّ» لا يقال غير ذلك. ويرى فيليب حتي أن لفظ المدينة، معرّب عن لفظ «مدينتا» الآرامي الذي معناه: دائرة الفضاء، وأن أصطفيان البزنطي أطلقه عليها في القرن الرابع الميلادي.

وفيليب حتي مستغربٌ كذّاب، يعتمد في أحكامه على الوهم أولاً، وعلى الصليبية ثانياً، بل الصليبية هي دافعه الأول، التي تجعله يتخيّل أحكاماً باطلة على الثقافتين العربية والإسلامية، وجلُّ همّه أن ينسب ما جاء في القرآن والحديث إلى مصدر آخر غير الوحي الإلهي، ويجرّد العربيّة من قدرتها على نقل الفكر الحضاري. وإذا وجدت الكلمة في الآرامية، لا يعني هذا أن العربية أخذتها من الآرامية، فقد تكون الكلمة موجودة في اللغتين لأن الآراميين

يجتمعون مع العرب في الأرومة العربية(١).

وقد تكون الكلمة موجودة في العربية ثم ماتت، ثم أحياها القرآن الكريم والحديث الشريف، لأن ابن منظور يقول: «مَدَنَ بالمكان: أقام به، فِعْلٌ ممات، ومنه المدينة». ثم إنَّ الآراميين ليسوا أقدم من العرب، ولا أكثر حضارة منهم، فاللغة العربية من أقدم لغات الأرض، إن لم تكن أقدم اللغات التي عُرفت على وجه الأرض. فقد نقل ابن منظور في لسان العرب، أن النبيّ ﷺ قال: «خمسة أنبياء من العرب، وهم: محمد وإسماعيل وشعيب وصالح وهود، صلوات الله عليهم» قال ابن منظور: «وهذا يدل على أن لسان العرب قديم. وهؤلاء الأنبياء كلهم كانوا يسكنون بلاد العرب».

• • •

(١) إنَّ أقدم لغةٍ ما زالت حيّة حتى اليوم، هي اللغة العربية. ومن الخطأ العلمي، الحديث عن لغاتٍ ساميّة، هذا المصطلح التوراتي الذي لا يستقيم مع العلم، ومع فروع اللغات القديمة فقد ورد في التوراة أن نوحاً عليه السلام ترك ثلاثة أولاد، سام، وحام، ويافث، وأن لكل منهم لغة خاصة، وأن اللغة الساميّة تحدد مجموعة من اللغات، يتحدث عنها واضع التوراة ولكنه يضيف إليها اللغة «الحورية» ويرفض اللغة الكنعانية، مع أن الحورية لا تنتسب إلى هذه الأرومة اللغوية. أما اللغة الكنعانيّة فهي أهم وأفصح لهجة قديمة، وهي أساس في مجموعة اللغات التي انتشرت في هذه المنطقة. وإن تسمية هذه اللغة بالعربية هي تسمية علمية، وليستْ أسطورية، كالتسمية التوراتيّة. فكلمة «أعراب» تعني الأقوام التي تعيش في البوادي، ولقد تحضر بعضهم فأصبحوا (عرباً) وهي تسمية أكادية، اشورية، ولا خطأ في اطلاق اسم العرب على هذه الشعوب التي تتكلم لغة واحدة مؤلفة من عدة لهجات، كان آخرها اللهجة الآراميّة التي تكلم بها الإنسان في هذه المنطقة من الجزيرة العليا إلى سيناء، ثم تطورت إلى لهجات الجزيرة العربية، وكانت لهجة قريش قد اختيرت لتكون لغة القرآن. وبمقارنة اللهجات القديمة «العمورية» و«الإيبلائية» و«الكنعانية» مع اللهجة العربية، نجد الأواصر قويّة بين هذه اللهجات. ولذلك فإن كثيراً من العلماء أصبحوا يطلقون عليها اسم اللهجات العربية، بدلاً من اللهجات الساميّة.

ـ ٢ ـ

موقع المدينة الاقتصادي

(أ) لن أتحدث عن موقع المدينة الاقتصادي، بلغة أهل الجغرافية والجيولوجية، لأنني لا أملك دراسة علمية دقيقة في هذا الموضوع. وأكاد أجزم أن الآخرين لا يملكون هذه الدراسة أيضاً. فأنا لا أثق بالدراسات الجيولوجية والجغرافية التي لا يقوم بها أهل الأرض الحريصون على معرفة كنوز أرضهم، ذلك أنَّ الدراسات الجيولوجية والجغرافية التي يعتمد عليها الباحثون الذين يدعون الصفة العلمية، دراسات قديمة بالية، أو دراسات أخفت الحقيقة وأشاعت الأكاذيب، لأن الذين قاموا بها لا يحبون الخير لديار الإسلام. ويعجبني جداً كلامٌ كتبه شكيب أرسلان في كتابه «الارتسامات اللطاف» وهو يتحدث عن السكة الحديدية التي كانت تربط الشام بالحجاز، قبيل الحرب العالمية الأولى، فقال: «وقد كان بلغ سكان المدينة قبل الحرب العامة الأولى نحو خمسين ألف نسمة وصار المتر المربع من الأرض الفضاء في وسط البلدة يباع بعشرة جنيهات، وفي الضواحي بجنيه واحد، وكانت الناس مقبلة على الشراء من كل جانب، فلما انقطعت السكة الحديدية الحجازية الواصلة بين المدينة والشام، بسبب استئثار دولتي فرنسة وانكلترة اللتين وضعتا أيديهما على قطْع هذا الخط الذي يمرّ في سورية وفلسطين والبلقاء، وجهلتا بل هضمتا حقوق المسلمين الخاصة فيه، تقلص عمران المدينة المنورة ونزل عدد سكانها من الخمسين ألفاً إلى خمسة عشر ألفاً كما أن جميع القرى التي كانت على جوانب الخط مثل معان وتبوك

ومدائن صالح والعلا، وغيرها قد تراجعت إلى الوراء، بعد أن كانت السكة قد بدأت تعيد إليها غابر عمارتها. ولعلّ التخوف من عمران الحجاز كان من جملة الأسباب التي وحدت دولتي انكلترة وفرنسة على المعارضة في تسليم السكة الحديدية للمسلمين. فإن هاتين الدولتين اللتين تسلطا على نحو (١٥٠) مليون مسلم تكرهان أن يكون لهم ملجأ تهوي إليه أفئدتهم ويكون معموراً وتتوافر فيه أسباب الراحة، وينتهي الأمر بازدحام السكان فيه. يقول شكيب أرسلان «ولا سيما الحجاز، ولا سيما الحجاز، ولا سيما الحجاز» كررها ثلاثاً.

أقول: إذا كان الأعداء قد تنغصوا من وجود خط السكة الحديدية الواصل إلى المدينة الحجازية، فإنهم أكثر تنغّصاً إذا وجدوا أهل الحجاز المقدس يستثمرون خيرات أرضهم، ويستغنون بخيراتها عن غيرهم، فيزدحم المسلمون في جوار الحرمين ينهلون من أرض الوحي.

ولذلك يقول شكيب أرسلان واصفاً قدرة المدينة وحدها على استيعاب السكان: «ولما كنتُ في المدينة المنورة قبل الحرب العامة، وتجولت في عواليها والبقاع التي تليها، وشاهدت زكاء تلك الأرضات وسمعتُ خرير هاتيك المياه قدرت أن البلدة الطيبة وحدها، إذا كانت سكة الحجاز الحديدية متصلة بها، وبقيت المهاجرة إليها من الآفاق، قد تحمل نصف مليون نسمة، ولا يتكاءَدها أمر معيشتهم». وهو يريد: أن أرض المدينة فيها من الخيرات ما يكفي لإعاشة هذا العدد من الناس.

وقد شاعت أفكار عن أرض الحجاز بعامة، تقول: إن الحجاز مجدبٌ كثير الحجار والحرار، قليل الرياض والغياض. وهذا كله من الكلام المرسل بدون تحقيق، يقوله مَنْ لا يعرف الحجاز، ولا يعرف شيئاً عن أرض الحجاز.

ولم يسلم من هذا الجهل كبار الشعراء والأدباء في زماننا، ولذلك نجد أحمد شوقي أمير الشعراء، يجعل الحجاز مثلاً للوطن المجدب الذي سكنه أهله راضين صابرين، لأنه مسقط الرأس فقط، على حدّ قول الشاعر:

وكنّــا ألفنــاهــا ولــم تَــكُ مــألفــاً   وقد يؤلفُ الشيءُ الذي ليس بالحسنْ
كما تُؤلف الأرض التي لم يطب لها   هـــواءٌ ولا مـــاءٌ ولكنهـــا وطـــنْ

.. وتحت عنوان «الوطن» كتب أحمد شوقي أنشودة رمزية للأطفال تقول:

عصفــورتــان فــي الحجــا   زحلّتــــا علــــى فَنَـــنْ
فــي خــامــل مــن الــريــاض   لا نـــــدٍ ولا حَسَـــــنْ
بينــــا همــــا تنتجيــــا   ن سَحَـــراً علـــى الغُصُـــنْ
مـــرّ علـــى أيكهمـــا   ريـــحٌ ســرى مـــن اليمـــن
حيّـــا وقـــال درّتـــا   ن فـــي وعـــاءٍ مُمتهـــنْ
لقــد رأيــتُ حــول صنعــا   ءَ وفـــي ظـــلّ عـــدن
خمـــائـــلاً كـــأنهـــا   بقيـــةٌ مـــن ذِي يَـــزَنْ
الحـــبُّ فيهـــا سكَّـــرٌ   والمـــاءُ شهْـــدٌ ولبـــنْ
لـــم يــرهــا الطيــر ولــم   يسمـــع بهـــا إلا افتتـــنْ
هيّـــا اركبـــانـــي نـــأتِهـــا   فـــي ســاعــة مــن الــزمــن
قـــالـــت لـــه إحـــداهمـــا   والطيـــرُ منهـــنَّ الفَطِـــنْ
يــا ريــحُ أنــت ابــن السبيــل   مـــا عـــرفـــتَ مـــا السَكَـــنْ
هَـــبْ جنـــة الخلـــد اليمـــن   لا شـــيء يعـــدل الـــوطـــنْ

... فالشاعر يخاطب الأطفال، ويدعوهم إلى حُبّ الوطن، وهذا شيء جميل. ولكنه أسس في نفوس الأطفال مقولة كاذبة، تقول إنَّ أرض الحجاز قاحلة، وأساء أيضاً عندما فضّل وطن الدنيا على جنّة الخُلد وقد جاءَت هذه الأفكار إلى الناس من مصادر متعددة:

منها: أقوال الحجيج، وهم ينتقلون من مكة إلى المدينة، أو من المدينة إلى مكة فلا يمرّون إلا على قفار وحرار وجبال.. ثم يرتحلون إلى بلادهم فيحدثون الناس بما رأوا... وقد تأسست هذه الأفكار في قرون الخوف

والتخلف الذي أطبق على البلاد إبان العصر التركي، وزادها رسوخاً أن الناس لم يكونوا يرون في أسواق مكة والمدينة من الخضر والفواكه ما يجدونه في بلادهم، وورث الناسُ هذه الأفكار حتى أيامنا، فتجد الحجاج قد أتوا إلى أداء مناسكهم وهم يحملون كلَّ ما يكفيهم من الطعام في رحلة الحج.

وعملتْ الحكومات الإسلامية في عهود التخلّف على ترسيخ هذه الفكرة حيث كان كل حاكم أو أمير يرسل إلى أهل الحرمين في كل عام صرّة الحج وتوزع على الناس في الموسم، فيرى الحجاج القادمون من البلاد الإسلامية بأعينهم تهافت الناس على العطاء، ويشيعونه في بلادهم. والحقُّ أن هذه الصُّرر والصدقات أدت إلى قتل الهمم، وإماتة العزائم كما أدت إلى وجود طبقة من الكسالى الذين يرضون بالقليل، ينتظرونه كلّ عام فكان هؤلاء الكسالى، يبدون ويعيدون أمام حجاج البيت الحرام وزوار الروضة النبويّة، عن فقر الحجاز، تعمداً منهم ليستزيدوا برّ الحجاج بهم ويستدروا عواطف العالم الإسلامي عليهم.

وتقرأ في بعض المصادر التاريخيّة أن السلطان الفلاني كان كريماً وأنه كان يخصّ أهل المدينة بالصدقات، ويوزع عليهم الهدايا والأموال وأن السلطان الفلاني اهتم بأمر المدينة، فبنى حولها سوراً. . . والرأي عندي، أن هذا السلطان ليس بكريم، ولا يعدُّ بناءُ السور مأثرة من مآثره؛ لأنه كان من واجب السلطان أن يبحث عن سبب العوز والفقر في المدينة، فيزيله، وأن يفكر في سبب انعدام الأمن، وحاجة المدينة إلى السور. إن بناءَ السور يزيد الناس خوفاً، ويزيدهم فقراً وعوزاً لأنهم يبقون قابعين بين الأسوار فلا يسافرون، ولا يتاجرون، ولا يزرعون. . كان واجب هذا السلطان أن يعرف أسباب اعتداء أهل البادية على أهل المدينة، ويزيل هذه الأسباب، فسبيل الإصلاح أن يساعد أهل البادية على استنباط الماء وزرع الأرض ليكفل لهم لقمة العيش وليوفر لماشيتهم أسباب الحياة. ولو فعل ذلك ما احتاج إلى بناء سورٍ زاد أهل المدينة خوفاً وكسلاً، وزاد أهل البادية فقراً وشراسة. . .

لقد عاشت المدينة قروناً طوالاً في الجاهلية وصدر الإسلام، ولم تعرف الأسوار وكان الناسُ في خير وفير وأمن عميم. وكان عدد سكان المدينة يفوق عددهم في القرون التي قبعت فيها المدينة خلف الأسوار، وربما كان لها من الاتساع أكثر مما نجده في هذا القرن الذي نعيشه..

الحقُّ: أن سلاطين المسلمين بعد القرن الأول ساعدوا على إفقار أهل الحجاز بسياستهم العوجاء، مع كثرة الأموال التي كانت تصب في خزائنهم.. وكان همهم الوحيد أن تقع تحت سلطتهم، لينالوا رضا المسلمين عنهم، لأن الاستيلاء على الحرمين استيلاء على قلوب المسلمين، ليقال إنهم من حُراس الأماكن المقدسة. وقد بنى السلاطين المماليك والأتراك في عواصمهم المساجد والآثار التي لا تبلى مع الدهر، وأنفقوا عليها الأموال الطائلة، وما تركوه من آثارهم في المسجدين المقدسين، والحرمين الشريفين لم يصمد أمام تقلبات المناخ والزمان.. وذهب مع الريح.

* * *

(ب) ونحن عندما ندرس الموقع الاقتصادي للمدينة (يثرب) لا ندرسها على أنها واحة في قفر، وإنما ندرسها مقرونة بما حولها من البقاع التي يمكن أن يتمّ تبادل المنافع معها لقربها منها، أو لوجود المسالك إليها.

والواقع الاقتصادي الذي سجلة التاريخ، وأخبار النشاط الاقتصادي، في يثرب الجاهلية، والمدينة الإسلامية، يدلُّ على وفرة أسباب العيش في المدينة، وذلك لما يلي:

أولاً: نأخذ من الدلالات الاقتصادية لكلمة «مال» أن المدينة كانت ذات أرض زراعية واسعة؛ حيث تتبدل دلالة الكلمة بتبدل البيئة التي تستخدمها.

فالمال عند أهل البادية، تعني: الإبل والشاء، وغيرها من المواشي، لما جاء في قصة زواج بنات ذي الإصبع العدواني، حيث سأل الكبرى: يا بنيَّةُ ما مالكم قالت: الإبل، قال: فكيف تجدينها، قالت: خيرُ مال.. ثم قال

للثانية: يا بنيةُ ما مالكم، قالت: البقر.. ثم قال للثالثة: ما مالكم، قالت: المِعْزى.. ثم قال للرابعة: ما مالكم؟ قالت: الضأن.

والمال عند أهل مكة أهل التجارة: يعني عروض التجارة، أو الذهب والفضة.

لما روي في السيرة: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام قبل وَقْعة بدر، ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها، فلعل الله أن ينفلكموها. ولم يكن في القافلة إلا عروض تجارتهم.

.. أما المال عند أهل يثرب، فكان يعني الأرض المزروعة، لما روى البخاري عن أبي هريرة قال: «إن الناس يقولون: أَكْثَرَ أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدّثتُ حديثاً. ثم يتلو ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات﴾ إلى قوله ﴿الرحيم﴾. إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْقُ[1] بالأسواق وإن إخواننا من الأنصار، كان يشغلهم العمل في أموالهم...». قال ابن حجر: قوله: في أموالهم: أي: القيام على مصالح زرعهم. وجاءت مفسّرة في رواية مسلم «كان يشغلهم عمل أرضيهم» ولابن سعد «كان يشغلهم القيام على أرضيهم» وقال أُحيحة بن الجُلاح، سيد الأوس في الجاهلية:

إني أقيم على الزوراء أعمرها ... إن الكريم على الإخوان ذو المال[2]

لها ثلاث بئار في جوانبها ... فكُلُّها عُقَبٌ تُسقىٰ بأقبالِ[3]

.. فقوله: ذو المال: أي: ذو النخل.

---

(1) الصَّفق: بإسكان الفاء، ضرب اليد اليد، وجرت به عادتهم عند عقد البيع. ولعله ضرب يد البائع، على يد الشاري، ولا زالت موجودة عند كل اتفاق بين طرفين ولكنها تكون بصورة المصافحة باليدين.

(2) الزوراء: حائط نخل كان للشاعر.

(3) العقب: جمع عقبة، وهي النوبة، أي: يخلف بعضها بعضاً في السقي.

ثانياً: يظهر من الأخبار، والنصوص الشعرية، أنَّ أرض المدينة كانت غنية بالمياه الجوفية، وتجري في أراضيها الجداول، وتتفجر منها العيون: فالمدينة تقع عند ملتقى ثلاثة أودية كبيرة: بُطْحان، والعقيق، وقناة يأتي إليها الماء من مسافات بعيدة، ويتسرب قدر كبير من مائها إلى باطن الأرض.. وقد رأينا ــ في أيامنا ــ أودية المدينة تسيل فيها المياه أياماً طويلة، وكأنها أنهار متدفقة.. ويبدو أن مواسم الأمطار كانت أكثر غزارة وتتابعاً في القرون القديمة وسنوات الجدب كانت معدودة ومتباعدة، ولذلك فإن الآبار والعيون تبقى غزيرة المياه...

ومن الأمثلة الدالة على ذلك: أبيات لحسان بن ثابت، من قصيدة طويلة يفخر فيها حيث يقول، وهي قصيدة إسلامية:

لنا حرَّة مأطورةٌ بجبالها	بنى المجدُ فيها بيتَهُ فتأهّلا[١]
بها النخلُ والآطام تجري خلالها	جداولُ قد تعلو رقاقاً وجرولا[٢]
إذا جدول منها تَصرَّم ماؤه	وصلنا إليه بالنواضح جَدْولا[٣]
على كلِّ مِفْهاقٍ خسيفٍ غُروبُها	تُفَرَّغ في حوضٍ من الصخر أنجلا[٤]
له غُلَلٌ في ظلِّ كلِّ حديقة	يُعارضُ يعبوباً من الماءِ سلسلا[٥]
إذا جئتها ألقيتَ في حجراتها	عناجيج قُبّاً والسَّوامَ المؤبّلا[٦]

(١) مأطورة: محاطة. تأهل: اتخذ أهلاً.
(٢) الآطام: الواحد أُطُم وهو الحصن. الرقاق: الأرض الصلبة المستوية. والجرول: الموضع في الجبل الكثير الحجارة.
(٣) النواضح: الواحد ناضح، وهو البعير يُستقىٰ عليها الماء من البئر.
(٤) المفهاق: البئر الكثيرة الماء. الخسيف: البئر التي تحفر في الحجارة فلا ينقطع ماؤها. والغُرُوب: واحدها: الغرْب، وهو الدلو. الأنجل: الواسع.
(٥) الغُلَل: الماءُ الذي يجري بين الشجر. اليعبوب: النهر. السلسل: الماضي في جريه.
(٦) حَجَراتها: نواحيها. العناجيج: الواحد، عنجوج، وهو الفرس الجواد. القُب: الضامرة البطون، الواحد: أقب. السوام: الإبل الراعية. المؤبّل: المقتنىٰ.

وجاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، قالت: فكان وادي بُطْحان يجري نَجْلاً». [الفتح ٤/٩٩]. والوباء الذي كان يكون في المدينة، يقصد به الحُمّى التي تحدثها الملاريا، أو بعوضة المستنقعات، والمستنقعات إنما تكون من كثرة المياه، بل من زيادة الماء في الوادي، وفيضانه على الجانبين، مما يجعل المياه راكدة.. أما الوادي نفسه، فلا تكاد تستقرُّ المياه فيه، لأنها تذهب منحدرة إلى مصبّها. وأما قولها: فكان بطحان يجري نَجْلاً، فهو تعليل كثرة المستنقعات، لأن «نجلاً» يعني واسعاً غزيراً يفيض على الجانبين، وليس كما فسرها الراوي «آجناً» لأن الماء الجاري لا يكون آجناً، أي: متغيراً، وإنما يصبح الماءُ آجناً إذا ركد.

ثالثاً: ومما يدلُّ على خصوبة تربة المدينة، واتساع رقعتها الصالحة للزراعة، أنها كانت زائدة على حاجة الأوس والخزرج، ووجد فيها المهاجرون أراضي كثيرة يزرعونها ونقلت إلينا كتب التراجم، والأحاديث النبوية، أن كبار الصحابة قد اشتغلوا بإصلاح الأرض والزراعة، نذكر منهم الزبير بن العوام رضي الله عنه، حيث روى البخاري في صحيحه: أنّ رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبيّ ﷺ في شراج[1] الحرة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سرّح الماءَ يمرّ، فأبى عليه، فاختصما عند النبيّ ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ للزبير: «اسق يا زبيرُ، ثم أرسل الماءَ إلى جارك.. الحديث» [الفتح ٥/٤٢].

وروى البخاري أيضاً، أن الزبير كان قد اشترى «الغابة» بسبعين ومئة ألف فباعها عبد الله بن الزبير، بألف ألف وستمائة ألف. والغابة أرض واسعة في طرف المدينة الشامي، مشهورة بكثرة أشجارها، حيث تقع بعد ملتقى أودية المدينة الثلاثة: العقيق، وبطحان، وقناة.

وروى الزبير بن بكار: قال معاوية بن أبي سفيان لعبد الرحمن بن

---

(١) الشراج: جمع شَرْج بفتح الشين وسكون الراء. وهو مسيل الماء من الحرَّة إلى السهل.

أبـي أحمد بن جحش وكان وكيله بضياعه بالمدينة ـ يعني أودية اشتراها واعتملها ـ فلبث ثم جاء فقال: قد وجدتُ لك أودية، قال: قلْ. . فذكر له أودية فلم يرغب فيها وذكر له الغابة، فقال: اشترها لي، فقال لمعاوية: ذكرت لك أودية لا تعرفها فكرهتها، وذكرتُ لك وادياً لا تعرفه فقلت: اشتره. . قال: ذكرتَ الغابة، فدلتني على كثرة مائها. . كما قال الأول:

إنْ كنـــت تبغـــي العلـــم أو مثلـــه أو شـــاهـــداً يخبـــرُ عـــن غـــائـــب

فـــاختبـــر الأرض بـــأسمـــائهـــا واعتبـــر الصـــاحـــب بـــالصـــاحـــب

. . فقـد أخـذ مـن لفـظ الغـابـة كثـرة مـائهـا، لأنهـا ـ لغـةً ـ ذاتُ الشجـر المتكاثف، فتغيّب ما فيها، وذلك لكثرة الماء. [وفاء الوفا ١٢٧٦].

ومن الصحابة الذين اشتغلوا بالزراعة ـ من المهاجرين ـ عبد الرحمن بن عوف، فقد كانت له أرض واسعة بالجرف ـ شامي المدينة ـ وكان يسقي على خمسين ناضحاً وكان لسعيد بن زيد، وأبـي هريرة، مزرعتان في ذي الحليفة (آبار علي) بالقرب من الميقات. ومن تابعي المهاجرين نذكر عروة بن الزبير صاحب البئر المشهورة على وادي العقيق، وكان له بيت وبستان. . وسعيد بن العاص، أمير المدينة الجواد المشهور، وكان له قصر، وبستان، لا تفارقه الطيور لكثرة ثماره، في عرصة العقيق، بجوار الجامعة الإسلامية.

رابعاً: كانت المدينة مشهورة منذ القديم بكثرة نخيلها، لما روي من الصحيح عن النبـيّ ﷺ: «رأيتُ في المنام أني أُهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلي إلى أنها اليمامة، أو هَجَر، فإذا هي المدينة يثرب». [الفتح ٧/٢٢٦] وهجر، مشهورة بتمرها منذ القديم، حتى ضرب بها المثل، فقيل: «كَمُهْدي التمر إلى أهل هجر» لمن يحمل شيئاً ليس بطريف. وعندما أرسل الله سيل العرم على أهل سبأ، وخربت بلادهم بعد عمران، وصف لهم كاهنهم بلاد العرب، ليرحل كلُّ فريق إلى الجهة التي يجد فيها حاجته، فقال ساجعاً: «ومَنْ

كان منكم يريد الراسخات في الوحل، المطعمات في المَحْل، فليلحق بالحرّة ذات النخل» فكان الذين سكنوها، الأوس والخزرج، وإذا كنا لا نطمئن إلى صحة نقل هذا السجع فإننا نقول: إنَّ صانعه راعى البيئة والتاريخ، ليكون سجعه مناسباً.

ومما يدل على كثرة النخيل في المدينة، كثرة أنواعه التي يذكرونها في المدينة، وكونه يستقطب بحيّز كبير من أبواب المعاملات في الحديث النبوي: كأبواب: البيوع والمزارعة، والمساقاة، كما يكثر ذكره في باب الطعام. . . وتؤكد الأخبار أن التمر كان يفيض عن حاجة أهل المدينة، فيصدرونه إلى الأسواق المجاورة أو تأتي القوافل التجارية إلى أسواق المدينة لتمتار من التمر.

خامساً: كان أهل المدينة يعلفون إبلهم ودوابهم بعامة، النوى؛ لما ورد في الخبر عن عمر بن الخطاب، أنه لقط نويات من الطريق فأمسكها بيده حتى مرّ بدار قومٍ فألقاها فيها وقال: «تأكله داجنتهم». [لسان العرب]. وجاء عن أسماء بنت أبي بكر، زوج الزبير بن العوام قالت: «وكنت أدقُّ النوى لناضحه، وأنقل النوى من أرض الزبير. . » [الإصابة].

وجاء في خبر فتح مكة: أن قريشاً نصرت بني بكر على خزاعة، وكانت خزاعة على حلف مع رسول الله ﷺ، فجاء بُدَيل بن ورقاء الخزاعي إلى رسول الله ليخبره بما كان، ثم عاد وأصحابه، فلقي أبا سفيان بعُسفان ــ قرب مكة ــ قد بعثته قريش ليشدّ العقد ويزيد في مدة الهدنة، فلما لقي أبو سفيان بُديل بن ورقاء قال: من أين أقبلت يا بديل، وظنَّ أنه أتى رسول الله في المدينة قال: تسيرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي، قال: أو ما جئتَ محمداً؟ قال: لا، فلما راح بُدَيل إلى مكة، قال أبو سفيان: لئن جاء بُدَيل المدينة لقد علف بها النوى. فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها، فَفَتَّهُ، فوجد فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاءَ بديلٌ محمداً.

سادساً: شغل النخيل حيزاً من شعر أهل المدينة وأمثالهم، مما يدلّ على امتزاجه بحياتهم، وبُعْد جذوره التاريخية في المجتمع اليثربي: فمن الأمثال قولهم: «التمرة، إلى التَّمْرة، تَمْرٌ» مثل يضرب في استصلاح المال، وجمعه. وقولهم: «التمر في البئر وعلى ظهر الجمل» وأصل ذلك أن منادياً كان في الجاهلية يكون على أُطم من آطام المدينة حين يدرك البُسْر، فينادي: التمر في البئر.. الخ يقصد أن مَنْ سقى وجد عاقبة سقيه في تمره، ويقال في حُسْن عاقبة المُجِدّ، وهو شبيه بقولهم «عند الصباح يَحْمدُ القومُ السُّرى».

ومنها قول الحُباب بن المنذر يوم السقيفة «أنا جُذَيْلُها المحكّك، وعُذَيْقُها المرجّب». ومن الشعر، قول أُحَيْحة بن الجُلاح، يذكر فضائل النخل:

يلومونني في اشتراء النخيل ... أهلي فكلُّهُمُ يَعْذُلُ[1]

وأهل الذي باع يَلْحَوْنه ... كما لُحِيَ البائعُ الأولُ[2]

هي الظلُّ في الحرِّ حقَّ الظليل، ... والمنظرُ الأحسنُ الأجْمَلُ

تَعشَّى أسافِلُها بالجَبُوبِ ... وتأتي حَلُوبتُها من عَلُ[3]

وتصبح حيث تبيت الرِّعاءُ ... وإن ضيعوها وإن أهملوا

(١) قوله: «يلومونني.. أهلي» البيت شاهد للغة «يتعاقبون فيكم ملائكة» التي يسمونها لغة «أكلوني البراغيث» لأنه ذكر واو الجمع مع ذكر الفاعل الظاهر. وقد تأوله الذين يضعفون هذه اللغة، أن الواو علامة الجمع، ويرى آخرون أن الواو: فاعل، والاسم الظاهر بدل. وهو الأقوى.

(٢) يلحونه: يلومونه.

(٣) تعشى: فعل ماض، وأسافلها: فاعله. يريد أن النخل تشرب الماء من أسفل. والحلوبة: ذات اللبن، شبه النخل بالإبل. يريد: لا عمل ولا كدَّ في النخل، فأسفلها يأخذ غذاءَه من التراب، والمثمرة منها يدرك ثمرها فوقها.

فعَـــمٌّ لعمّكــــم نــــافــــعٌ وطفــــل لطِفلكـــم يُـــؤمَـــلُ[1]

سابعاً: في كتب الحديث النبويّ، أبواب وثيقة الصلة بالحياة الاقتصادية، مثـل أبـواب «البيـوع» و «الحـرث والمـزارعـة» و «المسـاقـاة» و «الأطعمـة» و «الشركة».. الخ.. وهذه الأبواب تتناول أحكام المعاملات، وفيها تنصيص على مفردات ما كان يباع، ويؤكل، ويشرى، وما يزرع.. الخ وأظنُّ أن الأحكام الفقهية نابعة من الحياة العملية، والنهي، والإباحة، إنما يتعلقان بما كان، وليس بما سيكون.. وعندما ندرس هذه الأحاديث نطلع على حياة اقتصادية غنيّة وأعمال متنوعة، وزراعات متعددة، وأراضي زراعية واسعة، وأسواق عامرة.. كل ذلك كان قبل أن تفتح الدنيا على المسلمين، وقبل أن تتدفق أموال الفيء على المسلمين في المدينة.. وما يدلّ على هذا الاتساع الاقتصادي وجود الأسواق، وتوارد القوافل التجارية إليها، وحصول الثراء عند عدد من صحابة رسول الله المهاجرين.. فعبد الرحمن بن عوف جاء إلى المدينة مهاجراً وهو لا يملـك شيئاً مـن المـال، وعمـل فـي التجـارة، فـربـح وجمـع ثـروة كبيـرة.. وعثمان بن عفان كان من أثرياء الصحابة في العهد النبوي وأمدّ جيش العسرة بالكثير من المال.. وانظر: أول الجزء الثاني من كتاب «التراتيب الإدارية» للكتاني، تجد فيه صورة للحياة الاقتصادية في المدينة في العهد النبوي... وهي ليست وليدة العهد النبوي، وإنما كانت موجودة في الجاهلية.

ثامناً: لم تكن «يثرب» بلدة في صحراء لم يعرف بها ساكن رسماً، وإنما كانت تجاورها بلدان غنية بمواردها الاقتصادية، ويكون بينها وبين المدينة تبادل

(١) والنخل العُمّ ـ بالضم، والفتح ـ التي استحكمت وكملت وطالت، أي: كبارها نافعة لكباركم، وصغارها تؤمل لصغاركم، فسمى صغارها أطفالاً. والعمة: النخلة يُصعد إليها إذا جنيت، وهي العميمة أيضاً. وجاء في الأثر «أكرموا عمتكم النخلة» سماها عمّة للمشاكلة في أنها إذا قطع رأسها يبستْ كما إذا قطع رأس الإنسان مات. ويزعمون أن النخل خلق من فضلة طينة آدم عليه السلام.

اقتصادي. ومن الأصقاع القريبة: ينبع، ووادي الفرع، وخيبر، وتيماء، ووادي القرى «العلا». . زيادة على تجارتها مع مكة، والطائف.

تاسعاً: من المعروف أن المدينة «يثرب» تحيط بها الحرار من جميع جهاتها، إذْ إنها أرض بركانية أصلاً، ومن خصائص الأرض البركانية أن تكون خصبة. والمدينة مشهورة بغزارة مياهها ومناسبتها لسقي الأشجار.

ومن دراسة الشعر اليثربي، نتعرف جغرافية المدينة وبيئتها الزراعية الخصبة ولنأخذ مثالاً شعر «أُحيحة بن الجلاح الأوسي» الجاهلي[1] . . فنجده يذكر اللابة (الحرة) حيث يقول:

هُـــمْ نكَّبُـــوك عـــن الطـــريـ ـــقِ فَبِـتَّ تـركـبُ كـلَّ لابـه[2]

ويقولُ راثياً مَنْ قتلهم تبَعٌ:

ألا يـــا لَهْـــفَ نفســـي أيَّ لهْـــفِ علـــى أهـــل الفقـــارة أيّ لهْـــفِ[3]

وهناك إشارة في شعر أُحيحة إلى غزارة المياه، إذ يقول في فرسه السريعة سرعة حبل البئر الذي يربط في طرفه حجر فيُلقىٰ في البئر:

تَـــذَرُ العنـــاجيـــج الجيـــادَ بقفـــرةٍ مـــرَّ الـــدمـــوك بمُحْصَـــدٍ ورجـــام[4]

ويقول في الجدول الذي يترقرق في بستانه:

يـــزخـــرُ فـــي أقطـــاره مُغْـــدِقٌ بحـــافتيـــه الشّـــوع والغِـــرْيَـــفُ[5]

---

(١) ديوان «أحيحة بن الجُلاح» جَمْع وتحقيق الدكتور حسن محمد باجودة.

(٢) اللابة: الحرة. ونكبوك: نحَّوْك.

(٣) أهل الفقارة: الذين قُتلوا في الفقارة، واحدة فقار الحرّة، تشبيهاً بفقار الظهر.

(٤) العناجيج: جمع عنجوج، وهو الرائع من الخيل. والدموك: بكرة سريعة الدوران. محصد: حبل شديد الفتل. والرجام: حجر يُشَدُّ في طرف الحبل، ثم يُدَلى في البئر، يخضخض به الحمأة حتى تثور، ثم يستقى ذلك الماء فيستنقى البئر، وهذا إذا بَعُدت فلم ينزل إليها.

(٥) الشُوع: بالضم شجر البان، وهو جبلي، واحدته شوعة، والغِرْيف: بكسر الغين وسكون الراء: ضرب من الشجر.

ويقول واصفاً كثرة نخيله، وخصب أرضه:

إذا جُمادىٰ مَنَعَتْ قَطْرها زَانَ جناني عَطَنٌ مُغضِفُ[1]
مُعْرَوْرِفٌ أسبل جبّاره أسْوَدُ كالغابة مُغْدَودِفُ[2]

.. فهو يصرح في البيتين، بأنه إذا أخلفت جُمادى الأزمنة (الشتاء) فتأخر مطرها أو انقطع، فلم يكن العشب الذي يزين مواضع الناس، فإن جنانه يزينها دائماً نخيله الراسخة في الماء، الكثيرة الحمل. إنَّ كلَّ نخلة غزيرة السعف طويلته، فكأنها عُرْف الديك أو الفرس. وكبيرة النخل بخاصة تدلي سعفها فكأنها حسناء قد أغدفت قناعها، والنخيل في مجموعه، لشدة خضرته التي تقترب من السواد وكثرته يشبه الغابة في عين الناظر.

ومما له دلالة على كثرة الماء: ورود اسم الغابة في شعر أُحيحة في مواضع: منها، البيت السابق حيث شبه كثرة النخيل وتزاحمه بالغابة.

ويقول في موضع آخر، يصف فتيان قومه:

---

(١) جُمادىٰ: نقل ابن منظور، أن الشتاء عند العرب، هي جُمادىٰ الآخرة. وقال أبو حنيفة: جمادى عند العرب، الشتاء كلُّه. وقال ابن سيدة: وجمادى: من أسماء الشهور، معرفة، سميت بذلك لجمود الماءِ فيها عند تسمية الشهور. وعلى هذا، فإن جُمادىٰ في بيت أُحيحة، قد يريد به الشتاء، لأن الشتاء قد يأتي في جمادى وفي غيرها، لعدم ثبوت الشهر العربـي في زمن واحد. وقد يكون جُمادى هنا الشهر، وصادف مجيء الشتاء فيه زمن الشاعر، ولكنَّ الشاعر يفخر، والفخر يقتضي عموم السنوات.
والعطن: النخيل الراسخة في الماء الكثيرة. وأغضف العطن: كثر نعمه. يقول: إذا لم يكن المطر الذي به العشب يزين مواضع الناس، فجناني تزين بالنخل.

(٢) معرورف: يقال: أعرف الفرس إذا طال عرفه، واعرورف: إذا صار ذا عرف. وعرف الديك والفرس والدابة: نبت الشعر والريش وارتفع فصار له كالعرف.
أسبل الزرع: خرجت سبولته، والسبولة والسبلة والسنبلة: الزرعة المائلة. والجبّار من النخل: ما طال، وفات اليد. يقال: نخلة جبّارة وناقة جبارة: أي؛ عظيمة وسمينة. ومغدودف: يقال: أغدفت المرأة قناعها، إذا أرسلته على وجهها.

نُبئـــتُ أنـــك جئـــت تسْـ ري بيـــن داري والقُبـــابـــة

فلقـــد وجـــدتَ بجـــانـــب الضحـ ـيـــان شبـــانـــاً مهـــابـــة

فتيـــان حـــربٍ فـــي الحـــديـ ـــد وشـــامـــريـــن كـــأُسْـــدِ غـــابـــه

* * *

فالشاعر يخاطب عاصماً أخا كعب بن عمرو المازني النجّاري الخزرجي الذي أمر أحيحةُ قومه بني جحجبا أن يقتلوه، وبسببه التقى الحيّان، وكانت الحرب التي تسمى حرب كعب بن عمرو المازني، فانهزم أُحيحة ولجأ إلى حصنه، ثم بلغه أن عاصماً يتطلبه ليجد له غرّة فيقتله، فقال الأبيات.

والقُباب، كغُراب، أُطم (حصن) بالمدينة. والضحيان: أُطم كان لأحيحة.

* * *

ونأخذ من شعر أُحيحة، أن البيئة اليثربية الخصبة شدّت الناس إليها، فعرفوا الاستقرار وألفوه، ولم يتحولوا إلى رعاة.. ونرى أُحيحة يفضل الزراعة على الرعي، وذلك قوله مفاضلاً بين النخيل والإبل:

وتصبـــحُ حيـــثُ يبيـــتُ الـــرعـــاءُ وإنْ ضيعـــوهـــا وإنْ أهملـــوا[1]

ولا يصبحـــون يبغـــونهـــا خـــلال المـــلا كلهـــم يســـأل

.. ويفخر أحيحةُ بعمارة الزوراء ذات النخيل، فيقول:

إنـــي أُقيـــم علـــى الـــزوراء أَعمُـــرهـــا إنَّ الكريم على الإخوانِ ذو المال[2]

ويصف لنا الطريقة التي يسقي بها اليثربيون زرعهم، وذلك بإرسال الماء في مجاريه، فيقول:

---

(١) قال ابن منظور: إنما عنى بالرعاء هنا، حفظة النخل، لأنه إنما هو في صفة النخيل، يقول: تصبح النخل في أماكنها لا تنتشر كما تنتشر الإبل المهملة.

(٢) الزوراء: أرض كانت لأحيحية، سميت ببئر كانت فيها. والزوراء: البئر البعيدة القعر.

لهـا ثـلاثُ بئـارٍ فـي جـوانبهـا ... فـي كلّهـا عُقَـبٌ تُسْقَـىٰ بـأقبـال[1]

* * *

ويجعل أُحيحة خير ما يقنيه الإنسان، النخيل، لأنه هو الذي يلبي نداء صاحبه عند الحاجة، فيقول:

كـلُّ النـداء إذا نـاديـتُ يخـذلنـي ... إلا نـدائـي إذا نـاديـتُ يـا مـالـي

* * *

ومن ضرورات المجتمع الزراعي: اقتناء الكلاب للحراسة، ويذكر لنا أبو الفرج أن أحيحية كان إذا أمسى جلس بحذاء حصنه الضحيان، ثم أرسل كلاباً له تنبح دونه على مَنْ يأتيه ممن لا يعرف حذراً أنه يأتيه عدوٌّ يصيب منه غِرَّة. [الأغاني ١٥/٤٨]. وجاء ذكْرُ الكلاب في أبيات أُحيحة التي يقول منها:

مـا أَحْسَـنَ الجيـد مـن مُلَيكـةَ ... واللبّـاتِ إذْ زانهـا تـرائبُهـا[2]

يـا ليتنـي ليلـةً إذا هَجَـعَ النـاسُ ونـام الكـلابُ صـاحبُهـا[3]

فـي ليلـةٍ لا نـرى بهـا أحـداً ... يحكـي علينـا إلا كـواكبُهـا[4]

---

(١) جاء في اللسان: العقبة: الدولة، والعقبة: النوْبة، تقول: تمت عقبتك. والعقبة أيضاً: الإبل يرعاها الرجل، ويسقيها عقبته أي: دولته، كأنَّ الإبل سميت باسم الدولة. والعُقَب: نوب الواردة، ترد قطعة فتشرب فإذا وردت قطعة بعدها فشربت، فذلك عقبتها. وأقبال الجداول: أوائلها ورؤوسها.

(٢) اللبات: جمع لبّة، موضع القلادة من الصدر. والترائب: جمع تريبة، وهي عظام الصدر. وإنما جمعهما بما حولهما، كأنه سمى ما يجاور اللبة، لبّة وما يجاور التريبة تريبة كما قالوا: شابت مفارقه.

(٣) صاحبُها: خبر ليت، ونظم الكلام: يا ليتني صاحبُها ليلةً إذا هجع الناسُ.

(٤) يحكي: من الحكاية، بمعنى الرواية «وعلى» بمعنى «عن» ويقال: ضمن يحكي معنى «ينمُّ». والبيت من شواهد سيبويه، على رفع «كواكبها» بدلاً من ضمير يحكي لأنه في المعنى منفي. وقال الشنتمري: «ولو نصب على البدل من «أحد» لكان أحسن لأن «أحداً» منفيّ في اللفظ والمعنى، والبدل منه أقوى. ولكن القافية مرفوعة وذلك يقوي أنه أبدل «كواكبها» من الضمير المستتر في «يحكي» (الخزانة ٣/ ٣٥٠).

ولـذلـك، فـإنَّ الـرسـول عليـه الصـلاة والسـلام استثنى مـن تحـريـم اقتنـاء الكلاب، كلب الحرث والماشية. فقد بوّب البخاري «باب اقتناء الكلب للحرث» من كتاب «الحرث والمزارعة». وروي عن أبـي هريرة أن رسول الله قال: «مَنْ أمسك كلباً فإنه ينقص كلَّ يوم من عمله قيراط، إلا كلب حرث أو ماشية»، وفي رواية «إلا كلب غنم أو حرث أو صيد».

وروى مسلم عن ابن عمر: أن النبـيّ ﷺ: «أمر بقتل الكلابِ إلا كلب صيد أو كلب غنم» فقيل لابن عمر: إن أبا هريرة يقول: «أو كلب زرْعٍ» فقال ابن عمر: إنَّ لأبـي هريرة زرْعاً. ويقال: إنَّ ابن عمر أراد بذلك الإشارة إلى تثبيت رواية أبـي هريرة، وأن سبب حفظه لهذه الزيادة دونه، أنه كان صاحب زرع دونه، ومَنْ كان مشتغلاً بشيء احتاج إلى تعرف أحكامه. [الفتح ٥/٦].

وأبيات أُحيحة التي أثبتناها في الفقرة السادسة، والتي يذكر فيها فوائد النخيل تدلُّ على مقدار حبّ اليثربـيّ للنخيل وتعلقه به، لكونه المصدر الأول للرزق، بل هو مفخرة اليثربـي التي يجدُ فيها سعادته[1].

---

(١) لأحمد شوقي قصيدة في وصف النخيل، وذكر فوائده: مطلعها:

أرى شجـراً فـي السمـاء احتجـب وشـقَّ العنـان بمـرأى عجـب

ويعجب أحمد شوقي، لأن الشعراء لم يذكروا النخل في قصائدهم، ولعله يدعي أنه أول مَنْ وصف النخل، فيقول في قصيدته:

فيـا نخلـة الـرمـل لـم تبخلـي ولا قصّـرت نخـلات التُّـرَبْ

وأعجـب كيـف طـوى ذكـركـنَّ ولـم يحتفـل شعـراء العـربْ

أليـس حـرامـاً خلـوّ القصـا ئـد مـن وصفكـنّ وعُطْـل الكتـبْ

... بل، العجب كلُّ العجب كيف أنكر، أو جهل ما جاء في الشعر والكتب من وصف النخل وذكر فوائده.

أما في الشعر، فإن ما وصلنا من شعر أُحيحية يدل على عنايته بوصف النخل وذكر فوائده والتغزل فيه. وأظنُّ أن أحمد شوقي قد اطلع على مقطوعة أُحيحة التي أشرنا إليها، أو اطلع على أحد أبياتها فنظم على غرارها. وهل كانت مصادفة اتفاق قصيدة =

= شوقي ومقطوعة أُحيحة في الوزن؟ فكلتاهما من البحر المتقارب وهناك تشابه في مضمون بعض الأبيات. . .

فقال أحمد شوقي في وصف جمال النخلة ستة أبيات، فجمعها أحيحة في بيت واحد، حيث يقول:

هـي الظـلُّ فـي الحـرّ حـقَّ الظليـل والمنظـرُ الأحسـنُ الأجمـل

وقال في وصف فوائدها ثلاثة أبيات جمعها أحيحة في بيت، وهو قوله:

فَعَـمٌّ لعمكـم نـافـع وطفـل لطفلكـم يُـؤمَـلُ

وشبه شوقي النخلة بوصيفة فرعون في أبيات ستة، جمعها أُحيحة في بيت واحد من مقطوعة فائية عندما قال:

مُعْـرَوْرف أسبـل جبـاره أسـود كـالغـابـة مُغْـدَودف

فشبه النخلة وقد تدلى سعفها بحسناء قد أرخت قناعها.. وأنشد البغدادي في شرح أبيات المغني لغير أُحيحة؛ يصف النخلة ٦/١٣٣:

لنـا لَقْحـةٌ لـم تَغْـدُ يـومـاً بنـاتهـا إذا بـركـتْ فـي مَبْـرَكٍ لـم تحـوَّلِ
لهـا أخـواتٌ حـولهـا مـن بنـاتهـا صـوادي لـم تَحلُـلْ ببيـداءَ مجْهَـل
قيـام حَـوالـي فحلهـا وهـو قـائـمٌ تَلَقَّـح منـه وهـو عنهـا بِمَعْـزِلِ

وقال آخر:

إنَّ لنـا مـن مـالنـا جمـالاً مـن خيـر مـا تحـوي الـرِّجـالُ مـالا
نحلبُهـا غُـزْراً ولا بَـلالا بهـنَّ لا عَـلاً ولا نِهـالا
يُنْتَجْـنَ كُـلَّ شَتْـوةٍ أحمـالا

... أما قوله إن الكُتب عُطْل من وصف النخلة، أو من ذكرها.. فهو باطل، لأن النخل والنخلة، ورد ذكرهما في القرآن في عشرين موضعاً، في سياق نِعَم الله على عباده.. وجاء ذكر النخيل، والتمر في مواضع متعددة من الحديث الشريف.. ورفع رسول الله مقامها عندما شبهها بالمسلم في الحديث الذي رواه البخاري في كتاب العلم عن ابن عمر «قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرةً لا يسقط ورقُها، وإنها مَثَلُ المسلم، فحدثوني ما هي؟ فوقع الناسُ في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييتُ، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله قال: هي النخلة». قال ابن حجر في [الفتح ١/١٤٥] ووجه الشبه بين النخلة والمسلم من جهة عدم سقوط =

....

= الورق، ما رواه الحارث بن أبـي أُسامة في هذا الحديث من وجه آخر عن ابن عمر، ولفظه «قال: كنا عند رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال: إن مثل المؤمن كمثل الشجرة لا تسقط لها أنملة، أتدرون ما هي؟ قالوا: لا، قال: هي النخلة، لا تسقط لها أنملة ولا تسقط لمؤمن دعوة» وقع عند المصنف في «الأطعمة» من طريق الأعمش قال: حدثني مجاهد عن ابن عمر قال: «بينا نحن عند النبـيّ ﷺ إذ أُتي بجمّار، فقال: إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم». قال ابن حجر: وهذا أعم من الذي قبله، وبركة النخلة موجودة في جميع أجزائها مستمرة في جميع أحوالها، فمن حين تطلع، إلى أن تيبس، تُؤكل أنواعاً، ثم بعد ذلك ينتفع بجميع أجزائها، حتى النوى في علف الدواب والليف في الحبال وغير ذلك مما لا يخفى، وكذلك بركة المسلم عامة في جميع الأحوال، ونفعه مستمر له، ولغيره حتى بعد موته.

وبوَّب البخاري في تفسير سورة إبراهيم من كتاب التفسير «كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كلَّ حين». وروى عن ابن عمر «كُنَّا عند رسول الله ﷺ، فقال: أخبروني بشجرة، تشبه، أو كالرجل، المسلم لا يتحاتُّ ورقُها، ولا، ولا، ولا، تُؤتي أُكلها كلَّ حين..» الحديث. وفيه أنها النخلة. وقوله: ولا.. ثلاث مرات.. وقالوا في تفسيره: ولا ينقطع ثمرها ولا يعدم فيؤها، ولا يبطل نفعُها.

وَبعدُ: فإننا لو جمعنا ما جاء في القرآن وتفسيره عن النخلة، وما جاء في كتب الحديث، لكان مجلداً كبيراً، بَلْهَ ما جاء في الشعر من مقطوعات، أو أبيات مفرقة..

مما يدلُّ على أننا خُدعنا زمناً بإمارة شوقي على الشعر،.. فأحمد شوقي، يجهل تاريخ وجغرافية بلاد العرب، فكيف يكون أميراً على شعراء العرب. وقد مرّ بنا قبل هذه السقطة، ضربه المثل للجدب ببلاد الحجاز. وقد أردت من هذا أن أقول: إن بعض مَنْ لقبوا (شعراء وأدباء النهضة) أشاعوا مفهومات كاذبة عن بلاد العرب كان سببها اعتمادهم على ثقافة السماع دون المشاهدة.

ـ ٣ ـ

سكان يثرب

أولاً: نستطيع هنا أن نقرر ما يأتي:

(أ) ليس في القرآن الكريم، والحديث النبوي الصحيح، تصريح أو تلميح أو إشارة إلى الزمن الذي عمرت فيه «يثرب» بالسكان، وليست هناك إشارة إلى أقدمية قوم بالسكنىٰ.. فلم يُرْسل إلى أهل يثرب نبيٌّ لنعرف تاريخه، ولم تحصل في يثرب كائنة كبرى نؤرخ بها، والقرآن والحديث، هما أصل الأخبار عندنا، وما جاء في غيرهما من الأخبار عن الأمم الماضية، فهو كهانة وظن وتخمين، قد يصح وقد يكذب، بل هو إلى الكذب أقرب، لأنه من إبداع أهل القصّة.

(ب) لم تكتشف آثار حجرية مكتوبة، لنعتمدها في ترجيح الآراء.

(جـ) جلُّ أخبار سكان المدينة قبل الإسلام، منقول عن ثلاثة من رواة الأخبار الكذّابين: وهم ابن زباله، وأبو المنذر الشرقي، وابن الكلبي.

(د) ليست عندنا رواية تحدد زمن هجرة الأوس والخزرج إلى المدينة بل ليس عندنا دليل قاطع على أن هجرتهم كانت بعد خراب سدّ مأرب[1].

---

(١) الذي ثبت بالقرآن أن هجرةً كانت من اليمن بعد خراب سدّ مأرب، ولكننا لا نملك رواية مسندة أن الأوس والخزرج هم الذين هاجروا إلى المدينة بعد خراب السدّ، فقصة هجرة الأوس والخزرج إلى المدينة يرويها أهل الأنساب، وروايات هؤلاء ظنيّة، وليست يقينيّة.

(هـ) وليس عندنا رواية صحيحة عن زمن هجرة اليهود إلى المدينة، وجلّ ما نُقل إلينا حول هجرتهم فيه الكثير من الكذب والاختلاق.

ثانياً: مَنْ أول مَنْ سكن يثرب؟ هناك جواب واحد عن هذا السؤال، لا يقبل النقض، وهو أن أول مَنْ سكن يثرب هم العرب، سواءٌ أكانوا من العماليق، أم ممن خلفهم من الأجيال العربية التالية. فالمدينة تقع في وسط جزيرة العرب، ولن ينبت فيها إلا العرب، والتسلسل التاريخي يقرر أن يكتشف خيراتها وصلاحها للسكنى قوم ممن كانوا يجوبون الجزيرة العربية بحثاً عن مستقرٍ لهم بعد الطوفان، وهؤلاء القوم، من أهلها ـ أهل الجزيرة العربية ـ الذين نشؤوا فوقها، ثم ضاق محلهم أو أمحل فطفقوا يبحثون عن مكان يكفل لهم أسباب العيش، فنزلوا «يثرب» لتوفر أسباب العيش بها، وهي «الماء» و «الزراعة». . . ثم تتابع العرب على سكناها بأسماء ومسميات متعددة، إلى أن استقرّ أمر الناس بها بالصفة الأخيرة التي وصلتنا، وهؤلاء هم: الأوس والخزرج، وقبائل عربية أخرى. . وإنما غلب اسم «الأنصار» في الإسلام، على الأوس والخزرج لغلبتهم وكثرتهم.

ثالثاً: في قصة الأوس والخزرج: نسبهم وزمن نزولهم «يثرب».

أما نسبُهم، فإن أصح الأخبار فيه أنهم منسوبون إلى إسماعيل عليه السلام والأدلة على ذلك كثيرة، منها:

(أ) من المشهور عند النسابين، أن الأوس والخزرج، وخزاعة، وعدنان. . من اليمن، وجماع نسب أهل اليمن ينتهي إلى قحطان. . ومن خزاعة، قبيلة أسْلم، وقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ، خرج على قوم من أسْلَمَ يتناضلون بالسوق، فقال: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً» [الفتح ٦/ ٣٥٧]. وبناءً على ذلك بوّب البخاري «باب نسبة اليمن إلى إسماعيل» منهم: أسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة. . وأكّد

الزبير بن بكار أن قحطان من ذرية إسماعيل وأنه قحطان بن الهميسع بن تيم بن نبت بن إسماعيل. ومهما قالوا في تأويل معنى «الأبوّة» بأنها من ناحية الأمهات، لأن العدنانية والقحطانية قد اختلطوا بالصهارة، فإن صرف «الأبوّة» إلى جهة الآباء هو الأوْلى، لأنه ظاهر حديث رسول الله ﷺ، ولا يُصرف ظاهر الحديث ومنطوقه بروايات النسابين التي لا تعتمد على رواية متصلة موثوقة.

(ب) جاء في صحيح البخاري حديث أبي هريرة في قصة إبراهيم عليه السلام، وسارة مع الملك الجبار، أن الملك أهدى سارة هاجر، أو أخدمها هاجر وقال أبو هريرة في ختام الحديث، يخاطب الأنصار، تلك أمكم يا بني ماء السماء [الفتح ١/٣٣٨].

وماء السماء، هو عامر ولد عمرو بن عامر بن بقيا بن حارثة بن الغطريف، وهو جدّ الأوس والخزرج، قالوا: سمي بذلك لأنه كان إذا قحط الناس أقام لهم ماله مقام المطر. وإثبات أمومة هاجر أم إسماعيل للأوس والخزرج، يدل على أنهم من ولد إسماعيل. وقد أوّل المفسرون الرواية تأويلات كثيرة، لصرفها عن ظاهرها، ولصرف نسبة الأوس والخزرج إلى إسماعيل.. ولكن التأويلات صرفت الرواية إلى المعاني المجازية، وصرفها إلى الحقيقة أولى، وبخاصة أن في نسب الأوس والخزرج من يُسمّى «ماء السماء».

(جـ) ومن المشهور أن خُزاعة، من ولد عمرو مزيقاء، وهو جدُّ الأوس والخزرج ويقولون إنهم خرجوا جميعاً من سبأ، بعد خراب سدّ مأرب، وإنهم سكنوا بطن مرّ، بالقرب من مكة، حيث يزعمون أن كاهنهم قال: ومَنْ كان منكم ذا جَلَدٍ وبصر وله صبر على أزمات الدهر، فليحلق ببطن مَرّ، فسكنته خزاعة.

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «عمرو بن لُحَيّ بن قمْعَة بن خندف، أبو خُزاعة» [الفتح ٦/٥٤٧]. وهذا يؤيد أن خُزاعة من مضر. ومضر بن نزار بن معدّ بن عدنان بن أدد بن إسماعيل وقلنا: إن خزاعة من مضر؛

لأن خنْدف المذكورة في نسب خزاعة اسم امرأة إلياس بن مضر، واسمها ليلى، لقبت بخندف لمشيتها، والخندفة الهرولة، واشتهر بنوها بالنسبة إليها دون أبيهم...

وبهذا يسقط تعليلهم اسم «خزاعة» وقولهم: لما تفرّق أهل سبأ بسبب سيل العرم نزل بنو مازن على ماءٍ يُقال له غسان فمن أقام به منهم فهو غساني، وانخزعت منهم بنو عمرو بن لُحَيّ عن قومهم فنزلوا مكة وما حولها، فسمّوا «خزاعة».. وأما استشهادهم ببيت حسان بن ثابت:

ولمّا نزلنا بَطنَ مرٍّ تخزَّعت ... خُزاعةُ عنا في جُموع كراكر

... فإن سياق البيت في القصيدة، لا يدُلّ على ما أرادوا من تعليل اسم «خزاعة». فهو من مقطوعة يصف فيها ناقته، ويتحدث عن رحلة بين المدينة ومكة، وقبل البيت قوله:

فقمتُ بكأسٍ قهوةٍ فشَنَنْتُها ... بذي رونقٍ من ماءِ زمزم فاتر

فلما هبطنا ....

فقوله: من ماء زمزم.. يدلُّ على أنه لا يريد أيام الرحيل الأول، لأن ماء زمزم لم يكن موجوداً[(١)] يوم ارتحلوا من اليمن، ومرّوا بمكة، ولعلّه يريد بقوله: «تخزعت خُزاعة عنا» أي قطعنا أرض خزاعة، وخلفناها وراءنا.

رابعاً: وبهذه الأدلة، نؤيد رأي مَنْ يقول: إنَّ العرب جميعهم من نسل إسماعيل عليه السلام: أهل الشمال، وأهل الجنوب، والعدنانيين والقحطانيين.. وقولهم إن جميع العرب من نسل إسماعيل، يريدون العرب الباقية التي وصلتنا أنسابهم وعرفنا قبائلهم، والذين كانوا أيام البعثة أو قبلها بمئات السنين، أما

---

(١) الثابت أن ماءَ زمزم فجّر الله ينبوعه في طفولة إسماعيل عليه السلام، ويظهر أنه دُفن في الأعصر التالية، ثم ظهر المرّة الثانية على يد عبد المطلب جد النبي محمد ﷺ (طبقات ابن سعد ١/ ٨٣).

العرب الذين لم تصلنا أنسابهم، فهم العرب البائرة، كجرهم وطسم وجديس وعاد وثمود.. وليس معنى «البائدة» انقطاع سببهم من الحياة، وإنما معناها الجهل بأصولهم وفروعهم، وذوبانهم في غيرهم من الأجيال التالية.. لأن إسماعيل عليه السلام جاور قوماً من العرب في مكة وصاهرهم، ثم اضمحلّ ذكرهم وطغا عليهم النسب الإسماعيلي، وليس على أديم الأرض أحد يصحح أنه منهم.

خامساً: زمن نزول الأوس والخزرج، يثرب: فإننا نملك إشارة قوية في القرآن الكريم إلى أنَّ هجرةً من سبأ، كانت إثر خراب سدّ مأرب، لقوله تعالى: ﴿فجعلناهمْ أحاديث ومزقناهم كلَّ ممزّق﴾ [سبأ: ١٥]. ويفسّر معنى الآية قولهم في الأمثال: «تفرّق القوم أيدي سبا، وأيادي سبا» والمعنى: تبددوا تبدّداً لا اجتماع بعده ويذكرون في قصة المثل: أن الله أرسل على تلك الأرض السيل، فأغرقها وأذهب جناتها، فانتزح سبأ وقومه، وتبددوا في البلاد، فضرب المثل بهم. وقولهم «أيدي سبا» تعرب حالاً مؤولة أي: مبددين.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: «إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ: ما هو؟ أرجل أم امرأة، أم أرض؟ قال ﷺ: بل هو رجل، ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فمذحج، وكندة، والأزد والأشعريون وأنمار، وحمير، وأما الشاميّة: فلخم وجذام وعاملة، وغسان»... فتفرقُ القوم بعد خراب السدّ، قد كان، ولا يشك في ذلك أحدٌ. ولكننا مع ذلك لا نملك دليلاً صريحاً على أنَّ «الأوس والخزرج» هاجروا من بلاد سبأ، إثر خراب سدّ مأرب، لأنّنا لا نملك نصاً يصرح باسمهم، وكل ما وصلنا من أخبار رحيل «الأزد» أسجاع كهان من صنع المتأخرين، وروايات منقطعة واهية، وفيها تضارب واختلاف.. فلم أقرأ رواية ترتفع إلى صحابيّ أنصاري، أو تابعيّ أنصاري يتحدث عن نسب قومه، وقصّة رحيلهم وسبب الرحيل إلى يثرب، مع أن علم الأنساب، كان من العلوم الابتدائية التي يتلقنها

الأطفال في عهد التابعين، عندما بدأت حلقات الدراسة[1] والسؤال الذي نطرحه: هل كان الأوس والخزرج، ممن رحلوا بعد خراب السدّ أم رحلوا قبل ذلك؟...

الجواب: فإن تفرُّق أهل سبأ بعد خراب السدّ قد حصل، لأن القرآن قد ذكر ذلك ولكن هناك قوم رحلوا من اليمن قبل خراب السدّ، وقوم رحلوا بعد خرابه.. فالحديث النبوي الذي رواه الإمام أحمد، والترمذي يذكر أربعة من قبائل اليمن توجهت إلى الشام، وذكر منها غسان، والمشهور أنَّ «غسان» رحلت إثر خراب السد، وتذكر مع الأوس والخزرج، وخزاعة، وأزد عمان وغيرهم ولكن ذكر أيضاً «لخم، وجذام، وعاملة» وهذه لم تهاجر إلى الشام بسبب خراب سدّ مأرب، وإنما كانت هجرتهم قديمة، لأسباب أُخرى..

وعلى هذا، فقد تكون القبائل التي رحلتْ بعد خراب السدّ، غير مَنْ ذكروا من القبائل، وتكون القبائل التي ذكرت في قصة نزول الأوس والخزرج يثرب قد هاجرت قبل ذلك.. ولكن المؤرخين العرب القدماء كثيراً ما يؤرخون بالحوادث الكبرى، وأكبر الحوادث التي حصلت في بلاد اليمن «خراب السدّ».. فلم يجدوا تعليلاً لهجرة الأوس والخزرج إلا هذا الحدث الكبير، فأضافوهم إلى مَنْ هاجر بعد سيل العرم.. وقد يكونون هاجروا قبل وقوع الحدث الكبير: وعندنا أدلة نستأنس بها لترجيح هذا الرأي:

ومنها: رواية ابن هشام في سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن، أنه رأى جرذاً يحفر في سدّ مأرب.. فعلم أنه لا بقاء للسدّ على ذلك، فاعتزم على النقلة من اليمن .. وقالت الأزد: لا نتخلف عن عمرو بن عامر، فباعوا أموالهم

---

(١) جاء في ترجمة محمد بن مسلم الزهري (٥٨ ـ ١٢٣هـ): «نشأتُ وأنا غلام.. وكنتُ أتعلم نسب قومي من عبد الله بن ثعلبة بن صُعير، وكان عالماً بذلك». والزهري من صغار التابعين، وعبد الله من صغار الصحابة، وهذا يدلُّ على أن علم النسب كان معروفاً، يؤخذ عن الأساتذة، ولا يتلقنه التلميذ من أهله فقط. [انظر: محمد بن مسلم الزهري ـ للمؤلف، من سلسة أعلام المسلمين، بدار القلم].

وخرجوا معه.. وتفرقوا في البلدان.. ثم أرسل ٱللَّهُ على السدّ السيلَ فهدمه... وقوله: ثم أرسل... تدل على الترتيب مع التراخي والإبطاء، والتراخي هنا قد يكون قروناً.

ومنها: أنَّ خُزاعة، تُذكر مع الأوس والخزرج في تاريخ الهجرة من اليمن وجاء في الحديث الصحيح، أنَّ عمرو بن لُحيّ أبو خُزاعة، وجاء في الحديث الذي رواه ابن هشام عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «رأيتُ عمرو بن لحي يجرُّ قُصبه (أمعاءه) في النار.. إنه كان أول مَنْ غيّر دين إسماعيل، فنصب الأوثان...» [السيرة ١/٧٦]. وذكروا في سبب ذلك أن عمرو بن لُحيٍّ خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم، مآب (مؤاب) من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق، رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا... فقال لهم: ألا تعطونني منها صنماً، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له «هُبَل» فقدم به مكة، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

و «مؤاب» التي يذكرون أن عمرو بن لُحَيّ أخذ الصنم من عماليقها، قامت مملكتها قبل الميلاد بنحو عشرة قرون، ووصلت أوج مجدها في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، في زمن ملكها «ميشع» حيث وسع مملكته حتى وصلت إلى «معان» وكانت عاصمتها في بقعة مدينة الكرك، واحتلها نبوخذنصّر الثاني سنة ٥٨٢ق م، واختفى اسم المؤابيين في القرن الثاني قبل الميلاد.

وقد كان ميلاد إسماعيل عليه السلام سنة ١٧٩٤ق م، ثم رحل مع أمه هاجر إلى مكة وهو طفل، وبث رسالته في قومه حوالي سنة ١٧٥٠ق م ويكون بين ظهور دين إبراهيم وإسماعيل في مكة وظهور المؤابيين حوالي تسعمائة سنة وهي مدة كافية لنسيان الأحفاد ديانة الآباء، وظهور التبدل في العقائد وقالوا: إن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم، وحيثما نزلوا،

وضعُوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى أدى ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة، حتى خلف الخُلُوف، ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من الضلالات.. [السيرة ١/ ٧٧].

وإذا كانت مملكة مؤاب قد امتدت من القرن العاشر، إلى القرن الثاني قبل الميلاد فلا بدَّ أن عمرو بن لُحيًّ اتصل بهم وهم في أوج مجدهم، بل عندما كانت المملكة يسودها العماليق، كما ذكروا، وسيادة العماليق كانت قبل القرن السادس قبل الميلاد، ثم بدأت موجة العماليق تختفي من بلاد الشام ويحل محلها أسماء جديدة من الهجرات العربية التالية مثل الأنباط، ولخم، وجذام، وقضاعة وعاملة... الخ.

وعلى هذا نستطيع أن نقدّر أن هجرة خزاعة إلى مكة، وسيطرتها على الحرم مكان جرهم، إنما كان قبل الميلاد بحوالي خمسة قرون أو أكثر... وبناءً عليه فإن هجرة الأوس والخزرج إلى المدينة، كانت قريبة من هذا التاريخ، أما سيل العرم الذي يؤرخون به نزول الأوس والخزرج يثرب، فقالوا: إنه كان في أيام عيسى عليه السلام، أو قبله بقليل... وهذا الزمن لا يتفق مع حال الأوس والخزرج اللغوي والاجتماعي قبل الإسلام، وذلك لما يلي:

١ ــ من المعروف أنه كان لكل قبيلة، أو عدد من القبائل، يسكنون في منازل متقاربة لغةٌ فيها شيء من الاختلاف عن لغات (أو لهجات) القبائل العربية في الجزيرة العربية.. ويظهر هذا الاختلاف في تفسير الحديث الشريف: «نزل القرآن على سبعة أحرف». فقال قوم: إن المراد سبع لغات.. وقالوا: نزل القرآن أولاً بلسان قريش ومنْ جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أبيح للعرب أن يقرؤوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم في الألفاظ والإعراب ولم يكلف أحداً منهم الانتقال عن لغته إلى لغة أخرى للمشقة، ولما

كان فيهم من الحمية، ولطلب تسهيل فهم المراد. وعقد السيوطي في كتاب «الإتقان» باباً بعنوان «فيما وقع في القرآن بغير لغة الحجاز» انظر [١/ ١٧٥].

وذكر السيوطي عدداً من الألفاظ بلغة أهل اليمن. ونقل ابن منظور: «وفي حديث المبعث قال الملك لما شقَّ بطنه، ايتني بالسكينة، وهي لغة في السكين..» وفي حديث أبي هريرة «إنْ سمعتُ بالسكين إلا في هذا الحديث، ما كنا نسميها إلا المُدْية». وقوله «إن سمعت» أي: ما سمعت. وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال لأبي هريرة يوم وفد عليه في خيبر: «أعطني السكين، فلم يفهم أبو هريرة، وأعادها رسول الله مرات، فلما أشار إليها قال أبو هريرة: المدية تريد؟». والمعروف أن أبا هريرة دوسي من اليمن (في جنوب الجزيرة) وقد بقيت لغة أهل اليمن على شيء من الاختلاف عن لغة قريش في العصر الإسلامي فقال أبو عمرو بن العلاء (ـ ١٥٤هـ) يردّ على مَنْ يروي أشعار عاد وثمود: «ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا، فكيف بما على عهد عاد وثمود»، [طبقات الفحول ١/ ١١].

٢ ـ وقالوا: إن سيل العرم كان قريباً من زمن عيسى عليه السلام، وإذا كانت هجرة الأوس والخزرج بسبب انهدام السدّ، فإن نزولهم المدينة يكون قريباً من عهد عيسى عليه السلام، وبين عيسى ومحمد عليه الصلاة والسلام، ما يقارب خمسمائة سنة.

٣ ـ وقد وصلنا شعرٌ لأحيحة بن الجُلاح المتوفى حوالي سنة ١٥٠ قبل الهجرة، ويكون قد عاش في القرن الثاني قبل الهجرة النبوية، وليس ما وصلنا من الشعر، هو كل ما قاله العرب، وليس الشعر محدوداً بزمن أحيحة بن الجلاح، فلا بدَّ أن شعراء قبله قالوا شعراً، ولم يصلنا..

نقل ابن سلام عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلُّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير.. قال: ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه، قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين، لطرفة وعبيد،

اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر، وإن لم يكن لهما غيرهن، فليس موضعهما حيث وُضعا من الشهرة والتقدمة. [الطبقات ١/ ٢٦].

قال ابن سلام: ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنما قصدت القصائد وطوّل الشعر في عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف...

وقال محمود محمد شاكر تعليقاً على ما سبق: هكذا يرى ابن سلام وغيره من المتقدمين وهو عندي باطل، فالشعر أقدم مما يزعم، وطويله أعتق مما يتوهم وليته قال هنا ما قاله في سبب ذهاب شعر طرفة وعبيد، أن قدمهما كان السبب في قلة ما روي عنهما، فإذا صح ذلك فمن كان قبلهما أجدر أن يذهب من كلامه أكثر مما ذهب من كلامهما.

أقول: والشعر، مدرسة وتربية، ولن يكون شعر في قصائد مطولة إلا إذا سبقته البدايات التي تكون في بيت أو بيتين.. فإذا كان ما وصلنا من الشعر يصل زمنه إلى حوالي ١٥٠ قبل الهجرة، فإن مئة وخمسين سنة أخرى من الإبداع الشعري، قد ضاع نتاجها، وهناك مئة وخمسون سنة أخرى تكون مرحلة الإعداد.. وبهذا يكون قد بدأ قول الشعر العربي حوالي سنة ٥٠٠ قبل الهجرة، وهو قريب من عهد عيسى عليه السلام.

والنتيجة التي أريد أن أصل إليها، هو أن هذا الشعر اليثربي الذي وصلنا والشعر الذي فقد قبله، والذي تسللت إلينا لغته في الشعر الذي وصلنا ـ إن هذا الشعر، وصل إلينا بلغة قرشية خالصة، لا تختلف عن لغة الشعر الذي قيل في مكة والطائف، ولم تظهر فيه آثار اللغة اليمنية التي كانت لهجة الأوس والخزرج يوم نزلوا يثرب.. ولو كان نزولهم يثرب زمن خراب السدّ، لظهرت آثار البيئة اليمنية في شعرهم ولغتهم.. ولكن أهل اللغة لم ينقلوا لنا لهجة خاصة بأهل المدينة، وإنما كانت لهجة أهل يثرب وأهل مكة واحدة، وتجمع المدينتين، لغة أهل الحجاز.

وهذا يعني أن هجرة الأوس والخزرج كانت قبل زمن عيسى عليه السلام بزمن طويل، حتى يتهيأ للعرب الوافدين على الحجاز، أن يندمجوا في المجتمع الجديد، وتتوحد لهجتهم مع لهجة جيرانهم.. وقد نحتاج إلى خمسة قرون أو تزيد قبل الميلاد، لنحصل على المجتمع اليثربي الحجازي، في لغته، وعاداته وهذا يوافق ما قدرنا قبل قليل، أن نزول الأوس والخزرج يثرب كان في القرن الخامس قبل الميلاد أو قبله.

سادساً:

١ ـ متى نزل اليهودُ المدينة؟ وهل تصحُّ لهم، أو لقبيلة منهم، نسبةٌ عربية؟

أولاً: ليس في القرآن، أو الحديث، تصريح أو إشارة إلى زمن نزول اليهود المدينة وكل ما وصلنا من الروايات، لا يصحُّ لها سندٌ ولا متن، ولم يروها حُجّةٌ:

(أ) فرواة أخبار المدينة قبل الإسلام:

محمد بن الحسن بن زبالة: توفي قبل المائتين: نقل ابن حجر أقوال العلماء فيه فقال ابن معين: هو كذاب خبيث، لم يكن بثقة، ولا مأمون.

وقال أحمد بن صالح المصري: كتبت عنه مئة ألف حديث ثم تبين لي أنه كان يضع الحديث، فتركتُ حديثه.

وقال أبو داود: كذابا المدينة، محمد بن الحسن بن زَبالة، ووهب بن وهب أبو البختري بلغني أنه كان يضع الحديث بالليل على السراج.

وقال الساجي: وضع حديثاً على مالك، ووضع كتاب مثالب الأنساب، فجفاه أهل المدينة.

وقال ابن حبان: كان يروي عن الثقات ما لم يسمع منهم.

وشرقي بن قطامي: (الوليد بن الحصين).. ضمَّ إليه المنصورُ المهديَّ ليأخذ من أدبه.

نقل ابن حجر في ترجمته «له نحو عشرة أحاديث فيها مناكير». وقال إبراهيم الحربي: شرقي: كوفيْ، تكلم فيه، وكان صاحب سمر.. وقال اليوسفي: كان كذّاباً. وروى شرقي عن عمر بن الخطاب: أنه كان يبيت من وراء العقبة[1]. فقال شعبة: حماري وردائي للمساكين إن لم يكن شرقيّ كذب على عمر.

.. وينقل عن هذين أكثر المتأخرين دون تحقيق في السند والمتن: أما السَّنَدُ: فلأنه لا سَنَد عند الرواة، ومن أين لابن زبالة، وشرقي، سندٌ يوصل أخبارهم إلى ما قبل الهجرة، بعشرة قرون؟.

وأما المتن: فلأن المؤلفين القدماء كانوا يَرَوْن في أخبار المدينة قبل الإسلام مما تجوز روايته على الظنّ، لأنها لا تتعلق بالأحكام الشرعية، ولذلك كانوا يجمعون ويلخصون وينقلون كل ما وقع نظرهم عليه من الأخبار، ويكون للحدث الواحد أخبار وروايات متعددة، ولعلهم يقولون: إن لم يصدق خبر صدق خبر آخر.. وعلى هذا المنوال، سار كلُّ مَنْ ألف في تاريخ المدينة النبوية أو نقل أخبارها في أماكن من مؤلفاته، وينقل اللاحق عن السابق، والمتأخر عن المتقدم، ثم تجتمع في مجلدات كبيرة. وقد طبعت هذه المؤلفات، وتداولها الناس في العصر الحديث على أنها أخبار صحيحة، وانكب المؤلفون على الاقتباس منها، والاستشهاد بما فيها من القصص والأسمار، وَبنَوْا عليها أحكاماً تاريخيّة.

(ب) وعندما فَعَل القدماء ما فعلوا في تآليفهم، كانوا مدفوعين بالنيّة

---

(١) العقبة: هي العقبة التي بويع فيها النبيّ ﷺ، وهي عقبة منى، ومنها ترمى جمرة العقبة. وهي مدخل منى من الغرب وحدّه الغربي.

الحسنة، ولم يخطر ببالهم ما سيحدث في القرون التالية، حيث نشؤوا في دولة إسلامية تعج بالعلم والعلماء، ولها من السلطان ما يهابه الأعداء.. ولم يتوقعوا أن يكون هناك استعمار أوروبـي لبلادهم، ولم يحسبوا حساباً للمستشرقين والمنصّرين، ولم يفكروا أن يأتي يوم يستخدم فيه الأعداء تاريخنا أداة لحربنا، والانتصار علينا.

ومَنْ كان يظنُّ أن أعداءَنا يسبقوننا في دراسة تاريخنا، ويتخرج جيل من مؤرخينا في جامعات أوروبا، ويأتي المستشرقون إلى بلادنا، ويدرّسون تاريخنا لأبناء العرب في الجامعات العربية؟.

لقد حصل كلُّ هذا في غفلة من المسلمين، فنشأ جيل من العرب، لا يعرفون من تاريخهم إلا الأباطيل والأسمار، وأخبار النزاع والفتن، وما ألصق بها من الروايات الموضوعة.. ونشأ عن ذلك وجود جيل متزعزع العقيدة، قليل الثقة بأمّته.. فإذا ناظرت أحدهم لترده إلى الحقّ، ولتعيد إليه الثقة بأمته قال: هكذا التاريخ يقول.. ويذكر لك عدداً من المصادر التاريخيّة، ويضع يدك على روايات مبثوثة، وليست مدسوسة. والرواة مؤلفون من العرب صُدّرت كتبهم بألقاب تدل على علو منزلتهم...

عندئذٍ، فُرضتْ علينا معركتان: الأولى: رَصْد ما شاع من الأخبار، وبيان كذبها وهذه معركة شرسة وشموس، لأن الأخبار الكاذبة قد ترسخت في عقول أجيال، وتداولها طلاب المدارس والجامعات، وأثبتت في الكتب الدراسية والمعركة الثانية: العودة إلى كتبنا التاريخية القديمة، ونقد نصوصها، والحكم على متونها وأسانيدها، لعلّ جيلاً جديداً ينبت وهو يميز الغث من السمين. وبناءً على ذلك قررنا تحقيق جوانب من تاريخ المدينة الجاهلي، ليقيننا أن تاريخ الأمة لا يتجزأ، لأنه تاريخ الأرض التي ندين لها بالانتماء، ونوليها كل ما عندنا من الحبّ...

(جـ) وسوف أرجع في تحقيق هذا الجانب، إلى كتاب «وفاء الوفا» للسمهودي، لأنه جمع كل ما أُلف قبله، ويُعدُّ المرجع الأول لمن يؤرخ للمدينة النبوية في العصر الجاهلي. . وجلُّ أخبار العصر الجاهلي، منقولة عن ابن زَبالة، والشرقي، والكلبي وأضرابهم، وينقل السمهودي عن كتب السابقين التي وصلته، أو عمن وصلت إليه. . . ومن العجيب أنه ينقل من الغرائب، مالا يقرّه عقل ولا نقل، بل يستخف بعقل القارىء. من ذلك ما نقله عن ابن زبالة عن زيد بن أسلم: أنَّ ضبعاً رؤيتْ وأولادها رابضةً في حِجَاجِ عين رجل من العماليق. والحجاج: بكسر أوله وفتحه: العظم الذي ينبتُ عليه الحاجب. وقال زيد بن أسلم: وكانت تمضي أربعمائة سنة وما يُسمع بجنازة. أقول: وإذا كان إنسان العماليق له هذا الحجم، فلماذا لا تكون ضبع العماليق متناسبة مع حجم الناس في ذلك الزمان؟ وإذا كان إنسان العماليق ــ قبل خمسة آلاف سنة ــ تربض الضبع في حجاج عينه، فلا بدّ أن يكون الإنسان أيام نوح، ومَنْ قبله، تربض الفيل في حجاج عينه؟ وإذا كان الإنسان يتدرّك نحو الصغر مع تعاقب الأزمنة، فإن الإنسان بعد مليون سنة سيصبحُ في حجم النملة. . ولعلّ رواة هذه الأخبار يقولون: إن الله اختص العماليق بهذا الحجم، فنقول لهم: هذا باطل، لأن الله أخبر أن الناس جميعاً من نسل آدم، ولن يكون بين السلالة الواحدة، هذا التفاوت من الأجسام، وقد رأينا بيوت قوم صالح منحوتة في الجبال، واكتشفت قبور الفراعنة، فلم نجد فيها ما يدل على ما وصفوا من ضخامة الأجسام وطولها. . وإليك أخباره في زمن وصول اليهود إلى المدينة وتعليقنا عليها:

الأول: أسند رزين عن أبي المنذر الشرقي، قال: سمعتُ حديث تأسيس المدينة من سليمان بن عبيد الله بن حنظلة الغسيل، قال: وسمعتُ أيضاً بعض ذلك من رجل من قريش عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عمار بن ياسر؛ قال: فجمعتُ بينهما لكثرة اتفاقه وقلة اختلافه. وذكر خبراً يقول: إن موسى عليه السلام حجَّ، وحجَّ معه أناس من بني إسرائيل، فمروا بالمدينة في انصرافهم،

فرأوا موضعها صفة بلد نبيّ يجدون صفته في التوراة بأنه خاتم النبيين، فتخلف منهم قوم ونزلوا في موقع سوق بني قينقاع.. فكان أول من سكن موضع المدينة:

١ ــ قوله: أسند رَزين هو رَزين بن معاوية السرقسطي الأندلسي متوفى سنة ٥٣٥هـ.. وأبو المنذر الشرقي متوفى آخر القرن الثاني ولا نعلم السند بينهما، ولا يصح الخبر لهذا الانقطاع.

٢ ــ أبو المنذر الشرقي: صاحب سمر غير موثوق، وموصوف بالكذب.

٣ ــ قوله: سليمان بن عبيد الله بن حنظلة: وإنما هو سليمان بن عبد الله بن حنظلة فعبد الله بن حنظلة، هو الولد الوحيد لحنظلة، وكان حنظلة لما أراد الخروج إلى أُحد، وقع على امرأته، فعلقت يومئذٍ بعبد الله، فولدته أمه بعد استشهاد أبيه. فقُتل عبد الله يوم الحرة سنة ٦٣هـ.

وذكر ابن سعد من أولاده «سليمان» ولم يذكره من التابعين، ولم يترجموا له في أهل الرواية (التهذيب ــ واللسان) فهو إذن ليس من أهل الرواية.

٤ ــ قال: وسمعت بعض ذلك من رجل من قريش.. وهو مجهول، والجهل بالراوي يطعن بالرواية.

٥ ــ وقال: عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عمار بن ياسر: وإنما هو عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار.. حيث ذكر أهل النسب أن لعمار ابناً اسمه محمد ولم يذكروا عبد الله. وذكروا رواية أبي عبيدة عن أبيه محمد بن عمار بن ياسر. وأبو عبيدة، وأبوه محمد، مُوثّقان...

ولكن الرواية لم تذكر أن أبا عبيدة روى عن أبيه عن جدّه، وإنما ذكرت نسب أبي عبيدة فقط... وإرسال أبي عبيدة لا يصحّ ولا يؤخذ به...

٦ ــ لم يُنقلْ إلينا حجُّ موسى عليه السلام بسند صحيح، كما سيأتي بيانه في روايات آتية.

٧ ــ ولذلك فإن الخبر لا يصح متناً ولا سنداً، وبناءً عليه يبطل الحكم بأن اليهود أول مَنْ سكن المدينة؛ لأن الخبر من الإسرائيليات الكاذبة، أو من اختراع أهل القصّة.

الخبر الثاني: أسند ابن زَبالة عن مشيخة من أهل المدينة، قالوا: كان ساكن المدينة في سالف الزمان، صعل، وفالج، فغزاهم داود عليه السلام، وأخذ منهم مئة ألف عذراء، قالوا: وسلط الله عليهم الدود في أعناقهم فهلكوا، وبقيت امرأة منهم تُعرف بزهرة.. فأرادت الخروج إلى بعض تلك البلاد، فلما دنت لتركب غشيها الدود، فقيل لها: إنا لنرى دوداً يغشاك، فقالت: بهذا هلك قومي...

١ ــ ابن زبالة، كذاب، لا تُنقل عنه الأخبار، وإنما تنقل عنه القصص والأسمار.

٢ ــ قال: عن مشيخة من أهل المدينة.. ولم يسمهم، ولو سماهم ما صحت أخبارهم لأنهم لم يرفعوا أسانيدهم إلى مصدر موثوق.

٣ ــ لم تذكر المصادر التاريخيّة أن داود عليه السلام غزا الحجاز.

٤ ــ قوله: «وأخذ منهم مئة ألف عذراء» لا يصحُّ، لأن سكان بقعة يثرب في ذلك الزمان، لن يبلغوا من الكثرة، بحيث يؤسر منهم مئة ألف عذراء، ولن تجد في سكان المدينة في زماننا ــ وقد زادوا أضعافاً مضاعفة ــ مئة ألف عذراء، هذا إذا عرفنا أن الأسر لا يشمل العذراوات فقط، وإنما يشمل أيضاً الرجال المحاربين.. وإذا أضيف هؤلاء إلى العذراوات، فإن داود عليه السلام يكون قد أسر حوالي مئتي ألف إنسان من أهل بقعة يثرب، وأنى لداود الجيش الذي يقدر على ذلك، وقد قالوا: إن عدد سكان مملكته في أوسع أدوارها لم يتجاوز نصف مليون إنسان...

٥ ــ فالقصة لا تصحُّ ولعلَّ واضع القصة، قد ذكر «مئة ألف عذراء»

اعتماداً على القصة الكاذبة التي يتناقلها أهل الكتاب، عن حبّ داود للنساء، وكونه قَتَل قائد جيشه، ليتزوج امرأته.. وهي قصة ملفقة، لا يجوز ذكرها في سيرة النبـيّ داود عليه السلام.

الخبر الثالث: أسند ابن زبالة عن عروة بن الزبير.. أن موسى عليه السلام، لما أظهره الله على فرعون، بعث بعثاً إلى الشام فأهلك مَنْ كان بها من الكنعانيين وبعث بعثاً آخر إلى الحجاز للعماليق وأمرهم أن لا يستبقوا أحداً منهم بلغ الحلم.. فجاؤوا إلى الحجاز وقتلوا ملك العماليق الأرقم بن أبـي الأرقم وأصابوا ابناً له، وكان شاباً من أحسن الناس، فلم يقتلوه، فعادوا إلى حيث موسى عليه السلام، فوجدوه قد قبض.. فلما عرف بنو إسرائيل خبرهم مَنَعُوهم من دخول البلاد لأنهم عصوا أمر نبيهم، فعادوا وعاشوا في المدينة...

١ ــ ابن زبالة، كذاب، يروي الكذب عن الموثوقين، وابن زبالة، لم ير عروة ولم يروِ عنه...

٢ ــ قوله: إن موسى، أو جيشه، أهلك مَنْ كان بالشام من الكنعانيين، لا يصحُّ في التاريخ، لأن موسى عليه السلام توفي ولم يستطع وقومه أن يدخل إلى فلسطين، وإنما دخلها اليهود بقيادة يوشع بعد موسى عليه السلام ولو كان أهلك الكنعانيين ما تأخر عن دخول فلسطين، وقد جَبُن اليهود عن دخول فلسطين وتقاعسوا عن الحرب معه، ولذلك ضرب عليهم التيه في سيناء أربعين سنة.

٣ ــ وبناءً على ما سبق، لا يصح أن موسى أرسل بعثاً إلى الحجاز ليقتل العماليق لأن الأمر الإلهي ينصُّ على التوجه إلى الأرض المقدسة، فلسطين.

ولم يتمكن بَعْدُ من تحقيق هذا الهدف، فكيف يرسل جيوشه لمحاربة العماليق في الحجاز؟ ورسالة الأنبياء قبل محمد عليه السلام كانت خاصة بأقوامهم، ولم يرسل موسى إلى أهل جزيرة العرب، أو الحجاز، وإنما أُرسل

إلى فرعون ولماذا يأمر موسى عليه السلام جيشه أن يقتل كلَّ مَنْ بلغ الحلم من أهـل الحجـاز أو أهـل المـدينـة، وفيهـم الصـالـح والطـالـح؟ وفيهـم المحـارب والمسالم، ولم يبلغوا برسالته ليكون قتلهم جزاء كفرهم.

٤ ــ فالقصة لا تصح سنداً ومتناً، وهي ممزوجة بكره اليهود للعرب، وكل مَنْ سكن الجزيرة العربية، منذ أن سكنها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

٥ ــ ونقل القصة صاحب الروض الأنف، عن أبـي الفرج الأصبهاني، وقال: إن السبب أن العماليق كانت تغير على بني إسرائيل من أرض الحجاز، وكانت منازلهم يثرب والجحفة ومكة، فشكت ذلك إلى موسى فوجه إليهم جيشاً.. وذكر القصة. وأبو الفرج الأصبهاني، صاحب كتاب الأغاني، لا يقلُّ كذباً عن ابن زبالة، وليس عنده سندٌ يصح لروايته.

الخبر الرابع: روى بعض أهل السير عن أبـي هريرة قال: وذكر أن هجرة اليهود إلى المدينة كانت زمن بختنصَّر...

ولم نعرف مَنْ هم أهل السير الذين نقلوا عن أبـي هريرة، ولم نعرف أسانيدهم.. فالخبر لا يصح سنداً. وأما المتن: فقد يخالف ما وقع في التاريخ، من أنَّ بختنصر سبـى اليهود جميعهم وحملهم إلى بلاده...

الخبر الخامس: قال: وأسند ابن زبالة وابن شبَّة عن جابر مرفوعاً: أقبل موسى وهارون حاجين، فمرا بالمدينة، فخافا من يهود فخرجا مستخفيين فنزلا أحداً فغشي هارون الموت، فقام موسى فحفر له ولحد ثم قال: يا أخي إنك تموت فقام هارون فدخل في لحده، فقبض عليه موسى التراب.

١ ــ ورجعتُ إلى رواية ابن شبة، فوجدت فيه:

قال أبو غسان (محمد بن يحيـى بن علي المدني) أخبرني عبد العزيز بن محمد الدراوردي، عن رجل من الأنصار عن عبد الملك بن جابر بن عتيك عن جابر بن عبد الله، عن النبـيّ ﷺ. (الحديث).

أما أبو غسان، فهو ثقة، وأما عبد العزيز الدراوردي، فهو ثقة عند أكثرهم وقال أحمد: كان معروفاً بالطلب، وإذا حدث من كتابه فهو صحيح وإذا حدث من كتب الناس، وَهِمَ، وكان يقرأ من كتبهم فيخطىء.

وعبد الملك بن جابر بن عتيك، ثقة، روى عن جابر، ولكن في السند مجهول وهو «عن رجل من الأنصار» مما يجعل الخبر ضعيفاً، ولم نقرأ الخبر عن طريق أخرى غير هذه الطريق...

ولذلك قال: وإسناد ابن شبة لا بأس به، غير أن فيه رجلاً لم يُسَمَّ، وسماه ابن زبالة، وذلك المسمى لا بأس به أيضاً، ولكن ابن زبالة لا يعتمد عليه في ذلك.

٢ ــ وللجمع بين رواية حجّ موسى السابقة حيث حج معه قوم من بني إسرائيل وبين رواية حج موسى وهارون، قالوا: إن حجة موسى مع هارون، كانت حجة ثانية. وهذا الجمع لا مبرر له، لأن الروايتين لم تصحا سنداً ومتناً.

الخبر السادس: روى السمهودي عن ابن زبالة عن عمرو بن عوف المزني، والطبراني أن رسول الله ﷺ، صلى في وادي الروحاء، وقال: «لقد صلى في هذا المسجد قبلي سبعون نبيّاً، ولقد مرّ بها ــ يعني الروحاء ــ موسى بن عمران في سبعين ألفاً من بني إسرائيل..».

١ ــ روى السمهودي الحديث عن الترمذي بلفظ «أن النبيّ ﷺ صلى في وادي الروحاء، وقال: لقد صلى في هذا المسجد سبعون نبيّاً» وليس فيه أن موسى عليه السلام مرّ به في سبعين ألفاً من بني إسرائيل.

٢ ــ قوله: «من بني إسرائيل» هذا يعني أن الذين حجوا مع موسى بعض بني إسرائيل ويعني هذا أيضاً، أن سبعينات الألوف الأخرى من بني إسرائيل لم تحج.. ويكون عدد بني إسرائيل في زمن موسى، بلغ مئات الألف، وهذا لا يصح تاريخيّاً، وذلك لما يلي:

أولاً: لقد دخل يعقوب مصر مع ولده الأسباط وأولادهم، حين ذهبوا إلى يوسف، وكان عددهم سبعين نفساً.

ثانياً: إن الذي بين موسى وإسرائيل (يعقوب) عليهما السلام أربعة آباء فهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب.

ثالثاً: وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى إلى التيه مئتين وعشر سنوات ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل العدد الذي يذكرونه لعدد بني إسرائيل.

رابعاً: لقد بلغت مملكة اليهود في أيام سليمان عليه السلام عنفوان قوتها واتساعها ومع ذلك، فإن الذي ثبت في الإسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفاً، وكانت خيوله ألفاً وأربعمائة فرس.. مع أنه كان بين سليمان ويعقوب أحد عشر أباً... [انظر مقدمة ابن خلدون ص ٨].

(د) ونخرج من دراسة الأخبار السابقة بالحكم، بأن نزول اليهود في المدينة لم يكن زمن موسى، ولا زمن داود، وابنه سليمان، ولم يكن أيام بختنصّر.. قلت: ولم يكن أيام بختنصّر، مع شهرة هذا الحدث من حياة اليهود، لأن بختنصّر، لم يترك لهم حرية الهجرة، لأنه أسر منهم خمسين ألف رجل، وحملهم إلى بلاده بابل، ولم يعودوا إلا عام ٥٣٨ق.م عندما استولى كورش على بابل. أما الكوارث الكبرى التي حاقت باليهود وأجبرتهم على الهجرة فهي ثلاث:

الأولى: سنة ٧٠م، عندما استطاع طيطوس الروماني فتح القدس، وأحرق المعبد الذي بناه هيرودوس.

الثانية: سنة ١٣٥م عندما استطاع هدريان الروماني أن يقضي على ثورة بركوكب ونكّل باليهود، ومنعهم من دخول القدس والسكن فيها، والدنو منها، وسمى المدينة المقدسة «إيلياء» وهو الاسم الذي عرفه المسلمون عند الفتح،

وشدد على اليهود من جميع أنحاء فلسطين، فأصابهم من معاملته أكثر مما أصابهم من طيطوس وبختنصّر.

الثالثة: سنة ٦٢٧م، عندما أعاد هرقل القدس من أيدي الفرس الذين استولوا عليها بمعونة اليهود.. فقد نكّل بهم هرقل ومنعهم من دخول القدس والإقامة فيه وجاء الفتح الإسلامي وهم على هذه الحال، وكتب عمر في عهده إلى أهل القدس شرطاً ألا يساكنهم أحد من اليهود...

فمن المحتمل أن تكون هجرة اليهود إلى الحجاز بدأت سنة ٧٠م، وتتابعت في موجات حسب ما يتعرضون له من مضايقات...

وقد روى ياقوت الحموي عن بعض علماء الحجاز من يهود، أن سبب نزولهم الحجاز أن ملك الروم ظهر على بني إسرائيل وملك الشام وخطب إلى بني هارون وفي دينهم ألا يزوجوا النصارى، فخافوا وأنعموا له، وسألوه أن يشرفهم بإتيانه إليهم، فأتاهم، ففتكوا به وبمن معه، ثم هربوا حتى لحقوا بالحجاز، فأقاموا بها.. وإذا صحت هذه الرواية فإن بداية هجرة اليهود إلى الحجاز كانت بعد سنة ٣٠٦م، لأن الرومان اعتنقوا الديانة المسيحية في عهد الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ ــ ٣٣٧م)، فهو الذي تنصّر وعمّم الديانة المسيحية، وبنى عدة كنائس، وهيلانة أمه هي التي أقامت كنيسة القيامة في القدس، وكنيسة المهد...

(هـ) وبهذا نستطيع أن نجزم أن نزول اليهود إلى أرض الحجاز، إنما كان بعد ميلاد المسيح عليه السلام، وأنهم وصلوا في أزمان متفاوتة، أقدمها سنة ٧٠م، وكان أكثرهم قد هاجر بعد سنة ٣٠٠م، عندما اعتنق حكام الرومان المسيحيّة، وبدأ الصراع الحقيقي بين أتباع الديانتين المسيحيّة واليهودية، والمعروف أن النصارى يحقدون على اليهود لاعتقادهم أنهم صلبوا المسيح، وآخر هجرة كانت قبيل الإسلام، في عهد هرقل في بداية القرن السابع الميلادي.

(و) وبهذا يسقط القول بسبقهم إلى سكنى المدينة، وأنهم قدموا إليها قبل الأوس والخزرج، فقد تبين معنا قبل قليل أن الأوس والخزرج جاءوا إلى المدينة في القرن الخامس قبل الميلاد، أو قبله. وإذا جعلنا هجرة الأوس في أعقاب خراب سدّ مأرب، ـ كما هو مشهور ـ فإن هجرتهم تكون هي الأسبق أيضاً، لأن خراب السدّ قد تمّ في القرن الثاني قبل الميلاد.

(ز) وقد روى بعض أهل السير أن بني إسرائيل كانوا يجدون محمداً ﷺ منعوتاً في كتابهم، وأنه يظهر في بعض هذه القرى العربية في قرية ذات نخل...

والصحيح في الخبر، أن محمداً عليه السلام، موصوف في التوراة، ولكن المكان المذكور في التوراة، هو مكة أو جبالها، وليس المدينة.. ولو أن اليهود جاءوا إلى الحجاز لاستقبال النبي المرتقب، لتوجهوا إلى مكة وليس إلى المدينة.. وأنقل هنا ما كتبه أحد أعلام اليهود وأحبارهم، بعد إسلامه، وهو السموأل بن يحيى المغربي، المتوفى سنة ٥٧٠هـ، حيث يقول في كتابه «إفحام اليهود».

إنهم لا يقدرون على أن يجحدوا هذه الآية من الجزء الثاني من السفر الخامس من التوراة: «نبياً أُقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك، فليؤمنوا به».

فإن قالوا: إنه قال: من وسط إخوتهم، وليس من عادة كتابنا أن يعني بقوله «إخوتكم» إلا بني إسرائيل.

قلنا: بلى: قد جاء في التوراة «إخوتكم بنو العيص» حيث قال: أنتم عابرون في تخم إخوتكم بني العيص المقيمين في «سعْير» إياكم أن تطمعوا في شيء من أرضهم. فإذا كان بنو العيص إخوة لبني إسرائيل لأن العيص وإسرائيل ولدا إسحق، فكذلك بنو إسماعيل إخوة لجميع ولد إبراهيم.

وإن قالوا: إن هذا القول إنما أُشير به إلى «شمواي‌كيل» النبي عليه السلام لأنه قال: من وسط إخوتهم مثلك، وشموائيل كان مثل موسى لأنه من أولاد «ليوي» يعنون من السبط الذي كان منه موسى.

قلنا لهم:

فإن كنتم صادقين، فأيّ حاجة بكم إلى أن يوصيكم بالإيمان بشموائيل وأنتم تقولون إنه لم يأت بزيادة ولا بنسخ؟ أأشفق من أن لا تقبلوه.

إنه إنما أُرسل ليقوّي أيديكم على أهل فلسطين وليردكم إلى شرع التوراة ومن هذه صفته فأنتم أسبق الناس إلى الإيمان به، لأنه إنما يُخاف تكذيبكم لمن ينسخ مذهبكم ويغيّر أوضاع ديانتكم، فالوصية بالإيمان به مما لا يستغني مثلكم عنه.

ولذلك لم يكن لموسى حاجة أن يوصيكم بالإيمان بنبوّة أرمياء وأشعيا وغيرهما من الأنبياء.

وهذا دليل على أن التوراة أمرتهم في هذا الفصل بالإيمان بالمصطفى ﷺ، واتّباعه.

وأما الإشارة إلى اسم محمد ﷺ في التوراة، فقال السموأل: قال الله تعالى في الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة مخاطباً إبراهيم الخليل عليه السلام: «وأما إسماعيل فقد قبلت دعاءَك ها أنا قد باركتُ فيه وأُثمره وأكثره جداً جداً».

وجاءَت كلمة «جداً جداً» في العبرية بلفظ «بماد ماد» وهذه الكلمة إذا عددنا حساب حروفها بالجمّل كان اثنين وتسعين، وذلك عدد حروف اسم محمد ﷺ فإنه أيضاً اثنان وتسعون. وهذه الموازنة:

بماد ماد: ب = ٢ + م = ٤٠ + أ = ١ + د = ٤ = ٤٧ م = ٤٠ + أ = ١ + د = ٤ = ٤٥. و ٤٧ + ٤٥ = ٩٢.

ومحمد: م = ٤٠ + ح = ٨ + م = ٤٠ + د = ٤ = ٩٢.

قال: وإنما جعل ذلك في هذا الموضوع مُلْغِزاً، لأنه لو صُرّح به لبدلته اليهود أو أسقطته من التوراة كما عملوا في غير ذلك.

وأما المكان الذي أُشير فيه إلى نبوّة الكليم، والمسيح والمصطفى عليهم السلام: فقوله من التوراة: «إن الله تعالى من سيناء تجلّى وأشرف نوره من سيعير واطلع من جبال فاران ومعه ربوات القديسي».

قال: وهم يعلمون أن جبل سيعير هو جبل الشراة الذي فيه بنو العيص الذين آمنوا بعيسى عليه السلام، بل في هذا الجبل كان مقام المسيح، ويعلمون أن سيناء هو جبل الطور، لكنهم لا يعلمون أن جبل فاران هو جبل مكة.

فأما الدليل الواضح من التوراة، على أن جبل فاران هو جبل مكة، فهو أن إسماعيل لما فارق أباه الخليل، سكن إسماعيل من برية فاران ونطقت التوراة بذلك في قوله:

«وأقام في بريّة فاران وأنكحته أُمه امرأة من أرض مصر».

فقد ثبت في التوراة أن جبل فاران مسكن لآل إسماعيل وإذا كانت التوراة قد أشارت في الآية التي تقدم ذكرها إلى نبوّة تنزل على جبل فاران، لزم أن تلك النبوة على آل إسماعيل لأنهم سكان فاران. وقد علم الناس قاطبة أن المشار إليه بالنبوّة من ولد إسماعيل: محمد ﷺ وأنه بعث من مكة التي كان فيها مقام إسماعيل.

فدل ذلك على أن جبال فاران هي جبال مكة وأن التوراة أشارت في هذا الموضع إلى نبوّة المصطفى ﷺ وبشّرت به إلا أن اليهود لجهلهم وضلالهم لا يحسنون الجمع بين هاتين الآيتين. وقد شهدت عليهم التوراة بالإفلاس من الفطنة والرأي، فقال تعالى: «إنهم لشعب عادم الرأي وليس فيهم فطانة».

الخبر السابع: من الأخبار الكاذبة، الموضوعة، الملفقة التي لا يصحّ لها سندٌ ولا متنٌ قصة الفِطيون، اليهودي، التي نقلها السمهودي وغيره من المؤلفين القدماء، وتناقلها المؤرخون في العصر الحديث. ومن العجيب أن السمهودي يذكر الخبر على أنه حقيقة واقعة ولا يستبعد حصوله ولا يحيطه بقليل من الشكّ،

فهو يذكر قبائل اليهود ويقول: «وأهل زهرة بزهرة، وهم رهط الفِطْيون وهو ملكهم الذي كان يفتضّ نساءَ أهل المدينة قبل أن يدخلْن على أزواجهن». (ص ١٦٤). وهم يذكرونها دليلاً على قوة اليهود في مبدأ الأمر، وضعف الأوس والخزرج لتفرقهم، ولكون اليهود كانوا السابقين إلى امتلاك الأراضي وزراعة النخيل، وبناء الآطام، وقد يريدون بذكرها أن تكون إرهاصاً للرسالة الإسلامية حيث كان الأوس والخزرج في ضعف، ثم صار أمرهم إلى قوّة، بعد قَتْل الفطيون والاستنجاد على اليهود بالعرب في اليمن أو في الشام.

والذين يروون القصة واحد من اثنين: إما أن يكون شعوبياً يكره العرب ويريد أن تدنس أنسابهم، ويصفهم بالذلّة. وإما أن يكون ذا عقل أعجمي جاهل.

فقد كانت المرأة النقطة الحساسة في شرف العرب ولذلك أحاطوها بسياج من القيود للحفاظ عليها حتى لا تسبب لهم الإساءَة.. ولذلك أيضاً كان العربي شديد الحذر، فيختار للحفاظ على حريمه الأماكن المخوفة والدار الصعبة الارتياد حتى ولو خلت من الماء والشجر، لئلا يتعرض للغزو ويلطخ شرفه شينٌ أو عار، فقال الأعشى:

ودار حفـاظ قـد حللنـا مخـوفـة ... سـراةٌ قليـل رعيهـا ونبـاتهـا

.. وكانت حماية النساء والأطفال خطة أساسية في فنهم الحربي، وكانت القدرة على حماية الظعينة عنصراً أساسياً من عناصر البطولة العربية، فجعلهم يطلقون على بعض أبطالهم «حامي الظعينة».. وما كان وأد البنات في الجاهلية إلا لأسباب منها الخوف على البنات من المهانة بيد الأعداء.. وتعددت أيام العرب، وحروبها من أجل المرأة، وما كان يوم ذي قار إلا لأن النعمان أبىٰ أن يزوّج بناته لملوك الفُرْس، وقال لقيط بن يعمر الإيادي يحذّر قومه من كسرى:

يـا قـوم لا تـأمنـوا إن كُنْتُـمُ غُيُـراً ... علـى نسـائكـم كسـرى ومـا جمعـا

هـو الفنـاء الـذي يجتـث أصلكـم ... فمـن رأى مثـل ذا رأيـاً ومَـن سمعـا

وقال عمرو بن معديكرب يذكر شجاعته:

لمـــا رأيـــتُ نســـاءَنـــا يفحصْـــن بـــالمعـــزاء شـــدّا

وبـــدت لميـــسُ كـــأنهـــا بـــدرُ السمـــاء إذا تبـــدّى

نـــازلـــت كبشهـــم ولـــم أر مـــن نـــزال الكبـــش بُـــدّا

.. وكيف نصدّق قصة تُروى بصور متعددة، تختلف فيها الأحداث، والأشخاص والأماكن، والأزمنة، ولم تُسند إلى مصدر موثوق، ومن أين يأتي الصدق إلى قصة موغلة في القدم، إذا لم يذكرها القرآن، ولم ترد في حديث صحيح أو ضعيف؟.

١ ـ فالذين يروون القصة: ابن زبالة عن مشيخةٍ من أهل المدينة!! ورزين عن أبـي المنذر الشرقي.. وياقوت الحموي بلا إسناد. والفيروزآبادي عن ياقوت الحموي، وروايات أخرى لم تنسب إلى كتاب.. ونقل السمهودي هذه الروايات على أنها صحيحة، أو أن بعضها صحيح.. والحقّ أن كل ما رُوي حول القصة لا يصحُّ، لأن الزمن الفاصل بين زمن أحداث القصة المزعومة وزمن الرواة، يصل إلى مئات السنين، وكيف يتداول الناسُ قصة غير مكتوبة مئات السنين، ولا يدخلها الكذب؟.

٢ ـ وهذه روايات القصة، لتعرف مدى التباين بينها:

الأولى: قال ابن زبالة: «وكانت لا تُهدى عروس بيثرب من الحيّيْن الأوس والخزرج حتى تدخل على الفطيون فيكون هو الذي يفتضها قبل زوجها.. فتزوجت أختُ مالك بن العجلان رجلاً من قومها، فبينا مالك في نادي قومه إذْ خرجت أختُه فُضُلاً، فنظر إليها أهل المجلس فشقَّ ذلك على مالك فدخل فعنّفها وأنّبها، فقالت: ما يُصنع بـي غداً أعظم من ذلك، أُهدى إلى غير زوجي.. فلما أمسى مالك اشتمل على السيف ودخل على الفطْيون متنكراً مع النساء، فقتل الفطيون وانصرف إلى دار قومه.. ثم بعث إلى مَنْ وقع بالشام من قومهم،

يخبرونهم بحالهم ويشكون إليهم غلبة اليهود وكان رسولهم الرمق بن زيد الخزرجي وكان قبيحاً دميماً شاعراً بليغاً فقدم على أبـي جبيلة، وأخبره بما جاء به، وأنشده من شعره فتعجب من شعره وبلاغته وقبحه ودمامته وقال: عسل طيب في وعاء خبيث، فقال الرمق: أيها الملك إنما يُحتاج من الرجل إلى أصغريه، لسانه وقلبه، فقال: صدقت، وأقبل أبو جبيلة في جمع كثير لنصرة الأوس والخزرج. وفي القصة من نواحي الضعف ما يلي:

١ ــ الراوي ابن زبالة، بدون سند.

٢ ــ قوله فتزوجت أخت مالك بن العجلان.. الخ يدلُّ على أن مالك ابن العجلان لم يكن عارفاً بما يحدث لفتيات قومه وأنه فوجىء بما حدث لأخته مع أن الأمر كان يحدث ــ كما زعم ــ زمناً طويلاً.

٣ ــ سكوت الأوس والخزرج على هذه الحال مدة طويلة لا يصحُّ.

٤ ــ تنكّر مالك بن العجلان في زيّ النساء، لا يصح، ولا يتفق مع ما ذكروا من شجاعته وفروسيته.

٥ ــ لم يستنفر مالك بن العجلان الأوس والخزرج قبل الاستنجاد بعرب الشام. فلم يكن الأوس والخزرج على حال من الضعف والذلة بحيث يعجزون عن أقل أنواع المقاومة.

٦ ــ قالوا: إن أبا جبيلة من الخزرج... وقالوا: من ولد جفنة بن عمرو بن عامر وقالوا: إن أبا جبيلة غساني من الخزرج.. وهذا الاختلاف في نسبه يجعله أقرب إلى الخيال.

٧ ــ ليس في ملوك الغساسنة مَنْ يسمى أبا جُبيلة.

٨ ــ كيف يغضب مالك لرؤية أخته متبذلة، ولا يغضب لأن أخته تزفُّ إلى غير زوجها؟.

الرواية الثانية: نقل رَزين عن الشرقي ما يقتضي أن مالك بن العجلان هو الذي توجه بنفسه وأن ما ذكر من سيرة الفطيون في افتضاض الأبكار إنما كانت في غير الأوس والخزرج وأنه أراد أن يسير فيهم بذلك، فقتله مالك بن العجلان.. وفي الرواية أن مالك بن العجلان كان غائباً فخرجت أختُه تطلبه.. قال وجاء أبو جبيلة بجيش كبير، ونزل في طرف المدينة، وخرج إليه أشراف بني إسرائيل فأمر لهم بطعام حتى اجتمعوا فقتلهم جميعاً فلما فعل ذلك صار الأوس والخزرج أعزّ أهل المدينة.

.. وهذه الرواية تدل على أن الفطيون لم ينل من بنات الأوس والخزرج، وهو ما يتفق مع أحوال العرب الاجتماعية.

الرواية الثالثة: أن مالك بن العجلان لما قتل الفطيون قصد اليمن إلى تبّع الأصغر فشكا إليه ما كان الفطيون يسير فيهم.. فجاء تبع إلى المدينة وأذل اليهود.

الرواية الرابعة: ذكر ابن قتيبة في «المعارف» مجيء تبّع الأصغر إلى المدينة، ولم يذكر فيها قصة الفطيون، وإنما قال: فأتاه قوم كانوا وقعوا إلى يثرب ممن خرج مع عمرو مزيقاء، فشكوا اليهود وذكروا سوء مجاورتهم، ونقضهم الشرط الذي شرطوه لهم عند نزولهم.. فأحفظه ذلك فصار إلى يثرب ونزل في سفح أحد وبعث إلى اليهود فقتل منهم ٣٥٠ رجلاً صَبْراً، وأراد خرابها، فقام إليه رجل من اليهود، وأخبره أن هذه القرية ستكون مهاجر نبي من ولد إسماعيل يخرج من مكة، فكفّ تبع ثم رجع إلى اليمن ومعه حبران من يهود، ودان بدينهما وآمن بموسى.

وفي القصة من الضعف، أنه أراد أن يخرب يثرب، فنهاه اليهودي عن ذلك.. وكيف يقتل من اليهود مَنْ قتل ثم يسمع إلى مشورة أحدهم؟ ثم إن خراب يثرب يضرّ بالأوس والخزرج الذين استنجدوا به، وكان الواجب أن يضمّ أموال اليهود إلى الأوس والخزرج.

الرواية الخامسة: ونقل ياقوت الحموي أن القصة حصلت في طسم وجديس باليمامة فقال: إن طسماً وجديساً أقاموا باليمامة وكثروا بها حتى ملكوا عليهم عمليق الطَّسْمي، وكان جباراً غشوماً.. وأمر ألا تزوج بكر من جديس حتى تدخل عليه فيكون هو الذي افترعها، ولقُوا منه ذلاًّ، حتى زوجت منهم أخت الأسود بن غفار سيد جديس، وكان جَلْداً، فلما كانت ليلة الإهداء خرجت والقيان حولها لتُحْمل إلى عمليق وهنَّ يقلن:

أبَـديْ بعمليـق وقـومـي فـاركبـي وبـادري الصبـحَ بـأمـر معجـب
فسـوف تلقيـن الـذي لـم تطلبـي ومـا لبكـر دونـه مـن مهـرب

ثم دخلت على عمليق فافترعها، وقيل: كانت أيدة فامتنعت عليه فخاف العار فوجأها بحديدة في قبلها فأدماها، فخرجت وشقت ثوبها من خلفها ودماؤها تسيل، فمرت بأخيها في جمع من قومه وهي تبكي وتقول:

لا أَحَـدٌ أذلَّ مـن جـديـس أهكـذا يُفْعَـلُ بـالعـروس

.. فأغضب ذلك أخاها، ووقفها على نادي قومه، فامتلأت جديس غيظاً، فقال الأسود: أطيعوني فإنه عزُّ الدهر وقد رأيتُ أن أصنع للملك طعاماً ثم أدعوه وقومه، فإذا جاءونا قتلتُ الملك، وقام كلٌّ منكم إلى رئيس منهم فقتله... ونفذت الخطة.. قال: فهرب رجل من طسْم حتى لحق بتبّع تبان بن أسعار، وقيل: بحسان بن تبّع الحميري وكان بالمدينة فاستغاثه، فوعده بنصره.. وسار تبع من المدينة في جيوشه.. نحو اليمامة.. وفي بقيتها قصة زرقاء اليمامة التي تبصر من بُعْد.

ونلاحظ في القصة ما يلي:

١ ــ أوجه الشبه بين قصة الفطيون، وقصة عمليق ملك طسم وجديس. في يثرب: الأوس والخزرج ــ وفي اليمامة طسم وجديس. وفي القصتين: صناعة الطعام للمغدور بهم. وفيهما أن الذي انتقم للفتاة أخوها..

٢ ــ وجود قصة زرقاء اليمامة، مع التشابه بين القصتين، يدل على أن القصة رمزية، فيها الكثير من الخرافة.

والحكم النهائي على قصة الفطيون، أنها قصة يمتزج فيها الواقع بالخيال، والحقيقة بالخرافة، بل إن أكثر أحداثها موضوعة، ولا يُعتد بها في التاريخ؛ لأنه لا يمكن الجمع بين رواياتها المختلفة، ولا يقرها عقل، ولا تتفق مع طبائع العرب.

قال الأستاذ محمد عزة دروزة ــ رحمه الله ــ : «ولقد روى الرواة العرب خبر غزو أبـي جبلة ملك غسان، أو تبع الأصغر، ملك حمير، ليثرب وتنكيله باليهود تنكيلاً شديداً ذلوا من بعده، في سياق عجيب مفاده (القصة).. والخبر عجيب منكر، وقد وصفه بعض الباحثين بالخرافي، ونحن نرجح ذلك أيضاً». ثم قال: ولكننا لا نرى ما يمنع أن يكون بعض زعماء الأوس أو الخزرج قد ذهب إلى أحد ملكي العرب فحرضه على اليهود لمناسبة من المناسبات...

ولكننا لا نعرف إن كان قد لبّـى أحدهم النداء، وكان ما قالوا من قَهْر اليهود. وقد كثر الحديث في الكتب التاريخيّة، عن «تبّع» من التبابعة جاء إلى يثرب أو مرّ بها، ولكننا لم نعرف بالتحديد السبب الذي جعله يعرّج على يثرب.. لأن أخبار التبابعة مضطربة، وكانت موضوعاً خصباً لأهل القصة فامتزجت بالخيال والأسطورة، ولذلك قال ابن حزم في الجمهرة (ص ٤٣٩): «وفي أنسابهم (التبابعة) اختلاف وتخليط، وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة، ولا يصحُّ من كتب أخبار التبابعة وأنسابهم إلا طرف يسير، لاضطراب رواتهم وبُعْد العهد». وكل ما تحقق لدينا من أخبارهم أن القرآن ذكر قوم «تبّع» في سورة الدخان في قوله تعالى: ﴿أهم خيرٌ أم قوم تبَّع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين﴾ [٣٧].

قال الزمخشري: «تبَّع: هو تبع الحميري كان مؤمناً وقومُه كافرين ولذلك

ذم اللَّهُ قومه ولم يذمّه، قال: وهو الذي سار بالجيوش، وحيّر الحيرة وبنى سمرقند وقيل هدمها، وكان إذا كتب قال: بسم الله الذي ملك برّاً وبحراً».

وقال تعالى: ﴿وأصحاب الأيكة وقوم تبّع كل كذَّب الرسل فحق وعيد﴾ [ق: ١٤]. وجاء في الأحاديث قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تسبّوا تبعاً فإنه كان قد أسلم»[1] وقوله عليه السلام: «ما أدري أكان تبّعُ نبياً أو غير نبـيّ» وعن ابن عباس أنه كان نبياً. [الكشاف سورة الدخان].. ولكننا لا نعلم علم اليقين مَنْ تبعٌ هذا، وما عصره، وهل هو المذكور في تاريخ المدينة؟ لأن ملوك التبابعة كثيرون.

ويذكر المؤرخون أن تبّع الأوسط، بن كليكرب، وهو أسعد أبو كرب، كان قد أسلم قبل البعثة النبوية، وينسبون إليه أنه قال شعراً:

شهـــدتُ علـــى أحمـــد أنـــه ... رســـول مـــن الله بـــاري النســـمْ

فلـــو مُـــدَّ عمـــري إلـــى عمـــره ... لكنـــت وزيـــراً لـــه وابـــن عـــمْ

.. ويقولون إنه كسا الكعبة.. قال ابن قتيبة: وكان ملك تبع الأوسط ثلاثمائة وعشرين سنة. [المعارف ٦٣٢].

وقال محمد عزة دروزة [بنو إسرائيل من أسفارهم ٣٩٤]: «ولقد ذكرت الروايات العربية، وأيدتها المدونات اليونانية والرومانية والحبشية القديمة أنَّ ملكاً من ملوك حمير اسمه «تبان أسعد أبو كرب» مرّ في إحدى غزواته بيثرب، فجاءَه حبران من أحبار اليهود فأعجب بهما واتبع دينهما وأخذهما معه إلى اليمن ودعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه فأجابوه، ويخمّن أن ذلك كان في القرن الخامس بعد الميلاد وكانت النصرانية قد سبقت إلى اليمن من الحبشة في القرن الرابع الميلادي فحصل بين أتباع الديانتين صراع، كسب اليهود فيه الجولة الأولى على النصارى في القرن السادس في عهد الملك الحميري ذي نواس حيث اشتد

(١) رواه الإمام أحمد ٥/ ٤٠ عن سهل بن سعد.

اضطهادهم على يد هذا الملك، فأمر بحفر أخدود طويل وتأجيج النيران فيه وإلقاء الذين يصرّون على نصرانيتهم ولا يعتنقون اليهودية. . .

وقد أشارت إلى هذا الاضطهاد رسالة وجهها مار شمعون، أسقف بيت أرشام إلى رئيس دير جبلة، وأورد نصَّها يوحنا الأقسمي في تاريخه الكنسي حيث وصف ما سمعه من شهود عيان من أهل اليمن من تعذيب نصارى نجران سنة ٥٢٤م.

وقد جرَّ هذا الاضطهاد على اليمن غزو الأحباش في الثلث الأول من القرن السادس، فتمكنوا من نسف الدولة الحميرية وبسط سلطانهم على بلادها نحو سبعين سنة، وخلال ذلك كال النصارى لليهود بكيلهم حتى أفنوهم أو كادوا».

وكان يُظَنّ أن قصة أصحاب الأخدود الواردة في القرآن (سورة البروج) تشير إلى ما حصل في نجران أيام ذي نواس. ولكن ما رواه مسلم والترمذي وغيرهما من حديث صهيب، أن قصة أصحاب الأخدود الواردة في القرآن ليست هي التي حصلت أيام ذي نواس [انظر فتح الباري ٨/ ٦٩٨].

لأن قوله تعالى: ﴿قُتِل أصحاب الأخدود﴾ دعاء على مَنْ حفر الأخدود وعذّب الناس فيه، ولو كان ذو نواس، وقومه من اليهود، من المؤمنين برسول الله كما قيل ـــ إن تبعاً كان مؤمناً ـــ ما فعل بالنصارى ما فعل، لأن الذين أخبر الله عنهم بأنهم حرقوا في الأخدود كانوا من المؤمنين. . ثم إن نصارى نجران يظهر أنهم لم يكونوا من المؤمنين بإنجيل عيسى المنزل عليه من الله، وإنما كانوا من أتباع الإنجيل المحرف المبدل، والدليل على ذلك أنهم كانوا من أتباع أبرهة الحبشي الذي جهز جيشاً لهدم الكعبة والمعروف أن الإنجيل فيه تصريح باسم النبي محمد ﷺ. . ولو كان عندهم الإنجيل الحقيقي ما تابعوا أبرهة على ضلاله، وما بقي أحد منهم على نصرانيته بعد الإسلام. . والثابت أن نصارى نجران، أجلاهم عمر بن الخطاب، بناءً على وصية رسول الله ﷺ، أن

لا يجتمع في جزيرة العرب دينان، وكانوا قد وفدوا على رسول الله ﷺ ولكنهم لم يسلموا، وبقوا على نصرانيتهم.

٥ ـ هل تصحُّ لليهود في المدينة نسبةٌ عربية؟ وهل كان في العرب جماعات متهوّدة؟ الجواب: لا تصحُّ لليهود في المدينة نسبة عربية، ولم يكن عند مجيء الإسلام في بلاد العرب جماعات عربية متهوّدة.. قد يكون هناك أفراد من العرب تهوّدوا، كما يذكرون عن السموأل، إن صحت نسبتُه العربية أو صحت الأخبار التي ينقلونها عنه، في الوفاء.

ولذلك فإن ما ذكره جواد علي في كتابه «العرب قبل الإسلام» أنَّ بني النضير وبني قريظة، كانوا قبائل عربية متهودة، لا يقوم على أساس صحيح، وليس عنده دليل صحيح ثابت على ما قال.

وقد وقع في الخطأ نفسه، بل زاد عليه، فئة من المؤرخين في العصر الحديث، ممن يسكنون المدينة، ويدَّعون أنهم يدافعون عن تاريخ عاصمة الإسلام الأولى، أذكر من هؤلاء: محمد عيد الخطراوي في كتابه «المدينة في العصر الجاهلي» والدكتور أكرم العمري، رئيس المجلس العلمي في الجامعة الإسلامية بالمدينة، وذلك في كتابه «المجتمع المدني في عهد النبوّة».

ومن العجيب أن الأخير جعل كتابه «محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد الروايات التاريخيّة» ومع ذلك يقبل الروايات الضعيفة والمتهالكة، لأنها تصلح ـ بزعمه ـ أساساً للدراسة التاريخية التي لا تتطلب درجة الصحة التي تقتضيها روايات الأحكام الشرعية [ص ١١١].

ويحكّم رأيه في الأخبار، فيجعل بعضها من أخبار الأحكام الشرعية، وبعضها الآخر مما لا علاقة له بالأحكام الشرعية، فيتساهل في قبوله. والمؤرخ، إذا لم يكن ذا وعي شرعي، وذا وعي بقضايا الوطن الإسلامي ـ وحبُّ الوطن من الإيمان ـ فإنه لا يصلح أن يكون مؤرخاً. ومن المعلوم ـ اليوم ـ أن تاريخ

الشعب، والحضارة التي سادت في عصر ما من عصور الوطن، يُعدُّ جزءاً من تراث الأمة، يجب أن تدافع عنه الأمة، كما تدافع عن كيانها. . فالمؤلف ــ أكرم العمري، الذي يحقق تاريخ الإسلام، لا يرى بأساً من قبول الروايات الهزيلة التي تجعل لليهود سابقة ومجداً وتوسعاً في المدينة النبوية ولا يرى بأساً في الأخذ بآراء المستشرقين، وتفضيلها على آراء أعلام الإسلام.

فهو يرجّح أن تكون هجرة الأزد (قوم سبأ) من اليمن، لأسباب الاضطرابات السياسية والتدهور الاقتصادي الذي نجم عن سيطرة الرومان على البحر الأحمر وانتقال تجارة الهند عبره. . .

مع أن القرآن الكريم حكم في الموضوع، وقال إن الله أرسل عليهم سيل العرم، فكان سبباً لخراب ديارهم.

ويقول (ص ٥٨): «وعُرف من أسماء القبائل اليهودية قبل الهجرة، بنو قينقاع الذين تختلف الآراء في كونهم عرباً تهودوا أو أنهم نزحوا مع النازحين إلى الحجاز. .».

مع أن البخاري روى في صحيحه «أن رسول الله ﷺ، أجلى بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام» [الفتح ٧/ ٣٢٩]. وقال ابن حجر في الفتح، باب مناقب عبد الله بن سلام. . من بني قينقاع، وهم من ذرية يوسف الصديق. وقال في ترجمته في «الإصابة»: «عبد الله بن سلام بن الحارث أبو يوسف من ذرية يوسف عليه السلام، وكان من بني قينقاع». وسوف أذكر فيما بَعْدُ أدلة أخرى على أن يهود المدينة بعامة، لا يمتون إلى النسب العربي.

وينقل عن «وفاء الوفا» أسماء قبائل، يقول إنهم اختلفوا في عربيتهم، أو يهوديتهم ويسيء في النقل، فيعزو إلى صفحات في الكتاب، لا يوجد فيها ما ذكره، مما يدل على أنه لا ينقل عن المصدر الأصلي، والسمهودي إنما يقول في ص ١٦٢، نقلاً عن ابن زبالة «كان من العرب مع يهود قبل الأنصار. .»

ويذكر أسماء قبائل العربية، ولم يقل إنهم يهود أو تهوّدوا، وإنما يقول إنهم كانوا موجودين بصفتهم العربية قبل قدوم الأوس والخزرج.. ومع هذا فإن ابن زبالة مشهور بالكذب والاختلاق.. ثم إن كتاب «وفاء الوفا» بصورته المطبوعة لا يصح الاعتماد عليه دون تحقيق النصوص المنقولة عنه، لأنه كثير التحريف ولذلك فهو ينقل عن السمهودي اسم قبيلة «بنو مريد» من بَلَيّ، وإنما هم بنو المجذّر بن زياد، ويسمي بني «بهدل» وهم بنو «هدل» بدون باء. ويبني أكرم العمري كتابه على وثيقة نقلها ابن هشام عن ابن إسحق، بدون إسناد يقال إن النبيّ ﷺ كتبها في بدء الهجرة، ويسميها: دستور المدينة، أو المعاهدة، بين المهاجرين من جهة، والأنصار من جهة، والمسلمين من جهة، واليهود من جهة أخرى.. وتذكر الوثيقة اليهود بعامة ثم تضيف «يهود» إلى بني عوف وبني النجار وبني الحارث.. إلخ من قبائل الأوس والخزرج، ويرى المؤلف أن هذه الإضافة تعني أن هؤلاء عرب متهوّدون. ومع أن الوثيقة ليس لها سندٌ ثابت، فإن الإضافة لا تعني أن المضاف من العرب المتهودين، وإنما تعني الحلف فقط فعندما ذكر «يهود بني عوف» أراد اليهود المحالفين لآل عوف.

وقد نعود إلى الوثيقة عند الحديث على صدر الإسلام.

الخلاصة: أن اليهود الذين كانوا في المدينة، كانوا غرباء عنها، ولا يصح وجود عرب تهوّدوا إلا أفراد قلائل، قد يعدون على أصابع اليدين، ودليلنا على ذلك من القرآن والسنة، والسيرة، وكتب الأنساب:

أولاً: من كتب الأنساب، في كتاب ابن حزم «الجمهرة» باب في ديانات العرب ذكر القبائل العربية المتنصّرة، وقال: «وكانت حميرُ يهوداً وكثيرة من كندة» فلم يذكر قبائل المدينة، التي يزعمون أنها من العرب المتهوّدة. وأما حمير وكندة، فالذي يظهر أن اليهودية فيها أيام تبّع، وقد انتهوا بمجيء الحبشة إلى اليمن، كما سيأتي. ولو كانت النضير، وقريظة، وقينقاع، من العرب، لذكرت أنسابها في قبائل العرب، ولكن ابن حزم لم يذكر لهم نسباً في العرب.

أما السموأل، الذي يقولون إنه يهودي من العرب: فإن قصته أقرب إلى الأساطير وجلُّ شعره المنسوب إليه، منسوب إلى غيره، ومنه أشهر شعره، وهي اللامية التي مطلعها:

إذا المرءُ لم يدنس من اللؤم عرضُه　　　فكــلُّ رداءٍ يــرتــديــه جميــلُ

حيث تنسب إلى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، الشاعر الإسلامي (الحماسية ١٥) وقصته في الوفاء، مع امرىء القيس، ليس لها مصدر إلا كتب الأدب، وأيام العرب.. وكثير من القصص الجاهلي، قصص رمزي، ربما لا تكون هناك حقيقة لشخصيات القصة.. وكذلك فإن قصة امرىء القيس، وحروبه، لا تعتمد على سندٍ صحيح، وإنما نقرأها ونرويها على أنها قصص أدبي، لا أنه تاريخ حقيقي...

وقالوا في الأخبار: إن السَّمَوْأَلَ يهودي..: ولكن متى دخل في اليهودية؟ وهل كان أجداده من اليهود؟ لقد ذكر أهل النسب أنه: السَّمَوْأَلَ بن حيّا بن عادياء بن رفاعة بن الحارث.. وأنّه كان غسانياً. السَّمَوْأَلَ: اسم يهودي، وكذلك: حيّا و عادياء [الاشتقاق لابن دريد ٤٣٦]. فهل كان رفاعة هو الذي تهوّد؟ فإن كان جدُّ أبيه هو الذي تهوّد، فالأسرة إذن عريقة في اليهودية، وقد نسيت عروبتها، وعادات قومها في الوفاء وحماية الجار، ويمتنع على مَنْ كان ذا عروق يهودية أن يكون وفياً هذا الوفاء الذي ذكروه، لأن اليهود أول ما يعلمونه لأبنائهم الغدر بالناس، وبخاصة العرب، لأن عداوتهم للعرب قديمة وموروثة، منذ منعهم الكنعانيون العرب من دخول فلسطين، بل منذ ولد إسماعيل، وصار أباً للعرب.

ثانياً: من القرآن الكريم: ولم أؤخر دليل القرآن، لتأخره في المنزلة، فهو أول الأدلة مرتبة، وإنما ذكرت ما جاء من كتب الأنساب أولاً، لأقول إن القرآن وصف واقعاً، أو ليكون شاهداً لما ذكرته كتب الأنساب.

فالآيات القرآنية التي خاطبت يهود الحجاز، نسبتهم إلى «إسرائيل» دون استثناء وربطت بينهم وبين بني إسرائيل الأولين من لدن موسى، بل من لدن يعقوب، الذي كان «إسرائيل» اسمه الثاني. فقال تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم﴾ [البقرة: ٤٠] الآية. وقال تعالى: ﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم﴾ [البقرة: ٢١١]. والنداء في الآية الأولى، ليس حكاية عن الماضي، وإنما هو نداء لليهود الموجودين.. وفي الآية الثانية الأمر «سل» إنما هو أمر للنبي ﷺ، لكي يسأل اليهود في زمانه.

ثالثاً: إنَّ اللغة العبرية كانت لغة كتبهم وطقوسهم ومدارسهم وتخاطبهم فيما بينهم، وقد جاء في الأحاديث ما يؤيد ذلك؛ لما روى ابن حجر في «الإصابة» عن البخاري والبغوي، وأبي يعلى.. عن زيد بن ثابت قال: «أُتي بي النبيّ ﷺ، مقدمه المدينة، فقيل: هذا من بني النجار، وقد قرأ سبع عشرة سورة، فقرأت عليه فأعجبه ذلك، فقال: تعلّمْ كتاب يهود، فإني ما آمنهم على كتابي، ففعلتُ فما مضى لي نصف شهر حتى حذقْتُه، فكنتُ أكتبُ له إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأتُ له» وفي رواية أخرى: «قال لي النبيُّ ﷺ إني أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا عليّ أو ينقصوا فتعلمْ السريانية[1] فتعلمتها في سبعة عشر يوماً» [الإصابة ــ ترجمة زيد بن ثابت]. وقريب من لفظ الحديث الأول عند الترمذي أيضاً. [التاج الجامع لأصول أحاديث الرسول ٥/ ٢٣٠].

(١) قوله: السريانية: ولم يقل «العبرانية» وفي روايات «كتاب يهود» يعني كتابتهم. ولعله كانت بين اليهود لغتان: الأولىٰ، للطقوس الدينية، وهي العبرية، والثانية، لغة التخاطب وهي «السريانية» ويؤيد هذا، أن اللغة السريانية، وهي لهجة من الآرامية، كانت سائدة في فلسطين وسورية، من نحو القرن الخامس قبل الميلاد، وعندما فتح المسلمون سورية كانت اللهجة السريانية هي اللغة المحكية. وقد قدم اليهود إلى الحجاز، في زمن كانت تسود فيه السريانية. ولعل زيداً تعلّم السريانية أيضاً لقراءة الكتب التي تأتي إلى رسول الله من الشام والروم، ويكون زيدٌ تعلّم اللغتين: العبرية والسريانية.

ويؤيد ذلك أيضاً ما رواه ابن سعد ٢/ ٩١ في الطبقات، في ذكر سريّة عبد الله بن عتيك، إلى أبـي رافع سلام بن أبـي الحقيق النضري، بخيبر. . حيث أمر رسول الله ﷺ بقتله؛ لأنه حرض العرب على محاربة المسلمين، بعد رحيله مع قومه إلى خيبر. . قال ابن سعد: «فقدّموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يرطن باليهوديّة، فاستفتح وقال: جئت أبا رافع بهديّة، ففتحت له امرأته. . ». والخبر يفيد أمرين: الأول: أن اليهود في خيبر كان يتخاطبون باليهودية، والثاني: أن لغة بني النضير الذين منهم الزعيم اليهودي والذين كانوا يقطنون المدينة، هي أيضاً لغة يهودية.

ويستلهم هذا أيضاً من بعض الآيات القرآنية، لقوله تعالى: ﴿وهذا كتابٌ أنزلناه مبارك فاتبعوه، واتقوا لعلكم ترحمون * أن تقولوا إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أُنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله، وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾ [الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧]. والمخاطب في الآيات العرب، بسبيل التنبيه إلى أن الله قد أنزل الكتاب على النبـي محمد ﷺ لئلا يقولوا: إن الكتب الإلهية السابقة أُنزلت بغير لغتهم وأنه لو أُنزل عليهم كتاب بلغتهم لكانوا أهدى من الأمم التي جاءَتهم تلك الكتب. وهي بهذا الشرح تنطوي على دلالة أن الكتب التي كان يتداولها اليهود هي غير عربية اللغة.

رابعاً: لقد أجلى النبـيُّ ﷺ اليهود عن المدينة والقرى الأخرى، فلم يكن لجلائهم أيُّ أثر. . حيث يدل كلُّ هذا دلالة حاسمة على أن الكتلة اليهودية في الحجاز كانت من بني إسرائيل، وكانت طارئة على الحجاز. . ولو كانت هناك كتل عربية متهودة لظهر أثر ذلك في القبائل الأخرى المسلمة، لوجود النسب، والحلف بين القبائل العربية. . بل نقول: لو كانت لليهود كثرة وغلبة وانتشار وتأثير في المجتمع اليثربـي، لانتشرت لغة يهود بين العرب، لأن الأمة القوية

الغالبة تغلب لغتها وتنتشر، ولكننا وجدنا عند مقدم رسول الله إلى المدينة أنه لم يجد مَنْ يعرف لسان يهود من الأوس والخزرج، فطلب من زيد بن ثابت أن يتعلمه، وعرفنا ممن يعرف لغة يهود، عبد الله بن عتيك الذي أرسله رسول الله في سرية إلى خيبر، ومع ذلك وُجد من اليهود مَنْ يجيد نظم الشعر العربي، ولعل بعضهم فعل ذلك، لفرط تأثره بلغة العرب، ولكثرة اختلاطه بالمجتمع اليثربي، وربما فعلوا ذلك، لاتخاذه سلاحاً، حيث كان الشعر سلاح الإعلام والهجاء في العصر الجاهلي.

وبذلك يسقط القول، أو الشك في عروبة أو تهوّد، أو إسرائيلية القبائل الثلاث: «النضير، وقريظة، وقينقاع، بل لا يصح القول بوجود جماعات متهودة من القبائل العربية في المدينة، كما فهم ذلك مَنْ فهمه من إضافة «يهود» إلى القبائل العربية في المدينة. والحقيقة أنها إضافة حلْفٍ، لا إضافة «دين» وأما في بقية الجزيرة العربية، ولا سيما في اليمن، فلم يكن في العهد النبوي كُتل يهودية لأن كتب السيرة لم تتضمن أيّة إشارة إلى وجود يهود في اليمن في زمن النبي ﷺ، كما أنها لم تذكر أن عمر بن الخطاب أجلى يهوداً من اليمن حينما أجلى النصارى عن نجران، واليهود عن خيبر، تنفيذاً لوصية النبيّ ﷺ بأن لا يبقى في جزيرة العرب دينان، بل إن هناك حديثاً مروياً عن النبيّ ﷺ «أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب» [مجمع الزوائد ٥/ ٣٢٥].

وقد نقل الإمام مالك قال: وقد أجلى عمر بن الخطاب يهود نجران وفدك وخيبر... وذكر الصفة التي أُجلي عليها يهود خيبر وفدك، وسكت عن يهود نجران [الموطأ ٢٠٤].

أما عن انتشار اليهودية في اليمن في عهد أحد ملوك حمير، كما تذكر الأخبار فالذي يظهر أن أنصارها قد رجعوا عن يهوديتهم بمجيء الأحباش إلى اليمن ولم يبق منهم أحد وقت البعثة، وهذا يفسر الأخبار التي وردت بإجلاء نصارى نجران، ولم تذكر شيئاً عن إجلاء اليهود.

وأما ما عرف من وجود جالية يهودية في اليمن في العصر الحديث، فهم قد وفدوا إلى اليمن فيما بعد، وربما كان وفودهم إلى اليمن من الأندلس بعد سقوطها في أيدي الفرنجة. والله أعلم.

• • •

الفَصْل الثَانِى

المَدِينَة (يَثْرِبُ) دَارالهِجرَة



ـ ١ ـ
المدينة قُبيل الهجرة النبويّة

(أ) اختيار دار الهجرة:

اختيارُ المدينة دار هجرةٍ، أمرٌ من الله تعالى وليس من اختيار البشر، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «رأيتُ في المنام أني أُهاجر من مكة إلى أرض بها نخْلٌ، فذهب وَهَلي إلى أنها اليمامة أو هَجَر، فإذا هي المدينة يثرب» [الفتح ٧/ ٢٢٦].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إني أُريتُ دار هجرتكم، ذات نَخْلٍ بين لابتين» . . قال ابن حجر: والرؤية الثانية غير الرؤية الأولى التي تردد فيها النبيّ ﷺ، وقال ابن التين: كأنَّ النبيّ ﷺ أُري دار الهجرة بصفة تجمع المدينة وغيرها، ثم أُري الصفة المختصة بالمدينة، فتعينت. ولذلك قالت عائشة رضي ٱللَّهُ عنها، بعد روايتها قول الرسول عليه السلام: فهاجر مَنْ هاجر قبل المدينة، ورجع عامةُ من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة. . وبناءً على ذلك يبطل القول بأن اختيار المدينة كان لأهداف عسكرية أو اقتصادية أو جغرافية قد تكون آنية النفع، قابلة للتغيير. والصحيح أن تقول أولاً: إن الله اختار المدينة مهاجراً، ثم نبحث عن الحكمة في هذا الاختيار، وقد تظهر لنا الحكمة، وربما لا تظهر، وقد يبدو لنا بعضها، ويختفي عنا الكثير.

وقد وقع بعض المؤلفين في خطأ فادح، عندما درسوا اختيار المدينة دار

هجرة وعاصمة دراسة جغرافية وتاريخية موزونة بموازين النظر الإنساني الكليل، وضربوا أمثلة من مراحل تاريخها، تدلُّ على قصور في فهم أحداث التاريخ، ومن هؤلاء الدكتور عمر الفاروق السيد رجب، في كتابه «المدينة المنورة ــ اقتصاديات المكان، والسكان المورفولوجية» حيث يقول «ص ٣٦ ــ ٣٧»: فبعد أقلّ من ثلاثين عاماً فقدت المدينة وظيفتها السياسية الطارئة.. فقد انتقلت العاصمة إلى الكوفة ــ في عهد الإمام علي ــ ثم إلى دمشق.. ويقول: ويدلّ ذلك على أن اختيار المدينة ــ كعاصمة منذ البداية ــ وإن كان موفقاً ــ إلا أنه كان بطبيعته مؤقتاً، أو كان بحكم الضرورة.. ويقول: فإن إمكانياتها كمدينة لم تكن كافية لكي تستمر عاصمة للدولة التي أخذت أطرافها تترامى.. ويقول: غير أن النجاح الذي صاحب قيام المدينة بدورها كمركز لنشر الدعوة ــ كان نجاحاً مؤقتاً أو هو نجاح مرتبط (بفترة) مدة معينة.. ثم ظهرت الحاجة الموضوعية لمواقع أكثر تقدماً وتوسطاً.. «ص٣٨». وهذه أحكام خاطئة من نواحٍ:

أولاً: إن انتقال الخلافة من المدينة في عهد الإمام علي، وفي عهد معاوية، ليس له علاقة بمركز المدينة السياسي والعسكري من حيث الأهدافُ العامّة للأمة الإسلامية: فقد ذهب الإمام عليٌّ إلى الكوفة، وليس هدفه اتخاذها عاصمة مفضلة على المدينة، وإنما ذهب إلى الكوفة لمحاورة الصحابة الذين قادتهم السيدة عائشة، بهدف ملاحقة قتلة عثمان بن عفان، ثم كانت معركة الجمل، واضطر الإمام علي إلى البقاء في العراق ليكون قريباً من حدود بلاد الشام التي يتولى أمرها معاوية بن أبي سفيان.. ثم كانت معركة صفين، وتبعها ظهور حركة الخوارج التي شغلت الإمام علي السنوات التالية.

وأما معاوية بن أبي سفيان، فقد اختار دمشق عاصمة، لأنه كان أمير الشام وكانت دمشق عاصمته ومركزه، وفي الشام رجال معاوية وأتباع بني أمية، أما الحجاز، ففيه خصوم معاوية ومنافسوه على الخلافة، فاختار دمشق عاصمة

لذلك.. وبهذا نعرف أن الانتقال إلى الكوفة أولاً، واتخاذ دمشق عاصمة ثانياً، لـم يكـن لتـوسطهمـا أو قـربهمـا مـن بـلاد الفتـح، ولـم يكـن لهـدف اقتصـادي أو عسكري يخصُ الدولة الإسلامية، وقِسْ على ذلك اتخاذ بغداد عاصمة في العهد العباسي.

ثانياً: في العهد النبوي، كانت المدينة مُنْطلق الغزوات والسرايا، إلى جميع أنحاء الجزيرة العربية المترامية الأطراف، وفي عهد أبـي بكر، انطلقت منها الجيوش التي قضت على المرتدين، ثم تابعت سيرها نحو العراق والشام، وفي العهد العمري كان فتح الشام وبلاد العجم، ومصر.. وكان البريد متصلاً بين العاصمة وجيوش الفتح.. ومن المتفق عليه بين المؤرخين أن العهدين النبوي والراشدي، شهدا عصر الدولة الإسلامية الذهبـي.. فكيف تؤدي عاصمةٌ هذه الوظائف وتكون غير مناسبة لأن تكون عاصمة دائمة؟

ثالثاً: للمدينة مركز اقتصادي جيد؛ لأنها أرض زراعية، وتمرُّ بها طرق التجارة، والبحرُ الأحمرُ ليس بعيداً عنها.

رابعاً: لا يشترط في العاصمة أن تكون متوسطة بين أقاليم البلاد، لأن النظام الإسلامي لا يقوم على المركزية المطلقة: فتعاليم الإسلام في القرآن والحديث النبوي، ويستطيع أهل كل إقليم استنباط هذه الأحكام والعمل بها.. وجيوش الفتح تقوم على مبدأ الجهاد الذي أقرّه القرآن والحديث، ومهمة الخليفة أن يقدم النصائح المستوحاة من القرآن والحديث، والرجوع إلى الخليفة إنما يكون في المهمات العُظْمى، وكانت تنطلق جيوش الفتح من الأقاليم البعيدة، وتؤدي مهمتها بنجاح.. وإذا نظرنا إلى عواصم الدول المترامية الأطراف في القديم والحديث، فإننا نجد كثيراً منها في طرف من هذه الدول، وانظر مثالاً لذلك: واشنطن، ونيويورك، وموسكو، ودلهي، ومثلها الكثير من عواصم الدول الجديدة التي وُضعت حدودها في العصر الحديث.

خامساً: إن الدول الإسلامية لم تكن أكثر قوة، عندما انتقلت عاصمتها إلى الكوفة أو دمشق، أو بغداد، أو القاهرة. والمشاهد في التاريخ أن عظمة الدولة الإسلامية وقوتها، وهيبتها أخذت في التناقص، بعد أن ترك الخلفاء العاصمة النبويّة، ولعلَّ من أسباب هذا الضعف التحول من مكان باركه ٱللَّهُ ورسوله، إلى مكان ظُنَّ فيه الخير والمال، والحقُّ أن المال والخير، ينموان بالبركة.. والمدينة النبويّة، دعا لها الرسول الأمين، أن يبارك ٱللَّهُ في صاعها ومدّها ويشمل ذلك كلَّ عُدّة دنيويّة.

سادساً: ومن خصائص المدينة النبويّة، باعتبارها عاصمة للدولة، أن الخليفة يتهيأ له التقاء وفود المسلمين من كل بقاع الدولة، فيتعرف على أحوالهم، ويعرف منهم أخبار الدولة، وذلك في موسم الحج السنوي، لما جرت عليه العادة أو السُّنّة، أن يزور الحجاج المسجد النبوي، للصلاة فيه، والسلام على رسول الله ﷺ.

... والخلاصة: أن اختيار المدينة دار هجرة، كان من الله تعالى، لم يعقد له رسول الله ﷺ مجلس شورى، ولم يشاور أحداً من أصحابه في اختياره، وكذلك كان يوم الهجرة، حيث جاء الإذن من الله إلى رسوله بتحديد اليوم والساعة التي يتوجه فيها إلى المدينة، لقول الرسول ﷺ فيما روته عائشة «فإني قد أُذن لي في الخروج» [البخاري ك ٦٣، باب ٤٥].

... وكان الانتظار منذ البعثة حتى الهجرة، ثلاث عشرة سنة، ليهيىء ٱللَّهُ الأسباب لذلك.

(ب) تهيئة الأسباب، في دار الهجرة، ليوم الهجرة:

أقام الأوس والخزرج ــ ما شاء ٱللَّهُ أن يقيموا ــ على الوداد والحبّ والتعاون، تجمعهم وتدفعهم أرحام قريبة، ووشائج لصيقة.. ثم قامت بينهم منازعات أدت إلى حروب، كما يقوم بين قومين متجاورين بل كما يحصل بين أبناء القبيلة الواحدة، كلما تباعد الزمن بين الأصل والفرع.

ويظهر أن النزاع بين الناس، والاختلاف بين القبائل، فطرة فطر ٱللَّهُ الناسَ عليها ليميز الله أهل الحكمة والصبر والتعقل من غيرهم.. فقد وُجد النزاع بين ابني آدم الأخويْن، فليس غريباً أن يوجد بين قبيلتين كانتا أختين ثم تباعدت الأرحام لطول الزمن.. ولهذا كانت رسالة الأنبياء جميعاً، التوحيد، وهو في الأصل توحيد الله تعالى بالعبادة، ولعلَّ فيه أيضاً دعوة إلى وحدة الناس بعد طول خصام..

وقد كانت بين الأوس والخزرج حروب كثيرة، بدأت قبل الإسلام بزمن طويل، واستمرت إلى ما بَعْد البعثة النبوية، وكانت آخر أيامهم وأشدّها ضراوة، وأكثرها ضرماً يوم بُعاث، وذلك قبل الهجرة بخمس سنين. ويظهر أنَّ عامة الأوس والخزرج، وعدداً من رؤسائهم لم يكونوا راضين عن هذه الحروب، وإنما ينقادون إليها وراء زعمائهم، وبفعل الحميّة القبلية التي يثيرونها قبل المعركة، ثم يظهر ندمهم على اشتعال الحرب، يوم لا ينفع الندم، ولذلك يقول قيْس بن الخطيم الأوسي.. في حرب «سُمير» ولم يدرك هذه الحرب، ولكنه قال ذلك بعدها بزمان:

نفلـي بحـدّ الصفيـح هـامهـم ... وَفَلينـا هـامهـم بهـا جَنَـفُ
إن بنـي عمنـا طَغَـوا وَبَغَـوا ... ولـجَّ منهـم فـي قـومهـم سَـرَفُ

يقول: كنا نعلوهم بالسيوف، وفي ذلك انحراف وميل عما توجبه القُرْبى والرحم. يريد أن قتالنا إياهم عُنف منا، لأنهم قومنا وبنو عمنا.

وعندما جاء الإسلام كان القوم قد ملّوا الحروب، وتطلعوا إلى قيادة تدعوهم إلى الوحدة، ونبذ الخصام، فلما كان لقاؤهم الأول برسول الله ﷺ، وجدوا فيه ما كانوا يتطلعون إليه.. وقد روى البخاري عن عائشة قالت: «كان يومُ بُعاث يوماً قدّمه ٱللَّهُ لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقُتلتْ سرواتهم، وجُرحوا، فقدّمه الله لرسوله في دخولهم الإسلام» وكان من آثار تقديم هذه الحرب، أن قُتِل فيها من أكابر الأوس والخزرج مَنْ كان

لا يؤمن، لأنه يتكبر ويأنف أن يدخل في الإسلام حتى لا يكون تحت حُكم غيره، وقد كان بقي منهم من هذا النحو عبد الله بن أُبـيّ ابن سلول وقصته مشهورة في معاداة الإسلام. [الفتح ٧/ ١١١].

وكان مما صنع ٱللَّهُ للأوس والخزرج أن اليهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب، وكان الأوس والخزرج أكثر منهم، فكانوا إذا كان بينهم شيءٌ قالوا: إنَّ نبيّاً سيُبْعثُ الآن، قد أظلَّ زمانهُ نتبعه، فنقتلكم معه، فلما التقوا رسول الله، وكلّمهم عرفوا النَّعْت، فقال بعضهم لبعض: لا تسبقنا إليه يهود، فآمنوا وصدقوا.

(جـ) الإسلام يدخل المدينة:

مرَّ دخول الإسلام المدينة بخمس مراحل:

الأولى: في موسم الحج سنة إحدى عشرة من النبوّة، حيث مرّ رسول الله بعقبة منى برجال من شباب يثرب، كلهم من الخزرج، فكلمهم وعرض عليهم الإسلام وقرأ أمامهم القرآن، فوافق كلامه ما في نفوسهم من الصفة التي كان يذكرها اليهود للنبـيّ الذي سيُبعث، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم إنه للنبـيُّ الذي توّعدكم به يهودُ، فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا.

وكان عدد الرجال ستةً، منهم أسعدُ بن زُرارة، ورافع بن مالك بن العجلان وجابر بن عبد الله بن رئاب... ولما رجعوا إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام، وانتشر ذِكْرُ رسول الله في بيوت المدينة.

المرحلة الثانية: وفي موسم حج سنة اثنتي عشرة من النبوة جاء اثنا عشر رجلاً من أهل المدينة، فيهم اثنان من الأوس، واتصل هؤلاء برسول الله عند العقبة بمنى، فبايعوا رسول الله ﷺ، بيعة العقبة الأولى. وأرسل معهم مصعب بن عمير ليعلم المسلمين شرائع الإسلام.

المرحلة الثالثة: كثر المسلمون في المدينة بعد بيعة العقبة الأولى، لما قام

به مصعب بن عمير من جهود في نشر الإسلام بين عدد من زعماء المدينة، فدعا هؤلاء الزعماء قبائلهم للدخول في الإسلام.

وفي موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة حضر لأداء مناسك الحج بضعةٌ وسبعون نفساً من المسلمين من أهل يثرب، جاءوا في حُجّاج قومهم من المشركين فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين رسول الله اتصالات سريّة أدتْ إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في الشعْب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى وتمت البيعة بين رسول الله ووفد المسلمين، وجاء في بنودها، التي رواها الإمام أحمد عن جابر: قُلنا: يا رسول الله علامَ نبايعك؟ قال:

١ ــ على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

٢ ــ وعلى النفقة في العُسْر واليسر.

٣ ــ وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤ ــ وعلى أن تقوموا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم.

٥ ــ وعلى أن تنصروني إذا قدمتُ إليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة.

.. وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله انتخاب اثني عشر زعيماً يكونون نقباء على قومهم يكفلون المسؤولية عنهم في تنفيذ البيعة.. فتمَّ انتخابهم في الحال، وكانوا تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

المرحلة الرابعة: قال ابن سعد، عن عائشة رضي الله عنها [١/ ٢٢٥]: لما صدر السبعون من عند رسول الله ــ بعد بيعة العقبة الثانية ــ طابت نفسه وقد جعل اللَّهُ له منعة وقوماً أهل حرب وعُدّة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين في مكة، فشكا ذلك أصحاب رسول الله، واستأذنوه في الهجرة، فقال: قد أُريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين ــ وهما

الحرّتان ــ ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلتُ هي، هي، ثم مكث أياماً ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: قد أُخبرتُ بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها.. فجعل المسلمون يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك.. وخرج المسلمون جميعاً إلى المدينة فلم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعليّ، أو مفتون محبوس، أو مريض أو ضعيف عن الخروج.

المرحلة الخامسة: وصول النبيّ ﷺ إلى المدينة، يوم الاثنين من شهر ربيع الأول. [البخاري ك ٦٣، باب ٤٥].

• • •

ـ ٢ ـ
الرسول ﷺ في المدينة

(أ) في قُباء:

وصل رسول الله ﷺ قباء، يوم الإثنين من شهر ربيع الأول واختلفوا في أيّ يوم كان من ربيع الأول، وجاء فيه أقوال تشمل أول الشهر إلى منتصفه.. ونزل في حيّ يُقال لهم بنو عمرو بن عوف. قالوا: لما قدم رسولُ الله المدينة نزل في عُلو المدينة، تفاؤلاً أن يكون للإسلام العلوّ. على أعدائه.. واختلفوا أيضاً في المدة التي أمضاها في قباء ما بين خمسة أيام إلى أربعة عشر يوماً.. وفي الأيام التي أمضاها في قباء بنى مسجد قباء الذي أُسس على التقوى من أول يوم كما روى البخاري [ك ٦٣، حديث ٣٩٠٦] واتفق المسلمون أيام عمر بن الخطاب، أن يكون مقدم رسول الله ﷺ بداية التاريخ الإسلامي، لما روى البخاري عن سهل بن سعد قال: «ما عدّوا من مبعث النبيّ ﷺ ولا من وفاته، ما عدّوا إلا من مقدمه المدينة».

قال ابن حجر: ولم يرد شهر قدومه لأن التاريخ إنما وقع من أول السّنة، وقد أبدى بعضهم للبداءة بالهجرة مناسبة فقال: كانت القضايا التي اتفقت له ويمكن أن يؤرخ بها أربعة: مولده، ومبعثه وهجرته، ووفاته، فرجح عندهم جعلها من الهجرة، لأن المولد والمبعث لا يخلو واحد منهما من النزاع في تعيين السنة، وأما وقت الوفاة، فأعرضوا عنه، لما توقع بذكره من الأسف عليه،

فانحصر في الهجرة، وإنما أخرجوه من ربيع الأول إلى المحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم، إذ البيعة وقعت في أثناء ذي الحجة، وهي مقدمة الهجرة، فكان أول هلال استهلّ بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم، فناسب أن يجعل مبتدأ، وهذا أقوى ما وقفت عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم. [الفتح ٧/٢٦٨].

(ب) في الطريق إلى قلب المدينة:

أقام رسول الله في قباء أياماً، الله أعلم بعددها، ثم أرسل إلى ملأ بني النجار ـ أخواله[1] ـ فجاءوا متقلدي سيوفهم، فسار نحو المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف على بُعْد نحو أربعة أكيال من مسجد قباء، فصلى بهم في بطن وادي رانوناء في المكان المسمى اليوم «مسجد الجمعة». ثم انطلق نحو الشمال حيث مكان المسجد النبويّ اليوم، ونزل عند أبـي أيوب الأنصاري.

(جـ) فرحة المسلمين بالقدوم:

روى البخاري عن البراء بن عازب قال: «أول مَنْ قدم علينا مُصعَبُ بن عمير، وابن أم مكتوم، وكانوا يقرئون الناس، فقدم بلال وسعدٌ وعمار بن ياسر، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبـيّ ﷺ، ثم قدم النبـيُّ ﷺ فما رأيتُ أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإماء يَقُلْنَ: قدم رسول الله. .» [حديث ٣٩٢٥].

ونقل ابن حجر في الفتح رواية أُخرى لما قاله الناس ابتهاجاً بالقدوم: قال: «فخرج الناسُ حين قدم رسول الله المدينة، في الطرق وعلى البيوت، والغلمان والخدم، وهم يقولون جاء محمد رسول الله، الله أكبر، جاء محمد رسول الله». وأخرج الحاكم عن أنس قوله: فخرجت جوار من بني النجار يضربن بالدُّف وهنَّ يقلن:

---

(١) أخوال جدّ رسول الله، لأن والدة عبد المطلب منهم.

نحـــن جـــوارٍ مـــن بنـــي النجـــار يـــا حبـــذا محمـــدٌ مـــن جـــار

. . أما أنشودة «طلع البدر علينا» التي يروون أن الولائد كنَّ يقلنها، عند مقدم النبـيّ ﷺ إلى المدينة، فليس لها سندٌ متصلٌ صحيح. . . ولم يروها أهل الحديث، ورواة السيرة الأقدمون، كابن اسحق، وابن سعد، وإنما رويت في كتب المتأخرين، وإذا صحت، فإنها تكون قيلت يوم مقدم رسول الله من تبوك، لأن ثنية الوداع المعروفة عند أهل المدينة، تقع في طريق تبوك [انظر: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ـ مادة: ثنيّة».

(د) بناء المسجد النبويّ في المدينة:

من سنة رسول الله ﷺ، أن لا يقيم في منزل إلا هيأ للمسلمين مسجداً وهكذا كان يوم وصول رسول الله إلى موطنه في المدينة. . حيث مكث أياماً قليلة لا نعلمُ عددها، وهو يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم قبل أن يبني المسجد [بخاري ك ٨/ ٤٩]. ثم ثامن غلامين يتيمين في أرض لهما، ودفع لهما الثمن. . قالوا: وكانت بالمربد ـ مكان المسجد ـ قبور المشركين، وكانت فيه خِرَبٌ وكان فيه نخلٌ فأمر رسول الله بقبور المشركين فنُبشت، وبالخرب فسُوّيتْ، وبالنخل فقُطعَ، فصفّوا النخل قبلة المسجد، وجعلـوا عضـادتيـه حجـارة، فجعلـوا ينقلـون ذلـك الصخـر وهـم يـرتجـزون، ورسول الله معهم، يقولون رجزاً.

وفي رواية: «وطفق رسول الله ينقل اللبن في بنيانه».

وفي رواية «أبـي سعيد: كنا نحمل لبنةً لبنةً، وعمارٌ لبنتين لبنتين».

وفي رواية: «كان سقف المسجد من جريد النخل».

وفي رواية: «كان المسجد مبنياً على عهد رسول الله باللبن وسقفه الجريد وعُمُده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه في عهـد رسـول الله بـاللبـن والجـريـد، وأعـاد عمـده خشبـاً. . .». [البخـاري ك ٨،

باب ٦٢ و ٦٣، و ك ٦٣، باب ٤٥].

ونقل ابن حجر، أن رسول الله ﷺ صلى في المسجد وهو عريش اثني عشر يوماً، ثم بناه وسقفه [الفتح ٧/ ٦٣].

● ● ●

ـ ٣ ـ

بناء المجتمع الإسلامي، ووضع أُسس الدولة الإسلامية

(أ) كانت هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة هجرةً إلى بلد جديد، يختلف مناخه عن مناخ مكة، فألمّ ببعض الصحابة وَعْكٌ لسبب أراده اللَّهُ تعالى ويُستفاد من نصوص الأحاديث الصحيحة، أنه صادف قدوم المسلمين إلى المدينة موسم أمطار وسيول، وهذا يصحح قول مَنْ أرّخ الهجرة بـ ٢٣/ ٩/ ٦٢٢م بالتوقيت الشمسي، فهذا التاريخ يصادف في المدينة اعتدال الجوّ، وبداية برج الميزان، أو بداية فصل الخريف حيث يبدأ تساقط الأمطار على المدينة وضواحيها، فيحدث من ذلك مستنقعات، وقد تفيض سيول المدينة على الشاطئين وتخلفُ مياهاً تصبح فيما بعد آجنة فاسدة، فيتولد فيها البعوض المسبب للحمّى وهذا ما نأخذه من الحديث الذي رواه البخاري عن عائشة: «لما قدم رسول الله ﷺ، وُعِكَ أبو بكر وبلال.. قالت: وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، قالت: فكان بُطحان يجري نَجْلاً».

قال ابن حجر: وغرضها بذلك بيان السبب في كثرة الوباء بالمدينة يوم الهجرة.. فهو إذن سبب آني وليس دائماً، فإذا زال السبب زال الوباء، ويؤيد الحال الآنية قول عائشة «وهي أوبأ أرض الله» والجملة حالية، والحال قد تكون متحولة غير ثابتة.. ولعلَّ مما زاد في مرض مَنْ مرض الشعور بالغربة، أو الحنين

إلى الوطن، مسقط الرأس، لما روي في الحديث أن بلالاً كان إذا أقلع عنه الحمّى يرفع عقيرته[1] يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ[2]

وهل أردنْ يوماً مياه مجنةٍ ... وهل يَبْدُوَنْ لي شامة وطفيل[3]

.. فقد تمثل بلال بهذين البيتين وهو في حال صحو من وقع الحمى عليه وفيهما حنين إلى مكة المكرمة، لأنه يذكر مياهها ومعالمها، ونباتها. ولذلك جاء دعاء النبيّ ﷺ في المناسبة ذاتها «اللهم حببْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدّ، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مُدّنا وصححها لنا، وانقل حُمّاها إلى الجُحْفة». [البخاري ك ٢٩، باب ١٢].

(ب) وناسب ذلك إدخال الأمن والاطمئنان إلى نفوس المسلمين في المدينة حيث كانت قاعدة الإسلام الأولى، وموطن المسلمين الوحيد في بداية الهجرة. فأخبر رسول الله ﷺ أن المدينة «لا يدخلها الطاعون ولا الدجّال». ودعا للمدينة بالبركة فقال: «اللهم اجعل بالمدينة ضعْفي ما جعلت بمكة من البركة» ذلك أنه أصبح في المدينة ضعف ما في مكة من الناس.

(جـ) وأحب رسول الله المدينة، والمسلمون تبَعٌ لما يحبُّ اللَّهُ ورسولُه، فاختار لها أحبَّ الأسماء وأطيبها، فقال عليه السلام: «هذه طابة» وكان الرسول ﷺ إذا قدم من سفر فنظر إلى دوحات المدينة أوضع راحلته، وإن كان على دابّة حركها، من حُبّها، أي: حبّ المدينة.

(١) عقيرته: أي: صوته. وأصله أن رجلاً انعقرت رجله فرفعها على الأخرى وجعل يصيح. فصار كلُّ من رفع صوته يُقال: رفع عقيرته.

(٢) وادٍ: أي: مكة. وإذخر وجليل: نبتتان.

(٣) وشامة وطفيل: جبلان بقرب مكة، أو عينان. والبيتان منسوبان لبكر بن غالب الجرهمي قالهما عندما نفتهم خزاعة عن مكة. وتمثل بهما بلال بن رباح.

(د) ولزيادة الأمن والأمان للمدينة وأهلها جعل لها حرماً آمناً، وشدد النكير على مَنْ أحدث فيه حدثاً، وحدّ الحرم رقعة واسعة دائرية الشكل، وجعل حديه من الشمال والجنوب جَبلي: عَيْر، وثور، وحديه من الشرق والغرب: اللابتين، وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أحدث فيها حدثاً أو آوى مُحْدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صَرْف ولا عدل» [البخاري ك ٢٩، باب ١] وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه «لا يكيدُ أهل المدينة أحدٌ إلا انماع كما ينماعُ الملحُ في الماء». وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أخاف أهل المدينة ظالماً لهم أخافه اللَّهُ، وكانت عليه لعنةُ الله». وقد تحقق هذا في العهد النبوي، عندما كاد اليهودُ لأهل المدينة، فعاد عليهم كيدهم، وكتب الله عليهم الجلاء والانمحاء. كما تحقق في العصور التالية في كل مَنْ آذى أهل المدينة.

وأحبَّ رسول الله أن تكون للمدينة هيبتها وقوتها، ورغب في بقاء المسلمين منتشرين في أطرافها، وجعل ذلك مساوياً لثواب الصلاة في مسجده، لما روى أنس بن مالك قال: «أراد بنو سَلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، فكره رسول الله ﷺ أن تُعَرَّى المدينة، وقال: يا بني سَلمة ألا تحتسبون آثاركم؟ فأقاموا». وفي هذا السبيل أقطع رسول الله بلال بن الحارث المزني، وادي العقيق، وكان خالياً من السكان، لم يعتمل فيه أهل المدينة في الجاهلية عملاً.

لهذا كله، أحب صحابة رسول الله المدينة، وأحبوا أن يكون موتهم بها، فيروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ».

(هـ) المؤاخاة بين المسلمين:

يقرر الإسلام الأخوة بين المسلمين، ويدعو إلى التعاون والتعاضد في هذا السبيل، فما معنى المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين المسلمين؟ أقول: لعلَّ الأخوة التي عقدها رسول الله ﷺ بين المسلمين، كانت أخوة خاصة، بعد الأخوة

العامّة، وهدفها إيجاد تخصص في التعاون بين المتآخيين كما يوجد بين الأخوين الشقيقين وهذه الأخوة أكثر ما يحتاج إليها المسلمون أيام الشدّة، كما كان حال المسلمين في مكة قبل الهجرة، وفي المدينة بعد الهجرة. نقل ابن حجر عن السهيلي في تعليل أخوة المسلمين في المدينة؛ قال: آخى النبـيّ ﷺ بين أصحابه ليُذهب عنهم وحْشة الغُربة، ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة ويشدُّ بعضهم أزْر بعض، فلما عزّ الإسلام واجتمع الشمل وذهبتْ الوحشة أبطل المواريث ــ التي كانت بين المتآخيين ــ وجعل المؤمنين كلهم إخوة، ونزل قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الفتح ٧/ ٣٧٠]. وقال ابن عبد البرّ: كانت المؤاخاة مرتين: مرة بين المهاجرين خاصة، وذلك بمكة. ومرة بين المهاجرين والأنصار، وهي في المدينة، بعد الهجرة. ونقل ابن سعد: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار، آخى بينهم على الحقّ والمواساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام، وكان ذلك قبل بدر، فلما كانت وقعة بدر وأنزل الله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ فَنَسَخَتْ هذه الآية ما كان قبلها، وانقطعت المؤاخاة في الميراث، ورجع كلُّ إنسان إلىٰ نسبه وورثه ذوو رحمه» [١/ ٢٣٨]. وقد أنكر ابن تيميّة في كتابه «منهاج السّنة» [٩٧/٤] المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصاً مؤاخاة النبـيّ ﷺ لعليّ، لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً ولتأليف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبـي لأحد منهم ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري.

قال ابن حجر في الفتح ٧/ ٢٧١: وهذا ردٌّ للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، والقوى، فآخى بين الأعلى والأدنى، ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ، لعليّ، لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة، واستمرّ، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة؛ لأن زيداً مولاهم، فقد ثبت أخوتهما وهما من المهاجرين، وقد قال زيد بن حارثة: إن

بنت حمزة، بنت أخي.. وأخرج الحاكم وابن عبد البرّ بسند حسن عن ابن عباس: «آخى النبـيّ ﷺ بين الزبير وابن مسعود» وهما من المهاجرين. وأما المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فهي ثابتة في صحيح الأخبار، كما في صحيح البخاري [ك ٦٣، باب ٣، وباب ٥٠]. واختلفوا في ابتدائها، والثابت أنها في بداية الهجرة، وقبل غزوة بدر، قيل: أثناء بناء المسجد، وقيل: قبل بناء المسجد، وقيل: بعد الهجرة بخمسة أشهر.

وكان من أهداف هذه المؤاخاة، التعاون بين المتآخِيَيْنِ في سُبُل الرزق حيث هاجر أكثر مَنْ هاجر، وليس عنده مالٌ، فاقتضى الحال أن يُوزع المهاجرون الأضياف على بيوت المدينة. وقد ورد في الحديث صورٌ من بَذْل الأنصار للمهاجرين كما جاء في قصة عبد الرحمن بن عوف التي رواها البخاري عن أنس قال: «قدم عبد الرحمن بن عوف، فآخى النبـيّ ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله... وعن أبـي هريرة قال: قالت الأنصارُ للنبـيّ ﷺ: أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا، فقالوا: تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا».

• • •

ـ ٤ ـ

هل كتب الرسول ﷺ وثيقة تنظم العلاقات بين المهاجرين والأنصار من جهة، وبين المسلمين واليهود من جهة أخرى؟

(أ) إن الذي ثبت في نصوص الحديث والسيرة، أن الرسول عليه الصلاة والسلام، بايع الأنصار، أو بايع الأنصارُ رسول الله ﷺ، فيما عرف ببيعة العقبة الأولى، وبيعة العقبة الآخرة (الثانية) ويظهر أن البيعتين كانتا شفويتين.. وبعد وصول الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، مؤاخاة شفوية أيضاً، وقد وفى الأنصارُ بما عاهدوا عليه، وقدّموا ما يقدرون عليه من النفقة والنصرة ولم يتخلفوا في أول غزوة عن منازلة المشركين.

وقد روى الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٧١، ٢/ ٢٠٤) عن حجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن النبيّ ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار «أن يعقلوا معاقلهم وأن يفدوا عانيهم والإصلاح بين المسلمين». وفي إسناد الخبر مقال: فالحجاج بن أرطاة: وصفه أكثر العلماء بالتدليس. قال ابن أبي خيثمة عن ابن معين: الحجاج صدوق ليس بالقوي يدلس عن عمرو بن شعيب وقال أبو حاتم: صدوق يدلس عن الضعفاء. إذا قال: حدثنا فهو صالح إذا بيّن السماع. لا يحتجُّ بحديثه. وقال ابن المبارك: كان الحجاج يدلس فكان يحدثنا بالحديث عن عمرو بن شعيب مما يحدثه العرزمي،

متروك.. وقال أحمد: في حديثه زيادة على حديث الناس، ليس له حديث إلا فيه زيادة... (تهذيب التهذيب ٢/ ١٩٧).

وأما رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه: فأكثر العلماء على أن الرواية ليست متصلة السند، لأن شعيباً هو ابن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص. فإن كان عمرو يروي عن جده محمد، فإنه لم يدرك النبيّ ﷺ. وإن كان المقصود جدّه الأعلى عبد الله بن عمرو ففي الرواية انقطاع. وعمرو بن شعيب لم يبيّنْ عمن يروي. قال ابن حجر: عمرو بن شعيب ضعّفه ناسٌ مطلقاً، ووثقه الجمهور، وضعّف بعضهم روايته عن أبيه عن جده حسبُ، ومن ضعفه مطلقاً فمحمول على روايته عن أبيه عن جدّه، فأما روايته عن أبيه فربّما دلّس ما في الصحيفة بلفظ (عن) فإذا قال حدثني أبي، فلا ريب في صحتها، ومهما كانت درجة الإسناد، فإنه لم ينقل لنا في المتن، ما جاء عند ابن إسحق ولو كان هناك كتاب مطوّل كالذي نقله ابن إسحق، لوصلنا عن طريق عمرو بن شعيب لا سيما أنَّ عمرو بن شعيب من شيوخ محمد بن إسحق، والمعروف أن رواية عمرو بن شعيب عن أبيه كانت صحيفة مكتوبة.. ولكن ابن إسحق لم ينقل لنا الكتاب عن عمرو بن شعيب، وإنما رواه بلا إسناد، فإذا صحَّ ما رواه عمرو بن شعيب، فإنه يكون هو الأصل، وهو المتفق مع الأسلوب النبويّ في الكتابة، وما رواه ابن إسحق مطولاً تكون فيه زيادة. والله أعلم.

وروى أحمد في المسند ٣/ ٣٤٢ عن أبي الزبير قال: «سألتُ جابراً عن الرجل يتولى مولى الرجل بغير إذنه فقال: كتب رسول الله ﷺ على كل بطن عقولهم ثم كتب: لا يحلُّ أن يتولى مولى رجل مسلم بغير إذنه» وعن جابر أيضاً «أن رسول الله ﷺ لعن في صحيفته مَنْ فعل ذلك». أقول: وليس في الحديث نصٌّ على أن الكتابة كانت وثيقة بين المهاجرين والأنصار لعله يشير إلى صحيفة أُخرى كتبها رسول الله ﷺ، تتضمن أحكاماً، منها أحكام العقول. وقد كتب رسول الله صحيفة لعمرو بن حزم عندما ولّاه على نجران، فيها الفرائض والزكاة

والديات وغير ذلك، رواها عنه أبو داود والنسائي وابن حبان (عن الإصابة ــ ترجمة عمرو بن حزم) والعقول التي جاءت في حديث جابر، جمع «عَقْل» وهي الدِّية.

(ب) أما اليهود، فإن أكثر الروايات تقول: إن الرسول ﷺ قد وادعهم على أن لا يحاربوه، ولا يمالئوا عليه عدوّه. [الفتح ٧/ ٣٣٠].

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ [الحشر: ٢]: «يعني: بني النضير، كان رسول الله لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهداً وذمّة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينه وبينهم..».

(ج) ولكن ابن هشام، روى عن ابن إسحق قال: «وكتب رسولُ الله كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادعَ فيه يَهودَ وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم، واشترط عليهم...». وذكر نصَّ كتابٍ جاء في ثلاث صفحات [السيرة ٥٠١ ــ ٥٠٤]. وهو ينقسم إلى قسمين: الأول: في تنظيم العلاقات بين المهاجرين والأنصار، مع اشتمال اليهود بفقرة منه. وقسم ينظم علاقات اليهود بالمسلمين. وقد استنبط منه القاسم بن سلام في «كتاب الأموال» أحكاماً فقهية، جاء في الحديث الصحيح المسند ما يخالفها، واتخذها ــ أي الوثيقة ــ بعض المؤرخين في العصر الحديث، أُنموذجاً للوثائق السياسية في صدر الإسلام، مثل الدكتور صالح أحمد العلي في مقالته «تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة». والدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه «النظم الإسلامية». والأستاذ محمد حميد الله في كتابه «مجموعة الوثائق السياسية». واتخذها بعضهم أنموذجاً، لدراسة النصوص التاريخية بناءً على قواعد المحدثين، وجعلها من ركائز «المجتمع المدني في عهد النبوة». كما فعل الدكتور أكرم العمري، في رسالته الموسومة بالعنوان السابق. ولي على هذه الوثيقة التعليقات التالية:

١ ــ لا يصح للكتاب سندٌ متصل؛

لأن ابن إسحق رواها بلا إسناد.

ونقلها عنه ابن سيد الناس في «عيون الأثر» ولم ينقل القسم الخاص باليهود.

ونقلها ابن كثير في البداية والنهاية عن ابن إسحق، بلا إسناد.

ونقلها البيهقي في السنن الكبرى، ولم يذكر منها ما يتعلق باليهود.

وذكر ابن سيد الناس أن ابن أبـي خيثمة أورد الكتاب بهذا الإسناد:

«حدثنا أحمد بن جناب، حدثنا عيسى بن يونس، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني، عن أبيه عن جدّه.. أن رسول الله كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، فذكر بنحوه» [عيون الأثر ١/١٩٧ ــ ١٩٨].

وفي سند ابن أبـي خيثمة كثير بن عبد الله المزني، وتتراوح كلمات الجرح فيه بين «منكر الحديث» و «أحد الكذابين» و «أحد أركان الكذب» ومع تساهل ابن حبّان في قبول الرجال، فإنه قال فيه: «روى عن أبيه عن جدّه نسخة موضوعة لا يحلُّ ذكرها في الكتب، ولا الرواية عنه، إلا على جهة التعجب». وقال الحاكم: «حدث عن أبيه عن جده نسخة فيها مناكير».

وروى الوثيقة: أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الأموال، بهذا السند: «حدثني يحيـى بن عبد الله بن بكير، وعبد الله بن صالح قالا: حدثنا الليث بن سعد قال: حدثني عقيل بن خالد، عن ابن شهاب..».

والقاسم بن سلام: ثقة في اللغة والأدب، والفقه، ولكنه لم يكن من أهل الحديث والرواية [انظر تهذيب التهذيب ــ ترجمة القاسم بن سلام] وسوف نرى فيما بَعْدُ ما جاء في الحديث الصحيح مخالفاً لما استنبطه ابن سلام من هذه الوثيقة.

وقد روى ابن سلام هذا الكتاب عن يحيى بن عبد الله بن بكير.. وقد وجهوا إليه الطعن فيما رواه عن الليث بن سعد، فقال ابن عديّ: كان جار الليث وعنده عن الليث ما ليس عند أحد. وقال يحيى بن معين: وسألني عنه أهل مصر فقلتُ: ليس بشيء. وقال النسائي: ضعيف، وقال في موضع آخر: ليس بثقة ونقل ابن حجر عن البخاري في تاريخه الصغير، قال: ما روى ابن بكير عن أهل الحجاز في التاريخ فإني أنفيه.

وروى ابن سلام الوثيقة أيضاً عن عبد الله بن صالح بن محمد بن مسلم الجهني، أبو صالح المصري، كاتب الليث، وقد اختلفوا فيه، فقال أحمد: كان أول أمره متماسكاً ثم فسد بأخرة، وليس هو بشيء.. وقال ابن المديني: ضربتُ على حديثه وما أروي عنه شيئاً، وقال النسائي: ليس بثقة.

وقال ابن حبان: «منكر الحديث جداً يروي عن الأثبات ما ليس من حديث الثقات وكان صدوقاً في نفسه، وإنما وقعت المناكير في حديثه من قبل جار له، كان يضع الحديث على شيخ عبد الله بن صالح ويكتب بخط يشبه خط عبد الله ويرميه في داره بين كتبه، فيتوهم عبد الله أنه خطه فيحدّث به..» [تهذيب التهذيب ٥/ ٢٦٠]. ومع أن السند يقف عند الزهري، وهو من صغار التابعين ولا يعتدون بمراسيله، ولكن لو صح السند إلى الزهري، لأخذنا به، لأن الزهري عندنا ثقة حافظ، وإذا قبلنا سنده الموصول، فإننا نقبل إرساله، ولم يكن يترك الصحابي من السند لتدليس، ومثله لا يوصف بذلك. انظر كتابنا «الإمام الزهري». فالسند عند ابن سلام ليس قوياً، وجاءت النصوص تخالف المتن كما سيأتي.

٢ ــ لم يرد هذا الكتاب في كتب الصحاح، أو السنن، أو المسانيد، ولم يذكره ابن سعد، وأشار إليه البلاذري إشارة، دون إسناد، فقال: «قالوا وكان رسول الله عند قدومه المدينة وادع يهودها وكتب بينه وبينهم كتاباً..» [أنساب الأشراف ١/ ١٨٦].

ومع كثرة استشهاد ابن حجر لشروحاته على البخاري، فإنه لم يشر إليه فيما شرح من الأحاديث التي تتناول أخبار يهود.

٣ ــ لم تذكر الرواية، مَنْ كتبه، وشهد عليه.

٤ ــ الأسلوب النبوي في الكتب والرسائل، يعتمد على الإيجاز، ونصّ الكتاب فيه إطناب وتطويل، ينافيان الأسلوب النبوي.

٥ ــ الكتاب ليس اتفاقاً بين المهاجرين والأنصار، وإنما هو دستور يخاطب المؤمنين جميعاً، ويُلزمهم بقوانين موحّدة.

٦ ــ قول أكرم العمري: «إن الوثيقة تصلح أساساً للدراسة التاريخيّة التي لا تتطلب درجة الصحة التي تقتضيها الأحكام الشرعية..» قول لا ينطبق على هذه الوثيقة لأن هذا الكتاب فيه أحكام شرعية، وتنظم علاقة المسلمين بأهل الكتاب أو بالأعداء، وهذه لا يقبل فيها إلا الأخبار الصحيحة. ثم إنَّ أخبار النبـي ﷺ، وأقواله وأفعاله، كلها تستنبط منها الأحكام الشرعية والتاريخ الذي لا نشرط له قواعد الحديث الصحيح، هو تاريخ الدول التي جاءَتْ بعد دولة الرسول عليه الصلاة والسلام، ودولة الراشدين...

٧ ــ جاء في بداية الكتاب «هذا كتاب من محمد النبـيّ ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومَنْ تبعهم..».

ومعروف أن الكتاب ــ إن صح ــ فإنه كان مقدم رسول الله إلى المدينة، قبل غزوة بدر وإنما أشار القرآن إلى الفرق بين المؤمنين والمسلمين، أو بين الإيمان والإسلام، بعد الهجرة بزمن طويل، وربما كان ذلك بعد السنة الثامنة من الهجرة، في عام الوفود فقوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا * قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا * ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ [الحجرات: ١٤]. إنما نزلت في بني أسد بن خزيمة. قال ابن كثير: وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا

لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصولوا إليه، فأدبوا في ذلك،.. ولو كانوا منافقين لعنّفوا وفضحوا، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بَعْدُ.

وبذلك تسقط فلسفة أكرم العمري التي تقول: «ويتميز الصنفان في أهل يثرب فقط، بظهور النفاق فيهم بعد غزوة بدر الكبرى... [ص ٩٢٩]. ذلك أن أهل يثرب الذين دخلوا الإسلام طائعين مختارين، لم يكن بينهم منافق قبل غزوة بدر، وإنما ظهر النفاق بعد ظهور قوة المسلمين.. وبذلك تعرف أن قول الكتاب «بين المؤمنين والمسلمين» لا معنى له في بدء الهجرة، ثم إن المنافق لا يعدُّ مسلماً، وليس مشمولاً بالخطاب، لأن المنافق لا يلتزم بما يلتزم به المسلمون، والمنافق ليس مسلماً، لأنه لم يخضع لقوانين الإسلام، ولم يؤمن بها، أما المسلم الذي أخبر عنه الله تعالى في سورة الحجرات، فهو معترف بالنبوة ولكن لم يصل في قوة العقيدة والتطبيق والفهم إلى درجة المؤمن.

٨ ــ ومن أسوأ ما قرأت من تفسيرات هذه الوثيقة التي لم تصح سنداً، وإن صحَّ بعضها متناً، ما قاله أكرم العمري في كتابه «المجتمع المدني» ص ١٢٧:

إن الوثيقة حددت العلاقة مع المتهودين من الأوس والخزرج، بإضافتهم إلى عشائرهم العربية، حيث جاء في نص الكتاب: «وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين. وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث.. الخ.. وقد فهم أن هذه الإضافة تعني أن في كل قبيلة جمعاً من اليهود من سلالة القبيلة نفسها. وهذا فهم قاصر، يخالف ما عرفنا من التاريخ والوقائع التاريخية.. فالإضافة هنا إضافة حلفٍ فقوله: يهود بني عوف.. أي: اليهود المتحالفين مع بني عوف.. الخ حيث كان لكل قبيلة من الأوس والخزرج حلف مع جماعة من اليهود...

فالمعروف أنه لم يكن هناك كتل يهودية إلا يهود بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ولم يكن من الأوس والخزرج متهودون إلا أفراداً من بعض فروعهم لا يصلون إلى حدّ النصّ عليهم بصورة الجمع. . .

وإذا كان في المدينة هذا الكم الكبير من اليهود غير قبائلهم. . فأين ذهبوا؟ فالنصوص الصحيحة تقول إن رسول الله أجلى ثلاث قبائل من اليهود، ولم تذكر جماعات من العرب المتهودين كما يزعمون. . . هل أسلموا؟.

ليس عندنا دليلٌ على إسلام عدد كبير من اليهود، لقول الرسول ﷺ «لو آمن بـي عشرة من اليهود لآمن بـي اليهود» [البخاري ك ٦٣، ٥٢]. قال أهل العلم: المقصود عشرة من رهبانهم، أو أحبارهم، والمعروف أنه لم يؤمن من أحبارهم إلا عبد الله بن سلام، ومخيريق. . ، ولم يتبع ابن سلام أحدٌ من اليهود في إسلامه، بل كذبوه، وجردوه من منزلته عندهم بعد أن عرفوا بإسلامه. . وعلى كل حال، فإن الحديث يدل على قلة اليهود الذين أسلموا. . قال ابن حجر: المراد بالعشرة، عشرة مختصة، وإلا فقد آمن به أكثر من عشرة. . . وقوله: أكثر من عشرة، دلالة على أنهم لا يتجاوزن بضع عشرات، ولو كانوا كثيرين، لقال: مئات أو آلاف. . [الفتح ٧/ ٢٧٥]. ولم ينصّ العلماءُ على إسلام جماعات من العرب المتهودين، والمشار إليهم بالإسلام إنما كانوا من اليهود أصلاً.

وقد نقل ابن حجر عن ابن إسحق، أن النبـيّ ﷺ وادع اليهود لما قدم المدينة، وامتنعوا من اتباعه، فكتب بينهم كتاباً، وكانوا ثلاث قبائل: قينقاع والنضير، وقريظة، فنقض الثلاثة العهد، طائفة بعد طائفة. . [الفتح ٧/ ٢٧٥]. . . ولم يذكر أنه وادع يهودياً من العرب، على أن لفظ الكتاب لا يعني دائماً الخط، فقد يراد به العهد، والفرض [انظر: لسان العرب ــ كتب].

٩ ــ وهذا الكتاب الذي لم يثبت سنداً، وربما لا يثبت أكثره متناً، استنبط منه أبو عبيد في كتاب الأموال أحكاماً فقهية، جاء في الصحيح ما يخالفها فقد

جاء في نص الكتاب: «وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين». فقال أبو عبيد: «ونرى أنه إنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذي شرطه عليهم من النفقة» [ص ٢٩٦]. وعلى هذا يرى ابن سلام جواز الاستعانة باليهود في الحروب.

ولي على هذا الرأي ملاحظات:

أولاً: جاء النصّ في بعض الروايات «يتفقون» من الاتفاق، بالتاء، وليس بالنون. والاتفاق، قد يعني، الموادعة والمسالمة والمهادنة، والامتناع عن ممالأة أعداء المسلمين. وقد يقال: ما فائدة القيد «ما داموا محاربين»؟ الجواب: إذا كانت المهادنة حاصلة في وقت الحرب، فإن حصولها في وقت السلم من باب أوْلى، ونقض العهود أكثر ما يكون وقت الحرب، وحاجة المسلمين إلى الموادعة في وقت الحرب أشدّ.

ثانياً: إن الآثار التي وردت في استعانة رسول الله باليهود في الغزوات، كلها ضعيفة، إما لإرسالها، أو لانقطاعها، أو لوجود رجال غير موثوقين في سندها. قال ابن قُدامة في «المغني»: فَصْلٌ: ولا يُستعانُ بمشرك.. وروي عن عائشة قالت: خرج رسولُ الله إلى بَدْر، حتى إذا كان بحرّة الوبرة، أدركه رجلٌ من المشركين، كان يُذكر منه جراة ونجدة، فَسُرَّ المسلمون به، فقال: يا رسول الله، جئت لأتبعك وأصيب معك، فقال رسول الله ﷺ: أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا، قال: فارجع، فلن أستعين بمشرك قالت: ثم مضى رسول الله، حتى إذا كان بالبيداء، أدركه ذلك الرجل فقال له رسول الله: أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم، قال: فانطلق». قال ابن قُدامة: متفق عليه. ورواه الجوزجاني.

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن حبيب قال: أتيت رسول الله، وهو يريد غزوة، أنا ورجل من قومي، ولم نسلم، فقلنا: إنا لنستحي أن يشهد قومنا مشهداً لا نشهده معهم، قال: فأسلمتما؟ قلنا: لا، قال: فإنّا لا نستعين

بالمشركين على المشركين، قال: فأسلمنا، وشهدنا معه. قال ابن قدامة: لأنه غير مأمون على المسلمين، فأشبه المخذّل والمرجف. قال ابن المنذر: والذي ذكر أنه استعان بهم ــ أي المشركين ــ غير ثابت. [المغني ٨/ ٤١٤].

وروى الإمام سحنون، وابن القيّم، عن طريق الزهري قال: إن الأنصار قالت يوم أُحد، ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟ فقال ﷺ: لا حاجة لنا فيهم. [زاد المعاد ٢/ ٩٢]، و [المدونة ٣/ ٤٠].

والسبب في منع الاستعانة بالمشركين على المشركين، لأنَّ الحرب في الإسلام، لا يكون إلا من أجل حماية العقيدة، ونشرها، ولحماية الأرض الإسلامية من الأعداء، لتبقى كلمةُ الله هي العليا فيها.. وكيف تأمن لمن لا يؤمن بالإسلام أن يدافع عن الإسلام؟ ثم إنَّ غاية المسلم من الجهاد، الاستشهاد لدخول الجنة وغاية المشرك من الحرب، إن ساند المسلمين، الحصول على متاع الحياة الدنيا والدافعان إلى الحرب لا يتفقان.. فالمشرك الطالب للدنيا يهرب من المعركة إن أحسّ بالموت يقرب منه، والمسلم يقدم على المعركة طالباً الشهادة.. وهل تأمن لمشرك أن تضعه في مكان من المعركة لحمايته وأنت تعرف سرعة فراره؟!.

ثالثاً: وأما ما روي أن رسول الله ﷺ، استعان بالمشركين، فكان ذلك قبل فرض الجهاد على المسلمين، وكانت الاستعانة بأفراد في أمور لا تتعلق بالحرب.. ومن ذلك ما ورد أن رسول الله ﷺ، طلب جوار المطعم بن عديّ، بعد رجوعه عن الطائف ــ قبل الهجرة ــ ومنعه قومه من دخول مكة.. وكان المسلمون آنذاك في حال ضعف.

ومن ذلك أن رسول الله استعان بعبد الله بن أُريقط، وهو مشرك، ليكون دليلاً في طريق الهجرة.. وكانت الحاجة تدعو إلى ذلك.

ورووا أن صفوان بن أميّة حضر غزوة حنين وهو مشرك، وكان قد هرب عند الفتح، ثم أُعطي الأمان فعاد.. وجاء في ترجمته أن رسول الله استعار منه

سلاحه، وأعطاه من سهم المؤلفة قلوبهم.. فقصته لا يُقاس عليها الاستعانة بالمشركين، لأن رسول الله كان يطمع في إسلامه، بعد أن آمن كلُّ مَنْ كان بمكة قبل الفتح.

رابعاً: ومما سبق تعرف أن صورة الكتاب الذي رواه ابن إسحق، لا يصلح أن يكون وثيقة لدراسة الترتيبات النبوية في المدينة، لأنه منقوض في مواقع كثيرة من نصوصه، ولم يصح سنداً.. والحديث الصحيح، إما أن يصح كلُّه وإما أن يترك كله، لأن الكتاب بمنزلة الميثاق النبوي لا يكون صحيحاً من جانب وضعيفاً من جانب آخر.

• • •

ـ ٥ ـ
المجتمع المدنيّ الموحّد

والحقيقة المستنبطة من الأقوال والأفعال التي وصلت إلينا، أن المجتمع المدني ـ المهاجرين والأنصار ـ لم يكن في حاجة إلى وثيقة مكتوبة، لكي يكون المجتمع المتعاون المتماسك؛ لأنَّ الفريقين أسلموا طائعين محبين للإسلام: فالمهاجرون آمنوا في وقت الشدّة، وتحملوا المشاق والعذاب في سبيل ثباتهم على دينهم، ولم يكونوا يتطلعون يوم آمنوا إلى جاه، أو منصب، أو مال لأن الرسول ﷺ لم يكن يملك شيئاً من حطام الدنيا.

والأنصار: استقبلوا الإسلام بقلوبهم، وأحبوه، وأحبوا نبيَّ الإسلام ودعوه إلى بلدتهم، وتعهدوا له بالنصرة، يوم كان طريداً في مكة وليس له قبيلة أو جيش أو مال.. ووفوا بما قالوا منذ الأيام الأولى من الهجرة، حيث تنازلوا عن مالهم، وبيوتهم، وزوجاتهم، لإخوانهم المهاجرين.. وليس أشدّ على الإنسان من أن يتنازل عن ماله وزوجه في مجتمع لا ينعم بالثراء.. فلماذا إذن الكتابُ والميثاق، والحال أن العلاقات بين الطرفين أقوى من كل ميثاق مكتوب...

فلم يكونوا إذن بحاجة إلى كتابٍ بينهم، وإنما كانوا بحاجة إلى تربية روحية وشحن بالمعاني السامية، للتغلب على وسوسة شيطانية قد يبثها جنود الشيطان بينهم، ولمحو كلِّ أثر من بقايا جاهلية، وهم حديثو عهد بالإسلام ولذلك كان رسول الله، يتعهدهم بالتعليم والتربية، وتزكية النفوس والحث على

مكارم الأخلاق، ويؤدبهم بآداب الودّ والإخاء والمجد والشرف والعبادة والطاعة.. وكانت هذه المعاني تقدم إليهم في مناسبتها وفي أوقات مفرقة ليكون لها أثرها في النفوس.

سأله ـ عليه الصلاة والسلام ـ رجلٌ: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرىء السلام على مَنْ عرفت، ومَنْ لم تعرف». [البخاري ك ٢، باب ٢٠].

وقال عبد الله بن سلام: لما قدم النبيّ ﷺ المدينة، جئتُ، فلما تبينتُ وجهه، عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما قال: «يا أيها الناسُ، أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» [المشكاة ١/١٦٨].

وكان النبيّ ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة مَنْ لا يأمن جاره بوائقه».

وقال: «المسلم مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده».

وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً».

وقال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا ـ عباد الله ـ إخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» [البخاري].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جانبه» ويقول: «اتقوا النار ولو بشقّ تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة».

.. بمثل هذه المعاني أعدّ رسولُ الله المجتمع القوي الذي استطاع ـ مع صغر حجمه ـ أن يقهر الشرك، وينشر الدعوة، ويصبر على شظف العيش طمعاً في ثواب الله الأعظم في الجنة.

● ● ●

الفصل الثالث
المغازي والسرايا



ـ ١ ـ

المغازي والسرايا

المغازي: جمع مَغْزى، يقال: غزا يغزو غزواً، ومغزىً. والواحدة: غَزْوة وغزاة، والميم زائدة. وعن ثعلب: الغزوة: المرّة. والغزاة: عمل سنة كاملة. وأصل الغزو: القصد. ومغزى الكلام: مقصده والمراد بالمغازي هنا: ما وقع من قصد النبيّ ﷺ الكفار بنفسه أو بجيش من قبله. وقصدهم، أعمُّ من أن يكون إلى بلادهم أو إلى الأماكن التي حلّوها، حتى دخل مثل أُحد والخندق.

وقد أصبح هذا المصطلح خاصاً بحروب النبيّ ﷺ، وأُطلق على ما كان أيام الخلفاء الراشدين، وما بعْده: الفتوح، جمع فتح. ومعناه: افتتاح دار الحرب. ومن معانيه: النَّصر. ومن معانيه: القضاء كما في قوله تعالى: ﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ أي: قضينا لك قضاءً مبيناً، أي: حكمنا لك بإظهار دين الإسلام، وبالنصر على عدوك.

وخطر لي أن سبب تسمية حروب المسلمين بعد الرسول عليه الصلاة والسلام بالفتوح أن البلاد التي قصدوها كانت مغلقة، وكانت مدناً محصنة.. أما الغزوات النبوية، فكانت في أكثرها لقاءات في ميادين القتال.. ولذلك فقد يقولون عن الغزوات التي تكون نحو بلدة «فتحاً» فقالوا: فتح خيبر، وفتح مكة، وفتح الطائف.. أو يضيفون الغزوة إلى الفتح فيقولون: غزوة فتح خيبر. والله أعلم.

هذا، وقد حمَّل المؤرخون كلمة «الغَزْو» معاني لم تكن تحملها، وأطلقوها على الهجمات التي قام بها المفسدون في الأرض، فقالوا: الغزو المغولي والتتاري، والغزو الصليبي.. وهذه حروب ليس لها هدف إلا الإفساد، وقد سمى الله أمثالها حرباً فقال ﴿إنما جزاء مَنْ يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً﴾.. الآية. وللتفريق بين ما حضره رسول الله ﷺ، وما لم يحضره، أطلقوا على ما خرج فيه النبيّ ﷺ بنفسه اسم «غزوة»، وما خرج فيه أحد قادته اسم «سريّة» أو «بَعْث».

والسريّة قيل: هي فعيلة بمعنى فاعلة، سميت سريّة، لأنها تسري ليلاً في خُفْية.

وقيل: سميت بذلك لأن رجالها خلاصة العسكر وخيارهم، من الشيء السري النفيس.

والبَعْثُ: هنا، بَعْثُ الجُنْد إلى الغزو. والبعث: يكون بعثاً للقوم يُبعثون إلى وجه من الوجوه، مثل السَّفْر، والركب. وقولهم: كنتُ في بَعْث فلان، أي في جيشه الذي بُعث معه. والبعوث: الجيوش.

والظاهر أن اسم السريّة، يشمل كلَّ مَنْ بعثه رسول الله في مهمة حربية قلة كان أم كثرة. فقد سمّوا سريّة عبد الله بن عتيك، إلى أبي رافع (بخيبر) سريّة، وكان مع عبد الله بن عتيك ثلاثة هو رابعهم. وقالوا عن الصحابة الذين بعثهم رسول الله لقتل كعب بن الأشرف سريّة، وكان عددهم أربعة.

• • •

ـ ٢ ـ

مرّت شهور بعد الهجرة النبوية قبل أن يأذن اللَّهُ للمؤمنين بالقتال، ثم نزلت آية ﴿أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا﴾ وهي أول آية أنزلت في القتال. وقيل: أُذن لهم في قتال مَنْ قاتلهم، بقوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ ثم أُمروا بالقتال مطلقاً بقوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا..﴾.

واختلفوا في عدد الغزوات والسرايا التي انطلقت من المدينة. فروى البخاري أن الغزوات بلغت تسع عشرة غزوة. [كتاب المغازي، الباب الأول].

وروى أبو يعلى بإسناد صحيح أنها إحدى وعشرون غزوة. وقال ابن سعد إنها بلغت سبعاً وعشرين غزوة. وقال غيره بلغت أربعاً وعشرين.

وأما البعوث والسرايا، فقد عدّ ابن إسحق ستاً وثلاثين، وعدَّ الواقدي ثماني وأربعين، وعدّ آخرون ستاً وخمسين، وستين، وسبعين.. والذي يظهر أن القلة والكثرة، واختلافهم في عدد السرايا يرجع إلى مفهوم السريّة.. فربّما عد بعضهم الرجل الواحد يرسله رسول الله في مهمة سريّة، وربما لا يعدُّه بعضهم.

ويظهر من النصوص التاريخيّة أن السرايا، والبعوث النبوية، والغزوات التي خرج فيها رسول الله بنفسه قبل غزوة بَدْر، كانت ـ قواداً وأفراداً، ـ من المهاجرين، ولم يخرج فيها أنصاريّ..

قال ابن سعد: والمجتمع عليه أنهم كانوا جميعاً من المهاجرين، ولم يبعث رسول الله أحداً من الأنصار مبعثاً حتى غزا بهم بدراً، وذلك أنهم شرطوا له أنهم يمنعونه في دارهم، وهذا الثبت عندنا. [٢/٦].

وروي أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ــ قبل بَدْر ــ ، وقد استشار الناس «لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم وإني أقول لك عن الأنصار وأجيبُ عنهم، فاظعن حيث شئت، وصل حَبْل مَنْ شئت. .» [الرحيق المختوم ٢٣٢].

وقال محمد عزة دروزة: «ولم يرد في الروايات التي روت أخبار الوقائع السابقة ما يفيد أنه كان من الذين يحاربون تحت قيادة الرسول، أو تحت قيادة قواد السرايا أحد من الأنصار، وكان قواد السرايا من المهاجرين.

قال: ولقد كان أذى المشركين وعدوانهم في مكة على المسلمين في مكة حتى أَلْجَؤوهم إلى الخروج. ومن المحتمل أن تكون مبادرات القتال الأولى من مشركي مكة ضد مسلمي مكة المهاجرين، ولم يقع من ذلك شيء على مسلمي المدينة، فيكون هذا تفسيراً لاقتصار الوقائع السابقة على بدْرٍ على المهاجرين. .» [الجهاد في سبيل الله ص ٩١ ــ ٩٢].

• • •

ـ ٣ ـ

مُقدَّمات القتال وأسبابه

لم تشف قلوب المشركين لهجرة المسلمين إلى المدينة، بل زادهم غيظاً أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمناً ومقراً بالمدينة، فكتبوا إلى عبد الله بن أُبَـيّ ابـن سلـول ـ بصفتـه رئيـس الأوس والخـزرج قبـل الهجـرة ـ : «إنكـم آويتـم صاحبنا، وإنا نقسم بالله، لتقاتُلنَّه، أو لتُخْرجُنَّه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتلَ مقاتلتكم ونستبيح نساءكم». [أبو داود، باب خبر النضير].

فلما بلغ ذلك عبد الله بن أُبـيّ ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبـي، لقيهم فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ، فلما سمعوا ذلك من النبـيّ ﷺ، تفرقوا.

ثم إن قريشاً أرسلت إلى المسلمين تقول لهم: لا يغرنكم أنكم أفلتم منا إلى يثرب سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عُقر داركم. [الرحيق المختوم ٢١٦].

ولم يكن هذا كله وعيداً مجرداً من التربص بالشرّ، فقد تأكد ذلك عند رسول الله ﷺ، ولذلك لم يكن يبيت في أول الهجرة إلا ساهراً أو في حرس من الصحابة، لما روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: «سهر رسول الله مقدمه المدينة ليلةً، فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابـي يحرسني الليلة، قالت:

فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: مَنْ هذا؟ قال: سعد بن أبي وقاص، فقال رسول الله: ما جاء بك، فقال: وقع في نفسي خوفٌ على رسول الله، فجئت أحرسه» ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالي، بل كان ذلك أمراً مستمراً، لما روت عائشة قالت: كان رسول الله يُحرسُ ليلاً حتى نزل ﴿والله يعصمك من الناس﴾. فأخرج رسول الله رأسه من القبة، فقال: يا أيها الناس انصرفوا عني، فقد عصمني الله عزّ وجل. [جامع الترمذي ـ أبواب التفسير ١٣٠/٢].

ثم ظهرت نيّة المشركين لمنع المؤمنين من قَصْد البيت الحرام، وصدّ المسلمين عنه لما روى البخاري عن سعد بن معاذ أنه كان صديقاً لأميّة بن خلف، وكان أمية إذا مرّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعدٌ إذا مرَّ بمكة نزل على أُمية فلما قدم رسول الله المدينة، انطلق سَعْدٌ معتمراً، فنزل على أمية بمكة، فقال لأميّة: انظر لي ساعة خلوة لعلّي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النهار فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، مَنْ هذا معك؟ فقال: هذا سعدٌ فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً، وقد آويتم الصُباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله، لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشدُّ عليك منه: طريقك على المدينة. . . [ك ٦٤، باب ٢]. وفي رواية قال سعد: لأمنعنك متجرك إلى الشام. وهو المراد بقطع طريقة إلىٰ المدينة.

• • •

ـ ٤ ـ
أسباب بدء القتال، وأهدافُه

لقد روى رواةُ السيرة خبر سرايا سيرها النبـيّ ﷺ، وغزوات قادها قبل غزوة بدر، وتفيد هذه الروايات أن ذلك كان مبادرات مباشرة من النبـيّ ﷺ ضد قوافل قريش التجارية.. مع أنَّ الآيات التي نزلت في بداية العهد المدني، تفيد أن المشركين كانوا يقاتلون المسلمين، وأن من المسلمين مَنْ استشهد في هذا القتال، حيث يمكن القول إنه كانت مبادرات عدوانية من المشركين، قوبلت بهذه السرايا، والغزوات [انظر سورة الحج آية ٣٩ والبقرة ١٩٠، ٢١٧].

وربما يقال: إنَّ مشركي قريش في مواقفهم المؤذية للنبـي والمسلمين في مكة، وتعذيبهم بعض الأرقاء والضعفاء وإزهاق أرواح بعضهم، وتآمرهم على قتل النبـيّ ﷺ الذي أُشير إليه في آية سورة الأنفال رقم ٣٠ وإلجائهم النبـي إلى الخروج والهجرة من وطنهم، يمكن أن يكون من المبادرات التي كانت مبادرات المسلمين رداً عليها.

... وعلى كل حال، فإن إيذاء المسلمين في مكة، والاستيلاء على أموالهم، ومنعهم من إعلان إسلامهم، والتربص بالمسلمين الدوائر، كل هذه أسباب مقبولة لبدء قتال، يدافع فيه المسلمون عن أنفسهم، ويضمنون للعقيدة الإسلامية الانتشار، بعد أن يصبح الناسُ أحراراً في القبول أو الرفض والاستماع إلى الدعاة.

ولما كانت أساليب الحرب تقضي أن يتبع المحاربون الأساليب التي تؤدي إلى إضعاف الخصم، فقد رأى المسلمون أن أقوى الأساليب لإضعاف شوكة المشركين في مكة، هو قطع طريق التجارة عليهم، لأن زعامة أهل مكة تعتمد عليها، ولأنها من وسائل قوة الأعداء. . .

وكان من الحكمة أن يبسط المسلمون سيطرتهم على طريق قريش التجارية المؤدية من مكة إلى الشام، واختار رسول الله لبسط هذه السيطرة خطتين:

الأولى: عقد معاهدات حلف أو عدم اعتداء مع القبائل التي تجاور الطريق أو كانت تقطن ما بين هذه الطريق، وبين المدينة.

والثانية: إرسال السرايا المتتابعة إلى هذه الطريق.

ولتنفيذ هاتين الخطتين قام المسلمون بحركات عسكرية هي أشبه بالدوريات الاستطلاعية وكان هدفها الاستكشاف والتعرف على الطريق المحيطة بالمدينة والمسالك المؤدية إلى مكة وعقد المعاهدات مع القبائل التي تحاذي هذا الطريق، وإشعار مشركي يثرب ويهودها، وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء، وإنذار قريش عقبى طيشها حتى تفيق من غيّها، لعلها تشعر بالخوف على اقتصادها وأسباب معايشها فتجنحَ إلى السلم، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين في عُقر دارهم وعن الصد عن سبيل الله وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين بمكة، حتى يصير المسلمون أحراراً في إبلاغ رسالة الله في ربوع الجزيرة. [الرحيق المختوم ٢١٨].

• • •

ـ ٥ ـ

الغزوات النبوية من تاريخ المدينة

ذكرنا من قَبْلُ عدد غزوات النبيّ ﷺ، وسراياه، ومع أن الغزوات والسرايا، تُعَدُّ من تاريخ المدينة في العهد النبوي، إلا أن المؤرخين خصوها بالتأليف تحت عنوان «السيرة النبوية» وهي من تاريخ المدينة، لأنها انطلقت من المدينة، برجال من أهل المدينة، وبعتاد حربيّ يمثّل جُهْد أهل المدينة في الإعداد للحرب، لقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾.. الآية. ومن المدينة كانت تنطلق مقدّمات الجيوش، من العيون، والجواسيس، والمرجفين، وفي أرض المدينة كانت ترعى خيول المسلمين التي أُعدت للجهاد، حيث حمى رسول الله ﷺ، حمى النقيع لها، وبمقدار ما تكون الحياة الاقتصادية في المدينة رخيّة، يكون تجهيز الجيش، ففي غزوة تبوك عام العُسْرة، عجز كثير من الناس عن تجهيز أنفسهم للحرب، فانبرى للتجهيز أثرياء الصحابة: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وتسابق كلُّ مَنْ يملك شيئاً لتقديمه للغزوة.. فالغزوات النبوية تمثل جزءاً هاماً من تاريخ المدينة ـ في هذه الحقبة ـ التاريخ الاقتصادي، والعسكري، والاجتماعي وتنبىء عن قدرة المدينة ـ بصفتها عاصمة ـ على قيادة الجزيرة العربية من موقعها الجغرافي والاقتصادي والبشري.. ولا شكَّ أنها أثبتت ـ أي المدينة ـ صلاحها لأن تكون عاصمة متفوقة، لكونها أدت وظيفتها بنجاح متفوق.. ولا يدخلنّك شك من هذا الذي

قُلته، لأن الله تعالى هو الذي اختار المدينة لتكون دار هجرة، ودار دعوة، ودار دولة، كما سبق بيانه من قَبْلُ واختيار الله هو الأمثل دائماً، واختيار الله يكون أبدياً وليس آنياً.. وما حلَّ الضعفُ والهوانُ، وما بدأت الأمة بالانحطاط إلى الدْرك، إلا عندما تركت عاصمة الإسلام الأولى، واستبدلت جوار الأنهار ومراكز المال، بالجوار النبويّ الكريم... ولا يغرنّك، توسع الدولة الإسلامية بعد العهد الراشدي فما كانت للدولة الإسلامية مهابة في نفوس الناس إلا عندما كانت في المدينة.

• • •

ـ ٦ ـ

الغزوات والسرايا[١]

الغزوة	السريّة	التاريخ	الجهة
	حمزة بن عبد المطلب[٢]	٩/١٧ /١هـ	سيف البحر[٣]، من ناحية العيص
	عُبيدة بن الحارث	/١٠/١هـ	بطن رابغ
	سعد بن أبي وقاص	/١١/١هـ	الخرّار (بين مكة والمدينة)
الأبواء		/٢ /٢هـ	الأبواء } اسمان لغزوة واحدة
ودّان		/٢ /٢هـ	ودّان. }
بُواط		/٣ /٢هـ	بُواط: من جبال جُهينة
سَفَوان		/٣ /٢هـ	سفوان[٤] ـ ناحية بدر
ذو العُشيرة		/٦ /٢هـ	ناحية ينبع
	عبد الله بن جحش الأسدي	/٧ /٢هـ	نخلة ــ قرب مكة

---

(١) عن الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٢. وقد أفردت الغزوات في حقل، والسرايا في حقل، وأثبت التاريخ الذي ذكره ابن سعد. وذكرت رقم الشهر في السنة الهجرية اختصاراً. وعدد الغزوات عند ابن سعد ثمان وعشرون غزوة. وفي البخاري تسع عشرة، ونقل ابن حجر في الفتح عن أبي يعلى، أن الغزوات النبوية إحدى وعشرون غزوة. وفي سيرة ابن إسحق غزا رسول الله ﷺ سبعاً وعشرين غزوة، والاختلاف في العدد جاء من ضمّ بعض الغزوات إلى الأخرى، لقربها منها، أو لكونها متسببة عنها.

(٢) قالوا: إن أول لواء عقده رسول الله ﷺ، كان لحمزة بن عبد المطلب.

(٣) البحر: هو البحر الأحمر. حيث كانت تمرُّ قوافل قريش التجارية قريباً منه، وهي ذاهبة إلى الشام أو عائدة منه. وكانت جلُّ الغزوات والسرايا التي سبقت بدراً هدفها التقاء تجار قريش حين يمرون إلى الشام ذهاباً وإياباً، وتُوّجت بغزوة بدر الكبرى.

(٤) يقال لها: غزوة بدر الأولى.

الغزوة	السريّة	التاريخ	الجهة
بدر الكبر		٩/١٧ / ٢هـ	بَدْر
	عُمير بن عديّ[١]	٩/٢٥ / ٢هـ	عصماء بنت مروان
	سالم بن عُمير[٢]	/ ١٠/ ٢هـ	إلى أبي عفك اليهودي
بنو قينقاع		١٥/ ١٠/ ٢هـ	بنو قينقاع من يهود المدينة
السويق		٥ / ١٢/ ٢/هـ	العُرَيض ــ شرق المدينة
قَرْقرة الكُدْر		/ ١ / ٣هـ	معدن بني سلم (المهد)
	قتل كعب بن الأشرف	٣/١٤ / ٣هـ	حصن كعب بالمدينة
غطفان		/ ٣ / ٣هـ	النخيل ــ شرق المدينة
بني سليم في بُحران		٥/١٦ / ٣هـ	بُحران ــ بناحية الفُرُع
	زيد بن حارثة	١ / ٦ / ٣هـ	القَرَدَة ــ طريق العراق
أحد		٧/ ١٠/ ٣هـ	جبل أحد شمال المدينة
حمراء الأسد		٨/ ١٠/ ٣هـ	حمراء الأسد ـ في ضواحي المدينة
	أبو سلمة المخزومي	١/١ / ٣هـ	قطن ــ جبل بناحية فيد، جنوب حائل.
	عبد الله بن أُنيس	١/٥ / ٣هـ	عُرفة ــ في نواحي مكة
	المنذر بن عمرو	/ ٢ / ٣هـ	بئر معونة
	مرثد بن أبـي مرثد	/ ٢ / ٣هـ	عضل والقارة
غزوة بني النضير		/ ٣ / ٤هـ	بني النضير
بَدر الموعد		١ / ١١/ ٤هـ	بدر الصفراء

(١) عُمير بن عديّ الأنصاري، صحابـيّ، كان ضريراً. قتل عصماء بنت مروان من بني أمية بن زيد، كانت تعيب الإسلام وأهله، فذهب إليها وحده وقتلها، فلقبه رسول الله ﷺ «البصير» وروي أن رسول الله قال في المناسبة المثل المشهور «لا ينتطحُ فيها عَنْزان» أي: لا يلتقي فيها اثنان ضعيفان، لأن النطاح من شأن التيوس والكباش وهو إشارة إلى قضية مخصوصة لا يجري فيها خُلْف ونزاع.

(٢) سريّة سالم بن عُمير كان فيها وحيداً... وكان أبو عفك اليهودي يحرض على رسول الله ﷺ ويقول الشعر.

الغزوة	السريّة	التاريخ	الجهة
ذات الرقاع		/١/٤هـ	شرق المدينة، قريب من النُخيل
دُومة الجندل		/٣ /٥هـ	دومة الجندل
المُريسيع		/٨ /٥هـ	بنو المصطلق بين مكة والمدينة
الخندق		/١١/٥هـ	المدينة
بنو قريظة		/١١/٥هـ	المدينة
	محمد بن مسلمة	١/١٠ /٥هـ	إلى القُرَطاء ـ بناحية ضريّة
بنو لحيان		/٣ /٦هـ	عُسفان ــ قرب مكة
الغابة		/٣ /٦هـ	شِمال المدينة
	عُكّاشة بن محصن	/٣/٦هـ	الغَمْر
	محمد بن مسلمة	/٣/٦هـ	إلى ذي القَصَّة
	أبو عبيدة بن الجراح	/٤/٦هـ	ذو القصَّة.
	زيد بن حارثة	/٤/٦هـ	الجَموم
	زيد بن حارثة	/٥/٦هـ	العيص
	زيد بن حارثة	/٦/٦هـ	الطّرف (الصويدرة)
	زيد بن حارثة	/٦/٦هـ	حِسْمى ــ في شمال الجزيرة
	زيد بن حارثة	/٧ /٦هـ	وادي القرى
	عبد الرحمن بن عوف	/٨ /٦هـ	دُومة الجندل
	علي بن أبي طالب	/٨ /٦هـ	فدك
	زيد بن حارثة	/٩ /٦هـ	أم قرفة ــ وادي القرى
	عبد الله بن عتيك	/٩ /٦هـ	إلى أبي رافع بخيبر
	عبد الله بن رواحة	/١٠/٦هـ	أسير بن زرام ــ خيبر
	كرز بن جابر الفهري	/١٠/٦هـ	إلى العرنيين
	عمرو بن أُمية الضمري		مكة
الحديبية		/١١/٦هـ	مكة
خيبر		/٥ /٧هـ	خيبر
	عمر بن الخطاب	/٨ /٧هـ	تُربة ــ في شرق الطائف

الغزوة	السريّة	التاريخ	الجهة
	أبو بكر الصديق	/٨ /٧هـ	إلى بني كلاب بنجد
	بشير بن سعد الأنصاري	/٨ /٧هـ	فدك
	غالب بن عبد الله الليثي	/٩ /٧هـ	الميفعة، بناحية نجد
	بشير بن سعد الأنصاري	/١٠/٧هـ	يمن وجُبار
			ماءان بين المدينة وفَيْد
عمرة القضية		/١١/٧هـ	مكة
	ابن أبي العوجاء السلمي	/١٢/٧هـ	بنو سُلَيْم
	غالب بن عبد الله الليثي	/٢ /٨هـ	إلى بني الملوّح بالكديد
			قبل مكة بـ ٩٠ كيلاً
	غالب بن عبد الله الليثي	/٢ /٨هـ	فدك
	شجاع بن وهب الأسدي	/٦/٨هـ	السّيّ ـ بين مكة والطائف
	كعب بن عمير الغفار	/٣/٨هـ	ذات أطلاح، فلسطين
	مؤتة	/٥/٨هـ	مؤتة (شرقي الأردن)
	عمرو بن العاص	/٦/٨هـ	ذات السلاسل
	الخطبة ـ أبو عبيدة بن الجراح	/٧/٨هـ	ساحل البحر
	أبو قتادة بن ربْعي	/٨/٨هـ	خضرة، بنواحي نجد
	أبو قتادة بن ربْعي	/٩/٨هـ	بطن إضم
الفتح		/٩/٨هـ	مكة
	خالد بن الوليد	٢٥/٩/٨هـ	العُزّى، بنخلة.
	عمرو بن العاص	/٩ /٨هـ	سُواع ــ صنم
	سعد بن زيد الأشهلي	/٩ /٨هـ	مناة ــ صنم
	خالد بن الوليد	/١٠/٨هـ	إلى بني جذيمة من كنانة
حُنين		/١٠/٨هـ	وادي حنين
هوازن		/١٠/٨هـ	
	الطفيل بن عمرو الدّوسي	/١٠/٨هـ	ذو الكفّين ــ صنم
الطائف		/١٠/٨هـ	الطائف
	عُيينة بن حصن الفزاري	/١/٩ هـ	إلى بني تميم
	قُطبة بن عامر بن حديدة	/٢/٩ هـ	خثعم بناحية بيشة

الغزوة	السريّة	التاريخ	الجهة
	الضحاك بن سفيان الكلابـي	/ ٣/ ٩ هـ	بنو كلاب
	علقمة بن مُجزِّز المدلجي	/ ٤/ ٩ هـ	إلى الحبشة من البحر
	علي بن أبـي طالب	/ ٤/ ٩ هـ	إلى الفُلس ـــ صنم
	عُكّاشة بن محصن الأسدي	/ ٤/ ٩ هـ	الجناب ـــ أرض عُذْرة وبلي
تبوك		/ ٧/ ٩ هـ	تبوك
	خالد بن الوليد	/ ٣/ ١٠هـ	نجران ـــ بني عبد المدان
	علي بن أبـي طالب	/ ٩/ ١٠هـ	اليمن
حجة الوداع		سنة عشر	
	أسامة بن زيد	٢٦/ ٢/ ١١هـ	البلقاء ـــ وتمت بعد الوفاة النبوية.

• • •

ـ ٧ ـ

الدروس المستفادة من
الغزوات النبوية في تاريخ المدينة

أولا: رأينا فيما سبق أن الغزوات النبوية تُعَدُّ من تاريخ المدينة في العصر النبويّ، بل إنَّ الغزوات هي تاريخ المدينة في العصر النبويّ، لأن الحياة النبويّة في المدينة كانت جهاداً متواصلاً. إن لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه في غزوة أو سريّة، فإنهم يكونون يُعِدّون لغزوة أو سرية، ويظهر هذا من ارتباط السنة النبويّة والفقه النبويّ بأحداث الغزوات والسرايا. . . حيث نجد كثيراً من أحاديث الأحكام تُروى في مناسبة غزوة أو سريّة.

وانظر أمثلة لذلك: باب صلاة الخوف، عن عبد الله بن عمر قال: «غزوت مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فوازينا العدوّ. . الحديث» [البخاري كتاب ١٢]. وكتاب «قَصر الصلاة» وكتاب «الجهاد» وكتاب «الجزية» وانظر قصة «حديث الإفك» و «قصة التيمم» و «نكاح المتعة» و «العمرة» و «المزارعة». . الخ.

ومع هذه الصلة القويّة بين تاريخ المدينة في العصر النبوي، وبين الغزوات والسرايا فإنني لن أعرضها بالصورة التي يعرضها مؤلفو السيرة النبويّة، وسوف أكتفي باستخلاص الفوائد التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية منها، مما يخص تاريخ المدينة في العصر النبويّ. . والتاريخ يشمل جغرافية المكان وطرائق العيش، والروابط الاجتماعية بين الناس.

وإليك الدروس المستفادة من الغزوات والسرايا؛ مما يتصل بتاريخ المدينة.

١ ــ بدأت المناوشات بين المسلمين والمشركين بثلاث سرايا خرجت من المدينة يقودها ثلاثة من المهاجرين، وجلُّ رجالتها من المهاجرين. وكانت السرية الأولى بقيادة حمزة بن عبد المطلب في رمضان من السنة الأولى من الهجرة أي: بعد سبعة أشهرٍ من الهجرة. وهذا يدل على أن الإذن بالقتال، نزل ما بين شهر ربيع الأول شهر الهجرة، وبين رمضان. ذلك أن المؤمنين كانوا يتشوقون إلى الوقوف أمام طغيان المشركين وعندما صار للمؤمنين القاعدة التي ينطلقون منها، والجنود، أذن الله بالقتال.

وكانت السرية الأولى إلى شاطىء البحر، بالقرب من ينبع، والسرية الثانية كانت في شوال من السنة الأولى، إلى بطن رابغ في مسافة وسط بين المدينة ومكة. والسرية الثالثة: في ذي القعدة من السنة الأولى، إلى «الخرّار» بالقرب من الجحفة، وهو موضع تمرُّ به قوافل قريش التجارية. وكانت السرايا الثلاث ذات هدف أو أهداف متحدة، منها: إظهار قوة المسلمين، وقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم ومنها إرهاب قريش، والعرب المشركين وتحذيرهم من غزو المدينة، ومنها جَعْلُ قريش تخشى على تجارتها، فتقلل من كبريائها وإيذائها المسلمين.. ذلك أن طريق التجارة الشامية تعدُّ من مناطق نفوذ المسلمين، أو قريبة من مناطق نفوذهم، وقريش لا عيش لها إلا بالتجارة. وخروج المسلمين من قاعدتهم ــ المدينة ــ في سرايا، إلى ملاقاة الأعداء، دليل على قوتهم لأن القويَّ هو الذي يغزو، وأما الضعيف فإنه يقبع في داره، فإذا جاءَه الأعداء، دفعهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

٢ ــ وجاءت بعد السرايا الثلاثة، غزوتان، كانتا في الاتجاه نفسه الذي اتجهت إليه السرايا، ولعلهما يتفقان مع السرايا في الهدف: وهما غزوة الأبواء.. ويقال لها «ودّان» أيضاً، ثم غزوة بُواط. وكانت الأبواء في شهر صفر

من السنة الثانية، وغزوة بواط في شهر ربيع من السنة الثانية. فالغزوات والسرايا تتوالى سريعة ومتقاربة، بعد أن أذن الله للمؤمنين بالقتال، لأن المسلمين يريدون أن يظهروا قوتهم في عاصمتهم المدينة.. فكانت قوتهم تنمو سريعة وأحلافهم يكثرون، وهيبتهم تزداد، ويشيع ذكرهم بين العرب، وكان هذا يغيظ القرشيين، الذين أحسوا أن سلطانهم أخذ في التناقص فأرادوا أن يردّوا بعض ما فقدوا من الهيبة، فكانت مفاجأتهم سرح أهل المدينة في أطرافها، وكانت غزوة سَفَوان التالية.

٣ ــ أما سَفَوان: وتسمى غزوة بدر الأولى ــ فهي مكان بالقرب من بَدْر، من ناحية المدينة، وكان رسول الله قد خرج من المدينة طالباً كُرْز بن جابر الفِهْرِي، الذي أغار على نَعَم أهل المدينة، فاستاقها، وولى هارباً، فلحقه رسول الله فلم يدركه، ورجع بعد بلوغه سَفَوان. وكان سرح المدينة يرعى في نواحي «الجمّاء» والمقصود هنا جماء أم خالد وهي الجمّاء الوُسطى، بين جمّاء تُضارع، وجماء العاقل، وأقرب تحديد وأثبته للمكان الذي كانت ترعى فيه النّعم، في مكان الجامعة الإسلامية بالمدينة ونواحيها.. ويقولون إنه يبعد عن المدينة ثلاثة أميال ــ الأميال القديمة ــ أي: حوالي سبعة أكيال وهذا إذا قسنا المسافة ابتداءً من المسجد النبوي، وقد تكون بداية السرح (المرعى) من ناحية المدينة أقلّ من المسافة المحددة، وتكون المسافة صحيحة إذا قسنا من طرف السّرح الأقصى. وتحديد مكان السرح بأنه في نواحي جماء أم خالد مناسب لجغرافية المدينة، لأن المكان واقع في طرف المدينة القريب من ذي الحليفة، حيث الطريق التي يُتوقع أن يأتي منها المغيرون من مكة. [انظر موقع جماء أم خالد، في مخطط «حرم المدينة»] [وانظر مخطط الطرق بين مكة والمدينة].

٤ ــ ونفهم من سياق الغزوات والسرايا، أن إغارة كرز بن جابر على سرح المدينة كانت بداية الاعتداء على أموال أهل المدينة، ولم يسبقها اعتداءٌ من المسلمين على أموال قريش.. نعم، لقد كانت السرايا التي سبقت «سَفَوان»

تقصد إلى طريق القوافل التجارية القرشية، ولكنها لم يكن منها سلبٌ لأموال، ولعلها كانت للتخويف وإظهار القوّة، . . ولكنْ بعد أنْ أغار كرزُ بن جابر على أموال أهل المدينة، تقرر الاقتصاص من المشركين، فكانت غزوة ذي العُشيرة في جمادى الأولى وجمادى الآخرة من السنة الثانية. . وكان هدفها اعتراض عير لقريش ذاهبة إلى الشام، ولكن العير فاتت الجيش الإسلامي، ثم تبعها سرية (نخلة) في نواحي الطائف، والتقى جنودها قافلة لقريش عائدة من الطائف، واستطاع المسلمون الاستيلاء على القافلة والعودة بها إلى المدينة. . فبداية السلب بدأت من المشركين مع ما كانوا قد أتوه قبل ذلك من الاستيلاء على أموال المهاجرين من مكة.

ثم كانت غزوة بدر في رمضان من السنة الثانية، وقد صرّح رسول الله في هذه الغزوة أن الهدف هو الاستيلاء على أموال قريش العائدة من الشام، فقال عليه السلام: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله ينفلكموها».

٥ ــ غزوة بدر الكبرى:

وهي تبعد عن المدينة بحوالي مئة وخمسين كيلاً، ومما هو لصيق بالمدينة من سَيْر أحداثها:

(أ) الطريق من المدينة إلى بدر: بدأ من نَقْب المدينة، والمفهوم من سياق الروايات أن نقب المدينة كان في نهاية شارع العنبريّة، بالقرب من محطة سكة حديد الحجاز، ويقال له: نَقْب بني دينار ــ من بني النجار من الأنصار ــ.

ثم مرّ الطريق على وادي العقيق، من جزئه الذي يبدأ من جسر عروة حتى آبار علي ذي الحُليفة، ثم مرّ بذي الحليفة، ميقات أهل المدينة. . [انظر مراحل الطريق بعد ذي الحليفة في كتابنا «المعالم الأثيرة»].

(ب) أرسل رسول الله ﷺ، بعد النصر، بشيرين إلى أهل المدينة ليعجل

لهم البشرى، فأرسل عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية (العوالي) وأرسل زيد بن حارثة بشيراً إلى أهل السافلة.. و «العالية» الأماكن المرتفعة من المدينة في الشرق والجنوب الشرقي.. ويقابلها الأماكن المنخفضة حيث تتجه سيول المدينة [انظر خارطة المدينة الأثرية].

(جـ) ذكر السهيلي في «الروض الأنف» قال: كان من الأسارى يوم بدر مَنْ يكتب ولم يكن من الأنصار يومئذٍ أحد يُحسن الكتابة، فكان منهم مَنْ لا مالَ له فيُقبل منه أن يعلّم عشرة من الغِلْمان الكتابة، ويُخلّى سبيله، فيومئذٍ تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من غلمان الأنصار...

(د) كان أول عيد فِطْر عيّده المسلمون في المدينة، هو عيد رمضان الذي حصلت فيه غزوة بدر، لأن فرض رمضان كان في السنة الثانية من الهجرة.. وقد قدّم اللَّهُ نَصْرَ بدر للمسلمين ليأتي العِيد وهم سُعداءُ بالنصر، وسعداء بعيد الفطر.

(هـ) كان عدد المسلمين في بدر ٣١٧ رجلاً موزعين كالتالي: ٨٦ من المهاجرين + ٦١ من الأوس + ١٧٠ من الخزرج = ٣١٧ مسلماً.

ولا يمثل هذا العدد القادرين على القتال من المسلمين، لأن ابن سعد يقول: «وندب رسولُ الله المسلمين للخروج معه، فأسرع مَنْ أسرع إلى ذلك، وأبطأ عنه بَشَرٌ كثير وكان مَنْ تخلّف، لم يُلَمْ، لأنهم لم يخرجوا على قتال، إنما خرجوا للعير».

(و) ومما له علاقة لصيقة بالحياة في المدينة: ما رُوي أن رسول الله قدَّم عينين له إلى المشركين يأتيانه بخبر عدوّه، وهما بسبس بن عمرو، وعدي بن أبي الزَّغْباء وهما من جهينة، حليفان للأنصار، فأتيا إلى ماء بدر فعلما الخبر ورجعا إلى رسول الله.. وكان أبو سفيان أرسل عيناً يتجسس له، فسأله أبو سفيان: هل أحسستَ أحداً من عيون محمد؟ فقال: والله ما رأيتُ أحداً أُنكره، إلا راكبين أتيا إلى هذا المكان وأشار إلى مُناخ عديّ، وبسبس، فجاء

أبو سفيان فأخذ أبعاراً من بعيريهما، ففتّه، فإذا فيه نوى، فقال: علائف يثرب، هذه عيون محمد.. وعندما أقبلت قريش لحماية تجارتها، قال أبو جهل: والله لا نبرحُ حتى نرد بَدْراً، وكانت بَدْرٌ موسماً من مواسم الجاهلية يجتمع بها العرب، بها سوق.. ويؤخذ من سياق الأخبار، الفوائد التالية:

١ ـ كان في المدينة عَرَبٌ غير الأوس والخزرج، لأن عيني رسول الله كانا من جهينة، وإنما قالوا: إن الأنصار من الأوس والخزرج، من باب التغليب، لأن الكثرة الكاثرة كانت منهما.

٢ ـ قوله: فإذا فيه نوى: يريد نوى التمر، وعلف الإبل نوى التمر دليل على كثرة النخيل في ديارهم.

٣ ـ كان سبب اختيار «بدر» مكاناً للمعركة، كونها سوقاً جاهلية، وفيها آبار، وهذا يدلُّ على أن عمران موقع بَدْر، لم يكن بسبب وقوع المعركة فيها.

٦ ـ غزوة بني قينقاع:

كانت طوائف اليهود بالمدينة ثلاث طوائف: قريظة، والنضير، وقينقاع. وكان رسول الله قد وادعهم على أن لا يحاربوه، ولا يمالئوا عليه عدوّه. فكان أول مَنْ نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم رسول الله في شوال بعد وَقْعَةِ بدْر، ثم أخرجهم إلى أذرعات ـ درعا، أو أذرع في حوران السورية ـ وكانت منازلهم في عوالي المدينة، في الجهة الجنوبية الشرقية، وكانت لهم سوق مشهورة باسمهم. وقيل إن السبب في غزوهم أن يهودياً أساء إلى امرأة مسلمة في السوق.. وقيل: إنهم أظهروا تحدياً للرسول عليه الصلاة والسلام بعد غزوة بَدْر، فأنزل الله تعالى: ﴿وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾ فقال رسول الله: أنا أخاف بني قينقاع. فسار إليهم بهذه الآية. [ابن سعد ٢/ ٢٩].

٧ ـ غزوة السويق:

وكانت في ذي الحجة من السنة الثانية:

والسويق: هو أن تحمص الحنطة أو الشعير أو نحو ذلك ثم تطحن، ثم يُسافر بها، وقد تمزج باللبن والعسل والسمن، وتلتّ، فإن لم يكن شيء من ذلك مُزجت بالماء.

وأضيفت الغزوة إلى السويق: لأن كُفّار قريش أغاروا على المدينة، وعندما أحسوا بالطلب، وأن خيل المسلمين في أثرهم، خففوا من أحمالهم للسرعة، فكان أكثر ما تركوه السويق.

وقدم المشركون بقيادة أبـي سفيان من الطريق الشرقية النجدية، وهذه الطريق تأخذ من مكة على دَرْب زبيدة، المعروف بالمنقّى حتى تفترق عنه من المهد على مسافة (٢٦٠ كيلًا) من المدينة، في الجنوب الشرقي، وكان يُسمى معدن بني سليم،.. ثم يأتي على الصويدرة في طريق الرياض المؤدي إلى المدينة على بُعْد نحو ستين كيلاً. [انظر خارطة الطرق الرئيسية في الحجاز].

وتطبيق الأحداث على الواقع الجغرافي يدل على أن المشركين جاءوا من ناحية الشرق.

(أ) حيث تقول الروايات إن أبا سفيان خرج في مئتي راكب من قريش، فسلك (الطريق) النجدية حتى نزل بصدر وادي قناة إلى جبل يُقال له «ثيب»، وجبل «ثيب» يقال له أيضاً: «تيم» و «تيأم» وكلها تصحيفات للفظ واحد. وهو جبل في بداية وادي قناة شرقي المدينة يشرف على سدّ العاقول من الشرق، على مسافة حوالي ستة عشر كيلاً شرقي المدينة في طريق القصيم. ويذكر الجبل في حدود حرم المدينة من جهة الشرق ـ حرم الشجر ـ [انظر خارطة حدود الحرم النبويّ].

(ب) ثم خرج أبو سفيان من الليل حتى أتى بني النضير من اليهود تحت الليل، وعرف شيئاً من أخبار الناس. وبنو النضير كانت منازلهم في جنوب المدينة إلى ناحية الشرق. [انظر الخارطة الأثرية].

(جـ) ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه، فبعث رجالاً من قريش إلى المدينة فأتوا ناحية منها يُقال لها: «العُريض» فحرقوا في أصوار من نخل بها، ووجدوا بها رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حَرْث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين. والعُرَيض: تصغير «عرض» لا زال معروفاً بهذا الاسم.. ومنطقة العُرَيض كانت، وما تزال بها آبار ومزارع في منخفضات الحرة الشرقية، وهي تلي جبل أحد من الناحية الجنوبية الشرقية، يفصل بينهما وادي قناة... وهو قطاع طويل لعل المغيرين جاءوا إلى طرفه الشرقي الأبعد عن المدينة.

(د) قال ابن هشام: ونذر بهم الناسُ، فخرج رسول الله في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكُدْر ثم انصرف راجعاً، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه. وقرقرة الكُدْر: تقع بين الصويدرة، والحناكية في طريق القصيم باتجاه المهد، معدن بني سليم.

.. هذا، ومجيء المغيرين من الطريق الشرقي، يظهر منه أن المشركين كانوا يريدون التخريب والانتقام من المسلمين بعد هزيمتهم في بَدر، ويدل أيضاً على أنهم كانوا يخشون من المجيء من الطريق الذي يمرّ ببدر، لأنه طريق محروس بالعيون التي يبثها رسول الله بين المدينة ومكة، فأرادوا أن يفاجئوا المسلمين من جهة لا يُتوقع مجيء القرشيين منها. والله أعلم.

٨ ـ مقتل كعب بن الأشرف:

كان كعبٌ عربياً من بني نبهان، وهم بطن من طيء، وكان أبوه أصاب دماً في الجاهلية فأتى المدينة، فحالف بني النضير من يهود، وتزوج امرأة يهودية، فولدت له كعباً وكان متهوّداً خبيثاً.. وكان شاعراً يهجو النبيّ ﷺ ويحرض عليه كفار قريش.. فلما أمعن كعبٌ في أذاه، أمر رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً ليقتلوه (أبو داود). وفي البخاري: «قال رسول الله ﷺ: مَنْ لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله، فقام محمد بن مسلمة، فقال: يا رسول الله، أتحبُّ أن أقتله، قال: نعم» [ك ٦٤، ١٥] وفي القصة من الفوائد:

(أ) أن كعب بن الأشرف، كان يهودياً، أو متهوداً مفرداً من العرب، ولم يكن له قبيلة عربية متهودة.

(ب) كان لكعب بن الأشرف حِصْنٌ، وكان حصنُه في شرق جنوب المدينة، خلف ديار بني النضير، ربما يبعد عن المسجد النبوي عشرة أكيال. [انظر موضعه في مخططات المدينة].

(جـ) أن رسول الله ودّع السريّة حتى البقيع، وهو اليوم يجاور المسجد النبوي من جهة الشرق.

(د) عند عودة محمد بن مسلمة وزملائه، مرّوا على بني أميّة بن زيد من الأوس، وكان مكانهم في شرقي براح مسجد الفضيخ، وبنو النضير في جنوب المسجد [انظر المخطط الأثري]. ثم مرّوا على بني قريظة، ومعنى هذا أنهم اتجهوا في عودتهم شمالاً، لأنهم مرّوا على موقع «بُعاث» حيث جرت الحرب المشهورة. وبُعاث أرض في شرقي المدينة، وغربي جبل تيم، وجنوب منطقة العُريض. [انظر موقعه في أحد المخططات]. ثم توجهوا إلى حرّة العريض، وقد مضى ذكرها في غزوة السويق.. ويظهر أن المسلمين لم يتخذوا طريقاً مستقيماً للوصول إلى مسجد النبيّ ﷺ، لتضليل اليهود، الذين ربما جدوا في طلبهم بعد أن علموا بمقتل كعب بن الأشرف.

٩ ـ تحيط القبائل العربية بالمدينة النبوية من جميع جهاتها، ولم يكن بينها وبين أهل المدينة، مغازاة أو حروب قبل الهجرة، ولكن قريشاً أخذت تحرض بعض هذه القبائل على غزو المدينة. وكان رسول الله ﷺ قد بثَّ العيون والجواسيس في جميع الجهات لرصد تحركات القبائل، فإذا جاءَه الخبر بنيّة قبيلة على الغزو، دعا أصحابه إلى التهيؤ وتوجّه إلى ديار القبيلة، على قاعدة «ما غزي قوم في عُقْر دارهم إلا ذلّوا» وفي هذا السبيل كانت غزوة رسول الله قبيلة غطفان في بدايات نجد من شرق المدينة. ثم كانت غزوة «بُحران» وفيه قوم من بني سليم، جاءَ خبرهم إلى رسول الله، بأنهم ينوون غزو المدينة. وبُحران: جبل يقع

شرق مدينة رابغ على مسافة تسعين كيلاً، وقد سبقت هاتان الغزوتان، غزوة أُحد.

١٠ ــ غزوة أُحد:

كانت في شوال من السنة الثالثة. واختلفوا في اليوم ما بين السابع إلى الخامس عشر من شوال، والمشهور أنها في يوم السبت. ومن أسبابها: الانتقام لقتلى بَدْر، والخوف من استفحال قوة المسلمين، وانتشار رقعة نفوذهم حيث أصبح طريق التجارة ــ مصدر رزق أهل مكة ــ مُهَدَّداً. . فالطريق الساحلي الذي يمرُّ في نواحي ينبع أصبح غير مأمون، لتسرب الإسلام إليه، ووجود أحلاف رسول الله ﷺ فيه. . وعندما حوّل القرشيون طريق تجارتهم إلى الطريق النجدية، مع بُعْده، وطوله، لم يَسْلم أيضاً، لأن رسول الله كان يرسل إليه البعوث والسرايا. . وآخر نجاح للمسلمين على الطريق الشرقي كان في جمادى الآخرة سنة ثلاث من الهجرة، حيث أرسل رسول الله زيد بن حارثة في سرية، والتقى قافلة المشركين على ماءٍ بنجد يُقال له «قَرْدة» واستولى عليها. . وكانت محملة بالفضة والأواني ذاهبة إلى الشام فكان الاستيلاء عليها مأساة شديدة ونكبة كبيرة أصابت قريشاً بعد بَدْر، اشتد لها قلق قريش وزادتها هَمّاً وحزناً؛ ولذلك قرر القرشيون الدعوة إلى النفير العام، للقضاء على قوة المسلمين، فكانت غزوة أُحد.

وهذه بعض الفوائد المكانية المستفادة من النصوص:

(أ) صلى رسول الله صلاة الجمعة في مسجده بالمدينة، ثم اتجه شمالاً نحو أُحد حتى إذا كان بمكان يسمى «الشيخان» توقف، واستعرض الجيش، وردّ مَن استصغره، وصلى العصر والمغرب والعشاء بهذا المكان والشيخان: أُطمأن، أو علمان مختلفان على مكانين، ثنيّا على هذا اللفظ للتغليب، وقد يكونان «الشرجان» تثنية الشرّج (مسيل في الحرّة) ثم صُحّف، بدليل تسمية المكان «أجمة الشيخين». . وقد يكونان غير ذلك، فليس هناك اتفاق على سبب الاسم.

وقد يكون علماً على مكان واحد، جاء بلفظ المثنى.. ويظهر أن هذا الاسم لم يكن في الجاهلية، وإنما هو اصطلاح إسلامي متأخر في زمن رواية الأحاديث والسيرة.. فلم يرد ذكره في أحاديث البخاري، ولم يذكره ابن هشام الذي روى سيرة ابن إسحق، ولم يذكره ابن القيم في «زاد المعاد» وجاء ذكره في طبقات ابن سعد.

وذكر ابن هشام، وابن القيّم في سياق الأحداث التي كانت عند «الشيخان» اسم «الشوط» قال ابن إسحق: «فلما كانوا بالشوط بين المدينة وأُحد.. الخ» [٣/ ٦٤].

وقالوا في تحديد مكان «الشيخان» على يمين الذاهب إلى جبل أُحد، قبل الوصول إلى الجبل بحوالي كيلين. ويذكرون في هذا الموقع «مسجد الشيخين» أو «مسجد البدائع» ويسمى اليوم «مسجد المستراح» على الناصية الغربية لشارع سيد الشهداء.

ومما يدلُّ على أنَّ اسم «الشيخان» علم على مكان واحد، جاء بلفظ المثنى أنهم قالوا في إعرابه أنه يلازم الألف، ويبنى على الكسر، فإذا كان مضافاً إليه بقي على صورته، فقالوا: «أُطُم الشيخان».

وأما مَنْ قال «الشَّوْط» فهو قريب من تحديد مكان «الشيخان» أو هما متجاوران، فقد جاء في الخبر: عن أبـي أُسيد الساعدي قال: تزوج رسول الله امرأة من بني الجون، فأمرني أن آتي بها، فأتيتُه بها فأنزلتها بالشوط من وراء «ذُباب». و «ذباب»، ويسمى «جبل الراية» شمالي الوداع الشامية، في شارع العيون، وشارع العيون يحاذي شارع سيد الشهداء، أحدهما يؤدي إلى أُحد من وسط، والثاني يؤدي إلى أُحد من طرفه من جهة مجتمع السيول. والعرب قد يسمون المكان باسم ما يجاوره إذا لم يكن بينهما معلمٌ بارز. والشوط كما يُفهم من اسمه يكون فضاءً صالحاً لشوط سباق الخيل، والأرض هناك صالحة لذلك. والله أعلم.

(ب) عندما صلى رسول الله صلاة الفجر، بالقرب من «الشيخان» أو «الشوط» كان في مكان بحيث يراهم، ويرونه، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين جبل أُحد في مناطق كثيرة، ذلك أن المشركين كانوا يسيطرون على الجانب الغربي لسهل جبل أُحد.. قال ابن هشام: وقد سرّحت قريش الظهر والكُراع في زروع كانت بالصمغة من قناة للمسلمين، وبعضهم قال: «العرصة» وهي غير عرصة العقيق، وإنما يريدون الأرض الواسعة التي يدفع فيها وادي قناة، بعد تجاوزه مشهد حمزة، وتُعدُّ من منطقة العيون، أو امتداداً للعيون.

والذي يظهر من سياق الأحداث، أن رسول الله كان يريد أن يختار مكاناً لجيش المسلمين مجاوراً لجبل أُحد، فحال وجود المشركين أمامه دون ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ رجلٌ يخرج بنا على القوم من كثب (من قريب) من طريق لا يمرُّ بنا عليهم، فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله». ثم اختار طريقاً قصيراً إلى جبل أُحد يمرّ بحرّة بني حارثة وبمزارعهم تاركاً جيش المشركين إلى الغرب. وبنو حارثة من أطراف الحرّة الشرقية من جهة أُحد.

ونفذ رسول الله حتى نزل الشِّعْب من جبل أحد في عروة الوادي، فعسكر بجيشه مستقبلاً المدينة، وجاعلاً ظهره إلى هضاب جبل أُحد، وصار جيش المشركين فاصلاً بين المسلمين وبين المدينة.

(جـ) عندما اصطف المسلمون للقتال، كان جبل أُحد خلفهم، ووجههم نحو المدينة وعلى يسارهم جبل عينين، وكان عليه خمسون رامياً، وكان جبل عينين جنوب شرق معسكر المسلمين على بُعْد حوالي مئة وخمسين متراً من مقرّ الجيش الإسلامي.. والذي يظهر أن الرُّماة كانوا في سفح الجبل الجنوبي لأنها الثغرة التي كان يمكن أن يتسرب منها الأعداء إلى ما وراء الجيش الإسلامي، كما يظهر من مخطط المعركة المرافق.

(د) يظهر من سير المعركة، أن المسلمين حملوا على المشركين عند

الكرَّة الأولى حتى أجلوهم عن أثقالهم، ودخل المسلمون عسكر المشركين فانتهبوهم وعندما رأى الرماة هذا المشهد، اطمأنوا إلى أن النصر قد تحقق، فنزلوا وتركوا أماكنهم، فاجتاز خالد بن الوليد بخيله من الثغرة التي كانت محمية بالرُّماة والتف حول جبل الرماة إلى أن وصل إلى مؤخرة المسلمين فصار المسلمون بين فرسان خالد، وبقية الجيش القرشي، فأذهلت المفاجأة المسلمين، فكانت النكسة.

(هـ) أما جبل عينين، فقد اختلفوا في اسمه: أعلمٌ مرتجل بصيغة المثنى، أم كان تثنية «عين».. قيل: إنه يجاور عيني ماء، فقيل جبل عينين.. والعينان: عين الشهداء، وعين أخرى بجواره.. وقد رأينا سنة ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م، عين الشهداء وكان بها بقية من ماء، وأما العين الأخرى فلم نرها، وهو مشهور بجبل «الرماة».. ولم يتفق المؤرخون ورواة غزوة أحد، على أن الرماة كانوا على الجبل، وإنما يذكرون أن رسول الله ﷺ وضع خمسين رامياً في مكان وأوصاهم ألا يبرحوا أماكنهم.

(و) يظهر أن إضافة الغزوة إلى أُحد، كان رواية المسلمين، وربما كان المشركون في مكة يذكرونها باسم «عينين» إما لأن نزولهم كان قريباً منه، وإما لأنه حادثة إخلاء الرماة جبل عينين، كانت من أسباب انتصار المشركين ولأن خالد بن الوليد التفّ حول هذا الجبل وفاجأ المسلمين من خلفهم.. وذكرتُ هذه الخاطرة، لأن البخاري روى عن وحشي قاتل حمزة قوله: فلما أن خرج الناسُ عام عينين، خرجتُ مع الناس إلى القتال.. وقال: وكمنْتُ لحمزة تحت صخرة فلما دنا مني رميتُه... والصخرة التي يختبىء رجل تحتها، إنما تكون بجوار جبل عينين...

(ز) أقول: إنني أرجح أن يكون اسم «عينان» مرتجلاً بصورة المثنى، ولو أضافوه إلى عيني ماء، لقالوا «جبل العينين» بالتعريف، لأنهما عينان مشهورتان، ولا معنى لتنكيرهما.

(حـ) قال ابن حجر في الفتح ٧/ ٣٤٦: «ونقل السُّهَيْلي عن الزبير بن بكار في فضل المدينة أن قبر هارون عليه السلام بأحد، وأنه قدم مع موسى في جماعة من بني إسرائيل حاجاً فمات هناك». قال ابن حجر: «وسند الزبير بن بكار في ذلك ضعيف جداً من جهة شيخه محمد بن الحسن بن زبالة ومنقطع أيضاً وليس بمرفوع».

وقد تحدثنا عن هذا الخبر وغيره في الفصل الأول.

(ط) من توابع أحداث غزوة أُحد، خروج رسول الله ﷺ، إلى حمراء الأسد، في اليوم التالي من معركة أحد، أي: يوم الأحد في الثامن من شهر شوال سنة ٣هـ. وكانت الحكمة منها، إظهار قوة المسلمين والاحتراس من عودة مباغتة للمشركين، إذا فكّروا ــ قبل أن يصلوا مكة ــ أن يعودوا للإجهاز على أهل المدينة...

وحمراء الأسد، تبعد عن المدينة جنوباً بعشرين كيلاً، تراها وأنت تخرج من ذي الحليفة إلى مكة يسارك بعيدة (طريق بَدْر) وتقع حمراء الأسد على ضفة وادي العقيق اليسرىٰ وهو متجه نحو المدينة في قسمه القريب من ذي الحليفة المسمى عقيق الحسا حتى بئر الماشي. [انظر خارطة وادي العقيق].

١١ ــ إجلاء بني النضير، من يهود:

وكانت منازلهم في العوالي، إلى الشرق من مسجد قباء، على وادٍ يقال له مذينيب، وفي الجنوب الشرقي من المسجد النبوي، وكانت لهم مزارع وحصون حصينة. [انظر خريطة المدينة الأثرية].

ويستفاد من الروايات أن إجلاءَهم كان على رأس سبعة وثلاثين شهراً من الهجرة، بعد وقْعة أُحد بخمسة أشهر. وكان السبب في إجلائهم أن رسول الله قصد ديارهم، فتآمروا على قتله... واشتهر في كتب السيرة أن رسول الله قصدهم يطلب منهم العون على دفع دية قتيلين كان بين قومهما ورسول الله، عقد وحلف، وكان قتلهما خطأً. ولم يذكر هذا السبب أحد من أهل الرواية المسندة

المتصلة الصحيحة.. وبقي في نفسي شيء من هذه الرواية، لأن صيغة المعاهدة المكتوبة بين اليهود ورسول الله، رواها ابن إسحق بلا إسناد، وجاءَت الأحاديث الصحيحة تخالف متنها، كما ذكرنا في هذا الفصل، ولم تطمئن النفسُ إلى أن رسول الله ذهب إلى بني النضير يطلب مالاً، وهو يعرف عداوتهم الباطنة.. وأخيراً وقعت على قصة بني النضير بسند صحيح، نقلها ابن حجر في كتاب [الفتح ٧/ ٣٣١] قال: وروى ابن مردويه قصة بني النضير بإسناد صحيح إلى معمر عن الزهري «أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال:... فلما كانت وقعة بَدْر كتبت كفار قريش إلى اليهود إنكم أهل الحَلْقة والحصون ـ يتهددونهم ـ فأجمع بنو النضير على الغدر فأرسلوا إلى النبيّ ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك، اتبعناك، ففعل، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار مسلم، تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبيّ ﷺ قبل أن يصل إليهم فرجع، وصبحهم بالكتائب فحصرهم يومه، ثم غدا على بني قريظة فحاصرهم، فعاهدوه، فانصرف عنهم إلى بني النضير فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء...» قال ابن حجر: وكذا أخرجه عبد بن حميد في تفسيره عن عبد الرزاق، وفي ذلك ردٌّ على ابن التين في زعمه أنه ليس في هذه القصة حديث بإسناد.. قال ابن حجر: قلتُ: فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحق من أن سبب غزوة بني النضير طلبه ﷺ أن يعينوه في دية الرجلين.. قال ابن حجر: لكن وافق ابن إسحق جلُّ أهل المغازي، فالله أعلم.

ولم يكن هذا السبب الأول والأخير في قتال بني النضير وإجلائهم، فقد كان منهم قبل ذلك مواقف مشاقّة مزعجة كثيرة عبرت عنها الآية القرآنية: ﴿ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله﴾. فامتلأ بها الكيل وحقّ عليهم النكال ولقد كان كعب بن الأشرف الشاعر اليهوديّ منهم، وقد ذكرت الروايات أن كعباً وآخرين من بني النضير كانوا يتصلون بقريش اتصال تآمر وكيد.

١٢ ـ الخندق، أو الأحزاب:

ومن فوائدها المكانية والزمانية:

١ ـ تسمى الخندق: باسم الخندق الذي حفره المسلمون، وتسمى الأحزاب لأن قبائل كثيرة اتفقت في الهجوم على المدينة.

٢ ـ ذكر البخاري عن موسى بن عقبة أنها كانت في شوال سنة أربع، واختار البخاري هذا القول لما رواه عن ابن عمر أن النبيّ ﷺ عرضه يوم أُحد، وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه. قال ابن حجر: ولا حجة فيه، لاحتمال أن يكون ابن عمر في أُحد كان في أول ما طعن في الرابعة عشرة، وكان في الأحزاب قد استكمل الخمس عشرة.. وكانت أُحد في السنة الثالثة. ودليل آخر على أن الغزوة في السنة الخامسة، هو أن أبا سفيان لما رجع من أُحد، قال للمسلمين: موعدكم العام المقبل ببدْر، فخرج النبيّ ﷺ من السنة المقبلة إلى بدر، فتأخر مجيء أبي سفيان تلك السنة للجدب الذي كان حينئذٍ، وقال لقومه: إنما يَصْلُح الغزو سنة الخصب فرجعوا بعد أن وصلوا إلى «عُسْفان».

ومن أسباب الاختلاف في التواريخ بين المؤرخين القدماء: هو أن جماعة من السلف كانوا يعدون التاريخ من المحرّم الذي وقع بعد الهجرة ويلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول، وعلى ذلك جرى يعقوب بن سفيان في تاريخه، فذكر أن غزوة بدر الكبرى كانت في السنة الأولى وأن غزوة أحد كانت في السنة الثانية وأن الخندق كانت في الرابعة.. قال ابن حجر: وهذا عمل صحيح على ذلك البناء، لكنه بناءٌ واهٍ مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة، يعني المحرم الذي جاء بعد ذي الحجة التي كان بها بيعة العقبة. وعلى ذلك تكون بدر في الثانية وأحد في الثالثة والخندق في الخامسة.

٣ ـ كان من أسباب حَشْد الأحزاب، أن حُيي بن أخطب اليهودي خرج

بعد إجلاء بني النضير، إلى مكة يحرّض قُريشاً على حرب رسول الله، وخرج كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق اليهودي يسعى في بني غطفان ويحضّهم على قتال رسول الله على أنَّ لهم نصف تمر خيبر، فأجابه عُيينة بن الفزاري إلى ذلك، وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد، فأقبل إليهم طلحة بن خويلد فيمن أطاعه وخرج أبو سفيان بن حرب بقريش فنزلوا بمرّ الظهران فجاءَهم مَنْ أجابهم من بني سليم مدداً لهم، فصاروا في جمع عظيم، فهم الذين سماهم الله تعالى الأحزاب. [الفتح ٧/ ٣٩٣].

٤ ــ أين يقع الخندق من المدينة، ولماذا؟.

المدينة محاطة بتحصينات طبعيّة من شرقها وجنوبها وغربها، لما يحيط بها من حرّات وعرة يصعب على الجيوش عبورها مع ما يتخللها من قرى ومزارع ونخيل، مما يبعثر ويشتت أي جيش يفكر في الإتيان منها.. ولكن الجهة الشمالية مدخل عسكري مكشوف وغير محصّن، وليس مأهولاً بالسكان، ولذلك كانت أكثر ما تأتي الغزوات إلى المدينة من طرفها الشمالي.. وقد أمر رسول الله بحفر هذا الخندق، الذي أشار به سلمان الفارسي، من نهاية الحرّة الشرقية عند أجمة الشيخين حتى ثنية حرّة بني سلمة الغربية إلى الشرق من مسجد القبلتين، وكان طوله حوالي (٢٧٠٠م) بشكل قوس منفرج. وإذا حاولتُ أن أضع له وصفاً حديثاً موافقاً لما على الأرض من معالم قد تكون ثابتة، أقول:

(أ) نبدأ طريقنا من شارع سيد الشهداء، وقبل أن نصل إلى قبور الشهداء بحوالي كيل واحد هناك مسجد أثري يكون على يمينك وأنت متجه إلى المدينة وعلى يسارك وأنت متجه إلى أُحد.. هذا المسجد الأثري هو مسجد الشيخين، ويسمى ما في شماله المستراح.. ونحو الشرق من هذا المسجد كانت نهاية الحرة الشرقية، حيث مساكن بني حارثة. من هناك بدأ حفر الخندق، فاقطع شارع سيد الشهداء.

(ب) واتجه بين المنازل نحو الغرب بميل قليل إلى الجنوب، وبعد قليل ستنفذ إلى شارع العيون المسمى اليوم «عثمان بن عفان» وهو شارع مستقيم، يبدأ من غربي المسجد النبوي بجوار النفق ثم يتجه شمالاً، وفي بدايته من الجنوب بعد الانتهاء من النفق، عند ثنية الوداع، يكون مفترق الطرق، واحدة إلى اليمين وتتجه إلى سيد الشهداء، والأخرى إلى اليسار، وهي طريق سلطانة، أو أبي بكر الصديق، المتجهة نحو الجامعة الإسلامية، وبينهما طريق مستقيم يتجه معتدلاً نحو الشمال، هو شارع العيون [انظر خارطة الخندق].

(جـ) وبعد حوالي الكيل من بداية مفترق الطرق، تتوقف، فتجد على يسارك وأنت متجه نحو الشمال، جبلاً على سفحه مسجد، يسمى مسجد الراية وقد مرَّ الخندق في الشمال من هذا الجبل، ربما يكون مروره قريباً من مكان يسمى ملعب التعليم في حيّ النصر، ثم يتجه الخندق غرباً قريباً من بني عبيد، ويمر ما بين مسجد القبلتين ومساجد الفتح (المساجد السبعة).

٥ ــ يظهر من سياق النصوص أن رسول الله ضرب خيمته فوق مسجد ذباب، جبل الراية أثناء حفر الخندق، وعندما بدأت المنازلة، والاصطفاف للحرب نقل القيادة بالقرب من مساجد الفتح، حيث جعل جبل سلع خلف المسلمين، ووجههم نحو بئر رومة أو زغابة حيث عسكرُ القرشيين وربما أمضى نهاره عند جبل الراية، وبات عند مساجد الفتح.

٦ ــ إنَّ القول بأن رسول الله عسكر بالمسلمين عند مساجد الفتح في سفح جبل سلع يفسّر القول الشائع، أن موطن المساجد السبعة كان بالقرب من الخندق أو إطلاق الخندق على هذا الجزء، من باب إطلاق الجزء على الكلّ.. ويُفهم من ذلك سبب وجود المساجد السبعة، حيث توهّم الناس منازل عدد من الصحابة بالقرب من مركز الجيش الإسلامي، فجعلوه فيما بَعْدُ مسجداً، فقالوا هذا مسجد أبي بكر، وهذا مسجد عمر.. الخ.. هذا هو الأصل فيها، وإن لم يكن فيها سندٌ ثابت، وإنما هي من إنشاء الناس فيما بَعْدُ.. ولم يرد في

مسجد خبر صحيح إلا مسجد الفتح الذي ثبت أن رسول الله صلى في موضعه ودعا ربه. ويقع مسجد الفتح على القرن الشمالي الغربي من جبل سلع، تصعد إليه على درج من الجهة الجنوبية منه، ويعرف بمسجد الأحزاب، والمسجد الأعلى، وباسمه قيل: مساجد الفتح، ثم قالوا: المساجد السبعة.

٧ ـ أما عرض الخندق: فينبغي أن يكون أكثر من مدى قفزة الفرس، والفرس تقفز إلى ستة أذرع، وربما أكثر، وربما كان عرضه من ثمانية أذرع إلى تسعة وهذا يعادل خمسة أمتار ونصف.. أما عمقه فيعادل قامة رجل معتدل رافعاً يديه.. ولعلهم حفروا أعمق من ذلك حتى لا يتمكن مَنْ يقع فيه من الصعود منه.. لما يروى أن بعض خيول المشركين أرادت أن تقتحم الخندق ووثبت من فوقه فلم تستطع ذلك، حيث وقع نوفل بن عبد العزّى مع فرسه في الخندق فانكسر ظهر الفرس في وسط الخندق وانهال المسلمون عليه بالحجارة، فصار يصيح: يا معشر العرب، أتقتلوني بالحجارة كما يُقْتل الكلب، هلا قتلتموني بالسيف فنزل إليه أحد المسلمين وقتله بالسيف، ودفع إخوانه الدية للمسلمين لكي يعطوهم جثته، فأمر النبـيّ ﷺ بإعطائهم جثته وعدم أخذ الدية وقال: «خبيث الجثة خبيث الديّة» وأخذ الفقهاء من هذا أن الكافر بعد موته يظل نجساً كما كان في حياته.

٨ ـ وروي أنهم كانوا يجعلون التراب مما يلي النبـيّ ﷺ أي جهة المدينة وهذا الساتر يؤدي هدفاً عسكرياً مهماً، إذ يمثل العائق الثاني بعد الخندق. وروي أيضاً أنهم كانوا يسطرون الحجارة مما يليهم، أي: يصفونها صفوفاً وهذا مع كونه عائقاً عسكرياً فهو سلاح إذا رموا به العدوّ، وهو في الطرف الآخر من الخندق، وقد رأينا أنهم قذفوا بالحجارة رجلاً سقط في الخندق.

٩ ـ وَبعْدَ أن خطَّ رسول الله الخندق قسمه إلى قسمين: فالمهاجرون يحفرون من بدايته الشرقية إلى جبل ذباب، والأنصار من ذُباب إلى جبل بني عبيد [ابن سعد ٢/ ٦٦]. وورد أنه قطع لكل عشرة أربعين ذراعاً.. وربما

استغرقت مدة الحفر من ستة أيام إلى ثمانية أيام، لأن بداية الحفر كانت بعد أن جاء الخبر إلى رسول الله أن المشركين يستعدون للإغارة على المدينة، فوصل المشركون، وقد تمَّ الحفر، وفوجئوا بوجود الخندق، لأن العرب لا تعرفه.

١٠ ــ كان النبيّ ﷺ معسكراً إلى الشمال من جبل الراية أثناء حفر الخندق أما بَعْد إتمامه، وأثناء حصار المشركين فإنه كان معسكراً بجيشه في السفح الغربي لجبل سلع في الشِّعْب الذي فيه المساجد السبعة وجعل ظهره إلى الجبل، وجعل الخندق بينه وبين العدو الذي كان نازلاً عند بئر رومة (بئر عثمان) في عرصة العقيق الكبرى.. وكان النبيّ ﷺ يسيّر الدوريات على طول الخندق من أقصاه الشرقي إلى منتهاه الغربي ليلاً ونهاراً، فلم يجد المشركون أيّ غفلة، ولم يستطيعوا عبور الخندق فصاروا يتبادلون الرماية بالنبل مع المسلمين من بُعْدٍ.

١١ ــ يُروى أنَّ عمرو بن ودّ العامري اقتحم الخندق من ناحيةٍ ضيّقة، ودعا المسلمين إلى المبارزة، فبارزه عليّ بن أبي طالب فقتله.. قال العارفون بطبيعة الأرض قبل أن تغطيها المباني: إن الاقتحام كان في ناحية ذباب الذي عليه مسجد الراية وإن مكان المبارزة كان في شمال سلع في نواحي ملعب التعليم، على يمين السائر في شارع سلطانة في مقابل المساجد السبعة، لأن موقع جيش المسلمين كان هناك.. وكانت الصخرة التي عجز الصحابة عن كسرها، وكسرها النبيّ ﷺ [البخاري ــ الحديث ٤١٠١] أسفل القُرين التحتاني (جبل ذباب) من جهة الشمال، حيث الأرض كانت حجرية صلبة مما أجبر المسلمين على ترك الخندق هناك ضيقاً.

١٢ ــ كانت أحرج أيام المسلمين عندما نقضتْ قريظة العهد، وكان هؤلاء في وسط المسلمين، وليس بينهم وبين المسلمين حاجز، وكانت النساء والأطفال والشيوخ في آطام المدينة وليس عندهم أحد من المحاربين لحراستهم.

١٣ ــ كان النصر للمسلمين في نهاية الحصار، للأسباب التالية:

(أ) توفيق الله المسلمين لحفر الخندق.

(ب) طالت مدة الحصار على المشركين دون أن يصلوا إلى نصر ولم يكونوا مستعدين لذلك، حيث دام الحصار حوالي شهر.

(جـ) كان مما هيأ الله من الأسباب أن رجلاً من غطفان اسمه نعيم بن مسعود، أسلم وكتم إسلامه عن قومه وجاء إلى رسول الله ﷺ، وطلب من رسول الله أن يكلفه بأمر، فأشار عليه النبيّ ﷺ بتخذيل القوم، فذهب إلى قريظة وحذّرهم من قريش، ثم ذهب إلى قريش وحذرهم من قريظة فأفْسَد الله ما كان بينهما من ودّ واتفاق على حرب المسلمين.

(د) استجاب الله دعاء رسوله: «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب، اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم» [البخاري ـ كتاب الجهاد، وكتاب المغازي]. وقد سمع الله دعاء رسوله، فبعد أن دبّت الفرقة في صفوف المشركين وسرى بينهم التخاذل أرسل الله عليهم جنداً من الريح فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها، ولا طُنُباً إلا قلعته.

١٤ ـ كانت معركة الخندق حاسمة في تاريخ الإسلام، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به يوم الأحزاب، ومع ذلك لم يستطيعوا القضاء على المسلمين، ولذلك ظهر عجز المشركين بعامة، وظهرت قوة المسلمين ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب: «الآن نغزوهم، ولا يغزونا، نحن نسير إليهم». [البخاري ٢/ ٥٩٠].

١٥ ـ صادفت أيام غزوة الخندق، أيام شحّ في الزاد والطعام، والمال.. لما ورد في صحيح البخاري [ك ٦٤ باب ١٩]. عن أنس: قال: يُؤْتَوْن بملء كفي من الشعير، فيُصْنَعُ لهم بإهالة (دهن) سنخة ـ متغيرة الريح ـ توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن».

وعن جابر قال: «إنا يوم الخندق لنحفر، فعرضتْ كدية ـ صخرة ـ

شديدة، فجاءوا النبيّ ﷺ، فقالوا: هذه كديةٌ عرضت في الخندق، فقال: أنا نازلٌ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً...» الحديث. فما سبب قلة الزاد والطعام؟ لم أجد مَنْ أعطى تفسيراً لذلك، فخطر لي ما يأتي:

(أ) كانت أيام الخندق في أيام الشتاء الباردة، وأكثر ما يشتد برد المدينة في كانون الأول، وكانون الثاني، وهذا يعني أن بساتين المدينة خالية من الثمار ـ الرطب، والعنب ـ وفي فصل الشتاء يقل المرعى، ولذلك فإنهم يتمدحون بكرم الشتاء، كما قالت الخنساء: «وإن صخراً إذا نشتو لنحّار» وقال آخر: «والمطعمون إذا هبت شآمية» أي: هبت الريح الباردة.. ولكن أهل المدينة لم يكونوا أهل إبل وشاء، وإنما كانت أكثر أموالهم الزراعة.

(ب) ربما كانت السنة السابقة سنة جَدْب، أثرت في عطاء البساتين، وقد مرّ معنا أن أبا سفيان لم يأت إلى بدر الموعد، بعد أُحد، لأنها كانت سنة جَدْب.. فهل عمَّ الجدبُ المدينة أيضاً.

(جـ) نحن الآن في السنة الخامسة من الهجرة، وفي خمس السنوات لم تتوقف الغزوات والسرايا، وقد عددت الغزوات والسرايا منذ السنة الأولى من الهجرة، حتى غزوة الخندق، فوجدتها ثلاثين غزوة وسريّة، بمعدل ست غزوات وسرايا كل سنة، ولا شكَّ أن هذه الغزوات والسرايا تحتاج إلى الرجال، وجلّ رزق الأنصار من الزراعة، كما أن رزق المهاجرين من التجارة والزراعة.. فهل أثّر ذلك في الحياة الاقتصادية؟ إذا عرفنا أنَّ الغزوات الكبرى: بدر، وأحد، والخندق، لم يغنم فيها المسلمون غنيمة وأكثر ما غنموا في سرية زيد بن حارثة إلى «القردة» في الطريق النجدية، وغزوة المريسيع.. وأما غنائم المسلمين من بني النضير، فكانت بساتين ولم تكن أموالاً منقولة.

(د) هل كان ذلك لانشغال الرجال في حفر الخندق، وكان عددهم يزيد على ثلاثة آلاف؟ وليس هناك مَنْ يوصل إليهم الطعام؟.

(هـ) لعل الأسباب السابقة مجتمعة قد أدت إلى شح الزاد في المدينة، ولكن أقواها انشغال المسلمين بالقتال، وليس عندهم من العبيد والخدم ما يعينهم على أعمالهم كما كان لأهل مكة.. روى البخاري عن أنس قال: خرج رسول الله إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداةٍ باردة، فلم يكن لهم عبيدٌ يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: «اللهم إنَّ العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة». قاله غير موزون يتعمد ذلك. قال ابن حجر في قوله: «ولم يكن لهم عبيد..» أي: أنهم عملوا فيه بأنفسهم لاحتياجهم إلى ذلك لا لمجرد الرغبة في الأجر. [الفتح ٧/ ٣٩٤].

١٦ ــ وكان من آثار غزوة الخندق، محاصرة بني قريظة، لأنهم نقضوا العهد فحاصرهم رسول الله ﷺ، وأعمل السيف في رجالهم، وسبى نساءَهم وذراريهم.. وبزوالهم نظفت المدينة من اليهود، وأصبحت خالصة للمسلمين، ولم يجتمع فيها بعد ذلك دينان.

١٣ ــ غزوة بني المصطلق، وحديث الإفك، وغزوة ذات الرقاع:

وبنو المصطلق من خزاعة، كانوا على ماءٍ يُقال له المريسيع، ولذلك تسمى الغزوة باسم الماء. ومكان الغزوة، في الجنوب الغربي من مكة، على بُعْد حوالي مئة كيل. وحديث الإفك: قصته مشهورة، كان في أعقاب غزوة من الغزوات، قيل: إنها غزوة المريسيع.

وغزوة ذات الرقاع: سميت بذلك، لأن المسلمين كانوا يلفون الرقاع على أقدامهم لئلا يؤذيهم المشي عليها.. وقيل غير ذلك.. وكانت إلى ديار غطفان في شرقي المدينة النبوية على بُعْد حوالي مائة كيل، في نواحي الحناكية، على طريق القصيم. وقد جمعت بينهم، لاتصالهم بقصة عقد السيدة عائشة، الذي كان سبباً في «حديث الإفك» وفي نزول آية التيمم... ولاتصال القصة، قصة التيمم، بمعالم المدينة.

١ ــ جاء في كتاب «التيمم» عند البخاري عن عائشة قالت: «خرجنا مع رسول الله في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء، أو بذات الجيش انقطع عِقْدٌ لي، فأقام رسول الله على التماسه، وأقام الناسُ معه وليسوا على ماءٍ... فأنزل ٱللَّهُ آية التيمم».

والبيداءُ: أرض فسيحة، تكون على يمينك ويسارك، بعد أن تصعد من ذي الحليفة ــ ميقات أهل المدينة ــ متجهاً نحو طريق بَدْر، طريق مكة المعبّد السابق، قبل طريق الهجرة.

وذات الجيش: المرحلة التالية بعد البيداء على طريق بَدْر، أو مكة، عند ما يسمّىٰ اليوم «المفرّحات» على مسافة حوالي خمسة وعشرين كيلاً من المدينة النبويّة.. وهذا ثابت ينقله الخلف عن السلف، ولا خلاف فيه. [انظر: مخطط طريق بَدْر].

٢ ــ وجاء في حديث الإفك عن عائشة [البخاري، ك التفسير، باب ٦]: «... فَسِرْنا، حتى إذا فرغ رسول الله من غزوته تلك، وقفل، ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلةً بالرحيل، فقمتُ حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتىٰ جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني، أقبلتُ إلى رَحْلي، فإذا عقْد من جَزْع ظفار قد انقطع، فالتمستُ عقدي، وحبسني ابتغاؤه»..

٣ ــ نلاحظ أن قصة العقد كانت في حديث التيمم، حين الخروج من المدينة، وفي حديث الإفك حين العودة إلى المدينة.

ولكنها عينت في حديث التيمم المكان، ولم تعينه في حديث الإفك بل أشارت إليه إشارة، بأنه قريب من المدينة، فيتفق الاثنان على القرب من المدينة.

٤ ــ ولم تعيّنْ الروايتان اسم غزوة من الغزوات.. ولكن ابن هشام ذكر عن ابن إسحق، أن قصة الإفك كانت في غزوة بني المصطلق.. ولم يعين المكان وذكر ابن سعد في طبقاته (٢/ ٦٥) أن آية التيمم، وحديث الإفك كانا في غزوة بني المصطلق، ولم يعين المكان.

٥ ــ وإذا كانت الحادثتان في غزوة بني المصطلق.. هل سقط العقد مرتين: مرة في الذهاب ومرّة في الإياب؟ وهل يوافقُ زمنُ غزوة بني المصطلق زمن نزول آية التيمم؟ وإذا كانا في حادثتين منفصلتين، ما هما؟ وأيُّ الحادثتين الأسبق، وهل يصحُّ كون الحادثتين في غزوة واحدة؟ وهل كانا في غزوتين منفصلتين واتحد السبب، وهو العقْد؟ إليك الجواب المحقق سنداً ومتناً وجغرافيةً، وزمناً.

(أ) كون آية التيمم، وحديث الإفك في غزوة واحدة، بني المصطلق: لا يصح؛ لأن القائلين باتحاد الغزوة، ليس عندهم سند قويّ.

وسبق إلى ذلك: الواقدي [المغازي ٢/٤٢٦]: أن العقد سقط من عائشة مرتين في غزوة المريسيع: في المرّة الأولى كانت رخصة التيمم، وفي الثانية كانت قصة الإفك.. والواقدي ضعيف في الحديث، وفي سنده يعقوب بن يحيى بن عباد، مجهول الحال.. وعيسى بن معمر ليّن الحديث [عن تهذيب التهذيب جـ ١١، و٨].

وجاء بعده ابن سعد في الطبقات، ونقل الخبر بدون إسناد، ويحتمل أن يكون عمدته الواقدي، فهو شيخه.

وذكر ذلك ابن حبّان في ثقاته [١/٢٦٣ ــ ٢٦٤] ولكن ابن حبّان، وقع في الوهم مرات عندما فصل بين «بني المصطلق» و«المريسيع» وجعلهما غزوتين... وجعل المريسيع في السنة الخامسة في شوال قبل الخندق، والمصطلق في السنة السادسة، وجعل مكان المريسيع بالقرب من الفرع..

والمتفق عليه أن الغزوة واحدة، يذكر بنو المصطلق، وهم من خزاعة، ويذكر ماؤهم الذي كانوا عليه... قال البخاري: «باب غزوة بني المصطلق من خزاعة، وهي غزوة المريسيع». ثم قال: «وقال النعمان بن راشد عن الزهري: كان حديث الإفك في غزوة المريسيع». [صحيح البخاري ٥/٩٦ ــ كتاب

المغازي]. وقوله إن ماءَ بني المصطلق قريب من الفرع، لا يصح، لأن الغزوة كانت على ماء لهم قرب قديد، وبين قُديد والفرع مسافة طويلة، لأن قديداً شمال مكة بـ ١١٤ كيلاً، والفرع جنوب المدينة بـ ١٥٠ كيلاً. (انظر الخرائط).

(ب) يؤخذ من النصوص أن قصة العقد كانت في غزوتين منفصلتين، وهناك أدلة نقلية ولفظية على ذلك:

من الأدلة النقلية: حديث الطبراني في معجمه عن عائشة قالت: «لما كان من أمر عِقْدي ما كان وقال أهل الإفك ما قالوا، فخرجت مع النبيّ ﷺ في غزوة أُخرى، فسقط أيضاً عِقْدي حتى حبس التماسه الناس... فأنزل الله الرخصة في التيمم». قال ابن القيّم في «زاد المعاد ٣/ ٢٥٨» بعد روايته الحديث، تعقيباً على قول ابن سعد: فهذا يدلُّ على أن قصة العقد التي نزل التيمم لأجلها بعد هذه الغزوة، وهو الظاهر، ولكن فيها ــ في غزوة بني المصطلق ــ كانت قصة الإفك بسبب فقْد العقد والتماسه فالتبس على بعضهم إحدى القصتين بالأخرى.

وقال ابن سيد الناس بعد أن أورد حديث الطبراني: «فهذه الرواية تقتضي أنَّ الواقعتين كانتا في غزوتين» [عيون الأثر ٢/ ١٠٣].

وقال ابن حجر في «الفتح ١/ ٤٣٥»: اعتمد بعضهم في تعدد السفر على رواية للطبراني صريحة في ذلك.. ثم ساق الحديث. وقال: وفي إسناده محمد بن حميد الرازي، وفيه مقال... وقال: وفي سياقه من الفوائد التصريح بأن ضياع العقد كان مرتين في غزوتين.

وإذا كان في أحد رجال السند ما قد يؤدي إلى سقوطه عن درجة الاحتجاج فإنه توجد قرائن أُخر تؤيد ما دلّ عليه هذا الحديث: وهذه القرائن قول أسيد بن حضير في حديث التيمم الصحيح؛ بعد نزول آية التيمم: «ما هي بأول بركتكم يا آل أبـي بكر» فهذا القول صريح في أنها مسبوقة بغيرها من البركات، وأعظم بركة عرفت لعائشة هي نزول القرآن ببراءَتها من مقالة أهل الإفك.

وفي حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت، فبعث رسول الله رجلاً فوجدها فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء فصلوا، فشكوا ذلك إلى رسول الله، فأنزل الله آية التيمم، فقال أسيد بن حُضير لعائشة: «جزاكِ ٱللَّهُ خيراً، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل ٱللَّهُ ذلك لك وللمسلمين فيه خيراً» [البخاري ك ٧/ ٢]. وعند أبي داود، فقال أُسيد بن الحضير: «يرحمك الله، ما نزل بك أمر تكرهينه، إلا جعل الله للمسلمين ولك فيه فرجاً» [أبو داود ١/ ٧٦].

وأعظم أمر نزل بعائشة تكرهه، وكادت الأمة تهلك بسببه، ثم جاء الفرج بعد ذلك، هي قصة الإفك، وفيها أعظم بركة هي نزول القرآن يُتلى إلى يوم القيامة.

فهذه الروايات تصرح بأن شيئاً مكروهاً لعائشة سبق نزول آية التيمم وإن أعظم مكروه مرّ بها هو قصة الإفك. [مرويات غزوة بني المصطلق ص ٣٤٣].

وقال ابن حجر في شرح حديث التيمم [١/ ٤٣٤] وفي رواية هشام ابن عروة: «فوالله ما نزل بك من أمر تكرهينه إلا جعل الله للمسلمين فيه خيراً» وفي «النكاح» من هذا الوجه: «إلا جعل الله لك منه مخرجاً، وجعل للمسلمين فيه بركة». قال: وهذا يُشعر بأن هذه القصة كانت بعد قصة الإفك فيقوي قول مَنْ ذهب إلى تعدد ضياع العقد، وممن جزم بذلك محمد بن حبيب الأخباري فقال: سقط عقد عائشة في غزوة ذات الرقاع، وفي غزوة بني المصطلق.

(جـ) وعندما استقر عند أهل الحديث أن عقد عائشة سقط مرتين، وأن المرّة الأولى كانت في غزوة بني المصطلق، وكان بسببه حديث الإفك فقط بقي أن يبحثوا عن زمن المرة الثانية، التي كان بسببها نزول آية التيمم، وأكثر الأقوال على أن المرّة الثانية كانت في غزوة ذات الرّقاع، وحددوا زمنها بعد غزوة خيبر، لأن البخاري قال: وهي بعد خيبر، لأن أبا موسىٰ جاء بعد خيبر، حيث حضر أبو موسى الأشعري غزوة ذات الرقاع، وقد قدم مع مهاجري الحبشة سنة فتح

خيبر، فوصلوا وقد تم الفتح. ونقل ابن حجر في الفتح حديث أبي هريرة عن ابن أبي شيبة: قال أبو هريرة: لما نزلت آية التيمم لم أدر كيف أصنع. . قال: فهذا يدل على تأخر غزوة ذات الرقاع عن غزوة بني المصطلق لأن إسلام أبي هريرة كان في السنة السابعة، وهي بعدها بلا خلاف. [الفتح ١/ ٤٣٥].

فهل كان نزول آية التيمم المقرون بسقوط وضياع عقد عائشة المرة الثانية في غزوة ذات الرقاع؟

إن القول بنزول آية التيمم في غزوة ذات الرقاع، لا يتفق مع جغرافية الغزوة وجغرافية الأماكن الواردة في حديث عائشة وهي «البيداء» و «ذات الجيش» فمن المتفق عليه أن البيداء، وذات الجيش في طرف المدينة المؤدي إلى مكة عن طريق بَدْر. أما غزوة ذات الرقاع فهي في جهات نجد. قال ابن القيّم. «ثم غزا رسول الله بنفسه غزوة ذات الرقاع، وهي غزوة نجْد» [٣/ ٢٥٠] وطريق نجد تبدأ من شرق المدينة.

وقال البلادي يحدد موضع الغزوة: إنه محصور بين نخل (وادي الحناكية) وبين الشقْرة، في مسافة خمسة وعشرين كيلاً طولاً، فالأول يبعد عن المدينة مئة كيل، والثاني يبعد عنها خمسة وسبعين كيلاً. [انظر: المعالم الأثيرة ــ للمؤلف]. ويدل على أنها في جهات «نخل» النجدية قول البخاري «فنزل نخلاً».

(د) كيف يمكن الجمع بين الروايات:

١ ــ كان ضياع العقد في البيداء، أو ذات الجيش ــ وهما متصلان ــ حين خروج النبيّ ﷺ من المدينة، فإذا صح أن الغزوة ذات الرقاع، وهي في شرق المدينة في نجد، قد يكون تغيير الطريق لتضليل المنافقين والجواسيس، فمرَّ الجيش أولاً على ذي الحليفة، فالبيداء ليوهم الجواسيس أنه ذاهب إلى طريق مكة. ولعلّ الجيش قد عدل بعد ذلك نحو الشرق، وكان يفعل رسول الله ذلك كثيراً.

٢ ــ قال ابن حجر في الردّ على مَنْ قال إن قصة التيمم في غزوة المريسيع: «واستبعد بعض شيوخنا ذلك قال: لأن المريسيع من ناحية مكة بين قديد والساحل وهذه القصة كانت من ناحية خيبر، لقولها في الحديث: حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش، وهما بين المدينة وخيبر، كما جزم به النووي» [الفتح ١/ ٤٣٢] قلتُ: إن كانوا يقصدون أن ذات الرقاع من ناحية خيبر، فليس كما قالوا، لأن خيبر تقع شمال المدينة، وذات الرقاع في شرقها، لأن أكثر غطفان كان في نجد وإن كانوا يريدون غزوة من الغزوات التي تمرّ في نواحي خيبر، فقد نجد لقولهم تأويلاً، لأن البيداء أرض واسعة، ليست محدودة بما يمر به المسافر إلى بَدْر أو مكة، وقد تمتد أطرافها قريباً من طريق خيبر، وربما كانت تقصد: حتى إذا كنا بحذاء البيداء، أو بجوار البيداء، وقد يأخذ المكان المجاور اسم مجاوره إذا لم يكن للأول اسم معهود. . . ولكننا لا نعلم في أي غزوة كان ذلك، إن كانت من جهات خيبر.

٣ ــ ليس عندهم دليل قاطع على أن قصة التيمم كانت بَعْد خيبر، غير حديث منقطع رواه ابن أبـي شيبة، عن سليمان بن موسى عن أبـي هريرة قال: «لما نزلت آية التيمم لم أدر كيف أصنع، فأتيت النبـيّ ﷺ فلم أجده فانطلقت أطلبه فاستقبلتُه، فلما رأى الذي جئت له فبال، ثم ضرب بيديه الأرض فمسح بهما وجهه وكفيه». [مصنف ابن أبـي شيبة ١/ ١٥٩] وسليمان بن موسى الأموي (١٥٥هـ) كان فقيهاً، وقالوا: كان أعلم أهل الشام بعد مكحول. . ولكن لم يلق أحداً من الصحابة، فأحاديثه مرسلة ــ وقال أبو حاتم: في حديثه بعض الاضطراب، وقال البخاري: عنده مناكير، وقال النسائي: أحد الفقهاء وليس بالقوي في الحديث. . [تهذيب التهذيب ٤/ ٢٢٦].

وقد اتخذوا من هذا الخبر دليلاً على أن التيمم كان بعد خيبر، لأن أبا هريرة قدم إلى المدينة عام فتح خيبر.

وإذا ثبت ضعف هذا الحديث، فقد تكون آية التيمم نزلت في غزوة سابقة

لغزوة خيبر، والغزوات التي كانت في الشمال كثيرة، ولا يمنع أن تكون بعد خيبر، ولكنها ليست «ذات الرقاع».

٤ ــ قلتُ: ليس هناك رواية قويّة بكون آية التيمم في غزوة ذات الرقاع أو في غزوة المريسيع. . إذا أقررنا بأن العقد ضاع مرتين في غزوة واحدة، وهذا ليس مستحيلاً، فقد يكون في المرة الأولى (عند الخروج حيث شرع التيمم) قد وهى خيطه فوقع، فلما وجدته ربطته ربطاً غير متقن لكونها في سفر، ثم وقع مرة أُخرى للسبب نفسه، وربما يكون في المرة الثانية انفرط عقده فأخذت تجمع حبّاته.

أقول ذلك لأن القرائن تدل كلها على أن الغزوة كانت في طريق مكة فزيادة على قول عائشة «كنا بالبيداء أو ذات الجيش» ما نقله ابن حجر قال: وفي رواية علي بن مسهر في هذا الحديث ــ حديث التيمم ــ عن هشام قال: وكان ذلك المكان يُقال له «الصُلْصُل» ورواه جعفر الفريابي في كتاب «الطهارة» له، وابن عبد البرّ من طريقه [الفتح ١/ ٣٢] قال ياقوت: صُلْصُل بنواحي المدينة على سبعة أميال منها، نزل بها رسول الله يوم خرج من المدينة إلى مكة عام الفتح. . . قال البلادي: صلصل هو الحزم الذي تطؤه بعد ذي الحليفة على طريق بدر قبل مفرحات (ذات الجيش) ويسمى أيضاً: الظمأ. وهذا يوافق تحديد ياقوت له [المعالم الأثيرة].

٥ ــ وإذا لم يكن في غزوة المريسيع، فما المانع أن يكون ذلك عام الفتح فتح مكة، وياقوت يقول: إن رسول الله نزل بصلصل عام الفتح، ونقل ابن حجر عن الداودي: قال: وقال الداودي: كانت قصة التيمم في غزاة الفتح، ثم تردد في ذلك. . . وقول عائشة «حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش» تشك في وصولها إلى ذات الجيش، أو لا زالت في البيداء من ناحية ذات الجيش. . وذات الجيش بعد المدينة بعشرين كيلاً عند المفرحات، و «الصلصل» دون ذلك بقليل، إذْ يبعد عن المدينة بحوالي سبعة عشر كيلاً.

٦ ــ الخلاصة: إن صح حديث أبـي هريرة أنه شهد نزول آية التيمم، قد يكون ذلك في غزوة الفتح، وإنْ لم يصح، قد يكون في غزوة المريسيع لأن حدوث ذلك في طريق مكة هو الأقوى والله أعلم، وكان يكون ضياع العقد الذي كان بسببه التيمم عند الخروج، وضياعه الذي كانت بسببه حديث الإفك عند العودة، لأن حديث الإفك كان موطنه المدينة، بعد الوصول.

٧ ــ وإليك هذه الموازنة التي تبين الفرق بين الحادثتين:

(أ) في حديث الإفك: ذهبتْ لتقضي حاجتها، ففقدت العقد.

في حديث التيمم: فقدته وهي بين القوم، ثم وجدوه تحت البعير.

(ب) في حديث الإفك: كانت تبحث عنه وحدها.

في حديث التيمم: طلب رسول الله من بعض الصحابة أن يبحثوا عنه.

(جـ) في حديث الإفك: بقيت وحدها، ثم لحق بها صفوان بن المعطل، لأن المسلمين لم يكونوا يعلمون بتخلفها عن الركب.

في حديث التيمم: ارتحلت مع القوم، لأنهم علموا بفقد العقد، وتأخروا بسبب ذلك.

(د) حديث الإفك كان في العودة؛ لأن الذين خاضوا في القصة كانوا في المدينة بعد الوصول ولو كان في الخروج.. ما تمت الغزوة ــ المريسيع ــ وما صبر الخائضون حتى العودة.

في حديث التيمم: نزلت الآية في السفر، والمسلمون يفقدون الماء..

١٤ ــ قصةُ عكْل وعُرَينة:

قصة غَدْر وخيانة وكُفْران النعمة... وليست قصة هؤلاء الأولى، والوحيدة، لقد كانت قصص غَدْرٍ سابقةٌ، فلم تكن ريح الدعوة الإسلامية تسير رخاء، وإنما تعرض الرسولُ وصحبه لمصاعب ومتاعب ومشاق وقُتل، بل

استشهد في ذلك مَنْ استشهد، وصبر على الشدة واللأواء مَنْ صبر، لتثبيت دعائم الرسالة، ونشرها، ونقلها إلى الأجيال التالية، لتكون الرسالة الخالدة.. فإذا فرطنا فيها فيما بَعْدُ فإن في تفريطنا غدراً ونكثاً، ونكراناً للجميل، وعقوقاً للآباء...

ومن أيام الغدر التي لاقاها المسلمون في صدر الدعوة: «يوم الرجيع» سنة ثلاث، والرجيع: ماءٌ يقع شمال مكة على مسافة سبعين كيلاً، يسمى اليوم «الوطيّة» وفي قصته أن عضل والقارة، جاءت إلى رسول الله في المدينة، وطلبت نفراً من المسلمين، ليعلموهم، فأوفد رسول الله معهم ستة، من أشهرهم عاصم بن ثابت، حميّ الدبر، وخُبيب بن عديّ، ولهما في السيرة قصة [البخاري ك ٦٤ باب ٢٨] حتى إذا كانوا بماء الرجيع، غدروا بهم.

والقصة الثانية: «يوم بئر معونة» سنة أربع، على رأس أربعة أشهر من أُحد.. وبئر معونة في جهات نجد، في ديار بني سُلَيْم.. وقد أرسل النبيّ ﷺ سبعين من القرّاء، فغدرت بهم بنو عامر، عند بئر معونة.. [انظر سيرة الرسول لابن هشام ٣/ ١٨٤، والبخاري ـ كتاب المغازي].

والقصة الثالثة: قصة «عُكْل وعُرينة» وقد عنونت، أو ترجمت للفقرة بهما لأن قصتهما تتصل بالمدينة، جغرافيةً وحياةً:

ومن قصتهما: أن أناساً من عُكْل وعُرينة، ـ قبيلتين ـ قدموا المدينة على النبيّ ﷺ، وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبيّ الله، إنا كُنَّا أهل ضَرْع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذوْد وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرّة، كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبيّ ﷺ واستاقوا الذُّوْد، فبلغ النبيّ ﷺ، فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم، فسمروا أعينهم، وقطعوا أيدهم، وتُركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم. [البخاري ك ٦٤، ب ٣٦].

وحدد ابن سعد [الطبقات ٢/٩٣] فقال: «وكانت ترعى اللقاح بذي الجَذْر ناحية قباء قريباً من عَيْر على ستة أميال من المدينة.. وبلغ رسول الله الخبر فبعث في أثرهم عشرين فارساً، واستعمل عليهم كُرْز بن جابر الفهري... فأدركوهم فأحاطوا بهم وأسروهم، حتى قدموا بهم المدينة، وكان رسول الله بالغابة فخرجوا بهم نحوه، فلقوه بالزَّغابة بمجتمع السيول، وأمر بهم فقطعت أيدهم وأرجلهم وسمل أعينهم، فصلبوا هناك..».

وفي القصة من الفوائد ما يلي:

١ ــ المكان الذي حَصَلَتْ فيه القصة: سمّاه ابن سَعْد «ذا الجَذْر» وهو قاع منخفض في الحرّة في الجنوب الشرقي من المدينة، يَبْعدُ عن مسجد المصلى «الغمامة» تسعة أكيال عن طريق مسجد قباء ثم الحرّة جنوباً، يسير الذاهب إليه نحو الجنوب الشرقي تاركاً قَصْر كعب بن الأشرف على يساره حتى يصل إلى القاع المذكور، وذو الجدر: جبل صغير أحمر يقع في الجنوب الغربي من القاع قليل الارتفاع.. والقاع: فيه كثير من شجر السَّلم، يصلح لرعي الإبل. [انظر الخريطة الأثرية للمدينة].

٢ ــ كان قدوم هؤلاء على المدينة سنة ست من الهجرة.

٣ ــ جاء في القصة أنهم «استوخموا المدينة» وفي رواية «اجتووا المدينة» ويفيد اللفظان أنهم لم يناسبهم العيش في المدينة، وقد فهم بعضهم من القصّة أن المدينة كانت موبوءَة، أو تتفشى فيها الأمراض، وهذا في رأيـي فَهْم غير مقبول، لما يأتي:

أولاً: قوله في الرواية: «استوخموا المدينة.. الخ» لعلهم ادَّعوا ذلك لأمر كانوا يبيتونه في أنفسهم.. والدليل على ذلك ما كان من ارتدادهم وسرقة اللّقاح.. وإلا: فكيف يعيش عشرات الألوف في المدينة وهم في صحة جيدة، ويدّعي هؤلاء أن المدينة موبوءة؟

فمن الثابت الصحيح أن رسول الله ﷺ دعا ربّه أن يجعل المدينة صحيحة لمن سكنها، وقد استجاب اللَّهُ دعاءَ رسوله، فكانت المدينة من أصحّ البلدان عيشاً. . . والدليل على ذلك: قُدْرة أهلها على العمل، والجهاد في كفاءة تامّة.

ثانياً: إذا صحَّ قولهم، بأنهم استوخموا المدينة، ولم يكن في نيّاتهم تبييت الغدر. . لا يدلُّ على أن المدينة وخمة الهواء، ولكنَّ هواءَها لم يناسب هؤلاء بخاصةٍ، وهذا ليس غريباً في خصائص البلدان، وطبائع الناس، فكل إقليم له خصائص هوائية ومناخية، قد تلائم بعض الناس، ولا تلائم الآخرين، لما طبعوا عليه من حياتهم السابقة، فبعض الناس يناسبهم المناخ المشبع بالرطوبة، وبعضهم لا يناسبه، ومَنْ طبع على عيش البادية، ربما لا يناسبه العيش في الحضر. . ويدلّ على هذا قولهم في إحدى الروايات: «إنّا كُنّا أهل ضرْع، ولم نكن أهل ريف».

وقد عرفنا من الناس، مَنْ إذا أكل خبز دقيق القمح المنخول، فسدت معدتُه، وإذا أكل خبز دقيق الشعير صحت معدتُه، لاعتياده أكل خبز الشعير. . ولعلّ هؤلاء لم يعتادوا طعام الريف، أو الحضر، وكانوا يعيشون على حليب النوق وقليل من التمر، فسمح لهم رسول الله أن يخرجوا إلى البادية، يشربون لبن النوق.

٤ ــ جاء اسم «الحرّة» في القصة مرتين: الأولى، قوله «حتى إذا كانوا ناحية الحرّة كفروا بعْد إسلامهم». . . وهذه الحرَّة، هي التي كانت اللقاح ترعىٰ بها بذي الجدر، وقد حددت مكانها قبل هذه الفائدة.

والثانية قوله: «ثم تركوا في ناحية الحرّة حتى ماتوا». ويظهر من الأخبار أن الحرَّة التي قتل فيها اللصوص، هي حرَّة «الوبرة» الحرَّة الغربية لأنهم قالوا: إن رسول الله أرسل في طلبهم سريّة، فلحقوا بهم وأسروهم، وقدموا بهم المدينة، وكان رسول الله بالغابة، فخرجوا بهم نحوه، فلقوه بالزغابة. . وأمر بهم فقطعت أيديهم. . الخ. . . والزغابة: عند مجتمع سيول المدينة وهي ليست من

الحـرَّة. . . [انظـر تفصيـل القصـة فـي «البخـاري» ك ٤، ب ٦٦]. [و ك ٦٤ ب ٣٦].

١٥ ـ غَزْوَةُ الغابة، أو غَزْوَةُ ذي قَرَد:

ويظن من الجمع بين الروايات أن مَنْ سمّاها «الغابة» رأى بداية الأحداث، ومن سماها «ذا قرد» رأى نهاية الأحداث. والغابة: هي الأقرب إلى المدينة على بُعْد حوالي ستة أكيال من مركز المدينة ـ المسجد النبوي ـ في الشمال الغربي خلف جبل أُحد، أو نحو ذلك، وهي كما يبدو من اسمها، كانت كثيرة الأشجار لأنها في أسفل المدينة حيث تصب سيول المدينة الثلاثة، ويستنقع بعض مائها، ولم يزدرع أهل المدينة أرضها في الجاهلية، لاستغنائهم بعوالي المدينة، وحرّاتها. . وكان أهل المدينة أهل زراعة، وجلُّ أموالهم محصورة في بساتينهم، ولم تكن لهم عناية كبيرة بالإبل والأغنام. . وعندما أصبحت المدينة عاصمة الإسلام، وكثر الناس بها، للهجرة إليها وكان للمدينة دولة في حالة حرب مع أعداء الإسلام، لذلك كثرت الإبل، والخيل، والمواشي، لاستخدامها في المغازي، والاستفادة من ألبانها، فكان لابدَّ من البحث عن المراعي في أطراف المدينة، الداخلة في حمى المسلمين وليسهل إصدارها إلى المدينة عند الحاجة إليها، ولإمكان نقل لبنها في كل يوم إلى المدينة. . . وقد رأينا أمثلة متعددة للإغارة على سرح المدينة في مرعاه، ذكرنا منها إغارة كُرْز على سرح المدينة في السنة الأولى من الهجرة، كان بسببها غزوة بدر الأولى إلى «سفوان» وكانت ترعى بالجماء في نواحي الجامعة الإسلامية بالمدينة.

ثم جاءَت قصة «عُكْل، وعرينة». . وقصة غزوة الغابة، كانت الثالثة. . أما ذو قَرَد، فهو جبل في شمال شرقي المدينة على قرابة خمسة وثلاثين كيلاً وهو يوافق ما قال بعضهم إنه على «بريد» من المدينة. . ولذلك فإنَّ مَنْ قال إن لقاح رسول الله كانت ترعى بذي قرد، لم يلحظ الزمان والمكان للقصة، فالزمان: السنة السادسة، والأعداء حول المدينة كثيرون، والمكان (٣٥) كيلًا، بعيدٌ عن

المدينة، لا تسمح الأحوال العسكرية في السنة السادسة بابتعاد أموال أهل المدينة، دون حراسة إلا من راعٍ واحد.

وقد جاء العُدْوان من الشرق: شرق المدينة، لأن قبيلة غطفان التي أغارت على المدينة، كانت تسكن شرق المدينة إلى القصيم إلى خيبر.. ومجمل القصة: إن عُيَيْنة بن حصْن الفزاري الغطفاني أغار على لقاحٍ لرسول الله بالغابة، وفيها رجلٌ من بني غفار وامرأة له، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللِّقاح.. وكان سلمة بن الأكوع أول مَنْ علم بذلك وهو خارج إلى الصَّيْد، فصاح بأعلى صوته مُعلناً خبر الغارة ثم لحق بهم، حتى استنقذ اللقاح منهم، ثم لحق به رسول الله والمسلمون، حتى وصلوا إلى ذي قَرَد.. ثم عادوا إلى المدينة. [البخاري ك ٦٤ وابن هشام جـ ٣]. وفي القصة من الفوائد غير ما ذكرتُ.

أولاً: رواية ابن إسحق: كان أول مَنْ نَذَر بهم سلمة بن الأكوع، غدا يريد الغابة متوشحاً قوسه ونَبْلَه.. وفي رواية «وكنتُ أرمي الصَّيْد» وهو يناسب حال ترجمة سلمة بن الأكوع، فهو مشهور بأنه كان يصيد، ويهدي لحوم الصيد لرسول الله ﷺ.

ثانياً: مما يدل على أن اللقاح كانت ترعى بالغابة، رواية ابن إسحق: «حتى إذا علا ـ سلمة ـ ثنية الوداع نظر إلى بعض خيولهم، فأشرف في ناحية سَلْع ثم صرخ» ذلك أن ثنية الوداع التي ذكرها، كانت ثنية في جبل سلع ـ أول طريق سلطانة اليوم ـ ومن ثنية الوداع إلى الغابة، خط مستقيم نحو الشمال .. لكن قوله: «نظر إلى بعض خيولهم» ـ أي: خيول المغيرين ـ فيه دليل على أن الغابة كانت ممتدة إلى ما يُسمى اليوم شارع العيون، لأن رؤية الخيل المغيرة من ثنية الوداع يدل على قربهم.

ثالثاً: جاء في حديث البخاري عن سهل بن سعد الساعدي قال: «أرسل رسول الله إلى فلانة، مُري غلامك النجار أن يعمل لي أعواداً أجلسُ عليهنّ إذا

كلمت الناس، فأمرته فعملها من طرفاء الغابة..». وفي الخبر دليل على قُرْب الغابة من المدينة، لأنَّ ذهاب النجار إلى الغابة لقطع الأعواد منها، يدل على ذلك.. وفيه أن أشجار الغابة كانت تكبر وتشتد أعمدتها، ولذلك كانت صالحة لصناعة المنبر منها.. [انظر البخاري ك ١١ باب ٢٦، وشرح ابن حجر في الفتح ٢/٣٩٨]. ولكن نُساخ فتح الباري حرفوا الكلام، وجعلوا الغابة من «عوالي» المدينة.. وهي في سافلتها، وابن حجر لا يجهل ذلك، ولعلها في الأصل «من أموال المدينة».. ومعاجم المواقع يقولون: «الغابة موضع قرب المدينة من ناحية الشام، فيه أموال لأهل المدينة» فحرّفوها كما رأيت.

١٦ ــ بقيّة الغزوات والسرايا:

كانت غزوة الغابة، في ربيع الأول من السنة السادسة، وتلتْها غزوة الحديبية في شهر ذي القعدة من السنة السادسة.. وأرسل النبيُّ ﷺ بين الغزوتين خمس عشرة سريّة، شملت أنحاءً واسعةً من الجزيرة العربيّة، وبلغت في الشمال إلى أقصى أطراف الجزيرة. وجاءت غزوة خيبر بعد الحديبية، في جمادى الأولى من السنة السابعة فكان فتحُها نهايةً لآخر معقل من معاقل اليهود في الجزيرة. وكانت المدينة مهددة في السنوات السابقة من عدوّين: من قريش، واليهود. أما قريش فكانت لهم مع رسول الله هدنة في الحديبية، ورضا قريش بالهدنة دلالة على اعترافها بقوة المسلمين، وانتشار نفوذهم. وأما اليهود، فقد انتهت قوتهم بفتح خيبر.

وكانت الغزوة التالية: فتح مكة.. في شهر رمضان من السنة الثامنة، وبين خيبر، وفتح مكة أرسل النبيّ ﷺ خمس عشرة سرية.. ثم جاءَت غزوة الفتح في رمضان من السنة الثامنة، وبفتح مكة انتهت زعامة العرب التي كانت تحارب المسلمين، ثم كانت غزوتا هوازن والطائف في شوال من السنة الثامنة، بعد غزوة الفتح، لتأمين حدود حرم مكة المكرمة، حيث كانت الطائف، ــ وفيها ثقيف ــ ألصق البقاع إلى مكة.

١٧ ـ وآخر الغزوات النبويّة، تبوك:

في رجب من السنة التاسعة، وكانت لهذه الغزوة دلالات سياسية واقتصادية، أما الدلالات السياسية، أو العسكرية فهي قدرة المسلمين على حماية ثغورهم البعيدة عن المدينة، وإثبات تحديهم لإحدى القوتين العظميين في ذلك الوقت، وهي قوم الروم، وفيها تنبيه للعرب الذين يخضعون لنفوذ الروم ـ في بلاد الشام ـ بأن الإسلام قادم إليهم وأنهم معنيّون بالرسالة الإسلامية كإخوانهم من عرب وسط الجزيرة. أما الدلالة الاقتصادية، فسوف أذكرها في ترجمة الخليفة عثمان رضي الله عنه، لأنه كان من رموزها، ورموز الاقتصاد المدني في العهد النبويّ.

١٨ ـ وكان قدوم رسول الله إلى المدينة بعد تبوك، آخر مقدم من غزوة، فلم يخرج بعدها إلا لحجة الوداع سنة عشر. وقد اختلطت قصة مقدم رسول الله من تبوك، بقصة مقدمه في أول الهجرة في موضوع النشيد المشهور:

طلع البدر علينا　　　من ثنية الوداع

فقال قوم: إنه عند القدوم من مكة في بداية الهجرة، وقال آخرون: إن النشيد، كان يوم مقدمه من تبوك، وبين المقدمين تباعد في الزمان والمكان. ولي كلمةٌ في هذا الخلاف، تجعل الآراء في القصة ثلاثة. وألخّص رأيي في النقاط التالية:

(أ) إذا صحَّ سندُ النشيد ومتنه، وثبت أن أهل المدينة أنشدوه مرحبين بمقدم رسول الله ﷺ: . . . قلتُ ـ إذا صحّ ـ فإن الإنشاد يكون عند مقدم رسول الله من غزوة تبوك، وليس في بداية الهجرة. وذلك للأدلة التالية:

الأول: لم يرد ذكْرُ ثنية الوداع في الطريق المكي إلا في هذا النشيد مع كثرة خروج النبيّ ﷺ وعودته من هذا الطريق. . . وقد ورد اسم «ثنية الوداع» في طريق تبوك، أو الطريق المؤدية إلى الشمال، والشام مرات كثيرة، منها في غزوة

مؤتة قول ابن سعد: «وخرج مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودعهم». وهذه الثنية لن تكون إلا في طريق الشام، لأن جند المسلمين كانوا معسكرين بالجُرْف، والجرف في طريق الشام، وكان الوداع لقادة السرية الذين التحقوا بالجُنْد، للاتجاه نحو الشام.. وطريق الشام تتجه نحو الشمال أما طريق الهجرة فتتجه نحو الجنوب.

وفي غزوة تبوك: قال ابن إسحق: «فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنيّة الوداع». ومما يؤكد أن هذه الثنية في طريق تبوك ــ نحو الشام ــ قول ابن إسحق في قصة الغزوة نفسها: «وضرب عبد الله بن أُبـيّ معه على حدةٍ عسكره أسفل منه نحو ذُباب». وجبل ذُباب، هو في طريق العيون بالمدينة مقابلاً الثنية، وهو في جهة الشام.

وروى البخاري في الصحيح (ك ٦٤ باب ٨٢) عن السائب بن يزيد قال: «أذكر أني خرجتُ مع الصبيان نتلقى النبـيّ ﷺ إلى ثنية الوداع مَقْدمه من غزوة تبوك».

وفي تاريخ فتوح الشام أن أبا بكر الصديق مشى مع يزيد بن أبـي سفيان حتى وصل إلى ثنية الوداع.

الثاني: جاء في بعض روايات النشيد «جئت شرّفت المدينة» ولم يكن اسم «المدينة» معروفاً قبل الهجرة، وإنما المشهور «يثرب».

الثالث: لم تكن طريق الهجرة النبويّة مطروقة قبل الهجرة ليكون لها ثنيّة في طرف المدينة. وليس بين قباء، والمدينة جبل فيه ثنية، يكون عندها الوداع.. فالأرض بين قباء والمسجد النبوي أرض منبسطة، كانت تغمرها البساتين. والطريق بين المدينة ومكة ــ بعد الهجرة ــ هي الطريق التي تمرُّ ببدر، وتأتي على ذي الحليفة (آبار علي) ثم تمرّ على المسيجيد (المنصرف).

(ب) إنَّ خبر هذا النشيد (طلع البدر علينا) ليس له سندٌ صحيح وفي متنه ما لا يناسب العصر.

١ ــ لم يرد خبر النشيد في واحد من الكتب الستة، ولم أجده في مسند أحمد.

٢ ــ لم يروه كُتّاب السيرة الأقدمون: السيرة النبوية لابن هشام، التي لخص فيها سيرة ابن إسحق. ولم يروه ابن سعد في الطبقات، ولم ينقله البلاذري في أنساب الأشراف.

٣ ــ المرويّ في البخاري في يوم الهجرة «ثم قدم النبيّ ﷺ فما رأيتُ أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله حتى جعل الإماءُ يقلْن: قدم رسول الله».

ونقل ابن حجر في الفتح (٧/ ٢٦١) قال: وأخرج الحاكم من طريق إسحق ابن أبي طلحة عن أنس: فخرجت جوارٍ من بني النجار يضربن بالدَّفّ وهن يقلن:

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

.. والذي رواه البخاري، والحاكم، جاء بإسناد متصل إلى الصحابي.

٤ ــ وأما رواية «طلع البدر علينا» فإسناده معضل. لما نقل ابن حجر في الفتح قال: «وأخرج أبو سعيد في «شرف المصطفى» ورويناه في «فوائد الخلعي» من طريق عبيد الله بن عائشة منقطعاً، لما دخل النبيّ ﷺ المدينة جعل الولائد يقلْن: «طلع.. الخ».

قال: وهو سندٌ معضل.

٥ ــ جاء النشيد على بحر الرمل، وهذا البحر قليل الورود في الشعر المروي صدر الإسلام، ويغلب على الشعر المرتجل في المعارك واللقاءات: شعر الرجز.

٦ ــ يكتبون النشيد «من ثنيات الوداع» جمع ثنية. وثنية الوداع واحدة ولكنهم يمدون «ثنية» للإنشاد واستقامة الوزن، فظنها الناسُ جمعاً.

٧ ــ لم يرد ذكر «محمد» ﷺ، بلفظه في النشيد. والمنقول بالأسانيد الصحيحة المتصلة، أنهم ذكروا اسم «محمد» في عبارات الترحيب.

(جـ) الخلاصة:

يبدو أن النشيد مصنوع في العصور المتأخرة، لأنه لم يرد في كتب المؤلفين في القرنين الأول والثاني. ولم يقله أهل المدينة يوم الهجرة لأنه لم يرو بسندٍ متصل، ولم يقولوه في غزوة تبوك، لأنه لم يُنقل أن أهل المدينة لاقوا رسول الله بالأناشيد في الغزوات السابقة فغزوة بدرٍ كانت تستحق ذلك، لأنها أول نصر كبير للمسلمين وغزوة الفتح كانت تستحق ذلك، لأنها كانت فتحاً مبيناً دخل الناس بعدها في الدين أفواجاً، لسقوط أكبر معقل للشرك وتحرير الكعبة ــ قبلة المسلمين ــ من هيمنة المشركين ومع ذلك تبقى ثنية الوداع المعروفة في المدينة، هي في الطريق الشامية، وليست في طريق مكة، لورود ذكرها في الغزوات والسرايا التي اتجهت نحو الشام. ولم يكن في طريق مكة ثنيّة، يكون عندها وداع.

ثانياً: موجز دلالة الغزوات والسرايا على تاريخ المدينة:

١ ــ دلت وقائع الغزوات والسرايا على أنَّ اختيار المدينة، لتكون عاصمة الدولة الإسلامية، كان هو الاختيار الأمثل.

وما كان غيرُها أمْثَلَ منها في موقعها الحربي، لأن المسلمين استطاعوا ــ من المدينة ــ أن يهددوا طرق القوافل التجارية، التي تُعدُّ شريان الحياة لأهل مكة وما كان غيرها أمثل منها، لكون أهل المدينة يعتمدون على ما تنتجه أرضهم في الدرجة الأولى، ولم يكن اعتمادهم على تجارة، أو رعي.

وما كان غيرها خيراً منها، لتباعد ثغورها، واتساع المسافات بينها وبين أعدائها، مما يسمح للمخابرات العسكرية أن تنقل أخبار الأعداء، والاستعداد للمعركة قبل وقوعها، فيفقد الأعداء عنصر المباغتة في المعركة. وبسبب هذه

الميزة استطاع المسلمون حفر خندق حول المدينة قبل وصول الأعداء، وهزم اللّهُ أكبر تجمّع للمشركين.

٢ ــ إذا نظرنا إلى الغزوات والبعوث والسرايا، لا بدّ أن نقول: إن النبيّ ﷺ كان قائداً لا مثيل له في الدنيا.. إنه صاحب حكمة عسكرية فذّة، كما كان سيد الرسل وأعظمهم في صفة النبوّة والرسالة. وبهذا تكون أفعاله مشمولة بالصحّة، سواءٌ أكانت صادرة عنه بصفته البشرية، أم كانت صادرة عنه بصفته التي يُوحى إليه فيها.

ونستطيع أن نقرر أن رسول الله ﷺ، لم يخض معركة، أو يرسل سريّة، إلا في الظرف والجهة اللذين يقتضيهما الحزم والشجاعة والتدبير.

فلم يخسر معركة من المعارك التي خاضها لغلطة في الحكمة العسكرية.. ولم يقع ما وقع في «أُحد» و «حنين» إلا بسبب الضعف في بعض أفراد الجيش ــ كما كان في حُنين ــ أو من جهة معصية بعض الجيش أوامره كما كان في أُحد.

٣ ــ استطاع النبيّ ﷺ بهذه الغزوات، فَرْض الأمن وبسط السلام وإطفاء نار الفتنة، وكسر شوكة الأعداء، وإلجائهم إلى المصالحة وتخلية السبيل لنشر الدعوة، انطلاقاً من قاعدة المدينة.

٤ ــ تخرج في مدرسة الغزوات طائفةٌ كبيرةٌ من القُوّاد الذين لاَقَوْا فيما بَعْدُ الفرس والرومان في ميادين العراق والشام، ففاقوهم في التخطيط للحروب وإدارة المعارك.

٥ ــ أصبحت المدينة النبويّة قاعدة عسكريّة تنطلق منها الجيوش، وتهابها الأعداء.

٦ ــ وأصبحت المدينة قاعدة إدارية، ينطلق منها أمراء الأقاليم، والمصدّقون وجامعو الجزية.

٧ ــ وأصبحت المدينة العاصمة السياسية في الجزيرة العربية، تنطلق منها الرسائل والرُسلُ إلى داخل الجزيرة وخارجها، ويأتي إليها وفود العرب من كل فجّ.

٨ ــ خلصت المدينة للعرب المسلمين، ونزح عنها اليهود الطارئون.

٩ ــ كان للغزوات النبويّة تأثير كبير في المجتمع المدنيّ، وربما انفردت المدينة بهذا الأثر الحميد. فقد كان الأوس والخزرج ــ قبل الإسلام ــ في حروب متصلة، لا يُرْقأ لهم دمٌ حتى يُسال دمٌ. . فلما جاء الإسلامُ أصبح الأخوان المتحاربان، يحاربان في صف واحد، عدواً واحداً. . وكان من أثر ذلك وحدةٌ قلبية لم تنفصم عراها، وجمعت بينهما كلمة «الأنصار» جمعاً لم يجمعه لقبٌ بين قبيلتين، وبقيت الأوس والخزرج على هذه الصفة من الوحدة عبر التاريخ الإسلامي، فلم يسجل التاريخ الإسلامي أن حرباً قبلية ثارت بين الحيّين. وكذلك لم يسجل التاريخ أن حرباً ثارت بين الأنصار والمهاجرين. . ويُعزى هذا، أو أكثره في رأيي، إلى كون أهل المدينة أمضوا عشر سنوات وهم يقفون في صفّ واحد في الغزوات.

١٠ ــ ولعلَّ من آثار الغزوات، أن المدينة أصبحت المركز المالي للمسلمين تُجبى إليها الأموال، ثم تفرقها في المسلمين وفي السنوات الأخيرة من الحياة النبويّة استطاعت المدينة أن توفر لأهلها والمهاجرين إليها السكنى والأرض والمشاغل، وكانت الوفود تأتي إلى المدينة فترجع مُجازة بالمال.

١١ ــ أصبح في المدينة جيش مدرّب، قد تهيأ له السلاح والكراع والعدة والنفقات ولهذا لم يجد أبو بكر صعوبة ــ في أول ولايته ــ في تسيير بَعْث أسامة، وإعداد الجيوش لمحاربة المرتدين، ثم تسييرهم لمتابعة الفتح في العراق.

موجز أشهر الأحداث التي كانت بعد الهجرة النبويّة

١ ـ السنة الأولى:

- قدوم النبـيّ ﷺ إلى المدينة.
- بناء مسجد قباء.
- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.
- نزول الإذن بالقتال.
- إرسال أول السرايا بقيادة حمزة بن عبد المطلب.

٢ ـ السنة الثانية من الهجرة:

- حُوّلت القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام في مكة، بعد الهجرة بستة عشر، أو سبعة عشر شهراً.
- فرض الصوم.
- غزوة بدر الكبرى في السابع عشر من رمضان.
- توفيت رقيّة بنت رسول الله ﷺ.
- بنى رسول الله ﷺ بأم المؤمنين عائشة بنت أبـي بكر الصديق.
- بنى عليٌّ بن أبـي طالب بالسيدة فاطمة.

٣ ـ السنة الثالثة من الهجرة:

- ولد الحسن بن عليّ.
- دخل رسول الله ﷺ بحفصة بنت عمر بن الخطاب.
- دخل رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش.
- تزوج عثمان بن عفّان بأم كلثوم بنت النبـيّ ﷺ.
- وقعت غزوة أُحد في شهر شوال.
- استشهاد حمزة بن عبد المطلب عمِّ الرسول عليه السلام في معركة أُحد.

٤ ـ السنة الرابعة:

- قصة الرجيع في صفر، واستشهاد خُبيب بن عديّ، وعاصم بن ثابت.

- قصة بئر معونة واستشهاد سبعين من القُرّاء، والمُعلّمين.
- إجلاء بني النضير.

٥ ـ السنة الخامسة:

- غزوة الخندق.
- غزوة بني قريظة.
- غزوة دومة الجندل.
- وفاة سعد بن معاذ سيد الأوس.

٦ ـ السنة السادسة:

- غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع.
- حديث الإفك، وبراءَة السيدة عائشة.
- غزوة الحديبية وبيعة الرضوان. واتفاق الهدنة.
- مكاتبة الملوك والأمراء: النجاشي، وكسرى، وهرقل، والمقوقس.

٧ ـ السنة السابعة:

- غزوة خيبر وفتحها.
- بنى رسول الله ﷺ بصفيّة، وميمونة، وأم حبيبة.
- وصول مارية القبطيّة.
- وفود أبـي هريرة مع قومه من دوس.
- عمرة القضاء.
- قدوم جعفر بن أبـي طالب من الحبشة.
- قدوم وفد الأشعريين، ومعهم أبو موسى الأشعري.

٨ ـ السنة الثامنة:

- معركة مؤتة.
- سرية ذات السلاسل.
- فتح مكة، وحصار الطائف.

- غزوة حنين.
- وفاة زينب بنت النبيّ ﷺ.
- مولد إبراهيم بن محمد ﷺ، من مارية القبطية.

٩ ـ السنة التاسعة:

- غزوة تبوك.
- أبو بكر يحج بالناس.
- مات النجاشي.
- توفيت أم كلثوم بنت النبيّ ﷺ.
- دخول الناس في دين الله أفواجاً، وقدوم الوفود إلى المدينة.

١٠ ـ السنة العاشرة:

- حجة الوداع.
- كسوف الشمس، ووفاة إبراهيم.
- ظهور الأسود العنسي في اليمن.

١١ ـ السنة الحادية عشرة:

- وفاة النبيّ ﷺ.
- وفاة أم أيمن حاضنة رسول الله، وأمّه بعد أُمه.
- اجتماع المسلمين في سقيفة بني ساعدة واختيار أبي بكر للخلافة.
- وفاة فاطمة بنت النبيّ ﷺ.
- ارتداد أقوام من العرب، وتسيير الجيوش لهم.

● ● ●



الفَصْلُ الرَّابِعُ

الحَرَكَةُ العِلْمِيَّةُ



ـ ١ ـ
التعريـف بالفصـل

عندما عنونتُ هذا الفصل بـ «الحركة العلمية» لم أقصد إلى تحقيق وجودها أو مستواها، لأن القرآن جاء بالعلم وللعلم، وبُعث محمدٌ ﷺ، بالعلم وللعلم، بُعث بالعلم بأن الله واحد لا شريك له، وأن ما عليه الناس من الضلالات يودي بالمجتمع إلى الهلاك في الدنيا والآخرة، وجاء القرآن ليعلمَ الناس الدستور الإلهي، ويدلهم على النهج السويّ.. ولذا بدأ الوحي بالأمر بالقراءَة، وبيان فضل الله تعالى الذي علّم الإنسان ما لم يعلمْ، ونقله من ظُلمة الجهل إلى نور العلم، ونبّه الله في أول سورة، على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة.

ولهذا بلغت الحركة العلمية في المدينة أعلى درجة لها، بل بلغت الحركة العلمية أرقى درجة لها في العالم، في زمن نزول الوحي؛ لتتابع القرآن بالنزول لتعليم الناس، ولحرص الرسول عليه الصلاة والسلام على تعليم أصحابه في كل يوم، وتلهف المسلمين على مجالسة رسول الله والسماع منه.. وقد أردت في هذا الفصل، أنْ أرصد الوسائل المتبعة في التعليم آنذاك والطرائق التربوية التي اتبعها رسول الله وصحبه، وأثرها في ارتقاء الحياة العلمية، ونقْل العلم إلى التابعين، ومنزلة العلم بين الأنشطة التي كان يقوم بها الناس في صدر الإسلام.

• • •

ـ ٢ ـ
منزلة العلم

منزلة العلم في الإسلام، هي منزلة العلم عند أهل المدينة في صدر الإسلام، لأن المخاطبين بالوحي، وبأحاديث رسول الله، بداية، هم أهل المدينة، وهم أول من لبى نداء الوحي، ووضعه موضع التنفيذ، فإذا وضعنا عنوان «منزلة العلم في الإسلام» أردنا به منزلة العلم في المنهج الإسلامي، ومنزلته في التطبيق العملي، وهو في صورته الثانية يُعدُّ جزءاً من تاريخ المدينة في العهد النبوي والراشدي. . .

وتظهر منزلة العلم، في صدر الإسلام، من فهم نصوص الحديث النبوي التي تتحدث عن هذا الجانب. . ونأخذ من تبويبات البخاري لكتابه، أن العِلْمَ يأتي في مقدمة ما يجبُ على المسلم عَمَلهُ، ولذلك كان الكتاب الثالث في صحيحه، بعد كتاب «بدء الوحي» وكتاب «الإيمان» هو كتاب «العلم».

وبدأ بباب «فضل العلم» واستشهد له بقوله تعالى: ﴿يرفع اللَّهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾. وقوله تعالى: ﴿ربِّ زدني علماً﴾ وقالوا في تفسير الآية الأولى: يرفع اللَّهُ المؤمنَ العالم على المؤمن غير العالم، ورفعة الدرجات تدل على الفضل، إذ المرادُ به كثرة الثواب، وبها ترتفع الدرجات، ورفعتُها تشمل المعنوية في الدنيا بعلو المنزلة وحُسْن الصيت، والحسيّة في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة.

وفي صحيح مسلم عن نافع بن عبد الحارث الخزاعي ـ صحابيّ، وكان عامل عمر على مكة ـ أنّه لقيه بعُسْفان، فقال له: مَنْ استخلفت؟ فقال: استخلفتُ ابن أبزى ـ عبد الرحمن ـ فقال عمر: استخلفتَ مولى[1]؟ قال: إنه قارىء لكتاب الله عالم بالفرائض، فقال عمر: أَمَا إنَّ نبيّكم قد قال: «إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين». وأما قوله تعالى: ﴿ربّ زدني علماً﴾ فهو واضح الدلالة على فضل العلم، لأن الله تعالى لم يأمر نبيّه بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم.

وبوّب البخاريُّ رحمه الله، في كتاب العلم، «باب العلم قبل القولِ والعمل» لقول الله تعالى: ﴿فاعلمْ أنّه لا إله إلا الله﴾ فبدأ بالعلم، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورّثوا العلم، مَنْ أخذه أخذ بحظّ وافر، ومَنْ سلك طريقاً يطلب به علماً سهّل اللّهُ له طريقاً إلى الجنَّة، وقال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماءُ﴾ وقال تعالى: ﴿هل يستوي الذي يعلمون والذين لا يعلمون﴾. وقال النبيّ ﷺ: «مَنْ يرِد اللّهُ به خيراً يفقهه». وإنما العلم بالتعلّم.

.. هذا البيان لفضل العلم ومنزلته، قد وعاه الصحابةُ وعملوا به، واستنفذوا في تطبيقه طاقتهم.. فما الوسائل التي كانت متاحة لتحصيل العلم؟.

• • •

(١) عبد الرحمن بن أبزى، ذكره البخاري من الصحابة. وقوله «مولى» للمولى معان كثيرة منها: المولى: الناصر. والمولى: المُعْتِق: اسم فاعل. والمُعْتَق: اسم مفعول. والمولى: ابن العم، والعم، والأخ، والابن، والعصبات كلهم. والمولى: الذي يلي عليك أمرك. والمولى: الذي يُسلم على يدك ويواليك. والمولى: الحليف. وقد يكون المولى عربياً، وقد يكون عجمياً انظر «لسان العرب» مادة «ولي».

ـ ٣ ـ

وسائل تحصيل العلم

أولاً ــ الكتابة:

بدأتُ بالكتابة، لأن التاريخ ظلمها، وما زالت مظلومة على يد المؤرخين المعاصرين. فالمؤرخون القدماء، والمعاصرون اعتمدوا في الحكم على تاريخ الكتابة عند العرب، على أقاويل لا تقوم على دليل، كما تقوم على مفهومات غير صحيحة عن المجتمع العربي في الجاهلية.

فقد نقل البلاذري في [فتوح البلدان ص ٦٦٠ ــ ٦٦١] فقال: «جاء الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب». وينقل عن الواقدي أنه كان في المدينة أحد عشر رجلاً يعرفون الكتابة.

وقال ابن عبد ربه في [العقد الفريد ٤/ ٢٤٠]: وجاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير سبعة عشر إنساناً.. (وذكرهم) وهذه إحصاءات ليس لها سند صحيح، وسوف نرى بطلانها فيما بَعْدُ.

ووقع ابن خلدون [في مقدمته ص ٣٦٥] في خطأ فاحش، عندما قال: «فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش، وبُعْدهم عن الصنائع»، وقال: «وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم، ما اقتضته رسوم صناعة الخطّ عند أهلها، ثم اقتفى التابعون من السلف

رسمهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب رسول الله ﷺ، وخير الخلق من بَعْده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه، كما يُقتفى لهذا العهد ــ عهد المؤلف ــ خط وليّ أو عالمٍ تبركاً، ويتبع رسمُه خطئاً أو صواباً. . . ».

وهذا الذي نقله البلاذري، وابن عبد ربّه، وابن خلدون، لا يعتمد على رواية صحيحة، ويُوجد في النصوص التاريخيّة ما ينقضه، وإليك الشرح:

١ ــ ليس عندنا بداية معروفة للكتابة العربية، مما يدلُّ على قدمها، وقِدَمُ الشيء يساعد على انتشاره، ولو كان ذلك بصورة بطيئة فقد قال ابن النديم في الفهرست: اختلف الناسُ في أول مَنْ وضع الخط العربـي، ونقل عن هشام الكلبـي ــ وهو من رُواة الغرائب ــ أن أول مَنْ صنع ذلك قومٌ من العرب العاربة، نزلوا في عدنان بن أد، وأسماؤهم: أبو جاد، هواز، حطي، كلمون، صَعْفص، قريسات. . وضعوا الكتاب على أسمائهم ثم وجدوا بعد ذلك حروفاً ليست من أسمائهم، وهي الثاء والخاء والذال والظاء والشين والغين، فسموها الروادف. قال: وهؤلاء ملوك مَدْين، وكان مهلكهم يوم الظلة في زمن شعيب النبـيّ. . ». ونقل شعراً لأخت كلمون ترثيه. . لا تَصحُّ روايته.

وأغرب كعبٌ فنسب وَضْع الكتابة إلى آدم، ولذلك قال ابن النديم: «وقال كعب ــ وأنا أبرأ إلى الله من قوله ــ أن أول مَنْ وضع الكتابة العربية والفارسية وغيرها من الكتابات آدم عليه السلام، وضع ذلك قبل موته بثلاثمائة سنة».

ونقلوا عن ابن عباس قوله: أول مَنْ كتب بالعربية ثلاثة رجال من «بَوْلان» وهي قبيلة سكنوا الأنبار، وأنهم اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة، وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فأما مرامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصّل ووصل، وأما عامر فوضع الإعجام، وسئل أهل الحيرة: ممن أخذتم الخط العربـي، فقالوا: من الأنبار.

وروي عن مكحول: أن أول مَنْ وضع الكتاب العربـي، نفيس، ونضر،

وتيما، ودومة.. هؤلاء ولد إسماعيل، وضَعوه مفصلاً، وفرقه قادور بن نبت بن هميسع بن قادور.. قال: وإن نفراً من إياد القديمة ـ من أهل الأنبار ـ وضعوا حروف: ألف ب ت ث، وعنه أخذت العرب.. الخ.

وقال ابن خلدون في [المقدمة ٣٦٥]: «وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة، وهو المسمّى بالخط الحميري. وانتقل منها ـ من اليمن ـ إلى الحيرة، لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية.. ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش.. قال: وكان لحمير كتابة تُسمى المسند حروفها منفصلة.. ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية..».

واختلفوا فيمن نقل الكتابة إلى مكة، فقيل: أبو قيس بن عبد مناف بن زُهرة، وقيل: حرب بن أمية.

وقيل: إنه لما هَدمت الكعبةَ قريشٌ، وجدوا في ركن من أركانها حجراً مكتوباً فيه: السلف بن عبقر، يقرأ على ربّه السلام، من رأس ثلاثة آلاف سنة.

قال ابن النديم: وكان في خزانة المأمون كتابٌ بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد آدم فيه ذكر حقّ عبد المطلب ـ من أهل مكة ـ على فلان بن فلان الحميري من أهل صنعا، عليه ألف درهم فضّة كيلاً بالحديدة، ومتى دعاه بها أجابه «شهد اللَّهُ والملكان»...

كل هذه الأخبار تدل على قِدَم الكتابة العربية، وأنها كانت معروفة في اليمن والعراق ومكة منذ زمن بعيد قبل الميلاد.. وكان الحجاز ـ مكة والمدينة والطائف ـ على اتصال دائم بديار اليمن، والعراق والشام، وكان أهل الحجاز يقتبسون مما يجدونه في الديار التي يتصلون بها، الأساليب الحضارية[1].. وأهل

---

(١) ومما يدلُّ على سعة انتشار الكتابة العربية، أن رسول الله ﷺ، كتب إلى ملوك الأرض في أيامه، ووُجد في بلاط الملوك مَنْ يقرأ هذه الرسائل. وقد ثبت أن رسول الله كتب إلى هرقل، وكسرى، والنجاشي، والمقوقس.

مكة والمدينة والطائف.. لم يكونوا أهل بادية كما يّدعي ابن خلدون، وإنما كانوا أهل استقرار؛ فمكة تعتمد على التجارة، والمدينة والطائف تعتمدان على الزراعة، ولا بدَّ أنهم فكروا في اقتباس الخط، أو إيجاده، في زمن مبكر لحاجتهم إليه في معاملاتهم، التجارية، وخصوصاً أن مجتمع مكة كان يعتمد على الربا، بل كان الربا متفشياً، ولا بدَّ لإثبات الحقّ من الكتابة، بل كانوا يعتمدون على الكتابة لإثبات الديون، ويعتمدون على الكتابة في شؤونهم السياسية[1].

٢ ــ تدلُّ النصوص القرآنية على تفشي الكتابة في المجتمع العربي، ففي كثير من الآيات إشارة إلى ذلك؛ لأن القرآن يخاطب العرب بما يفهمون.

(أ) في قوله تعالى: ﴿اقرأ وربُّك الأكرمُ الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾. قال الزمخشري: الأكرم: الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم يُنعم على عباده النعم التي لا تُحصى.. قال: وكأنَّه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرّم، حيث قال: الأكرم.. ودلّ على كمال كرمه بأنه علّم عباده ما لم يعلموا، ونبَّه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو...».

وخطاب الله العرب، بوصف نفسه «الأكرم الذي علم بالقلم» يمتن اللَّهُ بذلك على الإنسان، والإنسان جنسٌ، لكن العربَ مقصودون بهذا الخطاب.. يدلُّ على أن الكتابة موجودة عند العرب، وأنهم يعرفون فوائدها، وأنهم يستخدمونها وإلا فلا معنى لامتنان الله أنْ علم الإنسان بالقلم، والعرب لا يعرفون ذلك لأنَّ الله يمتنُّ بما هو موجود في الدنيا.. وقد فهم العرب هذا المعنى، ولذلك نقل الزمخشري أن ابن الزبير قرأ «علّم الخطَّ بالقلم».

---

(١) ذكرنا فيما سبق، كتاب عبد المطلب بن هاشم، يذكر حقَّه على فلان الحميري. وهناك خبر كتابة المعلقات وخبر الصحيفة التي كتبتها قريش لمقاطعة بني هاشم في بداية البعثة النبوية (انظر خبرها في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٥٠).

وأقسم الله فقال: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ والقسم من الله تعظيم لما يقسم به، ولم يستنكر المشركون أن يقسم الله بالقلم، كما استنكروا عندما ضرب الله المثل بالعنكبوت والذباب، فقال تعالى: ﴿إن الله لا يَسْتَحْيِيْ أن يضربَ مثلاً مّا بعوضةً فما فوقها، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحقُّ من ربهم، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ [البقرة: ٢٦].

(ب) قال تعالى في سورة الكهف: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي، لنفد البحر قبل أن تنفد كلماتُ ربي، ولو جئنا بمثله مَدَداً﴾.

وقال تعالى في سورة لقمان: ﴿ولو أنَ ما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحرُ يمدّه من بَعْده سبعةُ أبحرٍ ما نفِدَت كلماتُ الله، إنَّ الله عزيزٌ حكيم﴾.. وهذا التمثيل لا يفهمه إلا مَنْ يعانيه، ويشتغل به.

(جـ) آية المداينة في سورة البقرة (٢٨٢) ندب اللَّهُ المسلمين إلى كتابة الدين ﴿إذا تداينتم بدين إلى أجل مُسمّىً فاكتبوه﴾.

وشرط أن يكون الكاتب عالماً بالشروط فقيهاً ديناً ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولا يأب كاتب أنْ يكتب كما علمه الله﴾.

وأمر بكتابة الدين الكبير والصغير: ﴿ولا تَسْأَموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً﴾. والآية مدنية يُخاطبُ بها المسلمون في مكة والطائف والمدينة واليمن.. وكيف يدعو اللَّهُ المسلمين إلى أمر لم تتوفر وسائلُه؟ ووسائله الكُتّاب الفقهاءُ العدول العارفون بالشروط، وهؤلاء قلة بين كثرة فكيف إذا كان الكُتَّاب قليلين كما يزعمون؟ وإذا عرفنا أن الكُتَّاب متوفرون في العهد النبوي، فهذا يدل على توفرهم في العهد الجاهلي، لأنَّ المدة بين نزول الآية والعهد الجاهلي ليست بعيدة.

٣ ــ روى الإمام أحمد في مسند (٢٤٧/١) عن علي بن عاصم قال: قال داود بن أبي هند، حدثنا عكرمة عن ابن عباس قال: «كان ناس من الأسرى يوم

بدر لم يكن لهم فداءٌ، فجعل رسولُ الله ﷺ فداءَهم أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابة، قال: فجاءَ يوماً غلامٌ يبكي إلى أبيه، فقال: ما شأنك قال: ضربني معلمي، قال: الخبيثُ، يطلب بذَحْل ــ ثأر ــ بَدْر، والله لا تأتيه أبداً».

وروى ابن سعد في [الطبقات ٢/ ٢٢] بأسانيد متعددة، قال: «أسر رسول الله ﷺ يوم بدرٍ سبعين أسيراً وكان يُفادي بهم على قَدْر أموالهم وكان أهلُ مكة يكتبون وأهلُ المدينة لا يكتبون فمن لم يكن له فِداءٌ دُفع إليه عشرةُ غلمان من غلمان المدينة، فعلّمهم، فإذا حذقوا، فهو فداؤه». [وانظر المستدرك ٢/ ١٤٠، والأموال ١٠٦].

هذه الأخبار المسندة تنقض ما نقله البلاذري وابن عبد ربه، أن عدد الكاتبين في صدر الإسلام ــ في مكة ــ سبعة عشر رجلاً، وذلك يظهر عند تحليل هذه الأخبار، ورواية البلاذري وابن عبد ربه، وأخبار غزوة بدر.

(أ) كان عدد جيش قريش في بدر ألف رجلٍ، وأسر المسلمون منهم سبعين رجلاً.

(ب) رواية الإمام أحمد عن ابن عباس: «كان ناسٌ من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداءٌ» ورواية ابن سعد «فمن لم يكن له فداءٌ دُفع إليه عشرةُ غلمان». تدلّان على أنِ عدد الكاتبين في الأسرى كان كبيراً لأن ابن عباس قال: «كان ناس»، ولأن القصة أثارت انتباه الرواة وكان لها أثر في المجتمع، ولا يكون لها هذا الأثر، إلا إذا كان عَدَدُ الكاتبين الذين عجزوا عن فداء أنفسهم كبيراً. . .

(جـ) إذا افترضنا أنَّ عشرة من السبعين كانوا يجيدون الكتابة فإننا نقدر أن عدد الكاتبين في جيش قريش المقدر بالألف، لا يقل عن مئة، وقد يصل إلى مائة وخمسين كاتباً ١٠/ ٧٠ × ١٠٠٠ = ١٤٢. مع العلم أن العدد قد يكون أكثر من ذلك، لأن هؤلاء العشرة كانوا من الفقراء، وكانوا متعلمين، فكيف يكون حال الأغنياء؟.

(د) فإذا قدّرنا في الألف ما يزيد على مئة كاتب، فكم كاتباً يكون في أهل مكة بعامة؟.

(هـ) وإذا كان في الألف من المشركين قدّرنا وجود مئة كاتب أو يزيد، فكم كاتباً يكون في المهاجرين؟.

(و) وقد تتبعت سِيَر الرجال الذين ذكرهم ابن عبد ربه في العقد الفريد وقال: لقد جاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غيرهم، فوجدت أكثرهم من المسلمين السابقين الذين أسلموا قبل الهجرة، وإليك التفصيل:

١ ــ علي بن أبي طالب	أسلم قبل الهجرة
٢ ــ عمر بن الخطاب	أسلم قبل الهجرة
٣ ــ طلحة بن عبيد الله	أسلم قبل الهجرة
٤ ــ عثمان بن عفان	أسلم قبل الهجرة
٥ ــ أبو عبيدة بن الجراح	أسلم قبل الهجرة
٦ ــ أبان بن سعيد	أسلم قبل الهجرة
٧ ــ خالد بن سعيد	أسلم قبل الهجرة
٨ ــ أبو حذيفة بن عتبة	أسلم قبل الهجرة
٩ ــ حاطب بن عمرو بن عبد شمس	
١٠ ــ العلاء بن الحضرمي	؟
١١ ــ أبو سلمة بن عبد الأسد	من السابقين
١٢ ــ أبو سفيان بن حرب	لم يحضر بدراً لأنه كان مع العير
١٣ ــ معاوية بن أبي سفيان	لم نعرف أنه حضر بدراً
١٤ ــ يزيد بن أبي سفيان	لم نعرف أنه حضر بدراً
١٥ ــ حويطب بن عبد العزى	أسلم عام الفتح
١٦ ــ عبد الله بن سعد بن أبي السرح ؟	
١٧ ــ جهيم بن الصلت	أسلم بعد الفتح

وهكذا نلاحظ أن ثلاثة فقط من قائمة الأسماء ربما حضروا بدراً مع المشركين ولا ندري أكانوا مع الأسرى، أم لم يكونوا معهم.

٤ ــ وقول ابن خلدون: إن الخط العربي لم يكن بالغاً الجودة في صدر الإسلام بسبب بداوة العرب، وضربه المثل بالرسم القرآني، زاعماً أن الصحابة أخطؤوا في رسم الخط لجهلهم.. قول ابن خلدون هذا مردود عليه وجانبه الصواب فيه، وذلك للأسباب التالية:

(أ) إن رسم الخط الذي كُتب به المصحف، هو الرسم المتفق عليه في زمانهم، وقد قرأ المصحف العثمانيّ مئات من الصحابة وآلاف من التابعين العلماء، ولم يُنْقل عن أحد خلافٌ في رسمه، مع كثرة المخالفين في ذلك الزمان، ولم يُنقل عن أحدٍ من الشيعة أو الخوارج أو المعتزلة طعنٌ في رسم المصحف. فإملاؤه هو الإملاءُ المعروف في زمن كتابته.. ورسم الخط قد يدخل عليه شيء من التغيير مع مرور الزمن.. ولا يدعي أحدٌ أن صورة الحروف والكلمات التي كانت في بدء وجود الخط العربي، هي الصورة الباقية على مرّ الزمن.. ولو بُعث الخليل بن أحمد الفراهيدي في أيامنا لتردد في قراءَة رسم بعض الحروف التي في أيامنا.

(ب) لقد كُتب المصحف في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه في زمن يتفق المؤرخون فيه، على أن الحضارة والمدنيّة والتأنُّق قد بلغوا مبلغاً جيداً، لا يقاس بما كان عليه الناسُ في العصر الجاهلي، وإذا كان الذين يعرفون الكتابة في بداية العهد النبوي يُعدّون بالمئات، فلا بُدَّ أنهم أصبحوا في عصر الخليفة عثمان يعدون بالآلاف؛ فثلاثون سنة بعد الهجرة ليست قليلة في عصر الفتوحات، وتمصير الأمصار، واتساع رقعة الدولة الإسلامية، وكيف يُوصف المسلمون في المدينة ــ في عهد عثمان ــ بالبداوة، وقد اتسع عُمران المدينة، وبُنيتْ القصور، وامتدتْ رقعة الأرض الزراعية، وامتلأت المدينة بالعبيد والخدم القادمين من البلاد المفتوحة؟!.

(جـ) يُلاحظ من تتبُّع رسم المصحف، أنهم رسموا كلماته على الشكل المعروف بالرسم القرآني، أو العثماني، عن تعمد وقصْد وعن معرفة واعية بقواعد الرسم؛ لأننا نجدهم رسموا الكلمة الواحدة بصورتين: فهم يكتبون التاء المربوطة مرة هاء، ومرة تاء مفتوحة «نعمة ـ ونعمت» ونجد في الآية الواحدة رسم الكلمة الواحدة بصورتين «سٰحر، والساحر».. ولو كان صنيعهم لجهلهم بقواعد الرسم ـ كما يزعم ابن خلدون ـ لتكرر الرسم المخالف لقواعد الإملاء في أيامنا. والأمثلة على ذلك كثيرة في كتاب الله.

٥ ـ ومن الأدلة على كثرة الكُتَّاب في العهد النبويّ: كثرةُ الكُتَّاب الذين كتبوا للنبـي ﷺ. فذكر منهم ابن عساكر خمسة وعشرين كاتباً وأوصلهم القرطبـي في تفسيره إلى ستة وعشرين، وأوصلهم العراقي إلى اثنين وأربعين، ونظمهم في أبيات من الرجز. [التراتيب الإدارية ٢/١١٦]. ولكنهم لم يكونوا جميعاً كُتَّاب وحي، وإنما كانوا يكتبون في شؤون متفرقة.

٦ ـ كانت الكتابة من ضروريات الحياة في السلم والحرب، والسياسة والاقتصاد، والحقوق؛ قال ابن عبد ربه في العقد الفريد [٤/٢٤٤]: «وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبـي سفيان يكتبان بين يدي النبـيّ ﷺ في **حوائجه** وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير **يكتبان ما بين الناس**، وكانا ينوبان عن خالد، ومعاوية إذا لم يحضرا.

وكان عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث، والعلاء بن عُقْبة، يكتبان **بين القوم في قبائلهم ومياههم، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء.**

وكان ربَّما كتب عبد الله بن الأرقم إلى الملوك عن النبـيّ ﷺ وكان حُذيفة بن اليمان يكتب **خرص** ثمار الحجاز.

وكان معيقيب بن أبـي فاطمة يكتب مغانم النبـيّ ﷺ. وكان حنظلة بن الربيع بن المرقع بن صيفي، ابن أخي أكثم بن صيفي خليفة كل كاتب من كُتَّاب النبـيّ ﷺ إذا غاب **عن عمله** فغلب عليه اسم الكاتب».

وقال القلقشندي في «صُبح الأعشى»: اعلم أن هذا الديوان ــ ديوان الإنشاء ــ أول ديوان وُضِع في الإسلام، وذلك أن النبيّ ﷺ كان يكاتب أُمراءَه وأصحاب سراياه من الصحابة ويكاتبونه، وكتبَ إلى مَنْ قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام وبعث إليهم رسله بكتبه، وكتب لعمرو بن حزم عهداً حين وجهه إلى اليمن، وكتب لتميم الداري وإخوته بإقطاع بالشام، وكتب كتاب القضيّة بعقد الهدنة بينه وبين قريش عام الحديبية، وكتب الأمانات أحياناً.. الخ،.. وهذه المكتوبات متعلقها ديوان الإنشاء، بخلاف ديوان الجيش فإنَّ أول مَنْ وضعه ورتبه عمر بن الخطاب في خلافته.

٧ ــ ذكر القرآنُ الكريم الأدوات التي يكتب عليها: وفيها دلالة على أنها من الأدوات الحضارية الثقافية المتداولة. قال تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾.. وقال تعالى: ﴿والطور وكتاب مسطور في رقّ منشور﴾ والرق ما يُرقق من الجلد ليُكتب فيه. وقال تعالى: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾.

٨ ــ كتابة الأحاديث النبوية، في العهد النبوي، وعهد الخلفاء الراشدين، وتتابع ذلك في بقية القرن الأول. ونناقش في هذه الفقرة مسائل:

(أ) شيوع فكرة عدم كتابة الحديث في العهد النبوي، حتى نهاية القرن الأول، وربطها بقلة الكُتَّاب في بداية الهجرة:

فقد اشتهر بين عامة المتعلمين، من غير ذوي التتبّع والاستقصاء، أن الحديث أو ما يُطلق عليه لفظ «العلم» ظل أكثر من مئة سنة يتناقله العلماءُ حفظاً دون أن يكتبوه. وسبب هذا الظن خطأٌ في تأويل ما ورد عن المحدّثين في تدوين الحديث وتصنيفه، فقد ذكر هؤلاء أنَّ أول مَنْ دوّن العلم، ابنُ شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ، وذكروا أول مَنْ صنّف الكتب فإذا هم جميعاً ممن عاش بعد سنة ١٤٣هـ.

ولم يعط المؤرخون هذه الأقوال حقّها من التأويل والتفهم الجليّ، بل رووها بشكل يُوهم بأنَّ أول مَنْ كتب الحديث ابن شهاب، والذي حملهم على هذا الفهم أنهم لم يقعوا على نصوص مكتوبة في القرن الأول، واشتهار حديث أبـي سعيد الخدري أن رسول الله نهى عن كتابة غير القرآن، أضف إلى ذلك إجلالهم لشأن العرب في قوة الحفظ، وقد جاء هذا الرأي عند عدد من الأعلام أذكر منهم:

أبو طالب المكي	وانظر «قوت القلوب ١/ ١٥١»
ابن خلدون	وانظر «المقدمة ص ٤٨٠»
المقريزي	وانظر «الخطط ٢/ ٣٣٣»
وابن حجر العسقلاني	وانظر «مقدمة فتح الباري ص ٤»
حسن صديق خان	وانظر «أبجد العلوم ص ١١٠»
محمد بن جعفر الكتاني	وانظر «الرسالة المستطرفة ص ٣»

(ب) الجمع بين الإباحة والمنع:

وردت أحاديث وآثار تمنع الكتابة ــ كتابة الحديث ــ ووردت أحاديث تبيح الكتابة (سيأتي ذكر أحاديث الإباحة).

فذكر ابن قتيبة لهذا الاختلاف معنيين: الأول: أن يكون من منسوخ السنة بالسنة، والمعنى الثاني: أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام، خصَّ مَنْ أباح له بالكتابة، لأنه يُتقن الكتابة ولا يُخشى عليه من الغلط. (تأويل مختلف الحديث ٣٦٥ ــ ٣٦٦).

وذكر الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي (ت ٣٦٠) أن حديث أبـي سعيد الخدري في المنع، ربما كان محفوظاً في أول الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن.

واعتقد حمد بن محمد الخطابـي البُسْتي (٣١٧ ــ ٣٨٨هـ) إمكان وجود النسخ وقال: «وقد قيل: إنما نهى رسول الله أن يكتب الحديث مع القرآن في

صحيفة واحدة لئلا يختلط به، فأما أن يكون نفس الكتاب محظوراً وتقييد العلم بالخط منهياً عنه، فلا» [معالم السنن ٤/ ١٨٤].

(جـ) وقد أدت هذه الفكرة ـ فكرة عدم تقييد العلم في القرن الأول ـ إلى الطعن على علم المسلمين في القرن الأول، وهو الحديث الشريف. ومهما قيل عن قوة الحافظة العربية، فإن ذاكرة الناس ربما لا تستطيع أن تتناول العلم بأجمعه، وقد تقوى عند أُناس وتضعف عند آخرين.. وفي هذا الفصل، لا أريد أن أدفع عيباً واقعاً، ولا أُريد أن أُثبت شيئاً لم يوجد، وإنما أذكر الأدلة على أنَّ الكتابة ـ كتابة العلم ـ كانت في العصر النبوي، وفي عصر الخلفاء الراشدين، وفي القرن الأول بعامة، قبل الزمن الذي حددوه لبداية التدوين:

١ ـ قولهم: أول مَنْ دوّن العلم ابن شهاب الزهري في القرن الثاني أو على رأس المئة الأولى، يحتاج إلى توضيح:

هناك اصطلاحات ثلاثة في هذا الباب: «تقييد العلم» بمعنى الكتابة مطلقاً.

«والتدوين» ومعناه تقييد المتفرق وجمعه في ديوان أي كتاب.

«والتصنيف»: وهو ترتيب ما دوّن في فصول وأبواب، حسب الموضوعات.

والخلاف حاصل في «التقييد» بمعنى الكتابة مطلقاً، وليس في التدوين والتصنيف؛ لأننا نعترف أن التدوين والتصنيف إنما كانا متأخرين في القرن الثاني، أما الكتابة المطلقة فهي التي تذكر الأدلة على وجودها.

٢ ـ إنَّ الأخبار الصحيحة في الإذن بالكتابة، أكثر وأقوى من الأخبار بالمنع، في العهد النبوي:

(أ) أما أدلة الإباحة الصحيحة فهي:

روى البخاري في صحيحه عن أبـي جُحَيْفة[١] قال: «قلتُ لعليّ، هل عندكم كتابٌ؟ قالا: لا، إلا كتاب الله، أو فَهْمٌ أُعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه

(١) أبو جُحيفة: اسمه وهب بن عبد الله السُّوائي ـ من الصحابة. فالحديث يرويه صحابـيٌّ عن صحابـيّ.

الصحيفة. قال: قلتُ: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العَقْلُ، وفكاك الأسير، ولا يُقتَلُ مُسلمٌ بكافر». وروى البخاري في كتاب «العلم» باب «كتابة العلم» عن أبـي هريرة أن رسول الله خطب، فقال.. «الحديث» فجاء رجل من أهل اليمن فقال: «اكتب لي يا رسول الله، فقال: اكتبوا لأبـي فلان (هو أبو شاه)..» فقيل لأبـي عبد الله: أيّ شيء كتب له: قال: كتب له هذه الخطبة.

وروى البخاري عن أبـي هريرة؛ أنه قال: «ما مِنْ أصحاب النبـيّ ﷺ، أحدٌ، أكثر حديثاً عنه منّي، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتبُ» [البخاري باب العلم].

وخرّج الترمذي عن أبـي هريرة، قول رسول الله لرجل: «استعنْ بيمينك وأومأ إلى الخطّ».. وانظر أحاديث أخرى رواها الطبراني، والإمام أحمد، وابن سعد.. وغيرهم في [التراتيب الإدارية ٢/ ٢٤٤ ــ ٢٤٥] وروايات أُخرى عن الصحابة أنهم كانوا يكتبون العلم، والفقه.

بل هناك روايات أن رسول الله ﷺ أملى بعض الصحف فيها أحكام شرعية، ومنها كتابه في الصدقات الذي خرّجه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم عن ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر قال: كتب رسول الله كتاب الصدقات، فلم يُخْرجه إلى عمّاله، وقرنه بسيفه حتى قبض، فعمل به أبو بكر حتى قُبض ثم عمل به عمر حتى قبض.. [انظر التراتيب الإدارية ٢/ ٢٥١]. وكتب رسول الله ﷺ كتاباً في الفرائض والسنن والصدقات لعمرو بن حزم حين استعمله على نجران.

[انظر باب: هل كانوا يدونون في صدر الإسلام شيئاً ــ من التراتيب الإدارية ٢/ ٢٤٩ ــ ٢٦٤].

وكتب أبو بكر الصديق ــ في سنتي خلافته ــ الأحكام الفقهية ليسترشد بها الولاة. وفي «كتاب الزكاة» من صحيح البخاري روايات تصرّح بلفظ «الكتابة».

منها ما جاء في الباب (٣٤) أن أنساً رضي الله عنه قال: «إن أبا بكر

رضي الله عنه، كتب له التي فرض رسول الله...». ومثله في الباب (٣٥) وفي الباب (٣٧) عن أنس، أن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة التي أمر اللَّهُ رسول الله ﷺ.. (الحديث) وفيه حكم زكاة الإبل. وفي الكتاب (٣٨) ذكر المناسبة التي كتب فيها أبو بكر، ما كتبه. فروي عن أنس، أن أبا بكر كتب له هذا الكتاب، لما وجهه إلى البحرين... وفي الحديث نصاب زكاة الغنم.

وفي الباب (٣٩) تصريح بكتابة أبي بكر إلى أنس... ويظهر أن ما رواه البخاري عن أنس في كتاب «الزكاة» كان في مناسبة واحدة ثم قطعه البخاري حسب موضوعه، وإذا جُمع متفرقه فإنه يكون رسالة في صفحات بالخط القديم.

وأما كتابة عمر بن الخطاب إلى الأمراء فهي أكثر من أن تُحصىٰ، وجلُّ رسائله تضمُّ الأحاديث النبوية والأحكام الفقهية... وكان معاوية ابن أبي سفيان يطلب من الصحابة أن يكتبوا إليه ما سمعوه من رسول الله ﷺ، لما روى البخاري في كتاب الزكاة، باب (٥٣): كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة أن اكتبْ إليّ بشيء سمعته من النبيّ ﷺ، فكتب إليه: سمعت النبيّ ﷺ وسلم يقول: «إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال». ويظهر من سياق الحديث أن معاوية لم يطلب حديثاً واحداً في موضوع معين، وإنما طلب أن يكتب له المغيرة «بشيء سمعه» وربما كتب له أحاديث كثيرة، اختار منها البخاري هذا الحديث لمناسبته الباب.

(ب) أما الآثار التي تمنع كتابة الحديث، فإن أصحها، ما جاء عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله قال: «لا تكتبوا عنّي شيئاً غير القرآن». [رواه مسلم].

قال ابن حجر: والجمع بين هذا الحديث، وأحاديث الإباحة التي رواها البخاري أن النهي خاصٌ بوقت نزول القرآن خشية التباسه به، والإذن في غير ذلك. أو أن النهي خاص بكتابة غير القرآن مع القرآن في شيء واحد والإذنُ في تفريقهما، أو أن النهي متقدم والإذن ناسخ له عند الأمن من الالتباس، قال: وهو

أقربها مع أنه لا ينافيها، ومنهم مَنْ أعلَّ الحديث، وقال: الصواب وقفه على أبـي سعيد، قاله البخاري وغيره. [الفتح ١/٢٠٨].

٣ ــ إذا صحَّ رفع حديث أبـي سعيد الخدري، فإن النهي يُقصد به الكراهية والحذر والاحتياط، وليس المنع والتحريم، وربما كانت الكراهية في بداية العهد النبويّ بعد الهجرة، لئلا يختلط قول رسول الله بالقرآن، ثم كانت الإباحة بعد أن أصبح القرآن محفوظاً في الصدور، وتميز أسلوبه في ذهن المسلمين من كلام رسول الله ﷺ. . . ولو فرضنا أن الكراهية بقيت في العهد النبوي، فإنها كراهية تميز كتابة الصحابـي الملازم الفقيه، من كتابة المسلم الذي لا يلتقي رسول الله إلا لماماً، فالأول متمكن، والثاني يُخشى عليه من الخلط. ولكن هذه الكراهية سوف تذهب أسبابها عندما يُكتب المصحف العثماني ويُعَمّمُ، ويصبح هو المصحف الإمام للمسلمين جميعاً، وقد كان هذا حوالي سنة ٢٥هـ.

وبعد ذلك فلن يكون للكراهية محلّ. . .

أما القول إن الكراهية كانت خشية الاتكال على الكتابة دون الحفظ. . فهذا غير مقبول، وكان من الأوْلى أن تُكره كتابة المصحف، لأن حفظه أولى من حفظ الحديث النبوي. . . وليس من المعقول دعوة الناس إلى الاتكال على الحفظ، والناسُ يتفاوتون ــ خلْقةً ــ في درجة الحفظ.

٤ ــ خلاصة القول في الكتابة والكُتّاب، في العهد النبوي بخاصة، والقرن الأول بعامّة: أن الكُتّاب كانوا كثيرين، ويزدادون يوماً بعد يوم، وأن الكتابة ــ كتابة العلم ــ بدأت منذ العهد النبوي، وازدادت في العهد الراشدي، وعمّت في بقية القرن الأول، وأن كثيراً من الصحابة كتبوا الأحاديث النبوية، وانظر تفصيلاً في «التراتيب الإدارية ٢/٢٤٩ ــ وما بعدها» والفصل الأول من كتاب «تاريخ تدوين السُنّة» للدكتور الأعظمي.

ومَنْ قال إن تدوين السُّنَّة بدأ على رأس المئة الأولى؛ فهو يقصد التدوين المجموع في كتب، وإذا لم يصل إلى المتأخرين نماذج من كتابة القرن الأول فذلك أن كتاباتهم كانت على أدوات لا يدوم أكثرها، فالعظام والكرانيف لا تبقى مئات السنين، ووصلتنا الكتابات المتأخرة لأنها كانت على أدوات تصمد أمام تعاقب القرون عليها.

والمتمعن فيما عرضناه سابقاً يعرف بطلان كلام ابن خلدون الذي بناه على نظرية البداوة، حيث زعم أن العرب في صدر الإسلام يجهلون الخط فجاء في الرسم القرآني مخالفة لقواعد الإملاء، فالرسم القرآني عند أكثر الناس توقيفي، ونقله الصحابة في زمن عثمان عما كان مكتوباً في الزمن النبويّ، ثم إن تعليم الخط فشا وانتشر في المدينة منذ بداية الهجرة على أيدي رجال مجيدين، فكان عبد الله بن سعيد بن العاص يعلم الخط قبل بدر، وكان عبادة بن الصامت يعلم أهل الصفة الكتابة، وعلّم أسرى بدر المسلمين الخط، بدل المال المفروض على الأسير وقدره أربعة آلاف... فابن خلدون قال ما قال عن تخمين وظن، والرواة يروون عن مشاهدة.

* * *

ثانياً ـ صورة إجمالية لبقية أدوات الحركة العلمية وطرائقها في العهدين: النبوي والراشدي:

(أ) حلق العلم في المسجد:

وانظر باب «مَنْ قعد حيث ينتهي به المجلس ومَنْ رأى فُرجةً في الحلقة فجلس فيها». من كتاب العلم في صحيح البخاري وبوب البخاري أيضاً باب «الحلق والجلوس في المسجد» أي جواز ذلك فيه لتعلم العلم وقراءة القرآن. وانظر «التراتيب الإدارية ٢/ ٢١٧» باب في كيفية تلقي الصحابة العلم، وأنه كان حلقاً في المسجد النبوي. وباب «وقوفه عليه السلام على حلق العلم لأصحابه»،

(ب) التبليغ والرحلة:

وانظر باب «الرحلة في المسألة النازلة وتعليم أهله». من البخاري. وباب «التناوب في العلم» وكان عمر بن الخطاب يتناوب مع رجل من الأنصار النزول على رسول الله لسماع العلم، ويبلغ أحدهما الآخر ما سمع، وذلك لبعد منزلهما عن المسجد.

وقال عليه السلام «ليبلغ الشاهدُ الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ مَنْ هو أوعىٰ له منه». [البخاري ـ كتاب العلم باب ٩].

(جـ) تخصيص أيام خاصة للنساء:

انظر باب «هل يُجعل للنساء يومٌ على حدة في العلم» في البخاري عن أبي سعيد الخدري: قالت النساء للنبي ﷺ: غَلَبنا عليك الرجالُ، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهنّ فيه، فوعظهن وأمرهن. . .

(د) تعاطي العلم ليلاً ونهاراً (السمر في العلم):

ترجم البخاري على ذلك بقوله: باب العلم والموعظة بالليل، ثم ترجم باب السمر في العلم بالليل، قال الحافظ في الفتح: ويدخل في هذا الباب حديث أنس أن النبيّ ﷺ خطبهم بعد العشاء، وحديث عمر: كان النبيّ ﷺ يسمر مع أبي بكر في الأمر من أمور المسلمين. وحديث عبد الله بن عمر: كان نبيّ الله يحدثنا عن بني إسرائيل حتى يصبح لا يقوم إلا إلى عظيم صلاة. [رواه أبو داود].

(هـ) مراعاة مستوى السامعين:

بوّب البخاري باب «مَنْ خصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا». وقال عليٌّ: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّبَ اللَّهُ ورسولهُ». ومنه قول ابن مسعود: «ما أنت محدّثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة» [رواه مسلم]. قال ابن حجر: وممن كره التحديث ببعض دون بعض،

أحمد، في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالكٌ في أحاديث الصفات. ومنه حديث معاذ أن رسول الله قال: «ما من أحد يشهدُ أنْ لا إلٰه إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله صِدْقاً من قلبه إلا حرَّمه اللَّهُ على النار، قال معاذ: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: إذن يتكلوا».

(و) الجرأة والشجاعة في طلب العلم:

قالت السيدة عائشة: نعم النساءُ نساءُ الأنصار، لم يمنعهنَّ الحياءُ أن يتفقهن في الدين. وقال مجاهد: لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر.

(ز) مدارسة الصحابة ومراجعتهم العلم فيما بينهم:

ترجم الهيثمي في «مجمع الزوائد» باب في مدارسة العلم ومذاكرته، عن أنس قال: كنا قعوداً مع النبـيّ ﷺ، فعسى أن يكون قال: ستين رجلاً، فيحدثنا الحديث ثم يدخل لحاجته فنراجعه بيننا هذا، ثم هذا فنقوم كأنما درّ ــ فتح ــ في قلوبنا. وخرّج الحاكم في المستدرك عن أبـي سعيد قال: كان أصحاب رسول الله إذا اجتمعوا تذاكروا العلم وقرؤوا سورة».

(ح) التدرّج في أخذ العلم:

لما روى الإمام أحمد عن أبـي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا مَنْ كان يُقرئنا من أصحاب رسول الله أنهم كانوا يأخذون من رسول الله عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قال: فيعلمنا العلم، والعمل.

(ط) اتخاذ المكاتب لتعليم الأطفال:

جاء في كتاب «الديات» من صحيح البخاري «أنَّ أُمَّ سلمة بعثت إلى معلم الكتَّاب أن ابعث إليَّ غلماناً ينفشون صوفاً. . ». [باب ٢٧].

وترجم البخاري في «الأدب المفرد» باب السلام على الصبيان، فأسند إلى ابن عمر أنه كان يسلم على الصبيان في المكتب.

قال الكتاني في «التراتيب الإدارية ٢/ ٢٩٣»: وسئل الأستاذ الشيخ المختار الكنتي عن الأصل في ترك المعلم للصبي قراءة الأربعاء والخميس والجمعة فأجاب: بأن الصحابة كانوا قبل ولاية عمر إنما يقرىء الرجلُ ابنته وأخاه الصغير ويأخذ الكبير عن الكبير مفاهمة لسيلان أذهانهم، فلما كثرت الفتوحات وأسلمت الأعاجم وأهل البوادي وكثر الولدان أمر عمر ببناء بيوت المكاتب ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم وكانوا يسردون القراءة في الأسبوع كله، فلما فتح عُمر الشام ورجع قافلاً للمدينة، تلقاه أهلها ومعهم الصبيان، وكان اليوم الذي لاقوه فيه يوم الأربعاء، فظلوا معه عشية الأربعاء ويوم الخميس وصدر يوم الجمعة.، فجُعل ذلك لصبيان المكاتب وأوجبت لهم سُنَّةً للاستراحة.. وفي هذا الخبر تأريخ لوجود «الكُتّاب» الذي تشرف عليه الدولة، قبل سنة ٢٠هـ. والله أعلم. بل ذكر الكتاني ما هو أقدم من ذلك، فقال «في «شرح المجاجي» على مختصر ابن أبي جَمْرَة، قال أنس بن مالك: «إذا لم يتحفّظ معلم الأولاد على ماء الألواح، ولم يسأل أين يطرحونه فلينظر على أي دين يموتُ، دين اليهود أو دين النصارى، قيل له: كيف كانوا يفعلون يا أنس؟ قال: كان المؤدِّب في زمن أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، يجعل إناءً كبيراً مُعَدّاً لمحو الألواح، فيأتي كلَّ يوم صبيٌّ من أولئك بماء، ثم يُجعل الماء في حفرة..» فأرخ وجود المكتب زمن أبي بكر. [التراتيب ٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥].

(ي) سِنُّ التعليم:

لم يذكروا سناً محددة لبدء تعليم الأولاد في صدر الإسلام: وتتراوح السن التي يعلمون فيها الطفل بين الخامسة والسابعة. وأخذوا من ترجمة عمرو بن سَلِمة، أنهم ربما كانوا يبتدئون بتعليم الأطفال وهم في سنّ الخامسة أو دون ذلك، لأن عمرو بن سلمة كان يؤمُّ قومه وهو ابن ست أو سبع أو ثمان، في عهد رسول الله ﷺ لأنه كان أكثرهم قرآناً. وربما كان سن السابعة هو الأعمّ لأن رسول الله قال: مروهم بالصلاة لسبع.. ونُقِل أن الإمام مالك كره أن يعجّل

بتعليم الطفل القرآن، وأنكر لما قيل له عن طفل جمع القرآن ابن سبع سنين ونحوها. قالوا: إنه كره ذلك خشية أن ينطق بالقرآن على خلاف ما ينبغي له من إقامة الحروف وإخراجها من مخارجها، أو أنَّ في إعجاله منعاً من الذي ينبغي أن يُفسح له فيه من اللهو المقيم لبنية الأطفال المروّح لأنفسهم، ولأن حفظ القرآن في سن السابعة لا يكون إلا مع الحمل عليه في التأديب والتعليم وهو صغير جداً، مع أن الرفق به واجب في هذه السنّ. . .

ولا يمنع هذا من وجود مواهب وقدرات خِلْقية متفوقة تظهر في سنٍّ مبكرة، يستطيع الطفل معها أن يستوعب النصوص دون إرهاق. فقد روي أن الإمام الشافعي حفظ الموطأ وهو ابن خمس، وأن سفيان بن عُيينة حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين. ومَنْ خالط أهل صحراء شنقيط لم يستغرب مثل هذا كل الاستغراب.

أما حِفْظ القدماء في كبرهم، فله نماذج كثيرة، ومن أشهر الصحابة في الحفظ أبو هريرة، وعبد الله بن عباس، ومن التابعين محمد بن شهاب الزهري.

(ك) الترويح عن النفس أثناء طلب العلم:

فقد روي عن أبـي الدرداء قال: إني لأستجمُّ نفسي بالباطل كراهية أن أحمل عليها من الحق ما يملها. وروي عن أبـي بن كعب قوله: إني لأستجمُّ ببعض الباطل ليكون أنشط للحق.. والمراد بالباطل: نوع من اللهو المباح.

وكان ابن عباس إذا جلس مع أصحابه حدثهم ساعة وقال: حمضونا فيأخذ في أحاديث العرب ثم يعود، فيفْعل ذلك مراراً. ومعنى حمضونا: أي: هاتوا الفاكهة، وهاتوا من أشعاركم فإن النفس تملّ كما تملّ الأبدان. يعني إذا مللتم من الحديث والفقه فخذوا في الأشعار وأخبار العرب، كما أنَّ الإبل إذا ملّت ما حلا من النبت رعت الحمض.

ثالثاً ــ التدرج التاريخي في الحركة العلمية:

١ ــ دعت أول سورة نزلت في مكة إلى طلب العلم ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾.

٢ ــ أخذ المسلمون في مكة يتدارسون القرآن وهم قلة قليلة مستضعفون في وسط الأعداء بل وفي وسط التعذيب كانوا يتعلمون ويعلمون القرآن، ويكتبه الكاتبون في صحف، ففي قصة إسلام عمر بن الخطاب أنه عمد إلى أُخته وخَتَنه، وعندهما خبّاب بن الأرتّ معه صحيفة فيها «طه» يقرئهما إياها. [السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٤٤].

٣ ــ على رأس السنة العاشرة من البعثة، دخل الإسلام المدينة، وكان رافعُ بن مالك الأنصاري من أوائل مَنْ أسلم من أهل المدينة، ونقل ابن حجر في الإصابة أنَّ رافعاً لما لقي النبيّ ﷺ بالعقبة، أعطاه ما أُنْزل إليه في عشر السنين التي خلت، فقدم به رافع إلى المدينة ثم جمع قومه فقرأ عليه في موضعه. وقولهم في الرواية: «أعطاه ما أُنزل إليه» لم يذكروا كيفيّة الإعطاء، ولكننا نقدر أن يكون ذلك مكتوباً، لكثرة القرآن المكي.. ولأن الرواية تقول: ثم جمع قومه فقرأ عليه في موضعه. فلعلها قراءَة من الصحف.

٤ ــ وبعد العقبة الأولى: كتبت الأوس والخزرج إلى رسول الله: «ابعث إلينا مقرئاً يُقرئنا القرآن». فبعث إليهم مصعب بن عُمير، فنزل على أسعد بن زرارة، فكان يقرئهم القرآن، وكانت يجمّعُ بهم.

٥ ــ بعد الهجرة: حثَّ القرآن والسنة على طلب العلم، وتبليغه، فقال تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافةً فلولا نفر من كلِّ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، لعلهم يحذرون﴾ [التوبة: ١٢٢]. وسبب نزول الآية، أن رسول الله كان إذا بَعَث بعثاً بعد غزوة تبوك، وبعدما أُنزل في المتخلفين من الآيات الشداد، اسْتَبَقَ المؤمنون كافةً إلى

النفير، وانقطعوا جميعاً عن استماع الوحي والتفقه في الدين، فأُمروا أنْ ينفر من كل فرقةٍ منهم طائفة إلى الجهاد، ويبقى أعقابهم يتفاقهون حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأن الجدال بالحجة أعظم أثراً من الجلاد بالسيف. وقوله: ليتفقهوا: الضمير فيه للفرق الباقية بعد الطوائف النافرة من بينهم. وقوله: ولينذروا قومهم: أي: ولينذر الفرقُ الباقيةُ قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم، بما حصّلوا في أيام غيبتهم من العلوم. [الكشاف سورة التوبة].

وقال ﷺ: «مَنْ سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة» [رواه أحمد ٢/ ٢٥٢].

وقال ﷺ: «مَنْ سئل عن علمٍ ثم كتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار».

٦ ـ يظهر من نصوص الأحاديث أن الرسول عليه الصلاة والسلام حثَّ الصحابة على تعليم إخوانهم مجاناً، وألا يقبلوا على التعليم هديّة، لما روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: «علّمتُ ناساً من أهل الصُّفَّةَ الكتابة والقرآن، فأهدى إليَّ رجل منهم قوساً، فقلتُ: ليستْ لي بمالٍ، وأرمي عنها في سبيل الله، فسألتُ النبيّ ﷺ فقال: إنْ سرّك أن تُطوّق بها طوقاً من نار فاقبلها». وروى البيهقي في السنن الكبرى [٦/ ١٢٦]: عن أُبـيّ بن كعب، أنه كان يقوم بتعليم القرآن، فأهدى إليه رجلٌ من طلابه قوساً، فقال له رسول الله ﷺ: «إنْ أخذتها فخذ بها قوساً من نار».

لكن البخاريَّ عقد باباً في كتاب «الإجارة» بعنوان «ما يُعْطى في الرُّقْيَة بفاتحة الكتاب» ونقل فيه قول النبيّ ﷺ «أحقُ ما أخذتم عليه أجراً كتابُ الله» وقول الشعبي: «لا يشترطُ المعلمُ إلا أن يُعطى شيئاً فليقبله» وقال الحكم: «لم أسمع أحداً كره أجر المعلم» وأعطى الحسنُ دراهم عشرة. . .

وقد استدل الجمهور بالحديث النبوي في جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن. وخالف الحنفية فمنعوه في التعليم، وأجازوه في الرُّقَى كالدواء، قالوا:

لأن تعليم القرآن عبادة، والأجر فيه على الله. قال ابن حجر: وادعى بعضهم نسخه بالأحاديث الواردة في الوعيد على أخذ الأجرة على تعليم القرآن، وقد رواها أبو داود وغيره، قال: وتعقب، بأنه إثبات للنسخ بالاحتمال وهو مردود، فإن الأحاديث ليس فيها تصريح بالمنع على الإطلاق، بل هي وقائع أحوال محتملة للتأويل لتوافق الأحاديث الصحيحة، كحديث الباب.

ولكننا عندما نستنطق سياق النصوص، الأحكام التاريخية، فإننا نجد أن التعليم مرّ بمرحلتين:

المرحلة الأولى: في العهد النبوي: ولم يكن أحدٌ يأخذ الأجرة على التعليم بعامة، وتعليم القرآن والفقه بخاصة، حيث لم يتفرغ أحد للتعليم. والمرحلة الثانية: أخذ المعلمون الأجرة أو الهدية، لتفرغهم لهذا العمل.. وليس عندنا دليل على زمن بداية هذه المرحلة، ولكن يظهر أنها بدأت قليلة ثم انتشرت... وقد أخذنا هذا التقسيم التاريخي من النصوص التالية:

أولاً: الحديث النبويّ «أحقُّ ما أخذتم عليه أجراً كتابُ الله».

جزءٌ من حديث طويل في كتاب «الطب» جاء في سياق أَخْذ بعض الصحابة الأُجرة على الرُّقْية بالقرآن، وهو يشبه أخذ الأجرة على الدواء.

ثانياً: قوله: وأعطى الحسنُ دراهم عشرة.. وسياق الخبر كما نقله ابن حجر في الفتح [٤/٤٥٤] عن يحيى بن سعيد بن أبي الحسن ـ والحسن البصريّ عمه ـ قال: لما حذقتُ ـ أي العلم ـ قلتُ لعمي ـ الحسن البصري ـ يا عمّاه، إن المعلم يريد شيئاً قال: ما كانوا يأخذون شيئاً، ثم قال: أعطه خمسة دراهم، فلم أزل به حتى قال: أعطه عشرة دراهم. ويدل الخبر على أن المعلمين لم يكونوا يأخذون أجراً يوم تعلّم الحسن البصري. وقد كانت بداية الحسن البصري في المدينة النبوية وفيها نشأ وأخذ عن الصحابة.

ثالثاً: نقل ابن حجر عن عبد الرزاق، أخبر معمر عن قتادة: أحدث الناسُ

ثلاثة أشياء لم يكن يؤخذ عليهن أجر: ضراب الفحل، وقسْمة الأموال، والتعليم. قال ابن حجر: وهو يُشعر بأنهم كانوا قبل ذلك يتبرعون بها فلما فشا الشحّ طلبوا الأجرة، فعدّ ذلك من غير مكارم الأخلاق، فتُحمل كراهة مَنْ كرهها على التنزيه.

٧ ــ بناء المسجد النبوي منذ بداية الهجرة: وكان المسجد مدرسة للعلم: حلقات للدرس ــ حول رسول الله، وتدارس الصحابة ــ خطبة الجمعة والعيدين.. المناسبات الطارئة...

٨ ــ نأخذ من الروايات اتخاذ دار لقراءَة القرآن، لما نقل ابن عبد البر في «الاستيعاب» في ترجمة عبد الله بن أُم مكتوم، أنه قدم المدينة مع مصعب بن عمير بعد بدر بيسير، فنزل دار القُرّاء، وهي دار مخرمة بن نوفل. قال الكتاني: ويستخرج منه اتخاذ المدارس.

وكلّف رسولُ الله أصحابه القادرين على التعليم، أن يعلموا الناس، ففي ترجمة عبد الله بن سعيد بن العاصي، أن رسول الله أمره أن يعلم الناس الكتابة بالمدينة، وكان كاتباً محسناً. وسبق أن روينا أن عبادة بن الصامت علم ناساً من أهل الصُّفَّة الكتابة والقرآن.

وفي الاستيعاب والإصابة، أنَّ الشفاء أُمَّ سليمان قال لها رسول الله ﷺ علمي حفصة رُقْية النملة[١] كما علمتها الكتابة.

وترجم في «الإصابة» لوردان، جد الفرات بن يزيد بن وردان فذكر عن الواقدي أن النبيّ ﷺ أسلمه إلى أبان بن سعيد بن العاصي ليمونه ويعلمه القرآن.

---

(١) النملة: قروح تخرج في الجنب. قال ابن الأثير: ورقية النملة: شيءٌ كانت تستعمله النساء يعلم كلُّ مَنْ سمعه أنه كلام لا يضرُّ ولا ينفع، ورقية النملة التي كانت تعرف بينهن أن يقال: العروس تحتفل وتختضب وتكتحل، وكلّ شيء تفتعل، غير أن لا تعصي الرجل.. وروايات قصة الشفاء، مبسوطة في ترجمتها من الإصابة، قسم النساء.

وأخرج ابن عساكر عن أبـي ثعلبة الخشني قال: «لقيت رسول الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله، ادفعني إلى رجل حسن التعليم، فدفعني إلى أبـي عُبيدة بن الجراح، ثم قال: دفعتك إلى رجل يُحسن تعليمك وأدبك».

٩ ــ وأعلن الرسول عليه الصلاة والسلام حرباً عامة على الجهل، فأمر الناس أن يتعلموا الفقه والقرآن من جيرانهم، فقد ترجم في «الإصابة» لأبزا الخزاعي، فخرّج عنه أن رسول الله خطب الناس فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً ثم قال: «ما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون». وساق الحديث مطولاً الهيثمي في مجمع الزوائد تحت باب «تعليم مَنْ لا يُعَلَّم».

١٠ ــ وكان النبـيّ ﷺ، يوزع الوفود التي تفد إلى المدينة على دور الأنصـار ليقـومـوا بضيـافتهـم وتعليمهـم. لمـا روى الإمـام أحمـد [٤/٢٠٦] أن رسول الله قال: «يا معشر الأنصار، أكرموا إخوانكم ــ وَفْد عبد القيس من هجر بالمنطقة الشرقية من السعودية ــ فإنهم أشباهكم في الإسلام.. أسلموا طائعين غير مكرهين.. وسأل رسول الله وَفْد عبد القيس: كيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم وضيافتهم إياكم، قالوا: خيرُ إخوان، ألانُوا فرشنا وأطابوا مطعمنا وباتوا وأصبحوا يعلموننا كتاب الله وسنة نبينا، فأُعجب النبـيّ ﷺ وفرح بها، وقال الراوي وهو أحد الوفد: ثم أقبل علينا رجلاً رجلاً يعرضنا على ما تعلمنا، وعُلّمنـا، فمنـا مَـنْ تعلّـم التحيـات وأمّ الكتـاب والسـورة والسـورتيـن، والسُّنَّـة والسُّنتين.. الحديث».

١١ ــ استبحر العلمُ في المدينة، وكَثُرَ حَفَظَةُ العلم، والفقهاءُ، والقُرّاء، وأصبح في قدرة أهل المدينة أن يمدوا إخوانهم في الأقاليم الأخرى بالمعلمين، ولم يتأخر هذا الاستبحار، فقد روى ابن هشام قال: قدم على رسول الله بَعْدَ أُحد ــ في سنة ثلاث ــ رهط من عَضَل والقارة، فقالوا: يا رسول الله، إنَّ فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ نفراً ستة وقيل بعث عشرة. ومنهم عاصم بن

ثابت، حميّ الدبر، وخُبيب بن عديّ.. وكانت لهم قصة مشهورة [ابن هشام مجلد ٢/ ١٦٩].

وفي صفر سنة أربع، قدم أبو براء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنّة على رسول الله، فعرض عليه الإسلام، فلم يُسلم، ولم يَبْعُدْ، وقال: يا محمد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، رجوتُ أن يستجيبوا لك، وأنا جار لهم فبعث رسول الله سبعين من الأنصار، كانوا يُسَمون القُرّاء ــ وكان هؤلاء يحتطبون بالنهار ويشترون به الطعام لأهل الصُّفَّة ويتدارسون القرآن بالليل ويتعلمون.. فكان لهم ما كان في قصة بئر معونة. [البخاري ــ المغازي والفتح ٧/ ٣٨٦].

ومن المعلمين الذين أرسلهم رسول الله ﷺ، معاذ بن جبل، أرسله قاضياً على الجند[1] من اليمن، يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام.. ومنهم: عمرو بن حزم الخزرجي، استعمله رسول الله على نجران ليفقههم في الدين ويعلمهم القرآن، وكتب له كتاباً في الفرائض والسنن والصدقات والديات. [الاستيعاب].

١٢ ــ أَهْلُ الصُّفَّة: تُمَثِّلُ الصُّفَّةُ مرحلةً تاريخية من مراحل العِلْم في صدر الإسلام، ولذلك أفردتها بهذه الفقرة، ولعلها تُعدُّ أول مدرسة علمية وتربوية واجتماعية في العهد الإسلامي، وسوف أتحدث عنها من النواحي التالية:

(أ) **الاسم والصفة والهدف**: قال ابن منظور: وصُفَّةُ الدار، واحدة الصُّفَف، وقال الليث: الصُّفَّة من البنيان شبه البهو الواسع الطويل السَّمْك. وفي الحديث ذكر أهل الصُّفَّة، قال: هم فقراء المهاجرين ومَنْ لم يكن له منهم منزل يسكنه، فكانوا إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه.

---

(١) الجَنَد: بفتحتين، اسم مكان. وجاء في معجم البلاد العربية السعودية: الجند: بدون ضبط قرية لبني رزق في العرضية الجنوبية في إمارة مكة المكرمة. ولم يذكره عاتق البلادي في «معجم معالم الحجاز» هل تمتد إمارة مكة اليوم إلى ما كان يشمله اسم اليمن في القديم؟.

وقال عياض: الصُّفَّةُ: بضم الصاد وتشديد الفاء، ظُلَّة في مؤخر مسجد رسول الله يأوي إليها المساكين، وإليها تُنسب أهلُ الصُّفَّة.

وقال الحافظ ابن حجر: الصُّفَّةُ مكان في آخر المسجد النبوي، فَضْلٌ أُعدَّ لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل، وكانوا يكثرون فيه ويقلون بحسب مَنْ يتزوج منهم أو يسافر.

وقال السيوطي: «الصُّفَّة: بصاد وفاء: محلٌّ وراء الحجرة النبوية، مظلل معدٌّ لنزول الغرباء فيه، ممن لا مأوى له ولا أهل، في مؤخر المسجد إلا أنه يحسب الآن في مؤخرهما معاً، محاذياً للحجرة، فالكل داخل فيه في وقتنا».

(ب) **الهدف**: قال ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»: أهل الصُّفة كانوا فقراء يقدمون على رسول الله وما لهم أهل ولا مال فبنيت لهم صُفَّة في مسجد رسول الله ﷺ، وقيل: أهل الصُّفَّة.

(جـ) **النفقة**: أخرج أبو نُعَيم في «الحلية» من طريق أبـي هريرة قال: كنتُ من أهل الصُّفَّة، وكنا إذا أمسينا، حضرنا رسول الله ﷺ فيأمر كلَّ رجل فينصرف برجلين أو أكثر، فيبقى مَنْ بقي عشرة أو أكثر أو أقل، فيؤتى النبـيّ ﷺ بعشائه فيتعشى معهم، فإذا فرغنا قال: ناموا في المسجد.

وكان سعد بن عبادة يرجع كلَّ ليلةٍ إلى أهله بثمانين من أهل الصُّفَّة يعشيهم وأمر رسول الله ﷺ من كل حائط «بستان» بقنوٍ يُعلق في المسجد للمساكين، وكان عليها معاذ بن جبل، لحفظها وقسمتها.

وروى البخاري عن عبد الرحمن بن أبـي بكر «أن أصحاب الصُّفَّة كانوا أُناساً فقراء وأن النبـيّ ﷺ قال: مَنْ كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث.. الحديث» [في الفتح ٢/ ٧٥].

(د) **الزمن**: في صحيح مسلم عن أنس قال: «جاءَ ناس إلى النبـيّ ﷺ، فسألوه أن يبعث معهم رجالاً يعلمونهم القرآن والسنة، فبعث معهم سبعين رجلاً

من الأنصار يقال لهم: القُرّاء، منهم خالي حرام، يقرؤون القرآن ويتدارسونه وبالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصُّفَّة الفقراء..».

ويدل هذا الخبر على أن وجود الصُّفَّة، كان منذ بداية الهجرة النبوية وبناء المسجد، لأن هؤلاء القُرّاء الذين كان يشترون بثمن الحطب طعاماً لأهل الصُّفة، استشهدوا في حادثة بئر معونة في السنة الرابعة من الهجرة.

ويظهر أن أمر الصُّفَّة قد انتهى مع بداية العهد الراشدي، لأن ابن الجوزي قال: «هؤلاء القوم إنما قعدوا في المسجد ضرورة، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة، فلما فتح اللهُ على المسلمين، استغنوا عن تلك الحال وخرجوا». وربما خرجوا مع الفاتحين، ففتح الله لهم أبواب الرزق.

(هـ) عددهم: نقل ابن حجر عن واثلة بن الأسقع قال: «كُنّا في الصُّفَّة وهم عشرون رجلاً فأصابنا جوع، وكنت من أحدث أصحابي سناً، فبعثوا بي إلى النبيّ ﷺ أشكو جوعهم».

وروى البخاري عن أبي هريرة [ك الصلاة ب ٥٨] قال: «رأيتُ سبعين من أهل الصُّفَّة ما منهم رجل عليه رداء..».

وعدّهم أبو نُعيم في «الحلية» فزادوا على مئة.. وقال ابن تيمية: جملة مَنْ آوى إلى أهل الصُّفَّة مع تفرقهم، قيل: أربعمائة وقيل: أكثر والظاهر أنهم لم يثبت لهم عددٌ في زمنٍ، فكانوا يكثرون يوماً، ويقلون يوماً: فمنهم مَنْ كان يقيم أياماً ثم يرجع إلى قبيلته، ومنهم مَنْ يتزوج فينفرد، في بيت، ومنهم مَنْ يستشهد.

(و) **وظيفة أهل الصُّفَّة**: قال تعالى: ﴿للفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض. يحسبهم الجاهلُ أغنياءَ من التعفف، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً﴾.. الآية [البقرة: ٢٧٣].

والمعنى: اجعلوا ما تنفقون للفقراء الذين أحصرهم الجهاد، لا يستطيعون ضرباً في الأرض، للكسب لاشتغالهم بالجهاد.

قال الزمخشري: قيل: هم أصحاب الصُّفَّة، وهم نحو أربعمائة رجل من مهاجري قريش لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، فكانوا في صُفَّة المسجد، وهي سقيفة، يتعلمون القرآن بالليل ويرضخون النوى بالنهار، وكانوا يخرجون من كل سرية بعثها رسول الله، فمن كان عنده فضل أتاهم به إذا أمسىٰ. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وقف رسول الله ﷺ يوماً على أصحاب الصُّفَّة، فرأى جهدهم وطيب قلوبهم فقال: «أبشروا يا أصحاب الصُّفَّة، فمن بقي من أمتي على النعت الذي أنتم عليه راضياً بما فيه، فإنه من رفقائي في الجنة».

(ز) تلخيص ومناقشة:

أولاً: الصُّفَّة مكان مسقوف في مؤخرة المسجد، أُعِدَّ للغرباء الفقراء الذين يفدون إلى المدينة لإعلان إسلامهم، والتزود من أحكام الإسلام. وهم من العُزّاب الذين لا أهل ــ زوجة ــ لهم.

ثانياً: كانوا يكثرون ويقلّون بحسب تبدّل الأحوال التي تحيط بأهل الصَّفة من عودة لأهل، أو زواج، أو يُسْر بعد عُسْر، أو شهادة في سبيل الله.

ثالثاً: لم يكن فقرهم لقعودهم عن العمل وكسب الرزق، فقد ذكر الزمخشري أنهم كانوا يرضخون النوى بالنهار، ويظهر أنهم كانوا يرضخون النوى ــ يكسرونه ــ لعلف الماشية، وهم ليسوا أهل ماشية، فهم إذن يعملون لكسب الرزق. وربما جاء فقرهم من نواح:

١ ــ أنهم كانوا مرابطين في سبيل الله، يخرجون للجهاد مع كل سرية أو غزوة لأن رواية الزمخشري تقول: «وكانوا يخرجون من كل سرية بعثها رسول الله» وإذا خرجوا من كل سرية، فإنهم يخرجون في الغزوات أيضاً وكان مجموع الغزوات والسرايا أربعاً وسبعين غزوة وسرية في مدة عشر سنوات من

الحياة النبوية، وإذا قسّمنا ٧٤ ÷ ١٠ = ٧,٤ يكون في كل عام حوالي سبع غزوات وسرايا، ولا يمضي شهران دون غزوة أو سريّة، وفي هذه الحال لا يجد أحدهم وقتاً للضرب في الأرض وكسب الرزق.

٢ ــ مَنْ قدم منهم لإعلان إسلامه، والتزود من القرآن والسنة، فإنه يجعل شغله الشاغل ملازمة مسجد رسول الله، لينال حظاً أوفر من العلم، فهو كطالب العلم المنقطع إلى طلب العلم، يعيش على الكفاف من أجل ذلك. ولهذا يمكن أن نعدَّ الصُّفَّة مدرسة شُغِل أهلها بطلب العلم.

٣ ــ قصر المدة التي يمضيها أحدهم في المدينة، لا تتيح له الضرب في الأرض للكسب.

رابعاً: نرجح أن أهل الصفة كانوا ينتمون إلى قبائل بعيدة عن المدينة، وليسوا من الأنصار، أو من المهاجرين.

أما كونهم ليسوا من الأنصار، لأن الأنصار كانوا أهل المدينة، ولكل بيته وعمله، وهم ليسوا من المهاجرين؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام آخى بين المهاجرين والأنصار، ومن حقوق المؤاخاة أن يكفل الأنصاري للمهاجر أقلّ قدرٍ من القوت. أما قول ابن حجر: إن السبعين الذين أرسلهم رسول الله في غزوة بئر معونة كانوا من أهل الصُّفَّة، ففيه نظر؛ لأن رواية الإمام مسلم عن أنس بن مالك، تقول إنهم من الأنصار، وأنهم كانوا يحتطبون في النهار لبيع الحطب والإنفاق على أهل الصُّفَّة فكيف يكونون من أهل الصُّفَّة، ويحتطبون للإنفاق على أهل الصُّفَّة فهم إذن ينفقون على أنفسهم، ومعنى هذا أن أهل الصفّة كانوا يعملون ليسدوا حاجتهم من الطعام، وليسوا قاعدين عن العمل لأن الزمخشري يقول: إنهم كانوا يرضخون النوى بالنهار، ولكن يبدو أن عملهم لم يكن يسدّ كل حاجتهم.

خامساً: وبناءً على ما سبق من النتائج: أن أهل الصفة مجاهدون

مرابطون، أو طلاب علم متفرغون، ويعملون ولكن عملهم لا يسدُّ حاجتهم ننكر على مَنْ قال: إن أهل الصُّفَّة لم يشتغلوا بغير الذكر والفكر والقعود في المسجد وكان القُرّاء يطعمونهم وأن تَرْك العمل لطلب الرزق طريقة أقرّها النبيّ ﷺ، وأنه أمرهم بالتوكّل.. [التراتيب الإدارية ١/٤٧٨] لأن قولهم هذا يناقض ما جاء في الأحاديث الصحيحة:

فقد روى البخاري في كتاب البيوع باب «كَسْب الرجل وعمله بيده»: عن عائشة رضي الله عنها «كان أصحاب رسول الله ﷺ عُمّال أنفسهم، فكان يكونُ لهم أرواحٌ، فقيل لهم: لو اغتسلتم».

وقال ﷺ: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيَّ الله داود، كان يأكل من عمل يده».

وقال رسول الله ﷺ: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه..».

وانظر باب «الاستعفاف عن المسألة» في كتاب الزكاة...

نَعَمْ، يمكن القول إن بعض الصحابة زهدوا في الدنيا، بمعنى أنهم لم يحصلوا من الرزق أكثر من حاجتهم.. أما الكثرة الكاثرة فإنهم كانوا يعملون ويربحون ولكنهم كانوا خُزّاناً لله تعالى. ويكفي دليلاً على عمل المهاجرين والأنصار قول أبي هريرة: إن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن الأنصار كانوا يعملون في حوائطهم «البساتين». وكان كبار الصحابة وفقهاؤهم ومقدموهم يعملون. وارجع إلى تراجم أبي بكر وعمر وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وطلحة، وسعيد بن زيد، وأبي هريرة، فبعد العهد النبوي أحيا أرضاً وزرعها.. [انظر: التراتيب الإدارية ٢/القسم التاسع].

• • •

— ٤ —

الثمرة العلمية للتوجيهات القرآنية والسُّنَّة النبويّة

١ ـ أقبل المسلمون على العلم، تَعَلُّماً، وتعليماً، إقبالاً شديداً، وحرص كل فرد على أن يُلمَّ بطرفٍ من الثقافة الإسلامية الضرورية لحياة المسلم.

٢ ـ سجلت الأخبار وجود مدارس للقراءَة والكتابة: فهناك «الصُّفَّة» التي كانت مدرسة يتعلم فيها القادمون إلى المدينة [في مسند أحمد ٥/ ٣١٥] أن عبادة بن الصامت علّم ناساً من أهل الصفة الكتابة والقرآن. وفي الطبقات [٤/ ١ ـ ١٥٠] أن عبد الله بن أم مكتوم قدم المدينة مهاجراً فنزل بدار القُرّاء.

وفي مسند الإمام أحمد [١/ ٣٨٩] قال ابن مسعود: «قرأتُ منْ في رسول الله سبعين سورة وزيد بن ثابت له ذؤابة في الكُتّاب». لعلّه الكتاب الذي كان معلموه من أسرى بَدْرٍ، واستمر بَعْد انتهاء مهمة الأسرى.

٣ ـ انتشرت الكتابة، والكُتَّاب، حتى عدّوا من كُتَّاب الرسول عليه الصلاة والسلام خمسين كاتباً في شؤون متفرقة. ومما يدلُّ على كثرة الكُتّاب، الأحاديث التي تبيح الكتابة، كتاب الحديث النبوي، والأحاديث التي تمنع كتابة الحديث النبوي، ولولا كثرة الكُتَّاب، ما وجد الأمر والنهي.

٤ ـ في السنة الرابعة من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ، سبعين من الأنصار، يقال لهم القُرّاء.. إلى قوم ليعلموهم، فكانت لهم قصة بئر معونة.

وتخرّج في المدرسة النبويّة معلمون دعاة أَكْفاء، كان يرسلهم رسول الله ﷺ إلى الجهات التي يدخلها الإسلام، مثل معاذ بن جبل وعمرو بن حزم، وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم.. وبعد وفاة النبـيّ ﷺ، استشهد نحو سبعين صحابياً في حرب الردّة من القرّاء.

٥ ــ وبلغ من استبحار علم الصحابة في الزمن النبوي، أنهم كانوا يفتون فـي زمـن النبـيّ ﷺ [التـراتيـب الإداريـة ٥٦/١]. وممـا يـدل علـى سعـة علـم الصحابة، أنهم كانوا في بداية الفتوحات في عهدي أبـي بكر وعمر، يفتحون الإقليم، ويقيمون فيه أحكام الإسلام، مما حفظوه من ملازمتهم رسول الله ﷺ، بل أُقيمت بهم مدارس التابعين في كل مصر فتحوه، كما حصل في العراق، والشام.

● ● ●

ـ ٥ ـ

أصول العلوم في العهد النبويّ، وعصر الصحابة حتى أواخر العقد الثامن من القرن الأول

وأقصد بأصول العلوم، بدايات العلوم التي استبحرت وتوسعت في القرن الثاني.. وأريد أن أثبت أن العلوم التي ظهرت بعد القرن الأول لم تكن علوماً مخترعة وإنما كانت أصولها متداولة في القرن الأول:

١ ـ القرآن وعلومه:

جاء في صحيح مسلم؛ عن أبـي هريرة قال رسول الله ﷺ: ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتعلمون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة.. الحديث. قال القاري في شرح المشكاة: التدارس قراءة بعضهم على بعض تصحيحاً لألفاظه أو كشفاً لمعانيه. قال الكتاني: ويمكن أن يكون المراد بالتدارس، المدارسة المتعارفة بأن يقرأ بعضهم عُشْراً، وبعضهم عُشْراً آخر، وهكذا، فيكون أخصَّ من التلاوة والأظهر أنه شامل لجميع ما يُناط بالقرآن من التعلّم والعلم. وذكر السيوطي في «الإتقان» أَنَّ النبـيّ عليه الصلاة والسلام. بيّن لأصحابه جميع تفسير القرآن أو غالبه، ويؤيد هذا ما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن عمر: قال: مِنْ آخرِ ما نزل آيةُ الرِّبا، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسّرها. فدلّ فحوى الكلام على أنه كان عليه السلام يفسر لهم كل ما نزل، وأنه إنما لم يفسر لهم هذه الآية لسرعة موته بعد نزولها. وإلا لم يكن

لتخصيصها وجه. وأما ما أخرجه البزار عن عائشة قالت: ما كان رسول الله يُفسر شيئاً من القرآن إلا آياتٍ بعد أنْ علمه إياهنَّ جبريل.. فهو حديث مُنكر، كما قال الحافظ ابن كثير وأوّله ابن جرير على أنها إشارات إلى آيات مشكلات أشكلن عليه، فسأله الله عنهن، فأنزل إليه على لسان جبريل.

والظاهر أيضاً: أن المقصود بالتفسير، هو ما قد يشكل على بعض الصحابة، وبخاصة الصحابة الذين تقلُّ ملازمتهم رسول الله ﷺ، ثم إنَّ الناس يتفاوتون في الفهْم، فلعل بعض الصحابة كان يشكل عليه فهم بعض الآيات، فيفسرها رسول الله ﷺ.

.. ومهما كان المعنى، فإن المشهور أن الصحابة كانوا يتدبرون القرآن، ويتعلمون ما فيه من الأحكام، لما روى مالك في [الموطأ ١/ ١٦٢]، أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها. قال السيوطي في «تنوير الحوالك» قال الباجي: ليس ذلك لبطء حفظه ـ معاذ الله ـ بل لأنه كان يتعلم فرائضها وأحكامها وما يتعلق بها. ونقل السيوطي قال: وأخرج الخطيب في رواية مالك عن ابن عمر، قال: تعلَّم عمرُ البقرة في اثني عشرة سنة فلما ختمها نحر جزوراً.

ونقل الكتاني أن من البدع، اقتصار الناس على حفظ حروف القرآن دون التفقه فيه. وفي جامع البيان والتحصيل لأبي الوليد بن رُشْد أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر، أنه حفظ القرآن في البصرة في هذه السنة خَلْقٌ كثير، فكتب له أن يفرض لهم، ثم كتب له في السنة بعدها أنَّه قد حفظ القرآن أضعاف ذلك، فقال له: اتركهم، فإني أخشى أن يشتغل الناسُ بحفظ القرآن ويتركوا التفقه فيه.

وفي شرح المُلاّ علي القاري على مسند أبي حنيفة: كان مَنْ يقرأ القرآن في الصدر الأول عالماً بالسُّنَّة والفقه المتعلق بالصلاة ونحوها ولذا ورد «يؤمُّهم أقرؤهم»...

ويمكنُ أن نعدَّ من علوم القرآن التي اشتغل بها المسلمون في الزمن النبويّ، وعصر الصحابة: كتابة المصاحف، والأدلة على ذلك كثيرة؛ نعرضها فيما يلي:

بوّب البخاري في كتاب «الجهاد» باب: كراهية السفر بالمصاحف إلى أرض العدوّ وروى عن عبد الله بن عمر «أن رسول الله ﷺ نَهى أن يُسَافَر بالقرآن إلى أرض العدوّ». وقال البخاري: «وقد سافر النبـيّ ﷺ وأصحابه في أرض العدوّ وهم يَعْلَمون القرآن».. أشار بذلك إلى أنَّ المراد بالنهي عن السفر بالقرآن، السفر بالمصحف، خشية أن يناله العدوّ، لا السفر بالقرآن نفسه. وفي لفظ لإسحق بن راهويه؛ في مسنده «كره رسولُ الله ﷺ أن يُسافرَ بالقرآن إلى أرض العدوّ، مخافة أنْ يناله العدوّ». وخرجه الإمام أحمد بلفظ «نهى أن يُسافر بالمصحف إلى أرض العدوّ» [عن فتح الباري ٦/ ١٣٣].

قال الكتاني في [التراتيب ٢/ ٢٨٥]: «فلولا أن ما كان نزل من القرآن يُجمعُ في الصحف ونحوها ويتداوله الناسُ بالنسخ والمِلْك، ما صح ورود النهي المذكور» وأخرج أحمد، والطبراني والدارمي عن أبـي أُمامة قال: لما كان في حجـة الـوداع قـام رسـول الله ﷺ فقـال: «يـا أيهـا النـاسُ، خـذوا العلـم قبـل أن يُقْبض، وقبل أن يُرْفع من الأرض.. الحديث.. فسأله أعرابـيٌّ، يا نبـيَّ الله، يُرفَعُ منّا وبين أظهرنا المصاحف وقد تعلمنا ما فيها.. الحديث» [مسند أحمد ٥/ ٢٦٦].

والشاهد قوله: «وبين أَظْهُرِنا المصاحفُ» وكان ذلك عام الفتح.

وترجم ابن حجر في «الإصابة» لناجية الطفاوي، ونقل عن ابن منده أنه كان يكتب المصاحف. وأخرج الطبراني من طريق فروة بن حبيب قال: كان ناجية يكتبُ المصاحف. [الإصابة رقم ٨٦٤٦].

وترجم في «الإصابة» لنافع بن ظريب النوفلي، قال: «هو من مسلمة الفتح

وهو الذي كتب المصحف لعمر، وقال البلاذري: كتب المصاحف لعثمان وقيل: لعمر» [الإصابة رقم ٨٦٥٦].

ومما يدلُّ على الاشتغال بكتابة المصاحف في القرن الأول، أن ابن عباس سئل عن أُجرة كتابة المصاحف، فقال: لا بأس، إنما هم مصوّرون، وإنما يأكلون من عمل أيديهم. ومعنى قوله «مصورون» أي ينقشون صور الحروف فهم يبيعون صورة الحروف، وليس القرآن. ونقل الكتاني في [التراتيب ٢/ ٢٩٣] «بيعت المصاحفُ أيام عثمان فلم ينكروا ذلك».

وذكر المسعودي في «مروج الذهب» في عرض كلامه على واقعة صفين، قال: «ورفع من معسكر معاوية نحو خمسمائة مصحف» عندما أشار عمرو بن العاص برفع المصاحف، طلباً للتحكيم، وهذه المصاحف ليست كلّ المصاحف الموجودة إذّاك، مع أنه بين كتابة المصحف العثماني وواقعة صفين حوالي سبع سنين.. فانظر إلى هذا العدد الذي حضر في ذلك الجيش فكيف بغيره من مصاحف مَنْ لم يحضر. وقيل إنَّ عثمان رضي الله عنه حين أكمل كتابة المصحف، أمر بانتزاع ما عند الصحابة من المصاحف، فانتزعت إلا مصحف عبد الله بن مسعود، فهذا يدلُّ على أنه كانت مصاحف جُمعت قبْل مصحف عثمان، وإنما نسبوا ذلك له، لأنه المصحف الذي بعث نُسَخَه إلى الأمصار وابتهج المسلمون به في جميع الأقطار.

ونقل الرواةُ أنَّ المسلمين في الصدر الأول كانوا يجلّون المصاحف، فقد ذكر ابن رشد في «جامع البيان» صفة مصحف جدّ الإمام مالك المكتوب على عهد عثمان، عن عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك قال: وأخرج إلينا ـ أي مالك ـ مصحفاً لجدّه أبي عامر الأصبحي[1] المختلف في صحبته، فحدثنا أنه

---

(١) إنما هو جدُّ أنس والد مالك بن أنس، لأن نسب مالك: مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر. وأبو عامر: ذكره ابن حجر في القسم الثالث من الإصابة وقال: ذكره =

كُتب على عَهْد عثمان بن عفّان، فوجدنا حليته فضة وأغشيته من كسوة الكعبة وقال مالك: ما زدتُ فيه شيئاً. . .

ومنذ عصر التابعين وُجد في المدينة المشتغلون بكتابة المصاحف، حيث ترجم الذهبي في [تذكرة الحُفّاظ ١/ ٩٧] لعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، فقال: «كاتب المصاحف» والأعرج من علماء التابعين، سمع أبا هريرة وأبا سعيد الخدري وعبد الله بن بُحينة، وحدّث عنه الزهري، وكان ثقةً ثبتاً عالماً مُقرئاً.

واشتغلوا أيضاً بتعليم القرآن: وقد بدأ ذلك في العهد النبويّ: «حيث رُوي عن عبادة بن الصامت أنه، قال: كنتُ أُعلم إنساناً من أهل الصُّفَّة القرآن».

وفي مسند أحمد عن عائشة قالت: «ذُكِرَ رجل عند رسول الله ﷺ بخبر، فقال: أو لم تروه يتعلّم القرآن». . وكان ﷺ يشترط على وفود الأعراب بعد إسلامهم إقراء القرآن بينهم وتعليمهم أمر الدين وإقامة المؤذنين.

وثبت في الأخبار الصحيحة أن المكاتب أنشئت في المدينة في وقت مبكر لتعليم القرآن: فجاء في صحيح البخاري في كتاب «الديات» أن أم سلمة بعثت إلى معلم الكُتّاب أن ابعث إليّ غلماناً. وتوفيت أم سلمة في حدود سنة ستين. وترجم البخاري في «الأدب المفرد» باب «السلام على الصبيان» فأسند إلى ابن عمر أنه كان يسلم على الصبيان في المكتب. ونقل الكتاني في [التراتيب ٢/ ٢٩٤]: لما كثرت الفتوحات وأسلمت الأعاجم وأهل البوادي، وكثر الولدان، أمر عمرُ ببناء بيوت المكاتب ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم.

٢ ــ الحديث النبوي، أو السُّنَّة:

(أ) السُّنَّة: في اصطلاح المحدّثين. ما أُثر عن النبيّ ﷺ من قول،

= الذهبي في «التجريد» وقال: لم أر مَنْ ذكره في الصحابة، وقد كان في زمن النبيّ ﷺ لابنه مالك، رواية عن عثمان وغيره.

أو تقريرٍ، أو فعْلٍ، أو صفةٍ خَلْقية، أو خُلقية، أو سيرة، سواءٌ أكان قبل البعثة أم بعدها، وهي بهذا ترادف الحديث.

وفي اصطلاح الأصوليين: ما نُقِل عن النبيّ ﷺ من قولٍ أو فعْلٍ أو تقرير.

وقد تُطلق السُنَّة عند بعضهم على ما دلَّ عليه دليلٌ شرعي، سواءٌ أكان ذلك في الكتاب العزيز، أم عن النبيّ ﷺ، أم اجتهد فيه الصحابة كجمع المصحف، وحمل الناس على القراءَة بحرف واحد، وتدوين الدواوين، ويقابل ذلك البدعة، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بَعْدي»[1].

وفي اصطلاح الفقهاء: ما ثبت عن النبيّ ﷺ من غير افتراض ولا وجوب. وتقابل الواجب وغيره من الأحكام الخمسة.

ومردّ هذا الاختلاف في الاصطلاح، إلى اختلافهم في الأغراض التي يُعنى بها كلُّ فئة من أهل العلم. [السُّنَّة ومكانتها للسباعي ص ٤٨].

فعلماءُ الحديث بحثوا عن رسول الله ﷺ الإمام الهادي، الذي أخبر اللَّهُ عنه أنه أُسوةٌ لنا وقدوة، فنقلوا كلَّ ما يتصل به من سيرة وخُلُق وشمائل وأخبار وأقوال وأفعال، سواءٌ أثبت ذلك حكماً شرعياً، أم لم يُثبت.

وعلماء الأصول، بحثوا عن رسول الله المشرّع، الذي يضع القواعد

(١) هذا قطعة من حديث رواه الإمام أحمد ١٢٦/٤، ولفظه «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك. ومن يعش منكم، فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعليكم بالطاعة وإنْ عبداً حبشياً، عضوا عليها بالنواجذ..» وقوله «الخلفاء الراشدين».. قد يدخل فيهم الخلفاء الأربعة وكلّ خليفة راشد بعدهم، نحو معاوية بن أبي سفيان، وعمر بن عبد العزيز وقوله «عضوا عليها..» هل يعود الضمير إلى السُّنَّة، أو يعود إلى الطاعة، لأنها الأقرب؟.

للمجتهدين من بَعْده، ويبيّن للناس دستور الحياة، فعُنوا بأقواله وأفعاله وتقريراته التي تثبتُ الأحكام وتقررها.

وعلماء الفقه: بحثوا عن رسول الله الذي لا تخرج أفعالهُ عن الدلالة على حكم شرعي، وهم يبحثون عن حكم الشرع على أفعال العباد، وُجُوباً أو حُرْمَةً أو إباحة...

(ب) وكان الصحابة في العهد النبويّ يستفيدون أحكام الشرع من القرآن الكـريم الذي يتلقونه عن الرسول عليه السلام. ولكنَّ كثيراً من آيات القرآن جاءَت مجملة غير مفصلة ـ كالأمر بالصلاة، أو مطلقة غير مقيّدة، كالأمر بالزكاة...

فكان لا بدَّ من الرجوع إلى رسول الله ﷺ لمعرفة الأحكام معرفة تفصيلية واضحة.. وكذلك كانت تقع لهم كثير من الحوادث التي لم ينصَّ عليها القرآن، فلا بدَّ من بيان حكمها عن طريقه عليه الصلاة والسلام وهو مبلغ عن ربّه وأدرى الخلق بمقاصد شريعة الله وحدودها ونهجها ومراميها.

وقد أخبر اللَّهُ في كتابه الكريم عن مُهمّة الرسول عليه الصلاة والسلام نحو القرآن، أنه مُبيّن وموضح لمراميه وآياته، حيث يقول الله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم﴾ [النحل: ٤٤]. كما بين القرآن أن من مهام الرسالة إيضاح الحقّ حين يختلف فيه الناس ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه﴾ [النحل: ٦٤]. وأوجب النزول على حكم الرسول في كل خلاف ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ [النساء: ٦٥].

وأخبر اللَّهُ أن النبـيَّ أوتي القرآن والحكمة ليعلم الناس أحكام دينهم فقال: ﴿لقد مَنَّ اللَّهُ على المؤمنين إذْ بعث فيهم رسولاً من أنفُسِهم يتلو عليهم آياته ويُزكِّيهم ويعلمهم الكتابَ والحكمة﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقد ذهب جمهور

العلماء والمحققين إلى أن الحكمة شيء آخر غير القرآن، وهي ما أطلعه عليه من أسرار دينه وأحكام شريعته، ويُعبّرُ العلماءُ عنها بالسُّنَّة.

وقد جزم الشافعي في [الرسالة ٧٨] أن الحكمة هي السُّنَّة، لأن الله عطفها على الكتاب، وذلك يقتضي المغايرة، ولا يصحُّ أن تكون شيئاً غير السُّنَّة لأنها في معرض المنّة من الله علينا، بتعليمنا إياها، ولا يمنُّ إلا بما هو حقٌّ وصواب، فتكون «الحكمة» واجبة الاتباع كالقرآن، ولم يوجب علينا إلا اتباع القرآن والرسول، فتعيّن أن تكون الحكمة هي ما صدر عن الرسول عليه السلام من أحكام وأقوال في معرض التشريع.

وإذا تقرّر أن «الحكمة» هي السُّنَّة النبوية، فإن رسول الله قد أُوتي القرآن وشيئاً آخَرَ مَعَهُ يجبُ اتّباعُه فيه، وقد صرَّح القرآنُ بذلك، حيث يقول الله في وصف الرسول ﷺ: ﴿يأمرُهم بالمعروف وينهاهمْ عن المنكر ويُحلُّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث﴾. الآية [الأعراف: ١٥٦]. واللفظ عامٌّ يشمل لما يُحلّه ويُحرّمه مما مصدره القرآنُ أو مصدره وَحْيٌ يُوحيه اللّهُ إليه.

وروى أبو داود أنَّ رسول الله قال «ألا إنّي أوتيتُ الكتابَ ومثْلَه مَعَه». ويدلُّ على ذلك أنَّ الله أوجبَ على المسلمين اتباعَ الرسولِ فيما يأمر وينهى فقال: ﴿وما آتاكم الرسولُ فخذُوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: ٧]. وَقَرَنَ طاعة الرسول بطاعته في آيات كثيرة فقال: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم تُرحمون﴾ وإذا كانت طاعة الله فيما أنزل من القرآن، فإن طاعة الرسول تكون في سُنَّته. وعدَّ القرآنُ طاعة الرسول طاعةً لله، واتباعه حباً له فقال: ﴿مَن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ وقال: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُم تُحبّون اللّهَ فاتّبِعُوني يُحببْكم الله﴾ [آل عمران: ٣١].

ولم يُبح القرآنُ للمؤمنين أن يخالفوا حُكْم الرسول وأوامره، ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللّهُ ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرَة من أمرهم،

ومن يَعْصِ الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً مُبيناً﴾ [الأحزاب: ٣٦]. لهذا كله كان الصحابة يرجعون إلى رسول الله يفسر لهم أحكام القرآن ويبين لهم مشكلاته ويحكم بينهم في المنازعات.. ويأخذون عنه صفة أداء الفروض والأركان: «صلوا كما رأيتموني أصلي» [أخرجه البخاري]. و «خُذُوا عنّي مناسككم» [أخرجه مسلم]...

ولذا وجب اتباع الرسول عليه السلام في حياته وَبعْد وفاته، والوجوب مخاطب به المسلمون في زمانه، ومَنْ حضره وعاش بعده، ومَنْ يأتي بعدهم إلى قيام الساعة، لأن النصوص التي أوجبت طاعته عامةٌ، لم تقيّد ذلك بزمن حياته، ولا بجيل دون جيل، وقد حثَّ رسول الله على العمل بسنته بعد وفاته في أحاديث كثيرة بلغت حدّ التواتر المعنوي، منها ما رواه الحاكم وابن عبد البرّ، أن رسول الله قال: «تركتُ فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنتي» [جامع بيان العلم ٢/ ٢٤].

وأخرج البخاري والحاكم عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «كلُّ أُمتي يدخلون الجنة إلا مَنْ أبى. قالوا: يا رسول الله ومَنْ يأبى؟ قال: مَنْ أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى».

(جـ) أما كيف كان الصحابة يأخذون السنة عن النبيّ ﷺ، فلذلك طرائق متعددة: منها المخالطة اليومية، لأن رسول الله كان يعيش بين أصحابه.. ومنها التناوب في حضور مجالسه بين مَنْ يبعدون عن المسجد مسافة لا تمكنهم الحضور اليومي، للانقطاع عن الأعمال وكسب الرزق، من ذلك ما روى البخاري في «كتاب العلم» عن عمر بن الخطاب قال: «كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار ـ في بني أمية بن زيد، من عوالي المدينة ـ وكنا نتناوب النزول على رسول الله، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلتُ جئته بخبر ذلك اليوم وإذا نزل فعل مثل ذلك».

ومنها الرحلة إلى المدينة، ولهذا كانت القبائل النائية عن المدينة ترسل إلى النبـيّ ﷺ، بعض أفرادها ليتعلموا أحكام الإسلام ثم يرجعوا إليهم معلمين مرشدين.. لما روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «إنَّ وَفْد عبد القيس[1] لما أتوا النبـيّ ﷺ قال: مَنْ القومُ؟ قالوا: ربيعة، قال: مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى[2] فقالوا: يا رسول الله، إنا لا نستطيع أنْ نأتيك إلا في الشهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحيُّ من كُفّار مُضر، فمرْنا بأمرٍ فصْلٍ نخبرُ به مَنْ وراءَنا، وندخلُ به الجنة، وسألوه عن الأشربة، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع..» الحديث [البخاري باب أداء الخمس من الإيمان، ومسلم باب الأمر في الإيمان بالله].

بل كان الصحابـي يقطع المسافات الواسعة ليسأل رسول الله عن حكم شرعي ثم يرجع لا يلوي على شيء، لما أخرج البخاري عن عقبة بن الحارث أن امرأة أخبرته أنها أرضعته هو وزوجه، فركب من فوره ــ وكان بمكة ــ قاصداً

(١) تذكر كتب السيرة وَفْد عبد القيس في وفود السنة التاسعة، والصحيح أن لهذه القبيلة وفادتين: الأولى: سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك. والدليل على ذلك قولهم «بيننا وبينك هذا الحيُّ من كُفّار مُضر»، وكانوا يسكنون نواحي من المنطقة الشرقية في السعودية اليوم. وروى البخاري في باب الجمعة، أن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله، في مسجد عبد القيس بجُواثى، وهي قرية من قراهم، فدلّ هذا على أنهم سبقوا جميع القُرى إلى الإسلام.. وهذه المرّة هي التي سألوا فيها عن الأشربة. والوفادة الثانية كانت في سنة الوفود سنة تسع من الهجرة.

(٢) ندامى: قال الخطابـي: كان أصله «نادمين» جمع نادم، لأن «ندامى» إنما هو جمع «ندمان» أي: المنادم في اللهو وقال الشاعر «فإن كنتَ ندماني فبالأكبر اسقني» لكنه هنا خرج على الإتباع، كما قالوا: العشايا والغدايا. وغداة، جمعها غدوات، لكنه أتبع.
وقال غيره: إنه يقال، نادم، وندمان، في الندامة، بمعنى، وعلى هذا فهو على الأصل ولا اتباع فيه. وفي رواية النسائي «فقال: مرحباً بالوفد، ليس الخزايا ولا النادمين». ولفظ البخاري أصحّ، وربما غيرها الرواة الآخرون، لظنهم خروجها عن الوجه اللغوي.

المدينة، حتى بلغ رسول الله ﷺ، فسأله عن حكم الله فيمن تزوج امرأة لا يعلم أنها أُخته من الرضاع ثم أخبرته بذلك مَنْ أرضعتهما، فقال له النبيّ ﷺ: «كيف وقد قيل؟» ففارق زوجته لوقته، فتزوجت بغيره.

(د) ولمعرفة الصحابة بمنزلة السُّنَّة النبوية فقد عملوا على تبليغها، لأنها أمانةُ الرسول عندهم إلى الأجْيال المتلاحقة من بَعْدهم، وقد رغّب رسولُ الله في تبليغ العلم عنه إلى مَنْ بَعْده بقوله «رحم اللَّهُ امرءاً سمع مقالتي فأدّاها كما سمعها، ورُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع» [جامع بيان العلم ١/ ٣٩].

وقد توقّى بعض الصحابة، وتحرّزوا من الكذب على رسول الله ﷺ فامتنعوا من رواية الحديث، أو قللوا روايته، لما روى البخاري عن عبد الله بن الزبير قال: قلتُ للزبير: إني لا أسمعك تحدّث عن رسول الله كما يحدّث فلان وفلان، قال: أما إني لم أفارقْه، ولكن سمعتُه يقول: مَنْ كذب عليَّ فليتبوأ مَقْعده من النار» [كتاب العلم باب ٣٨].

وقوله: مَنْ كذبَ عليَّ: أي: نسب الكذبَ إليَّ.

قال ابن حجر: تمسُّكُ الزبير بهذا الحديث على ما ذهب إليه من اختيار قلة التحديث دليلٌ للأصح، في أن الكذب هو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه سواءٌ أكان عمداً أم خطئاً، والمخطىء وإنْ كان غير مأثوم بالإجماع، لكن الزبير خشي من الإكثار أن يقع في الخطأ وهو لا يشعر، لأنه وإن لم يأثم بالخطأ ولكن قد يأثم بالإكثار، إذ الإكثار مظنة الخطأ، والثقة إذا حدّث بالخطأ فحُمِلَ عنه وهو لا يشعر أنه خطأ، يُعمل به على الدوام للوثوق بنقله، فيكون سبباً للعمل بما لم يقله الشارع.

ومن ثَمَّ توقف الزبير وغيره من الصحابة عن الإكثار من التحديث.

وأما مَنْ أكثر من الصحابة فمحْمول على أنهم كانوا واثقين من أنفسهم

بالتثبت أو طالت أعمارهم فاحتيج إلى ما عندهم، فسئلوا فلم يمكنهم الكتمان.

وروى البخاري عن أنس قال: إنه ليمنعني أن أُحدثكم حديثاً كثيراً أن النبيّ ﷺ قال: «مَنْ تعمّدَ عَلَيَّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار» وقال ابن حجر في شرحه: وإنما خشي أنس مما خشي منه الزبير، ولهذا صرّح بلفظ الإكثار لأنه مظنة، ومن حام حول الحمى لا يأمن وقوعه فيه فكان التقليل منهم للاحتراز، ومع ذلك، فأنس من المكثرين، لأنه تأخرت وفاته فاحتيج إليه ولم يمكنه الكتمان، ويُجْمَعُ بأنه لو حدّث بجميع ما عنده لكان أضعاف ما حدَّث به. ووقع في رواية أُخرى عن أنس: «لولا أني أخشى أن أخطىء لحدثتك بأشياء قالها رسول الله» (رواه أحمد) فأشار إلى أنه لا يحدث إلا بما تحققه، ويترك ما يشكُّ فيه وقد فهم بعض العلماء أن الصحابة كانوا يتحرون الرواية باللفظ، لما روى البخاري؛ عن سَلَمة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ يقل عليَّ ما لم أقلْ فليتبوأ مقعده من النار»، وفُهِم هذا المعنى من حديث أنس السابق.

(هـ) وقد بدأ التحديث قليلاً في عصري الشيخين أبي بكر وعمر، ثم كَثُر بعدهما.. ولعل من أسباب ذلك، أن الناسَ كانوا قريبي العهد بالعصر النبوي، وكانت كثرة الناس في المدينة من الصحابة، ولم يطرأ على المجتمع من الأحوال ما يحتاج إلى الفتوى ثم إنَّ خطة الشيخين كانت حمل المسلمين على التثبت في الحديث من جهة وحمل المسلمين على العناية بالقرآن، وقد قيل لأبي هريرة «أكنتَ تحدث في زمن عُمر هكذا قال: لو كنتُ أُحدّث في زمن عمر مثل ما أُحدثكم لضربني بالدرّة» [جامع بيان العلم ٢/ ١٢٠].

فإذا طرأ طارىء، لم يجد له الخليفة فتوى فيما يحفظ، سأل الناس، واحتاط في قبول الأخبار. قال الذهبي في «تذكرة الحفاظ» في ترجمة أبي بكر: «كان أبو بكر أول مَنْ احتاط في قبول الأخبار، وروي أن الجدّة جاءَت إلى

أبي بكر تلتمس أن تورّث، قال: ما أجد لك في كتاب الله شيئاً وما علمتُ أن رسول الله ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس، فقام المغيرة فقال: كان رسولُ الله يعطيها السُّدس، فقال له: هل معك أحدٌ؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها أبو بكر».

وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: «كنتُ في مجلس من مجالس الأنصار إذْ جاءَ أبو موسى كأنه مذعور، فقال: استأذنتُ على عُمرَ ثلاثاً فلم يؤْذنْ لي، فرجعتُ، فقال: ما منعك؟ قلتُ: استأذنتُ ثلاثاً فلم يؤذن لي، فرجعتُ، وقال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يُؤذنْ له، فليرجعْ» فقال ــ عمر ــ والله لتُقيمنَّ عليه ببينة! أمنكم أحدٌ سمعه من النبيّ ﷺ؟ فقال أُبيّ بن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغرُ القوم، فكنتُ أصغرَ القوم، فقمتُ معه، فأخبرتُ عمر، أن النبيّ ﷺ، قال ذلك» [البخاري بكتاب الاستئذان باب ١٣].

وروى القصة أيضاً مالك في [الموطأ ٢/ ٢٤٠] وزاد: فقال عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعريّ: «أما إني لم أتهمك، ولكن خشيتُ أن يتقوّل الناسُ على رسول الله ﷺ». وفي رواية: فقال عمر لأبي موسى: «والله إن كنتَ لأميناً على حديث رسول الله، ولكن أَحْبَبْتُ أنْ أَسْتَثْبِت» [الفتح ١١/ ٣٠].

(و) وعندما انتهى عهد الشيخين، سمح عثمان بن عفّان، للصحابة أن يتفرقوا في الأمصار، وأخذ كبارُ الصحابة يتناقصون يوماً بعد يوم، فاجتهد صِغار الصحابة لجمع الحديث من كبارهم. فهذا عبد الله بن عباس، كان يطلب الحديث عند كبار الصحابة ويتحمّل في سبيل ذلك عناءً ومشقة لما روى ابن عبد البرّ عن ابن شهاب أن ابن عباس قال: كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ، فلو أشاءُ أن أُرسل إليه حتى يجيئني فيحدثني، فعلتُ، ولكني كنتُ أذهب إليه، فأقيل على بابه حتى يخرج إليَّ فيحدثني. [جامع بيان العلم ١/ ٩٤].

ورحل بعض الصحابة من المدينة إلى الأقاليم الإسلامية المفتوحة التي انتقل إليها بعض الصحابة، وذلك لطلب حديث واحد.

لما روي أن جابر بن عبد الله قال: «بلغني عن رَجُلٍ حديثٌ سمعه من رسول الله فاشتريت بعيراً ثم شددت رحلي فسرتُ إليه شهراً حتى قدمتُ الشام فإذا عبدُ الله بن أنيس، فقلت للبوّاب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلتُ: نعم، فخرج فاعتنقني، فقلتُ: حديثٌ بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله، فخشيتُ أن أموت قبل أن أسمعه.. الحديث» [رواه أحمد ٣/ ٤٩٥، والبخاري في الأدب المفرد، باب المعانقة. وذكره في صحيحه، تعليقاً بصيغة الجزم في كتاب العلم باب ١٩].

بل رحل أبو أيوب الأنصاري إلى مصر للتحقق والتثبت من حديث يحفظه، لما روى الخطيب البغدادي في كتاب «الرحلة في طلب الحديث» عن عطاء بن أبي رباح: قال: خرج أبو أيوب إلى عُقْبة بن عامر[1] ــ وهو بمصر ــ يسأله عن حديث سمعه من رسول الله، فلما قدم أتى منزل مَسْلَمة بن مُخَلَّد الأنصاري ــ وهو أمير مصر ــ فأخبر به، فعجّل فخرج إليه فعانقه وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ قال: حديث سمعتُه من رسول الله لم يبق أحد سمعه غيري وغير عقبة، فابعث مَنْ يدلني على منزله.. الخ.. ص ١١٩.

(ز) وكان أصحاب رسول الله ﷺ يعتنون بما يَبْلُغهم من العلم بالحفظ والمذاكرة فيه. خرّج أبو نُعيم عن عليّ قال: تزاوروا وتذاكروا هذا الحديث، إن لا تفعلوا يدرس. ونقل أبو عُمر بن عبد البر عن ابن مسعود أنه قال: تذاكروا الحديث، فإنه يُفْهم بعضُه بعضاً.

(١) عُقْبة بن عامر الجهني، كان قارئاً عالماً بالفرائض والفقه، فصيح اللسان شاعراً كاتباً، جمع له معاوية في إمرة مصر، بين الخراج والصلاة. وتوفي في خلافة معاوية وإذا صحّ خبر الرحلة فإنها تكون قبل سنة خمسين، أو اثنتين وخمسين، وهي سنة وفاة أبـي أيوب عند أسوار القسطنطينيّة.

ونقل عن عون[١] بن عبد الله أنه قال: «لقد أتينا أُم الدرداء، فتحدثنا عندها، فقلنا أمْللناك يا أُم الدرداء[٢]، فقالت: ما أمللتموني، لقد طلبتُ العبادة بالمدينة فما وجدتُ أشهى لنفْسي من مذاكرة العلم».

وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال: لولا أنْ أسير في سبيل الله أو أضع جبهتي في التراب أو أُجالس قوماً يلتقطون أطيب القول، كما يلتقط طيب الثمر، لأحببت أن أكون قد لحقتُ بالله.

وخرّج ابن سعد في الطبقات عن أبـي سعيد الخدري قال: «كان أصحاب رسول الله إذا قعدوا يتحدثون، وكان حديثهم الفقه، إلا أن يأمروا رجلاً فيقرأ عليهم سورة، أو يقرأ رجل سورة من القرآن».

(ح) قال الحافظ أبو زرعة الرازي لمن قال له: أليس يُقال حديث رسول الله أربعة آلاف حديث، قال: ومَنْ قال ذا؟ قلقل اللَّهُ أنيابه، هذا قول الزنادقة؟! ومَنْ يُحصي حديث رسول الله. قُبض رسولُ الله عن مئة ألف وعشرة آلاف، ممن روى عنه وسمع منه. فقيل له: هؤلاء أين كانوا؟ وأين سمعوا منه؟ قال: أهل المدينة وأهل مكة ومَنْ بينهما من الأعراب ومن شهد معه حجة الوداع، كلٌّ رآه وسمع منه بعرفة. قال ابن فتحون في ذيل «الاستيعاب» بعد أن ذكر ذلك: أجاب أبو زرعة بهذا سؤال مَنْ سأله عن الرواة خاصة، فكيف بغيرهم؟ [مقدمة الإصابة ج ١]. قال ابن حجر: ومما يؤيد قول أبـي زرعة ما ثبت في الصحيحين عن كعب بن مالك في قصة تبوك «والناس كثير لا يحصيهم ديوان». وثبت عن الثوري فيما أخرجه الخطيب بسنده الصحيح إليه

---

(١) عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي.. ذكره البخاري فيمن توفي بين سنة عشر ومائة إلى عشرين ومائة.

(٢) أم الدرداء، زوج أبـي الدرداء، الصحابـي، ويقال لها: أم الدرداء الصغرى، واسمها: جُهيمة وهي من التابعيات، وهي التي يُروى عنها الحديث الكثير. وأما أم الدرداء الكبرى، فهي صحابية واسمها خيرة بنت أبـي حَدْرد.

قال: «من قدّم علياً على عثمان، فقد أزرى على اثني عشر ألفاً، مات رسول الله وهو عنهم راضٍ». فقال النووي: وذلك بعد النبيّ ﷺ باثني عشر عاماً، بعد أن مات في خلافة أبي بكر في الردّة والفتوح الكثير ممن لم يضبط أسماؤهم، ثم مات في خلافة عمر في الفتوح وفي الطاعون العام وعمواس وغير ذلك مَنْ لا يُحصى كثرةً. ولعلهم يريدون أن يقولوا: لقد كان من الصحابة يوم تولى عثمان اثنا عشر ألفاً وقد رضوا بولايته.

وقال ابن سعد في [الطبقات ٢/٣٧٧]: «شهد مع رسول الله تبوكاً، وهي آخر غزاة غزاها، من المسلمين، ثلاثون ألف رجل، وذلك سوى مَنْ قد أسلم وأقام في بلاده وموضعه لم يَغْزُ، فكانوا عندنا أكثر ممن غزا معه تبوكاً».

وقال الغزالي في «الإحياء»: مات النبيّ ﷺ عن عشرين ألفاً من أصحابه، قال الحافظ العراقي: لعله عنى بالمدينة، وروي عن الشافعي قوله: قبض رسول الله والمسلمون ستون ألفاً بالمدينة، وثلاثون ألفاً في قبائل العرب وغيرها. أقول: لعله أراد الصحابة من الرجال. وروي عن الإمام أحمد قال: قُبض رسول الله وقد صلّى خلفه ثلاثون ألف رجل. قال السخاوي وكأنه عنى، بالمدينة، ليلتئم مع ما قبله [التراتيب ٢/٤٠٧].

قال ابن حجر: ومع ذلك، فلم يحصل لنا من ذلك جميعاً ــ يريد الذين ألفوا في الصحابة ــ العُشْر من أسامي الصحابة بالنسبة إلى ما جاء عن أبي زرعة. فالذين ترجم لهم ابن عبد البر في «الاستيعاب» ثلاثة آلاف وخمسمائة واستدرك عليه ابن فتحون مثل هذا العدد. ونقل ابن حجر عن الذهبي أن جميع مَنْ في «أُسد الغابة» سبعة آلاف وخمسمائة وأربعة وخمسون نفساً... وقد جمع ابن الأثير في كتابه كثيراً من التصانيف المتقدمة قبله، وعاش في أوائل القرن السابع الهجري.

ولعلّ أوسع كتاب في أسماء الصحابة «الإصابة» لابن حجر. وبلغت

التراجم فيه ١٢,٢٨٦ ترجمة، ولكن ليس كل مَنْ في «الإصابة» من الصحابة.
فقد قسم كتابه أربعة أقسام:

الأول: فيمن وردت صحبتُه بطريق الرواية عنه أو عن غيره، سواء أكانت الطريق صحيحة أم حسنة أم ضعيفة، أو وقع ذكره بما يدل على الصحبة بأي طريق كان.

القسم الثاني: فيمن ذكر في الصحابة من الأطفال الذين ولدوا في عهد النبيّ ﷺ، لبعض الصحابة من النساء والرجال، ممن مات رسول الله وهو دون سنّ التمييز.

القسم الثالث: فيمن ذُكر في الكتب من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ولم يرد في خبر قطُّ أنهم اجتمعوا بالنبـي ﷺ، ولا رأوه سواءٌ أسلموا في حياته أم لا، وهؤلاء ليسوا أصحابه باتفاق أهل الحديث.

القسم الرابع: فيمن ذكر في الكتب على سبيل الوهم والغلط...

والقسم الأول، هم المتحقَّقُ من صحبتهم وروايتهم عن النبـيّ ﷺ. وقد أحصيت ما جاء في القسم الأول من الأسامي، فوجدته حوالي ٣٦٥٤ صحابـي من أصل ٩٤٧٥ اسم في قسم الأسماء. ومجموع مَنْ ترجم لهم في باب الكنى من الأقسام الأربعة (١٢٦٠) ترجمة ومجموع تراجم النساء في الأقسام الأربعة (١٥٥١) ترجمة.. ولم أعدّ تراجم القسم الأول في باب الكنى والنساء.. فإذا قدرنا تراجم القسم الأول في بابـي الكنى والنساء ثلث التراجم، فقد نضيف إلى مجموع الصحابة الرواة والمتحقق من صحبتهم ألفاً أُخرى ـ فيكون المجموع ٤٦٥٤ ترجمة، وقد يصلون إلى خمسة آلاف.

وقد بلغ مجموع الصحابة الذين روت لهم الكتب الستة حوالي ألف صحابـي كما جاء في تحفة الأشراف...

وليس كلُّ مَنْ روى الحديث من الصحابة روت له الكتب الستة: فهناك:

صحيح ابـن خزيمة، ومسنـد أحمد، ومسند أبـي يعلى الموصلي، وموطأ الإمـام مالك وغيرها، ولا شك أن في هذه الكتب صحابة لم تشملهم الكتب الستة.

(ط) ولكنَّ الصحابة لم يكونوا سواءً في رواية الحديث: قال ابن سعد في [الطبقات ٢/٣٧٦] قال محمد بن عمر الأسلمي: إنما قلّت الرواية عن الأكابر من أصحاب رسول الله لأنهم ماتوا قبل أن يُحتاج إليهم، وإنما كثرت عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبـي طالب لأنهما وليا فسئلا وقضيا بين الناس، وكلّ أصحاب رسول الله أئمة يُقتدى بهم، ويحفظ عنهم ما كانوا يفعلون، ويُسْتفتـون فيفتـون، وسمعـوا أحـاديـث فـأدوهـا، فكـان الأكـابـر مـن أصحـاب رسول الله أقلّ حديثاً عنه من غيرهم ــ مثل أبـي بكر وعثمان وطلحة.. الخ ونظرائهم فلم يأت عنهم من كثرة الحديث مثل ما جاء عن الأحداث من أصحاب رسول الله، مثل جابر بن عبد الله وأبـي سعيد الخدري وأبـي هريرة.. ونظرائهم لأنهم بقوا وطالت أعمارهم واحتاج الناس إليهم ومضى كثير من أصحاب النبـيّ ﷺ، ومنهم مَنْ لم يحدّث عن رسول الله شيئاً، ولعله أكثر له صحبةً ومجالسةً وسماعاً من الذي حدّث عنه ولكنّا حملنا الأمر في ذلك منهم على التوقّي في الحديث أو أنه لم يُحتج إليه لكثرة أصحاب رسول الله، وعلى الاشتغال بالعبادة، والأسفار في الجهاد في سبيل الله حتى مَضَوا ولم يُحْفَظ عنهم عن النبـيّ ﷺ شـيء.

وأما المكثرون من الصحابة، الذين زاد حديثهم على ألف، فروى بقيّ بن مَخْلَد ــ حافظ الأندلس ــ لأبـي هريرة ٥٣٦٤ حديث ــ ولعبد الله بن عمر ٢٦٣٠ حديث، ولأنس بن مالك ٢٢٨٦ حديث، ولعائشة ٢٢١٠ حديث، ولابن عباس ١٦٦٠ حديث، ولجابر بن عبد الله (١٥٤٠) حديث، ولأبـي سعيد الخدري ١١٧٠ حديث.. أما ابن مسعود فروى له ٨٤٨ حديث، ولعبد الله بن عمرو بن العاص (٧٠٠) حديث...

(ي) وقد مرّ معنا أن عدد الصحابة الذين سمعوا رسول الله، ورأوه يزيدون على مئة ألف صحابـي، ولكن الصحابة الذين ضبطتهم كتب التراجم ربما لا يزيدون على عشرة آلاف، والمحدّثون منهم أقل من هذا العدد.. ومعنى هذا أن الحديث لم يصلنا كلُّه، فلعلَّ شيئاً منه ذهب مع الصحابة الذين لم نعرفهم.. ولكن ما الجواب عن الأرقام التي نسمعها ونقرأها في كتب الحديث ورجاله؟.. فقد روي أنه قيل للإمام أحمد بن حنبل: إذا كتب الرجل مئة ألف حديث، له أن يُفتي؟ قال: لا، قيل: فمئتي ألف حديث؟ قال: لا، قيل: فثلاثمائة ألف حديث؟ قال: أرجو. قالوا: وكان أبو زرعة يحفظ، ألف ألف حديث، وحفظ البخاري مئة ألف حديث.. وذكروا أن في مسند الإمام أحمد بن حنبل ثلاثين ألف حديث غير المكرر...

قال البيهقي في الجواب عن الأعداد الكبيرة التي تُذكر للحفاظ: إن مرادهم بهذه الأعداد العظيمة يشمل السنة وآثار الصحابة والتابعين، أو أنهم كانوا يريدون طرق الحديث المتنوعة، فيجعلون كل طريق حديثاً وكل حديث له طرق وروايات، فمرادهم بهذا العدد العديد: طرق الحديث الواحد العديدة ورواياته المتنوعة.. وقد يكون الحديث واحداً ولكن باعتبار طرقه واختلاف ألفاظه وتعدد مَنْ رواه، يعد الحديث الواحد بالمئة، لأنهم كانوا يقولون: لو لم نكتب الحديث من عشرين وجهاً ما عرفناه.

وقال ابن الجوزي في «صيد الخاطر»: جرى بيني وبين أصحاب الحديث كلام في قول الإمام أحمد «صح عن رسول الله سبعمائة ألف حديث» فقلت: له: إنما يعني به الطرق، فقال: لا، المتون، فقلتُ: هذا بعيد التصوّر.

ونذكر لذلك أمثلة ليتضح الكلام: قال أحمد بن سنان (٢٥٤هـ) سمعت عبد الرحمن بن مهدي (١٩٨هـ) يقول: «عندي عن المغيرة بن شعبة عن النبيّ ﷺ في المسح على الخفين ثلاثة عشر حديثاً».. ومما لا شكَّ فيه أن النبيّ ﷺ مسح على الخفين مراراً، ولكن ما ينقله لنا المغيرة، هو فِعْل واحد من

أفعال النبيّ ﷺ، مهما تكرر، فهو حديث واحد، لكن هذا الحديث الواحد وصل إلى ابن مهدي من ثلاثة عشر سنداً، فأصبحت ثلاثة عشر حديثاً.

وروى البخاري: حدثنا إسماعيل بن أبـي أويس قال: حدثني مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله يقول: إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً.. الحديث (كتاب العلم).

قال ابن حجر: «وقد اشتهر هذا الحديث من رواية هشام بن عروة فوقع لنا من رواية أكثر من سبعين نفساً عنه: من أهل الحرمين، والعراقين، والشام وخراسان ومصر، وغيرها. ووافقه على روايته عن أبيه عروة: أبو الأسود المدني، وحديثه في الصحيحين، والزهري: وحديثه في النسائي ويحيى بن أبـي كثير: وحديثه في صحيح أبـي عوانة، ووافق أباه على روايته عن عبد الله بن عمرو: عمر بن الحكم بن ثوبان، وحديثه في مسلم» [الفتح ١/ ١٩٥]. فهذا الحديث الواحد ربما أصبح في كتب أهل الحديث أكثر من مئة حديث باعتبار طرقه المتعددة.

ومثال آخر: لقد كتب عن الزهري حوالي خمسين تلميذاً، فإذا كتب كلُّ واحد منهم خمسمائة حديث عن الزهري تتحول هذه الأحاديث الخمسمائة إلى خمسة وعشرين ألفاً في جيل واحد: ٥٠ × ٥٠٠ = ٢٥,٠٠٠، وإن كان لكل راوٍ عن الزهري ثلاثة تلاميذ، تتحول تلك الأحاديث في الجيل الثاني إلى خمسة وسبعين ألف حديث.

وعلى هذا المنوال، كان عدد الأحاديث يزداد يوماً بعد يوم ووصل إلى ما وصل إليه من العدد. حتى قال أحمد بن حنبل: «صحَّ من الحديث سبعمائة ألف حديث».

ويُذكر عن البخاري أنه ألف كتابه الصحيح من ستمائة ألف حديث.. وكتابه يشمل على سبعة آلاف وثلاثمائة وسبعة وتسعين حديثاً، مع المكرر وقيل:

بـإسقـاط المكـرر يصبـح أربعـة آلاف حـديـث. وقيـل بغيـر المكـرر مـن المتـون الموصولة (٢٦٠٢) حديث.

.. والسبب في كثرة هذه الأحاديث أن المحدثين كانوا يكتبون الأحاديث بأسانيد متعددة. حتى قال إبراهيم بن سعيد الجوهري (٢٤٩هـ): كل حديث لا يكون عندي من مئة وجه فأنا فيه يتيم [تهذيب ١/ ١٢٤].

وقال ابن معين: «لو لم نكتب الحديث من ثلاثين وجهاً ما عقلناه».

(ك) والذي وصلنا من الحديث الصحيح، فهو صحيح لا يتطرق الشكُّ إليه، لأن طرق النقل التي أوصلته إلينا كانت مأمونة: فالحديث الواحد يرويه الصحابـي أو عدد من الصحابة عن رسول الله ﷺ، ثم ينقله عن الصحابـي أو الصحابة عدد كبير من التابعين المعدّلين، ثم عَدَدٌ أكثر من تابعي التابعين الموثوقين حتى وصلنا مدوّناً...

لقد كان التابعون حريصين على جَمْع الحديث والفقه من أفواه الصحابة، لنقله إلى تابعيهم، فرحلوا إليهم وشافهوهم، ولم يرضوا بوجود الوسائط بينهم وبين الصحابة، ليكون إسنادهم عالياً قريباً من رسول الله ﷺ...

روى الخطيب البغدادي عن أبـي العالية (٩٠هـ) قال: «كُنَّا نسمع بالرواية عن أصحاب رسول الله بالمدينة، ونحن بالبصرة، فما نرضى حتى أتيناهم فسمعنا منهم» [الرحلة ص ٩٣].

وعن سعيد بن المسيّب قال: إن كنتُ لأرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد. وعن كثير بن قيس قال: كنتُ جالساً مع أبـي الدرداء في مسجد دمشق، فأتاه رجلٌ فقال: يا أبا الدرداء، جئتك من المدينة، مدينة الرسول، لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله قال: ولا جئت لحاجة؟ قال: لا. قال: ولا لتجارة؟ قال: لا. قال: ولا جئت إلا لهذا الحديث؟ قال: لا. [يريد: لا جئت إلا لهذا الحديث]. قال: فإني سمعتُ رسول الله يقول: مَنْ سلك طريقاً

يطلب فيه علماً سلك به طريقاً من طرق الجنة. . الحديث» [أخرجه أبو داود أول كتاب العلم».

وإن أحدهم ليحفظ الحديث وهو في بلده، فيرحل إلى الصحابي ليتحقق من لفظ الحديث ومعناه. . لما روى الخطيب عن أبي عثمان النهدي التابعي (١٠٠هـ) قال: «بلغني عن أبي هريرة حديثٌ أنه قال: «إنَّ الله ليكتب لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنةٍ».

فحججتُ ذلك العام ولم أكن أريد الحج إلا للقائه في هذا الحديث، فأتيت أبا هريرة فقلتُ: يا أبا هريرة: بلغني عنك حديث، فحججتُ العام. ولم أكن أريد الحج إلا للقائك. . قال: فما هو؟ قلت (الحديث السابق) فقال أبو هريرة: ليس هكذا قلتُ، ولم يحفظ الذي حدّثك».

قال أبو عثمان: فظننْتُ أنَّ الحديث قد سقط. قال: إنما قلتُ: «إنَّ الله ليعطي عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة» ثم قال: أوليس في كتاب الله تعالى ذلك؟ قلت: كيف؟.

قال: لأن الله يقول: ﴿مَنْ ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً، فيضاعفه له أضْعَافاً كثيرة﴾ والكثيرة عند الله أكثر من ألفي ألف، وألفي ألف» [مسند أحمد ٢/ ٥٢١].

وعن أبي قلابة (عبد الله بن زيد الجَرْمي البصري) [١٠٤هـ] قال: «أقمتُ في المدينة ثلاثاً، مالي بها حاجة إلا قدوم رجل بلغني عنه حديث فبلغني أنه يَقْدُم، فأقمتُ حتى قدم، فحدثني به» [الدارمي في سننه ١/ ١٣٦].

وقد فهم علماءُ الحديث ومدونوه، ومصنفوه هذا المعنى، فحرصوا على تحقيقه في مروياتهم. . ولذا قال الإمام أحمد بن حنبل: «طلب علوّ الإسناد من الدين» وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألتُ أبي، عمن طلب العلم، ترى أن يلزم رجلاً عنده علمٌ فيكتب عنه، أو ترى أن يرحل إلى المواضع التي فيها العلم

فيسمع منهم قال: يرحل يكتبُ عن الكوفيين والبصريين وأهل المدينة ومكة، يشافه الناس «يسمع عنهم». [الرحلة في طلب الحديث ص ٨٨].

وسئل الإمام أحمد بن حنبل «أيرحلُ الرجل في طلب العلوّ»؟ فقال: بلى والله، شديداً لقد كان علقمةُ، والأسود، يبلغهما الحديث عن عمر رضي الله عنه، فلا يقنعهما حتى يخرجا إلى عمر فيسمعانه منه. [علوم الحديث، لابن الصلاح ص ٢٢٣].

(ل) ولا تلتفتنَّ إلى أقوال أهل الوَهْم الذين يقولون: إنَّ عامة الحديث النبوي بقيت تتداوله الألسن شفاها حتى كان تدوينه في القرن الثاني الهجري وأن ألسنة الأعاجم الذين رووه قد أدخلت عليه تحريفاً...

فهذه الأقوال من الأوهام التي لا تقوم على تحقيق، للأدلة التالية.

أولاً: بدء كتابة الحديث في العهد النبوي: ولذا بوّب البخاري «باب كتابة العلم». وروى ثلاثة أحاديث: الأول: أن الإمام عليّاً كانت عنده صحيفة مكتوبة. والثاني: أمْرُ رسول الله، مَنْ حضر، أن يكتبوا لرجل من أهل اليمن نصَّ خطبة ألقاها رسول الله. وفي الثالث: عن أبي هريرة أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يكتبُ الحديث عن رسول الله، فزاد حديث عبد الله على حديث أبي هريرة لهذا السبب.

وروى النسائي [٥٨/٨] عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتاباً فيه الفرائض والسنن والديات، وبعث به مع عمرو بن حزم فقرئت على أهل اليمن هذه نسختُها.. الحديث. وروي عن الزهري أنه قال: جاءَني أبو بكر بن حزم بكتابٍ في رقعة من أدم عن رسول الله ﷺ هذا بيان من الله ورسوله.. الحديث.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «كان عند رسول الله ﷺ ناس من أصحابه وأنا معهم وأنا أصغر القوم، فقال النبيّ ﷺ: «مَنْ كذب عليَّ متعمداً

فليتبوأ مقعده من النار» فلما خرج القوم: قلتُ كيف تحدثون عن رسول الله وقد سمعتم ما قال، وأنتم تنهمكون في الحديث عن رسول الله فضحكوا وقالوا: يا ابن أخينا، إنَّ كل ما سمعنا منه، عندنا في كتاب» [رواه الطبراني في الكبير، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح].

والأخبار ــ دون الصحيح ــ عن الكتابة في العهد النبويّ كثيرة. [انظر: قيد العلم].

ثانياً: والآثار في كتابة الحديث، عن الصحابة بعد وفاة النبيّ ﷺ كثيرة جداً. أذكر منها ما يؤيّد ذلك:

روى البخاري في باب «زكاة الغنم» عن أنس بن مالك، أن أبا بكر كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين: بسم الله الرحمن الرحيم: هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله على المسلمين، والتي أمر اللَّهُ بها رسوله.. الحديث.

وأقلُّ من هذا صحةً، ما رواه الذهبي [التذكرة ١/ ٥] عن الحاكم.. قالت عائشة: «جمع أبي الحديث عن رسول الله ﷺ، وكانت خمسمائة حديث، فبات ليلته يتقلب كثيراً، قالت: فغمني ذلك، فقلتُ: أتتقلّب لشكوى، أو لشيء بلغك؟ فلما أصبح قال: أي بنية، هلمي الأحاديث التي عندك، فجئتُه بها، فدعا بنار فحرقها؛ فقلت: لم حرقتها قال: خشيت أن أموت وهي عندي، فيكون فيها أحاديث عن رجل قد ائتمنته ووثقته، ولم يكن كما حدثني، فأكون قد نقلت ذاك». قال الذهبي في ذيل الخبر: فهذا لا يصح، والله أعلم، ولم يذكر علةً لذلك. وروى الإمام مالك في «الموطأ» باب «صدقة الماشية» قال: «قرأتُ كتاب عمر بن الخطاب في الصدقة، قال: فوجدت فيه..» الحديث [١/ ١٩٥].

قال السيوطي في حاشية الموطأ «تنوير الحوالك» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من طريق سفيان بن حسين عن ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر قال: كتب رسول الله كتاب الصدقة فلم يخرجه إلى عماله حتى قبض، فعمل به أبو بكر

حتى قبض، ثم عمل به عمرُ حتى قبض. . . قال الترمذي: وقد روى يونس وغير واحدٍ عن الزهري عن سالم هذا الحديث، ولم يرفعوه، وإنما رفعه سفيان بن حسين.

ويمكن أن نعدَّ ديوان العطاء الذي أمر عُمَرُ بن الخطاب بترتيبه، نوعاً من تسجيل السُنَّة النبوية، لأنه كتب الناس فيه على مراتبهم من حيث السبق إلى الإسلام، والهجرة والنُصْرة، لأن الرسول عليه السلام، كان يمدح كلَّ مَنْ كان له سبق إلى عمل يؤدي إلى رفع راية الإسلام، ورتب عمرُ الناس حسب ما سمع من رسول الله في ترتيبهم [انظر: الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٠١].

هذا، وإذا عددنا ديوان عمر، نوعاً من إحصاء المسلمين، أو المقاتلة من الناس فإن ذلك كان مسبوقاً في العهد النبويّ؛ لما روى البخاري في كتاب الجهاد باب «كتابة الإمام الناس»، عن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال النبيّ ﷺ: «اكتبوا لي مَنْ تلفظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل. . ».

وقال ابن حجر العسقلاني في التعليق على حديث أبي هريرة: «أن عبد الله بن عمرو كان يكتب ولا أكتب. . » قد يعارضه ما أخرجه ابن وهب من طريق الحسن بن عمرو بن أُمية الضمري عن أبيه قال: تحدثتُ عند أبي هريرة بحديث فأنكره، فقلتُ: إني قد سمعتُه منك، فقال: إن كنتَ سمعته مني فهو مكتوب عندي، فأخذ بيدي إلى بيته، فأراني كتباً كثيرة من حديث رسول الله، فقال: هذا هو مكتوب عندي.

قال ابن عبد البر: ويمكن الجمع، بأنه لم يكتب في العهد النبوي ثم كتب بعده وأقوى من ذلك أنه لا يلزم من وجود الحديث مكتوباً عنده أن يكون بخطه، وقد ثبت أنه لم يكن يكتب، فتعين أن المكتوب عنده بغير خطّه.

وذكر الذهبي في ترجمة جابر بن عبد الله قال: وحمل عن النبيّ علماً كثيراً نافعاً وله منسك صغير في الحج أخرجه مسلم. ويظهر أنه يريد بالمنسك الرسالة الصغيرة في الحج.

وقال ابن سعد في [الطبقات ٥/٤٦٦] في ترجمة مجاهد بن جَبْر: كانوا يَرَوْن أن مجاهداً يحدّث عن صحيفة جابر، وتوفي مجاهد سنة (١٠٢هـ) وأنس بن مالك رضي الله عنه، توفي سنة (٩٣هـ). كان يجيد القراءة والكتابة فبعثه أبو بكر الصديق إلى البحرين ساعياً. وكان يحث أبناءَه على الكتابة، ويقول «يا بني قيدوا العلم بالكتاب». [تقييد العلم ص ٩٦]. ونُقل عنه أنه كان يقول: «كُنَّا لا نعدُّ علم مَنْ لم يكتب علمه علماً» وروي أنه كانت لديه كتب كثيرة: فجاء في كتاب «تقييد العلم» كان أنس بن مالك إذا حدّث وكثر عليه الناس، أخرج إليهم مجالَّ[1] من كتب فقال: هذه كُتُب سمعتها من رسول الله، وقرأناها عليه [تقييد العلم ص ٩٥]. وفي رواية: «كان أنس بن مالك إذا حدّث فكثر عليه الناس جاء بمجالّ فألقاها ثم قال: هذه أحاديث سمعتها وكتبتُها عن رسول الله، وعرضتها عليه».

وفي تاريخ بغداد (٨/ ٢٥٩) قال ابن سنان: «خرجتُ في وفْد من أهل الأنبار إلى الحجاج إلى واسط نتظلم إليه من عامله علينا، فدخلتُ ديوانه، فرأيتُ شيخاً والناسُ حوله يكتبون عنه، فسألتُ عنه: فقيل لي: أنس بن مالك».

وعبد الله بن عباس، الذي كان ذا حافظةٍ من أندر ما يروي التاريخ، جاءَت عنه أخبار أنه كان يكتب ويدوّن.

فروى الخطيب في «تقييد العلم» قال: كان ابن عباس يأتي أبا رافع

---

(١) مجالّ، وزن مفاعل، جمع مجلّة. وهي صحيفة يكتب فيها.. وكل كتاب عند العرب: مجلّة قال ابن منظور: ومنه حديث أنس: أُلقي إلينا مجالٌّ.

ـ صحابي ـ فيقول: ما صنع رسول الله يوم كذا.. ما صنع رسول الله يوم كذا؟ ومع ابن عباس ألواح يكتب فيها [ص ٩٢].

وفي آخر «نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية». للحافظ الزيلعي، أن الواقدي أسند عن عكرمة قال: وجدتُ هذا الكتاب في كتب ابن عباس بعد موته، فنسختُه، فإذا فيه: ... (وأتى بنصّ كتاب النبيّ ﷺ للمنذر بن ساوى).

وروى ابن سَعْد في الطبقات، ترجمة «كُريب بن أبي مُسْلم» مولى عبد الله بن عباس، عن موسى بن عقبة قال: وَضَع عندنا كُريب حمل بعير أو عدل بعير من كُتُب ابن عباس. قال: فكان علي بن عبد الله بن عباس إذا أراد الكتب، كتب إليه، ابعث إليَّ بصحيفة كذا وكذا، قال: فينسخها، فيبعث إليه بإحداهما (٥/ ٢٩٣).. وتوفي كُريب بالمدينة سنة ٩٨هـ.

وفي مسند أحمد ٥/ ٤٣: «أخبرني ابن أخي أبي أيوب الأنصاري أنه كتب إليه أبو أيوب يخبره أنه سمع رسول الله ﷺ..». وفي أخبار القضاة لوكيع ص ٨٣، أن أبا بكرة، نفيع بن مسروح، صحابي توفي سنة خمسين، كتب إلى ابنه بسجستان: سمعتُ رسول الله يقول: لا يقضي الرجل بين اثنين وهو غضبان. وذكر البيهقي قصة كتابة أبي بكرة لابنه فقال: عن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال: كتب أبي، وكتبتُ له بيدي إلى ابنه عبيد الله، وهو على سجستان.. الحديث.

وفي مسند أحمد ٣/ ٦٠، عن أبي نَضْرةَ قال: «سألتُ ابن عباس عن الصَّرْف فقال: أيداً بيدٍ؟ قلت: نَعَمْ، قال: لا بأس، فلقيت أبا سعيد الخدري، فأخبرته أني سألتُ ابن عباس عن الصرف، فقال: لا بأس، فقال: أو قال ذاك؟ أما إنَّا سنكْتُب إليه فلن يفتيكموه..» والحديث أيضاً في صحيح مسلم باب «الربا»، عن أبي نضرة المنذر بن مالك (توفي سنة ١٠٨هـ). قال النووي: وكان ابن عباس يعتقد أنه لا ربا فيما كان يداً بيد وأنه يجوز بيع درهمٍ بدرهمين..

وصاع تمر بصاعين من التمر.. ثم رجع ابن عباس عن ذلك وقال بتحريم الجنس بعضه ببعض متفاضلاً حين بلغه حديث أبـي سعيد الخدري.

والشاهد في القصة قول أبـي سعيد الخدري: سنكتبُ إليه، لأنَّ ابن عباس لم يكن في المدينة، فلم يبلغ الرسالة شفاهاً، وإنما كتب إليه، وربما يكون كتب إليه أحاديث كثيرة، وشيئاً من الفقه، مع أن المشهور أن أبا سعيد كان لا يُجيز كتابة الحديث، وروى له الإمام مسلم، وأحمد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمْحُه» [المسند ٣/٢١]. وقد أوّله العلماء بأنه منسوخ، أو المقصود بالنهي، كتابة القرآن والحديث في مكان واحد، وقيل إنه موقوف على أبـي سعيد الخدري، لمعارضته الأحاديث الصحيحة الكثيرة في إباحة الكتابة.

وجاء في مُسْند الإمام أحمد ٤/٢٢٦؛ أن أُسيد بن حُضير ـ الصحابـي ـ كان عاملاً على اليمامة، وأنَّ مروان كتب إليه: أيما رجل سرق منه سرقة، فهو أحقُّ بها بالثَّمن حيث وجدها، قال أُسيد فكتبتُ إلى مروان أنَّ النبـيّ ﷺ قضى أنه إذا كان الذي ابتاعها من الذي سرقها غير متّهم، خيّر سيدها، فإن شاء أخذ الذي سُرق منه بالثَّمن وإن شاء اتبع سارقه. قال: وقضى بذلك أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

وقد يقول قائلٌ: إن ما ذكرته، صُحُفٌ صغيرة، ورسائل مفردة، لا تجمع العِلْمَ كلّه،.. وهذه الرسائل، لم تصل إلينا:

والجواب: إن هذه الرسائل الصغيرة كانت تجتمع إلى بعضها البعض، فيكون مجموعها مصنفاً. وقد روى المقريزي في الخطط ٢/٧٤ عن زيد بن أسلم العدوي (توفي سنة ١٣٦هـ) وهو تابعي ثقة قال: كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كلُّ عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهده.

وروينا أن عبد الله بن عباس ترك حمل بعير بعد موته، وهو صحف مفرقة

وروى الإمام أحمد في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبـي قبيل قال: «كُنَّا عند عبد الله بن عمرو، وسئل أي المدينتين تُفتح أولاً قسطنطينية، أو رومية، فدعا عبد الله بن عمرو بصندوق له حِلَقٌ، فأخرج منه كتاباً. . فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله نكتب إذْ سُئل رسول الله. . الحديث» ٢/ ١٧٦».

والشاهد فيه قوله «فدعا عبد الله بن عمر بصندوق له حلق، فأخرج منه كتاباً. .» وهذا يعني أنهم كانوا يجمعون الصحف التي يكتبون فيها العِلْم.

هذه الصحف لم تصل إلينا، لبعد العَهْد بيننا وبينها، ولأنها لم تكن يجمعها غلاف واحد يحفظها من الضياع. . ولكن هذه الصحف اطلع عليها التابعون ونقلوا عنها، أو نسخوها.

ويكفـي أن ثبـتَ وجـودهـا روايـةً، لإثبـات وجـود كتـابـة العلـم فـي عهـد الصحابة، ثم ازداد ذلك في عهد التابعين، الذين عمروا النصف الثاني من القرن الأول، والنصف الأول من القرن الثاني، إلى أن جاء عصر تابعي التابعين، فوصل التدوين والتصنيف والتأليف إلى تمامه.

ثالثاً: الكتابة والتدوين في عهد التابعين:

كانت الكتابة ــ كتابة الحديث والفقه ــ والتدوين يزدادان باضطراد في كلٍّ عقد من عقود القرن الأول. . فرأينا وجود الكتابة في العصر النبوي، وكانت قليلة، ربما لقلة الكاتبين، وربما لعدم حاجة الصحابة إلى ذلك، لأنهم في الجوار النبوي، فهم يتلقّون الفقه من رسول الله ويعملون به. . ولكن الكتابة تزداد بعد العصر النبوي عند صغار الصحابة بخاصة، لأنهم لم يحضروا الحياة النبويّة كلها، ولأنهم تأخر زمنهم وكثر التابعون أيامهم واحتاج الناسُ إليهم. . وإذا كان التدوين في أيام الصحابة، أو الذي نقل عن الصحابة، صحفاً صغيرة في أكثره، فإننا نجد التدوين في عصر التابعين يزداد حجماً، ويصل إلى مسمى «الكتاب» وإذا لم يصلنا شيء عن مدونات الصحابة، فإن مدوّنات التابعين قد

وصلنا بعضها عن طريق الروايات، وإنْ لم يصلنا نصُّها مفرداً. وسوف نرى أن تدوين التابعين كان في أكثره خلال القرن الأول الهجري، ويدل كل ما ذكرنا على أنَّ تابعي التابعين الذين ظهر أيامهم التدوين والتصنيف الذي وصلنا، إنما اعتمدوا في مصنفاتهم على المرويات المكتوبة، كما اعتمدوا على السماع الشفاهي. وسوف أذكر في هذه الفقرة أمثلة من التدوين في عهد التابعين الذين عاشوا في القرن الأول، وجزء من القرن الثاني.

١ ـ وأبدأ بأخبار عروة بن الزبير (٢٣ ـ ٩٤هـ).. حيث روى ابن سعد في الطبقات، عن هشام بن عروة قال: «أحرق أبي يوم الحرّة كتب فقه كانت له، فكان يقول بعد ذلك: لأن تكون عندي أحبّ إليّ من أن يكون لي مثلُ أهلي ومالي» [٥/ ١٧٩].

وروى الذهبي في [سير الأعلام ٤/ ٤٣٦] عن أبي الزِّناد قال: قال عروة: كُنّا نقول: لا نتخذ كتاباً مع كتاب الله، فمحوتُ كتبي، فوالله لوددت أن كُتُبي عندي، إنَّ كتاب الله قد استمرّت مريرتُه. ويظهر من الرواية الأولى أن عروة أحرق، أو محا كتبه سنة ٦٣هـ لأنَّ وقعة الحرّة كانت في هذه السنة. وقد عاش بعد هذا التاريخ حوالي ثلاثين سنة، وقد يكون كتب غيرها. ومما يُذكر هنا أن عروة كان فقيهاً ومحدّثاً، وراوي المغازي النبوية (السيرة) وقوله «كتب فقه» ليس معناه الفقه الاجتهادي المعروف، ولعله أراد بالفقه، ما يتعلق بأحكام الشرع مطلقاً، وقد يكون فيها الحديث النبوي، وفتاوى الصحابة، وقضاء الخلفاء الراشدين...

وقد وصلتنا روايات توحي بأن عروة كان قد جمع شيئاً من السيرة النبوية حيث شُهر في كتب التاريخ أنه من أوائل مَنْ ألّف فيها، وإذا كانت لم تصلنا منفردة، فإنها وصلتنا من روايات الطبري عنها مكتوبة حيث جرت مراسلات بين عبد الملك بن مروان وهو خليفة، وبين عروة يسأل فيها عبدُ الملك عروة عن مسائل من السيرة النبوية. فكان عروة يجيب عن سؤال عبد الملك كتابةً أو نقلاً

عن نسخة مكتوبة عنده، لأن الطبري يروي هذه النصوص عن هشام بن عروة وتقول الروايات إن عروة كتب إلى عبد الملك جواب كذا. . ولو كان عروة يملي من حفظه، ما استطاع هشام أن يروي النصَّ الحرفي لما كتب عروة، فلا بدَّ أنه ورث النسخة الأصلية، ورسائل عبد الملك إلى أبيه عروة. . .

وقد وجدنا نقولاً عند الطبري في الموضوعات التالية:

(أ) ٢/٣٢٨ (دار المعارف) في موضوع الهجرة إلى الحبشة: حدثنا علي بن نصْر بن علي، وعبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث، قال علي بن نصر: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، وقال عبد الوارث حدثني أبـي قال: حدثنا أبان العطار، قال: حدثنا هشام بن عروة؛ عن عروة: أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان، أما بَعْدُ. . (وذكر القصة) والسَّنَدُ موصول، ورجاله ثقات. (انظر التراجم في تهذيب التهذيب).

(ب) ٢/٣٦٦ ــ في الهجرة إلى المدينة. . بالسند نفسه. . ولم يقل كتب، ولكن يظهر أن الخبر تتمة لما سبق.

(جـ) ٢/٣٧٥ ــ في هجرة رسول الله إلى المدينة، بالسند نفسه بدون (كتب) ويظهر أنها في السياق السابق.

(د) ٢/٤٢١ في غزوة بدر الكبرىٰ، بالسند نفسه، يقول: كتب إلى عبد الملك أما بَعْدُ، فإنك كتبتَ إليَّ في أبـي سفيان ومخرجه. . ويذكر قصة الغزوة.

(هـ) ٣/٥٥ (طبعة دار المعارف) في فتح مكة، بالسند نفسه يقول: كتب إلي عبد الملك، أما بَعْدُ: فإنك كتبتَ إليَّ تسألني عن خالد بن الوليد هل أغار يوم الفتح، وبأمر مَنْ أغار؟. . (وذكر قصة فتح مكة).

(و) ٣/١٦٣: في قصة خديجة بنت خويلد زوج النبـيّ ﷺ بالسند نفسه

يقول: كتب إلى عبد الملك إنك كتبت إليَّ تسألني في خديجة بنت خويلد متى توفيت.. ويذكر الخبر...

(ز) ونقل لنا ابن هشام في السيرة، عن ابن إسحق نصّ رسالة كتبها عروة إلى عبد الرحمن بن هنيدة، في دمشق، يجيبه فيها عن سؤاله عن قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات﴾.. الآية.

قال ابن إسحق فحدثني الزهري عن عروة بن الزبير، قال: دخلتُ عليه وهو يكتب كتاباً إلى ابن أبـي هنيدة صاحب الوليد بن عبد الملك، وكتب إليه يسأله عن قوله تعالى.. الآية.

قال: فكتب إليه عروة بن الزبير يقول.. (سبب نزول الآية). [السيرة مجلد ٢/ ٣٢٦]. وانظر تفسير الطبري ٨/ ٤٢.

هذا، وإنَّ وحدة السند في الأخبار التي نقلها الطبري في السيرة النبوية يدلُّ على أن مجموع الرسائل كانت في حوزة هشام بن عروة، وهي مع غيرها من الروايات تمثّل تدويناً في السيرة، وإن لم يقصد عروة إلى تدوينها وجمعها. بين دفتي كتابٍ واحد. مع العلم، أن السيرة النبوية ــ المغازي ــ والحديث النبوي، لم يكونا مفصولين في بداية الرواية...

ونحن لا نشكُّ أن النصوص التي وصلتنا صحيحة السند، والمتن، في نسبتها إلى عروة بن الزبير على الأقل. ولذلك فإنها تُعَدُّ من أقدم نصوص النثر التاريخي العربـي، أو أقدم نصوص رواية السيرة النبوية، لأنها وصلتنا مكتوبة، ونستطيع أن نحدد زمن كتابتها في المدة ما بين سنة (٧٤ ــ ٨٦هـ) بعد نهاية فتنة عبد الله بن الزبير، وتفرغ عبد الملك بن مروان للخلافة، واتصال الودّ بين عروة وعبد الملك، بعد انقطاعه أثناء الفتنة.

٢ ــ ذكر الشيخ طاهر الجزائري في كتابه «توجيه النظر إلى أصول الأثر» قال: توهّم أُناسٌ أنه لم يقيّد في عصر الصحابة وأوائل عصر التابعين بالكتابة

شيء غير الكتاب العزيز، وليس الأمر كذلك، فقد ذكر بعض الحفاظ أن زيد بن ثابت ألّف كتاباً في علم الفرائض.. وذكر مسلم في صحيحه كتاباً أُلف في عهد ابن عباس في قضاء عليّ، فقال: حدثنا داود بن عمرو الضبي حدثنا نافع عن ابن أبي مليكة (١١٧هـ) قال: كتبتُ إلى ابن عباس أسأله أن يكتب لي كتاباً، ويخفي عني فقال: ولدٌ ناصح، أنا أختار له الأمور اختياراً، وأخفي عنه!! قال: فدعا بقضاء عليّ، فجعل يكتبُ منه أشياء، ويمرّ به الشيء فيقول: والله ما قضى بهذا عليٌّ إلا أن يكون ضلّ.

وحدثنا عمرو الناقد قال: حدثنا سفيان بن عُيينة عن هشام بن حجر عن طاووس قال: أُتـي ابنُ عباس بكتاب فيه قضاء عليّ فمحاه إلا قَدْر ــ وأشار سفيان بن عيينة بذراعه.

قال النووي: والظاهر أن الكتاب الذي محاه إلا قَدْر ذراع، على هيئة درج مستطيل»...

٣ ــ وفي ترجمة سعيد بن جبير ــ من التابعين ــ من طبقات ابن سعد، قال سعيد: ربما أتيتُ ابن عباس فكتب في صحيفتي حتى أملاها، وكتبتُ في نعلي حتى أملاها، وكتبتُ في كفّي.. وقال أيضاً: كنتُ آتي ابن عباس فأكتب عنه. وقال: كُنّا إذا اختلفنا بالكوفة في شيء كتبتُ عندي حتى ألقى ابن عمر فأسأله عنه.

٤ ــ وذكر المقريزي في الخطط ١٤٣/٤. قال أبو سعيد ابن يونس في تاريخ مصر عن حياة ابن شريح (حيوة بن شريح ــ ١٥٨هـ) قال: دخلتُ على حسين بن شُفَيْ وهو يقول: فعل اللّهُ بفلان، فقلتُ: ما له قال: عمد إلى كتابين كان شُفي بن ماتع (١٠٥هـ) سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص، أحدهما: قضى رسول الله في كذا وقال رسولُ الله كذا، والآخر ما يكون من الأحداث إلى يوم القيامة، فأخذهما فرمى بهما بين الخولة والرباب. يعني بالخولة والرباب، مركبين كبيرين من سُفن الجسر كانا يكونان عند رئيس الجسر مما يلي الفسطاط.

٥ ـ وفي ترجمة الحسن البصري من طبقات ابن سعد ٧/ ١١٥ قال يحيى بن سعيد القطان في أحاديث سمرة بن جندب التي يرويها الحسن عنه: سمعنا أنها من كتاب. وعن حميد قال: كان علم الحسن في صحيفة مثل هذه، وعقد عفان بالإبهامين والسبابتين. وقال الذهبي في [سير الأعلام ٤/ ٥٨٧]: اختلف النقاد في الاحتجاج بنسخة الحسن عن سَمُرة، وهي نحو من خمسين حديثاً، فقد ثبت سماعه من سمرة، فذكر أنه سمع منه حديث العقيقة.

وروى الذهبي في [سير الأعلام ٤/ ٥٨٤] عن أَصْبَغ بن زَيْد قال: مات الحسنُ وترك كتباً فيها علم.. وروي عن سهل بن الحصين الباهلي قال: بعثتُ إلى عبد الله بن الحسن البصري: ابعث إليّ بكتب أبيك فبعث إليَّ أنه لما ثقل قال لي: اجمعها لي، فجمعتُها له، وما أدري ما يصنعُ بها، فأتيت بها، فقال للخادم: اسجري التنور، ثم أمر بها فأحرقت، غير صحيفة واحدة، فبعث بها إليَّ، وأخبرني أنه كان يقول: ارْو ما في هذه الصحيفة، ثم لقيته بَعْدُ، فأخبرني به مشافهة بمثل ما أدّى الرسول.

٦ ـ صحيفة همّام بن مُنَبِّه:

يماني تابعيّ ثقة، توفي سنة ١٣٢هـ، وقد قارب المئة. وقد روى عنه الحفاظ صحيفة تسمى «صحيفة همّام بن منبه» كتبها عن أبي هريرة المتوفى سنة ٥٩هـ. قال ابن حجر في تهذيب التهذيب جـ١١: «عن أحمد بن حنبل كان همام بن منبّه، يغزو، وكان يشتري الكتب لأخيه وهب، فجالس أبا هريرة فسمع منه أحاديث، وهي نحو من أربعين ومئة حديث بإسناد واحد. وأدركه معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٤هـ وقد كبر (أي همّام) وسقط حاجباه على عينيه (وذلك باليمن، فقرأ عليه همام (أي الصحيفة) حتى إذا ملَّ أخذ معمر فقرأ الباقي، وكان عبد الرزاق ــ تلميذ معمر وكان معه عند هذه القراءَة على همام ــ لا يعرف ما قُرِىء عليه مما قرأ هو أي: لم يعرف ما قرأ همام، مما قرأ معمر عليه». (١١/ ٦٧).

وقد روى الإمام أحمد هذه الصحيفة عن عبد الرزاق في موضع واحد من المسند في ٢/ تبدأ من الصحيفة ٣١٢ ــ ٣١٩. أما في طبعة الشيخ أحمد شاكر فجاءَت في الجزء السادس عشر، ابتداء من الحديث رقم (٨١٠٠) إلى حديث رقم (٨٢٣٥).

قال الشيخ أحمد شاكر: «هذه صحيفة «همّام بن منبّه» التي رواها وكتبها عن أبـي هريرة، ورواها عنه منهم عبد الرزاق بن همّام إمام أهل اليمن، عن معمر بن راشد، ورواها الأئمة والحفاظ عن عبد الرزاق. قال: وأجلُّ مَنْ رواها عن عبد الرزاق، وأعظمهم وأوثقهم وأثبتهم إمام أهل السنة.. أحمد بن حنبل.. وقد ساقها كلها في هذا المسند في موضع واحد، بإسناد واحد: حدثنا عبد الرزاق بن همّام، حدثنا معمر، عن همام بن منبّه قال: هذا ما حدثنا به أبو هريرة، عن رسول الله ﷺ.. ثم ساقها حديثاً حديثاً. قال أحمد شاكر: وهذه الصحيفة من أوائل ما كتب في الحديث النبوي، وهي تُعَدُّ تأليفاً مستقلاً، بكتابة همّام إياها، وهمام مات سنة ١٣٢هـ. قال: والظاهر أنه كتبها عن أبـي هريرة مباشرة، أعني أنه كتبها في حياة أبـي هريرة، وأبو هريرة مات سنة ٥٩هـ.

ولنا عند هذه الصحيفة وقفة، نقول فيها: هذه صحيفة في الحديث النبويّ، موصولة السند كتابةً إلى منتصف القرن الأول، كتبها تابعي ثقة عن لسان الصحابـي أبـي هريرة رضي الله عنه، ونقلها عن همّام راويةٌ كاتبٌ وهو معمر، بل رواها عنه مكتوبةً، ثم رواها عنه كاتب ومؤلف هو عبد الرزاق الصنعاني الثقة وأوصلها إلى أحمد بن حنبل الثقة مكتوبة، ووصلتنا عن أحمد بن حنبل في مسنده.. ولأحاديث الصحيفة طرق أُخرى غير هذه الطريق.. فمن أين يأتي إلى نصّ ولفظ الصحيفة الضعف والتحريف، وهي مروية بلفظها مكتوبة..؟ ويمكننا أن نؤكّد أن لفظ الصحيفة موصول إلى النبـيّ ﷺ، لأن راويها عن النبـيّ ﷺ، أبو هريرة، صاحب الذاكرة الخارقة.. (انظر باب حفظ العلم، في البخاري من كتاب العلم، وكتاب «فضائل الصحابة في صحيح مسلم»).

.. وبعد هذا، كيف جاز لبعض النحويين أن يدّعوا أن الحديث تناقلته الأعاجم قبل تدوينه؟ ولذا امتنعوا من الاستشهاد به في النحو.. ولا شكَّ أن هناك صحفاً صغيرة أو كبيرة كُتبت في عهد التابعين، منقولة من لفظ الصحابة، وقد مرّ معنا أن نصوصاً في السيرة وصلت إلى الطبري عن طريق عروة، وعروة تابعي ابن صحابي، وأخو صحابي ـ عبد الله ـ وابن أخت صحابية ـ عائشة ـ وكلامه مما يستشهد به في اللغة، ولا بدَّ أن أحاديث نبويّة وصلت عنه مكتوبة، ولكنها لم تكن مجموعة في كتاب متعدد الصفحات فلم ينقل الرواةُ أخبارها، واكتفوا بالرواية عنه، بما يشبه السماع الشفاهي.. ورأينا أن الحسن البصري يروي صحيفة عن الصحابي سمرة بن جُندب.. إنَّ النحويين الذين رفضوا الاستشهاد للنحو بالأحاديث، لم يكن عندهم عِلْمٌ بأخبار التدوين، ونظروا إلى الحديث مجموعاً في المصنفات الكبرى، وظنوا أنه كان بداية التدوين والكتابة.

٧ ـ في طبقات ابن سعد ٦/٦٣ من ترجمة عبيدة بن قيس السلماني، ممن أسلم قبل وفاة النبيّ ﷺ، ولكنه لم يلقه، وتوفي سنة ٧٢هـ عن النعمان بن قيس قال: «دعا عبيدة بكتبه عند موته فمحاها، وقال: أخشى أن يليها أحدٌ بعدي، فيضعونها في غير موضعها».

ولعلَّ الذين رووا عنه أدركوها قبل محوها، وكتبوا عنها...

٨ ـ والإمام محمد بن شهاب الزهري، يوازي أبا هريرة في التابعين في كثرة حفظه وقوة ذاكرته، وفصاحة لسانه، وقد ولد حوالي سنة خمسين وتوفي سنة ١٢٣هـ.. قال معمر عن صالح بن كيسان، كنتُ أطلب العلم أنا والزهري، فقال: تعال نكتب السنن، قال: فكتبنا ما جاء عن النبيّ ﷺ. قال: تعال نكتب ما جاء عن الصحابة، قال: فكتب، ولم أكتب، فنجح وضيعتُ. فعلى هذا يكون قد كتب السنن المرفوعة مجردة، ثم لما أفردها كتب ما جاء عن الصحابة.. وروى ابن سعد عن معمر قال: كُنَّا نرى أنا أكثرنا عن الزهري، حتى قُتِل

الوليد بن يزيد (١٢٦هـ) فإذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزائنه، يقول: من علم الزهري.

وفي ترجمة ابن شهاب من وفيات الأعيان لابن خلكان أنه كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا فقالت له امرأته يوماً: «والله لهذه الكتب أشدُّ عليَّ من ثلاث ضرائر». وفي كشف الظنون أن لابن شهاب كتاب المغازي، وربما رواه عنه عبد الرزاق في المصنف، عن معمر.

.. أقول: وما ذكرتُه من تدوين الصحابة والتابعين حديث رسول الله، قليلٌ من كثير نجده في تراجم الصحابة والتابعين.. وإذا كانت عناية المسلمين العرب قد ظهرت في تدوين موضوعات أُخرى لا تتصل بالدين، فإن عنايتهم بتدوين الحديث، وفقه الصحابة كانت أشدَّ...

٩ ــ وقد وصلت إلينا أخبارٌ عن التدوين المبكر لموضوعات في اللغة والتاريخ منها ما ذكره ابن خلكان في ترجمة أبـي عمرو بن العلاء، زبّان بن عمّار (٦٥ ــ ١٥٤هـ) أحد القرّاء السبعة، أن كتبه التي كُتبت عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً إلى قريب من السقف.. قالوا: وأكثر ما دونه من اللغة عن عرب حضروا الجاهلية.

وترجم ابن حجر في «الإصابة» القسم الثالث، عبيد بن شرية، أحد المعمرين ويقال إنه عاش ٣٠٠ سنة، وتوفي في خلافة عبد الملك بن مروان ونقل ابن حجر أن معاوية بن أبـي سفيان كان مستشرفاً لأخبار حمير فقال له عمرو بن العاص: أين أنت عن عبيد بن شرية، فإنه أعلم مَنْ بقي بأخبارهم وأنسابهم، فكتب إليه يأخذ منه الأخبار، فألفها كتاباً وقد زيد فيه ونقص، فلا يؤخذ منه نسختان مستويتان [الإصابة ٣/١٠١ وانظر قصته في الفهرست لابن النديم ص ٨٩].

ولوهب بن منبّه، أخي همام بن منبّه، كتابٌ في الملوك المتوجين من حمير وأخبارهم وأشعارهم وقصصهم، قال ابن خلكان: إنه شاهده بنفسه وأنه في مجلد واحد، وهو من الكتب المفيدة.

وانظر ترجمة خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥هـ، في «وفيات الأعيان» لابن خلكان، وفيه أن المذكور له رسائل في الكيمياء والطب.

* * *

رابعاً: من أدلة صحة ما وصلنا من الحديث الصحيح، نقول: إنَّ كتابة الحديث، ليست الطريق الوحيدة لصحته فلا بدَّ مع الكتابة من سماع الشيخ ورؤيته، والجلوس في مجلسه. ولذلك فإن علماء مصطلح الحديث ذكروا طرق تحمّل الحديث، وجعلوا أرفعها عند الجماهير.

سماع لفظ الشيخ، إملاءً أو غير إملاء، من حفظٍ ومن كتابٍ.. وتساويها في المنزلة:

القراءَة على الشيخ، ويسميها أكثر المحدّثين عَرْضاً سواءٌ قرأت أو قرأ غيرك وأنت تسمع من كتابٍ أو حفْظٍ. حَفِظ الشيخُ أمْ لم يحفظْ، إذا أمسك أَصْلَه هو، أو ثقةٌ...

فالمعاصرة، وثبوت اللقاء، وتوثيق الراوي بشروط دقيقة من عهد التابعين إلى شيخ المصنف، وتعدد روايات الحديث، مع اختلاف طرقه، كل هذه الشروط مشروطه لصحة الحديث أو قبوله.

فالحديث الذي يرويه الصحابي عن رسول الله ﷺ، يرويه عنه عدد من التابعين، ويرويه عنهم عدد آخر، تجتمع لهم العدالة والضبط والصدق والفهم والوعي واليقظة.. مع اتصال السند من البداية إلى النهاية، ولمعرفة إحدى طرقهم في صحة الحديث، نذكر أنهم قالوا: إن في مسند الإمام

أحمد بن حنبل أربعين ألف حديث، منها عشرة آلاف مكررة، يعني مروية بطرق متعددة.

وجملة ما في صحيح البخاري ٧٢٧٥ حديث، بالمكررة، فإذا حذفنا المكررة بقي منها حوالي ٢٦٠٠ حديث.

وفي صحيح مسلم اثنا عشر ألف حديث، وقيل: ثمانية آلاف، وبإسقاط المكرر يبقى نحو أربعة آلاف.

قالوا: وهو يزيد على البخاري بالمكرر، لكثرة طرقه.. [تدريب الراوي ١/ ١٠٤].

وقال ابن حجر في مقدمة [الفتح ص ١٥]: «الفصل الثالث: في بيان تقطيع البخاري الحديث واختصاره وفائدة إعادته له في الأبواب وتكراره».

قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي، فيما رويناه عنه في جزء سماه «جواب المتعنّت»: اعلم أن البخاري ــ رحمه الله ــ كان يذكر الحديث في كتابه في مواضع ويستدلّ به في كل باب بإسناد آخر، ويستخرج منه بحسن استنباطه وغزارة فقهه معنى يقتضيه الباب الذي أخرجه منه، وقلما يُورد حديثاً في موضعين بإسناد واحد ولفظ واحد، وإنما يُورده من طريق أُخرى لمعانٍ نذكرها والله أعلم بمراده منها:

فمنها: أنه يُخرج الحديث عن صحابي، ثم يُورده عن صحابي آخر، والمقصود منه أن يخرج الحديث عن حدّ الغرابة. وكذلك يفعل في أهل الطبقة الثانية والثالثة، وهلمَّ جرّا، إلى مشايخه، فيعتقد مَنْ يرى ذلك من غير أهل الصنعة أنه تكرار، وليس كذلك لاشتماله على فائدةٍ زائدة.

ومنها: أنه صحح أحاديث على هذه القاعدة، يشتمل كل حديث منها على معان متغايرة فيورده في كل باب من طريق غير الطريق الأولى.

ومنها أحاديث يرويها بعض الرواة تامة ويرويها بعضهم مختصرة، فيوردها كما جاءَت ليزيل الشبهة عن ناقليها.

ومنها أن الرواة ربما اختلفت عباراتهم، فحدث راوٍ بحديث فيه كلمة تحتمل معنى وحدّث به آخر، فعبر عن تلك الكلمة بعينها بعبارة أُخرى تحتمل معنى آخر، فيورده بطرقه، إذا صحت على شرطه، ويفرد لكل لفظة باباً مفرداً.

ومنها أحاديث تعارض فيها الوصلُ والإرسال، ورجح عنده الوصل، فاعتمده وأورد الإرسال منبّهاً على أنه لا تأثير له في الوصل.

ومنها: أحاديث تعارض فيها الوقف والرفع، والحكم فيها كذلك.

ومنها: أحاديث زاد فيها بعض الرواة رجلاً في الإسناد ونقّصه بعضهم فيوردها على الوجهين حيث يصح عنده أن الراوي سمعه من شيخ حدّثه به عن آخر، ثم لقي الآخر فحدّثه به، فكان يرويه على الوجهين ومنها: أنه ربما أورد حديثاً عنعنه راويه، فيورده من طريق أُخرى مصرحاً فيها بالسماع على ما عرف من طريقته في اشتراط ثبوت اللقاء في المعنعن.

وأما تقطيعه الحديث في الأبواب تارة، واقتصاره منه على بعضه أُخرى، فذلك لأنه إن كان المتن قصيراً أو مرتبطاً بعضه ببعض، وقد اشتمل على حكمين فصاعداً، فإنه يعيده بحسب ذلك، مراعياً مع ذلك عدم إخلائه من فائدة حديثية وهي إيراده له عن شيخ سوى الشيخ الذي أخرجه عنه قبل ذلك، فنستفيد بذلك تكثير الطرق لذلك الحديث.

قال ابن حجر: وهذا يقتضي أنه لا يتعمد أنْ يُخرج في كتابه حديثاً معاداً بجميع إسناده ومتنه، وإن كان وقع له من ذلك شيء، فعن غير قصد، وهو قليل جداً..

* * *

٣ ـ مجمل العلوم الأخرى المتداولة في القرن الأول، غير القرآن والحديث

ذكر أبو نعيم في «الحلية» في ترجمة ابن عباس، أن طلاب العلوم كانوا يزدحمون عليه حتى يضيق بهم الطريق، فرتبهم في التقديم على حسب مطالبهم ولم يراع في ذلك سابقاً. فنادى بالطالبين للقرآن وحروفه، فإذا فرغوا دعا مَنْ طلب تفسير القرآن وتأويله، فجعلهم في الرتبة الثانية، فلما فرغوا دعا مَنْ طلب الحلال والحرام والفقه فجعلهم في الثالثة، فلما فرغوا دعا مَنْ طلب الفرائض وما أشبهها، فجعلهم في الرابعة، فلما فرغوا: دعا مَنْ طلب العربية والشعر والغريب من الكلام، فجعلهم في الخامسة.

.. ويمثل هذا الخبر، أكثر العلوم تداولاً في زمن عبد الله بن عباس، ولكن بقيت علوم أخرى لم يذكرها الخبر، وتدل الآثار المروية على أنها كانت متداولة في المدينة في القرن الأول:

(أ) من ذلك «علم الأنساب»:

وقد وردت في ذلك أحاديث وآثار صحيحة تدل على تداول هذا العلم بينهم، منها: قوله عليه السلام «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال، مُنْسأة في الأثر» رواه السيوطي في «الجامع» وعزاه إلى أحمد والترمذي والحاكم، عن أبي هريرة، ورمز إليه بعلامة «صحيح».

قال ابن حزم في مقدمة «الجمهرة»: وكان أبو بكر، وأبو الجهم بن حذيفة العدوي وجُبير بن مطعم.. من أعلم الناس بالأنساب، وكان عمر وعلي وعثمان فيه علماء وإنما ذكرنا أبا بكر وأبا الجهم وجبيراً قبلهم لشدة رسوخهم في العلم بأنساب العرب، وقد أمر رسول الله حسان بن ثابت أنْ يأخذ ما يحتاج إليه من علم أنساب قريش عن أبي بكر، وهذا يكذّب قولَ مَنْ نسب إلى رسول الله

قوله: «إن النسب علم لا ينفع، وجهل لا يضرّ» لأن هذا القول لا يصح، وكل ما ذكرناه صحيح مشهور منقول في الأسانيد الثابتة... وما فرض عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب الديوان، إذ فرض، إلا على القبائل، ولولا علمهم بالنسب ما أمكنهم ذلك، وفي ترجمة أبي بكر من تاريخ الخلفاء «كان الصديق أعلم الناس بأنساب العرب، لا سيما قريش».. وأخرج ابن إسحق عن يعقوب بن عنبسة قال: كان جُبير بن مطعم من أنسب قريش لقريش، والعرب قاطبة وكان يقول: إنما أخذتُ النسب من أبي بكر الصديق.

(ب) ومنها «القصّة» أو «القصص»:

ويؤخذ من الروايات، أنه وَعْظٌ وتذكير[1]، تستخدمُ فيه القصة، كأن يَذْكُرَ المتكلمُ ما كان في الأمم الماضية من أحداثٍ فيها عظةٌ وعبرة.. قال تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب﴾ [يوسف: ١١١]. وقال تعالى: ﴿ولقد جاءَهم من الأنباءِ ما فيه مزدجر﴾ [القمر: ٤]. وروي أن عبد الله بن عباس مرّ على عُبيد بن عمير، وهو يقصُّ، فقال: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل﴾.. الآية.. ﴿واذكر في الكتابِ إدريس﴾.. الآية. ذكرنا بأيام الله، وأثن على مَنْ أثنى اللَّهُ عليه.

ويظهر أنه بدأ منذ العهد النبويّ، لما روى الإمام أحمد، وأبو يعلى عن أبي أُمامة قال: خرج رسول الله على جماعة وقاصّ يقصّ، فلما رأى رسول الله أمسك، فقال النبيّ ﷺ: «قصَّ، فلأنْ أقعد هذا المقعد غُدْوةً إلى أن تشرق

(١) روى البخاري في كتاب الأدب، باب ٩١ أن الهيثم بن أبي سنان «سمع أبا هريرة في قصصه يذكر النبيّ ﷺ، يقول: إن أخاً لكم لا يقول الرَّفث ـ يعني بذلك عبد الله بن رواحة ـ قال: (وروى ثلاثة أبيات من شعر عبد الله بن رواحة) يمدح فيها رسول الله، ويذكر هديه في قيام الليل. والشاهد أنه سمّى الموعظة قصّة. لأنه ذكر أخبار النبيّ ﷺ، وأخبار الصحابة ليكون فيها العظة.

الشمس، أحبُّ إليَّ من أن أعتق أربع رقاب، ولأن أقعد هذا المقعد بعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس أحبُّ إليَّ من أن أعتق أربع رقاب». [أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» وعزاه لأحمد والطبراني في الكبير، قال: ورجاله موثقون، إلا أن فيه أبا الجعد عن أبـي أُمامة، فإن كان هو الغطفاني، فهو من رجال الصحيح وإن كان غيره، فلم أعرفه] وفي الموضوع أحاديث أُخرى. [انظر: «كتاب القُصّاص والمذكرين» لابن الجوزي ص ١٦٣، وما بعدها]. وقد جاءَت أخبار، أنه لم يكن يقصُّ على عهد رسول الله ولا أبـي بكر، وكان أول مَنْ قصَّ تميم الداري، استأذن عمر أن يقصَّ على الناس قائماً، فأذن له عمر.. وفي خبر آخر، نفيُ وجود القصص من الزمن النبوي وزمن أبـي بكر وعمر.. وإنما كان القصص حين كانت الفتنة. [انظر كتاب القصاص والمذكرين ١٧٧].. وللجمع بين الآراء، نقول: لعلَّ الذي روى النفي، لم يصله الحديث النبوي.. أو أنه يريد أن القصص لم يشتهر ويكثر، ويصبح ملتزماً إلا بعد العهد النبوي.. [انظر: تاريخ المدينة لابن شبة ١/٨ ــ وما بعدها].

ويظهر أنه كان فيما بَعْدُ متخصصون لهذا الفنّ، لما روى ابن شبة أن عائشة قالت لقاصّ المدينة: «ضعْ صوتك عن جلسائك، وتحدث ما أقبلوا عليك بوجوههم، فإذا أعرضوا عنك فأمسك، وإياك والسجع في الدعاء» [تاريخ المدينة جـ ١].

وفي رواية أُخرى سُمِّـي ابن أبـي السائب «قاص أهل المدينة» وفي رواية أُخرى «كان مسلم بن جندب (١١٠هـ) قاصاً لأهل المدينة فقرأ سجدةً بعد صلاة الصبح، فقال سعيد بن المسيب: لو كان لي على هذا الأعرابـي الجافي سلطان، لم أزل أضربه حتى يخرج من المسجد». وسمي في رواية أُخرى «قاصّ الجماعة» [ابن شبة ١/ ١٤].

وروى ابن شبة أن القاص أصبح وظيفة لها راتب.. فروى عن مالك بن أنس أن عمر بن عبد العزيز أمر رجلاً وهو بالمدينة أن يقصَّ على الناس وجعـل

لـه دينـارين من كل شهر، فلما قدم هشام بن عبد الملك جعل له ستة دنانير في كل سنة.

ويظهر أن الأوقات التي كان القاص يجلس فيها: بعد صلاة الفجر حتى تشرق الشمس، وبعد صلاة العصر حتى قبيل المغرب، وقُبيل صلاة الجمعة، وهي الأوقات التي يفرغ فيها الناس للسماع، ولا زال المسجد النبوي في المدينة يتبع أهلُه هذه السنة، بعد صلاة الفجر، وما بين العصر والمغرب.. أما قبيل صلاة الجمعة، فلا يتحدث أحدٌ في هذا الوقت، وفي البلاد العربية الأخرى استبدلوا القرآن بمجلس الموعظة...

(جـ) الشـعـر:

١ ـ وهل يُعَدُّ الشعر عِلْماً؟ الجواب: نَعَمْ! لأن قائل الشعر يَعْلَمُ ما لا يعلمُ غيره من أصول هذا الفنّ.. ولفظ «الشعر» في أصله اللغوي «العلم» ثم اختصّ بهذا الفنّ، ومنه قولهم: ليت شعري.. أي: ليتني أعلم. وهو عِلمٌ، لمن قرأه أو سمعه، لأنه يزوده بما في القصيدة من الأحداث التاريخيّة والاجتماعية..، ويساعد على تقويم اللسان، ولذلك قالوا: «الشعر ديوان العرب»[١].

٢ ـ واستماع الرسول الكريم إلى الشعر، جاء في أخبار صحيحة، كما صح أيضاً استخدام الشعر في المعركة بين المسلمين والمشركين.. وفي هذا الباب أحاديث صحيحة، فقد أخرج الشيخان من حديث عائشة، عن النبـيّ ﷺ قال: «اهجوا قريشاً، فإنه أشدُّ عليها من وَقْع النَّبْل، فأرسل إلى ابن رواحة، فقال: اهْجُهمْ، فلم يُرْض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان،

(١) قال ابن قتيبة في مقدمة «الشعر والشعراء»: «وكان حقُّ هذا الكتاب أن أودعه الأخبار عن جلالة قدر الشعر.. وعما أودعته العرب من الأخبار النافعة والأنساب الصحاح والحكم المضارعة لحكم الفلاسفة والعلوم في الخيل والنجوم وأنوائها.. والرياح.. والبروق». وبقي الشعر في الإسلام متصلاً بالحياة ينقل صورة حيّة لما يعاصره الشاعر.

فلما دخل عليه قال حسان: قد آنَ لكم أنْ تُرسلوا إلى هذا الأسد الضّارب بذنبه[1]، ثم أدلع لسانه، فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحقّ، لأفرينّهم بلساني فَرْيَ الأديم». [البخاري في الأدب رقم ٦١٥٠، ومسلم في فضائل حسان رقم (٢٤٨٧)]. قالت عائشة: «فسمعت رسول الله يقول لحسان: إن روح القدس لا يزال يؤيدك، ما نافحت عن الله ورسوله»[2] [صحيح مسلم ـ مناقب حسان].

---

(١) قوله: الضارب بذنبه: أراد بلسانه. حيث شبه نفسه بالأسد في انتقامه وبطشه إذا اغتاظ وحينئذٍ يضرب بذنبه جنبيه، كما فعل حسان بلسانه حين أدلعه فجعل يحركه، فشبه نفسه بالأسد، ولسانه بذنبه.

(٢) وما أخبر عنه رسول الله ﷺ، وقع لحسان حقاً. ولذلك، لا يصحُّ ما يتناقلُه الرواة ودارسو الأدب، من وصف حسان بن ثابت بالجُبْن. لأن حكمهم يعتمد على قصة حسان مع صفية بنت عبد المطلب يوم الخندق، التي تقول إن حسان جَبُن عن قتل يهودي أطاف بالحصن فقتلته صفيّة. وهذه القصة ترويها الكتبُ بأسانيد، لم يصحَّ منها سند. رواها أبو يعلى في مسنده، وفي السند محمد بن الحسن بن زبالة، وهو متروك، لأنه كذّاب خبيث لم يكن بثقة.. (انظر مسند أبـي يعلى بتحقيق الشيخ حسين أسد ٢/ ٤٣).
وروى القصة ابن هشام في السيرة عن ابن إسحق عن يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير عن صفية.. (مجلد ٢/ ٢٢٨) فالسند منقطع، لأن عباد بن عبد الله، لم يدرك صفيّة.
وقال السهيلي: ومجمل هذا الحديث عند الناس على أن حسان كان جباناً شديد الجبن، وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكره، وذلك أنه حديث منقطع الإسناد، ولو صح هذا لهُجي به حسان، فإنه كان يُهاجي الشعراء كضرار وابن الزبعرى وغيرهما، وكانوا يناقضونه ويردون عليه، فما عيّره أحد منهم بجُبْن، ولا وسمه به، فدلَّ هذا على ضعف حديث ابن إسحق. وإن صحَّ فلعل حسان أن يكون معتلاً في ذلك اليوم بعلة منعته من شهود القتال. وممن أنكر أن يكون هذا صحيحاً أبو عُمر رحمه الله في كتاب الدرر.
ونقل ابن حجر في الإصابة أن القصة رواها ابن أبـي خيثمة وابن منده من رواية أم عروة بنت جعفر بن الزبير عن أبيها جعفر عن جدتها صفية وهو إسناد مرسل أيضاً لأن جعفر بن الزبير لم يدرك جدته صفيّة ولم يرو عنها. وأخرج القصة ابن سعد عن هشام عن أبيه عروة.. وهو إسناد منقطع، لأن عروة لم يرو عن أبيه الزبير، فكيف يروي عن جدته صفية وقد ماتت أيام عمر بن الخطاب.. فكيف يؤيدُ روحُ القدس حساناً ويكون جباناً.

وأخرج الإمام أحمد في مسنده (٣/٤٥٦، ٤٦٠) عن كعب بن مالك أنه حين أنزل الله تعالى في الشعر ما أنزل، أتى النبيّ ﷺ فقال: إنَّ الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت، وكيف ترى فيه؟ فقال النبيّ ﷺ: «إن المؤمن يجاهدُ بسيفه ولسانه، وفي رواية: اهجوا بالشعر، إن المؤمن يجاهد، بنفسه وماله، والذي نفسي بيده، لكأنما تنضحونهم بالنَّبْل».

وعن جابر بن سمرة، قال: «جالستُ النبيّ ﷺ، أكثر من مئة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية، فربما تبسم معهم». [أخرجه الترمذي برقم (٢٨٥٠) وقال: حديث حسن صحيح].

وعن الشريد بن سويد الثقفي قال: «رَدِفْتُ رسول الله ﷺ يوماً فقال: هل معك من شعر أُمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم! قال: هيه! فأنشدتُه بيتاً، فقال: هيه، ثم أنشدتُه بيتاً، فقال: هيه، حتى أنشدتُه مئة بيت». [أخرجه مسلم في الشعر رقم (٢٢٥٥).

وعن سعيد بن المسيب، قال: مرّ عمر بن الخطاب بحسّان وهو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه، فقال: قد كنتُ أنشد وفيه مَنْ هو خيرٌ منك، ثم التفت حسان إلى أبي هريرة فقال: أسمعتَ رسول الله يقول: أجب عني، اللهم أيده بروح القدس؟ قال: اللهم نعم. فانطلق عمرُ عنه. [أخرجه أبو داود في «الأدب» رقم ٥٠١٣، والنسائي في المساجد].

ورُوي عن الإمام مالك في «الموطأ» أنه بلغه أن عمر بن الخطاب بنى رَحَبَةً في ناحية المسجد تُسمىٰ البُطيحاء، وقال: «مَنْ كان يريد أن يلغطَ أو يُنشدَ شعراً أو يرفع صوته، فليخرج إلى هذه الرَّحَبَة». [الموطأ ١/١٤٤ ــ من تنوير الحوالك].

٣ ــ أما الأحاديث التي وردت في النهي عن الشعر، وفيها أحاديث صحيحة، فالظاهر أن المقصود بالشعر فيها، شعر المجون، أو أن يشتغل الإنسان

بالشعر ويكون الغالب عليه. فيشغله عن القرآن والسُّنة، أو المقصود رواية الأشعار التي تحرك العصبية القبلية.. ولذلك بوّب البخاري في صحيحه «باب: ما يُكْرِه أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن» وأخرج حديثي أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم. [انظر: فتح الباري ١٠/٥٤٨]. قال ابن حجر: «مناسبة هذه المبالغة في ذمّ الشعر أن الذي خوطبوا به كانوا في غاية الإقبال عليه والاشتغال به فزجرهم عنه ليقبلوا على القرآن، وعلى ذكر الله وعبادته» [الفتح: ١٠/٥٤٨].

٤ ــ وقد صارت رواية الشعر في جيل التابعين، ومَنْ بَعْدهم من لوازم طلب العلم، بل من بدايات طلب العلم، لما روي في ترجمة الإمام الزهري ــ من التابعين ــ أنه كان أول ما أخذ من العلم: الأنساب ورواية الشعر، وروي أن رجلاً جاء إلى الزهري فقال: حدثني، فقال: إنك لا تعرف اللغة، قال: فلعلي أعرفها قال: فما تقول في قول الشاعر:

صريع ندامى يرفع الشربُ رأسه ... وقد مات منه كلُّ عضوٍ ومفصلُ

.. ما المفصلُ؟ قال: اللسان. قال: أُغدُ عليَّ أحدثك. [انظر: كتابنا «الإمام الزهري» ــ في سلسلة أعلام المسلمين ــ عن دار القلم].

وروي عن ابن عباس قال: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي عليكم الحرف من القرآن الذي أنزله اللَّهُ بلغة العرب، ارجعوا إلى ديوانها، فالتمسوا معرفة ذلك منه». وخطاب ابن عباس، لتلاميذ التابعين.

وقد أمضى الإمام الشافعي سنوات في بني هذيل، يأخذ اللغة منهم ويروي أشعارهم. قال الأصمعي: أخذت شعر هذيل عن الشافعي.

وبيّن الشافعي سبب طلبه اللغة والشعر فقال: «ما أردت بتعلم العربية والأخبار إلا الاستعانة على الفقه». [مناقب الشافعي، للبيهقي ٢/٤٢] وقال

الإمام الشافعي: «لا يحلُّ لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله.. إلى أن قال: ويكون بصيراً باللغة بصيراً بالشعر..» الخ [الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٢/١٥٧].

٥ ــ هل خَبَتْ جذوةُ الشِّعر في العهد النبوي؟

لم تَخْبُ عاطفة الشعراء في العهد النبويّ، ولكنَّها أصبحت تثور بالعقيدة الإسلامية، وللعقيدة الإسلامية...

وقد ثبت أن ثلاثة من شعراء الأنصار المخضرمين، وقفوا شعرهم على الدفاع عن المسلمين: وهم حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك... وثبت أن الرسول عليه الصلاة والسلام، حثَّ الأنصار على الدفاع عن الإسلام بلسانهم، كما دافعوا عنه بأيدهم [انظر: الفتح ١٠/٥٤٧]. وانظر [البخاري، كتاب الأدب، باب هجاء المشركين]. وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي، وصححه ابن حبان أن رسول الله قال: «جاهدوا المشركين بألسنتكم». والطبراني من حديث عمار بن ياسر قال: «لما هجانا المشركون، قال لنا رسول الله «قولوا لهم كما يقولون لكم». فإن كنا لنعلّمه إماء أهل المدينة». [الفتح ١٠/٥٤٧].

وانظر «السيرة النبويّة، لابن هشام» فإنك واجد أشعاراً كثيرة، بعد الهجرة إلى المدينة، منها ما يسبق الغزوات، ومنها ما يأتي في أعقابها.

وانظر كتاب «شعر الدعوة الإسلامية» جمعه عبد الله بن حامد الحامد، من بطون كتب السيرة والتاريخ، واقتصر فيه على الشعر الذي قيل في عهد النبوّة والخلفاء الراشدين.

وبوّب البخاري في «كتاب الأدب» باب ما يجوز من الشِّعْر والرجز والحُداء وما يُكرهُ منه. واستشهد بالآية: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون..﴾ الآية. ﴿إلا

الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بَعْدما ظلموا﴾. قال ابن حجر في [الفتح ١٠/ ٥٣٩] وأخرج ابن أبي شيبة من طريق مرسلة قال: لما نزلت ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ جاء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وهم يبكون، فقالوا: يا رسول الله، أنزل ٱللَّهُ هذه الآية وهو يَعْلَمُ أنا شعراءُ، فقال: اقرؤوا ما بعدها ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أنتم ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ أنتم. وقال السهيلي: نزلت هذه الآية في الثلاثة، وإنما وردت بالإبهام ليدخل معهم مَنْ اقتدى بهم.

وقد ثبت أن المسلمين كانوا يتمثلون بالشعر، أو يرتجزون به، أو يحدون به إبلَهم، ويفعلون ذلك في السلم والحرب، والإقامة والسفر: وإليك أمثلة مرويّة بالأسانيد الصحيحة:

الأول: عندما قدم المسلمون المدينة وأصابت أبا بكر، وبلالاً الحمّىٰ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحُمّىٰ؛ يقول:

كلُّ امرىء مُصبِّحٌ في أهْلِه ... والموتُ أدنى من شراك نَعْلِه

وكان بلالٌ يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليتَ شعري هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادٍ وحولي إذْخِرٌ وجليلُ

وهل أَرِدَنْ يوماً مياه مجنةٍ ... وهل يَبْدُوَنْ لي شامة وطفيل

أما بيت أبي بكر، فهور رجزٌ يظهر أنه من إنشائه، وأما قول بلال فإنه تمثّل بالبيتين، وهما لبكر بن غالب الجرهمي قالهما عندما نفتهم خزاعة عن مكة. [انظر كتابنا: المعالم الأثيرة، مادة: أذاخر].

وإذخر، وجليل: نباتان من نباتات مكة. ومجنة: أو سوق مجنة بالقرب من مكة. وشامة وطفيل: جبلان من مكة أو نواحيها.

.. وبلال هنا، يتشوق إلى ديار مكة التي نشأ فيها. [انظر قصة أبي بكر وبلال في البخاري، كتاب مناقب الأنصار].

الثاني: كان شعراءُ الصحابة ينفعلون بالأحداث الجارية، ويسجلونها، إما فرحاً بنصر، وتعيير قريشٍ بهزيمة، وإما تثبيتاً لقلوب المؤمنين وتعزيتهم إذا كانت مقْتلة:

ومن ذلك ما رواه البخاري في باب «حديث بني النضير» عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ حرّق نَخْل بني النضير، قال: ولها يقول حسان بن ثابت:

وَهَانَ على سَرَاةِ بني لُؤَيّ ... حَرِيقٌ بالبويرة مستطير[1]

.. قال: فأجابه أبو سفيان بن الحارث ــ وكان مشركاً ــ:

أدام اللّهُ ذلك من صنيعٍ ... وحرّق في نواحيها السعير[2]

ستَعْلَمُ أيُّنا منها بنُزْهٍ ... وَتَعْلَمُ أيّ أرْضينا تضيرُ

---

(١) هذا البيت آخر قطعةٍ يقولُ فيها:

تَفَاقَدَ مَعْشَرٌ نَصَروا قريشاً ... وليس لهم ببلدتهم نصيرُ

هُمُ أوتوا الكتاب فضيعوه ... فَهُمْ عُمْيٌ عن التوراة بُورُ

كفرتُمْ بالقُران وقد أُتيتمْ ... بتصديق الذي قال النذيرُ

وقوله تفاقد: أي: فقد بعضهم بعضاً. ويريد يهود بني النضير وقوله: أوتوا الكتاب: أي: التوراة. وبور: من البوار، وهو الهلاك، والبويرة: موضع نخل بني النضير. وبنولؤي: هم قريش. ذلك أنَّ قريشاً كانوا يظاهرون كلَّ مَنْ عادى النبيّ ﷺ عليه ويعدونهم النصر والمساعدة فلما وقع لبني النضير وبني قريظة من الخذلان ما وقع، قال حسان الأبيات المذكورة موبخاً لقريش ــ وهم بنو لؤي ــ كيف خذلوا أصحابهم.

(٢) قوله: «أدام اللّهُ.. إلخ» هذا الدعاء من أبي سفيان بأن يُديم اللّهُ الحرائق في نواحي المدينة، وكأنه يقول لحسان: إن الذي يصيبه الضُّرُّ هو أهل المدينة وليس أهل مكة، لأن أرض بني النضير مجاورة لهم. وقوله «بنُزْه»: أي ببُعْدٍ، وزناً ومعنى. وتضير: من الضير، وهو المضرّة.

وانظر [الفتح ٧/ ٣٣٣]. حيث حقق ابن حجر القصة، وردّ كلام المؤرخين ورواة السيرة، لأن ما في الصحيح هو الأصح.

الثالث: روى البخاري، أن خُبيب بن عديّ تمثّل بالشعر، أو قاله، وهو ينتظر مقتله، في قصة غزوة الرجيع، حيث قال:

ولستُ أُبالي حينَ أُقتلُ مسلماً   على أيّ شقّ كان في الله مصرعي[1]

وذلك في ذات الإله وإنْ يشأ   يبارِكْ على أوصال شِلْوٍ مُمزّعِ

الرابع: وروى البخاري في قصة حفر الخندق، قال: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة وينقلون التراب على متونهم وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

.. قال ابن حجر في الفتح: وفيه أن في إنشاد الشعر تنشيطاً في العمل، وبذلك جرت عادتهم في الحروب، وأكثر ما يستعملون الرجز.

الخامس: روى البخاري، عن البراء بن مالك قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الترابُ جلدة بطنه، فسمعتُه يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة، وهو ينقل من التراب يقول:

والله لولا اللَّهُ ما اهتدينا   ولا تصدّقْنا ولا صلينا

فأنزلنْ سكينة علينا   وثبّت الأقدم إن لاقينا

---

(١) ذكر ابن هشام عن ابن اسحق، عشرة أبيات في القصة، وقال في أولها: وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له. لعله ينكر أن يكون خبيب قال عشرة أبيات، وأما قوله البيتين فذلك ممكن. [ابن هشام ٣/١٧٦]. ومما جاء في السيرة من الزيادة قوله:

إلى اللّهِ أشكو غربتي بعد كُربتي   وما أرْصَدَ الأحزابُ لي عند مصرعي

إن الأُلـــى قـــد بَغَـــوا علينـــا إذا أرادوا فِتْنَـــــةَ أَبَيْنَـــــا[1]

. . ويرفع بها صوته : أَبَيْنَا ، أَبَيْنا . .

. . وجاء في قصة غزوة خيبر ، أن عامر بن الأكوع ، كان يحدو بالقوم ويقول : . . (الرجز) وفيه اختلاف قليل عما سبق . قال ابن حجر يحتمل أن يكون هو وعامر تواردا على ما تواردا منه ، بدليل ما وقع لكل منهما مما ليس عند الآخر ، أو استعان عامر ببعض ما سبق إليه ابن رواحة .

. . هذا ، والشواهد لإنشادهم أو إنشائهم الأراجيز كثيرة ، وبخاصة في المعارك وساعة احتدام القتال . والرجز نوع من الشعر له وزنه الخاص به والراجز لا يخرج من زمرة الشعراء ، وربما وصف رؤبة والعجاج بالراجزين لغلبة الرجز على شعرهما .

السادس: أما كونهم يسمعون الشعر، ويحفظونه، وينشدونه، فذلك ثابت أيضاً: من ذلك ما رواه أحمد، والترمذي وصححه من حديث جابر بن سمرة قال: كان أصحاب رسول الله يتذاكرون الشعر وحديث الجاهلية عند رسول الله فلا ينهاهم وربما يتبسم. وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن خالد بن كيسان قال: «كنتُ عند ابن عمر، فوقف عليه إياس بن خيثمة فقال: ألا أنشدك من شعري؟ قال: بلى، ولكن لا تنشدني إلا حسناً». وروى البخاري عن الهيثم بن أبـي سفيان سمع أبا هريرة في قصصه (وعظه) يذكر النبـيّ ﷺ، يقول: إنّ أخاكم لا يقولُ الرَّفث ـ يعني بذلك ابن رواحة، قال:

وفينـا رسـول اللّـهِ يتلـو كتـابَـهُ إذا انشـقَّ مَعْـروفٌ مـن الفجـرِ سـاطِـعُ

أرانـا الهُـدى بعـد العمـىٰ فقلـوبُنـا بـه مـوقنـاتٌ أنَّ مـا قـالَ واقـعُ

---

(١) قوله: «إن الأُولىٰ. . .إلخ» هذا الشطر غير موزون، ولعلّ الراوي حذف منها كلمةً ليكون كذلك حتى لا ينسب إلى رسول الله قول الشعر، أو ترد يده، ويستقيم الشطر بإضافة «هم» قبل «قد».

يبيتُ يُجافي جَنْبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ

. . . [عن البخاري، من كتاب «الأدب» باب هجاء المشركين].

وثبت في الصحيح عن أنس، أن النبيّ ﷺ كان في سفر وكان غلامٌ يحدو بهنَّ يُقالُ له أَنْجَشَة، فقال النبيّ ﷺ: «رُوَيْدك يا أنجشَةُ سوقَكَ بالقوارير» يعني النساء.

وفي رواية «كان للنبي ﷺ حادٍ يُقالُ له «أَنْجَشَة» وكان حسن الصوت، فقال له النبيّ، رُويدك يا أنجشةُ، لا تكسر القوارير» قال قتادة: يعني ضَعَفَةَ النساء. [البخاري ـ كتاب الأدب باب ـ المعاريض مندوحة عن الكذب].

والحُداءُ: سوق الإبل بضرب مخصوص من الغناء، ويكون في الغالب بالرجز وقد يكون بغيره من الشعر. وقد جرت عادة الإبل أنها تسرعُ السير إذا حُدي بها. . .

السابع: وقد ثبت في صحيح الأخبار استجابة شعراء المسلمين لنداء رسول الله، للمنافحة عن الإسلام، وثبت أن رسول الله ﷺ والمسلمين قد فرحوا لهذه المنافحة. فروى الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: هجاهم حسان، فشفىٰ واشتفىٰ»[1].

---

(١) صحيح مسلم، باب مناقب حسان. وقوله «شفى واشتفى» أي: شفى المؤمنين، واشتفى هو بما ناله من أعراض الكفار، ونافح عن الإسلام والمسلمين. وقوله «شفى» يدلُّ على أن المسلمين كانوا في كرب مما ينالهم من هجاء المشركين، فلما قال حسان ما قال هدأت نفوسهم وزال ما بها من الضيق. قال ابن منظور: ولما أمر النبيّ ﷺ حسان بهجاء كفار قريش ففعل، قال: شفى واشتفى.. وهو من الشفاء، البرءُ من المرض يقال: شفاه الله يشفيه، واشتفى افتعل منه فنقله من شفاء الأجسام إلى شفاء القلوب والنفوس.
قلتُ: ومنه قول عنترة بن شداد:
ولقد شفى نفسي وأبرأ سُقْمَها ... قيلُ الفوارس ويك عنترُ أقدم

وجاء في سياق رواية مسلم عن عائشة... قال حسان، وأتى بأبيات من قصيدته الهمزية، ولم يذكر الشرّاح مَنْ الذي روى هذه الأبيات، أهو رسول الله، أم عائشة... وأظن أن القائلة (قال حسان) هي عائشة رضي الله عنها. وهاك الأبيات التي رواها مسلم في الصحيح، لأنها مروية بالسند الصحيح.

٦ ـ وما رُوي بالسند، الصحيح من الشعر يعض عليه بالنواجذ، لندرة ما جاءنا بهذا الطريق. قال حسان؛ يخاطب أبا سفيان بن الحارث قبل إسلامه[١]:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاءُ[٢]

هجوتَ محمداً بَرّاً تقيّاً ... رسول ٱللَّهِ شيمتُه الوفاءُ[٣]

---

(١) الأبيات من قصيدة مطلعها:

عفت ذاتُ الأصابع فالجواءُ ... إلى عذراء منزلُها خلاءُ

وفي المطلع يصف الخمر قائلاً:

إذا ما الأشرباتُ ذُكرن يوماً ... فهنَّ لِطَيِّب الراح الفداءُ

ونَشْرَبُها فتتركنا ملوكاً ... وأُسداً ما ينهنهنا اللقاءُ

.. وقد دار جدلٌ حول هذا المطلع، وتساءَل الباحثون: كيف يصف الخمر في مطلع قصيدة يمدحُ فيها رسول الله ﷺ. فقال قومٌ: إنه مطلع جاهلي أُضيف إلى القصيدة فيما بَعْدُ... وقيل: إنه منحول... والجواب عندي: أنَّ القصيدة قبل تحريم الخمر. فالشاعر ينذر القرشيين بيوم يأتي فيه المسلمون لفتح مكة، ومعنى هذا أنها قيلت قبل الفتح. والخمر حرُمت عام الفتح سنة ثمان. لما روى أحمد من طريق عبد الرحمن بن وعلة قال: سألتُ ابن عباس عن بيع الخمر فقال: كان لرسول الله صديق من ثقيف فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه، فقال يا فلانُ: أما علمت أن الله حرّمها.

وروى أحمد وأبو يعلى من حديث تميم الداري أنه كان يهدي لرسول الله كل عام راوية خمر، فلما كان عام، جاء براوية فقال: أشعرت أنها حرّمت بعدك؟ وكان إسلامُ تميم بعد الفتح. أقول: وليس ببعيد أن تكون المقدمة الغزلية الخمرية مضافةً للقصيدة فيما بَعْدُ، لأن الشاعر لم يربط بين المقدمة والموضوع، بما يسمّى حسن التخلّص.

(٢) في الديوان: قدّمت الأبيات في النذير بفتح مكة على مدح النبيّ ﷺ.

(٣) في الديوان: هجوت مباركاً برّاً حنيفاً.

فــإنَّ أبـــي ووالـــده وعــرضـــي لِعـــرْض محمـــدٍ منكـــم وقـــاءُ[1]

ثكِلْــتُ بنيتــي إن لــم تَــرَوْهــا تُثيــر النَّقْــع مــن كنفــي كَــداءِ[2]

يبـــاريـــن الأعنّـــة مُصْعِـــداتٍ علــى أكتــافهــا الأسَــلُ الظمــاءُ[3]

تظـــلُّ جيـــادُنـــا متمطـــراتٍ تلطمهـــنَّ بـــالخمـــر النســـاءُ[4]

فــإن أعــرضتمــو عنــا اعتمــرنــا وكـــان الفتـــحُ وانكشـــف الغطـــاءُ

وإلا فـــاصبـــروا لضـــرابِ يـــومٍ يعـــزُّ اللَّـــهُ فيـــه مَـــنْ يشـــاءُ

وقـــال اللَّـــهُ قـــد أرسلـــتُ عَبْـــداً يقـــولُ الحـــقَّ ليـــس بـــه خفـــاءُ

---

(١) قال النووي: هذا البيت احتجَّ به ابن قتيبة لمذهبه، أن عرض الإنسان هو نفسه، لا أسلافُه، لأنه ذكر عرضه وأسلافه بالعطف. وقال غيره: عرض الرجل: أموره كلها التي يُحمد بها ويذم من نفسه وأسلافه، وكلّ ما لحقه نقص بعيبه.

(٢) ثكلت: فقدت. بنيتي: قال النووي: أي نفسي. ولم أعرف أهي بفتح الباء، أم بضمها. ولم أجد في لسان العرب هذا المعنى، إلا إذا زاغ البصر فلم يره. ووجدت في اللسان «وفي حديث سليمان عليه السلام مَنْ هدم بناءَ ربه فهو ملعون» يعني مَنْ قتل نفساً بغير حقّ، لأن الجسم بنيان خلقه الله وركّبه. والبنيّة: بفتح الباء وتشديد الياء، الكعبة. والنقع: الغبار. وكنفي: تثنية كنف، وهو الجانب. كداء: بفتح الكاف. والمدّ هي التي دخل منها المسلمون يوم الفتح وهو ما يعرف اليوم «ريع الحجون» والبيت على هذه الرواية فيه إقواء. . ورواية الديوان:

عَــدِمْنــا خيلنــا إن لــم تــروْهــا تثيــر النقــع مــوعــدهــا كــداءُ

(٣) قوله: يبارين الأعنة: معناه، أنها لصرامتها وقوة نفوسها تضاهي أعنتها بقوة جذبها لها، وهي منازعتها لها أيضاً، ويروى (يبارين الأسنة) وهي الرماح ومعناها: أنهن يضاهين قوامها واعتدالها، كما نقل النووي. وعندي أن الشاعر يريد أن يصف سرعتها وأنها تسابق طرف الرمح الذي يسبقها. والرواية الأولى أقوى، لئلا يتكرر لفظ «الرماح» التي هي الأسلُ أيضاً. إلا إذا أخذنا برواية «على أكتافها الأسْدُ الظماءُ».

(٤) متمطرات: مسرعات. وتلطمهن: أي: تمسحهنّ النساء بخمرهنّ، وهذا لعزتها وكرامتها. وهناك تفسير يقول: تلطمهنَّ: تضربهن وتردهن فإن رجال قريش يهربون، وتفاجأ النساءُ بالخيل، فتردّهن بالخُمُر.

وقـــال اللّـــهُ قـــد يسّـــرتُ جنـداً ... هـــم الأنصـــارُ عُـــرضتُهـــا اللقـــاءُ
لنـــا فـــي كـــلّ يـــومٍ مـــن معـــدٍّ ... سبـــابٌ أو قتـــالٌ أو هجـــاءُ
فمـــن يهجـــو رســـول الله منكـــم ... ويمـــدحُـــه وينصـــره ســـواءُ
وجبـــريـــلٌ رســـولُ الله فينـــا ... ورُوحُ القُـــدْس ليـــس لـــه كِفـــاءُ

وقد كانت هذه القصيدة محلّ إعجاب السيدة عائشة رضي الله عنها، وجعلتها تغفر لحسان بن ثابت خوضه مع الخائضين في حديث الإفك... لما روى البخاري عن عروة بن الزبير قال: كانت عائشةُ تكره أن يُسبَّ عندها حسان وتقول: إنه الذي قال:

فـــإن أبـــي ووالـــده وعِـــرْضـــي ... لعـــرض محمـــدٍ منكـــم وقـــاءُ

٧ ـ ومما يحققه السندُ الصحيح من شعر حسان بن ثابت، المقطوعة التي رواها ابن هشام وغيره في الاعتذار إلى عائشة رضي الله عنها، ومطلعها:

حَصَـــانٌ رزانٌ مـــا تُـــزَنُّ بـــريبـــةٍ ... وتصبحُ غرثىٰ من لحوم الغوافل[1]

.. وقد ذكر ابن هشام ستة أبيات بعد هذا البيت. وفي الديوان ثمانية أبيات بعد المطلع، ويختلف عددها باختلاف الرواة. ورواة السيرة والأدب، يـروونهـا علـى أنهـا مـن شعـر حسـان فـي الاعتـذار لعـائشـة ممـا قـال أيـام قصـة الإفك...

---

(١) حصانٌ: بفتح الحاء المهملة: أي: مُحْصنةٌ عفيفة. من الحصن والتحصن. ويكثر هذا الوزن في صفات النساء. رَزان: بفتح الراء: من الرزانة، يُراد قلة الحركة. مع وقار وعفاف. تُزَنُّ: بضم التاء وفتح الزاي: أي: تُرمى وتتهم.
غَرْثى: أي: خميصة البطن من لحوم الناس، فهي لا تغتاب أحداً. والغوافل: جمع غافلة، وهي العفيفة الغافلة عن الشرّ. والمراد: تبرئتها من اغتياب الناس، بأكل لحومهم من الغيبة. وفي البيت استعارة فيها تلميح بقوله تعالى: ﴿أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾. ومناسبة تسمية الغيبة بأكل اللحم، أن اللحم ستر على العظم، فكأنَّ المغتاب يكشف ما على مَنْ اغتابه من ستر.

وروى مسلم في الصحيح عن مسروق قال: دخلتُ على عائشة وعندها حسان بن ثابت يُنشدها شعراً يُشبب[1] بأبيات فقال:

حصان رزان.. البيت..

فقالت عائشة لكنك لستَ كذلك... الحديث (مناقب حسان)

وروى البخاري عن مسروق (كتاب التفسير باب ١٠) قال: دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبب وقال:

حصان رزان... البيت... (ولم يذكر غيره)

قالت عائشة: لستَ كذاك.

وهاتان الروايتان لا تصرحان بأن إنشاء الشعر بدايةً كان في تلك اللحظة، أو أن حسان بن ثابت قاله في الاعتذار لعائشة. فربما قاله حسان في غير عائشة ثم تمثل به عند عائشة، وقد يكون هذا البيت فرداً، ثم أضاف عليه الرواة أبياتاً فيها أوصاف تناسب السيدة عائشة. والشواهد المقوّية لما رأيتُه كثيرة منها:

الأول: قال ابن هشام: وحدثني أبو عبيدة: أن امرأة مدحت بنت حسان بن ثابت عند عائشة فقالت:

حصان رزانٌ.. البيت

فقالت عائشة: «لكنْ أبوها» وفي رواية: لكن أباها. فإن كان «أبوها» بالرفع تعني: لكن أبوها لم يكن كذلك. وإن كان «أباها» بالنصب. تعني أن حسان أبى هذه الفضيلة.

(١) قال ابن حجر في [الفتح ٨/ ٤٨٥]: يُقال: شبب الشاعر بفلانة، أي: عرض بحبها وذكر حسنها، والمراد ترقيق الشعر بذكر النساء. وقد يُطلق على إنشاد الشعر وإنشائه، ولم يكن فيه غزل، كما وقع في حديث أم معبد «فلما سمع حسان شعر الهاتف، شبب يجاريه» أخذ في نظم جوابه.

الثاني: جاء في بعض طرق رواية مسروق «يشبب ببنتٍ له» بالنون، لا بالياء.

الثالث: جاء في أحد الأبيات التي رواها ابن إسحق:

فإنْ كنتُ قد قلتُ الذي زعموا لكم فـلا رفعـتْ سـوطـي إلـيَّ أنـاملـي

.. فهو ينكر ما كان منه، وهذا ينقضه ما ثبت في الصحيح أن حسان بن ثابت كان ممن خاض في حديث الإفك، وضرب حدّ القذف.

والشطر الثاني من البيت قريبٌ لفظه من شطر بيتٍ من اعتذارية النابغة الذبياني الدالية، حيث يقول:

مـا إن بـدأتُ بشـيء أنـت تكـرهُـه إذنْ فـلا رَفَعَـتْ سَـوْطـي إلـيَّ يـدي

فالنابغة يُنكر ما نسب إليه، لأنه لم يثبت. أما حسان، فإنه ينكر ما ثبت بالدليل الشرعي، وحسان لا يفعل ذلك، لأنَّ الحدَّ تمَّ في العهد النبويِّ. ولو كان حسان يعتذر لذكر اعتذاره مما كان منه، واعترف أنه مخطىء، وأقرَّ بالتوبة.

الرابع: قول عائشة لحسان عقب البيت: (لست كذلك) يُفْهم منه أن السيدة عائشة تنفي عنه أن يكون مثل الموصوف في البيت، تريد: إنك لست مثل ابنتك الموصوفة في البيت.

الخامس: لو كان حسان جاء إلى عائشة معتذراً تائباً، لقبلت منه توبته، وذكرت ذلك لمسروق. وكان الذي شفع لحسان وجعل عائشة تدفع عنه لأنه كان يردُّ عن رسول الله ﷺ ولم تذكر غيره. وعندما قال مسروق: (تدعين مثل هذا يدخل عليك وقد أنزل الله ﴿والذي تولى كِبره منهم﴾ قالت: وأيُّ عذابٍ أشدُّ من العمى؟) وكان حسان قد عمي بعد العهد النبويّ.

السادس: نقل البلاذري قصة حسان هذه في أنساب الأشراف ١/ ٤١٩ وقال: أنشدها بيتاً قاله لابنته، وذكر البيت (حَصَانٌ رَزَانٌ).

٨ ــ قال ابن حجر في شرح «كتاب الأدب» ١٠/ ٥٤٠: قال الطبري: في قول رسول الله «إنَّ من الشعر حكمةً» ردٌّ على من كره الشعر مطلقاً واحتج بقول ابن مسعود «الشعر مزامير الشيطان» وعن مسروق أنه تمثّل بأول بيت شعر ثم سكتَ، فقيل له؛ فقال: «أخاف أن أجد في صحيفتي شعراً» وعن أبـي أُمامة رفعه «إن إبليس لما هبط إلى الأرض قال: ربّ اجعل لي قرآناً، قال: قرآنك الشعر». قال: ثم أجاب ــ الطبري ــ عن ذلك بأنها أخبار واهية، قال ابن حجر: «وهي كذلك، فحديث أبـي أُمامة فيه علي بن يزيد الهاني وهو ضعيف، وعلى تقدير قوتها، فهو محمول على الإفراط فيه والإكثار منه..» اهـ.

ولذا جمع البخاري أحاديث كراهية الشعر تحت باب «ما يكره أن يكون الغالبُ على الإنسانِ الشعر، حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن».

وذكر حديثين، من طريقين، ولفظهما متقارب، أولهما: «لأَنْ يمتلىء جَوْفُ أحدكم قيحاً خيرٌ له من أن يمتلىء شعراً». وهو في صحيح مسلم «كتاب الشعر» عن أبـي سعيد، بينما نحن نسير مع رسول الله بالعرج إذْ عرض شاعر يُنشد، فقال رسول الله: خذوا الشيطان، أو أمسكوا الشيطان.. وذكر بقية الحديث كما في البخاري.

قال ابن حجر في شرح عنوان الباب «إن الذمّ إذا كان للامتلاء، وهو الذي لا بقية لغيره معه، دلَّ على أنَّ ما دون ذلك لا يدخله الذمُّ».

وقال بعضهم: إن معنى قوله «خيرٌ له من أن يمتلىء شعراً» يعني الشعر الذي هجي به النبـيّ ﷺ، فقال أبو عُبيد: والذي عندي في هذا الحديث غيرُ هذا القول، لأنَّ الذي هُجي به النبـي لو كان شطر بيتٍ لكان كفراً فكأنه إذا حُمل وجْهُ الحديث على امتلاء القلب منه، أنه رخص في القليل منه وهذا باطل.. ولكن وجهه عندي: أن يمتلىء قلبه من الشعر حتى يغلب عليه، فيشْغله عن القرآن وعن ذكر الله، فيكون الغالب عليه، فأما إذا كان القرآن والعلم الغالبين عليه، فليس جوفُه ممتلئاً من الشعر.

وأُجيب عن رواية مسلم، باحتمال أن يكون الذي سمعه رسول الله، وقال: خذوا الشيطان، كان كافراً أو كان الشعر هو الغالب عليه، أو كان شعره الذي يُنشده إذ ذاك من المذموم، وبالجملة فهي واقعة عَيْن، يتطرق إليها الاحتمال، ولا عموم لها، فلا حجة فيها. . .

قال ابن حجر: مناسبة هذه المبالغة في ذمّ الشعر أنَّ الذين خوطبوا بذلك كانوا في غاية الإقبال عليه والاشتغال به فزجرهم عنه ليقبلوا على القرآن وعلى ذكر الله تعالى وعبادته، فمن أخذ من ذلك ما أُمر به لم يضرّه ما بقي عنده مما سوى ذلك والله أعلم [الفتح ١٠/ ٥٥٠].

وقد ترجم البخاري في «الأدب المفرد» ما يُكره من الشعر، وأورد فيه حديث عائشة مرفوعاً «إنَّ أعظم الناسِ فريةً، الشاعر يهجو القبيلة بأسرها». وسنده حسن. وأخرجه ابن ماجه من هذا الوجه بلفظ «أعظمُ الناسِ فريةً رجلٌ هاجى رجلاً فهجا القبيلة بأسرها». وصححه ابن حبان. وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن عائشة أنها كانت تقول: «الشعرُ منه حَسَنٌ ومنه قبيح، خذ الحسن ودع القبيح، ولقد رويتُ منْ شعر كعب بن مالك أشعاراً منها القصيدة فيها أربعون بيتاً» وسنده حسن [عن الفتح ١٠/ ٥٣٩].

وقال ابن حجر: وقد جمع ابن سيّد الناس ــ شيخ شيوخنا ــ مُجلّداً في أسماء مَنْ نُقل عنه من الصحابة شيء من شعرٍ متعلق بالنبـي ﷺ خاصة.

٩ ــ وقولنا: إنَّ الحركة الشعرية كانت مزدهرة في العهد النبويّ لا يعني أننا نثبت كلَّ ما وصلنا من الشعر المنسوب لشعراء العصر النبوي من الصحابة. لقد كان الشعراءُ كثيرين، ومنهم المقلّ ومنهم المكثر، منهم مَنْ غلب عليه قول الشعر فلقب بالشاعر، ومنهم مَنْ قال القصائد القليلة. ونقلت إلينا رواة الشعر والسيرة شعراً كثيراً نسبوه إلى شعراء هذا العصر، وزعموا أن كثيراً من هذا الشعر، أنشده الشعراء في الحضرة النبويّة. والذي يعنينا في هذه الفقرة، هذا النوع من الشعر. . .

وأريد أنْ أُنبّه، إلى أنني عندما أنفي نسبة القصيدة إلى السماع النبوي، لا يعني أنني أنفي نسبتها لصاحبها. . لأن نفي أو إثبات نسبة قصيدة لشاعر مهمة رواة الشعر، ونقاده، ومؤرخي الأدب. أما إضافة القصيدة إلى السيرة النبويّة فهذه وظيفة رواة السيرة ومؤلفي تاريخ المدينة في العهد النبوي؛ لأن السيرة معناها الحياة، والسلوك ولأنَّ السيرة النبويّة هي المؤثر الأول في تاريخ هذه المدّة، ويجب أن تكون شواهدنا على هذه السيرة صحيحة، ليكون حكمنا على العصر صحيحاً، والقدوة المتوخاه من هذه الدراسة مأخوذة من السيرة الصحيحة وتحقيق جميع الأشعار التي قيل إن النبيّ ﷺ سمعها، يحتاج إلى مجلد كبير، ودراسة منفردة، ولذلك فإنني سوف أختار مثالاً واحداً، ليكون مثلاً لهذه الدراسة.

واخترت قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) لشهرتها، وكثرة عناية الدارسين بها، وتعدد المؤلفات التي أفردتها بالشرح.

١ ــ تقول قصة القصيدة:

إن كعباً، وبجيراً ابنا زهير بن أبي سُلمى كانا يرعيان الغنم في أبرق العزّاف، على مسافة حوالي خمسين كيلاً شرق المدينة النبوية. وعندما سمعا بخبر النبيّ ﷺ، أرسل كعبٌ أخاه بُجيراً ليعرف أمر محمدٍ ﷺ في المدينة، فلما وصل بجير إلى المدينة، أسلم، وكتب إلى أخيه بذلك، فكتب إليه كعبٌ شعراً يذمّه لتركه دين أجداده، ويهجو رسول الله ﷺ. فأطلع بجيرٌ رسول الله ﷺ على الشعر، فأهدر رسولُ الله دمه. وبعد عودة رسول الله إلى المدينة من غزوة الطائف، أرسل بجيرٌ إلى أخيه يحذره وينذره، ويطلب منه القدوم على رسول الله، فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً فقدم كعبٌ المدينة متخفياً، ونزل على صاحب له، فأوصله إلى رسول الله ﷺ، فأعلن إسلامه، وأنشد رسول الله ﷺ قصيدته «بانت سعاد» فأهداه رسولُ الله بردةً كانت عليه. . وهذه البردة وصلت إلى خلفاء بني أُميّة، ثم إلى خلفاء بني العباس.

وفي القصة أقاويل أُخرى، سوف نعرض لها عند المناقشة.

٢ ــ أقسام القصيدة:

(أ) من ١ ــ ١٤: في التغزل بسعاد، صاحبته، أو زوجه.

(ب) من ١٥ ــ ٣٤: في وصف الناقة التي تحمله إلى أرض سعاد.

(جـ) من ٣٥ ــ ٣٨: في وصف انشغال الأصدقاء عنه، وتسليمه بالقدر المكتوب.

(د) من ٣٩ ــ ٤١: التنصّل مما نُسب إليه.

(هـ) من ٤٢ ــ ٥٠: وصف خوفه من وعيد رسول الله، ووصف أسد.

(و) ٥١: مدح رسول الله وتشبيهه بالنور، والسيف.

(ز) ٥٢.. الخ: مدح المهاجرين من قريش.. وفيها كما زعموا: هجاء الأنصار. في الشطر الثاني من البيت السابع والخمسين.

٣ ــ سند القصيدة:

رويت القصيدة، أو مناسبة القصيدة بأسانيد كلها ضعيفة، وكل رواية منها معلولة بعلّة؛ تمنع قبول المتن في باب الأحكام الشرعية، وتمنع قبوله في التاريخ إذا كان له اتصال بالحياة النبويّة، أو حياة الصحابة، أو كان النصُّ يؤخذ منه حكم تاريخيّ.. أما في باب الأدب والشعر، وشواهد النحو واللغة، فإنهم يقبلون النصوص بأسانيد معلولة، لأننا لو اشترطنا في نقل الأدب والشعر، ما نشرطه في نصوص الأحكام الشرعية، ما بقي لنا شيء من اللغة، إلا القرآن والحديث النبوي المرويّ بأسانيد صحيحة وحسنة.. وقلتُ إن أسانيد قصيدة كعب بن زهير ــ بانت سعاد ــ كلها ضعيفة ومعلولة، وهذه أشهر أسانيدها:

(أ) أقدم مَنْ رواها ابن إسحق في السيرة وقد وصلتنا في السيرة النبوية لابن هشام؛ التي لخص فيها سيرة ابن إسحق. وقد جاءَت قصة كعب وبجير عند

ابن هشام بدون إسناد. ثم نقل عن ابن إسحق رواية منقطعة، عن عاصم بن عمر بن قتادة، المتوفى سنة ١٢٦هـ في تعليل مدح كعب المهاجرين دون الأنصار، وما زعموا أن كعباً هجا الأنصار حين قال: «إذا عرَّد السودُ التنابيل».

قال ابن إسحق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، المدني، أنه وثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دعني وعدوّ الله أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «دعه عنك فإنه قد جاءَ تائباً».

ثم قال: (قال) ولا ندري مَنْ القائل: أهو ابن إسحق، أم عاصم؟.

قال: فغضب كعب على هذا الحيّ من الأنصار، لما صنع به صاحبهم وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير.

فقال في قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله ﷺ.. وليس في الرواية تصريح بأن رسول الله سمع القصيدة.. وإذا صحَّ أن راوي هذه الفقرة من الخبر، عاصم بن عمر بن قتادة، فإن الخبر منقطع غير متصل، لأن عاصماً لم يروه عن صحابي.

(ب) وروى القصة أبو عبد الله الحافظ صاحب المستدرك قال: أخبرنا عبد الرحمن بن الحسن بن أحمد الأسدي بهمدان.

قال: حدثنا إبراهيم بن الحسين (وهو ابن ديزيل).

قال: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي.

قال: حدثنا الحجاج بن ذي الرّقَيْبة بن عبد الرحمن بن كعب بن زهير عن أبيه عن جدّه...

أما عبد الرحمن بن الحسن الأسدي: فقد ترجم له ابن حجر في لسان الميزان. ونقل عن أهل الجرح أنه يكذب. وأنه ادعى الرواية عن إبراهيم بن ديزيل، فذهب علمه. وقال الدارقطني: في كتبه تخاليط. وقال: أبو يعقوب بن الدخيل: لم يحمدوا أمره [لسان الميزان ٣/ ٤١١].

وأما إبراهيم بن الحسين، بن ديزيل، فقد ترجم له ابن حجر في لسان

الميزان وهذا يعني أنه موضوع في قفص الاتهام، ونقل عن ابن القيّم تلميذ ابن تيمية، أنه ضعيف متكلم فيه. وعلى فرض توثيق هذا الراوي فقد نقلنا في ترجمة الراوي السابق، أنه لم يلق ابن ديزيل، ولم يرو عنه.

وأما إبراهيم بن المنذر الحزامي: فذكره ابن حجر في تهذيب التهذيب ١٦٦/١ ووثقه قوم وذمّه آخرون. فقال الساجي: بلغني أنَّ أحمد كان يتكلم فيه ويذمّه.. عنده مناكير. قال الخطيب: أما المناكير فقلما توجد في حديثه إلا أن يكون عن المجهولين. ولعلَّ قصة كعب بن زهير واحدة من هذه المناكير التي يرويها عن المجهولين كما سيأتي بيانه.

وأما الحجّاج: فهو أحد المجهولين في السند، فلم يرد ذكره في تراجم الرواة لا في تهذيب التهذيب، ولا في لسان الميزان.

وقد روى الحجاج ــ كما في السند ــ عن أبيه ذي الرُّقيبة، وأظنه مجهولاً لأن ابن حجر لم يترجم له في كتابيه التهذيب، واللسان، مع أنه ذكره فيمن روى عنه إبراهيم بن المنذر الحزامي.

وفي السند أن الحجاج روى عن أبيه، وروى أبوه ذو الرقيبة عن أبيه جد الحجاج عبد الرحمن بن كعب بن زهير (كذا في السند) ولم أجد لعبد الرحمن بن كعب، رواية، ولم يترجم له ابن حجر...

ولم يذكروا لكعب بن زهير ابناً اسمه عبد الرحمن.. وإنما عبد الرحمن حفيد كعب، فهو عبد الرحمن بن عقبة بن كعب.

قال ابن حزم في الجمهرة «ومن ولد كعب: العوّام بن عقبة. وعُقْبة: هو المُضَرَّب بن كعب بن زهير. كلهم شعراءُ في نسق. قال: والحجاج ابن ذي الرُّقيبة بن عبد الرحمن بن عقبة المُضَرَّب، شاعر أيضاً». [الجمهرة ص ٢٠١].

وقال ابن عبد البرّ في «الاستيعاب»: «ولكعب ابن شاعر اسمه عقبة، ولقبه

المُضَرَّب [اسم مفعول]. لأنه شبب بامرأة، فضربه أخوها بالسيف ضربات كثيرة فلم يمت. وله ابن أيضاً يقال له العوّام شاعر» وقوله «وله ابن» يعود الضمير على عقبة بن كعب، كما جاء نسبه في «الجمهرة».

وقد نقل القصة بهذا الإسناد ابن كثير في السيرة النبويّة، والبيهقي في دلائل النبوّة، وابن حجر في «الإصابة» وقالوا: إنه إسناد متصل. وهو كما رأينا ليس متصلاً، لأنه يقف عند عبد الرحمن، وكعبٌ جدُّه وليس أباه وعبد الرحمن: مجهول، ولا نعرف له رواية عن جدّه، أو غير جدّه.

فالسند فيه: الانقطاع، وفيه المجهولون، وفيه الموصوفون بالكذب وبهذا يكون ضعيفاً، أو ضعيفاً جداً.

(جـ) ونقل القصة أبو الفرج في «الأغاني» [١٧/ ٨٢] وساقها بإسناده من طريق عمر بن شبه عن إبراهيم بن المنذر قال: حدثني الحجاج.. ولكنه قال: عبد الرحمن بن مضرَّب بن كعب. والحكم على هذا السند كسابقه.

وأوردها أيضاً من طريق عمر بن شبه عن الحزامي قال: حدثني محمد بن فليح عن موسىٰ بن عقبة، وساقها مرسلة...

(د) قال الإمام الحافظ العراقي: وهذه القصيدة قد رويناها من طرق لا يصحُّ منها شيء وذكرها ابن اسحاق بسند منقطع. وساق الشوكاني في «نيل الأوطار» كلام العراقي ولم يعقب عليه، مما يدلُّ على موافقته له في نقده القصيدة. «نيل الأوطار ٢/ ١٥٩». وهذا نصُّ كلام نقله الشوكاني: قال ابن العربي: لا بأس بإنشاد الشعر في المسجد إذا كان في مدح الدين وإقامة الشرع وإن كان فيه الخمر ممدوحة بصفاتها الخبيثة... وقد مدح كعب بن زهير رسول الله فقال: «بانت سعادُ فقلبي اليوم متبول» إلى قوله في صفة ريقها «كأنه منهلٌ بالراح معلول». قال العراقي: وهذه القصيدة قد رويناها من طرق لا يصحّ منها شيء، وذكرها ابن إسحق بسند منقطع. قال: «وعلى تقدير ثبوت هذه

القصيدة عن كعب وإنشادها بين يدي النبيّ ﷺ في المسجد أو غيره، فليس فيها مدح الخمر، وإنما فيه مدح ريقها وتشبيهه بالراح...». وهذا رأيٌ غريب من العراقي لأنني أرى أنَّه هنا بالغ في مدح الخمرة وقد نقول: إنه مدحها مرتين المرة الأولى عندما شبه ريقها بالخمرة، والمرة الثانية عندما مدح ريقها والمعروف أن وجه الشبه في المشبه به أقوى من المشبه.

(هـ) وقال ابن كثير في نقد خبر البردة التي قيل إنَّ رسول الله كساها كعباً: «وهذا من الأمور المشهورة جداً، ولكن لم أر ذلك في شيء من الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه». [السيرة النبوية لابن كثير]. وفي قوله هذا بيانٌ لضعف الأسانيد التي أوردها الحاكم، والبيهقي والسبكي في طبقات الشافعية وغيرهم ممن أورد القصة. [انظر: الرسول والشعر ـ لنايف الدعيس].

(و) والخلاصة: إنَّ مَنْ تتبّع الروايات والأسانيد التي نقلت القصة تبيَّن له أن جميع الروايات معلولة بعلة:

إما بوجود مجاهيل، كما في رواية ابن قانع من طريق الزبير بن بكار (عن بعض أهل المدينة) عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيّب. (عن الإصابة في ترجمة كعب بن زهير) فهذا السند فيه مجهول، ومرسل.

وإما أن يكون في الإسناد مجهول العين، مثل الحجاج بن ذي الرقيبة عن أبيه عن جدّه. كما في رواية الحاكم والبيهقي، وابن منظور.

وإما أن يكون في الرواية ضعاف لم يحتج المحدّثون برواياتهم، مثل محمد بن فليح في رواية البيهقي عن إبراهيم بن المنذر عن محمد بن فليح عن موسى بن عقبة. ففي السند، الضعف والإرسال.

وفي بعض الروايات مَنْ ضعفه شديد مثل علي بن زيد بن جدعان في رواية البيهقي عن إبراهيم بن المنذر عن معن بن عيسى هذا، مع أن جميع طرق القصة مرسلة أو منقطعة، والمُرْسلُ ضعيف مما يزيد الإرسال ضعفاً على ضعفه..

فالقصيدة، أو مناسبة القصيدة، واتصال القصيدة بالحضرة النبوية، من حيث السندُ، لا يصحُّ منه شيء. كما لا يصح خبر البردة التي ألبسها رسول الله ﷺ كعباً.

٤ ــ نقد متن القصة والمناسبة والقصيدة:

وإليك الملاحظات التالية عليه:

(أ) في ترجمة كعب، وأخيه بُجَير غموض وخفاء، لا يتناسبان مع ضخامة قصتهما، وما لهما من نسب. فهما من مُزينة وهي ممدوحة في الأحاديث النبويّة، ولها نشاط في العهد النبوي وفي زمن الخلفاء الراشدين: وكعب وبجير هما ابنا زهير بن أبـي سلمى الشاعر الذي يُعَدُّ من أركان الشعر في الجاهلية، وله ذكر محمود في المدونات الأدبية، ونقلوا مدح شعره على لسان عمر بن الخطاب.

يُفهم من رواية ابن إسحق للقصة أن بجيراً أسلم قبل فتح مكة ومع ذلك لم نعرف له ذكراً قبل حادثة كعب، ولم يذكره ابن سعد فيمن أسلم قبل الفتح من الصحابة. وبعد أن أسلم كعب ــ كما في القصة ــ بعد غزوة الطائف، لم يذكره أحدٌ فيمن يذكرون من الصحابة، ولم أجد للأخوين رواية في كتب الحديث الستة، ولا في مسند أحمد، ولا يُذكر الأخوان إلا بمناسبة هذه القصيدة. قال ابن عبد البر: «ولا أعلم له ــ أي: لكعب ــ في صحبته وروايته غير هذا الخبر» يريد: خبر القصيدة. قلت: ولم أعلم لبجير أيضاً، روايةً في صحبته غير هذا الخبر. بل نقول: لا نعلم خبراً روي عنهما، أو نسب إليهما غير هذا الخبر، لأن الخبر لم يروه أحد بسند متصل وعلى فرض وجود السند المتصل، الذي نقله الحاكم، فإنه خبر لا يصح إسناداً. والأسئلة التي تحتاج إلى جواب: لماذا لم يُذكر لبُجير نشاط قبل هذه القصة والمرويّ أن إسلامه كان قبل غزوة الطائف أو قبل فتح مكة؟

وأين ذهب بُجَيْر وأخوه كعبٌ بعد قصة القصيدة، وكان بين إسلام كعب ووفاة الرسول عليه الصلاة والسلام حوالي ثلاث سنوات.. فإن ابن إسحق يروي أن كعباً قدم على رسول الله منصرفه عن الطائف. وكان رجوع رسول الله إلى المدينة لست ليالٍ بقيت من ذي القعدة سنة ٨ هـ وكانت الوفاة يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ. ولماذا لم يُذكر لهما خبرٌ في عهد الخلفاء الراشدين... إننا لم نعرف لهما مسكناً بعد إسلامهما ولم نعرف لهما وفاةً، فأين سكنا بعد الإسلام، وحتى توفيا هل رجعا إلى أبرق العزّاف، حيث كانا قبل إسلامهما؛ الله أعلم.

(ب) تقول رواية الحاكم والبيهقي: «خرج كعبٌ وبُجير ابنا زهير حتى أتيا أبرق العزّاف..» أين كانا، وما المكان الذي خرجا منه؟

(جـ) قالت رواية الحاكم: «إن بُجيراً قال لكعبٍ: اُثْبُتْ في هذا المكان حتى آتي هذا الرجل ـ محمداً ﷺ ـ فأسمع ما يقول.. فثبت كعبٌ وخرج بجيرٌ». وقال ابن عبد البر: «فقال كعب لبجير الق هذا الرجل وأنا مقيم لك ها هنا، فقدم بُجير على رسول الله..» وسواءٌ أكان كعب المقترح، أم بُجير، فإنه يدل على أن كعباً كان راضياً عن الرحلة والاستماع.. فلماذا كان منه الصدّ عن سبيل الله؟ ولكن لماذا لم يَعُدْ بجيرٌ لشرح ما سمعه لأخيه؟ ولكن ابن إسحق لم يذكر خبر هذا القدوم على رسول الله، ويُفْهم مما رواه أنَّ كعباً كان يهجو رسول الله ولم يكن الأمر مقصوراً على أبياتٍ كتبها لأخيه.

(د) في قصة وفود كعب على رسول ﷺ اختلاف واضطراب.

فابن إسحق يقول: «إنه قدم المدينة ونزل على رجل من جهينة.. فغدا به إلى رسول الله حين صلى الصبح، فصلّى مع رسول الله، ثم أشار له إلى رسول الله..» قوله: «فصلى» مَنْ الذي صلى؟ أهو كعبٌ أم الجهنيّ؟ وإذا كان المصلي هو الجهنيّ، فأين كان كعبٌ؟ وإذا كان المصلي كعباً، فلا شكَّ أن الجهنيَّ صلى أيضاً، فَلِمَ لم يقل: صليا الصبح؟

وفي رواية الحاكم أن كعباً عرف رسول الله بالصفة ولم يأت بصحبة أحد.

وفي رواية: «أن أبا بكر» عرّفه به، مع أن أبا بكر كان مشمولاً في الهجاء الذي قالوا إنه السبب في هدر دم كعب، حيث قال كعب في بعض الروايات:

سقاك أبو بكر بكأس رويَّة   وأنهلك المأمونُ منها وعلَّكا

.. أقول: ولماذا لم يصحبه أخوه بُجير، وهو الذي قال له: إن رسول الله يعفو عمن جاءَ تائباً؟.

(هـ) جاء في رواية البيهقي [دلائل النبوة ٥/٢٠٧]: «ثم دخل ــ كعبٌ ــ المسجد، ورسول الله ﷺ مع أصحابه مكان المائدة من القوم، والقوم متحلقون معه حلقة دون حلقة، يلتفتُ لهؤلاء مرة فيحدثهم، وإلى هؤلاء مرة فيحدثهم».

فقوله: «مكان المائدة من القوم» إن كان يريد أن يقول: إنَّ إقبال الصحابة على رسول الله، كإقبال الناس على المائدة. فهو وَصْفٌ لا يصح، ولا ينطبق على حال الصحابة..

وإن كان يريد أن يشبه مجلس رسول الله والصحابة، فهو تشبيه لا يكون: لأن جلوس الصحابة مع رسول الله ﷺ، كهيئة جلوس التلاميذ مع المعلم والمعلم لا يكون في وسط القوم، وإنما يكون التلاميذ حلقة يكون المعلم متمماً لها، فهي حلقة لها طرفان يجلس المعلم عند نهايتهما. أما المائدة فإن القوم يتحلقون حولها حلقة ليس لها طرفان. ولو جلس المعلم وسط القوم لكان بعضهم أمامه وعلى جانبيه، وبعضهم خلفه، وهذا لا يكون في مجلس العلم.. وفي ظني أن هذا الوصف مأخوذ من حلقة الذِّكْر الصوفية، التي يكون المنشد في وسطها واقفاً، ويتحول بوجهه إلى أهل الحلقة في جميع الجهات.

(و) ننتقل إلى متن القصيدة، ونكتب في حاشيته التعليقات التالية:

أولاً: القصيدة لا يصحُّ أن يكون رسولُ الله سمعها من كعب، لا في المسجد ولا في غير المسجد: لأن القسم الغزلي الأول، فيه تصريح بوصف المرأة، ووصف مفاتنها، وهذا لا يجوز للمسلم قولُه سواءٌ أكان لامرأة مُعَيَّنة،

أو امرأة غير معينة، لأن الرسول عليه السلام، نهى عن ذكر مفاتن النساء فقال ﷺ: «لا تباشرُ المرأةُ المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظرُ إليها» [رواه البخاري ك ٦٧ ب ١١٨].

ونهى رسول الله ﷺ عن دخول المتشبهين بالنساء على المرأة لأن أحدهم وصف امرأة معينة، لما روى البخاري عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان عندها ـ وفي البيت مُخَنَّث ـ فقال المخنث لأخي أُم سلمة: إن فتح الله لكم الطائف غداً، أدلك على ابنة غيلان: فإنها تُقْبل بأربع وتُدْبرُ بثمان. فقال النبي ﷺ: «لا يدخُلَنَّ هذا عليكم». وكما لا يصحُّ وصف المرأة فكذلك لا يجوز سماع هذا الشعر، والتغني به وأما رواية هذا الشعر وتدوينه، فالظاهر أنه لم يكن لغرض التغني والإنشاد وإنما كان لخدمة اللغة العربية: متنها وقواعدها، ومن ثمَّ لخدمة تفسير القرآن والحديث.

ثانياً: إن مقدمة القصيدة لا تناسب حال كعب بن زهير. لأن الشاعر جاء خائفاً تائباً يريد أن يعتذر عما قيل عنه، ويريد أن يُسمعَ رسول الله، إقراره بالإيمان.. ومَنْ كانت هذه حاله، يهجم على موضوعه، ولا يطيل في مقدمة كلامه. ولكن كعباً جاءَ بأربعة وثلاثين بيتاً ـ في الغزل ووصف الناقة التي حملته إلى سعاد ـ قبل أن يصل إلى موضوعه.

ثالثاً: وكما أن هذه المقدمة لا تناسب حال الخائف لطولها، فإنها أيضاً ليست بذات صلة بموضوع الاعتذار والمدح، ولم يُحْسن الشاعرُ ـ إن صحت نسبتها ـ التخلص من المقدمة إلى الموضوع: لأن الشاعر بدأ يتغزل بسعاد، فذكر جمالها، وخُلْف وعدها، وكونها في ديار بعيدة عنه ثم وصف الناقة التي يمكن أن تبلغه منزلها، ثم ذكر خوفه، وتخلي الأصدقاء عنه دون أن يربطه بسابقه. فقد قال في التخلص من الغزل إلى وصف الناقة:

أمسـتْ سعـادُ بـأرض لا يبلغهـا　　　إلا العتـاق النجيبـات المـراسيـل

وفي نهاية وصف الناقة قال:

تسعـى الغـواة جَنَـابَيْهَـا وقـولهـم ... إنـك يـا بـن أبـي سُلْمـى لمقتـولُ

فقوله: «تسعى الغواة جنابيها» وفي رواية: «تسعى الوشاة» الضمير يعود إلى الناقة التي تبلغه سعاد. والغواة: هم المفسدون بين الأحبة. فما علاقة الشطر الأول المتعلق بالناقة المتصلة بحبه سعاد، بالشطر الثاني «إنك يا ابن..» وهو إنما يخشى القتل بسبب إهدار رسول الله له؟ نقول: إن وصف الناقة في مقدمات قصائد المدح والاعتذار معروف في القصائد القديمة، ولكن الناقة الموصوفة عادةً، هي التي تحمل صاحبها إلى الممدوح.. ووازن بين ما زعموا أنه لكعب، وبين ما روي للنابغة الذبياني من القصائد الاعتذارية: ففي القصيدة الدالية التي مطلعها:

يـا دار ميّـة بـالعليـاء فـالسنـدِ ... أقـوتْ وطـال عليهـا سـالـفُ الأمـدِ

.. يذكر الشاعر ديار ميّة، ولا يذكر أوصاف ميّة.. وفي ستة أبيات يصف أطلال الديار فقط، ثم يخرج منها إلى وصف الناقة فيقول:

فعـدِّ عمّـا تـرى إذْ لا ارتجـاع لـه ... وانْـمِ القُتُـودَ علـى عيـرانـةٍ أُجُـد

وبعد أن يصف الناقة، يخلص من الوصف إلى موضوعه فيقول:

فتلـك تُبْلِغُنِـي النُّعْمَـانَ إنَّ لـه ... فَضْلاً على الناس في الأدنى وفي البَعَد

.. ثم يعتذر ويمدح..

فأنت تلاحظ أن المقدمة كانت شديدة الارتباط بموضوع القصيدة.

ويُضاف إلى هذا العيب في قصيدة كعب، أن الأبيات التي ذكر فيها رسول الله ﷺ، لا تتعدى خمسة أبيات، ولم يصرّح بالمدح إلا في بيت واحد وهو قوله:

إنَّ الـرسـول لنـور يستضـاءُ بـه ... مُهَنَّـدٌ مـن سيـوف الله مسلـول

وخصَّ قريشاً بسبعة أبيات.

رابعاً: جاء في القصيدة:

لا تـأخـذنـي بـأقـوال الـوشـاة ولـم أذنـبْ ولـو كَثُـرتْ فـيَّ الأقـاويـلُ

.. وفي هذا البيت عيوب:

١ ــ قوله: لا تأخذني بأقوال الوشاة.. والخطاب لرسول الله ﷺ. ومتى كان رسول الله يأخذ الناسَ بأقوال الوشاة؟ إن قول الرسول عليه السلام صدق، وعمله حقٌّ، وما ينطق عن هوى، وما ينفذ عملاً إلا بإذن الله، وما سمع يوماً وشاية في أحد من المسلمين.. فكيف يوصف رسول الله بأنه يأخذ بأقوال الوشاة.

٢ ــ إن الذي بلّغَ رسول الله ــ كما تذكر القصة ــ بما قال كعب من الشعر في الهجاء هو أخو كعب، بجير بن زهير.. فهل يشي الأخُ بأخيه؟

وقد جاء في القصة أن كعباً لم ينكر الذي قاله من الشعر، فكيف يكون قول واشٍ.

٣ ــ قوله: «ولم أذنبْ» خطأ فاضح، لأنه يعني أن رسول الله أهدر دم إنسان بريء من الذنب.

٤ ــ إنه يعترف بالذنب في بيت سابق، لقوله:

نبئـتُ أن رسـول الله أوعـدنـي والعفـو عنـد رسـول الله مـأمـول

.. والعفو لا يكون إلا بعد ذَنْب.

خامساً: جاء في القصيدة:

يمشون مَشْي الجمال الزُّهْر يَعْصِمُهُمْ ضـربٌ إذا عَـرَّدَ الســودُ التنـابيـلُ

.. والجمال الزُّهر: البيض. ويعصمهم: يمنعهم. عرّد: فرَّ وأعرض التنابيل: القصار، جمع تنبال.

وتزعم قصة القصيدة أن الشاعر يمدح القرشيين المهاجرين، في الشطر

الأول، ويصفهم بامتداد القامة، وعظم الخلق والرفق في المشي، وبياض البشرة، وذلك دليل على الوقار والسؤدد.

ويزعمون أن الشطر الثاني هجاء في الأنصار، لأن واحداً منهم وثب على كعب في حضرة رسول الله وقال: دعني وعدوّ الله أضرب عنقه.. فغضب كعبٌ على هذا الحيّ من الأنصار.. أما المهاجرون فلم يتكلموا فيه إلا بخير. وهذا كلام باطلٌ لا يصحُّ، يناقض المرويّ في قصة القصيدة.

١ ــ لأن رواية البيهقي والحاكم تقول: «فأسلم كعبٌ وقال القصيدة ثم أقبل حتىٰ أناخ راحلته بباب المسجد، ثم أنشد رسول الله القصيدة... وقال ابن إسحق: فلما بلغ كعباً كتاب بُجَيْر، ضاقت به الأرض.. فلما لم يجد من شيء بُداً قال قصيدته التي يمدح فيها... ثم خرج حتى قدم المدينة... فهذه الأخبار تدل على أنه حاك القصيدة في نفسه قبل قدومه على رسول الله ولم يكن يعلم بما سيكون في مجلس رسول الله، ولم يكن يعلم أن أحداً من الأنصار سيقول ما قال... وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يفسر شطر البيت أنه هجاء للأنصار، وأن مدح المهاجرين كان بسبب قولهم خيراً فيه؟ وعلى فرض صحة نسبة القصيدة إلى كعب، فإنَّ حال الشاعر تؤيد أنه قالها قبل وصوله إلى المدينة، فالشاعر من مدرسة أبيه زهير، وهو منعوت أنه من عبيد الشعر، الذين ينقحون القصائد، والتنقيح يقتضي أن يقول القصيدة قبل إنشادها بزمن يسمح بالتنقيح.

٢ ــ ما كان رسول الله ﷺ يرضى بهجاء الأنصار، وما كان يسكتُ عليه لو حصل. والذي نقله ابن هشام في السيرة «ويقال: إن رسول الله، قال له حين أنشده «بانت سعاد..» لولا ذكرت الأنصار بخير، فإنهم لذلك أهل، فخصهم كعبٌ بقصيدة فيما بَعْدُ».

وعلى فرض صحة هذا الخبر، فإن رسول الله، تمنى على كعب جَمْعَ الأنصار مع المهاجرين في المدح، ولم يذكروا أنه غضب لهجاء الأنصار.. وكيف يهجو كعبٌ الأنصار وقد مدحهم الله في كتابه.

وقال عليه السلام: «لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار». وقال: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله».

٣ ــ قوله: «إذا عرَّد السود التنابيل» وصف لا ينطبق على الأنصار لأن الأنصار، ليسوا سوداً ولا قصاراً.. ولم يُعرف عن الأنصار الفرار في المعارك، بل هم شجعان لم يتخلفوا عن رسول الله في معركة ولم يفروا في غزوة، وظهرت شجاعتهم في المعارك كلِّها. ويكفي أن نذكر من شجاعتهم أنهم تحدوا قريشاً والعرب جميعاً واحتضنوا الدعوة الإسلامية في منازلهم.

.. وإذا صحت نسبة البيت لكعب، فإنه لا يريد بذلك هجاء أحد من الناس بهذا الشطر، وإنما هي مقابلة، يريد أن يثبت فيها وصفاً للمهاجرين، وينفي عنهم وصفاً آخر مذموماً.

سادساً: وبالجملة فإنَّ القصيدة، سواءٌ أصحت نسبتُها إلى كعب أم لم تصح فإنها لا تستحقُ هذه الهالة التي نسجت حولها، فهي لا تحتوي إلا على بيت واحد في مدح النبيّ ﷺ:

إنَّ الرسول لنورٌ يُسْتضاءُ به　　　مُهَنَّدٌ من سيوف الله مسلُولُ

وفي رواية: «إن الرسول لسيف» مكان «لنور» وقد كانت عادة العرب إذا أرادوا استدعاء مَنْ حولهم من القوم أن يُشهروا السيف الصقيل فيبرق فيظهر لمعانه من بُعْد فيأتون إليه، مهتدين بنوره، مؤتمين بهديه. شبه الرسول بذلك.

سابعاً: إن القصيدة لا تدلُّ على شخصية الشاعر المستقلة، لأنها تضمُّ مجموعة من السرقات الشعرية التي لا يمكن أن نقول إنها من توارد الخواطر، أو من وقوع الحافر على الحافر، وإنما يكون توارد الخواطر في شطر، أو قافية، أو عبارة:

١ ــ فالقصيدة تحتذي حذو قصيدة النابغة الذبياني الدالية:

(أ) فالقصيدتان من البحر البسيط.

(ب) وهما في الاعتذار والمدح.

(جـ) والقصيدتان تنقسمان إلى ثلاثة أقسام:

المقدمة الغزلية، ثم وصف الناقة، ثم المدح والاعتذار.

(د) وتتفقان في بعض الأبيات:

قال النابغة:

نبئــتُ أن أبــا قــابــوس أوعــدنــي ولا قــرار علــى زارٍ مــن الأســد

وقال كعب:

نبئــتُ أن رســول الله أوعــدنــي والعفــو عنــد رســول الله مــأمــول

.. والشطر الثاني من بيت النابغة الذي شبه فيه النعمان بالأسد جاء أيضاً عند كعب في أبيات، من قوله:

فلهو أخوف عندي...

إلى قوله:

ولا يزال بواديه أخو ثقةٍ...

وقد تفوق النابغة لأنه جمع المعاني في شطر واحد..

وقال النابغة:

مَهْلاً فِداءٌ لك الأقوامُ كلُّهُم...

وقال كعب:

مَهْلاً هداك الذي أعطاك نافلةَ القرآن..

وقال النابغة:

لا تَقْذِفَنّي برُكْنٍ لا كِفاءَ لَهُ.

وقال كعب:

لا تأخذنّي بأقوال الوشاة...

٢ ــ وهناك تشابه قريب بين قصيدة كعب، وقصيدة الطفيل الغنوي على القافية والوزن: التي مطلعها:

هل حَبْلُ شماءَ قَبل البَيْن موصولُ　　　أم ليس للصَّرْم عن شماءَ معدولُ

٣ ــ وتشابه بين قصيدة كعب، وقصيدة لأوس بن حجر:

فقال أوس بن حجر في وصف الناقة:

حرف أخوها أبوها من مهجنةٍ　　　وعمُّها خالُهَا وجناءُ منشيرُ

فقال كعب:

حَرْف أخوها أبوها من مُهَجَّنةٍ　　　وعمُّهَا خالُها قَوْداءُ شِمِليلُ

٤ ــ وقال كعب:

زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ　　　عند اللقاء ولا مِيلٌ معازيل

وهو يشبه قول أبيه زهير:

في حومة الموت إذْ ثابتْ حلائبهم　　　ليسُوا بكُشْفٍ ولا عزل ولا ميل

... وبَعْدُ: فإننا لا نريد أن ننفي نسبة القصيدة إلى صاحبها كعب، وإنما الذي ننفيه أن يكون أنشدها بحضرة رسول الله ﷺ وقد نشكُّ في قسمها المتعلق بالمدح والاعتذار، ونثبت للشاعر تغزله في سعاد ووصف الناقة، كما نثبت غيرها من الأشعار الجاهلية التي لم تصلنا بالسند المشروط فيه ما يشترط في سند الأخبار الإسلامية والقصيدة برمتها صالحة للاستشهاد بها في اللغة والنحو، ولا يصح الاستشهاد بها في السيرة النبويّة، والله أعلم.

* * *

(د) من علوم العصر النبوي: اللغات الأجنبية:

ومنها: أي من العلوم التي ألموا بها في العصر النبوي والقرن الأول: «اللغات الأجنبية».

عقد البخاري في كتاب «الأحكام» باب «ترجمة الحكّام» وهل يجوز تَرْجُمان واحد. وروى عن زيد بن ثابت أنَّ النبي ﷺ أمره أن يتعلم كتاب اليهود، حتى كتبتُ للنبي كُتبه، وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه. وفي رواية أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم السريانية. ولا تعارض بين الروايتين: فقد يكون رسول الله أمر زيداً أن يتعلم اللغتين، اللغة العبرانية لمخاطبة اليهود، واللغة السريانية، لمخاطبة أهل الشام والعراق، وقد تكون الرواية الأولى ذكرت لغة يهود بدون تحديد اسمها، والرواية الثانية حددت اسم اللغة.. فربما كان اليهود في المدينة يتكلمون السريانية، ذلك أن اللغة السريانية هي التي كانت سائدة في بلاد الشام والعراق إبّان الدعوة الإسلامية، وحين الفتح الإسلامي. وهي لهجة من اللغة الآرامية، فعندما اعتنق الآراميون المسيحية في القرن الأول للميلاد اختاروا اسم السريان (السوريّين) تحاشياً من الاسم الآرامي الذي كان رمزاً للوثنية. وكون لغة اليهود في المدينة السريانية، يدل على أن هجرتهم إلى المدينة كانت بعد ميلاد المسيح بقرنين أو ثلاثة قرون.

وليست قصة زيد بن ثابت الشاهد الوحيد على عناية القوم باللغات الأجنبية فقد روى البخاري أيضاً من باب «ترجمة الحكام» قال: وقال عمر بن الخطاب، وعنده عليٌّ وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان: ماذا تقول هذه؟ فقال عبد الرحمن بن حاطب قلتُ: تخبرك بصاحبها الذي صنع بها وكانت امرأة أعجمية وجدت حبلىٰ في زمن عمر، فأخبرت عمر بقصتها وهي لا تعرف العربية، فترجم عبد الرحمن بن حاطب ما قالتْ.

وروى البخاري أيضاً في الباب نفسه: وقال أبو جمرة: كنتُ أترجم بين ابن عباس، وبين الناس. قال: وقال بعض الناس: لا بدَّ للحاكم من مترجمين.

و «مترجمين» رويت بصورة الجمع، إشارة إلى تعدد الألسنة وحاجة الحاكم إلى مترجمين. ورويت بصورة التثنية، إشارة إلى قول بعض الفقهاء بوجوب وجود مترجمين اثنين في حضرة الحاكم، لإنزال الترجمة منزلة الشهادة.

(هـ) الجغرافية:

ويمكن أن نقول: إن أساس علم الجغرافية، وضع أيام عمر بن الخطاب، عندما كان يطلب من عُمّاله أن يصفوا له البلاد التي فتحوها، وشرح السياسة المتبعة في سياستها الاقتصادية والعمرانية.

ومن ذلك، كتاب عمرو بن العاص الذي أرسله إلى المدينة لما أتم فتح مصر ووصف فيه مصر وشرح له السياسة التي سيتخدها فيه.. وهو كتاب مشهور متداول، يبدأ بقوله: مصر تربة غبراء، وشجرة خضراء.. ثم وصف النيل وفوائده.. وقال في نهايته:

الذي يُصلح هذه البلاد وينمّيها، ويُقرُّ قاطنها فيها، أن لا يُقبل قولُ حسيسها في رئيسها، وأن لا يُسْتأدىٰ خراجُ ثمرة إلا في أوانها، وأن يُصْرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال، تضاعف ارتفاع المال، والله تعالى يوفق في المبتدأ والمآل.

ولكن هذه الرسالة، مشكوك في صحتها، فلم أجدها في مصدر تاريخي قديم يؤرخ للقرن الأول، وإنما هي متداولة في التواريخ المؤلفة في مصر في القرون المتأخرة، لأن الرسالة تلتزم السجع من البداية حتى النهاية ولم يكن السجع معروفاً في الرسائل الطويلة، ولعلها من صنع يوسف بن تغري بردي، صاحب كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» المتوفى سنة ٨٧٤هـ.

• • •

الفصل الخامس
الحرفُ والأعمالُ



ـ ١ ـ

الـزراعـة

الزراعة والتجارة: تستغرقان أكثر أعمال الناس في العهد النبوي، وعصر الخلفاء الراشدين. وربما يكون الأنصار أكثر الناس عملاً في الزراعة، وذلك لكونهم كانوا أهل المدينة، ولهم المزارع قبل الهجرة.. فقد جاء في الصحيح عن أبـي هريرة «إن إخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم» وكلمة المال في المدينة تعني الأرض المزروعة، لأن الزراعة جلُّ مالهم.

ومع ذلك فإن المهاجرين عملوا في الزراعة: فأبو بكر كانت له أرض في العوالي في طرف المدينة الجنوبـي، وكان يسكنها يوم توفي رسول الله. وعبد الرحمن بن عوف كانت له مزرعة في الجُرْف، في طرف المدينة الشمالي، والزبير كانت له أرض في «الغابة» بعد ملتقى سيول المدينة في شمال المدينة وأبو هريرة أصلح أرضاً في الشجرة بذي الحليفة، بالقرب من ميقات أهل المدينة، وكانت لسعيد بن زيد أرض بالشجرة...

وجاء في صحيح مسلم: عن ابن عمر: «أن النبـيّ ﷺ أمر بقتل الكلاب إلا كلب صيد أو كلب غنم». فقيل لابن عمر: إن أبا هريرة يقول: «أو كلب زرع» فقال ابن عمر: «إن لأبـي هريرة زرعاً». أراد ابن عمر بذلك الإشارة إلى تثبيت رواية أبـي هريرة وأن سبب حفظه لهذه الزيادة دونه، أنه كان صاحب زرع دونه، ومَنْ كان مشتغلاً بشيء احتاج إلى تعرف أحكامه. والحديث رواه البخاري عن

أبـي هريرة بالزيادة المذكورة. وتابعه على ذلك سفيان بن أبـي زهير ــ صحابـي [الفتح ٥/٥]. وفي صحيح البخاري: «بابُ المزارعة بالشطر ونحوه» قال قيس بن مسلم عن أبـي جعفر: «ما بالمدينة أهلُ بيت هجرة إلا يزرعون على الثلث والربع. وزارع عليٌّ وسعدُ بن مالك وعبد الله بن مسعود وعمر بن عبد العزيز، والقاسم، وعروة وآل أبـي بكر وآل عمر وآل علي وابن سيرين..» [الفتح ٥/١١].

وكان بعض أهل المدينة يعجز عن خدمة أرضه لاتساعها، فيكريها، أو يعطيها لمن يزرعها على الشطر، أو الثلث كما مرّ في رواية البخاري السابقة ويؤيد هذا أيضاً: ما رواه البخاري عن رافع بن خديج رضي الله عنه: قال: «كُنَّا أكثر أهل المدينة حَقْلاً، وكان أحدنا يكري أرضه، فيقول: هذه القصعةُ لي، وهذه لك، فربما أخرجت ذِهِ، ولم تخرج ذِهِ، فنهاهم النبـيّ ﷺ» وفي صحيح البخاري من كتاب «المساقاة» باب: «سكر الأنهار» أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبـيّ ﷺ في شِراج ــ مسيل الماء ــ الحرّة التي يسقون بها النخل ــ الحديث.

.. وبقي التوسعُ الزراعيُّ مستمراً في الازدياد في زمن الخلفاء الراشدين، فقد جاء في «المدونة» أنه كان بين رجلين من الصحابة خصومة في أرض لهما، فركب عثمان أيام خلافته، وركب معه رجال، فلما ساروا قال له رجلٌ: إن عمر قد قضى فيه، فقال عثمان: ما أنظر في أمر قضى فيه عمرُ، فرجع. وقال ابن رشد: (محمد بن أحمد بن رشد (الجد) توفي سنة ٥٢٠هـ. في كتابه «البيان والتحصيل» كانت الخصومة بين علي بن أبـي طالب، وطلحة، في ضُفير سدٍ بفجّة من الوادي بين ضيعتيهما فوكل عليٌّ عبد الله بن جعفر، فتنازعا فيه بين يَدَي عثمان، فركب من الغد في المهاجرين والأنصار، ثم رجع لما بلغه أن عمر، قضى فيها، فلما أخبر بذلك عبدُ الله بن جعفر علياً، قال له: قم الآن إلى طلحة فقل له: إن الضفير لك، فاصنع به ما بدا لك، فأتيته فأخبرتُه فسرَّ بذلك، ثم دعا

بردائه ونعليه، وقام معي، حتى دخلنا على عليّ فرحّب به، وقال: الضفير لك فاصنع به ما بدا لك، فقال: قد قبلتُ، وبي حاجة، فقال علي: ما هي؟ قال طلحة: أُحبُّ أن تقبل الضيعةَ منّي، مع مَنْ فيها من الغلمان والدواب والآلة، قال علي: قد قبلتُ، قال: ففرح طلحة، وتعانقا وتفرقا. [عن التراتيب الإدارية ٢/ ٤٩]. قال الكتاني: فهذا يدل على أن الحراثة كانت شائعة وبلغ الاهتمام بها إلى درجة الخصومة فيها من مثل عليّ وطلحة، وتوكيل عليّ ابن أخيه عبد الله، وخروج الخليفة في المهاجرين والأنصار للفصل بينهما. وانظر قصة سعيد بن زيد ــ أحد العشرة ــ وخصومته مع أروى بنت أويس، وكان ذلك أيام ولاية مروان بن الحكم على المدينة [الفتح ٥/ ١٠٤].

وفي «وفاء الوفا» للسمهودي: أنه كانت بالمدينة وما حولها عيون كثيرة تجددت بعد النبيّ ﷺ، وكان لمعاوية اهتمام بهذا الباب، ولهذا كثرت في أيامه الغلال بأراضي المدينة، ونقل الواقدي: «أنه كان بالمدينة في زمن معاوية صوافي كثيرة، وأن معاوية كان يحرث بالمدينة وأعراضها مئة ألف وسق وخمسين ألف وسق، ويحصد مئة ألف وسق حنطة».

وَقَدْ عُرفت المدينة منذ عهد العماليق بأنها خصبة التربة كثيرة المياه، لأنها تقع عند ملتقى ثلاثة أودية ــ بطحان، وقناة، والعقيق، إذا سالت مياههم، تحسبهم أنهاراً، لدوام المياه فيها أياماً وهي تجري إلى مصبها.. وعُرفت منذ القديم بزراعة النخيل، وأصنافه المتعددة، وفي أخبار الهجرة النبوية، أُري رسول الله أنه سيهاجر إلى أرض ذات نخل (البخاري) فذهب وهله إلى هَجَر (الإحساء)...

وليس عندنا إحصاء بأنواع النخيل الذي كان يزرع في صدر الإسلام، ولكننا نملك إحصاءً لأنواع التمور الموجودة في المدينة، في القرون المتأخرة، وهذا الإحصاء ــ وإن كان متأخراً ــ لكنه ذو دلالة على خصب أرض المدينة، وغناها بأنواع النخيل في القرون كلّها. وننقل هنا ما ذكره الشيخ عبد الغني

النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣هـ في رحلته المسماة «الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام والحجاز». قال: التمر في المدينة أنواع كثيرة، وهو من أحسن التمر، ومنه نوع يسمى «الحلوى» كل واحدة منها مثل الخيارة الصغيرة، يقطر العسل منها، وهذا النوع يتهادونه ولا يكاد يباعُ في الأسواق. قال: ووجدتُ بخط بعض العلماء أسماء تمور المدينة الشريفة على حروف المعجم، لفتح الدين الزرندي المدني وهذه هي على حروف المعجم:

«حرف الهمزة»:

١ ـ أبو لبن.
٢ ـ أم داود.
٣ ـ أم الحلو.
٤ ـ أطراف النداري.
٥ ـ أم الدهن.
٦ ـ أم طوال.
٧ ـ أم كباب.
٨ ـ أم عظام.
٩ ـ أصابع الغولة.
١٠ـ أم الذبان.
١١ـ أبو حماد.

«حرف الباء»:

١ ـ برني.
٢ ـ بردي.
٣ ـ بربري.
٤ ـ بيض أرقط.
٥ ـ برني وحشي.
٦ ـ برني عقول.
٧ ـ برقا.
٨ ـ بربري أصفر.
٩ ـ باذنجانة.
١٠ـ بيضة بغدادية.

«حرف التاء»:

١ ـ تارج.
٢ ـ تليس.
٣ ـ تتمادى.

«حرف الثاء»:

١ ـ ثعلبة.
٢ ـ ثعلبية.

«حرف الجيم»:

١ ـ جادي. ٢ ـ جوزة.

٣ ـ جوهرة. ٤ ـ جميلة. ٥ ـ جعفري.

«حرف الحاء»:

١ ـ حمامة. ٢ ـ حميصة.

٣ ـ حبشية. ٤ ـ حدقة.

٥ ـ حلابة. ٦ ـ حشفة.

«حرف الخاء»:

١ ـ خضارية. ٢ ـ خيثمية.

٣ ـ خويدة. ٤ ـ خشبية.

«حرف الدال»:

١ ـ دهماء. ٢ ـ داودية.

«حرف الذال»:

١ ـ ذهنة.

«حرف الراء»:

١ ـ رمادية. ٢ ـ رقيعة.

«حرف الزاي»:

١ ـ زعوى. ٢ ـ زبيبة.

٣ ـ زعبلية.

«حرف السين»:

١ ـ سكرية. ٢ ـ سكرجة.

٣ ـ سمنة. ٤ ـ سنة خيبر.

٥ ـ سنة زرقا. ٦ ـ سنة عوف.

٧ ــ سوداء.

«حرف الشين»:

١ ــ شعيرة.
٢ ــ شرشورة.
٣ ــ شاهشانية.
٤ ــ شقربة.
٥ ــ شحمة.
٦ ــ شيبوبة.

«حرف الصاد»:

١ ــ صيحاني.
٢ ــ صمغة.
٣ ــ صنافري.
٤ ــ صايفة.

«حرف الضاد»:

١ ــ ضيعة الوادي.

«حرف الطاء»:

١ ــ طبيخة.
٢ ــ طرفة.

«حرف الظاء»:

١ ــ ظلومة.
٢ ــ ظامرة.

«حرف العين»:

١ ــ عسفاني.
٢ ــ عجوة.
٣ ــ عطاوي.
٤ ــ عميس.
٥ ــ عجمية.

«حرف الغين»:

١ ــ غرابية.
٢ ــ غريبة الأهل.

«حرف الفاء»:

١ ــ فضية بردي.
٢ ــ فشاشة.
٣ ــ فخرية.

«حرف القاف»:

١ ـ قيصرية.
٢ ـ قرنات الغزال.

«حرف الكاف»:

١ ـ كبية.
٢ ـ كيلانية.

«حرف اللام»:

١ ـ لبانة.
٢ ـ لسان الطير.

«حرف الميم»:

١ ـ مردويه.
٢ ـ مجهولة.
٣ ـ مجللة.
٤ ـ معقلية.
٥ ـ مطرقة.
٦ ـ مقمعة.
٧ ـ مشروطة.
٨ ـ ممصوصة.
٩ ـ مكبوبة.
١٠ـ معسلة.
١١ـ ممزقة الثوب.

«حرف النون»:

١ ـ نعماني.
٢ ـ نثار نور العين.

«حرف الهاء»:

١ ـ هزمة.
٢ ـ هيفا.
٣ ـ هروى.

«حرف الواو»:

١ ـ واسطية.
٢ ـ وهرانية.

«حرف اللام ألف»:

١ ـ لاوية الرأس.

«حرف الياء»:

١ ــ يونانية. ٢ ــ ياقوتية.

٣ ــ يثربية.

انتهى ما وجدناه فجملته مائة وثلاثة عشر نوعاً.

* * *

وقال إبراهيم رفعت في كتابه «مرآة الحرمين»: عند الحديث عن تجارة المدينة في مطلع القرن الرابع عشر الهجري: وأهم صنف يتجرون فيه التمر الذي خصت المدينة من أصنافه بما لم يخص به غيرها، وقد بلغت أنواعه **١٧٢** نوعاً منها الأنواع الحرة. وتبلغ نحو **٧٢** صنفاً؛ وهذه يأكل منها أهل المدينة، ويهدون، ومنها الأنواع التي تسمى «لوناً» وتقارب المائة. ومن اللون ما له نوى، وما ليس له، والأبيض والأصفر والأحمر والغليظ والرفيع وذو الحجم الكبير والصغير. أما الأنواع الحرة فأهمها:

١ ــ العنبرة: وطول الثمرة منها يقارب ١٠سم في عرض نصفها. وهذا الصنف قليل.

٢ ــ الشلبي: ويهدى للأمراء والكبراء.

٣ ــ الحلوة: وهو أحب الأنواع لأهل المدينة: بلحه ورطبه وتمره.

٤ ــ البيض: طوله كعرضه.

٥ ــ الشقري.

٦ ــ السكرة: وهو يتفتت في الفم بسهولة، وبلحه ورطبه وتمره كأنما هو السكر.

٧ ــ الطبرجلي: ويكون أصفر بلحاً ورطباً.

٨ ــ البرني.

٩ ــ العجوة.

١٠ ــ الخضرية: ولونه أخضر بلحاً ورطباً وتمراً.

١١ ــ الرباعي.

١٢ ــ المكتومي: وهو يشبه فنجان القهوة.

١٣ ــ سكرة الشرق.

١٤ ــ الجاوي: وهو أسود اللون بطناً وظهراً، رطباً وتمراً.

١٥ ــ اللبانة: ولونها أبيض، ولا تؤكل إلا تمراً؛ وهي سبعة أنواع.

١٦ ــ الفند: وهو أحمر اللون ذو أنواع. (مرآة الحرمين):

.. هذه الأرض الطيّبة في طيبة، التي استوعبت المهاجرين والأنصار، وجهزت أكثر من مئة غزوة وسريّة في عشر سنوات من العهد النبوي، وجهزت الجيوش التي قضت على الردّة، ومنها انطلقت الجيوش التي فتحت بلاد الفرس وبلاد الشام ومصر، في العهد العمري.. هذه الأرض، يظهر أنها لم تبق على مستوى عطائها السابق، وتأخرت في عهد التابعين، ومن تبعهم مع قدرتها على الاستمرار في العطاء المتدرج إلى الأعلى.. والأسباب لذلك في رأيي كثيرة أذكر منها:

انتقال الخلافة منها، أدّى إلى تراجع الأموال التي يحتاج إليها الناسُ لخدمة الأرض،.. وحرمها من الإنفاق على مشروعاتها الزراعية من قبل بيت المال، فالكثرة السكانية لا بدّ أن يقابلها زيادة إنفاق على الأرض لتقدّم المزيد من العطاء...

فيروى أن عمر بن الخطاب، أخذ برأي عمرو بن العاص، لتخصيص ثلث إيراد مصر، لعمل الجسور وحفر الترع وإصلاح الريّ...

ولو طال العهد بعمر، أو بقيت الخلافة في المدينة، لفكر أهل الرأي بإحداث السدود لحبس المياه وراءَها، والانتفاع منها في فصل الصيف.. ولو بقيت الخلافة في المدينة، لوُجد في كنفها من أصحاب الأموال مَنْ يستطيع خدمة الأرض وإحياءَها، وتهيئة الأسباب لنمائها. ونضرب لذلك مثالاً: ما روى البخاري في كتاب «فرض الخمس» باب: بركة الغازي في ماله حيّاً وميْتاً، مع النبيّ ﷺ وولاة الأمر. قال في قصة طويلة، يتحدث عن وفاة الزبير، وبيْع أملاكه، وتسديد ديونه «وكان الزبير اشترى الغابة ــ أرض بعد مجتمع السيول في طرف شمال المدينة وراء أُحد ــ بسبعين ومئة ألف، فباعها عبد الله بن الزبير بألف ألف وستمائة ألف». فانظر إلى الفرق بين ثمن الشراء، وثمن البيع وذلك بسبب ما أدخل عليها من الإصلاح حتى جعلها مزرعة وافرة العطاء حتى أنه لم يستطع واحدٌ أن يشتريها، فاشتراها عددٌ من أهل المدينة واشترى منها معاوية جزءاً وهو يقيم في دمشق، وذلك لما عرف من خصبها. وقوله في الرواية: «وكان قد اشتراها» يعني ذلك أنه ربما كان في عهد عثمان، لأن أسفل المدينة كان في الجاهلية مواتاً غير مسكون وإنما عَمُرَ بَعْدُ في الإسلام، عندما كان الخليفة يُقطع الأراضي الموات لمن يُحييها، ولم يكن عمرُ يقطع الإقطاعات الكبيرة، فلعل ذلك كان زمن عثمان. فاشتراها الزبير ممن أُقطعها. ومما يدل على أن إحياءَها كان في زمن عثمان أو أواخر عهد عمر، أن هذه الأرض الواسعة تحتاج إلى مئات من العبيد لخدمتها، ولم يكن يتوفر ذلك إلا في العهد الذي ذكرتُه.

ومن أسبابها: الفتن التي شغلت الناس منذ زمن عثمان، وتتابعت في زمن عليّ، ثم في زمن يزيد، وعبد الله بن الزبير، والفتن لا تترك الناس يستقرّون، حيث ينشغلون بها زمن حدوثها، ويهربون من مكانها بعد انتهائها خَوْفاً على أنفسهم. والتقدم الزراعي، يطرد مع استقرار الناس، وانتشارها الأمن، وتفرغ

الخليفة أو الأمير للحياة المدنية. ومن أسبابها: اعتماد التابعين على العبيد والخدم في الزراعة، وعدم مشاركتهم بأيديهم في العمل. ذلك أن صور الزراعة المنتجة، كما وردت في كتب الحديث الشريف، قد يكون أعلاها مرتبة أن يعمل الزارع بنفسه إن لم يكن مانع شرعي.. وهذا ما يدل عليه ظاهر لفظ الحديث الشريف الذي رواه البخاري في كتاب الحرث والمزارعة «عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما مِنْ مسلمٍ يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمة إلا كان له به صدقةٌ». وفي رواية لمسلم: «إن نبيَّ الله ﷺ رأى نخلاً لأمّ مبشّر ــ امرأة من الأنصار ــ فقال: مَنْ غرس هذا النخل أمسلمٌ أم كافر؟ فقالوا: مسلم..» فذكر الحديث.

قال ابن حجر: «وفي الحديث فضل الغرس والزرع والحضّ على عمارة الأرض ويستنبط منه اتخاذ الضيعة والقيام عليها» [الفتح ٥/ ٤١].

وفي كتاب «البيوع» من صحيح البخاري: باب «كَسْب الرجل، وعمله بيده» وفيه عن عائشة «كان أصحاب رسول الله عُمّال أنفسهم، فكان يكون لهم أرواحٌ فقيل لهم: «لو اغتسلتم». وفيه أيضاً: «ما أكلَ أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده».

ونقل ابن حجر اختلاف العلماء في أفضل المكاسب، ونقل عن الماوردي، أن أطيبها الزراعة لأنها أقرب إلى التوكل. وقال النووي: إن أطيب الكسب ما كان بعمل اليد، فإن كان زراعاً فهو أطيب المكاسب، لما يشتمل عليه من كونه عمل اليد ولما فيه من التوكل، ولما فيه من النفع العام للآدمي وللدواب. قال ابن حجر: وفوق ذلك من عمل اليد، ما يكتسب من أموال الكفار بالجهاد، وهو مكسب النبيّ ﷺ وأصحابه وهو أشرفُ المكاسب لما فيه من إعلاء كلمة الله [الفتح ٤/ ٣٠٤].

ومن صور الزراعة الناجحة: ما عنون له البخاري «باب: إذا قال اكفني مؤونة النخل وغيره وتُشْركني في الثمر» وروى حديث «قالت الأنصار للنبيّ ﷺ

اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا، فقالوا: تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمر، قالوا: سمعنا وأطعنا». ومن صورها «المزارعة بالشطر ونحوه» وروى البخاري «عامل النبيّ ﷺ خيبر بشطر ما يخرجُ منها من ثمر أو زَرْع». ومن صورها «كراء الأرض بالذهب والفضة. .» الخ.

ومن أسباب تقهقر الإنتاج الزراعي: العطاء السنويّ الذي كان يوزع من بيت المال. . فهذا العطاء قد كثُر، حتى أغنى بعض الناس عن العمل، وتركوا التجارة والزراعة. وهناك أخبار تشير إلى ذلك، منها: ما نقله الكتاني في [التراتيب ٢/ ٢٠] عن «المدخل» لابن الحاج، أن عمر بن الخطاب دخل السوق في خلافته، فلم ير فيه ــ في الغالب ــ إلا النبط، فاغتمَّ لذلك، فلما أن اجتمع الناسُ، أخبرهم بذلك، وعدَّ لهم في ترك السوق فقالوا: «إنَّ الله أغنانا عن السوق بما فتح به علينا. فقال رضي الله عنه، والله لئن فعلتم ليحتاج رجالكم إلى رجالهم، ونساؤكم إلى نسائهم». والنبط: جيل من الناس كانوا ينزلون سواد العراق ثم استُعمل في أخلاط الناس وعوامهم، وربما قيل لهم، النبط، والنبيط: لأنهم كانوا يستنبطون الماءَ من الأرض، ويزرعونها، وليست لهم صلة بالأنباط الذين أقاموا دولة في الشام.

وروى الكتاني أيضاً عن «العتبية» قال مالك، عن يحيى بن سعيد: إن عمر بن الخطاب كان يقول: مَنْ كانت له أرض فليعمرها، ومَنْ كان له مال فليصلحه فيوشك أن يأتي مَنْ لا يعطي إلا مَنْ أحبّ. قال ابن رُشْد في البيان والتحصيل: «إنما أوصى بحفظ أموالهم بالقيام عليها مخافة أن يضيعوها اتكالاً منهم على أُعطيات الإمام، وقد نهى رسول الله عن إضاعة المال، وهذا من إضاعة المال» ٢/ ٤٩.

وقد صدق حدس عمر بن الخطاب، حيث انقطع أو كاد أن ينقطع العطاءُ منذ بداية العصر الأموي، ولم يَعُدْ منتظماً، بل أصبح خاضعاً لرضا الخليفة عن

أهل المدينة بخاصة، وأهل الحجاز بعامّة، فنبتت نابتةٌ في ظل العطاء عاطلة عن العمل، تنتظر موعد حضور مندوب الديوان ــ ديوان العطاء ــ من دمشق، فإذا تأخر، أو انقطع حلَّ العسرُ محل اليسر.

وإليك هذه الصورة التي نقلها المصعب الزبيري في كتابه «نسب قريش» قال: «وكان معاوية بن أبي سفيان وجّه عاصماً (ابن الوليد بن عتبة) إلى المدينة، بالعطاء، فقدم به، وكان العطاءُ يُدفَعُ إلى العرفاء، وكان لكل قبيلة عريف يأخذ أعطيتهم ويدفعها إليهم، فحبس عاصم أعطية الناس وقال: يأتيني أهلها فأدفعُ إلىٰ كل رجل عطاءَه في يده وكانت العرفاءُ يأخذونها، فلا يغيّبون غائباً، ولا يُميتون ميتاً، ويصدّقون أهلها فيعطونهم بعضاً ويأخذون بعضاً، فأراد عاصم أن يصحح الديوان، فلا يعطون غائباً ولا ميتاً، ويأتيه أهل العطاء فيدفع إليهم أعطيتهم، وقد عرفهم، فكَرِهَ الناسُ ذلك، لما كانوا يصيبون من حظّ الموتى والغُيَّب، وامتنعوا من إتيانه، فأقام على ذلك أياماً، ثم دخل المسجد فمرّ بحلقة فيها الحسينُ، وعبد الله بن الزبير. وعمرو بن عثمان فوقف عليهم، فسلّم، فقال له بعض أهل الحلقة: ما يمنعك أن تدفع هذا المال إلى أهله قال: أمرني أميرُ المؤمنين أن أدفعه إلى الحاضر دون الغائب والحيّ دون الميت، ولا أُعطي أحداً إلا في يده.

قالوا: فكيف تصنع بالنساء؟ أتعطيهنّ في أيديهنّ؟ يريدون بذلك الحجة عليه، قال: والنساءُ أيضاً، فحصبوه وغضبوا من كلمته، فحصبه الناسُ، حتى لجأ إلى بعض دور بني أُمية، فقال لهم عبد الله بن الزبير: إنكم إذا أحدثتم حدثاً، فأخاف أن يعاقبكم عليه معاوية، فاجعلوها واحدةً، وقوموا إلى هذا المال، فاقسموه بين أهله.. قال: فبلغت معاوية القصةُ، فأعرض لهم عنها».

.. ويظهرُ من الأخبار أن العطاء قد انقطع في عهد معاوية، بعد أن رفض

زعماءُ الحجاز ـ الحسين، وابن الزبير ـ البيعة ليزيد بن معاوية. يدل على ذلك ما رواه المصعب الزبيري في كتابه «نسب قريش» حيث يذكرُ أن عبد الله بن صفوان (قتل مع ابن الزبير سنة ٧٣هـ) دخل على معاوية في دمشق، فقال له معاوية: «حوائجك يا أبا وهب؟ فقال: تُخرجُ العطاءَ، وتفرضُ للمنقطعين، فإنه حدث في قومك نابتةٌ لا ديوان لهم. وقواعدُ قريش لا تغفلْ عنهنّ فإنهن قد جلسْنَ على ذيولهن ينتظرن ما يأتيهنَّ منك، وحلفاؤك من الأحابيش، قد عرفتَ نصرهم ومؤازرتهم، فاخلطهم نفسك وقومك. قال معاوية: أفعلُ» [ص ٣٨٩].

وفي ترجمة محمد بن مسلم الزهري، قال: نشأت وأنا غلام، لا مال لي، مُقَطَّعاً من الديوان» [طبقات ابن سعد ـ القسم المتمم ص ١٥٧]. وقد وُلِد الزهري في أواخر عهد معاوية بن أبي سفيان.

وفي كتاب [مختصر تاريخ دمشق ٢/ ٢٢٩] أن الزهري وفد على عبد الملك بن مروان، فقال الزهري: «افرض لي فإني منقطعٌ من الديوان. قال عبد الملك: إنَّ بلدك ـ المدينة ـ لبلدٌ ما فرضنا فيها لأحدٍ منذ كان هذا الأمر.. قال الزهري: ولقد خرجتُ من أهلي وإن فيهم لحاجة ما يعلمها إلا الله، ولقد عمّت الحاجةُ أهل البلد».

واستمرت هذه الحال طوال العهد الأموي.. حيث تخبرنا المصادر أن عطاء بن أبي رباح وفد على هشام بن عبد الملك، فقال له: ما حاجتك يا أبا محمد؟ قال: يا أمير المؤمنين.. أهل الله، وجيرانُ رسوله، تقسّم عليهم أرزاقهم وأُعطياتهم، فقال: نعم. يا غلامُ: اكتب لأهل مكة والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لسنةٍ. [صور من حياة التابعين ص ٢٣ ـ ترجمة عطاء].

وأخيراً، فإن من أسباب تقهقر الرقعة الزراعية في المدينة بخاصة، وفي الحجاز بعامّة: ما ذكره شكيب أرسلان في كتابه «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» حيث زار الطائف بعد حجه سنة ١٣٤٨هـ ووازن بين

ماضي البلاد الزراعي، وحاضرها. . حيث نقل عن ياقوت الحموي، وصفاً لقرية «الوهط» بالطائف، فقال: الوهط: مال ــ مزارع ــ كان لعمرو بن العاص بالطائف، وهو كَرْم كان على ألف ألف (مليون) خشبة شرى كل خشبة بدرهم. وقال ابن الأعرابي: عرّش عمرو بن العاص بالوهط ألف ألف عود كرم على ألف ألف خشبة، ابتاع كل خشبة بدرهم. . فحجّ سليمان بن عبد الملك، فمرّ بالوهط، فقال: أُحبُّ أن أنظر إليه، فلما رآه قال: هذا أكرمُ مالٍ وأحسنه، ما رأيتُ لأحدٍ مثله، لولا أن هذه الحرَّة ــ الحجارة السوداء المنخورة ــ في وسطه، فقيل له: ليست بحرّة ولكنها مسطاح الزبيب، وكان زبيبه جُمع في وسطه، فلما رآه من بُعْد ظنّه حَرَّةً سوداء.

ويذكر شكيب أرسلان أسباب تقدّم الزراعة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام: فيقول: ولما كان العربُ منحصرين في الجزيرة، لا يتجاوز ملكهم شطوطها البحرية، وبادية الشام من الشمال، كانت الجزيرة عامرة والمدن كثيرة والقرى متصلة، والمزارع ناضرة والقصور والجواسق وأماكن النزهة، لا يأخذها العدُّ، فإن أراضيها المُنبتة كانت تضيق بأهلها، فكانوا يعملون فيها بكدٍّ عظيم ليستغلوا منها كلَّ ما يقدرون أن يستغلوه، ويتذرعون للخِصْب بأصناف الحيل.

ثم يذكر ما آل إليه «الوهط» فيقول: فأما الوهط فقد انحط كثيراً عن درجته السابقة ورتبته السامقة، ولا تجد فيه، لا ألف ألف عود كرم، ولا ألف عود كرم، ولا مسطاحاً واحداً للزبيب.

ثم يذكر أسباب انحدار الزراعة، فيقول:

فلما ظهر الإسلام، وهبَّ العربُ للفتوحات ونَشْر عقيدة التوحيد، من جبال الهندكوش إلى جبال الألب، وكان خلفاؤهم يندبونهم للغزوات ويستجيشونهم بدون انقطاع، وكانوا مادة الإسلام وحملة الدين. . كانت القواصي تأكلهم والحروب تفني منهم مئات الألوف، وكانت قبائلهم أصبحت منتشرة من الصين إلى الهند إلى فارس. . الخ فلم يبق منهم في الجزيرة العدد الذي يقوم بعمرانها. . .

وكانوا في هذا أشبه بأسبانية، التي بَعْدَ فتْحها المكسيك وأمريكا الجنوبية قد تقهقرت إلى الوراء بما هاجر من أهلها إلى تلك الديار التي فاق فيها الاسبانيول في العدد مَنْ بقي منهم في وطنهم الأصلي.

يقول: «فهذا هو السبب الحقيقي في تقلص عمران الجزيرة بعد الإسلام، حتىٰ عاد الوهط دسكرة حقيرة بعد أن كان مسطاح الزبيب فيه يُظنُّ حرّةً لسواده واتساعه» [ص ١٣٣].

ولم يذكر شكيب أرسلان، ماذا يجب أن يكون في أعقاب هذه الهجرة الجماعية للجهاد ونشر الدعوة، ومن ثمَّ الاستيطان في البلاد المفتوحة..

فالجهاد ونشر الدعوة، كان يجب أن يكون، ولا يقدر على هذه الوظيفة إلا العرب لأنَّ الدعوة بلسانهم:

أقول: كان الواجب أن تكافأ هذه الأرض ببذْل جزء من واردات بيت المال في تنمية مواردها، فهذه الأموال الوفيرة التي تكدست في بيت مال المسلمين في دمشق، ثم في بغداد، لم تكن لتكون لولا اندفاعُ هؤلاء العرب إلى الفتح واتساع الرقعة الإسلامية التي يأتي خراجها إلى بيت المال.. ولكن الذي كان، أن الخلفاء في دمشق وبغداد نسوا مهد العرب، ومهبط الدعوة مما أدى إلى كثرة الفتن في الجزيرة، وشحت الأرزاق، لقلة تفرغ مَنْ بقي من العرب في الجزيرة إلى العمل، وأدى ذلك إلى هجرة ثانية، لم يكن هدفها الفتح ونشر الدعوة، وإنما كان هدفها البحث عن مواطن الرزق. والله أعلم.

ومن العجيب أنهم يذكرون أن هارون الرشيد، كان ينظر إلى الغمامة فيقول لها: اذهبي فأمطري حيث شئت، فإن خراجك سوف يأتيني، للدلالة على اتساع رقعة الدولة الإسلامية، ولكن لم يذكر هارون مَنْ كان السبب في هذا الاتساع.. ولو تذكر لحظةً الأرض التي نبت عليها الذين وسعوا رقعة الخلافة، لما آل أمر الجزيرة لما آل إليه.

• • •

ـ ٢ ـ
التجــارة

وأما التجارة: فقد كانت عمل الجمع الغفير من المسلمين في المدينة، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجُمُعَة فاسْعَوْا إلى ذكر الله وذروا البيع. ذلكم خيرٌ لكم إن كنتمْ تعلمون، فإذا قضيت الصلاةُ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله. . .﴾ الآية [الجمعة ٩ ــ ١٠].

قال الزمخشري: وإنما خصَّ البيع من بينها ــ من بين الأعمال ــ لأن يوم الجمعة يوم يهبط الناسُ فيه من قراهم وبواديهم، وينصبّون إلى المصر من كلّ أوْب. وَوَقْتُ هبوطهم واجتماعهم واختصاص الأسواق بهم، إذا انتفخ النهار وتعالى الضحى، ودنا وقْتُ الظهيرة، وحينئذٍ تحرّ التجارة ويتكاثر البيع والشراء، فلما كان ذلك الوقت مظنّة الذهول بالبيع عن ذكر الله والمضيّ إلى المسجد، قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة.

وقال تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها وتركوك قائماً، قل: ما عند الله خيرٌ من اللهو ومن التجارة، والله خيرُ الرازقين﴾. روى البخاري في سبب نزول الآية عن جابر بن عبد الله قال: بينما نحنُ نصلّي مع النبيّ ﷺ إذْ أقبلت عيرٌ تحمل طعاماً، فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبيّ ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً. فنزلت هذه الآية، [كتاب الجمعة، باب ٣٨]. وفي رواية في «كتاب التفسير» «فثاروا إليها». . فقوله «حتى ما بقي مع النبي إلا اثنا عشر رجلاً» دليل على انشغال الناس بالتجارة. . ولو كان الهدف من الذهاب إلى العير شراء حاجاتهم الخاصة بالبيت، ما انفضوا إلى التجارة، لأن ما أتى إلى السوق فسوف

يباعُ فيه ويحصل كل واحدٍ على حاجته في وقتٍ ما. . . ولكن سرعة انفضاضهم، يظهر أنه لشراء جزء من التجارة، للمتاجرة والبيع والربح.

ذلك أن باب التجارة واسع يرتزق منه الغنيّ والفقير، كلٌّ بقدر ما يملك من المال. . . بل إنَّ التجارة كانت باب الرزق لأكثر مَنْ وَفَد على المدينة من غير أهلها، وأقام فيها زمناً، لمصاحبة رسول الله في العهد النبوي، ولمجاورة المسجد بعد وفاته.

ولعلّ المهاجرين أو جلّهم، كان أكثر رزقهم من التجارة: يدلُّ على ذلك الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة، يعلل فيه انفراده بكثرة التحديث عن رسول الله ﷺ، مع تأخره في الإسلام ــ عام خيبر ــ: قال أبو هريرة رضي الله عنه «إنكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله، وتقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدّثون عن رسول الله بمثل حديث أبي هريرة؟ وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصّفْقُ بالأسواق، وكنتُ ألزمُ رسول الله على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا ــ وكان يشغل إخوتي من الأنصار عَمَلُ أموالهم (بساتينهم)، وكنتُ امرءاً مسكيناً من مساكين الصُّفَّة، أعي حين يَنْسَوْن» [كتاب البيوع. باب ١].

وكان جُلُّ الجِلَّة من الصحابة تجاراً: أذكر منهم: أبا بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف. . .

روى البخاري عن عائشة قالت: لما استخلف أبو بكر الصديق قال: «لقد علم قومي أنَّ حرفتي لم تكن تعجز عن مؤنة أهلي. .». وروى ابن ماجة وغيره «أن أبا بكر خرج تاجراً إلى بُصْرىٰ في عهد النبيّ ﷺ» [عن الفتح ٤/ ٣٠٥].

وروى البخاري في كتاب «البيوع» باب الخروج إلى التجارة «في قصة حديث نبوي خفي على عمر بن الخطاب. . .» فقال عمر: أخفي عليَّ هذا من أمر رسول الله ﷺ؟ ألهاني الصفقُ بالأسواق. يعني: الخروج إلى التجارة.

.. وأما عثمان، فشهرتُه في باب التجارة، معروفة في الجاهلية والإسلام وقال ابن عبد البر في «الاستيعاب» كان الزبير بن العوام تاجراً مجدوداً في التجارة وقصّة عبد الرحمن بن عوف مشهورة، حيث قال: «لما قدمنا المدينة، آخى رسول الله بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي... فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوقٍ فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع، قال: فغدا إليه عبد الرحمن، فأتىٰ بأقطٍ وسمن، قال: ثم تابع الغُدُوّ، فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صُفْرة، فقال رسول الله: تزوجت؟ قال: نعم، قال: ومَنْ؟ قال: امرأة من الأنصار، قال: كم سُقْتَ، قال: زنة نواةٍ من ذهب، فقال له النبـيّ ﷺ: أَوْلِمْ ولو بشاةٍ». وعَظمت ثروة عبد الرحمن بن عوف من التجارة، حتى قالوا: لقد صولحت امرأتهُ التي طلقها في مرضه من ثلث الثمن بثلاثة وثمانين ألفاً.

.. ويظهر من الأخبار أن الحركة التجارية في أسواق المدينة كانت نشطة لما عرفنا من قصة عبد الرحمن بن عوف وسرعة كسبه المال، مما جعله قادراً على دَفْع مَهْر زواج.. ويدل على ذلك أيضاً دعوة رسول الله فقراء المسلمين إلى الاحتطاب وبيع الحطب، ليسكب أحدهم قوت يومه فقال ﷺ: «لأنْ يأخذ أحدكم حَبْله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وَجْهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس أعْطَوْه أو منعوه» [البخاري ك ٢٤، باب ٥٠].

وجاء في ترجمة سعد بن عائذ، من الإصابة، أنه كان يتجّر في القرظ ـ وهو ورق يُدْبَغُ به ـ فقيل له: سعد القرظ، وروى البغوي أنه اشتكى إلى النبـيّ ﷺ قلّة ذات يده، فأمره بالتجارة، فخرج إلى السوق فاشترى شيئاً من قرظ، فباعه فربح فيه، فذكر ذلك لرسول الله فأمره بلزوم ذلك...

وكانت تجارتهم في السلم، وفي الحرب أيضاً، لما روى ابن ماجة عن خارجة بن زيد قال: «رأيتُ رجلاً سأل أبـي عن الرجل يغزو ويشتري ويبيع ويتجر في غزوه، فقال له: إنّا كُنّا مع رسول الله بتبوك نشتري ونبيع وهو يرانا

ولا ينهانا». وفي سنن أبـي داود باب «التجارة» في الغزو أن رجلاً من أصحاب رسول الله قال: لما فتحنا خيبر، أخرجوا غنائمهم من المتاع والسبـي، فجعل الناس يتبايعُون غنائمهم. . ».

وبالجملة، فإن الذين كانوا يكسبون قوتهم من التجارة كثيرون، منهم مَنْ كان يتجر في ماله، ومنهم مَنْ كان يتجر بمال غيره. . ففي ترجمة «أبـي معلق الأنصاري» من «الإصابة» أنه كان تاجراً يتجر بمالٍ له، ولغيره.

وذكر الإمام مالك في «الموطأ» قصة لطيفة في «القراض» قال: «خرج عبدُ الله وعُبيد الله ابنا عمر بن الخطاب في جيش إلى العراق، فلما قفلا، مرّا على أبـي موسى الأشعري، وهو أمير البصرة، فرحّب بهما وسهّل، ثم قال لو أقدر لكما على أمرٍ أنفعكما به، لفعلتُ، ثم قال: بلىٰ، هاهنا مالٌ من مال الله أُريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين، فأسلفكماه، فتبتاعان به متاعاً من متاع العراق، ثم تبيعانه بالمدينة، فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين، ويكون الربحُ لكما، فقالا: وَدِدْنا ذلك، ففعل، وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال، فلما قدما، باعا، فأُربحا، فلما دفعا ذلك إلى عمر، قال: أكلَّ الجيش أسلفه مثل ما أسلفكما؟ قالا: لا، فقال عمر بن الخطاب: ابنا أمير المؤمنين فأسلفكما، أدّيا المال وربْحَه، فأما عبد الله فسكت، وأما عُبيد الله فقال: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا، لو نقص هذا المالُ أو هلك، لضمنّاه، فقال عمر: أدّياه، فسكت عبد الله، وراجعه عُبيد الله، فقال رجل من جلساء عمر: يا أمير المؤمنين، لو جعلته قراضاً، فقال عمر: جعلتُه قراضاً، فأخذ عمرُ رأس المال ونصف ربحه، وأخذ عبد الله وعُبيد الله ابنا عمر نصف ربح المال. وروى مالك عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن جده، أن عثمان بن عفّان أعطاه مالاً قراضاً يعمل فيه على أن الربح بينهما» [٢/ ٨٨ من تنوير الحوالك].

وجدُّ العلاء، هو يعقوب، مولى الحرقة (التهذيب جـ ١١) وتقول قصة قراضه «إن عمر بن الخطاب بعث مَنْ يقيم من السوق من ليس بفقيه ــ لا يعرف

أحكام البيوع ــ فأُقيم يعقوب فيمن أُقيم فجاء إلى عثمان فأخبره فأعطاه مِزْود تبرٍ قراضاً على النصف وقال له: إن جاءَك مَنْ يعترضك فقل: المالُ لعثمان، فقال ذلك فلم يقم، فجاء بمزودين، مزود رأس المال، ومزود ربح» [عن التراتيب ٢٦/٢، نقلاً عن مقدمة ابن رشد].

أما الجهات التي كانت تأتي منها البضائع إلى المدينة: في العصر النبوي، والقرن الأول فهي المدينة، ونواحيها، والبادية، والطائف، وهجر ــ الإحساء ــ واليمن والشام: بُصْرى، والبلقاء، وغزّة هاشم.. والعراق، ومصر. وفي تاريخ الخلفاء، للسيوطي أن عمر بن الخطاب أول مَنْ حمل الطعام من مصر في بحر أيلة، إلى المدينة. وذلك في الخليج الذي فُتح بعد فتح مصر..، وكان يمتد في القسطاط (القاهرة القديمة) إلى السويس. والذي تولّى حفره، عمرو بن العاص في خلافة عمر، وعرف بخليج أمير المؤمنين.. وسبب حَفْره أن الناس في المدينة قحطوا أيام عمر ــ عام الرمادة ــ فأعانهم عمرو بن العاص بعيرٍ أولها كان بالمدينة، وآخرها بمصر، فأمر عمر بفتح هذا الخليج ليتيسّر النقلُ في البحر، بدل الظَّهْر، فلم يأت الحولُ حتى سارت فيه السفنُ، فصار يُحمل فيه ما يُرادُ للحَرَميْن.. قال المقريزي في الخطط.. ثم غلب عليه الرمل فانقطع آخر الدولة الأموية. وقيل: إنه بقي مفتوحاً إلى زمن أبـي جعفر المنصور، ولما ظهر محمد النفس الزكية، أمر عامله على مصر، بردم خليج مصر لقطع الميرة عن البلاد الحجازية، فَرُدِم، وصار نسياً منسياً.

وإذا صح هذا الخبرُ، فإنه يُعدُّ نقطة سوداء مظلمة في تاريخ الدولة العباسية .. وأنا لا أستبعدُ حصول ذلك، في غياب الدِّين، وحضور الدنيا، فدولة بني العباس بدأت وقامت على الانتقام وسفك الدماء، والغدر بالأصدقاء: لقد سفكوا من دماء الأمويين ما لا يحلُّ في كتاب الله، وغدروا ببني هاشم الذين نالوا الخلافة باسمهم، بل غدر المنصور، بأبـي مسلم الخراساني الذي أقام لهم الدولة، ثم غدر بعمّه عيسى بن علي...

وفي دولة بني العباس بدأ افتراق كلمة الإسلام، وسقط اسم العرب من ديوان الحرب، وأدخل الأتراك في الديوان، واستولت الديلم ثم الأتراك، وصارت لهم دولة عظيمة، وانقسمت ممالك المسلمين عدة أقسام، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف، ويملكهم بالقهر.

فإذا كان أبو جعفر المنصور قد فَعَل ما فعل مما ذكرناه، فليس من الغريب أن يسدَّ هذه القناة...

إنَّ فعله هذا، ليس انتقاماً من النفس الزكية، وإنما انتقم من ساكني الحرمين، وأهل الجزيرة العربية، الذين كان أجدادهم السبب في هذا المُلْك العظيم الذي ورثه أبو جعفر... فكان من العقوق أن يفعل ما فعل.

.. وهو إذا لم يأمر بردمها، فقد ردمها بإهماله لها، وكان من الواجب عليه أن يعمل كل ما في طاقة الدولة الإسلامية على إحياء أرض الوحي...

.. إنَّ حصار أهل الإسلام، ومنع الزاد عنهم جريمة لا تغتفر، ما داموا على كلمة التوحيد...

أقولُ: إنَّ وقوع أهل الحجاز في الحاجة الشديدة، بسبب القحط، عام الرمادة يدلُّ على أنَّ أرض الحجاز معطاء، وكانت تسدُّ الحاجات الضرورية للناس، ولو كان عيشهم قائماً على ما يردُ إلى أسواقهم من خارج بلادهم، ما أحسوا بهذا الضيق، لأن طرق قوافل التجارة لم تنقطع ولكن البضائع تحتاج إلى ثمن، والثمن كان مما يجنيه الناس من نتاج أرضهم وباديتهم...

أما البضائع التي كانوا يتبايعونها: فأكثرها تدور حول «الطعام»: الأقط، والسمن وهما من مشتقات الألبان، وأكثره يأتي من البادية العربية.

والتمر: وهو من المدينة ونواحيها. والزبيب: وأظنُّه يأتي من الطائف .. والحنطة والشعير: ويظهر أنهما كانا يزرعان في المدينة ونواحيها، فقد روى النسائي عن ابن عمر، أن رسول الله نهى عن بيع النخلة حتى تزهو وعن السنبل

حتى يبيض. وقوله «السنبل» فالسنبل: يغلب على القمح والشعير. وقوله حتى يَبْيَضّ، أي: يشتدّ حبّه. وإذا ابيض، فقد جفّ، وأصبح صالحاً للدَّرْس. [النسائي ٧/ ٢٧٠].

وفي صحيح البخاري: من كتاب المزارعة، باب المزارعة بالشطر، «أن النبيّ ﷺ عامل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمرٍ أو زرع فكان يعطي أزواجه مئة وسق: ثمانون وسق تمر، وعشرون وسق شعير» ولكن الذي يظهر من الأخبار، أن كمية القمح والشعير التي تنتج من أرض المدينة لا تكفي سكانها، وبخاصة بعد العهد النبوي حيث زاد عدد السكان لأنها أصبحت مدينة مفتوحة للمسلمين. . . مع اتساع رقعة الأرض المزروعة قمحاً أيام معاوية، لما جاء أن معاوية كان يحصد مئة ألف وسق حنطة، وأن الغلال كثرت بالمدينة في أيامه. وكانوا في بداية أمرهم يطحنون الحنطة أو الشعير في بيوتهم، ولم يكونوا ينخلونه ثم أخذوا يجلبون الدقيق من الشام، وسمّوه الدقيق «الحُوَّارى» ـ بضم الحاء وتشديد الواو، آخره ألف ـ قال ابن منظور: الحوّارى: الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه.

فروى الحاكم عن ابن سلام: خرج رسول الله إلى المربد، فرأى عثمان يقود ناقةً تحمل دقيق حُوَّارىٰ، وسمناً وعسلاً، فقال: أنخ فأناخ، فدعا فيها بالبركة، ثم دعا ببرمة فنصبت على النار وجعل فيها من الدقيق والعسل والسمن ثم عصد حتى نضج، ثم أنزله، فقال: كلوا، هذا شيء تسميه فارس الخبيص.

.. ومما كان يجلب ويباع في أسواق المدينة: «السُّكَّر» لما نقل ابن حجر في ترجمة عبد الله بن جعفر، من «الإصابة» أن رجلاً من التجّار جلب سكراً إلى المدينة فكسد عليه، فبلغ عبد الله بن جعفر، فأمر قهرمانه أن يشتريه، وينتهبه الناس. ويظهر أن ذلك كان في العصر الأموي، لأن عبد الله بن جعفر كان صغيراً في العهد النبوي.

ولعلّ أكثر البضائع التي كان العرب يجلبونها إلى سوق المدينة «البَزّ» بفتح

الباء الموحدة، وآخره زاي.

قال ابن منظور: البَزُّ: الثياب، وقيل: ضرب من الثياب، وقيل: البَزُّ من الثياب: أمتعة البزّاز، وقيل: البَزّ، متاع البيت من الثياب خاصة.

والبزاز: بائع البَزّ، وحرفتُه: البزازة. ويظهر أنه الثياب بعامّة. وقد جاءت إشارات إلى وجود رُكن في سوق المدينة يسمى سوق البزازين، لما روى أبو يعلى الموصلي بسند ضعيف إلى أبي هريرة قال: دخلت السوق مع رسول الله فجلس إلى البزازين، فاشترى سراويل بأربعة دراهم.

ومن أشهر من اتّجرَ في البزّ، عثمان بن عفان: قال ابن قتيبة في «المعارف في صنائع الأشراف» ص ٥٧٥: كان عثمان بن عفّان بزازاً. قال ابن عبد البر في «الاستيعاب»: جهز عثمان جيش العُسْرة تسعمائة وخمسين بعيراً وتمَّ الألف بخمسين فرساً، وعن قتادة قال: حمل عثمان على ألف بعير وسبعين فرساً، وكل ذلك مما اكتسب من المال بحرفة البزازة.

قال ابن قتيبة: وكان أبو بكر بزازاً، وكان طلحة بزازاً، وكذلك كان عبد الرحمن بن عوف.

وفي مُسند الإمام أحمد، عن سويد بن قيس قال: جلبتُ أنا ومخرمة العبدي ثياباً وفي رواية (بزّاً) من هجر، قال: فأتانا رسول الله فساومنا في سراويل وعندنا وزّانون يَزِنون بالأجر، فقال للوزان: زنْ وأرجحْ. [٤/٣٥٢] (مسألة معترضة في الميزان): في الحديث السابق «وعندنا وزانون.. فقال: للوزان زنْ وأرجح».. في سياق «فساومنا في سراويل..» وفي حديث سابق عن أبي هريرة «فجلس رسول الله إلى البزازين فاشترى سراويل أربعة وكان لأهل السوق وزان يزن، فقال له: زنْ وأرجح».

أقول: قد يفهم من السياق أنهم كانوا يزنون السراويل.. ولكن إذا كانت السراويل مخيطة، فما معنى الإرجاح في الميزان، فالثياب المخيطة، تباع بالعدد والله أعلم.. إلا إذا كانت سراويل باعتبار ما سيكون، وإنه اشتراها قماشاً

ليخيطها سراويل، وقال: «سراويل» لأن قماش السراويل يختلف عن قماش الجبّة وغيرها من الملابس الخارجية... وقد أدركنا بعض التجار في المدينة النبوية ودمشق يبيعون بعض الأقمشة بالوزن ومنها أقمشة السراويل التي كانت تسمى «المالطي ــ أو السليطي».

ولكن قد يكون الوزن للثمن.. لما جاء في مسند أحمد عن جابر بن عبد الله أن رسول الله اشترى منه جملاً ثم نادى بلالاً فقال: زن لجابر أوقية وأوفه فانطلقتُ مع بلال فوزن لي أوقية وأوفى من الوزن.. الحديث (٣/ ٣٥٩)...

..وقد يكون كلامه عليه السلام في قصة شراء السراويل مستأنفاً، ومنفصلاً عن قصة شراء السراويل، وأن الأمر بالوزن والإرجاح لمن يبيعون الأمتعة الأخرى...

ولكن ليس كل شيء يوزنُ فبعضُه يُوزنُ، وبعضُه يكال.. فالتمر والزبيب والقمح والشعير وما شابهه، كان يُكال بالصاع في المدينة... ولهذا حدّد رسول الله صدقة الفطر بالصاع وليس بالوزن...

وقد يكون اجتمع في المدينة ــ بعد الهجرة ــ المكيال والميزان.. فقد رُوي عن ابن عباس قوله: إنكم معاشر الأعاجم وليتم أمرين بهما هلك مَنْ كان قبلكم، المكيال والميزان، قالوا: «وخصَّ الأعاجم لأنهم يجمعون الكيل والوزن جميعاً، وكانا مفرقين في الحرمين: كان أهل مكة يزنُون، وأهل المدينة يكيلون» [عن التراتيب ٢/ ٣٤].

أقول: وقد يُفْهم منه أيضاً: أن البزّ، ليس قاصراً على الثياب، فقالوا من معاني البزّ: «متاع البيت من ثياب ونحوها». لأن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، اللذين ذكرا في البزازين، لم يكونا يتجران في القماش فقط، وإنما كانا يجلبان الطعام أيضاً.

أقول: وجدت في النسائي عن ابن عمر: قال رسول الله: «المكيال على مكيال أهل المدينة والوزن على وزن أهل مكة» [٧/ ٢٨٤]. أراد مكيال أهل المدينة وهو الصاع تكال به الكفارات وصدقة الفطر. والمراد بالوزن: وزن

الذهب والفضة. . قاله السيوطي في الشرح.

ومما يجلبونه إلى السوق: الحطب: وقد ضربه رسول اللهُ مثلاً للكسب الحلال، الذي يكفُّ به المسلمُ عن نفسه مذلة السؤال. فقال عليه السلام: «لأن يحتطب أحدكم حُزمةً على ظهره خيرٌ من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه» [البخاري ــ كتاب البيوع] وفي جامع الترمذي، وسنن النسائي قصة وقعت في هذا الشأن، تقول: «إنَّ رجلاً من الأنصار أتى النبيّ ﷺ يشتكي إليه الفاقة، ثم عاد، فقال: يا رسول الله، لقد جئتُ من أهل بيت ما أرى أن أرجع إليهم حتى يموت بعضهم، قال: انطلق، هل تجد من شيء، فانطلق، فجاء بحلْس ــ حلس البيت ــ ما يُفرش تحت المتاع ونحوه ــ فقدم فقال: يا رسول الله هذا الحلس، كانوا يفرشون بعضه، ويلتفون ببعضه، وهذا القدح، كانوا يشربون فيه، فقال: مَنْ يأخذهما مني بدرهم، فقال رجلٌ: أنا، فقال: مَنْ يزيد على درهم، فقال رجلٌ: أنا آخذهما بدرهمين، فقال: هما لك، فدعا بالرجل، فقال: اشتر بدرهم طعاماً لأهلك، وبدرهم فأساً، ثم ائتني به، ففعل، ثم جاءَ، فقال: انطلق إلى هذا الوادي، فلا تدعَنَّ شوكاً ولا حطباً، ولا تأتيني إلا بعد عشر، ففعل، ثم أتاه فقال: بورك فيما أمرتني به، فقال: هذا خيرٌ لك من أن تأتي يوم القيامة في وجهك نكتة من المسألة». وهناك نَبْتٌ يُسمّىٰ الإذْخِر، له مكانة خاصّة، واستعمالاته الخاصة كما يظهر من نصوص الحديث:

قال: علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «واعدْتُ رجلاً صوّاغاً أن يرتحل معي فنأتي بإذخر أردتُ أنْ أبيعه من الصوّاغين وأستعين به في وليمة عرسي». . [البخاري ــ كتاب البيوع باب ٢٨].

وفي «كتاب جزاء الصيد» باب «لا يحلُّ القتال بمكة» قال عليه الصلاة والسلام في حرم مكة: «لا يُعضدُ شوكُه ولا يُنَفَّرُ صَيْدُه، ولا يَلْتَقِطُ لُقطته إلا مَنْ عرفها، ولا يُخْتلَىٰ خلاها». قال العباسُ بن عبد المطلب: «يا رسول الله إلا الإذْخر، فإنه لِقَيْنِهم ولبيوتهم». وفي رواية «إلا الإذْخر لصاغتنا ولسُقُوف بيوتنا، فقال عليه السلام: إلا الإذخر».

قال ابن حجر في «الفتح»: الإذْخر: نبت معروف عند أهل مكة طيب الريح له أصل مُنْدَفِن، وقُضْبان دِقاق يَنْبُتُ في السَّهْل والحَزْن.. وأهل مكة يسقفون به البيوت بين الخشب ويسدون به الخلل بين اللبنات في القبور، ويستعملونه بدلاً من الحلفاء في الوقود، ولهذا قال العباس فإنه لقينهم، أي: الحداد. وقال الطبري: القَيْن عند العرب، كل ذي صناعة يعالجها بنفسه. فهل كان الحداد، أو الصائغ، يستعملان الإذْخِر في صهر المعدن، أو تليينه، لينقاد للطرق، وتكون للإذْخر قوّة ناريّة زائدة على أنواع الحطب الأخرى؟ الله أعلم. وقد قيل لي: إنه سريع الاشتعال وقد يستخدم لإشعال الشرارة الأولى فيه، ثم يوضع معه الحطب الجزْل. ولكن لماذا خصَّ الصوّاغ والحدادين؟

.. ومن الأطعمة التي ذكرها الإمام مالك في الموطأ (٢/ ٦٣) فقال: «الأمر المجتمع عليه عندنا الذي لا اختلاف فيه، أنه مَنْ اشترى طعاماً: بُرّاً أو شعيراً أو سُلْتاً[(١)] أو ذُرة أو دُخناً، أو شيئاً من الحبوب القُطْنيّة[(٢)]، أو شيئاً مما يشبه القُطْنيّة، مما تجب فيه الزكاة، أو شيئاً من الأدم كلها: الزيت والسمن والعسل والخلّ والجُبْن واللبن.. الخ».

وقوله: «الأمر المجتمع عليه عندنا» يعني: عند أهل المدينة، وعمل أهل المدينة عند الإمام مالك سنةٌ لأنه مرويّ بالتوارث عن التابعين، ثم عن الصحابة.. ومعنى هذا أنَّ هذه الأطعمة التي ذكرها كانت في عهد الصحابة والتابعين.

ويذكر الإمام مالك تحت عنوان «بيعُ الفاكهة» [٢/ ٥٧] (من تنوير الحوالك) «البطيخ، والقثّاء، والخربز، والجزر، والأترج والموز، والرّمان..».

وذكر أنواع الثياب فقال: «لا بأس أن يُشْترى الثوب من الكتّان،

---

(١) السُلت: بضم السين: ضرب من الشعير، وقيل: هو الشعير بعينه. وقيل: الشعير الحامض. قال الجوهري: شعير لا قشر له، كأنه الحنطة يكون بالغور والحجاز.

(٢) القُطْنيّة، بالضم والكسر. والجمع: قطاني: الحبوب التي تطبخ كالعدس والحمص والفول، سميت بذلك لأنها تدخر في البيت وتقيم زماناً، أو لأنه لا بدَّ منها لكل مَنْ قطن بالمكان.

أو الشطويّ أو القصبيّ، بالأثواب من الإتريبيّ أو القَسِيّ أو الزيقة أو الثوب الهَرَويّ، أو المرويّ، بالملاحف اليمانيّة والشقائق، وما أشبه ذلك» [٢/ ٧٢].

وقال «بيع النحاس والحديد وما أشبههما مما يوزن».

قال مالك: «الأمر عندنا فيما كان مما يوزن من غير الذهب والفضة: من النحاس والشَّبة، والرصاص والآنك والحديد، والقضب والتين، والكُرسف، وما أشبه ذلك...». وقال: «الأمر عندنا فيما يُكالُ أو يوزن مما لا يؤكلُ ولا يُشرَبُ مثل العُصْفُر، والنوى، والخَبْط، والكتم..» [٢/ ٧٤].

والتاجر: اسم إسلامي، لهذا المعنى الذي نحن بصدده: لما روى ابن ماجة والطبراني عن قيس بن أبي غَرَزَة قال: كُنَّا نُسمَّىٰ ـ في عهد رسول الله ﷺ ـ السماسرة، فمرَّ بنا رسول الله، فسمانا باسم هو أحسنُ منه فقال: يا مَعْشَرَ التجار، إنَّ البيع محضرة الحلف واللغو، فشوبوا بالصدقة. فكان أول مَنْ سمانا التجار. [انظر: المُعَرَّب، للجواليقي ص ٤٠١، ولسان العرب «سَمْسَرَ»].

قالوا: إنما كان اسم التجار أحسن من السماسرة، لأن التجارة مذكورة في مواضيع عديدة من القرآن في مقام المدح. وأما السمسار ـ الذي يتوسط بين البائع والمشتري ـ يكون تابعاً، وقد يكون مائلاً عن الأمانة والديانة.

وقيل: لأن التاجر أشرف من السمسار في العرف العام، ولعلّ وجه الأحسنية أن السماسرة تطلق على المكاسين، أو لعلَّ هذا اسم في عهده عليه السلام، كان يُطْلَقُ على مَنْ فيه نقص.

ولكن ابن منظور يذكر في مادة «تَجَر» أن «التاجر» غلب على «الخَمَّار» في العصر الجاهلي، قال الأعشى:

ولقد شَهِدتُ التاجِرَ الـ ... أمَّانَ مَوْرُوداً شرابُهْ

وقال الجوهري: والعرب تسمّي بائع الخمر تاجراً. وقيل: أصل التاجر عندهم «الخمّار» يخصّونه به من بين التُّجَّار، ومنه حديث أبي ذر: كُنَّا نتحدثُ أن التاجر فاجرٌ.

• • •

ـ ٣ ـ

الحِرَفُ والصناعات اليدوية

لم تكن المدينة النبويّة خلاءً من الصناعة والصُنَّاع الذين يلبّون حاجة المجتمع في ذلك الوقت، قليلة أو كثيرة، ونحن نذكر في هذا السياق أمثلة من الصناعات التي كانت موجودة في العهد النبوي، والمثال الواحد لكل صنعة ليس معناه انفراد هذا المثل، بل وجود هذا المثال، يدل على تعدده، حتى يسدَّ حاجة الناس في ذلك الزمن، وكلما اشتدت الحاجة كثر وجود الصنعة وكثرت الصُنَّاع. . . .

وهذا البابُ ينقض كلام ابن خلدون في المقدمة ص **٣٥٢** «فَصْلٌ: في أن العربَ أبْعَدُ الناسِ عن الصنائع» وبنى ابن خلدون حُكْمه على نظرية «البداوة» التي جعلها مقياساً، وجرّد العرب بسببها من كلِّ صفة حضارية أو صناعية، فقال: «والسبب في ذلك، أنهم أعرق في البدو وأبْعَدُ عن العمران الحضري، وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها. . والعجم من أهل المشرق. . . أقوم الناس عليها لأنهم أعرق في العمران الحضري وأبْعَدُ عن البدو حتى أن الإبل التي أعانت العرب على التوحش في القفر والإعراق في البدو مفقودة لديهم بالجملة، ومفقودة مراعيها، والرمال المهيئة لنتاجها».

ولا شكَّ أن كلام ابن خلدون منقوض، لأنه عمم صفة البداوة على العرب جميعاً وإنما كان البدو جزءاً من العرب. والإبل التي يقول: «إنها أعانت العرب

على التوحش» ذكرها الله تعالى في باب النعم التي أنعمها الله على الناس، وقرنها بالفُلْك، وجعلها مع الفلك، من وسائل النقل: ﴿وعليها وعلى الفلكِ تُحملون﴾ وقال تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمالٌ حين تُريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم﴾ [النحل: ٦ ـ ٧]. وأذْكُرُ الآن بعض ما وقعت عليه من الصناعات في كتب الحديث.

* **الخيّاط**: بوّب البخاري «باب الخيّاط» وروى عن أنس بن مالك قال: «إنَّ خيّاطاً دعا رسول الله لطعامٍ صنعه، قال أنس: فذهبتُ مع رسول اللهِ إلى ذلك الطعام، فقرَّب إلى رسول الله خبزاً ومرقاً فيه دُبَّاءٌ وقديدٌ، فرأيتُ النبـيَّ ﷺ، يتتبّع الدُّبَّاء من حوالي القصعة، قال: فلم أزل أُحبُّ الدُّبَّاءَ من يومئذٍ».

قال الشُرَّاح: وفي الحديث جواز الأُجرة على الخياطة ردّاً على مَنْ أبطلها بعلّة أنها ليست بأعيان مرئية، ولا صفات معلومة، وفي صنعة الخياطة معنى ليس في سائر ما ذكره البخاري من الصناعات، لأن هؤلاء الصنّاع إنما يكون منهم الصنعة المحضة، فيما يستصنعه صاحب الحديد والخشب والفضة والذهب، وهي أمور من صنعه يُوقف على حدّها، ولا يختلط بها غيرها، والخياط إنما يخيط الثوب من الأغلب بخيوط من عنده، فجمع إلى الصنعة الآلة، وإحداهما معناها التجارة، والأخرى الإجارة، وحصة أحدهما لا تتميز من الأخرى، وكذلك هذا في الخرّاز والصبّاغ، إذا كان يغرز بخيوطه، ويصبغ هذا بصبغه على العادة المعتادة فيما بين الصناع.. وكان القياس ألا تصح أجرة الخياط كذلك.. قال العيني: إلا أن النبـيّ ﷺ وجدهم على هذه الحال، أول زمن الشريعة فلم يغيرها، إذ لو طولبوا بتغييرها لشقَّ عليهم، فصار بمعزل من موضع القياس، والعمل به ماض صحيح، لما فيه من الإرفاق. قال ابن حجر: وفي الحديث دلالة على أن الخياطة لا تنافي المروءَة. وعن عروة بن الزبير قال: قلتُ لعائشة: ما كان رسول الله يصنع في بيته؟ قالت: «كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله،

ويعملُ ما تعملُ الرجالُ في بيوتهم». وعن عائشة قالت: «كان رسولُ الله، يعمل عمل البيت، وأكثر ما يعملُ، الخياطة» [الطبقات ١/ ٣٦٦].

وقال ابن قتيبة في «صناعات الأشراف» من كتاب «المعارف»، وكان عثمان بن طلحة، الذي دفع إليه رسول الله، مفتاح البيت، خيَّاطاً.. وقد سكن عثمان بن طلحة المدينة، وقيل: استشهد بأجنادين. وقال ابن قتيبة: وكان قيس بن مخرمة، خياطاً، وهو من الصحابة.

وذكر في الجاهلية: العوّام، أبو الزبير، قال: وكان خيّاطاً، وهو مكي ولكن ذلك يدل على وجود حرفة الخياطة في الجاهلية. [المعارف/ ٥٧٥].

وذكروا من التابعين، مَنْ عمل ثلاث حرف، يتشابه لفظها بدون إعجام وهو: عيسى بن أبـي عيسى، كان كوفياً وانتقل إلى المدينة، وكان خيّاطاً، ثم ترك ذلك وصار حنّاطاً، ثم ترك ذلك وصار خبّاطاً، يبيع الخبط.

قال ابن سعد، كان يقول: أنا خبّاط، وحنّاط ـ يبيع الحنطة ـ وخيّاط كُلاًّ قد عالجتُ. [تهذيب التهذيب ٨/ ٢٢٥].

* **النسَّاج**: روى البخاري عن سهل بن سَعْد رضي الله عنه: «أن امرأة جاءَت النبـيّ ﷺ ببردةٍ منسوجةٍ فيها حاشيتُها. أتدرون ما البردة؟ قالوا: الشَّمْلة، قال: نَعَمْ. قالت: نسجتُها بيدي، فجئتُ لأكسوكها فأخذها النبـي ﷺ محتاجاً إليها. فخرج إلينا وإنها إزارُه فقال رجلٌ من القوم: يا رسول الله، اكسنيها، فقال: نَعَمْ فجلس النبـي في المجلس، ثم رجع، فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال القومُ: ما أحسنت، سألتها إيّاه، لقد عرفت أنه لا يردُّ سائلاً فقال الرجل: والله ما سألتُها إلا لتكون كفني يوم أموتُ، قال سهل: فكانت كَفَنَه». [كتاب البيوع، باب: النسَّاج].

وروى الطبراني: أنَّ النبـيَّ ﷺ، أمر أن يُصنَعَ له غيرها فماتَ قبل أن تفرغ.. [الفتح ٣/ ١٤٤].

وأخرج أبو داود الطيالسي عن سهل بن سعد قال: توفي النبـي ﷺ، وله جبة صوف في الحياكة. وفي كتاب «الإحياء»: «فمات رسول الله وهي في المحاكة».

وذكر ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»: كان الزبير بن العوّام، وعمرو بن العاص، وعامر بن كريز، يعملون الخزّ، وهي نساجة تُنسج من صوف وأَبْرَيْسَم[1]. ويظهر أن في القصة تصحيفاً، فقد ذكر ابن قتيبة الزبير بن العوّام، وعمرو بن العاص، وقال عن كليهما: كان «جزّاراً» من الجزارة بالجيم، يعني بائع اللحم. والخزاز، بالخاء آخرها زاي، تشبه «الجزار» بدون إعِجام. وإذا صحّت لهما حرفة، فالأقرب ما ذكره ابن الجوزي. وليس من الغريب أن يكون النساج موجوداً في الجاهلية وصدر الإسلام لأن الله تعالى ذكر مادة النسيج في مجال الإنعام، ولو لم تكن ما ذكرها الله، لأن القرآن يخاطب العرب بما يعرفون. قال تعالى في سورة النحل: ﴿والله جَعَلَ لكم من بيوتكم سَكَناً، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾.

والأثاث: يَشملُ الكساء، والفراش، وكلاهما يحتاج إلى النسّاج. صحيحٌ أنهم كانوا يجلبون الثياب من الشام واليمن، ولكن حرفة النسيج كانت تسدُّ بعض الحاجة.

* **النَّجّار**: وصنعة النجارة، قديمةٌ قِدَم الحياة على وجه الأرض، أو أنها كانت في أيام نوح عليه السلام، حيث أوحى اللهُ إليه أن يصنع الفلك وهي من أعقد فنون النجارة.

وقد جاء لفظ «النجّار» مصرّحا به في الأحاديث النبوية، لما روى البخاري: أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألا أَجْعَلُ لك

(١) الأبريسم: الحرير. فارسيّة معرّبة.

شيئاً تقعُدُ عليه، فإنَّ لي غلاماً نجّاراً، قال: إن شئت.. فعملت له المنبر.. وقد اختلفوا في اسم مَنْ صنعه، فذكروا ثمانية أسماء، كل اسم لنجّار يختلف عن الآخر.. وهذا الاختلاف مع تعدد ذكر الصانع، يدل على كثرة عدد النجّارين في المدينة في العهد النبوي.

ويظهر أن الصنعة كانت متقنة والخشب قوي، لأنهم ذكروا أن المنبر كان ثلاث درجات، إلى أن زاده مروان بن الحكم في خلافة معاوية فأوصله ست درجات.. قالوا وبقي على ذلك إلى أنْ أُحرق المسجد النبوي سنة ٦٥٤هـ، فاحترق، قالوا: فكان إشارة إلى زوال دولة بني العباس إذ انقرضت عقبه بقليل في فتنة التتر سنة ٦٥٦هـ. وقيل: احترق أول ليلة من رمضان عام ٦٥٤هـ. وكان ذلك من أعظم المصائب على الناس..

خاطرة: وكان نور الدين زنكي، قد أعدَّ منبراً للمسجد الأقصى، ليَضعه فيه عند طرد الصليبيين، فوافاه الأجل قبل تحقيق الأمل، فحمله صلاح الدين إلى القدس عند تحريرها، وبقي في المسجد إلى أن أحرقه اليهود عام ١٩٦٩ م عندما أحرقوا المسجد الأقصى، فكان حرقه إيذاناً بزوال ريح العرب ودولتهم، ووقوعهم أسارى في قبضة الكفار.. وقد كان.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* **اللَّحام، أو الجزَّار، أو القصّاب:** كلها بمعنًى واحد، وهو الذي يحترف تقطيع اللحم وبيعه.. وجاء في صحيح البخاري: باب «ما قيل في اللحّام والجزّار» جاء رجل من الأنصار يكنى أبا شعيب، فقال لغلام له قصّاب، اجعل لي طعاماً يكفي خمسة من الناس، فإني أريدُ أنْ أدعوَ النبيّ ﷺ، خامس خمسةٍ.

قال ابن حجر في الفتح: وفيه إجابة الإمام والشريف والكبير دعوة مَنْ دونهم، وأكلهم طعام ذي الحرفة غير الرفيعة كالجزّار، وأن تعاطي مثل هذه الحرفة لا يضع قَدْرَ مَنْ يتوقى منها ما يُكره.

وفي مناقب عمر لابن الجوزي، كان عمر يأتي مجزرة الزبير بن العوام

بالبقيع، ولم يكن بالمدينة مجزرة غيرها فيأتي معه بالدرة، فإذا رأى رجلاً اشترى لحماً يومين متتابعين ضربه بالدرّة.

* **القَيْنُ والحدّاد**: روى ابن عبد البَرّ في ترجمة إبراهيم بن النبـيّ ﷺ من «الاستيعاب» عن أنس قال: «قال رسول الله ﷺ، وُلِدَ لي الليلةَ غلامٌ، فسميتُه باسم أبـي: إبراهيم». قال الزبير: فدفعه إلى أم سيف، امرأة قين بالمدينة، يُقال له: أبو سيف.

وروي عن أنس في قصة وفاة إبراهيم، قال: «فانطلق رسول الله وانطلقت معه، فصادفنا أبا يوسف ينفخ في كيره، وقد امتلأ البيت دخاناً فأسرعتُ في المشي بين يدي رسول الله، حتى انتهيت إلى أبـي يوسف فقلتُ: يا أبا يوسف، أمسكْ، جاء رسول الله، فأمسك ــ الحديث» [١/ على حاشية الإصابة]. وانظر ترجمة «أبو سيف القين» في الإصابة ٤/ في الكُنىٰ.

* **المصوّر، أو الرسام**: روى البخاري، عن سعيد بن أبـي الحسن قال: «كنتُ عند ابن عباس، إذْ أتاه رجلٌ فقال: يا أبا عبّاس، إني إنسان معيشي من صنعة يدي، وإني أصنعُ هذه التصاوير.. فقال ابن عباس: ويحك إنْ أبيتَ إلا أن تصنع، فعليك بهذا الشجر، كلُّ شيء ليس فيه روح» لكن الراوي عن ابن عباس: سعيد، أخو الحسن البصري.. وهو بصري لعله لقي ابن عباس في البصرة.. والرجل السائل من أهل البصرة.. لكن روى البخاري في كتاب «اللباس» باب «نقض الصور» حدثنا أبو زُرعة قال: دخلتُ مع أبـي هريرة داراً بالمدينة، فرأى في أعلاها مصوّراً يصوّر.. الحديث. وهذا يدل على أن هذا الفنّ كان في المدينة.

وجاء في مسند أحمد عن عليّ رضي اللَّهُ عنه: «أن النبـيّ ﷺ قال: أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثناً إلا كسره، ولا صورة إلا لطخها، أي طمسها.. وفيه: مَنْ عاد إلى صنعة شيء من هذا فقد كفر بما أُنزل على محمد» [عن الفتح ١٠/ ٣٨٤].

* **الخوّاص**: وهو الذي يصنع من خوص النخل أدوات: جاء في ترجمة سلمان الفارسي، من «الاستيعاب» دخل قومٌ على سلمان وهو أمير على المدائن وهو يعمل الخوص، فقيل له: تعمل وأنت أمير يجري عليك رزقٌ، فقال: إني أُحبُّ أن آكل من عمل يدي، وذكر أنه تعلم عمل الخوص بالمدينة من الأنصار عند بعض مواليه.

وقال: كان سلمان يعمل الخوص بيده، فيعيش منه، ولا يقبل من أحدٍ شيئاً.. وفي «الإصابة»: «كان سلمان إذا خرج عطاؤه، تصدق به وينسج الخوص ويأكل من كسب يده» [٢/ رقم ٣٣٥٧].

* **الخبّاز، أو صانع الخبز**: ترجم ابن حجر في «الإصابة» لمرداس المعلم، قال: ذكره أبو زيد الدبوسي في كتاب «الأسرار» بغير سند فقال: مرّ النبيّ ﷺ بمرداس المعلم فقال: «إياك والخبز المرقق، والشرط على كتاب الله تعالى» قال: وهذا لم أقف له على إسناد إلى الآن.

ونحن لا نريد أن نثبت هنا حكماً شرعياً، وإنما نريد أن نؤرخ لوجود الخبّاز، فإذا لم يصح أن رسول الله قال لمرداس المعلم ما قال، فقد يصحّ وجود الخبّاز، الذي يحترف الخبازة.

ذلك أنَّ الخُبْز، يعرفه الناس قديماً، وجاء في سورة يوسف ﴿وقال الآخرُ إني أراني أحمل فوق رأسي خُبْزاً، تأكل الطيرُ منه﴾. وكذلك يعرفُ العربُ الخُبزَ، والخَبْزَ قديماً، وقد جاء في قصة الحطيئة:

وطاوي ثلاث عاصب البطن مُرْملٍ	ببيداء لم يعرف بها ساكنٌ رسْما
وأفرد في شعب عجوزاً إزاءَها	ثلاثة أشباح تخالهم بهما
حفاة عُراة ما اغتذوا خُبْزَ ملّةٍ	ولا عرفوا للبُرّ مُذْ خُلقوا طعما

ونقل ابن منظور قول الراجز:

لا تخبزا خَبْزاً وبُسَّا بَسّا	ولا تُطيلا بمُنَاخٍ حَبْسا

.. قال: البسُّ: بسُّ السَّويق، وهو لتُّه بالزيت أو الماء، فأمر صاحبيه بلتِّ السويق وترك المقام على خَبْز الخُبْز ومراسه، لأنهم كانوا في سفرٍ لا مُعَرَّج لهم، فحثَّ صاحبيه على عُجالةٍ يتبلّغون بها، ونهاهما عن إطالة المُقَامِ على عجْن الدقيق وخبزه.

وكان الخُبزُ معروفاً منذ العهد النبوي، ولا شكَّ أنهم يعرفونه قبل ذلك.. لما روي، أن رسول الله ﷺ، أتى أبا أيوب الأنصاري في أول الهجرة، ومعه أبو بكر وعمر.. فأخذ أبو أيوب جدياً فذبحه ثم قال لامرأته: اعْجِني واخْبزي لنا، وأنتِ أعلمُ بالخَبْزِ، ثم أخذ نصف الجدي فطبخه، وعمد إلى نصف الثاني فشواه، فلما نضج الطعامُ ووُضع بين يدي النبي ﷺ وصاحبيه، أخذ رسول الله قطعةً من الجدي ووضعها في رغيف وقال: يا أبا أيوب، بادر بهذه القطعة إلى فاطمة، فإنها لم تصب مثل هذا منذ أيام..

فلما أكلوا وشبعوا قال النبيُّ ﷺ: «خُبزٌ ولحم، وتمرٌ ورطبٌ!!» [صور من حياة الصحابة ـ لعبد الرحمن الباشا ـ». وفي صحيح البخاري (كتاب الأطعمة باب ٦].

وروي في كتاب «المناقب، باب علامات النبوة» عن أنس بن مالك قال: «قال أبو طلحة ـ زيد بن سهل الأنصاري ـ لأمِّ سليم ـ والدة أنس بن مالك ـ لقد سمعتُ صوت رسول الله ضعيفاً أعرف فيه الجوع ـ وذلك أيام حصار الخندق ـ فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجتْ أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خِماراً لها، فلفّت الخبز ببعضه، ثم دسّتْه تحت يدي، ولاثتني ببعضه ثم أرسلتني إلى رسول الله.. وفي القصة: فقال رسول الله، هلمي يا أُم سليم ما عندك، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله، فَفُتَّ.. الحديث». وروى البخاري في كتاب «الأطعمة باب ٢٣» عن أبي هريرة: خرج رسول الله من الدنيا ولم يشبع من الخبز الشعير. وفي باب «الأُدم» من كتاب «الأطعمة»: «دخل رسول الله يوماً بيت عائشة، وعلى النار بُرمةٌ تفور، فدعا بالغداء فأُتي بخُبْزٍ وأُدم

من أُدم البيت، فقال: ألم أر لحماً؟ قالوا: بلىٰ يا رسول ولكنه لحم تُصُدِّق به على بريرة (مولاة عائشة) فأهدتْه لنا، فقال: هو صدقةٌ عليها، وهديّةٌ لنا».

وفي باب «الحلوى والعسل» عن أبـي هريرة «كنتُ ألزمُ النبـيَّ ﷺ لِشبَع بطني، حين لا آكلُ الخمير. .» وأظنّ الخمير الخبز الذي عُجن دقيقه ولم يُخبز حتى يختمر. . .

وجاء في حديث الإفك، أن رسول الله سأل بريرة «هل رأيتِ من شيء يريبك، قالت بريرة: لا، والذي بعثك بالحقّ، إنْ رأيتُ عليها أمراً أغمِصُه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السنّ، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجنُ فتأكله. .» وفي رواية: «ما كنتُ أعيب عليها إلا أني كنتُ أعجن عجيني وآمرها أن تحفظه، فتنام عنه».

وفي روايةٍ «ما رأيتُ منها مذ كنتُ عندها إلا أني عجنتُ عجيناً لي، فقلت احفظي هذه العجينة حتى أقتبس ناراً لأخبزها، فغفلت، فجاءَت الشاة فأكلتها» [تفسير سورة النور من كتاب التفسير].

والظاهر أنهم كانوا يصنعون الخبز أقراصاً أقراصاً كثيرة، وهذا يقتضي أنهم يخبزونه في تنور، أو على قطعة من الحديد توضع على النار، وليس كل خبزهم خبر الملّة التي توضع داخل النار. وقد يكون منه المرقّق، لما روى البخاري في الباب الثامن من كتاب «الأطعمة» تحت عنوان «الخبز المرقّق. .».

عن أنس بن مالك: «ما علمتُ النبـيّ ﷺ أكل على سُكُرّجة قَطُّ ولا خُبزَ له مُرَقَّقٌ قطُّ. .». وكونه لم يخبز لرسول الله، ليس معناه انعدام وجوده في المدينة، فقد يكون موجوداً، يعرفه الناسَ، ولكنه لم تتوفر أسبابُه في بيوت رسول الله ﷺ. . وفي قصة أبـي أيوب الأنصاري التي ذكرناها أن رسول الله أخذ قطعة من الجدي ووضعها في رغيف. . وقد يُفهَمُ منه أن قطعة اللحم قد لُفّتْ في الرغيف، وهذا يعني أنه يَسْهُل طِيّه، وهذا لا يكون إلا في الرغيف المبسوط، بسْطاً مقبولاً. .

وقد أَطْنَبْتُ في ذكر الأمثلة لوجود الخبز بعامة، والمرقق بخاصة لنقض

أوهام ابن خلدون التي بناها على نظرية البداوة، وحشد لها الأدلة الكاذبة من ذلك قوله في فَصْل «في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة» ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم، واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة، فقد حكي ــ زعم ــ أنه لما قدم لهم المرقق، كانوا يحسبونه رقاعاً، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحاً، وأمثال ذلك.. ص ١٤٩.

نقول: إنَّ عبارة ابن خلدون هذه، ما يقولها إلا رقيع فاقد العقل، وهي من تندرات الشعوبيين الذين ما انفكوا يؤلفون الأكاذيب على العرب، وهي منقوضة من نواح كثيرة.

الأولى: قوله: «ومثل هذا وقع للعرب..» أقول: إذا كان بعض أعراب البادية يجهلون ما ذكره، ولم يَرَوْه، فإن الذين فتحوا بلاد كسرى وقيصر كان جُلّهُم من مسلمي الحجاز، لأن الفتح تمَّ أيام عمر بن الخطاب، وكانت القادة من الصحابة رضوانُ الله عليهم، وجلُّ الصحابة من المدينة ومكة والطائف، وأهل هذه المدن، أهل حضارة قديمة، وأهل مكة كانوا أهل تجارة، واتصالهم ببلاد الشام، وبلاد الفرس، واليمن، لم ينقطع...

الثانية: في قصة ابن خلدون استهزاء بالصحابة رضوان الله عليهم ــ لأنهم كانوا عصب الفتح الإسلامي ــ وَوَصْفهم بالجهل والغفلة.

الثالثة: قوله: «يحسبونه رقاعاً» الرقاع: جمع رُقعْة، هو حجةٌ عليه لا له لأنه لم يذكر مدلول الرقاع، ومن معانيها: الرقاع التي يكتب فيها، فإن كانت كذلك، فإن معرفتهم الرقاع يدل على معرفتهم الكتابة، وهو عنوان تحضرهم.

الرابعة: قوله: «فاستعملوا الكافور في عجينهم ملحاً» يدل على أنهم يعجنون ويخبزون ومَنْ يعجن، لا يخفى عليه أمر الخُبْز..

الخامسة: إن للخبز رائحةً نفاذة، فهل كانوا فاقدي حاسة الشمّ؟!

السادسة: لا يقدم الخبز، إلا مع ما يرافقه من الأدم.. وبذلك يعرف من

القرينة أن ما رافق الإدام، إنما هو من توابعه، أم كانوا عديمي الفهم، يجمعون بين الضدين، وهم أهل فصاحة وبلاغة، يجمعون الكلمة إلى أختها، فينتج عنها نسيجٌ قويّ.

السابعة: قوله: «عثروا على الكافور، فاستعملوه في عجينهم ملحاً» يريد أنه يشبه الملح في بياضه، فلم يفرقوا بينهما: وهذه فرية لا يصدقها عاقل لأنَّ الكافور يعرفه العرب، حيث ذكره القرآن الكريم في سورة «الإنسان» فقال تعالى: ﴿إنَّ الأبرار يشربون من كأسٍ كان مِزاجُها كافوراً﴾. والقرآن يخاطب العرب بما يعرفون. ثم إن الكافور تصدُر عنه رائحة طيبة والملح ليس كذلك.. والملح: ملمسه خشن، والكافور ليس كذلك.

ومن العجيب، أن ابن خلدون الذي عاب المؤرخين المسلمين أنهم يجمعون في كتبهم، الدسائس، والأوهام والروايات الضعيفة، يقع فيما وقعوا فيه وينقل ما نقلوه، حيث يقول: «إن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها في صحفات الدفاتر وأودعوها وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها..» [ص ١، من مقدمة المقدمة]. نقول: ومن الذي نقل هذه الرواية إلى ابن خلدون، وكيف اطمأنَّ إليها؟ إنه أخذها لأنها توافق نظريته في البداوة..

* **النقّاش: الذي ينقش على المعادن**: روى البخاري في كتاب «اللباس» باب: نقش الخاتم: عن أنس بن مالك رضي اللَّهُ عنه، أن نبيَّ الله ﷺ أراد أن يكتب إلى رهطٍ من الأعاجم، فقيل له: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا عليه خاتم، فاتخذ النبيُّ ﷺ، خاتماً من فضةٍ نَقْشُه: محمد رسول الله..

وفي باب: «الخاتم في الخنصر» عن أنس: «صنع النبيُّ ﷺ خاتماً قال: إنّا اتخذنا خاتماً ونقشنا فيه نقشاً، فلا ينقش عليه أحد» أي: لا ينقش أحدٌ مثله.

وهذه الأحاديث تدلُّ على وجود النقّاش في المدينة، لأنَّ نقش الخاتم لا يكون إلا بيد نقّاش محترف.

ولا يقولنَّ قائل: إنَّ هذا النقّاش من اليهود الذين كانوا يحترفون الصياغة ذلك أنَّ مكاتبة الملوك كانت في هدنة الحديبية، بعد سنة ست من الهجرة، ولم يكن في المدينة يهود آنئذٍ.

ولو كان في المدينة صائغ يهودي، ما رضي أن ينقش على الخاتم «محمد رسول الله» ولو نقشها لآمن بها.

* **الصبّاغ**: الذي يصبغ الثياب. جاء في سنن ابن ماجه في باب «الصناعات من أبواب التجارات» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أكذب الناس الصبّاغون والصوّاغون». قال في «النهاية» هم صباغو الثياب، وصاغة الحليّ، لأنهم يمطلون بالمواعيد، وربما لأنهم قادرون على الغش، فالصبّاغ قد يصبغ الثوب بلون لا يثبت، والصائغ قد يغش المعدن. وقيل: المراد: الذين يصبغون الكلام ويصوغونه، فيغيّرونه.

* **الدبّاغ**: الذي يدبغ الجلود: ذكر ابن حجر في ترجمة أم المؤمنين زينب بنت جحش من «الإصابة» أنها كانت امرأة صناع اليدين، فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق به في سبيل الله.

وفي طبقات ابن سعد، عن أسماء بنت عميس قالت: أصبحتُ في اليوم الذي أُصيب فيه جعفر وأصحابه، فأتى رسول الله ولقد هنأْتُ ـ يعني دبغتُ ـ أربعين إهاباً من أدم وعجنتُ عجيني. . .

وفي ترجمة «سعد بن عائذ» من الاستيعاب، قيل له: سعد القرظ لأنه كان كلما اتّجر في شيء وضع[1] فيه، فاتّجر في القرظ فربح فيه، فلزم التجارة فيه. . والقرظ: شجر يُدبغُ به، والواحدة قَرَظه بفتحات.

• • •

---

(١) وُضِعَ: مبني للمجهول: يُقال: وُضع في تجارته: غُبن وخسر فيها.

الفصل السادس

مؤسسات الحكومة الإسلامية في المدينة النبوية



مؤسسات الحكومة الإسلاميّة في المدينة النّبويّة

جاء الإسلام لينظم علاقة الإنسان بربّه، وعلائق الناس في المجتمع، أو كما يقولون اليوم: الإسلام: دينٌ ودولة. أما الدينُ، وهو العبادة، فقد بدأ العملُ به منذ بدء نزول الوحي، بل منذ وُجد مؤمنون بالرسالة السماوية. وكانت البداية دعوة الناس إلى التوحيد، ثم فرضت الصلاة بعد الإسراء، واكتملت شعائر العبادة بعد الهجرة حيث فرض الصوم والحج. . .

أما الدولة: فلم يتمكن المسلمون من إقامتها إلا بعد الهجرة إلى المدينة، بل بدأت نُظُم الدولة الإسلامية تتوالى مدة عشر السنوات التي عاشها رسول الله ﷺ في المدينة. وعندما انتقل الرسول عليه السلام إلى الرفيق الأعلى، كانت النظم الإدارية للدولة الإسلامية، قد اكتملت، وكان لها تطبيق في الواقع العملي في المدينة النبوية. . واتّبع الخلفاءُ الراشدون النهج النبوي في إدارة الدولة الإسلامية. ومما يثير الانتباه، أن أُسس الحكومة الإسلامية التي وضعها رسول الله ﷺ، قامت على غير مثال سابق، فليس في تاريخ العرب الجاهلي، القريب والبعيد نُظُمُ دولةٍ تُحتذى، وليس في بلاد الفرس والروم المعاصرين، نظام حكومي يُقتبس منه، لإقامة حكومة المجتمع المثالي. . مما يدلُّ على أن النظم الإسلامية كانت بتوجيه الوحي الإلهي، وإلهامات يضعها اللَّهُ في قلوب المؤمنين. وإليك الركائز الرئيسة التي قامت عليها الدولة الإسلامية، أعرضها موجزةً لأنَّ الإطناب يحتاج إلى كتاب:

١ ــ العاصمة:

العاصمة: المدينة، تكون قاعدة الدولة، أو الإقليم من الدولة. وأظنه ــ بهذا المعنى ــ استعمالاً مولّداً. ولكنه اختيار موفّق.

فالعصمة في كلام العرب: المَنْع. وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه: من عَصَمه يعصمه، عَصْماً: منعه ووقاه. وفي القرآن «لا عاصم اليوم من أمر الله إلا مَنْ رحم». وذكروا لـ «عاصم» معنيين: الأول: أنه «فاعل» بمعنى بمفعول. وبهذا تكون المدينة «معصومة». أي: ممنوعة.

والمعنى الثاني «فاعل» على حقيقته، أي: لا مانع. وبهذا تكون المدينة مانعة. وكلا المعنيين صالح لوصف المدينة النبويّة به.

فهي: مدينة معصومة: أي معصوم أهلها من أنْ يطرقهم طارقٌ يؤذيهم. وهذه العصمة تأتيهم من الله أولاً، ثم بسبب ما أودع الله في المدينة النبوية من الأسباب المانعة: فهي ذاتُ موقع حربيّ جيد يمكن تحصينه، والدفاع عنه. فالجبال والحرّات تحيط بها، والمنافذ والثنايا إليها معروفة ومعدودة، وأماكن طروق الأعداء إليها يمكن حراستها وتحصينها. وقد تحقق ذلك بالتجربة: ففي عام الأحزاب، حفر المسلمون الخندق من الجهات التي يمكن أن يدخل منها الأعداء فكان هذا الخندق سبباً في رجوع الأعداء خائبين. وفي عام الحرّة ــ أيام يزيد بن معاوية ــ اتخذ أهل المدينة خندقاً، ونجح في مَنْع جيش الشام من دخول المدينة، لولا أن بعض الناس قد سرّبوا بعض جنود الشام من الجهة التي كانوا يحرسونها.

ونقل الكتاني في [التراتيب ١/ ٢٩٣] عن ابن الجوزي في «مشكل الصحيحين» في قصة ادّعاء طليحة بن خويلد النبوّة، وتواثب الناس، أن أبا بكر أمر علياً بالقيام على نقْبٍ من أنقاب المدينة، وأمر الزبير بالقيام على نَقْبٍ آخر، وأمر طلحة بالقيام على نقب آخر، وأمر عبد الله بن مسعود يَعُسّ ما وراء ذلك بالليل.

وفي قصة ثُمامة بن أثال من البخاري [كتاب المغازي باب ٧٠]، وبعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءَت برجلٍ من بني حنيفة يُقال له ثُمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد.. القصة. ويُظَنُّ أن هذه الخيل لم تكن غازيةً، وإنما كانت ترصد مداخل المدينة، وكان أحد مداخلها التي يحتمل مجيء الأعداء منها، طريق نجد، من الجهة الشرقية.

.. فهذه الأمثلة تدل على أن المدينة النبوية معصومة، أي: ممنوعة بسبب موقعها الجغرافي.

وأما كونها «عاصمة» أي: تعصم مَنْ فيها (فاعلة) فهذا ينطبق عليها لما ذكرنا أنها تعصم مَنْ يسكنها لحصانة موقعها.

وهي: عاصمة، ومعصومة أيضاً لخصائصها الاقتصادية: فهي أرض خصبة فيها الماء الكثير، وتجود فيها زراعة النخيل. والتمر والماء، وهما «الأسودان» كان يعيش عليهما أعداد لا حصر لهم من الصحابة، بل ثبت أن رسول الله وأزواجه، كان يمرُّ عليهم الشهر وليس في بيتهم إلا التمر والماء.

وقد تخرج السريّة من المدينة، وليس معها زاد إلا التمر.. وكانوا يزرعون أيضاً الشعير، وكان أكثر خبزهم فجر الإسلام منه...

أريد أن أقول: إن المدينة النبويّة قد تستغني بما تزرعه عن الاستيراد، فعندها ما يكفيها أيام الشدائد...

وكانت طرق التجارة بين المدينة النبوية والشام، مأمونة، ولم يُنْقلْ أن التجار المسلمين قد هددت تجارتهم، مع استمرار القوافل التجارية في العهد النبويّ.. وبالقياس إلى مكة، فإن المدينة كانت أحسن حالاً من الناحية الاقتصادية لأن مكة كانت تعتمد في عيشها على التجارة، وعلى الأفئدة التي تهوي إليهم. فكانوا أكثر ما يخشون على تجارتهم، ولذلك شواهد ومن ذلك: ما جاء في قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه: فقد لقي رسول الله في مكة،

وأسلم، وأشار عليه رسولُ الله أن يكتم إسلامه عن أهل مكة، لئلا يقتلوه، ولكن أبا ذر الغفاري، أصرَّ على أن يصرخ بدعوة الحقّ بين ظهراني قريش. فدخل المسجد ونادى بأعلى صوته معلناً إسلامه على ملأ من قريش، فقام إليه القومُ فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباسُ بن عبد المطلب فأكبَّ عليه وقال: ويلكم، ألستم تعلمون أنه من غفار وأنه من طريق **تجارتكم إلى الشام** فأنقذه منهم [الإصابة ج ٤]. وروى البخاري في «كتاب المغازي ـ باب: ذكر النبي ﷺ مَنْ يُقْتل ببدرٍ» عن سعد بن معاذ، أنه كان صديقاً لأميّة بن خلف، وكان أُميّة إذا مرَّ بالمدينة نزل على سَعْد، وكان سعدٌ إذا مرّ بمكة نزل على أميّة، فلما قدم رسول الله المدينة انطلق سعدٌ معتمراً، فنزل على أميّة بمكة.. فرآه أبو جهلٍ يطوف، فقال أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصُّباةَ، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعتَ إلى أهلك سالماً، فقال له سعدٌ: أما والله لئن منعتني هذا، لأمنعنّك ما هو أشدُّ عليك منه: **طريقك على المدينة**. وفي رواية: **متجرك إلى الشام**.

.. وفي قصة إسلام ثُمامة بن أُثال، أنه قصد بعد إسلامه إلى مكة، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوتَ؟ قال: لا، والله، ولكن أسلمتُ مع محمد رسول الله ﷺ، **ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبّةُ حنْطةٍ**، حتى يأذن فيها النبيّ ﷺ. [البخاري ك ٦٤ ب ٧٠].

وفي السيرة النبوية لابن هشام: «ثم خرج ثمامةُ إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً، فكتبوا إلى النبيّ ﷺ ـ أي أهل مكة ـ إنك تأمر بصلة الرحم، فكتب إلى ثمامة أن يخلي بينهم وبين الحمل إليهم [وفي الإصابة ٢٠٣/١] فقال ثمامة ـ لأهل مكة ـ والذي نفسي بيده، لا تأتيكم حبةٌ من اليمامة، **وكانت ريف أهل مكة**».

.. وقد أطنبتُ في مكان آخر من هذا الكتاب، في ذكر خصائص المدينة، وصلاحها لتكون عاصمة أبدية للدولة الإسلامية.

ومن خصوصية الحكومة الإسلامية، وتميزها مما سبقها، أن يختار النبيّ ﷺ، لعاصمة الدولة اسماً جديداً، قد يوحي مدلوله بمعانٍ جديدة تريد الدولة الإسلامية أن تحققها في المجتمع الجديد. وكان الاسم المتداول قبل الهجرة «يثرب» وقد جاء الاسم في القرآن محكياً على لسان أعداء الإسلام «وإذْ قالت طائفةٌ منهم يا أهل يثرب». وقد اختار القرآن الكريم اسم «المدينة» لدار الهجرة. وجاء ذكر لفظ «المدينة» في القرآن أربع عشرة مرة، منها عشر مرات يراد بها اسم الجنس الذي يطلق على كل مكان آهل بالسكان. ومنها أربع مرات، ذُكر اسم المدينة علماً على البلدة النبويّة. وجاء ذكر «المدينة» في الحديث الصحيح، في سياق الاسمية العلمية. فقال ﷺ: «حُرِّم ما بين لابتي المدينة على لساني». وقال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ بقرية تأكل القرى، يقولون: «يثرب» وهي «المدينة». [رواه البخاري ك ٢٦ ب ٢]. وجاء اسم «طابة» و «طيبة» في سياق الوصف المحبوب فروى البخاري عن أبي حميد قال: «أقبلنا مع النبيّ ﷺ من تبوك حتى أشرفنا على المدينة، فقال: هذه طابة». ويظهر من السياق أن رسول الله لم يرد العلميّة، إنما أراد مدح المدينة بطيب هوائها أو طيب ريحها، أو طيبها في نفس المسلم، وشدة شوقه إليها. ولذلك غلب اسم «المدينة» وذُكر اسم «طيبة» في مجال التشوق والمدح.

ومن تفرّد الدعوة الإسلامية، أن تتفرد عاصمتها باسم «المدينة» مع أنه في الأصل اسم جنس مثل «الرجل، والشاعر، والقرية»، فإذا أُطلق اسم المدينة تبادر إلى الفهم أن المدينة النبوية هي المراد. وفيه من المعاني أن لا مدينة اكتملت لها صفات المدينة، إلا المدينة النبويّة. وهذا يفسّر معنى قوله عليه السلام: «أُمرت بقرية تأكل القرى». أي: أمرني ربي، أن أسكن قرية هذه صفتها. وقالوا في معنى «تأكل القرى» أي: تغلبهم، وكنى بالأكل عن الغلبة، لأن الآكل غالب على المأكول، وقيل: تأكل القرى: أي: تفتح القرى. وقيل: معناه: يفتح أهلها القرى فيأكلون أموالهم، وهذا من فصيح الكلام، لأن العرب تقول: أكلنا بلد

كذا، إذا ظهروا عليها. وقيل: معناه غلبة فضلها على فضل غيرها، ومعناه أن الفضائل تضمحل في جنب عظيم فضلها حتى تكاد تكون عدماً.

وقد كره رسول الله ﷺ، اسم «يثرب» فجاء في الحديث «يقولون: يثرب وهي المدينة» [البخاري ك ٢٦ ب ٢].

وروى الإمام أحمد [٤/ ٢٨٥] والهيثمي في مجمع الزوائد [٣/ ٣٠٠].

عن البراء بن عازب، أن رسول الله قال: «مَنْ سمّى المدينة يثرب فليستغفر الله، هي طابة، هي طابة».

وذكر العلماءُ أن العلة في الكراهية جاءَت من معنى الاسم، لأن يثرب، إما من التثريب الذي هو التوبيخ والملامة، أو من الثَّرب وهو الفساد، وكلاهما مستقبح، وكان رسول الله يحبُّ الاسم الحسن، ويكره الاسم القبيح.

وقد يصحُّ ما ذكروه من علة الكراهة، وقد تكون هناك علل أُخرى، منها: مخالفة المشركين في أسمائهم. وكان المنافقون قد كرهوا اسم المدينة الجديد، وبقوا يستخدمون اسم يثرب، يدل على هذا قول النبيّ ﷺ «يقولون: يثرب وهي المدينة» والذين يقولون: هم المنافقون.

ومن العلل: أن القرآن اختار اسم «المدينة» وليس بَعْد اختيار الله من اختيار ومنها: أن الله اختار اسم المدينة، لأنه أراد أن يخلق من هذا المجتمع الفردي المتناثر، كياناً موحداً، أخذ بعد الهجرة معناه الصحيح، وهو المدينة التي تمثلت بكامل خصائصها التي تؤهلها لحمل هذا الاسم. إذْ أن لفظة «المدينة» مأخوذة من مدن بالمكان أي: أقام فيه. والإقامة دلالة على العمران والاجتماع، والانقياد لكلمة الله تعالى.

٢ ــ المسجد:

أول مؤسسة تبنيها الدولة الإسلامية في بداية قيامها. لأنه يحقق عنصري الرسالة الإسلامية (الدين والدولة) فهو مكان للعبادة، وهو مدرسة للتعليم، وفيه

اجتماعُ المسلمين وتعارفهم، وتفقد أحوالهم. وهو وسيلة إعلامية حيث تُلْقى فيه البيانات الحكومية، وفيه يعرف المسلمون ما جدَّ من أحداث في المجتمع الإسلامي.. وكان هناك المسجد الجامع، وهو مسجد رسول الله، ومساجد الأحياء حيث كان كلُّ حيّ يختار مكاناً لإقامة الصلوات فيه، ويدعون رسول الله للصلاة فيه، وتحديد جهة قبلته. فقد روى ابن شبة عن جابر بن أُسامة الجهني قال: «لقيت النبيّ ﷺ في أصحابه بالسوق، فسألتُ: أصحابه أين تريدون؟ قالوا: نخطُّ لقومك مسجداً، فرجعتُ فإذا قومي قيامٌ، فقلتُ: ما لكم؟ قالوا: خطَّ لنا رسول الله مسجداً وغرز في القبلة خشبة أقامها فيه، ١/ ٧٩». وانظر باب «المساجد في البيوت، وصلىٰ البراء بن عازب في مسجده في داره جماعة» [البخاري ك الصلاة] وفي شرحه أنه «كان في المدينة مساجد للجماعة سوى المسجد النبوي».

٣ ـ المساكـن:

بعد أن بنى رسول الله مسجده في المدينة، اختط حجرات زوجاته ثم أقطع المهاجرين من أهل مكة أراضي في جهات المسجد، لبناء بيوتهم. وعندما كثر المهاجرون من القبائل الأخرى، خطّ رسول الله لكل قبيلة أرضاً لسكناهم وكان أهل المدينة قد وهبوا رسول الله كلَّ أرض غامرة بين أحيائهم، ليقطع منها مَنْ يشاء من المسلمين.

٤ ـ التنظيمات الاقتصادية:

(أ) **السـوق**: روى ابن شبّة عن عطاء بن يسار قال: «لما أراد رسول الله أن يجعل للمدينة سوقاً، أتى سوق بني قينقاع، ثم جاء سوق المدينة فضربه برجله وقال: هذا سوقكم، فلا يضيق ولا يُؤخذ فيه خراج».

والحديث مرسل، لأن عطاء بن يسار تابعي.

وروى ابن شبّة عن صالح بن كيسان قال: ضرب رسول الله قبةً في موضع بقيع الزبير، فقال: هذا سوقكم، فأقبل كعب بن الأشرف ـ اليهودي ـ فدخلها

وقطع أطنابها، فقال رسول الله: لا جرم لأنقلنّها إلى موضع هو أغيظ له من هذا، فنقلها إلى موضع سوق المدينة، ثم قال: هذا سوقكم لا تتحجّروا ولا يُضرب عليه الخراج.

وروى الطبراني، «أنَّ رجلاً جاءَ إلى النبـيّ ﷺ، فقال: «إني رأيتُ موضعاً للسوق، أفلا تنظرُ إليه، قال: بلى. فقام معه حتى جاء موضع السوق، فلما رآه أعجبه، وركض برجله، وقال: نِعْمَ سوقكم هذا فلا ينقص ولا يضربنَّ عليكم خراج».

ورواه ابن ماجه بلفظ «ذهب رسول الله إلى سوق النبط، فنظر إليه، فقال: ليس هذا سوقكم بسوق، ثم رجع إلى هذا السوق (سوق المدينة) فطاف فيه ثم قال: هذا سوقكم فلا ينتقص ولا يضرب عليه خراج».

.. فمجموع هذه الروايات يدل على أن رسول الله أراد أن يكون للمسلمين سوقٌ خاصة بهم، يؤمها المسلمون ويتّبعون فيها النهج الإسلامي في البيع.. والشراء. ولعلَّ من أسباب الإسراع بإنشاء سوق خاصة بالمسلمين أن أكثر المهاجرين من أهل مكة كانوا يعملون في التجارة.. فالمكيّون قبل الهجرة كان جلُّ عملهم في التجارة، وعندما هاجروا إلى المدينة، كانت التجارة من مصادر رزقهم، ولذلك نجد كبار الصحابة كانوا تجاراً: ومن الخلفاء الراشدين ثلاثة كانوا تجاراً: وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وكذلك كان الزبير، وطلحة، وقصة عبد الرحمن بن عوف في التجارة مشهورة.. يدل على ذلك قول أبـي هريرة «وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق.. وكان يشغل إخوتي من الأنصار عملُ أموالهم» (الزراعة). [البخاري ــ أول كتاب البيوع]. وروى البخاري عن عمر قوله «ألهاني الصفق بالأسواق» يعني الخروج إلى التجارة.

(ب) **نظام التجارة أو البيوع**: انظر أبواب البيوع في كتب الحديث النبوي،

ففيها تفصيل لا مزيد عليه للنظم التجارية التي كانت مطبقة في المدينة النبوية في العهد النبوي.

(جـ) **النظام الزراعي**: انظر صحيح البخاري (كتاب الحرث والمزارعة) وصحيح مسلم «المساقاة والمزارعة».

(د) **الضمان الاجتماعي**: انظر أبواب الزكاة، والصدقات من كتب الحديث.

(هـ) **نظام العمل والعمّال**: (انظر كتاب الإجارة) من البخاري.

(و) **المعاملات المالية**: انظر كتاب «السلم» و «الشفعة» و «الحوالة»، و «الكفالة»، و «الوكالة»: من صحيح البخاري، وغيره.

(ز) **الوصايا والصدقات الدائمة (الأوقاف)**: انظر كتاب الوصايا من صحيح البخاري.

(ح) **نظام الشركات**: انظر كتاب «الشركة» في صحيح البخاري.

(ط) **بيت المال (وزارة المالية)**: انظر لمعرفة موارده «كتاب» الزكاة والصدقات، وكتاب فرض الخمس، وكتاب الجزية والموادعة.

٥ ــ النُّظم العسكرية:

(أ) **فرض الجهاد**: اتخذ الإسلام لفظ «الجهاد» للدعوة إلى محاربة الأعداء، والدفاع عن الوطن الإسلامي، ونشر الدعوة. وهو أقوى في الدلالة على المعنى المراد من لفظ «الحرب». فالجهاد: أصله: لغةً: المشقة. وشرعاً: بذل الجهد في قتال الكفار. ويطلق أيضاً على مجاهدة النفس والشيطان والفُسّاق. فأما مجاهدة النفس: فعلى تعلُّم أمور الدين ثم العمل بها ثم على تعليمها. وأما مجاهدة الشيطان: فعلى دفْع ما يأتي به من الشبهات وما يزينه من الشهوات. وأما مجاهدة الكفار: فتقع باليد والمال واللسان والقلب وأما مجاهدة الفُسّاق: فاليد ثم اللسان ثم القلب.

فالجهاد: فيه معنى الديمومة والاستمرار، مما يجعل المؤمن في حالة استنفار دائم مستعداً لكل طارق. لأن الجهاد في حال السلم، هو استعداد للجهاد بمعنى الحرب وقتال الأعداء. ولهذا عدَّ بعضهم مجاهدة الهوى والنفس والشهوات من الجهاد الأكبر. وقد جاء في الأثر ـ لم يصح كونه حديثاً ـ «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قيل: وما الجهاد الأكبر، قال: مجاهدة العبد هواه»[1].

«ونُظُم الجهاد» التي وصلتنا عن طريق الحديث النبويّ، مأخوذة من الواقع العملي للسيرة النبويّة، بل إنَّ الأحاديث النبوية التي وردت في أبواب الجهاد، تصف الواقع التاريخي الذي كان في العهد النبوي. ولذلك ترجم البخاري لهذا الموضوع بعنوان «كتاب الجهاد والسِّيَر» قال ابن حجر: السِّيَر: جمع سيرة وأطلق ذلك على أبواب الجهاد لأنها متلقاة من أحوال النبيّ ﷺ في غزواته.

ومن مميزات فرض الجهاد في الإسلام: «أن الدعوة إلى المشاركة في قتال الأعداء موجهة إلى الأمّة كلِّها، وأنه كان فرض عَيْنٍ على مَنْ عيّنه النبيّ ﷺ في حقّه» [الفتح ٦/٣٧]. فإذا دعا النبيّ ﷺ الناس كافةً إلى غزوة، وجب على كلِّ قادر على السفر والجهاد أن ينفر إلى المعركة. وقد ظهر مثل ذلك في غزوة تبوك، حيث نفر إلى الغزوة المسلمون جميعهم، لما روى البخاري أن رسول الله خرج إلى تبوك واستخلف علياً فقال: «أتخلفني في الصبيان والنساء..». وفي حديث كعب بن مالك يروي قصة تخلفه عن المعركة «فكنتُ إذا خرجتُ في الناس ـ بعد خروج رسول الله ﷺ ـ فَطُفْتُ فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء» [كتاب المغازي باب ٧٩].

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء: قال الحافظ ابن حجر: هو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن عيلة. قال العجلوني: والحديث في «الإحياء» وقال العراقي رواه البيهقي بسندٍ ضعيف عن جابر ورواه الخطيب في تاريخه عن جابر.

(ب) **إعداد الرجال وتدريبهم على آلات الحرب**: بوّب البخاري في كتاب «الجهاد» باب «التحريض على الرمي» وقول الله عزّ وجلّ: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم﴾ الآية. وروى عن سلمة بن الأكوع قال: مرّ النبيّ ﷺ على نَفَرٍ من أسلم ينتضلون، فقال النبيّ ﷺ: «ارموا بني إسماعيل، فإنَّ أباكم كان رامياً.. الحديث».

وروى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ألا إنَّ القوة الرمي، ثلاثاً». ولأبي داود وابن حبّان من وجه آخر عن عقبة بن عامر، رفعه «إن الله يُدْخل بالسهم الواحد، ثلاثةً، الجنة: صانعه يحتسبُ في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله، فارموا واركبوا، وأن ترموا أحبُّ إليَّ من أن تركبوا».. الحديث: وفيه: «ومَنْ ترك الرمي بَعْد علمه، رغبةً عنه، فإنها نعمةٌ كفرها». ولمسلم من وجه آخر عن عقبة بن عامر، رفعَه «مَنْ علم الرمي ثم تركه فليس منّا، أو: فقد عصى». قال القرطبي: إنما فَسَّر القوة بالرمي، وإنْ كانت القوة تظهر بإعداد غيره من آلات الحرب، لكون الرمي أشدّ نكاية في العدوّ وأسهل مؤنة، لأنه قد يُرمى رأس الكتيبة فيصاب، فينهزم مَنْ خلفه.

وبوّب البخاريُّ أيضاً باب «اللهو بالحراب ونحوها» في كتاب الجهاد. وفي كتاب العيدين «باب الحراب والدّرق يوم العيد». وروى عن أبي هريرة قال: بينا الحبشةُ يلعبون عند النبيّ ﷺ بحرابهم دخل عُمَرُ، فأهوى إلى الحصى، فحصبهم بها، فقال: دعهم يا عمر. وفي «كتاب الصلاة» من صحيح البخاري «باب أصحاب الحراب في المسجد» وفيه عن عائشة «لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يوماً على باب حجرتي، والحبشة يلعبون في المسجد، ورسول الله يسترني بردائه أنظرُ إلى لعبهم».

قال ابن حجر في الردّ على من أنكر أن يكون اللعب في المسجد: واللعب بالحراب ليس لعباً مجرداً، بل فيه تدريب الشجعان على مواقع الحروب

والاستعداد للعدوّ. وقال المهلب: المسجد موضوع لأمر جماعة المسلمين، فما كان من الأعمال يجمع منفعة الدين وأهله جاز فيه.

وقال ابن المنير: «سماه لعباً، وإن كان أصله التدريب على الحرب، وهو من الجدّ، لما فيه من شبه اللعب، لكونه يقصد إلى الطعن ولا يفعله ويُوهم بذلك قِرْنَه، ولو كان أباه أو ابنه» [الفتح ٢/ ٤٤٣].

(جـ) الحِمَى: لترعى فيه الخيل والإبل التي يُحْمَلُ عليها في سبيل الله:

وأصل الحِمى عند العرب، أَنّ الرئيس منهم كان إذا نزل منزلاً مخصباً استعوى كلباً على مكان عالٍ، فإلى حيثُ انتهى صوتُه، حماه من كلِّ جانب فلا يرعى فيه غيره، ويرعى هو مع غيره فيما سواه.

فلما جاء الإسلام؟ قال رسول الله ﷺ: «لا حمى إلا لله ولرسوله». وقال الزهري: «بلغنا أن النبيّ ﷺ، حمى النقيع، وأنَّ عُمر حمى الشَّرف والرَّبَذَة». وكان من وظائف هذا الحمى أن ترعى فيه خيول الجهاد والإبل التي يُحمل عليها في سبيل الله. يدلُّ على ذلك قول عُمر بن الخطاب «لولا المالُ الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميتُ عليهم من بلادهم شِبْراً» [البخاري باب ١٨٠ من كتاب الجهاد].

ونقل ابن حجر عن مالك «أنَّ عدَّة ما كان في الحمى في عهد عمر بلغ أربعين ألفاً من إبل وخيلٍ وغيرها» [الفتح ٦/ ١٧٧].

والذي في [الموطأ ١/ ٣٠٨] أن عمر بن الخطاب كان يحملُ في العام الواحد على أربعين ألف بعير، يحملُ الرجل إلى الشام على بعير، ويحمل الرجلين إلى العراق على بعير، فجاءَه رجلٌ من أهل العراق فقال: احملني وسُحيماً، فقال له عمر بن الخطاب: «نشدتك الله، أسحيمٌ زِقٌّ، قال له: نعم». قال السيوطي في «تنوير الحوالك» قال الباجي: أراد الرجلُ التحيّل على عمر، ليوهمه أن له رفيقاً يسمى «سُحيماً» فيدفع إليه ما يحملُ رجلين، فينفرد هو به.

وكان عمر يصيب المعنى بظنه فلا يكاد يخطئه، فسبق إلى ظنه أن سحيماً الذي ذكره هو «الزّقّ» وهو السِّقاء، يُصنع من الجلد.

(د) **معسكرات الجيش**: لم يكن في المدينة ــ عصر النبي والخلفاء الراشدين ــ جنود مجندون يختصون بالجهاد وإنما كان المسلمون جميعهم مجندين لهذا الهدف. بل إنَّ مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام، كانت في صدر الإسلام لا يضع الرجلُ فيها سلاحه، لقلة الأمن، ولأنَّ جميع أهل الأرض أعداء لهم. . .

فإذا دعا النبيّ ﷺ إلى غزوة استجاب المسلمون جميعهم. . ولكنهم لا يتوجهون إلى هدفهم إلا إذا تجمعوا في مكان في طرف المدينة، فإذا حان زَمَنُ الانطلاق، استعرض رسول الله الجيش، وتفقد الجند: ونعرف من حكمة استعراض الجيش أن يتفقد رسول الله أحوال الناس، من حيثُ السنّ فإذا وَجَدَ في الجيش مَنْ هو دون التكليف من الصبيان، ردّه إلى المدينة كما سيأتي بيانه من الشواهد. وربما كان من حكمة ذلك التعرف على أحوال الناس من حيث الإيمان، خوفاً من أن يندس في الناس بعض المنافقين. . وقد يكون ذلك أيضاً لمعرفة المتخلفين عن القتال. وقد يكون من أهداف هذا التجمع، تحميس المسلمين، ووعظهم، وتحبيب الجهاد إلى نفوسهم. وهناك حكمة نأخذها من رحلة الحج لوجود الشبه بين الرحلتين: فكلتاهما في ركْب وفي سفر بعيد. وجاءَ في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ كان إذا خرج إلى مكة، بات في ذي الحليفة، ميقات أهل المدينة. فقال ابن حجر (الفتح ٣/ ٣٩٣) في شرح باب «العقيق واد مبارك»: وفي الحديث استحباب نزول الحاج في منزلة قريبة من البلد ومبيتهم بها ليجتمع إليهم مَنْ تأخر عنهم ممن أراد مرافقتهم، وليستدرك حاجته مَنْ نسيها فيرجع إليها من قريب. . .

هذا، ويمكن أن نعدَّ ذلك التجمع مثالاً لوجود معسكرات للجيش، في العصر النبوي وقد وردت شواهد في السيرة تدلُّ على ذلك، أذكر منها: غزوة

بـدر؛ لمـا روى ابـن سعـد فـي الطبقـات [١/ ١١] قـال: وضـرب رسـول الله ﷺ عسكره ببئر أبـي عنبة، وهي على ميل من المدينة، فعرض أصحابه، وردَّ مَنْ استصغر، وخرج في ثلاثمائة رجل وخمسة نفر.

.. ولم يستطعْ أحدٌ أن يُحدد مكان بئر أبـي عنبة، ولكنهم حددوا بُعْده عن المدينة، فقال بعضهم إنه على ميل من المدينة، وقال آخرون إنه على ميلين. والاختلاف في تحديد المسافة ناشىء من بداية القياس فبعضهم يقيس بدايةً من المسجد النبوي، وبعضهم يقيس بدايةً من طرف المدينة النبوية، ثم إنَّ نهاية عمران المدينة يختلف باختلاف عصر المؤرخين.

وعلى كل حال، فإن الميل القديم يساوي حوالي كيلين ونصف الكيل. وعلى رواية الميلين تكون بئر أبـي عنبة تبعد عن المدينة حوالي خمسة أكيال. ويظهر أنَّ هذه البئر كانت في حرّة الوبرة (الغربية) لأن طريق رسول الله إلى بَدْر، مرت بالحرة الغربية من المدينة، ثم بذي الحُلَيفة. فتكون بئر أبـي عنبة قبل ذي الحليفة، فلا بدَّ أن مكان استعراض الجيش يكون قريباً من المساكن، ليتمكن مَنْ رُدَّ عن المشاركة من الرجوع، وخصوصاً أن مَنْ يُردُّ، يكون غالباً من الصبيان دون البلوغ، وليس معه ركوبة.

وفي غزوة أُحد: قال ابن سعْد: (٢/ ٣٩): «فمضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالشيخين ــ وهما أُطُمان ــ التفت فنظر إلى كتيبةٍ خشناء لها زجل، فقال ما هذه؟ قالوا: حلفاءُ ابن أُبـيّ من يهود، فقال رسول الله ﷺ «لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك» وعرض مَنْ عَرَضَ بالشيخين، فردَّ مَنْ ردَّ، وأجاز مَنْ أجاز... وبات بالشيخين، وكان نازلاً في بني النجار...».

وقال ابن هشام (٣/ ٦٦) وأجاز رسول الله ﷺ يومئذٍ، سَمُرة بن جُنْدب الفزاري، ورافع بن خديج أخا بني حارثة وهما ابنا خمس عشرة سنة، وكان قد ردّهما، فقيل له: يا رسول الله، إن رافعاً رامٍ، فأجازه فلما أجاز رافعاً، قيل له:

يا رسول الله، فإن سمرة يصرعُ رافعاً، فأجازه. وردَّ رسول الله ﷺ: أُسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، والبراء بن عازب، وعمرو بن حزم.. ثم أجازهم يوم الخندق، وهم أبناء خمس عشرة سنةً.

وأُطم الشيخان، أو أُطما الشيخين، حيث تمَّ استعراض الجيش الإسلامي، على مقربة من جبل أُحد، ربما يبعدان عن موقع المعركة مسافة كيلين.

وفي غزوة مؤتة: قال ابن سَعْد: بعث رسول الله ﷺ، الحارث بن عُمير الأزدي، إلى ملك بُصْرى بكتاب، فلما نزل مؤتة، عرض له شُرحبيل بن عمرو الغساني، فقتله، ولم يُقْتلْ لرسول الله ﷺ رسولٌ غيره، فاشتدَّ ذلك عليه، وندب الناس، فأسرعوا وعسكروا بالجُرْف، وهم ثلاثة آلاف.. فقال رسول الله: أمير الناس... وعقد لهم رسول الله لواءً أبيض... وخرج مشيعاً لهم ــ أي: قادة السريّة ــ حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودّعهم، فلما ساروا من معسكرهم، نادى المسلمون: دفع الله عنكم، وردكم صالحين غانمين، فقال ابن رواحة عند ذلك:

لكنني أسألُ الرحمن مغْفرةً وضربةً ذات فَرْغ تَقْذِفُ الزَّبَدا

.. والجَرْف: الذي عسكر فيه الجيش في طرف المدينة الشمالي، من طريق الشام.

وفي غزوة تبوك: قال ابن هشام (م ٢/ ٥١٩): فلما خرج رسول الله ﷺ، ضرب عسكره على ثنية الوداع. وقال ابن سعد (٢/ ١٦٥): وكان رسول الله، استخلف على عسكره أبا بكر الصديق يصلي بالناس.

وثنية الوداع، كانت في مدخل المدينة من جهة طريق الشام، بين فلقتين من جبل سلع، وهي بداية ما يسمى اليوم شارع سلطانة، وبقربها يبدأ شارع سيد الشهداء الذي يؤدي إلى جبل أُحد. ومما يدلُّ على ذلك، رواية ابن هشام عن ابن إسحٰق قال: وضرب عبد الله بن أبيّ معه على حدةٍ عسكره أسفل منه نحو

ذُباب.. وجبل ذباب، أو جبل الراية، يجاور ثنية الوداع التي في جهة الشام. ومَنْ لا يعرف أعلام المدينة معرفة العين، يتوهم أن ثنية الوداع في الطريق إلى مكة، لشيوع الفكرة القائلة: إن نشيد:

طلع البدر علينا من ثنية الوداع..

.. قاله أهل المدينة يوم قدوم رسول الله إلى المدينة يوم الهجرة.. وقد أثبت في غير هذا الموضع أنَّ ثنية الوداع في طريق الشام أو تبوك. وإذا صحت نسبة النشيد إلى صدر الإسلام ـ ولم تصح ـ فإنه قيل عند عودة النبيّ ﷺ من غزوة تبوك. انظر كتابنا: «المعالم الأثيرة في السنّة والسيرة»

وفي سريّة أُسامة بن زيد إلى فلسطين سنة إحدى عشرة: قال ابن سعد: «فلما أصبح رسول الله ـ يوم الخميس ـ عقد لأُسامة لواءً بيده.. فخرج بلوائه معقوداً، فدفعه إلى بُريدة بن الحصيب الأسلمي، وعسكر بالجُرف».

.. وقال في سياق القصة: «وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أُسامة يودّعون رسول الله ﷺ، ويمضون إلى العسكر بالجُرف».

وقال في السياق نفسه: «فبينا أُسامةُ يريد الركوب، إذا رسول أمّه أُم أيمن قد جاءَه يقول: إن رسول الله يموتُ... ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة» [الطبقات ٢/ ١٩٠ ـ ١٩١].

(هـ) **إحصاء الجنود**: بوّب البخاري في كتاب «الجهاد» باب كتابة الإمام الناس. وروى عن حذيفة بن اليمان، قال: قال النبيّ ﷺ: «اكتبوا لي مَنْ تلفظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل، فقلنا: نخاف ونحن ألف وخمسمائة؟ وفي رواية: فوجدناهم خمسمائة، وفي رواية ما بين ستمائة إلى سبع مائة».

وعن ابن عباس قال: «جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إني كُتبتُ في غزوة كذا وكذا، وامرأتي حاجّة، قال: ارجع فحُجَّ مع امرأتك».

قال ابن حجر: وفي الحديثين مشروعية كتابة دواوين الجيوش، وقد يتعين ذلك عند الاحتياج إلى تمييز مَنْ يصلح للمقاتلة ممن لا يصلح.

.. ولا يتعارض هذا مع القول: إن عمر أول مَنْ دوّن الدواوين. فالتدوين الذي حصل في العهد النبويّ، يظهر أنه كان لإحصاء الرجال القادرين على القتال. أما التدوين أيام عمر، فكان لغرض توزيع العطاء.

(و) **عَقْد الأحلاف والعهود العسكريّة**: عرف النبيُّ ﷺ، أنه لا طاقة للمسلمين بمحاربة العرب المشركين جميعاً. فأراد أن يوجّه طاقة المسلمين لمحاربة قريش وكانت قد أعلنت عزيمتها على الصد عن المسجد الحرام، وأرسلت إلى المسلمين تهددهم وتقول لهم «لا يغرنكم أنكم أفلتم إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عُقْر داركم».

وعندما نزل الإذنُ بالقتال، قرر رسول الله ﷺ، أن يبسط المسلمون سيطرتهم على طريق قريش التجارية المؤدية من مكة إلى الشام.. فعقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التي كانت تجاور هذا الطريق، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق، وما بين المدينة.

فقد جاء في خبر سرية «سيف البحر» من ناحية العيص، أن المسلمين التقوا المشركين، في قافلة تجارية، فاصطفوا للقتال، فمشى مجدي بن عمرو الجهني ــ وكان حليفاً للفريقين جميعاً ــ بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم. وهذه السرية كانت في السنة الأولى من الهجرة. وكان أميرها حمزة بن عبد المطلب.

وفي خبر غزوة الأبواء ــ أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ ــ قال ابن إسحٰق: حتى بلغ ودّان، وهي الأبواء يريد قريشاً وبني ضَمْرة فوادعته فيها بنو ضمرة وكان الذي وادعه منهم مخشيّ بن عمرو الضمري. وكان سيدهم في زمانه.

وفي خبر غزوة العشيرة في جمادى الآخرة سنة ٢هـ قال ابن إسحٰق: «حتى

نزل العشيرة من بطن ينبع، فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادي الآخرة وادع فيها بني مُدْلج وحلفاءهم من بني ضمْرة ثم رجع إلى المدينة.

وفي صلح الحديبية الذي كُتب بين المسلمين والمشركين من قريش دخلت خُزاعة في عَقْد محمد وعهده. وجاء في نصّ الصلح «وأنّه مَنْ أحبَّ أن يدخل في عقْد محمد وعهده دخل فيه ومَنْ أحبَّ أن يدخل في عقد قريشٍ وعهدهم دخل فيه».

وكان من أسباب فتح مكة التي هيأها الله تعالى، أنَّ قريشاً مالأت خصوم خزاعة، أحلاف المسلمين، وأمدّتْهم بالسلاح، فكان ذلك نقضاً للعهد، الذي كان من أسباب غزوة الفتح.

والمعروف أن رسول الله ﷺ، وادع اليهود عندما قدم المدينة، فكان نقضهم العهد من أسباب إجلائهم عن المدينة.

(ز) **تجهيز الجيش وتموينه**: جهاز الجيش للحرب: دابة للركوب، ذلك أن أكثر الغزوات كانت بعيدة عن المدينة. وسلاح للقتال والدفاع. ومنذ فُرض القتال، أو أُذن بالقتال، أخذ رسول الله يُعِدُّ العدة لذلك، بما يتوفر لديه من المال. فقد جاء في جامع الترمذي عن علي «كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف عليه المسلمون بخيْلٍ ولا ركاب، وكانت لرسول الله ﷺ خالصة، وكان رسول الله يعزل نفقة أهله سنةً، ثم يجعل ما بقي في الكراع: الخيل والسلاح، عُدّةً في سبيل الله». قال الترمذي «حسن صحيح».

ونقل ابن هشام عن ابن إسحاق ــ في غزوة بني قريظة ــ قال: «ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري، أخا بني نهشل، بسبايا من سبايا بني قريظة، إلى نَجْد، فابتاع له بها خيلاً وسلاحاً» (م ٢/ ٢٤٥). وليس كل مسلم بقادر على اقتناء ركوبة، ولهذا فإنَّ توفير الركائب للغزوة كان الجزء الأكبر منه توفره الحكومة الإسلامية، ممثلة في الرسول عليه السلام. وكلما زاد عدد

المسلمين المشاركين في الغزوة، زادت الحاجة إلى الركائب، لكثرة مَنْ يشارك في الغزوة من فقراء المسلمين.

ولذلك فإنَّ أكبر مشكلة واجهت المسلمين في غزوة تبوك، نقص الركائب لما روى البخاري عن أبي موسى قال «أرسلني أصحابي إلى رسول الله أسأله الحُملان لهم إذْ هم معه في جيش العُسرة، وهي غزوة تبوك فقلت: يا نبيَّ الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم.. وفي الحديث قال ﷺ: «خذ هذين القرينين ــ لستة أبعرة ابتاعهن حينئذٍ من سعد فانطلق بهنَّ إلى أصحابك، فقل: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء فاركبوهنَّ... الحديث» [كتاب المغازي باب ٧٨].

وفي السيرة النبويّة لابن هشام، قال ابن إسحق: «ثم إنَّ رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله، وهم البكّاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم.. فاستحملوا رسول الله، وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً ألاّ يجدوا ما ينفقون».

هذا، وقد كانت عدة جيش تبوك تُقارب الثلاثين ألفاً، ولذلك ظهرت الحاجة إلى الصدقات، وإنفاق الأغنياء، فحضَّ رسول الله، أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، فحمل رجالٌ من أهل الغنى، واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفّان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وغيرهم نفقة عظيمة.

أما الأسلحة: فالذي يظهر من الوقائع، أن المسلمين لم يكونوا يشتكون نقصاً فيها؛ لأن العرب في الجاهلية كانوا أهل حروب، وقلّما يخلو بيت من سيف، أو رمح، أو قوس، وهي أدوات الحرب المعروفة في أيامهم.

وكانت صناعة وتجارة الأسلحة رائجتين في بلاد العرب: روى ابن سعد في الطبقات (٤/ ٤٦) «لما أسر نوفل بن الحارث ببدْر، قال له رسول الله ﷺ،

اِفْدِ نفسك يا نوفل. قال: مالي شيء أفدي به نفسي يا رسول الله، قال: اِفْدِ نفسك برماحك التي بِجُدَّة، قال: أشهد أنك رسول الله، ففدى نفسه بها، وكانت أَلْف رمح». وكانت صناعة الأسلحة رائجة في أنحاء الجزيرة العربية.

روى ابن سعد في خبر «وفد ثقيف» قال: لم يحضر عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة حصار الطائف، كانا بجُرش ــ في جنوب السعودية ــ يتعلمان صنعة العرّادات والمنجنيق، والدبابات.. [١/ ٣١٢].

وفي ترجمة سعد بن أبي وقاص، أنه كان قبل إسلامه يصرفُ هَمَّه إلى برْي السِّهام وإصلاح القسيّ.

وفي ترجمة مرزوق الصيقل، من «الإصابة [٣/ ٤٠١]» أنه صقل سيف رسول الله ﷺ ذا الفقار.

ومما يدلُّ على خبرة العرب ــ بالأسلحة ــ غنى المادة اللغوية التي تتصل بكل نوع من أنواع الأسلحة الثلاثة: السيف، والرمح، والقوس.. [انظر فقه اللغة للثعالبي ــ الفصول من ٢٠ ــ ٣٢].

وقال ابن منظور في «اللسان» مادة «ثرب»: «ونصل يثربيّ، وأثربيّ منسوب إلى يثرب. وقوله:

«وما هو إلا اليثربيّ المقطَّع»

زعم بعض الرواة أن المراد باليثربي «السهم» لا النصل، وأنَّ يثرب لا يُعمل فيها النّصال. قال أبو حنيفة (الدينوري) وليس كذلك لأنَّ النّصال تُعمل بيثرب، وبوادي القرى، وبالرَّقم[1]، وبغيرهنَّ من أرض الحجاز، وقد ذكر الشعراءُ ذلك كثيراً».

---

(١) الرقم، بفتح الراء والقاف، وقد تسكن القاف موضع شرق قرية الحناكية، في طريق الرياض من المدينة.

وأما تموين الجيش في السفر: فقد ترجم له البخاري بعنوان «باب حمل الزاد في الغزو» من كتاب الجهاد.

وعرفنا من أزوادهم «السويق» والتمر، وقد يذبحون بعض إبلهم إذا عضهم الجوع، ولم يجدوا غيرها. ويظهر أن الجيش تكون فيه أزواد عامة، وأزواد خاصة. فقد روى البخاري عن سويد بن النعمان «أنه خرج مع النبيّ ﷺ عام خيبر، حتى إذا كانوا بالصهباء ـ وهي أدنى خيبر ـ فصلّوا العصر، فدعا النبيُّ ﷺ بالأطعمة، ولم يؤتَ النبيّ ﷺ، إلا بسويق، فَلُكْنا، فأكلنا وشربنا..».

وعن سلمة بن الأكوع قال: خفّتْ أزواد الناس وأملقوا، فأتوا النبيّ ﷺ في نحر إبلهم، فأذن لهم، فلقيهم عُمَرُ فأخبروه فقال: ما بقاؤكم بعد إبلكم؟ فدخل عُمَرُ على النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما بقاؤهم بعد إبلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: نادِ في الناس يأتون بفضْل أزوادهم، فدعا، وبرّك عليهم.

وفي غزوة سيف البحر، قال جابر بن عبد الله: «بعثنا رسول الله ﷺ وأمّر علينا أبا عبيدة، وزوّدنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، وكان أبو عبيدة يعطينا تمرةً تمرةً. فقيل له: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصُّها كما يمصُّ الصبيُّ الثدي ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل» [الفتح ٨/ ٧٩]. وفي القصة أنهم ذبحوا بعض إبلهم، ثم امتنعوا، ثم اشتد بهم الجوع، فألقى البحر حوتاً ميتاً، فأكلوا منه نصف شهر، وحملوا منه إلى المدينة، وأهدوا إلى رسول الله ﷺ بعض لحمه، فأكله».

(ح) **النظم الحربية الاحتراسية**: منها: الأخذ بالحذر والاحتراس من العدوّ، بتعيين الحارس: في المدينة، وأثناء الغزوات. ومن شواهد الحراسة في المدينة، ما روته عائشة رضي الله عنها أن رسول الله لما قدم المدينة قال: ليت رجلاً من أصحابي صالحاً يحرسني الليلة إذْ سمعنا صوت سلاح، فقال: مَنْ

هذا؟ فقال: أنا سعد بن أبـي وقاص جئتُ لأحرسك، فقام النبـيُّ ﷺ (البخاري ـ كتاب الجهاد باب ٧٠). وروى الترمذي عن عائشة: «كان النبيُّ ﷺ يُحرس حتى نزلت الآية: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ ».

قال ابن حجر: وفي حديث البخاري: الأخذ بالحذر والاحتراس من العدوّ، وأنَّ على الناس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل.. وإنما عانى النبـيّ ﷺ ذلك مع قوة توكله، للاستنان (الاقتداء) به في ذلك، وقد ظاهر رسول الله بين درعين مع أنهم كانوا إذا اشتد البأس كان أمام كلِّ الناس. وأيضاً: فالتوكل لا ينافي تعاطي الأسباب، لأن التوكل عمل القلب وهي (تعاطي الأسباب) عمل البدن وقد قال إبراهيم عليه السلام «ولكن ليطمئن قلبـي» وقال عليه السلام: اعقلها وتوكّل. وقال القرطبـي ليس في الآية (والله يعصمك من الناس) ما ينافي الحراسة، كما أنَّ إعلامَ الله نَصْرَ دينه وإظهاره، ما يمنع الأمر بالقتال وإعداد العُدَّة، وعلى هذا فالمراد بالعصمة: العصمة من الفتنة والإضلال أو إزهاق الروح، والله أعلم.

وفي ترجمة أوس بن ثابت الأنصاري من «الإصابة [١/ ٨٠]» عن نافع عن ابن عمر قال: «كانت غزوة بدر وأنا ابن ثلاث عشرة فلم أخرج، وكانت غزوة أحد وأنا ابن أربع عشرة، فخرجتُ، فلما رآني النبـيُّ ﷺ استصغرني وردّني، وخلفني في حَرَس المدينة في نفرٍ منهم أوس بن ثابت..».

ومن شواهد حراسة معسكر الجيش في الغزوات:

ما رواه ابن هشام في غزوة ذات الرقاع، قال: فنزل رسول الله ﷺ منزلاً، فقال: مَنْ رجلٌ يكلؤنا ليلتنا هذه، قال: فانتدب رجل من المهاجرين، ورجلٌ من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: فكونا بفم الشّعْب، قال: وكان رسول الله، وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادي. [السيرة م ٢/ ٢٠٨].

وفي ترجمة عبّاد بن بشر الأنصاري من الطبقات [٣/ ٤٤١]، قال ابن سعد: وجعله رسول الله ﷺ على حرسه بتبوك من يوم قدم إلى أنْ رحل، وكان

أقام بها عشرين يوماً.

وفي ترجمة أنس بن أبي مرثد الغنوي من الإصابة [١/ ٧٣]، قال ابن حجر: «روى أبو داود والنسائي والبغوي والطبراني عن سهل بن الحنظلية، أنهم ساروا مع النبيّ ﷺ يوم حُنين... وفيه فقال رسول الله ﷺ: مَنْ يحرسُنا الليلةَ، فقال أنس بن أبي مرثد: أنا يا رسول الله وفي آخر الحديث، فقال له رسول الله: هل نزلت الليلة، قال: إلا مصلياً أو قاضي حاجة، فقال: قد أوجبت..» قال ابن حجر: إسناده على شرط الشيخين.

وقال ابن حجر في [الفتح ٦/ ٨٣]: ورد في فضل الحراسة عدة أحاديث ليست على شرط البخاري، منها حديث عثمان مرفوعاً «حرس ليلةٍ في سبيل الله خير من ألف ليلةٍ، يُقام ليلها ويصامُ نهارها». أخرجه ابن ماجه والحاكم. وحديث سهل بن معاذ عن أبيه مرفوعاً «مَنْ حرس وراء المسلمين متطوعاً لم يَرَ النار بعينيه إلا تَحِلَّة القسم». أخرجه أحمد.

وحديث أبي ريحانة مرفوعاً: «حَرُمتْ النار على عينٍ سهرت في سبيل الله» أخرجه النسائي.

ومن الحافظة: «عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

(ط) الاستخبارات العسكرية: الاستخبارات العسكرية، مصطلح حديث، ولكنه كان موجوداً في مضمونه، منذ فجر الدولة الإسلامية. ويدخل في باب الاستخبارات، العَيْنُ، والجاسوس والخدع العسكرية، أو الكذب، وكل وسائل التخذيل (الطابور الخامس)...

وقد نقلت لنا الأخبار الصحيحة أن نظام الاستخبارات العسكرية كان موجوداً في الواقع العملي. وإليك هذه النماذج والأمثلة المستقاة من السيرة النبوية: روى البخاري في باب «هجرة النبيّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة» من كتاب

«مناقب الأنصار» عن عائشة، في حديث الهجرة الطويل قالت: «ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر، بغارٍ في جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليالٍ، يبيتُ عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثَقِف لَقِن، فيدلج من عندهما بسِحَرَ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلاّ وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام». ويدخل في هذا الباب، أن رسول الله علم من الوحي أن القوم يأتمرون به، وكانوا يحرسون بابه، ينتظرون خروجه، لينفذوا ما اتفقوا عليه، فخرج النبيُّ ﷺ من خوخةٍ خَلْف البيت، ورقد عليٌّ على فراش رسول الله، يورّي عنه، حيث كانوا يرقبونه من خصاص الباب.

وفي ترجمة عديّ بن أبي الزغباء، من [الإصابة ٢/ ٤٧٠] أن النبيّ ﷺ، أرسله مع بسبسة بن عمرو، يتجسسان خبر أبي سفيان في وقعة بدر، فسارا حتى أتيا قريباً من ساحل البحر. وخبر بسبسة في صحيح مسلم، وأن رسول الله أرسله عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان. وفي طبقات ابن سعد [٤/ ٣١٠] ترجمة أبي تميم الأسلمي، قال: أسلم بَعْد أن قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهو الذي أرسل غلامه مسعود بن هنيدة من العرج على قدميه إلى رسول الله، يخبره بقدوم قريش عليه وما معهم من العَدو والعُدَّة والخيل والسلاح، ليوم أُحد(١).

وفي ترجمة حُذيفة بن اليمان من «الاستيعاب» قال: وهو الذي بعثه رسول الله يوم الخندق ينظر إلى قريش، فجاءَه بخبر رحيلهم. وكان عمر بن الخطاب يسأله عن المنافقين، وهو معروف في الصحابة بصاحب سرّ رسول الله، وكان عمر ينظر إليه عند موت مَنْ مات منهم، فإن لم يشهد جنازته حذيفة، لم يشهدها عمر.

وفي «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٤٣٩): قال ابن إسحق: «ولما سمع النبي ﷺ بهوازن، بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن

---

(١) وانظر البخاري، باب فضل الطليعة. ك الجهاد باب ٤٠.

أبـي حدرد فدخل فيهم فأقام فيهم، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ».

وترجم ابن حجر في «الإصابة» لأمية بن خويلد، فذكر أن النبيّ ﷺ بعثه عيناً وحْدَه إلى قريش، قال: فجئت إلى خشبة خبيب بن عدي وأنا أتخوف العيون، فرقيتُ فيها، فحللت خُبيباً.

وفي «الاستيعاب» في ترجمة العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ قال: أسلم العباسُ قَبْلَ فتح خيبر، وكان يكتُم إسلامه، وكان يكتبُ بأخبار المشركين إلى رسول الله، فكتب إليه النبـيُّ ﷺ: إنَّ مقامك بمكة خير.

ومن أبلغ ما قيل في هذا الباب قول رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة[1]»

---

(١) الحرب خدعة: في «خدعة» لغات: خَدْعة ـ وخُدْعة، وخُدَعَة وخَدَعَة، وخِدْعة.
قالوا: والفتح أفصحُ. قال ثعْلب: بلغنا أنها لغة النبـي ﷺ. أراد ثعلب: أن النبـي ﷺ كان يستعمل هذه البنية كثيراً لوجازة لفظها، ولكونها تعطي معنى البنيتين الثانية والثالثة.
قال: ويعطي معناها أيضاً الأمر باستعمال الحيلة مهما أمكن ولو مرّة. وقال ابن منظور: مَنْ قال: خَدْعة: معناه، مَنْ خُدع فيها خَدْعةً. فزلت قدمه وعطب فليس لها إقالة.
وقال الخطابـي: معناه أنها مرة واحدة، أي: إذا خُدع مرة واحدة لم تُقلْ عثرتُه وقيل: الحكمة في الإتيان بالتاء، للدلالة على الوحدة، فإن الخداع إن كان من المسلمين، فكأنه حضهم على ذلك ولو مرة واحدة. وإن كان من الكفار، فكأنه حذرهم من مكرهم ولو وقع مرة واحدة، فلا ينبغي التهاون بهم لما ينشأ عنهم من المفسدة ولو قلّ.
ومَنْ قال: خُدعة: بالضم، أراد: هي تُخْدَعُ، كما يقال: رَجُلٌ، لُعْنَة، أي يُلْعَنْ كثيراً.
ومن قال: خُدَعَة: بالضم فالفتح: على وزن هُمَزة، قيل: معناها المبالغة، أو أراد أنها تخدع أهلها، كما قال عمرو بن معد يكرب.

الحـــربُ أولُ مـــا تكـــونُ فتيّـــةً ... تسعـــى ببـــزَّتهـــا لكـــل جهـــول

ومَنْ قال: خَدَعة: بفتحتين: هو جمع خادَعَ، أي: إن أهلها بهذه الصفة، وكأنه قال: أهل الحرب خدعة.
وأصل الخدع: إظهار أمر وإضمار خلافه.
قال ابن حجر: وفي الحديث: التحريض على أخذ الحذر من الكفار في الحرب، =

[البخاري ك ٥٦ باب ١٥٧]. وقال الرواة: إن أول ما قال رسول الله «الحرب خدعة» في غزوة الخندق. ولذلك قصة ترويها كتب الحديث والسيرة، قال ابن هشام (٢/ ٢٢٩): ثم إنَّ نُعيم بن مسعود، أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله، إني قد أسلمتُ، وإنَّ قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرْني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجلٌ واحد، فخذِّلْ عنا، إن استطعت، فإنَّ الحرب خدعة. فخرج نُعيم، حتى أتىٰ بني قُريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودّي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت لَسْت عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدروا على أن تحوّلوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوْا نُهْزةً أصابوها، وإن كانوا غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلَّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم

= والندب إلى خداع الكفار، وإن مَنْ لم يستيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه وقال النووي: واتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمانٍ فلا يجوز. وفي الحديث: إشارة إلى استعمال الرأي في الحرب، بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة، ولهذا وقع الاقتصار على ما يشير إليه بهذا الحديث، وهو كقوله: «الحج عرفة» وقال ابن المنير: معنى: الحرب خدعة أي: الحرب الجيدة لصاحبها الكاملة في مقصودها، إنما هي المخادعة، لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة، وحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر. وقال غيره: أشار بذلك إلى أن المماكرة أنفع من المكاثرة.

قال الكتاني في [التراتيب ١/ ٣٦٧]: قال أبو الحسن الدَّمَنْتي (علي بن سليمان الدمنتي ـ عالم مغربي ١٢٣٤ ـ ١٣٠٦هـ) في اختصاره للتوشيح: أخبرني بعض علماء القسطنطينية (لعلها إسلام بول فيما بعد) أنهم قالوا للنصارى إنا غلبناكم بالسلاح، وإنما غلبتم أنتم ملوكنا بحيلكم، وتزيين الملاهي والمحرمات فاتبعوكم بإفساد الدين. فقالوا لهم: أليس بصحيح إخبار نبيكم «الحرب خدعة» قلنا: نعم. قالوا: إذن، إنما غلبناكم بشرعكم «الخدعة».

إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُناً من أشرافهم يكونوا بأيديكم ثقةً لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا: لقد أَشَرْتَ بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان بن حرب ومَنْ مَعه من رجال قريش: قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيتُ عليَّ حقاً أن أبلغكموه، نصحاً لكم، فاكتموا عني، فقالوا: نفعل. قال: تعلّموا أنَّ يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على مَنْ بقي منهم حتى تستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أنْ نَعَمْ، فإن بعثتْ إليكم يهود يلتمسون منكم رُهُناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً. ثم خرج حتى أتى غطفان.. فقال لهم مثل ما قال لقريش..

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان من صُنْع الله لرسوله ﷺ أنْ أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفرٍ من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخفُّ والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه فأرسلوا إليهم، إنَّ اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً. وقد كان أحدث فيه بعضُنا حَدثاً، فأصابه ما لم يَخْفَ عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نُقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رُهُناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى نناجز محمداً، فإننا نخشى إنْ ضَرَّستكم الحرب، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه. فلما رجعتْ إليهم الرُسُل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إنَّ الذي حدثكم نُعيم بن مسعود لحقّ فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال، فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسُل إليهم

بهذا: إنَّ الذي ذكر لكم نُعيم بن مسعود لحقٌّ، ما يريد القوم إلا أن يُقاتلوا فإن رأوا فرصةً انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلّوا بينكم وبين الرجل في بلدكم. فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رُهُناً، فأبَوْا عليهم، وخذّل اللَّهُ بينهم، وبعث الله عليهم الريح في ليالٍ شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم» وقال الله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ أقول: لعلَّ الجنود التي لم يرها المسلمون، هو التخذيل، والشكَّ الذي دخل إلى قلوب الأحزاب، فأدّىٰ إلى فرقتهم، والله أعلم.

ولعلَّ من هذا النوع «الحرب خدعة» قصة مقتل كعب بن الأشرف اليهودي فقد بوّب البخاري «باب الكذب في الحرب» وروى قصة مقتل كعب بن الأشرف: «قال رسول الله ﷺ: مَنْ لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحبُّ أن أقتله؟ قال: نعم. قال: فأذن لي أن أقول شيئاً». وقال ابن سعد: استأذنه أن يشكو من رسول الله، ويعيب رأيه، لأنه قال لكعب: «كان قدوم هذا الرجل علينا من البلاء، حاربتنا العرب ورمتْنا عن قوس واحدة. . .» وذلك حتى يطمئن كعب إلى مَنْ ذهب لقتله، ويتحيّن منه فرصة.

(ي) الإعلام الحربي ــ (الجهاد بالكلمة): الإعلام الحربيّ، أو الحرب الإعلامية، لهما تأثير فعّال في الطرفين المتحاربين: تؤثر في الأعداء سلْباً، لأنها تؤثر في قدراتهم المعنوية، وفي استعدادهم النفسي: فتسلبهم الشجاعة التي هي العنصر الأصيل في المعركة.

ويؤثر الإعلام الحربيّ في أهله الذين يبثونه، لأنه يحرك كوامن الشجاعة ويحيي روح الجهاد، ويمثل صورة الجنة التي أُعدت للشهداء، أمام الجنود، فيندفعون إلى المعركة غَيْر هيابين.

.. ويشهد لوجود الإعلام الحربي في العهد النبويّ، أحاديث كثيرة، منها قول الرسول ﷺ لحسان «اهجُهُمْ ـ أو قال: هاجهم ـ وجبريل معك» [البخاري ٦١٥٣].

وقوله عليه السلام: «يا حسان أجب عن رسول الله، اللهم أيده بروح القدس» [البخاري ٦١٥٢].

وقال عليه السلام: «إنَّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه» [مسند أحمد ٣/ ٤٥٦].

وقال عليه السلام: «اهجوا قريشاً فإنه أشدُّ عليها من وَقْع النبل» [صحيح مسلم ٢٤٨٧].

وقال عليه السلام: «جاهدوا المشركين بألسنتكم» [رواه أبو داود ٢٥٠٤].
واستخدام الكلمة الشعرية في هجْو المشركين، لم يكن مبدؤه من المسلمين وإنما كان إجابةً عن هجاء المشركين رسولَ الله، والمسلمين بعامّة، لما رواه الطبراني من حديث عمّار بن ياسر قال: لما هجانا المشركون، قال لنا رسول الله ﷺ: «قولوا لهم كما يقولون لكم، فإنْ كُنَّا لنعلّمه إماء أهل المدينة» ويُفهم من هذا الخبر، أن ما يقوله شعراءُ المسلمين في هجاء المشركين، كان يوضع على ألسنة صبيان وغلمان المدينة ليرددوه في صورة أناشيد، ليشيع خبره وتتناقله الألسن وتحمله الركبان فيصل إلى الأعداء في منازلهم فيحدث تأثيره فيهم، ولعلَّ ذلك يحقق هدفاً آخر محليّاً، وهو محوُ ما قد يكون وصل إلى البيئة المدنية من شعر المشركين.

وسوف نرى تأييد ذلك بالأدلة، عندما نعرض الوظائف الإعلامية التي كان يؤديها الشعر في الميدان.. ومع ذلك فإن الشعر لم يكن هو الوسيلة الوحيدة المستخدمة في الإعلام، بل هناك وسائل أُخرى سوف نذكرها بالتتابع.

أولاً ــ نبدأ بالشعر: وكان الشعر يؤدي وظائف إعلامية كثيرة، أذكر منها

الإجابة عن هجاء المشركين؛ ومثاله جواب حسان بن ثابت عن هجاء أبي سفيان بن الحارث، رسول الله ﷺ، ومنه قول حسان:

هَجَوتَ مُحمداً فأجبتُ عَنهُ ... وعندَ اللهِ في ذاك الجَزَاءُ

فمنْ يهجو رسول الله منكم ... ويمدحُهُ وينصُرُه سواءُ

وجبْريلٌ رسولُ اللهِ فينا ... وَرُوحُ القُدْسِ ليس له كِفَاءُ

وقال عبد الله بن الزِّبْعرى في يوم أُحد:

أبلِغَنْ حسّان عنّي آيَةً ... فقريضُ الشّعْرِ يَشْفي ذا الغُلَلْ[1]

كم قتلنا من كريم سيّدٍ ... ماجدِ الجَدَّيْنِ مِقْدامٍ بَطَلْ

ليتَ أشياخي ببدْرٍ شهدوا ... جَزَعَ الخزرج من وقع الأسَلْ

فقتلْنا الضِّعْفَ من أشرافهم ... وعَدَلْنا مَيْلَ بَدْرٍ فاعتدل

بسُيوفِ الهند تعلو هامَهُمْ ... عَلَلاً تعْلوهمُ بعد نَهَلْ[2]

... فأجابه حسّانُ بْن ثابت:

ذَهَبَتْ بابن الزِّبَعرى وَقْعَةٌ ... كان منّا الفَضْلُ فيها لو عَدَلْ

ولقد نلتُمْ ونلْنا منكُمُ ... وكذاك الحربُ أحياناً دُوَلْ

نَضَعُ الأسيافَ في أكتافكم ... حيثُ نهوي عَلَلاً بعد نَهَلْ

وَعَلَوْنا يوم بَدْرٍ بالتُّقىٰ ... طاعةِ الله وتصديق الرُّسُلْ

---

(١) الآية: العلامة. والغلل: جمع غلة، وهي حرارة العطش.

(٢) العلل: الشرب الثاني. والنهل الشرب الأول. يريد: الضرب بعد الضرب.
هذا، ويزعم المؤرخون أن البيتين (الثالث والرابع) قالهما يزيد بن معاوية يوم وصله خبر معركة الحرّة... وهو ليس وَهْماً، ولكنه كذب مقصود. فالبيتان لابن الزبعرى وقد أسلم فيما بَعْدُ. ثم إنَّ الذين أعلنوا العصيان على يزيد، لم يكونوا من الخزرج فقط، بل كان فيهم الأوس أيضاً، وفيهم خَلْقٌ كثير من المهاجرين، القرشيين.

وتـــركنـــا فـــي قـــريـــشٍ عَـــوْرَةً يـــومَ بَـــدْرٍ وأحـــاديـــثَ المَثَـــلْ

ومن وظائف الشعر تعيير المشركين بالجُبْن: حيث استخدم الشعر في الحرب النفسية والتأثير النفسي في المشركين لتثبيط عزائمهم: ومن ذلك تعييرهم بالجبن والفرار من المعركة. ففي غزوة الخندق عَبَرَتْ مفرزة من فرسان قريش الخندق في ناحية ضيقة منه، وفيهم عمرو بن عبد ودّ وعكرمة بن أبي جهل، ولكن المسلمين تصدوا لهم، فنازل عليُّ بن أبي طالب عمرو بن ودّ، فقتله، كما قتل المسلمون رجلين من المشركين، وعادت بقية الفرسان هاربةً إلى ما وراء الخندق.

قال ابن إسحق: فألقى عكرمة بن أبي جهل رمحه يومئذٍ وهو منهزم، فقال حسان بن ثابتْ في ذلك:

فـــرَّ وألقـــىٰ لنـــا رُمْحَـــهُ لعلّـــك عكْـــرِمَ لـــم تَفعَـــل[1]

ووليْـــتَ تَعْـــدو كعَـــدْوِ الظَّلِيـــم مـــا إنْ تحـــورُ عـــن المَعْـــدِل[2]

ولـــم تلْـــق ظهـــرك مُسْتـــأنسـاً كـــأنَّ قفـــاك قَفَـــا فُـــرْعُـــلِ[3]

ومـن وظـائـف الشعـر: الـدعـوة إلـى الإسـلام، وذكْـر خصـائصـه، ومـدح المسلمين: ومثال هذا[4]، ما كان يوم قدوم وفْد بني تميم إلى المدينة، وفيهم عُطارد بن زرارة التميمي، والزّبرقان بن بدر التميمي.. وقالوا: «يا محمد، جئناك نفاخرك، فأْذنْ لشاعرنا وخطيبنا، قال عليه السلام: أذنْتُ لخطيبكم فليقلْ، فقام عُطارد بن حاجب فافتخر بمالهم من المجد والمكانة والرياسة فقال رسول الله ﷺ لثابتْ بن قيس بن الشماس الخزرجي قم فأجب الرجل في خطبته،

(١) عكرم: يا عكرم: منادى مُرَخم، حذفت منه تاؤه.
(٢) الظَّليم: ذكر النعام.
(٣) فُرْعل: صغير الضباع.
(٤) انظر قصة المنافرة في السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٥٦٢ ـ ٥٦٥).

فقام ثابت: فألقى خطبة فخر فيها بالنبي ﷺ، وذكر فضائل المهاجرين والأنصار، لإيمانهم بالرسالة، ونصرتهم لها. ثم قام الزبرقان بن بدر، شاعر الوفد، فأنشد قصيدة جاء فيها:

أتيناك كيما يعلمَ الناسُ فَضْلنا ... إذا احتفلوا عند احتضار المواسم[1]

بأنا فروع الناس في كلِّ موطنٍ ... وأنْ ليس في أرض الحجاز كدارم[2]

وأنّا نذودُ المُعْلمينَ إذا انتخوا ... ونضرب رأس الأصيد المتفاقم[3]

وأنَّ لنا المرباغَ في كلِّ غارةٍ ... نُغِيرُ بنجْدٍ أو بأرض الأعاجم

... فقام حسان بن ثابت فأجابه: فقال مما قال:

نصرنا وآوينا النبيَّ محمداً ... على أنْفِ راضٍ منْ مَعَدٍّ وراغِم

نصرناه لما حلَّ وسْطَ ديارنا ... بأسيافنا من كلِّ باغٍ وظالم

جَعَلْنا بنينا دونه وبناتنا ... وطبْنا له نفساً بفيء المغانم

ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا ... على دينه بالمرهفات الصوارم[4]

ونحن ولدْنا من قريشٍ عظيمها ... ولدْنا بني الخير من آل هاشم[5]

بني دارم لا تفخروا إنَّ فخركم ... يعود وبالاً عند ذكْر المكارم

فإن كنتُم جئتمْ لحقن دمائكم ... وأموالكم أنْ تقسموا في المقاسم

فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا ... ولا تَلْبَسُوا زِيًّا كزِيّ الأعاجم

---

(١) المواسم: جمع موسم، وهو الموضع الذي يجتمع فيه الناس مرة في السنة، كاجتماعهم في الحج واجتماعهم بسوق عكاظ، وذي المجاز.

(٢) دارم: من بني تميم.

(٣) المُعْلمون: الذين يُعْلمون أنفسهم في الحرب بعلامة يعرفون بها. والمتفاقم: المتعاظم، من تفاقم الأمر إذا عَظُم واشتدَّ.

(٤) المرهفات الصوارم: السيوف القاطعة.

(٥) يشير بهذا البيت إلى أنَّ أم عبد المطلب، جد النبي ﷺ كانت من الأنصار.

فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله: قال الأقرع بن حابس: وأبـي، إن هذا الرجل لمُؤتًّى له (موفق له) لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أحلى من أصواتنا. فلما فرغ القوم أسلموا، وجوّزهم رسولُ الله فأحسنَ جوائزهم».

ثانياً ــ الشعارات، وصيحات القتال: وهي من صور الجهاد باللسان التي اتخذها المسلمون لتحقيق عدة أهداف، كالتعارف أثناء الالتحام بالأعداء أو في الظلام، ومنها إثارة انفعالات الشجاعة والحماسة في نفوسهم، مع إخافة العدوّ وبث الرهبة في قلبه.

ومن أمثلة الشعارات التي استخدمها المسلمون في العصر النبوي «أحد أحد» في غزوة بدر. و «يا منصور أمت» في غزوة بني المصطلق. ويوم حنين «حم لا ينصرون».

ثالثاً ــ الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة: ومن ذلك ما رواه البخاري «لماكان يوم الأحزاب قال: قال رسول الله ﷺ: ملأ اللَّهُ بيوتهم وقبورهم ناراً. .». والدعاء: دليل قوة، لا دليل ضعف، لأن المسلم يتقرّب إلى الله القويّ، ويعتمد عليه بعد اتخاذ الأسباب.

رابعاً ــ التكبير عند الحرب: لما روي البخاري عن أنس قال: «صبَّح النبي ﷺ خيبر، وقد خرجوا بالمساحي على أعناقهم، فلما رأوه قالوا: محمد والخميس، محمد والخميس فلجئوا إلى الحصن، فرفع النبيُّ ﷺ يديه وقال: «الله أكبر خربتْ خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحُ المُنْذَرين».

خامساً ــ الرجز في الحرب: قال ابن حجر في [الفتح ٦/١٦١] الرجز: من بحور الشعر على الصحيح وجرت عادة العرب باستعماله في الحرب ليزيد في النشاط ويبعث الهمم.

وثبت أن الرسول عليه السلام، كان يرتجز برجز عبد الله بن رواحة يوم الخندق، وكان يقول:

اللهمَّ لـولا أنـت مـا اهتـدينـا ولا تصـدَّقْنـا ولا صلّينـا
فـأنـزلـنْ سكينـةً علينـا وثبّـت الأقـدامَ إن لاقينـا
إن الأعـدا قـد بَغَـوْا علينـا إذا أرادوا فتنـةً أبينـا

سادساً ــ البشارة بالنصر قبل عودة الجيوش: ومن هذا، ما كان بعد غزوة بدر، فلما تم النصر للمسلمين، أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة، ليعجّل لهم البشرى، فأرسل عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية. وأرسل زيد بن حارثة بشيراً إلى أهل السافلة.. وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا في المدينة بإشاعة الأكاذيب فلما بلغ الرسولان المدينة أحاط بهما المسلمون وأخذوا يسمعون منهما خبر المعركة حتى تأكّد لديهم نصرُ الله المسلمين فعمّت البهجة والسرور، واهتزت أرجاء المدينة تهليلاً وتكبيراً، وتقدم رؤوس المسلمين الذين كانوا بالمدينة إلى طريق بدْر ليهنئوا رسول الله ﷺ بهذا الفتح المبين.

٦ ــ نُظُم القضاء والحقوق:

هذا باب شامل جامع، والأحاديث النبوية والآثار المروية فيه، تحكي واقعاً طبقت فيه الأحكام، وساد فيه العدل.. وكلُّ ما جاء عن الصحابة والتابعين، وما فرعه الفقهاءُ فيما بَعْدُ، مبني على الأصول العملية التي طبقت في العصر النبويّ:

وانظر في «القضاء، والقاضي» كتاب «الأحكام» من صحيح البخاري.

وانظر أيضاً «كتاب الخصومات» وكتاب «المظالم والغصب» وكتاب «الرهن» وكتاب «الشهادات». وكتاب «الصلح» وكتاب «الشروط» وكتاب «الوصايا». وكتاب «الهبة» وكتاب «الاستقراض» وكتاب «الفرائض ــ المواريث» وكتاب «الحدود» وكتاب «الديات».

وانظر الباب الثاني من هذا الكتاب (المدينة في عهد عمر بن الخطاب) واتخاد القاضي.

٧ ـــ نُظُم الإدارة والمنافع العامّة:

(أ) **الإمارة**: أرسل الله محمداً ﷺ: هادياً، ومعلماً وإماماً. والإمام: هو وليّ أمر المسلمين، وهو أميرهم، وقائدهم، وراعيهم، وهو الذي يحكم بينهم بما أنزل الله.

فإذا كان رسول الله ﷺ، مع المسلمين، في سفر، أو إقامة، كان هو الإمام والقائد. وإذا غاب عن المدينة في سفر، استخلف بعده أميراً على الناس وإذا أرسل سريّة أمّر عليها أحدهم...

ولذلك فقد جعل الإمارة سنةً لا يخلو مجتمع منها، صَغُرَ المجتمع أم كبر، فقال عليه السلام: «إذا خرج ثلاثةٌ في سفر، فليؤمروا عليهم أحدهم» [رواه أبو داود برقم ٢٦٠٨].

وقال عليه السلام: «لا يحلُّ لثلاثة نَفَرٍ يكونون بأرض فلاةٍ إلا أمّروا عليهم أحدهم» [رواه أحمد ٢/ ١٧٧ عن عبد الله بن عمرو].

وقرر القرآن وجوب إطاعة وليّ الأمر، فقال تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[1]. وقال ﷺ: «مَنْ أطاعني فقد أطاع الله، ومَنْ

---

(١) قوله تعالى: ﴿أطيعوا الله * وأطيعوا الرسول﴾ أعاد العامل (الفعل) في الرسول ثم قال: ﴿وأولي الأمر منكم﴾ ولم يُعد العامل في «أولي الأمر». مع أن المطاع في الحقيقة هو الله تعالى، لأن الذي يُعرف به ما يقع به التكليف هما القرآن والسُّنَّة. أو المعنى: أطيعوا الله فيما يأمركم به من الوحي المتعبد بتلاوته، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحي الذي ليس بقرآن. قال ابن حجر: «ومن بديع الجواب، قول بعض التابعين لبعض الأمراء من بني أُمية، لما قال له: أليس الله أمركم أن تطيعونا في قوله: ﴿وأولي الأمر منكم﴾. فقال له: أليس قد نُزعتْ عنكم الطاعة، إذا خالفتم الحقَّ بقوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله﴾. وقال آخرون: «أعاد الفعل في قوله ﴿وأطيعوا الرسول﴾ إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة، ولم يُعدْه في ﴿أولي الأمر﴾، إشارة إلى أنه يوجد فيهم مَنْ لا تجب طاعته، ثم بين ذلك بقوله: ﴿فإن تنازعتم =

عصاني فقد عصى الله، ومَنْ أطاع أميري فقد أطاعني، ومَنْ عصى أميري فقد عصاني» [البخاري ـ أول كتاب الأحكام].

ولكن طاعة الأمير مقيّدة بأن تكون في غير معصية الله؛ لقول الرسول عليه السلام «السمعُ والطاعةُ على المرء المسلم فيما أحبَّ وكره، ما لم يُؤمرْ بمعصية فإذا أُمر بمعصية، فلا سَمْعَ ولا طاعة». رواه البخاري [ك الأحكام ب ٤] وروى البخاريُّ أيضاً عن عليّ رضي الله عنه قال: «بعثَ النبيّ ﷺ سريةً وأمَّر عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب عليهم وقال: أليس قد أمر النبيّ ﷺ أنْ تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: قد عزمتُ عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً، ثم دخلتم فيها. فجمعوا حطباً فأوقدوا ناراً، فلما همّوا بالدخول، فقاموا ينظر بعضهم إلى بعض، فقال بعضهم: إنما تبعنا النبيّ ﷺ فراراً من النار، أفندخلُها؟ فبينا هم كذلك إذْ خمدت النار، وسكن غضبه فذكر للنبي ﷺ

= في شيء﴾ كأنه قيل: فإن لم يعملوا بالحق فلا تطيعوهم، وردوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله».

ونقل ابن حجر في سبب نزول الآية، وحديث رسول الله «كانت قريش ومَنْ يليها من العرب لا يعرفون الإمارة، فكانوا يمتنعون على الأمراء، فقال هذا القول يحثهم على طاعة مَنْ يؤمرهم عليهم والانقياد لهم إذا بعثهم في السرايا وإذا ولاهم البلاد، فلا يخرجوا عليهم لئلا تفترق الكلمة».

ولعلّ ما كان عليه العرب في جاهليتهم ـ من عدم الانقياد لأمير أو زعيم لا يربطهم به نسب ـ أحد بواعث الردّة، بعد وفاة النبيّ ﷺ، والتي عبّر عنها الحطيئة فيما نُسب إليه:

أطعنا رسول الله إذْ كان حاضراً	فيا لهفتي ما بالُ دين أبي بَكْرِ
أيورثُها بكراً إذا مات بَعْده	فتلك وبيتِ الله قاصمة الظهر

.. ولكن ليس لأبي بكر ولد اسمه «بكر» فهل كان الحطيئة يجهل ذلك. وقد استشهدتُ بالبيتين للمعنى فقط، ولم أقصد صحة نسبة البيتين وقد سبق أن قلتُ: إن الشعر الذي قيل في صدر الإسلام كثير، ولكنه منقول أكثره عن رواة الشعر والتاريخ، وليس لهؤلاء شروط تصحح نسبة الشعر إلى قائله.

فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف».

وفي الواقع التاريخي: كان النبيّ ﷺ يستخلف على المدينة إذا خرج عنها للغزو، أو غيره. فقد جاء في «الإصابة» «وكان النبيّ ﷺ يستخلف عبد الله ابن أم كتوم على المدينة، في عامة غزواته يصلي بالناس». وقال ابن عبد البرّ: روى جماعة من أهل العلم بالنسب والسير أن النبيّ ﷺ استخلف ابن أم مكتوم ثلاث عشرة مرّة. وذكر أسماء الغزوات التي استخلف فيها.

واستخلف رسول الله ﷺ: محمد بن مسلمة الأنصاري، في غزوة تبوك. وقيل: بل استخلف عليّ بن أبي طالب.

وفي ترجمة جعّال بن سُراقه الضمري، أنه استخلف على المدينة في غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ست.

وفي ترجمة سباع بن عرفطة الغفاري، قال أبو هريرة: قدمت المدينة، والنبيّ ﷺ بخيبر، وقد استخلف على المدينة سباع بن عرفطة، فشهدنا معه الصبح، وجهرنا، فأتينا النبيّ ﷺ بخيبر.

وفي ترجمة أبي رهم الغفاري (كلثوم بن الحصين): أن رسول الله استخلفه على المدينة مرتين، مرة في عمرة القضاء، وكان ممن بايع قبل ذلك تحت الشجرة ثم استخلفه أيضاً على المدينة عام الفتح، فلم يزل عليها حتى انصرف رسول الله ﷺ من الطائف...

أما أمراء السرايا والبعوث، فهم كُثُر: فقد عدَّ ابن إسحق ستاً وثلاثين وعدَّ الواقدي ثمانيَ وأربعين، وعد ابن الجوزي ستاً وخمسين، وعدَّ المسعودي ستين، وأوصلها بعضهم إلى مئة سرية. وكان لكل بعث أو سرية قائد، أو أمير، كثيراً ما تضاف السريّة إليه: منها:

سرية حمزة بن عبد المطلب في السنة الأولى من الهجرة إلى العيص.

وسرية عبيدة بن الحارث في السنة الأولى من الهجرة إلى رابغ.

وسرية سعد بن أبي وقاص في السنة الأولىٰ إلى الخرّار.

وسرية عبد الله بن جحش الأسدي في السنة الثانية إلى بطن نخلة.

وسرية عُمير بن عديّ في السنة الثانية.

وسرية سالم بن عمير في السنة الثانية إلى أبي عفك اليهودي...

[انظر طبقات ابن سعد جـ ٢].. فليس هدفنا الاستقصاء، وإنما أردنا الشواهد لوجود الأمراء على السرايا والبعوث.

(ب) **المنهج النبويّ في تربية القادة والأمراء**: قال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[2]. وقال تعالى: ﴿يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين، وكان الله بكل شيء عليماً﴾[4].

وقال الله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً * محمد رسول الله والذين معه أشدّاءُ على الكفار رُحماءُ بينهم، تراهم ركَّعاً سُجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شَطْأَه، فآزره فاسْتَغْلَظَ فاستوىٰ على سوقه يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وَعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾[5]. وقال اللَّهُ تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغتَ

(١) [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧].

(٢) [سورة سبأ: الآية ٢٨].

(٣) [سورة الأحزاب: الآيتان ٤٥ ــ ٤٦].

(٤) [سورة الأحزاب: الآية ٤٠].

(٥) [سورة الفتح: الآيتان ٢٨ ــ ٢٩].

رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾[1].

نستفيد من مجموع هذه الآيات:

١ ـ أن الرسالة المحمديّة جاءَت للعالمين، وليست خاصة، يدل عليها قوله في الآية التالية «إلا كافة للناس».

٢ ـ وأن رسول الله يدعو إلى دين الله، ويبشر المؤمنين بالخير، وينذر الكافرين بالهلاك.

٣ ـ وأن الرسالة الإسلامية خاتمة الرسالات، فلا رسول، ولا رسالة بعد محمد ﷺ.

٤ ـ وجوب تبليغ الرسالة إلى الناس.

٥ ـ إن الدين الإسلامي سيغلب الأديان كلها، ويعلو عليها.

٦ ـ فيها وَعْدٌ بأن الفتوحات الإسلامية ونشر الدين سوف يستمر بعد وفاة النبيّ ﷺ. وفيها توكيد لما وعد الله به من الفتح، وتوطين لنفوس المؤمنين على أن الله تعالى سيفتح لهم من البلاد ويفيض لهم من الغلبة على الأقاليم، ما يستقلون إليه فتح مكة.

٧ ـ في قوله تعالى: ﴿كزرع أخرج شَطْأَه﴾.. الآية هذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم، لأن النبيّ ﷺ قام وحده، ثم قوّاه الله بمن آمن معه، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع، ما يحتفّ بها مما يتولّد منها حتى يعجب الزرّاع. وقوله تعالى: ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ تعليل لما دلّ عليه تشبيههم (أي الصحابة) بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوّة.

.. وملخص ما سبق: أن هناك رسالة سماوية، ونبياً مرسلاً، ودعوةً عامة باقية، ولا بدَّ من تبليغ الدعوة إلى مَنْ لم يكونوا حاضري نزول الوحي في

---

(١) [سورة المائدة: الآية ٦٧].

المكان والزمن.. ولذلك لا بدَّ من تلاميذ، ودعاة، وأنصار يقومون بالتبليغ في الأقاليم البعيدة عن منزل الوحي، واستمرار التبليغ ليشمل العالم كلَّه...

وهؤلاء الدعاةُ والأنصار في طبقات، وأولى طبقاتهم أصحاب النبي ﷺ...

ولذلك كان رسول الله ﷺ: قائداً، ومعلماً، وصاحب مدرسة ورسالة جَعَل على رأس اهتماماته إعداد الصحابة للقيادة وتعهدهم بالتدريب والتوجيه. ومن ذلك أن يفوّض إليهم بالمهام ويسند إليهم القيادة في غيابه وهو مطمئن إلى قدرتهم على النهوض بأعبائها، ويتحدث عنهم ويفخر بهم.

وفي هذا السبيل، روت لنا كُتب السنَّة المعالم الرئيسة للمنهج النبوي في تربية القادة، أذكر منها:

أولاً: غرس روح القيادة في نفوس المسلمين جميعاً، وذلك في الحديث الجامع الذي رواه البخاري عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الأعظم الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده، وهي مسؤولة عنهم، وعَبْدُ الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راعٍ وكلكُم مسؤول عن رعيته» [رواه البخاري في كتاب الأحكام ب ١].

والراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما أُؤتُمِنَ على حفظه، فهو مطلوب بالعدل فيه والقيام بمصالحه.

قال الخطابيُّ: اشترك الإمامُ والرجل، ومَنْ ذكر في التسمية في الوصف بالراعي ومعانيهم مختلفة.

وقال غيره: في هذا الحديث أن الراعي ليس مطلوباً لذاته، وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه المالك، فينبغي ألا يتصرف إلا بما أذن فيه الشارع. قال: وهو

تمثيل ليس في الباب ألطف ولا أجمع منه ولا أبلغ، فإنه أجمل أولاً ثم فصَّل وأتى بحرف التنبيه مكرراً، وختم بما يشبه الفذلكة إشارة إلى استيفاء التفصيل. وقال آخر: دخل في هذا العموم في قوله: «ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» المنفرد الذي لا زوج له ولا خادم ولا ولد، فإنه يصدق عليه أنه راع على جوارحه حتى يعمل المأمورات ويجتنب المنهيات فعلاً ونطقاً واعتقاداً، فجوارحه وقواه وحواسه رعيته.

قال: ولا يلزم من الاتصاف بكونه راعياً ألا يكون مرعياً باعتبار آخر.

.. قلتُ: هذا غرس روح القيادة التي تتحمل المسؤولية عن كل ما يناط بها وهي تربية فريدة في توزيع المهام بين أفراد الأمّة.

ثانياً: الإشادة بصفات الأصحاب، ومدحهم، والتنويه بأعمالهم: فقال الرسول عليه السلام في أبـي بكر رضي الله عنه «لو كنتُ متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر، ولكن أخي وصاحبـي» وقال عليه السلام: «سدّوا الأبواب إلا باب أبـي بكر».

وقال عليه السلام في عمر بن الخطاب: «إيهاً يا بن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً قطُّ إلا سلك فجّاً غير فجّك» وقال عليه السلام في عمر «فلم أر عبقريّاً يفري فريّه».

ويتصدق عثمان بن عفّان لتجهيز جيش العسرة، فيمدح رسول الله فِعْلَه ويخصه من بين عشرة بشرهم بالجنة.

وقال عليه السلام لعليّ بن أبـي طالب: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى».

وقال عليه السلام: «إن لكلِّ نبـيّ حوارياً وإن حواريَّ الزبير بن العوّام».

وقال عليه السلام: «إنَّ لكل أمةٍ أميناً وإنَّ أميننا أيّتها الأُمّة أبو عبيدة بن الجرّاح».

وعرف رسول الله ﷺ مناقب أصحابه، وما فطرهم الله عليه، وما أعدّوا

أنفسهم له فأشاد بهذه المناقب، وكأنه يذكر في كلّ رجل ما قدّره الله عليه من المواهب: فعمر: هو الفاروق، وحمزة: أسد الله، وخالد: سيف الله، وأبو عبيدة: أمين الأمة والزبير: حواري رسول الله، وذكر معلمي القرآن فقال عليه السلام: «استقرئوا القرآن من أربعة، من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبـي حذيفة، وأُبـيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل».

وخصَّ أبا موسى فقال النبـيّ ﷺ: «يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» إشارة إلى حسن صوته بقراءَة القرآن.

ومدح الأنصار بعامّة، فقال عليه الصلاة والسلام: «لو أنَّ الأنصار سلكوا وادياً أو شِعْباً لسلكتُ في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار» قال أبو هريرة، راوي الحديث: ما ظلم ــ بأبـي وأمي، آووه ونصروه. وذكر فَضْل دور الأنصار فقال عليه الصلاة والسلام: «خير دور الأنصار بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة وفي كلٍّ دور الأنصار خير».

ومدح أهل بَدْرٍ وبشّرهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «لعلَّ الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبتْ لكم الجنة، أو فقد غفرتُ لكم».

.. والأصل في ذلك، أن الله تعالى مدح المؤمنين العاملين، ووعدهم خيري الدنيا والآخرة ومثال هذا، ما جاء في سورة الفتح في غزوة الحديبية، فقال تعالى: ﴿لقد رضي اللَّهُ عن المؤمنين إذْ يُبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ❋ ومغانم كثيرة يأخذونها، وكان الله عزيزاً حكيماً ❋ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجَّل لكم هذه، وكفَّ أيدي الناس عنكم، ولتكون آيةً للمؤمنين، ويهديكم صراطاً مستقيماً ❋ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا﴾ [الفتح: ١٨ ــ ٢١].

وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة التي وعد الله المؤمنين بها: فقال ابن عباس: هي: خيبر. وقال الضحاك وقتادة: هي مكة. وقال الحسن البصري: هي فارس والروم. وقال مجاهد: هي كلُّ فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وقول الحسن البصري: هي فارس والروم: لعله قريب من مراد الآية. لأن خير الدنيا العميم الذي ناله الصحابة، جاء بعد فتح فارس والروم، ولعلَّ الله جعل وعده مكافأة للصحابة الذين صبروا مع رسول الله ﷺ، ولعلّه أيضاً إعداد نفسي للصحابة، لأنهم سيكونون القادة المبلغين بعد النبيّ ﷺ والله أعلم.

ثالثاً: أن يكون الأمير ناصحاً لمن يرعاهم؛ ساهراً على مصالحهم: قال النبيّ ﷺ: «ما من أميرٍ يلي أمور المسلمين ثم لا يجتهد لهم ولا ينصح لهم إلا لم يدخل الجنة» [رواه مسلم].

وقال عليه السلام: «ما من عَبْدٍ يسترعيه الله رعيّةً فلم يحطها بنُصْحه لم يجد رائحة الجنة» [رواه البخاري ك ٩٣ باب ٨].

وقال عليه السلام: «ما من والٍ يلي رعيّة من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرَّم الله عليه الجنة». وفي هذا المعنى قال الشاعر محمد بن يزداد وزير المأمون العباسي:

مَنْ كان حارس دنيا إنّه قَمِنٌ ... أنْ لا ينامَ وكلُّ الناس نُوّام
وكيف ترقدُ عينا مَنْ تضيّقه ... همَّان من أمره حَلٌّ وإبرامُ

رابعاً: إسناد الأعمال إلى الصحابة في حياة النبيّ ﷺ، لتدريبهم على القيادة تحت رعاية المُعَلّم والقائد محمد ﷺ: وقد ظهر هذا في تولية الصحابة قيادة السرايا، وبعثهم معلمين إلى الآفاق، مثل معاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري وعليّ بن أبي طالب، حيث ولاهم نواحي من اليمن.

خامساً: قرر رسول الله ﷺ، وجوب وجود قائد للجماعة حتى ولو كانت

صغيرة، فقال عليه السلام: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم أحدهم» [رواه أبو داود]. وفي هذا، يحقق رسول الله ظاهرة اجتماعية ذات جذور عميقة تتصل بطبيعة الإنسان وتراثه الثقافي ومشاركته مَنْ حوله في مجتمعه. فالوجود المشترك لرجلين أو أكثر يخلق نوعاً من الحاجة إلى مَنْ ينظم العلاقات القائمة بينهم، وفي هذه الحال يتولى أحدهم القيادة وقديماً قال الشاعر الأفوه الأودي.

لا يصلح الناسُ فوضى لا سَرَاة لهم ولا سَـــراةَ إذا جُهّـــالُهـــم ســـادوا

سادساً: حقّ القائد في الطاعة، أي: طاعة المرؤوسين له. وحكمة الطاعة تكمن في أنها لصالح الجماعة، لأنَّ القائد يقود الجماعة لتحقيق هدفها، ولا يستقيم ذلك إلا بطاعة أفراد الجماعة لأوامره. فقال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عَبْدٌ حبشي» [رواه البخاري] وقرّر أن الطاعة التي يريدها الإسلام ليست عمياء، بل هي الطاعة الواعية البصيرة، حيث قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق إنما الطاعة في المعروف» [متفق عليه].

سابعاً: المشاورة: وصف اللَّهُ المؤمنين فقال: ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾ [الشورى: ٣٨].

وأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يشاور أصحابه، فقال تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنتَ لهم ولو كنتَ فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفرْ لهم وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ قال المفسرون: يعني في الحرب ونحوه مما لا ينزل عليك فيه وحي، لتستظهر برأيهم، ولما فيه من تطييب نفوسهم والرفع من أقدارهم. قال الحسن: قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة، ولكنه أراد أن يستنَّ به مَنْ بَعْده. وفي الحديث: «ما تشاور قومٌ قطُّ إلا هُدوا لأرشد أمرهم».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيتُ أحداً أكثر مشاورة من أصحاب الرسول ﷺ»[1] [الكشاف ــ سورة آل عمران].

وقال ابن كثير: كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطييباً لقلوبهم، ليكون أنشط لهم فيما يفْعَلون، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك.. ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون ولكن نقول: اذهب فنحن معك، وبيْن يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون.

وشاورهم أيضاً: أين يكون المنزَلُ، حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم.

وشاورهم في أُحد، في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم.

وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذٍ، فأبـى ذلك السَّعْدانِ: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فترك ذلك.

وأشار سلمان الفارسيّ بحفر الخندق، فأمر الرسول بحفره.

وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين الذين أعانوا قريشاً، فقال له الصدّيق: إنّا لم نجيءْ لقتال أحدٍ وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال. [انظر حديث غزوة الحديبية في صحيح البخاري، من كتاب المغازي، باب ٣٥].

---

(١) نقل ابن حجر [في الفتح ٥/٣٣٤٥]: قال معمر: قال الزهري: «وكان أبو هريرة يقول: ما رأيتُ أحداً قطُّ كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ». وهو مرسل، لأن الزهري لم يرو عن أبـي هريرة. ومعنى الرواية الأولى صحيح. فقد كان الخلفاءُ الراشدون إذا حدث أمر جمعوا كبار الصحابة وعرضوا عليهم الأمر.

ثامناً: المُسْلِمُ لا يَطْلُبُ الإمارة: جاءَت أحاديث صحيحة تنفّر المسلمين من طلب الإمارة، منها عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي النبيّ ﷺ: «يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكِلَت إليها، وإن أُعطيتَها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبيّ ﷺ قال: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة».

وعن أبي موسى الأشعري قال: «دخلتُ على النبيّ ﷺ أنا ورجلان من قومي، فقال أحد الرجلين: أمّرنا يا رسول الله، وقال الآخر مثله، فقال: إنّا لا نولّي هذا الأمر مَنْ سأله ولا مَنْ حَرَص عليه».

.. ولكن ما الحكمة في هذا التنفير من الإمارة، وما وجه التربية فيها؟ وما أثر هذا التوجيه في صحابة رسول الله، وأعلام التابعين، وتابعيهم؟ في الجواب عن هذه الأسئلة يمكن أن نسجّل ما يأتي:

١ ــ إن كثيراً من الصحابة والتابعين كرهوا تولي منصب «الحُكْم» ويدخل تحت باب الحكم: الإمارة، والقضاء، ولم يطلب الخلفاءُ الراشدون الإمارة.

فأبو بكر الصديق رضي الله عنه، دفع الإمارة عن نفسه يوم السقيفة، فقال: «بايعوا عُمَرَ أو أبا عبيدة» فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله، فأخذ عُمَرُ بيده، فبايعه، وبايعه الناس.

فأبو بكر لم يطلب الإمارة، ثم قبلها عندما أُعطيها.

وعُمَرُ بن الخطاب: لم يطلب الإمارة وإنما أُعطيت له، ولم يكن يسعى إليها، لأنه أوصى أن يحضر ابنه عبد الله، أهل الشورى، على ألاَّ يكون له نصيب في الإمارة وعندما انعقد مجلس الشورى إثر وفاة عمر بن الخطاب: قال عبد الرحمن بن عوف اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، وكانوا ستة نفر. فقال الزبير: جعلتُ أمري إلى عليّ، وقال طلحة: جعلتُ أمري إلى عثمان، وقال سعد: جعلتُ أمري إلى عبد الرحمن بن عوف.

وجَعْلُ الصحابي الأمرَ إلى أخيه، معناه تنازله عن حقه في الإمارة. . وإذا كان هؤلاء الصحابة قد نزلوا عن سدس ٦/١ حقهم، فإن عبد الرحمن بن عوف أصبح واحداً من ثلاثة، فنزل عن حقّه، وقصر الشورى على عثمان وعليّ.

وعبد الرحمن بن عوف كره الإمارة مرّة أُخرى أيضاً في زمن عثمان، لما رُوي أن عثمان مرض، فكتب العهد لعبد الرحمن بن عوف، ولم يطلع عليه إلا حمران مولى عثمان، ثم أفاق عثمان، فأطلع حمرانُ عبد الرحمن على ذلك، فعاتب عبد الرحمن عثمان في ذلك [تهذيب التهذيب ـ ترجمة حمران بن أبان].

وسعد بن أبي وقاص اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان، وجاءَه ابن أخيه هاشم بن عتبة فقال: «هاهنا مئة ألف سيف يرونك أحقّ بهذا الأمر، فقال: أريد منها سيفاً واحداً، إذا ضربتُ به المؤمن لم يصنع شيئاً وإذا ضربتُ به الكافر قطع».

ومن التابعين، معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، بويع بدمشق بعد وفاة أبيه سنة ٦٤هـ وشعر بالضعف وقرب الأجل، فأمر، فنودي: الصلاةَ جامعةً، فاجتمع الناس، فوقف خطيباً، فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: «أمّا بَعْدُ فإني قد ضعفتُ عن أمركم، فابتغيتُ لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجد، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجد، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له مَنْ أحْبَبْتُم».

ومن التابعين عمر بن عبد العزيز، تولى الخلافة وكان كارهاً [انظر ط ابن سعد ٥/ ٣٣٠].

. . وفي تاريخ القضاء أمثلة كثيرة لامتناع عدد من الأعلام عن قبول وظيفة القضاء.

٢ ـ يظهر من الروايات التي نُقلتْ عن الأعلام، أن مَنْ كره الإمارة أو القضاء، إنما كرهه خشية الوقوع في الخطأ، ولأن الأمير مسؤول عن كل ما يقع في إمارته أمام الله.

٣ ـ يظهر من حكمة منع مَنْ يطلب الإمارة أن يتولاها: لأن طالب الإمارة، قد طلبها ولم تبرز أهليته لتولي الإمارة، ولو برزت الأهلية وعرفها الناس، لاحتاجوا إليها وولوا صاحبها عليهم، أو كما يقال: إن الإمارة تأتي إلى صاحبها، كما قال أحدهم:

أتتـــه الإمـــارةُ منقـــادةً إليـــه تجـــرر أذيـــالهـــا
فلـــم تكُـــن تصلـــح إلا لـــه ولـــم يكُـــن يصلـــح إلا لهـــا

إن مَنْ يطلب الإمارة، وهو حريص عليها، يكون متشبثاً بها، فإذا عُزِل عنها لم يفرط فيها وربما أدّى ذلك إلى فتنة وقتال. فالحرص على الولاية هو السبب في اقتتال الناس عليها حتى سفكت الدماء واستبحيت الأموال وعظم الفساد في الأرض بسبب ذلك.

تاسعاً: هناك شرطان يجب توفرهما في الأمير: الأول توافر صفات القيادة وقدرته على التأثير في غيره، لأنهما دليل كفاءة القائد.

والثاني: أن يحبه مرؤوسوه.. وهذان العنصران لهما علاقة قوية بشرط الطاعة لأنها الطاعة المقرونة بالثقة والاحترام، والولاء والتعاون، وهذا لا يتأتى للقائد الذي تنقصه الكفاءة والذي لا يحبه مرؤوسوه.

أما الحب: فدليله: ما رواه أبو داود وابن ماجه، عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ لا يقبل الله منهم صلاةً: مَنْ تقدم قوماً وهم له كارهون... الحديث».

وروى الترمذي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثةٌ لا تجاوز صلاتُهم آذانهم.. وعدّ منهم «وإمام قوم وهم له كارهون».

وعند ابن ماجه عن ابن عباس؛ مرفوعاً «ثلاثةٌ لا ترتفع صلاتُهم فوق رؤوسهم شبراً: رجلٌ أمَّ قوماً وهم له كارهون».. الحديث.

قال الشوكاني في [نيل الأوطار ١/١٧٧]: «وأحاديث الباب، يقوي بعضها بعضاً فينتهض للاستدلال بها على تحريم أن يكون الرجلُ إماماً لقوم يكرهونه، ويدل على التحريم نفي قبول الصلاة وأنها لا تجاوز آذان المصلين، ولَعْن الفاعل لذلك. وقد ذهب إلى التحريم قوم وإلى الكراهة آخرون».

والإمامة في الصلاة، كان لا يقوم بها إلا الأمير أو القائد.

وفي الباب أيضاً، روى الإمام مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي قال رسول الله ﷺ: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشِرارُ أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم». وقوله: تصلون عليهم ويصلون عليكم: أي: تدعون لهم ويدعون لكم.

وشاهد الأهلية والكفاءة: ما رواه مسلم عن أبي ذر قال: قلتُ: يا رسول الله ألا تستعملني؛ قال: «إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا مَنْ أخذها بحقِّها وأدى الذي عليه فيها».

قال النووي: «هذا أصل عظيم في اجتناب الولاية ولا سيما لمن كان فيه ضعف وهو في حقّ مَنْ دخل فيها بغير أهليه ولم يعدل فإنه يندم على ما فرط منه، إذا جوزي بالخزي يوم القيامة، وأما مَنْ كان أهلاً وعدل فيها، فأجره عظيم، كما تظاهرت به الأخبار».

وفي رواية عن أبي ذر «أن النبي ﷺ قال له يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحبُّ لك ما أُحبُّ لنفسي، لا تُؤَمّرَنّ على اثنين، ولا تَلِيَنَّ مال اليتيم». والمقصود أن رسول الله يراه ضعيفاً لا يقوى على ممارسة القيادة وعلى إدارة مال اليتيم، وقد فُسّر ضعف أبي ذر، بضعفه عن القيام بوظائف الولاية، والعجز عن تنفيذ أمورها ورعاية حقوقها وذلك لأن الغالب في أبي ذر، الزّهد، واحتقار الدنيا والإعراض عنها.

والظاهر من السيرة النبوية، وسيرة الخلفاء الراشدين، أن الأمراء، والقوّاد

لم يكن يُراعى في توليتهم الأفضل في الدين، والأسبقية إلى الإسلام، والأكثر علماً وفقهاً بل تُضَمُّ إلى ذلك مزيد المعرفة بالسياسة، واعتبارات أخرى:

ولذلك فإنَّ رسول الله ﷺ، ولّى عتاب بن أُسيد على مكة وإقامة الموسم والحج بالمسلمين سنة ثمان، وكان عتاب دون العشرين أو حولها، أو فوقها بقليل. وعندما أسلم باذان، نائب كسرى على اليمن، ولاه رسول الله على جميع مخاليف اليمين، وكان منزله بصنعاء، وبقي حتى مات بعد حجة الوداع فولّى النبيُّ ﷺ ابنه شهر بن باذان على صنعاء. وولّى رسول الله أبا سفيان بن حرب ــ وقد أسلم عام الفتح ــ على ناحية من نواحي اليمن.

وولّى رسولُ الله ﷺ أسامة بن زيد ــ وهو أحد الموالي، وكان صغير السن ــ قيادة جيش كان فيه أبو بكر وعمر وغيرهما من كبار الصحابة، وقد شهد له النبيُّ ﷺ بأنه خليق بالقيادة، عندما طعن الناسُ في إمارته فقال عليه السلام: «إنْ تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قَبْل ــ في غزوة مؤتة ــ وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة» [رواه البخاري في كتاب الأحكام]. . .

والخلاصة أن النبي ﷺ، كان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ويختار لكل مهمة مَنْ يناسبها.

عاشراً: أثر التربية النبويّة في تخريج القادة: لقد بلغ عدد قادة الفتح الإسلامي ستة وخمسين ومائتي قائد، (٢٥٦) منهم ستة عشر ومائتان (٢١٦) من أصحاب النبي ﷺ، وأربعون من التابعين بإحسان. .

هؤلاء القادة الذين تخرجوا في مدرسة القيادة الإسلامية، هم الذين حملوا رايات المسلمين شرقاً وغرباً، وهم قادة فتح العراق والجزيرة، وقادة فتح فارس، وقادة فتح الشام ومصر، وقادة فتح المغرب العربي، وقادة فتح المشرق الإسلامي، وقادة فتح الأندلس، وقادة الأساطيل البحرية الإسلامية ومما يدلُّ على نجاح التربية النبويّة، وتأثيرها في الصحابة، ثم انتقال الأثر إلى التابعين، هو

نجاح القادة في فتوحاتهم، وشدة تأثيرهم في البلاد المفتوحة مما خلّد هذا الأثر بعد وفاة الفاتحين.. وقد كان للدعوة الإسلامية التي حملوها أثرها البالغ، ولكن هذه الدعوة قد أثرت أيضاً، بفعل القادة الذين نشروها، لأن التزام الداعية القائد بما يدعو إليه، يكون له أكبر الأثر في نشر الدعوة، بعد توفيق الله تعالى.

(جـ) **الراية، والعلم، واللواء**: فرّق بعض العلماء بين الراية والعلم واللواء، وجعلها بعضهم مسميات لشيء واحد. وقد جاءَت في الأحاديث بالألفاظ الثلاثة. وربما كان اللواء، وهو العلم، خاصاً بالأمير، أو الإمام والراية تكون لصاحب الحرب.. ومهما كان الأمر، فقد ثبت أن لرسول الله رايةً أو لواءً، يُحمل عند الحرب.. وكان النبي ﷺ يعقد لكل صاحب سرية راية، ويدفع إلى رأس كلِّ قبيلة لواءً يقاتلون تحته. وليس هناك نصٌّ على أن الراية النبوية لها لون واحد، وإنما تعددت ألوانها.

وقرأت في «الإصابة» أن سعد بن مالك الأزدي وفد على رسول الله ﷺ وعقد له راية على قومه سوداء فيها **هلال** أبيض.. [ت ٣١٩٢].

والشاهد في القصة قوله: «فيها هلال أبيض». وهذا يدل على أن استخدام الهلال رمزاً وشعاراً، كان في العهد النبوي، ولا شكَّ أن رسم الهلال على الراية لم يأت مصادفةً، فلا بدَّ أنه كان مقصوداً وله معنى.

ولكن المشهور أنَّ اتخاذ الهلال شعاراً كان في العصر التركي: وزعموا أن الأتراك أخذوه من البيزنطيين. فنقل الكتاني في التراتيب [١/ ٣٢٠] عن صاحب «وفيات الأسلاف» قوله: إن وضع رسم الهلال على رؤوس منارات المساجد بدعة وإنما يتداول ملوك الدولة العثمانية رسم الهلال علامة رسمية أخذاً من القياصرة وأصله أن فيلبس المقدوني والد الإسكندر الأكبر لما هجم بعسكره على بيزنطة وهي القسطنطينية، في بعض الليالي دافعه أهلها وغلبوا عليه وطردوه عن البلد، وصادف ذلك وقت السحر، فتفاءَلوا به واتخذوا رسم الهلال في علمهم

الرسمي تذكيراً للحادثة، وورث ذلك منهم القياصرة ثم العثمانية لما غلبوا عليها.

وفي الموسوعة العربية الميسرة «الهلال رمز بيزنطي قديم اتخذه القسطنطينيين بعد فتح الأتراك لها، وكذلك هو رمز للحضارة الإسلامية».

وكنت منذ زمن أسأل لماذا اتخذ جورجي زيدان «الهلال» اسماً للمجلة التي أصدرها في القاهرة باسم الهلال مع أنه صليبي خبيث...

ولكن قصة سعد بن مالك الأزدي تبطل الزعم بأن المسلمين أخذوه من البيزنطيين وكيف يأخذونه من القياصرة وهم خصومهم وأعداؤهم..؟

ثم ما علاقة «السَّحَرِ» بالهلال، وفي وقت السحر قد يكون القمر هلالاً وربما لا يكون.. والتفسير الأليق والأقرب لاتخاذ الأتراك الهلال شعاراً، إما أن يكون علماؤهم قد اطلعوا على قصة سعد بن مالك، وقد يكونون اتخذوه لأنه رمز التأريخ الإسلامي حيث يُعرف بداية كل شهر عربي برؤية الهلال.. والله أعلم.

(د) **دار الضيافة لإنزال الوفود**: مرّت دار الضيافة النبوية بمرحلتين:

الأولى: في بداية الهجرة.

الثانية: بعد فتح مكة.

أما المرحلة الأولى: فتمثلها «الصُّفَّة» وقد ذكرتها في فصل الحركة العلمية في العهد النبوي بوصفها مدرسة.. وأذكرها هنا بوصفها دار ضيافة. لأن الصُّفَّة في أصل إنشائها «مكان في آخر المسجد النبوي أُعدَّ لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل».

وقد وُصِفوا بأنهم أضياف الإسلام، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة واصفاً ما لاقى في صدر إسلامه من الشدة، وقول رسول الله ﷺ:

الحق أهل الصُّفَّة فادعهم لي، قال: «وأهل الصُّفَّة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا على مال، ولا على أحد، إذا أتته الصدقة بعث إليهم بها ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هديّة أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها». وبوّب البخاري باب نوم الرجال في المسجد: من كتاب الصلاة: قال: وقال أبو قلابة عن أنس: قدم رهط من عُكْلٍ على النبي ﷺ فكانوا في الصُّفَّة. وقال عبد الرحمن بن أبي بكر «كان أصحاب الصُّفَّة الفقراء».

وفي باب «السَّمر مع الضيف والأهل» روى البخاري: أن أصحاب الصفة كانوا أُناساً فقراء وأن النبي ﷺ قال: مَنْ كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث وإن أربعٌ فخامس أو سادس، وأن أبا بكر جاء بثلاثة فانطلق النبيُّ ﷺ بعشرة.. الحديث.

وعن أبي هريرة «رأيتُ سبعين من أهل الصُّفَّة، ما رجلٌ عليه رداء.. الحديث» في كتاب الصلاة باب «نوم الرجال في المسجد».

ونقل ابن حجر في [الفتح جـ ١ من كتاب المساجد] عن ثابت في الدلائل أن النبيَّ ﷺ أمر من كلِّ حائط (بستان) بقنو يُعلّق في المسجد، يعني للمساكين. وفي رواية له: وكان عليها معاذ بن جبل أي: على حفظها أو قسمتها.

وروى أحمد في المسند [١/ ٧٩] عن علي رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «لا أخدمكما (أي: أعطيكما خادماً) وأدع أهل الصُّفَّة تطوي».

أما المرحلة الثانية: فكان ذلك بعد فتح مكة، وأكثر ما كان ذلك في السنة التاسعة. حيث كثرت الوفود إلى المدينة.

والسبب في ذلك، ما رواه ابن هشام في السيرة عن ابن إسحق قال: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كلِّ وجه. قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تسمى سنة الوفود.

قال ابن إسحق: «وإنما كان العرب تربّصُ بالإسلام أمر هذا الحيّ من قريش، وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أنَّ قريشاً كانوا إمامَ الناس وهاديهم وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوّخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ، ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال الله عز وجل أفواجاً، يضربون إليه من كلِّ وجه. .»[٢/ ٥٦٠].

هذا، وقد عدَّ ابن سعد في الطبقات أكثر من سبعين وفداً [١/ ٢٩١ ــ ٣٥٩] وكلُّ وفْدٍ يأتي ومعه رؤوس القوم، وقد يمكثون أياماً في المدينة ثم ينصرفون إلى بلادهم. فكان لا بدَّ من منزلٍ ينزلونه، وطعام يأكلونه. . ونستفيد من الأخبار المرويّة في قصة الوفود، أن هناك دوراً مخصصة لنزول الوفود، يُجرى عليهم فيها الطعام.

فقد جاء في ترجمة حبيب بن عمرو السلاماني من «الإصابة» أن حبيب بن عمرو، قال: قدمْنا على رسول الله ﷺ ونحن سبعة نفر، فانتهينا إلى باب المسجد فصادفْنا رسول الله خارجاً منه إلى جنازة دُعي لها، فلما رأيناه قلنا يا رسول الله: السلام عليكم، فقال رسول الله: وعليكم السلام. مَنْ أنتم؟ قلنا نحن قوم من سلامان، قدمنا عليك لنبايعك على الإسلام. . فالتفت إلى ثوبان غلامه، فقال: أنزل هؤلاء حيث ينزل الوفد، فخرج بنا ثوبان حيث انتهى بنا إلى دار واسعة فيها نخلٌ، وفيها وفود من العرب، وإذا هي دار رملة بنت الحارث النجارية.

وفي ترجمة الحارث بن عوف المزني، الذي أصلح ما بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء، وفد على رسول الله مع ثلاثة عشر رجلاً، منصرف رسول الله من تبوك فنزلوا في دار بنت الحارث.

وفي طبقات ابن سعد [١/ ٣١٦] قال: قدم وَفْدُ بني حنيفة على رسول الله ﷺ بضعة عشر رجلاً.. فأنزلوا دار رملة بنت الحارث، وأجريت عليهم ضيافة، فكانوا يُؤتون بغداء وعشاء، مرّةً خبزاً ولحماً ومرة خبزاً ولبناً، ومرة خبزاً وسمناً، ومرة تمراً نُثر لهم.

وفي خبر وَفْد ثقيف «نزل مَنْ كان منهم من الأحلاف على المغيرة بن شعبة فأكرمهم وضرب النبيُّ ﷺ لمن كان فيهم من بني مالك قُبَّةً في ناحية المسجد، فكان رسول الله ﷺ، يأتيهم كلَّ ليلة بعد العشاء فيقف عليهم ويحدثهم حتى يراوح بين قدميه» [١/ ٣١٣ من الطبقات].

وفي السيرة النبويّة لابن هشام [٢/ ٥٤٠] روى عن بعض وَفْد ثقيف قال: كان بلالٌ يأتينا حين أسلمنا وصمنا مع رسول الله ما بقي من رمضان بِفِطْرنا، وسحورنا من عند رسول الله، فيأتينا بالسَّحور وإنا لنقول: إنا لنرى الفجر قد طلع، فيقول: قد تركتُ رسول الله ﷺ يتسحّر، لتأخير السحور، ويأتينا بفطْرنا، وإنا لنقول: ما نرى الشمس كلها قد ذهبت بَعْدُ فيقول؛ ما جئتكم حتى أكل رسول الله، ثم يضع يده في الجفنة فيلتقم منها. وذكر ابن شبّة في تاريخ المدينة [١/ ٢٣٥] دور بني زُهرة، وقال: ومنهنَّ الدار التي يقال لها «الدار الكبرى» دار حُميد بن عبد الرحمن بن عوف وإنما سُمّيت الدار الكبرى، لأنها أول دار بناها أحد من المهاجرين بالمدينة وكان عبد الرحمن بن عوف يُنزل فيها ضيفان رسول الله ﷺ فكانت تسمّى أيضاً «دار الضيفان»..

(هـ) العُرَفَاءُ للناسِ: العُرْفاءُ: جَمْعٌ مفرده: عريف، على وزن «عليم» وعريف القوم: سيدهم. والعريف: القيّم والسيّد، لمعرفته بسياسة القوم. قال الشاعر طريف بن مالك العنبري:

أو كلّمـــا وردت عُكـــاظ قبيلـــةٌ ... بعثــوا إلــيَّ عــريفَهــم يَتَــوسّــمُ

والعريف أيضاً: النقيب، وهو دون الرئيس.

وروى أبو داود من طريق المقدام بن معد يكرب، رفعه «العرافَةُ حقٌّ، والعرفاءُ في النار». قال ابن الأثير: العُرفاء: جمع عريف، وهو القيّم بأمور القبيلة، أو الجماعة من الناس، يلي أمورهم، ويتعرف الأميرُ منه أحوالهم، فعيل بمعنى فاعل، والعِرافة ــ بكسر العين ــ عمله.

وقوله: العرافةُ حقٌّ: أي فيها مصلحة للناس، ورفْقٌ في أمورهم وأحوالهم.

وقوله: العرفاء في النارِ: تحذير من التعرض للرياسة لما في ذلك من الفتنة، فإنه إذا لم يقم بحقه أَثِمَ واستحقّ العقوبة.

وفي ترجمة جندب بن النعمان الأزدي أنه قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وحَسُنَ إسلامه، وجعله عريف قومه.. [الإصابة/ ١٢٣٠].

وبوّب البخاري في كتاب الأحكام «باب العرفاءُ للناس». وروى في قصة أسرى هوازن «أنَّ رسول الله ﷺ قال حين أذن لهم المسلمون في عتق سبي هوازن فقال: إني لا أدري مَنْ أذن فيكم ممنْ لم يأذن، فارجعوا حتى يرفعَ إلينا عرفاؤكم أمركم، فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ، فأخبروه أنَّ الناس قد طيّبوا وأَذِنُوا». قال ابن بطّال: في الحديث مشروعية إقامة العرفاء لأن الإمام لا يمكنه أن يباشر جميع الأمور بنفسه فيحتاج إلى إقامة مَنْ يعاونه ليكفيه ما يقيمه فيه. قال: والأمر والنهي إذا توجّه إلى الجميع يقع التوكّل فيه من بعضهم، فربما وقع التفريط. فإذا أقام على كل قوم عريفاً لم يسع كل واحد إلا القيام بما أُمر به.

وقال ابن حجر [الفتح ١٣/ ١٦٩]: وفي الحديث أن الخبر الوارد في ذمّ العرفاء لا يمنع إقامة العرفاء، لأنه محمول إن ثبت على أن الغالب على العرفاء الاستطالة ومجاوزة الحدّ، وترك الإنصاف المفضي إلى الوقوع في المعصية. والله أعلم.

أقول: ولعل وظيفة العريف تشبه وظيفة «المختار» في قرى فلسطين. فالقرية التي تضم عدداً من الحمايل، يكون لكل حمولة مختار، يعرّف بأهل قبيلته.

وهو أقلّ أو أصغر من «العمدة» المعروف في قرى مصر، لأن العمدة يكون للقرية كلها، أما المختار فإنه يتعدد إذا تعددت الحمايل. وفي المدينة النبوية اليوم، يوجد عُمْد الحيّ.

وكان العطاءُ ـ في العهدين الراشدي والأموي ـ يُعطى للعريف، ويوزعه على مستحقيه ممن كان عريفاً عليهم، لأنه أعرف الناس بهم.

(و) **ديوان الإنشاء، والخاتم، والسفراء**: أما ديوان الإنشاء: فقد جاء في «صبح الأعشىٰ» أنه أول ديوان وُضِع في الإسلام، وأنه كان في العهد النبوي ذلك أن النبي ﷺ كان يكاتب أُمراءَه وأصحاب سراياه من الصحابة، ويكاتبونه، وكتب إلى مَنْ قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وبعث إليهم رسله بكتبه. وكتب لعمرو بن حزم عهداً حين وجهه إلى اليمن، وكتب لتميم الداري وإخوته بإقطاع بالشام (الخليل) وكتب كتاب الهدنة بينه وبين قريش عام الحديبية... الخ.

وقال ابن سعد [ط١/٢٥٨] إن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست، أرسل الرُّسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتباً. فقيل: يا رسول الله: إنَّ الملوك لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً فاتخذ رسول الله يومئذٍ خاتماً من فضة، فصه منه، نقشه ثلاثة أسطر «محمد رسول الله». وختم به الكتب. فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد وذلك في المحرم سنة سبع.. فكان أول رسول بعثه عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، وكتب إليه كتابين يدعوه في أحدهما إلى الإسلام، ويتلو عليه القرآن.. وفي الكتاب الآخر يأمره أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت قد هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها، فمات هناك.

وبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتاباً.

وبعث عبد الله بن حُذافة السهمي إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام.

وكتب معه كتاباً.. الخ وليس غرضنا استقصاء كتب رسول الله ﷺ، وأسماء رسله، فقد عنون ابن سعد في الطبقات [٢٥٨/١] «ذِكْرُ بعثةِ رسول الله ﷺ الرُّسُلَ بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وما كتب به رسولُ الله ﷺ، لناس من العرب وغيرهم». وأحصيتُ تحت هذا العنوان أكثر من مئة رسالة. وذكر تحت هذا العنوان عدداً من الرسائل التي كُتبت وأُرسلت إلى رسول الله ﷺ.

وتحت عنوان «ذِكْرُ وفادات العرب على رسول الله ﷺ» ذكر ابن سعد أكثر من سبعين وَفْداً، وقد كتب رسول الله ﷺ، لكثير منهم كُتُباً غير ما ذكر في الباب السابق. وتدور هذه الكتب حول الموضوعات التالية:

الأول: الدعوة إلى الإسلام.

الثاني: كتابة فرائض الإسلام.

الثالث: إقطاع أو تمليك.

الرابع: عهود ومواثيق.

الخامس: بيان أحكام الأرض والزراعة.

السادس: فرض الجزية والخراج.

* * *

أقول: هذا العدد الوفير من الكُتب التي كتبها رسول الله ﷺ في مدة قصيرة، تكاد تكون محصورة بين سنة ثمان إلى سنة عشر، تدل على حركة كتابيّة، كما تدلُّ على كثرة الكُتّاب.. وهذه الكتب في البابين المذكورين تمثل جزءاً مما كُتب في العهد النبوي، أو مما يسمى الكتابات الديوانية الرسمية، التي تمثل إمام الأمّة. لأن الكتابة الديوانية، نستطيع أن نؤرخ وجودها قبل الهجرة،

إذا أدخلنا كتابة القرآن في هذا النوع من الكتابة، ولا بأس بإدخالها، لأن ديوان الأمة يسجل كلَّ ما تحرص الأمة على حفظه، والقرآن الكريم رأس اهتمامات المسلمين، والقرآن كان يكتب في العهد المكيّ، وكان المسلمون ينسخون عنه الصحف التي يقرؤون منها، كما جاء في قصة إسلام عمر بن الخطاب. كما بدأت المكاتبات بين رسول الله وأهل المدينة منذ العقبة الأولى، حيث جاءَت أخبار أن الرسول عليه السلام كتب إلى الأنصار بما نزل من القرآن، وكتبت الأوس والخزرج إلى رسول الله ﷺ: ابعث إلينا مقرئاً يقرئنا القرآن، فبعث إليهم مصعب بن عُمير. . [ابن سعد ١/ ٢٢٠].

وفي قصة الهجرة إلى المدينة، ما يحيّر العقول، ويدهش الألباب، من تاريخ الكتابة الديوانية كتابة العهود والمواثيق. رجلان خائفان يطاردهما الأعداء، معهما راعي غنم وهو عامر بن فهيرة، ودليل لا يعرف إلا الطرق الصحراوية. . ومع ذلك يحملان فيما يحملان، أدوات الكتابة. . أيُّ سرٍّ، وأية حكمة في هذا؟

فقد روى البخاري في صحيحه (كتاب مناقب الأنصار ح ٣٩٠٦] قصة سُراقة بن مالك عندما أدرك المُهاجريْن، وفيها «فقال سراقة: فسألتُه ــ أي: سأل النبيّ ﷺ ــ أن يكتب لي كتابَ أمْنٍ، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رُقعةٍ من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ». ففي هذه القصة من المعاني، ما يملأ مجلداً، أوجزها وأوجز دلالتها فيما يأتي.

١ ــ قول سراقة: فسألتُه أن يكتب. . الخ: فالمؤرخون يزعمون أن الكتابة كانت نادرة في مكة، ويعدون بضعة عشر رجلاً كانوا يكتبون عند بداية الإسلام. ولو كانت الكتابة نادرة، ما قال سراقة: «فسألتُه أنْ يكتب» وسراقة أعرابي كان يسكن قُديداً ومَنْ كان في مثل حاله، لا يعرف الكتابة، ولا يسمعُ بها، لو كانت الكتابة نادرة.

٢ ــ اجتمع في رحلة الهجرة أربعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر رضي الله عنه وعامر بن فهيرة، ودليلهم الأعرابي. فكان في الأربعة اثنان من الكتبة

أبو بكر، وعامر، ففي رواية البخاري أن عامر بن فهيرة هو الذي كتب وفي رواية ابن هشام قال: «اكتب له يا أبا بكر» والمعروف أن أبا بكر كان كاتباً.

٣ ـ هل يمكن أن يكون الكاتب التقط أداة الكتابة (القلم، وقطعة الأدم) من الأرض؟ هذا غير مقبول. لأنهم كانوا في صحراء، لا أثر فيها لساكن وقطعة الأدم التي تلتقط من الأرض إن وُجدت لا يمكن الكتابة عليها، لأن الأدم الذي يكتب عليه يعالج ليصبح صالحاً للكتابة عليه، وقطعة الأدم التي تكون ملقاة في الشمس الحارقة تكون قد يبست، فلا تحمل كتابة. وإذا وُجدت قطعة الأدم، هل يجدون القلم والدواة على قارعة الطريق؟ قد يقال: قد يكتبون بفحمة.. ولكن من أين تأتي الفحمة في الصحراء؟.

٤ ـ في رواية ابن هشام «فكتب لي كتاباً في عَظْمٍ أو في رقعة أو في خزفة» أو «خرقة» بالخاء والراء.. ومهما كان المكتوب عليه فلا بدَّ من أداة كتابة تؤثر في المكتوبة عليه، فيثبت المكتوب، وهذه الأداة لن تكون إلا الحبر.

٥ ـ ذلك أن الكتاب بقي عند سراقة ثماني سنوات يحفظه في كنانته لما روى ابن إسحق عن سراقة قال: «فكتب لي كتاباً ثم ألقاه إليّ فأخذتُه فجعلتُه في كنانتي، ثم رجعتُ، فسكتُ فلم أذكر شيئاً مما كان، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ وفرغ من حُنين والطائف، خرجتُ ومعي الكتاب لألقاه، فلقيتُه بالجعرانة.. فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته.. فرفعتُ يدي بالكتاب، ثم قلتُ: «يا رسول الله، هذا كتابك لي، أنا سُراقة بن جعشم، قال: فقال رسول الله ﷺ: يوم وفاءٍ وبرّ، ادْنُهْ، قال: فدنوت منه فأسلمت» [السيرة النبوية ١/ ٤٩٠].

٦ ـ ويعتني كثير من الدارسين بقصة «سواري كسرى» من قصة سراقة بن مالك ولا يقفون عند قصة الكتاب الذي كُتب لسراقة.. صحيح أن قصة سواري كسرى من علامات النبوّة، لكنني لم أجد لها سنداً صحيحاً، ولم ترد في سياق الحديث الصحيح الذي رواه البخاري. وإنما رواها البيهقي في دلائل النبوة عن

الحسن مرسلة. ونقلها ابن كثير في التاريخ عن الهيثم بن عدي.. عن القاسم بن محمد بن أبـي بكر، وهي رواية مرسلة أيضاً. وليس في الروايتين ما ينصّ على أن رسول الله ﷺ، وعد سراقة بسواري كسرى. حيث يروون أن رسول الله قال لسراقة «كأني بك وقد أُلبست سواري كسرى» ففي الروايتين أن عُمر بن الخطاب، عندما جاءَته حلية كسرى إلى المدينة، أحبَّ أن يلبسهما لرجل أعرابـي، وكان سراقة أجسم الحاضرين وأبدنهم قامةً، وذلك لمعنى أراده عمر، وهو أن ملابس كسرى يلبسها رجلٌ أعرابـي من عرض المسلمين، للدلالة على أن الله خفض كسرى، ورفع الأعرابـي بالإسلام. وتقول الروايتان إن عمر نزع حلية كسرى عن سراقة بعد أن رآها عليه ولو كانت وعداً من رسول الله لسراقة بامتلاك سواري كسرى، ما نزعت عنه. وإلا فلا معنى لوعد رسول الله لسراقة بأن يلبسهما فقط دون التمليك.

٧ ــ فالمعجزة النبويّة في القصة قول سُراقة «ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين» لأن رسول الله دعا ربّه أن يكفّه. والمعجزة أيضاً أن يطلب سراقة من رسول الله المطارد أن يكتب له كتاب أمْنٍ، وكان الظاهر أن يطلب رسولُ الله من سُراقة هذا الأمْن.. وكان على الدراسين أن يدرسوا الحكمة في أن يحمل الخائفان الطريدان أدوات الكتاب، ومَنْ كان في حالهما، لا يحمل إلا زاد البطن...

إن الكتاب النبويّ إلى سراقة بن مالك، له دلالاته في تاريخ الكتابة العربية وله دلالاته على المرحلة التالية، حيث نشطت الكتابة في العهد المدني، وكثر الكُتّاب، وتنوعت اختصاصاتهم، وصدق عليهم وصف «ديوان الإنشاء النبويّ» لأنهم ذكروا أن الذين كانوا يكتبون للنبـي ﷺ ثلاثة وأربعين كاتباً. منهم مَنْ غلب عليه كتابة الوحي، مثل زيد بن ثابت وأبـي بن كعب ومنهم مَنْ كتب إلى الملوك مثل عبد الله بن الأرقم الزهري، ومنهم مَنْ كان يكتب الإقطاع ومنهم مَنْ كان يكتب للبوادي ومنهم من كان يكتب العهود والصلح، وكان حذيفة بن اليمان

يكتب خرص ثمار الحجاز، وكان حنظلة بن الربيع خليفة كل كاتب من كُتّاب النبيّ ﷺ إذا غاب عن عمله.. [انظر العقد الفريد ٤/ ٢٤٤].

(ز) **القطائع، وقصة إقطاع العقيق**: القطائع: جمع قطيعة، تقول: قطعتُه أرضاً، أي: جعلتها له قطيعة. والمراد في الشرع، ما يخصّ به الإمام بعض الرعية من الأرض الموات، فيختصُّ به وتصير أوْلى بإحيائه، ممن لم يسبق إلى إحيائه...

وكانت الأرض في بدء الهجرة على قسمين: الأول: ما كان بين بيوت الأنصار أو قريباً منها.

والثاني: الأرض البعيدة عن مواطن السكنى.. وهي الأرض الموات.

أما القسم الأول: فقد وهبه الأنصار لرسول الله ﷺ، فكان يقطع منه المهاجرين لبناء بيوتهم.

وأما القسم الثاني: وهو الأرض الموات، فهو من حقّ الإمام، يقطع منه ما يشاء لمن يشاء...

وكانت السنّةُ النبوية أن لا تُعرَّى أطراف المدينة، وأن تستغل الأرض بزراعتها. ولذلك كان يُقْطع الصحابة من الأرض الموات لإحيائها.

فروى أبو داود، وأحمد عن ابن عمر قال: أقطع النبيّ ﷺ الزبير حُضْرَ (عَدْو) فرسه، من موات النقيع، فأجراه ثم رمى بسوطه رغبةً في الزيادة، فقال رسول الله ﷺ: «أعطوه حيث بلغ السوط» [أبو داود ٣٠٧٢ وأحمد ٢/ ١٥٦].

وعن عروة بن الزبير أن عبد الرحمن بن عوف قال: «أقطعني رسول الله ﷺ، وعمر بن الخطاب أرض كذا وكذا، فذهب الزبير إلى آل عُمر، فاشترى نصيبه منهم، فأتى عثمان بن عفان فقال: إنَّ عبد الرحمن بن عوف زعم أن النبيّ ﷺ أقطعه وعمر بن الخطاب أرض كذا وكذا وأنّي اشتريتُ نصيب

آل عمر، فقال عثمان: عبد الرحمن جائز الشهادة، له وعليه» [نيل الأوطار م ٣/ ٣١٢].

.. ولإقطاع الأرض شروط على المُقْطَع، سوف نعرف جانباً منها، عندما نعرض لقصة إقطاع وادي العقيق الذي خصصته من بين القطائع النبويّة لما له من الدلالات على تاريخ المدينة بعامة، وتاريخ صدر الإسلام بخاصة.

(ح) **في بلاد العرب سبعة أَعِقَّة (جمع عقيق)**: منها: عقيقُ العارض باليمامة، شرق الرياض بمَيْل نحو الشمال، ويُعرف الآن بـ(الشوكي). وعقيق جَعْدة وجرم، المعروف الآن باسم وادي الدواسر في جنوب نجد. وعقيق البصرة، والعقيق: قَرْية بالطائف في بطن وادٍ، وعقيقٌ قرْبَ ذات عِرْق، ميقات أهل العراق.. وفي المملكة العربية السعودية اليوم خمسُ قرى تُسمّىٰ «العقيق»:

فالعقيقُ: في سَراة عبيدة بمنطقة عسير.

والعقيقُ: من قرى بني مالك بمنطقة الطائف.

والعقيقُ: من قرى بني الأسمر في تهامة من إمارة عسير.

والعقيقُ: من قرى آل سليمان من بَلْقَرْن في إمارة بلاد عسير.

والعقيقُ: أو عقيق غامد: وادٍ ذو قُرى فيه إمارة من إمارات منطقة الباحة.

.. [انظر المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ــ معجم مختصر ــ من تأليف حمد الجاسر] ومع هذا الجمع الغفير من القُرى والأودية التي أخذت اسم «العقيق». «إذا قيل العقيقُ، وحاجر[1]، اشتدَّ الشوقُ وسالت الدموعُ من المحاجِر» وتلفّت القلبُ إلى عقيق المدينة النبويّة، سيّد الأعقّة كلِّها.

---

(١) يُذكر «حاجر» مقروناً بالنقا، لتجاورهما. أما النَّقَا: فكان يشمل منطقة العنبرية والمجمع الحكومي، والأرض التي تقع في شماله. وأما حاجر: فيقع جنوب محطة سكة الحديد ويمتد إلى حدود وادي العقيق.. وهما المذكوران في شعر الحنين إلى المدينة.

فما قصةُ وادي العقيق المدني الذي أَسر قلوب المؤمنين، وتشوّفت إليه أرواحُ العُبّاد، وأوحى إلى الشعراء بأرقّ الشعرِ وأعذَبه، وأقام فيه الصحابةُ والتابعون وفضّلوه، يوم كانت أجملُ مغاني الأرض ـ في الشام ومصر والعراق وبلاد العجم ـ تحت أيديهم، تُغْدِقُ على ساكنيها المال، والمنصبَ، والعيشَ الرغيد؟.

ولماذا تسابق الناسُ إلى سكناه، وخصَّ الأمويّون به أنفُسَهم؟.

ولماذا كان العقيقُ مُنتَجَعَ ومتبدّى[1] أهل المدينة، ولم يقصدوا إلى عوالي المدينة؟.

الجواب: لأنَّ الله تعالى بارك وادي العقيق، وخصّه بطيب الهواء، وعذوبة الماء، وقدّر في أرضه الخصبَ والنماءَ، إكراماً لرسوله ﷺ، وليكون هديةً إلى المؤمنين الذين صبروا على اللأواء، وهاجروا وجاهدوا امتثالاً لأمر السماء.

فكما تطلع رسولُ الله إلى قبلةٍ يحبُّها، وتغيظ اليهود، فولاه الله قبلةً يرضاها، كذلك تطلع أيضاً، إلى أن تكون المدينةُ مُهاجرُ المسلمين، مُضاعفة الخيرات مشمولةً ببركات الدين والدنيا، تتّسعُ لهذا الحشْد من المهاجرين، وتجهّز جيوش الدعوة والفتح. . ، فاستجاب اللّهُ دعاءَ نبيّه ﷺ وأقرّ عيونَ المؤمنين، وألقى السكينة والغنىٰ في قلوبهم، وحلّت البركة في أرض المدينة، بأمر من الله.

فقد بوّب البخاري في صحيحه: باب «قول النبيّ ﷺ: العقيقُ وادٍ مباركٌ» وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «سمعتُ النبيّ ﷺ، بوادي

---

(١) متبدّى: من: تبدّى الرجلُ: أي: خرج إلى البادية، واسم المكان منه «مُتبدّىٰ» ويظهر من النصوص أنهم كانوا يتبدّون؛ للرعي، أو للصيد، أو للاستمتاع بموسم الربيع: قال أبو علي الهجري: والنقيع صدر وادي العقيق، وهو متبدّى للناس، ومتصيّد، وقال: ثم يفضي السيل إلى الجثجاثة، وبها قصور ومتبدّى. [أبو علي الهَجَري ٢٨٥، ٢٩٣، لحمد الجاسر].

العقيق، يقول: أتاني الليلة آتٍ من ربـي، فقال: صلّ في هذا الوادي المبارك، وقل: عُمْرةٌ في حجةٍ» [ك ٢٥ ب ١٦] قال ابن حجر، رحمه الله: قوله: «باب قول النبـيّ ﷺ: العقيقُ وادٍ مبارك» أورد فيه حديث عمر، وليس هو من قول النبـيّ ﷺ، وإنما حكاه عن الآتي الذي أتاه. لكن رُوي عن عائشة مرفوعاً: «تخيموا بالعقيق، فإنّه مبارك» فكأنه ـ أي البخاري ـ أشار إلى هذا في ترجمة عنوان الباب. [الفتح ٣/٣٩٢]. وقال ابن حجر: «وفي حديث الباب، فضلُ العقيق، كفضل المدينة، وفضلُ الصلاة فيه». فهل يريد أن يقول: إن الصلاة في وادي العقيق يُضاعف ثوابُها؟.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يسلُكُ طريقه على العقيق، كلما ذهب إلى مكة أو إلى بَدْر، في الذهاب والإياب، ويبيت في ذي الحُليفة، إذا خرج، وإذا رجع لما روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ كان يخرج من طريق الشَّجرة، ويدخلُ من طريق المُعَرَّس، وأنَّ رسول الله ﷺ كان إذا خَرَج إلى مكة يصلّي في مسجد الشجرة، وإذا رجع صلى بذي الحُلَيفة، ببطن الوادي، وبات حتى يُصْبح [ك ٢٥ ب ١٥]. قال ابن حجر: وقد قال بعضهم: إنَّ نزوله هناك لم يكن قصْداً، وإنما كان اتفاقاً، والصحيح: أنه كان قصْداً لئلا يدخل المدينة ليلاً، ويدلُّ عليه قوله: «وبات حتى يصبح» ولمعنىً فيه، وهو التبرُّكُ به، لما سبَقَ أنَّ العقيق وادٍ مبارك. [الفتح ٣/ ٣٩٢].

وشاهد مبيته في الخروج، مع قرب المسافة، حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «صلى النبـيّ ﷺ بالمدينة أرْبعاً، وبذي الحُلَيفة ركعتين[1]، ثم بات حتى أصبح بذي الحُليفة، فلما ركب راحلته، واستوت به أهلَّ» [البخاري ك ٢٥ ب ٢٤]. وأما شاهدُ مرور النبـيّ ﷺ على العقيق، في غزوة تكون في جهات مكة وبدّر، فهي رواية ابن هشام في وصف طريق النبـيّ ﷺ، إلى غزوة

---

(١) قوله: صلى بالمدينة أربعاً: يعني: لم يقصر، وهي صلاة الظهر. وقوله: وصلى بذي الحليفة ركعتين: يعني قصر الصلاة، وهي صلاة العصر.

بدر، قال: فسلَكَ طريقه من المدينة إلى مكة على نقب المدينة[1] ثم على العقيق، ثم على ذي الحُليفة. . ». [السيرة النبوية ٢/ ٦١٣].

وحدّد رسولُ الله ﷺ، للمدينة حَرَماً آمناً، وجعل اللابتين (الحرتين) يحدان الحرم من الشرق والغرب، فقال: «حُرِّم ما بين لابتي المدينة على لساني» وقال أبو هُرَيرة: لو رأيتُ الظِّباء بالمدينة ترتع ما ذَعَرْتُها، قال رسول الله ﷺ: «ما بَيْن لابتيها حَرَامٌ» وجعل جَبَلي عَيْر وثور حَدَّي المدينة من الشمال والجنوب فقال ﷺ: «المدينة حَرَمٌ ما بين عائر إلى «ثور»» [البخاري ك ٢٩ باب حرم المدينة]. ووادي العقيق ــ من أعلاه إلى أسفله ــ يدخل في حدود حرم المدينة النبويّة. [انظر: مخطط حرم المدينة، للدكتور عبد العزيز القاري].

وفي ذي الحُليفة، بالعقيق، ميقاتُ أهل المدينة، ومَنْ مرّ بها حاجاً أو معتمراً فقال ﷺ: «يُهلُّ أهلُ المدينة من ذي الحُلَيفة» وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «ما أهلَّ رسولُ الله ﷺ إلا من عند المسجد» يعني مسجدَ ذي الحُلَيفة. وروينا قبل قليل حديث «أن رسول الله ﷺ كان يخرجُ من طريق الشجرة[2]، ويدخل من طريق المُعَرّس»[3] وكان الصحابة والتابعون يتحرون مُناخ

---

(١) نقْب المدينة: ويقال «نقب بني دينار» النقب: الطريق الضيق في الجبل، وبنو دينار من الأنصار من بني النجار. ونقب بني دينار، من الحرّة الغربية بالمدينة، ولعله الطريق المعروفة اليوم التي تؤدي إلى ذي الخليفة عن طريق العنبرية، فقد كان شُقَّ في الحرّة ثم عُبّد. [المعالم الأثيرة، للكاتب].

(٢) الشجرة: قالوا: إنها سَمُرة، كان ينزل تحتها رسول الله ﷺ، عند خروجه من المدينة عن طريق ذي الحُلَيفة، وأضيف إليها المسجد، مسجدُ الميقات، فقيل: مسجد الشجرة. والسَمُرة: بفتح أوله، وضم ثانيه، واحدة السَّمُر، وهو من الشجر، صغار الورق قصار الشوك وله ثمرة صفراء يأكلها الناس، وليس في العضاه (كل شجر له شوك) شيءٌ أجودُ خشباً من السَّمر [اللسان ــ سمر]، أقول: ولا أعرف شبيهاً لهذا الوصف إلا السدر، شجر النبق والله أعلم.

(٣) المعرَّس: مكان التعريس. وهو نزول القوم في السفر من آخر الليل، ينامون نومةً خفيفة، ثم يثورون مع انفجار الصبح سائرين.

رسول الله في ذي الحليفة، للتأسّي به، وللتبرك بالمواطن التي مسها الجسدُ الشريف، لما روى البخاري عن سالم بن عبد الله، عن أبيه عن النبـيّ ﷺ، أنه رؤي وهو معرِّس بذي الحُليفة ببطن الوادي، قيل له: «إنَّك ببطحاءَ مباركةٍ، وقد أناخ سالمٌ يتوخَّى بالمُناخ الذي كان عبد الله يُنيخُ، يتحرَّى مُعرَّس رسول الله ﷺ وهو أسفلَ من المسجد الذي ببطن الوادي، بينهم وبين الطريق وَسَطٌ من ذلك» [البخاري ك ٢٥ ب ١٦].

والشجـرة، والمُعَـرَّس، كـلاهمـا مـن ذي الحُليفـة، فـي العقيـق، وهمـا متقاربان، أما الشجرة فقد بُني مكانها مسجدُ الميقاتُ، وهو معروفٌ لكلّ مَنْ مرّ بذي الحليفة حاجاً أو معتمراً. وأما مكان المُعَرَّس فقد اختلفوا في تحديده، وقال الأستاذ إبراهيم العياشي ـ رحمه الله ـ: ويقع مسجد المعرَّس، في جنوب مسجد المحرم بنحو مئة وخمسين متراً. . والله أعلم. [المدينة بين الماضي والحاضر ص ٤٧٠].

وقالوا: إن الحكمة في نزول الرسول عليه الصلاة والسلام وهو خارج في مكان، وعند العودة في مكان آخر، أنه كان يفعلُ كما يفعلُ في العيد، يذهب من طريق ويرجعُ من أُخرى.

فالعقيقُ، إذنْ، وادٍ مباركٌ، وهو منزلُ رسول الله في سفره، وأَوْبته، وهو ميقات الحج والعمرة، وهو في حدود الحرم النبويّ، وأخيراً، فإن العقيق جزءٌ من المدينة التي دعا النبـيّ ﷺ ربَّه أن يُحببها إلى نفوس المسلمين وأنْ يبارك في أرزاقها، ويضاعف خيراتها، وأن يُصَحِّحَ هواءَها، فقال: «اللهمَّ حبب إلينا المدينةَ كحُبِّنا مكةَ أو أشدّ، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مُدِّنا، وَصَحّحْها لنا». وقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكةَ من البركة» [البخاري ك ٢٩ ب ١٠]. وفي معنى مضاعفة البركة أقوال: منها: «أن البركة التي طلبها، من بركة الدنيا، بقرينة قوله: اللهم بارك لنا في صاعنا» ويُحتمل أنْ يريد ما هو أعمّ من ذلك، لتشمل بركات الدنيا والدين. وقال

ابن حجر: لكن يستثنى من ذلك ما خرج بدليلٍ، كتضعيف الصلاة بمكة على المدينة. قال: واستُدلَّ بالحديث على تفضيل المدينة على مكة، وهو ظاهر من هذه الجهة، لكن لا يلزمُ من حصول أفضلية المفضول في شيء من الأشياء ثبوت الأفضلية له على الإطلاق. وقال النووي: الظاهر أنَّ البركة حصلتْ في نفس المكيل بحيث يكفي المدّ فيها مَنْ لا يكفيه في غيرها، وهذا أمرٌ محسوس عند مَنْ سكنها [الفتح ٤/٩٨].

ولعلَّ من مضاعفة البركة فيها، مضاعفةُ حبّ رسول الله ﷺ والمسلمين المدينةَ، حيث ازداد حبُّ رسول الله المدينةَ، وكان يشتدُّ شوقه إليها إذا فارقها، ويستبشر خيراً إذا أشرف عليها، لما روى أنس بن مالك قال: «كان رسولُ الله ﷺ إذا قدم من سَفَرٍ فأبصر دَوْحات[1] المدينة، أوضع ناقته[2]، وإن كانت دابةً حرّكها، من حبّها»[3] [بخاري ك ٢٦ ب ١٧].

ومن حبّ رسول الله ﷺ المدينة، اختار لها من الأسماء، ما يدلُّ على شدّة الولع بالمُسَمَّىٰ وعلوقِه بالنفس، واستحسانه في العين، لما روى البخاري عن أبي حُميد رضي الله عنه قال: «أقبلْنا مع النبيّ ﷺ من تبوك حتى أشرفنا على المدينة، فقال: هذه طابةُ». قال ابن حجر: والطابُ والطيبُ لغتان بمعنى، واشتقاقهما من الطيب. وقيل: لطهارة تربتها، وقيل: لطيبها لساكنها، وقيل: من طيب العيش بها، وقال بعض أهل العلم: وفي طيب تراب المدينة[4] وهوائها

---

(١) دوحات: جمع دوحة، وهي الشجرة العظيمة. ويروى «درجات» جمع درجة، أي: طرقها المرتفعة. ويروى: جُدُرات، جمع جُدُر، أي: جمع جدار. ويروى: جدران المدينة.

(٢) أوضع ناقته: أي: أسرع السير.

(٣) من حبّها: يتعلق بقوله: حركها، أي: حرك دابته بسبب حبه المدينة.

(٤) ذكر الصالحي من خصائص المدينة «استخباث مَنْ عاب تربتها، قال: وأفتى الإمام مالك أنه مَنْ قال: «تربتها رديئة أن يضرب ثلاثين درّة وأمر بحبسه، وقال: ما أحوجه إلى ضرب عنقه، تربةٌ دفن فيها رسول الله ﷺ، يزعمُ أنها غير طيبة» [فضائل المدينة، بتحقيق محيي الدين مستو، ص ١٣٢].

دليلٌ شاهدٌ على صحة هذه التسمية، لأن مَنْ أقام بها، يجدُ من تربتها وحيطانها (بساتينها) رائحة طيبة لا تكاد توجد في غيرها. [الفتح ٤/ ٨٩].

ولمّا أحبَّ رسولُ الله المدينة، خصَّ منها العقيق بمزيد من الحبّ، لما روى ابن شبّة عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: «كنتُ أصيدُ الوحش وأهدي لحومها إلى رسول الله ﷺ، ففقدني، فقال: يا سلمةُ أين كنتَ؟ فقلتُ: يا رسول الله، تباعد الصيدُ، فأنا أصيد بصدور قناة[1]، نحو ثيب[2]، فقال: لو كنتَ تصيدُ بالعقيق لشَيَّعْتُك إذا خرجت، وتلقيتُك إذا جئتَ، إني أُحبُّ العقيق» [تاريخ المدينة ١/ ١٤٧]. قال السمهودي: ورواه الطبراني بنحوه قال الهيثمي: وإسناده حَسَن. ومحملُه إنْ صحّ على ما قبل تحريم المدينة، أو أنّ المراد من الصيد بالعقيق، طرفُه الخارجُ عن الحرم، جمعاً بين الأدلة. [وفا/ ١٠٣٩].

أقول: لعلّ فيما عرضته ـ من بيان منزلة وادي العقيق في الإسلام ـ دعوةً إلى إعمار الأرض واستنباط خيراتها، وإحياءِ كلّ ذراعٍ أودعَ اللَّهُ فيه الرزق، وأن من معاني البركة التي أودعها اللَّهُ في أرض العقيق، الخصبَ، والنماءَ والرزقَ الوفير.. وسوف نرى حقيقة هذه البركة، فيما يأتي من البحث.

ولعل في ذلك أيضاً إعمارَ الأرض بالمسلمين، ليكون ذلك قُوةً، وحراسةً للمدينة النبوية في أطرافها التي قد يأتي الأعداء منها، لأن إعمار أطراف المدينة يكون بمنزلة المرابطة في الثغور، ويكون إنذاراً مبكراً إذا داهم المدينة عدوّ. وقد أخذتُ هذا المعنى من الحديث الذي رواه أنس بن مالك قال: أراد بنو سَلِمة أن يتحوّلوا إلى قُرْب المسجد، فكره رسولُ الله ﷺ، أن تُعرّى المدينة وقال: «يا بني سَلِمة ألا تحتسبون آثاركم؟ فأقاموا». وقد بوّب البخاري باب «كراهية النبيّ ﷺ

---

(١) قناة: أحد أودية المدينة، يمرّ بين المدينة وجبل أُحد، ويأتي من الشرق.

(٢) ثيب: جبل في شرق المدينة يذكر في حدود حرم المدينة من ناحية الشرق.

أنْ تُعْرَى المدينة». وذكر الحديث. وقوله: تُعرَى: أي: تترك خاليةً، يقال: أعراه، إذا أخلاه. وكان بنو سلمة يسكنون في نواحي مسجد القبلتين، فطلبوا السكنى بقُرب المسجد النبوي للفضل الذي علموه، فما أنكر النبيّ ﷺ ذلك، بل رجّح دَرْء المفسدة بإخلائهم جوانب المدينة، على المصلحة المذكورة، لتبقى جهاتُ المدينة عامرة بسكانها. [الفتح ٢/ ١٤٠].

وقد لبّى الصحابةُ والتابعون نداء رسول الله ﷺ، وتسابقوا إلى سُكْنى وادي العقيق، وتغلغل حبّه في قلوبهم. فهذا عمرُ بن الخطاب رضي اللَّهُ عنه ـ مع انشغاله بتدبير أمر الأمة، وإعداد جيوش الفتح ـ كان إذا انتهى إليه أن وادي العقيق قد سال، قال: «اذهبوا بنا إلى هذا الوادي المبارك، وإلى الماء الذي لو جاءَنا جاءٍ من حيثُ جاءَ لتمسحنا به» [وفا /١٠٣٨].

ومُنْذ كان فرضُ الحج، إلى ما قبل عصر الطائرات، قلّ ألاّ يمرَّ حاج على ذي الحُليفة والعقيق، فمن أدى الفرض، وقدم للصلاة في مسجد رسول الله، مرَّ على العقيق ومن شدَّ الرحال إلى مسجد المدينة أولاً، ثم أراد الحج، فُرض عليه الإهلالُ من ذي الحُليفة بالعقيق.

فالعقيق مقرون بأداء فريضة الحج، أولاً، ومقرونٌ بالمسجد النبويّ ثانياً، ومقرون بالسيرة النبوية ثالثاً، والعقيق من المعالم الحجازية التي تبقى في ذاكرة الحجيج ويذكرها المتشوقون إلى زيارة طيبة الطيبة، للصلاة في مسجدها والسلام على صاحبها، عليه الصلاة والسلام، ولهذا كان وادي العقيق، من مثيرات الأشواق إلى بلد الحبيب، ولهذا قالوا: «إذا ذُكر العقيقُ وحاجر اشتد الشوق، وسالت الدموعُ من المحاجر».

لماذا سُمّيَ العقيق؟

نقل الإخباريون أنَّ تُبّعاً اليماني، لما شخص عن منزله بقناة، قال: «هذه قناةُ الأرض، فسُمّي وادي قناة. ومرّ بالجُرْف فقال: هذا جُرْف الأرض، أي:

أرفعها فسمّي الجُرْف، وكان يُسمى «العِرْض» ومرّ بموضع «العَرْصة» فقال: هذه عَرْصة الأرض، وكانت تُسمى «السَّليل».. ومرّ بالعقيق، فقال: هذا عقيق الأرض، لحمرة موضعه، فسمي بذلك» [تحقيق النصرة ص ١٨٤] ونسبوا إليه وَضْعَ أسماءٍ لعددٍ من المعالم بين مكة والمدينة، في رحلته المزعومة. أقول: وهذا تعليل لم تَثْبُت نسْبتُه، لأن رحلة تبّع اليماني إلى المدينة ليس لها سَنَدٌ يُركن إليه، ولكثرة الاضطراب والاختلاف في سبب نزوله المدينة، وهل جاء لنُصرة أهل المدينة، في قصة «الفِطيون» المزعومة الخرافية، أم جاء لحربهم وتدمير مدينتهم لأنهم قتلوا أحد أبنائه؟ ومتى جاءَ؟ وأيُّ التبابعة جاءَ؟ وهل كانت لهجة يَمنِ تبّع، العربية القرشية؟.

إنَّ أخبار تبع وقومه، لا يصحُّ منها إلا ما أشار إليه القرآن الكريم.

أما ما ذكره ابن إسحق وغيره من أخبار التبابعة، وما نسبوه إلى تبّع من الأشعار فلا يصحُّ منه شيء. قال أبو عمرو بن العلاء، يردُّ أشعار ابن إسحق التي ينسبها إلى عاد وثمود «ما لسانُ حِمْير وأقاصي اليمن اليومَ بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا».. [طبقات الشعراء لابن سلام ص ١١]. وقال ابن حَزْم: «وفي أنساب التبابعة، اختلاف وتخليط، وتقديمٌ وتأخير، ونُقْصان وزيادة، ولا يصحُّ من كتب أخبار التبابعة وأنسابهم إلا طرفٌ يسير، لاضطراب رُواتهم، وبُعْد العهد» [الجمهرة ص ٤٣٩]. وَبَعْدُ: فإذا كان تُبَّعٌ سمّى عقيق المدينة، فمن الذي سمّى الأعقة في بلاد العرب؟! والأقوى مِنْ ذلك كله، أن أهل المدينة هم الذين وضعوا الاسم لعقيقهم، لصفة أو صفات في هذا الوادي:

فقالوا: سمّي العقيق، لأنَّ سيله عَقَّ الحرّة، أي شقَّها، لأنَّ المعاني التي تدور حول لفظ «العقّ» هي «الشقُّ» ومنه «العقيقة» وهو الشعر الذي يُولد به الطفل، لأنه يشقُّ الجلد. ومنه: عُقوق الوالدين، لأن فيه شقّ عصا الطاعة. وعلى هذا، يكون اسمُ الوادي «عقيق» بمعنى «عاقّ» فعيل بمعنى فاعل، إذا أردنا السيل. ويكون «العقيق» بمعنى «المعقوق» فعيل، بمعنى مفعول، إذا أردنا

المكان. ولكن لا يكفي معنى «العقّ» الموجود في وادي العقيق، ليكون علة لهذا الاسم، لأن كلَّ وادٍ في بلاد العرب، شقّه ماء السيل. قال صاحب اللسان: يُقال لكل ما شقّه السيلُ من الأرض فأنهره، ووسّعه، «عقيق».

وقال الأصمعي: الأعقّة: الأودية. وفي بلاد العرب مئات الأودية، فلماذا انفرد عدد قليل منها باسم العقيق؟.

لا بدَّ من صفة زائدة خصّت وادي عقيق المدينة بلفظ «العقيق». وهذه الصفة الزائدة، قد تكون حُمْرة التربة، أو ميل بعض أحجاره إلى الحمرة.

فالعقيق أيضاً: خرز أحمرُ، يُتخذُ منه الفُصوصُ. وقد ثبت أن بعض نواحي العقيق تميل تربتُها إلى الحمرة. قال المراغي: ورمل مسجد النبيّ ﷺ يُحمل من العَرْصة المذكورة، يسير من الجماء الشمالية إلى الوادي، فيحمل منه، وليس بالوادي رمل أحمر، إلا ما يسيل من الجبل [تحقيق النُّصرة ص ١٨٤]. وفي سُنن أبـي داود عن القاسم[١] قال: «دخلتُ على عائشة فقلتُ: يا أُمّه، اكشفي لي عن قبر رسول الله ﷺ، وصاحبيه، فكشفت لي عن ثلاثة قبور، لا مُشْرفة ولا لاطئة، مَبْطوحة ببطحاء العَرْصة الحمراء». قوله: ببطحاء العرصة الحمراء: يحتمل أن يكون الوصف للبطحاء، وأن يكون للعرْصة. وفي كتاب «أبو علي الهَجَري» ذكر أربع عَرَصات في العقيق: عرصة البقل، وعَرْصة الماء، وعَرْصة جعفر بن سليمان[٢]، وعرْصة الحمراء، وقوله: «عرصة الحمراء» يبدو أنه حَذَف الموصوف وأبقى الصفة، ويريد «عرصة البطحاء الحمراء»[٣] والله أعلم.

---

(١) القاسم بن محمد بن أبـي بكر، وعائشة عمته.

(٢) جعفر بن سليمان، أحد أمراء المدينة في العصر العباسي، تولى إمارة المدينة مرتين: الأولى سنة ١٤٦هـ. والثانية سنة ١٦١هـ.

(٣) العَرْصةُ: كل حومة متسعة ليس فيها بناء، فهي عَرْصة، سميت لاعتراص الصبيان فيها، أي للعبهم فيها.. وفي الواقع الجغرافي لوادي العقيق: عرصات العقيق: الساحات الواسعة التي تكون على شاطئيه. وأوسع ما تكون ضفاف العقيق في المدينة، أو في =

ولم يذكر لسان العرب، شاهداً جاهلياً، لاسم «العقيق» المدني، أو غيره من الأعقّة، وكلُّ ما رأيته من الشعر الذي يذكر العقيق، لشعراء إسلاميين إلا البيت الذي جاء في معلقة الحارث بن حلِّزة، إذا صحت نسبة المعلقة إلى صاحبها، أو صحت رواية البيت، حيث يقول:

أَوْقَـدَتْهـا بَيْـن العقيـق فشخْصيـن بعـودٍ كمـا يلـوح الضيَـاءُ

.. ولم أعرف أيَّ عقيق يريد.

أقول: لعلَّ المسلمين أول مَنْ سمّى وادي المدينة «العقيق» لاتساع نهره وحمرة بطحائه في بعض عرصاته، ولجمال أحجاره التي تلتقط من واديه بعد جفاف مائه، وربما استعاروا العقيق للون مائه، فكما شبهوا الماء في صفائه بالفضة فقد يشبهون الماء في بعض أحواله بالعقيق. وربما أخذت الأقاليم الأخرى اسم العقيق، بعد أن شاع اسم عقيق المدينة واشتهر، ووضعُوه على أوديتهم، تبركاً بوادي المدينة المبارك، وإن لم يكن في الأودية الأخرى، ما في عقيق المدينة من الصفات.

حوض العقيق: من البداية حتى النهاية:

المشهور أن اسم العقيق يبدأ من ذي الحُلَيفة (آبار علي) على مسافة حوالي تسعة أكيال من مركز المدينة (المسجد النبوي). ولكن هناك روايات تجعله يبدأ قبل ذلك. فقد نُقل عن هشام بن عروة أنه يُسمى عقيقاً، من «النقيع» على مسافة

= جزئه الذي يعقب وادي عروة لتباعد الجبال، عن شاطئيه، أما الجزء الذي يسبق وادي عروة، فإن المرتفعات تكون قريبة من الشواطىء، ولذلك فإن قصور العقيق كانت تكون في أسناد الجبال والحرات والمرتفعات، ولعلّ تباعد الجبال عن الشاطئين، يفسح المجال أمام الهواء، فيتحرك عليلاً، وقد ابتلّ بماء العقيق، وحمل في طياته طيوب الزهور.. ولذلك كانت عرصات العقيق محببة إلى الناس، لأنها أفسح وأنزه وأطيب أمكنته، والله أعلم.

١٥٠ كيلاً من المدينة، في الجنوب واستدلوا على ذلك بقول الخنساء ترثي أخاها صخراً وقد مات بالنقيع:

أفيقي من دُموعك واستفيقي وَصَبراً إنْ أطقت ولن تُطيقي
وقولي إنَّ خير بني سُليم وفارسهم بنقعاء العقيق

[الديوان ص ١٠٨]. وهي قصيدة إسلامية قالتها في زمن عمر بن الخطاب.

.. وجاء في صحيح الأخبار أن سعد بن أبي وقاص، اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان وسكن في «قلهيّ» وقالوا إنه توفي في منزله بالعقيق. وقلهيّ، ربما تكون في نواحي آبار الماشي ـ في طريق الهجرة، على مسافة حوالي أربعين كيلاً من المدينة. وعلى مسافة حوالي ثلاثين كيلاً من ذي الحليفة.

وأقربُ العلماء عهداً بعمران العقيق، أبو علي الهَجَريّ، الذي سكن العقيق في عهد ازدهاره، ووصفه وصْف مشاهدٍ.. يقول: والنقيع، صَدْرُ وادي العقيق، وهو متبدّى للناس ومُتَصَيّد. ويقول في أحد مراحله التي تسبق ذا الحليفة: ثم يلتقي وادي العقيق ووادي ريم» ووادي «ريم» نمرُّ به في طريق الهجرة على مسافة حوالي ستين كيلاً من المدينة..

ووادي العقيق ـ من النقيع إلى مصبه في مجتمع الأسيال، كان مسكوناً على ضفتيه لتوفر أسباب الخصْب، والنماء.. قد تتّسع الضفة فتزيد على الكيل والكيلين وقد تقترب من الشاطىء: فمن كان قريباً من شاطئه، خلج الخلجان، وحفر القنوات لإيصال الماء إلى مزارعه، ويحفر مع ذلك الآبار التي تكون قريبة مأخذ الماء لقُربها من الشاطىء. وأما البعيد، فإنه يحفر الآبار التي تتغذى من ماء الوادي الجوفي.

فلنبدأ من النقيع ونمّر بالوادي، نصف بعض معالمه:

وقد ثبت في الصحيح أن النبيّ ﷺ حمى النقيع. [البخاري ك ٤٢/ ١١] وفي رواية «حمى النبيّ ﷺ النقيع لخيل المسلمين» عن أبي عُبيد في الأموال.

وروي أن النبـيّ ﷺ، صلّى الصبح في المسجد بأعلى عسيب ــ وهو جبل بأعلى قاع النقيع، ثم أمر رجلاً صيّتاً، فصاح بأعلى صوته، فكان مدى صوته بريداً، وهو أربعة فراسخ، فجعل ذلك حمى، طولُه بريدٌ، وعرضه الميلُ وفي بعضه أقل[1].. وقالوا في وصفه: «في قاع مدر طيب، يُنبت أحرار البقْل، والطرائف، ويستأجمُ حتى يغيب فيه الراكبُ، وفيه مع ذلك، من العِضاه والعُرْفُط، والسّدر، والسَّيال، والسَّلم، والطلح، والسَّمر والعوسج والعرفج شَجْراء (جمع شجر) كثيرة... وبقاع النقيع غُدُرٌ تَصيفُ ــ تبقى في الصيف ــ.

.. وبشرقي النقيع في الحرّة قَلْتان[2]، يبقى ماؤهما ويصيف [معجم ما استعجم للبكري، وأبو علي الهجري]. ويظهر من الوصف أنه كان مرتعاً خصباً حتى في سنوات الجدب، لما روي أن عمر رضي الله عنه رأى رجلاً يعلفُ بعيره شعيراً فقال: أما كان في النقيع ما يكفيك.. ورأى شعيراً في روْث فرس عام الرمادة، فقال: لأجعلن له من غرز النقيع ما يكفيه ويُغْنيه عن طعام المسلمين [المغانم/٤١٦].

والأصل في هذا الحمى، أنْ يكون لخيل المسلمين المعدّة للجهاد في سبيل الله لما روي أن رسول الله استعمل على الحمى مراوحاً المُزَني ليمنع الناس من الرعي فيه، ولكنهم أباحوا للضعيف الذي لا يقدر على النجعة أن يرعى في حمىٰ السلطان.. وقد تتابع الخلفاء وأمراءُ المدينة على استعمال والٍ على النقيع، ولم يُتْرك إلا سنة ١٩٨هـ، لجلاء الناس عنه، للخوف في ذلك الزمان، فلم يبق أحدٌ يُستعمل عليه. ويبدو أن الناس قد كثروا حول النقيع في القرنين الأول والثاني، لما روى السمهودي عن يعقوب المزني: قال: ثم تزايد الناسُ بَعْدُ في الحمىٰ وحموا ما بين تراجم إلى يلْبن ــ مكانين حول النقيع ــ واتخذوا

---

(١) البريد، يقارب ثلاثين كيلاً. والميل القديم يقارب ٢٦٠٠م.

(٢) قَلْتان: تثنية، قَلْت ــ بفتح القاف وسكون اللام: النقرة في الصخرة أو العين ونحوهما. والجمع: قِلات.

المرابد يحبسون فيها ما رَعىٰ الحمى من الإبل، حتى رأيتُ بعضها يأكل دُبُرَ بعض ــ كناية عن تزاحمها ــ . وقال الزبير بن بكار: وقال لي: لقد رأيتُ لأبيك أكثر من ثلاثة آلاف شاة بالنقيع، وهو إذ ذاك أمير المدينة[1] ما يرعى رعاؤه منها شيئاً في الحمى حتى يكتمل العشبُ ويبلغَ نهايته، فيرسل عامل الحمىٰ صائحاً يصيح في الناس، يُؤْذنهم باليوم الذي يأذنُ لهم يَرْعَوْن الحمىٰ، فيسرع فيه رِعاء أبيك والناسُ يداً واحدة، كفَرسي رهان. .

قال السمهودي: مقتضاه جواز رَعْي الحمىٰ للناس إذا استووْا فيه، وهو مخالف لمذهبنا، إذْ لا يدخله سوى العاجز عن النجعة من الناس. [وفا/١٠٨٦]. أقول: لعلهم أباحوا للناس أن يرعوا في الحمى، والأصل فيه لخيل الجهاد ــ لأن المدينة لم تَعُدْ عاصمة ينطلق منها المجاهدون كما كانت في عصر الخلفاء الراشدين. والله أعلم. . ويذكرون بعد قاع النقيع: «حضير» قاع يفيضُ عليه سيل النقيع، فيه آبار ومزارع ومرعى للمال ــ الإبل ــ من عِضاه ورِمْث وأشجار، وكان يسكنه مصعب الزبيري.

. . ويدفعُ على حضير، الأتمةُ، أتمة ابن ابزبير [لعلها اليتمة، اليوم ــ على مسافة ٨٥ كيلاً من المدينة ــ]. . قالوا: وكان ابنُ الأشعث المُزني ينزلُ الأتمة ويلزمها فاستمشى ماشية كثيرةً وأفاد مالاً جَزْلاً حتى اتخذ أصولاً واستغنىٰ.

ثم يُفضي الوادي من حضير إلى غدير يقال له المزْج، لا يفارقه الماءُ، وهو في شقّ بين جبلين، يمرُّ به وادي العقيق فيحفره لضيق مسلكه، وهذا الجبل المنفلق يقال له، أُسْقف. . وهذه الأماكن كانت مأهولة، لأن الشاعر الأحوص الأنصاري ــ في العصر الأموي ــ يذكرها من مواطن الحنين إلى الأحبة، فيقول:

طـربـتُ، وكـيـف تطـربُ أم تصـابـىٰ   ورأسـك قـد تـوشّـع بـالقتيـر

(١) بكار بن عبد الله بن مصعب الزبيري، توفي سنة ١٩٥هـ. تولى إمارة المدينة من قبل هارون الرشيد. قبل سنة ١٩٣هـ.

لغـــانيـــةِ تحـــلّ هِضَـــاب خـــاخٍ فـأسْقُـف فـالـدوافـعَ مـن حضيـر[1]

ومن بئر الماشي في طريق الهجرة، على مسافة ٣٨ كيلاً جنوب المدينة، يسمى الوادي «عقيق الحسا» ويلفظونه بفتح الحاء والسين، ولعلّه تحريف عن «الحساء» بكسر أوله، وهو جَمْع «حِسْي» ويجمع على «أحساء» أيضاً، ومنه مدينة «الأحساء». وقلتُ: هو «الحساء» بكسر الحاء وفتح السين، لأن طبيعة الأرض في هذا الوادي تدل على ذلك. فلفظ «الحِسْي» معناه الماء الذي تنشقه الأرضُ من الرمل، فإذا صار إلى صلابة أمسكته، فتحفر العرب عنه الرمل فتستخرجه. وقيل: «الحساء» بفتح الحاء، الماء القليل، ولكن الأول أقوى في الدلالة على طبيعة المكان الذي نصفُه. فقد شُهر هذا الوادي بنسبة النعنع (الحساوي) إليه وهذا النبات يحتاج إلى الماء الكثير، لأنه ينبت في مغايض الماء وفي حفاف الأودية ويسميه بعضهم «نعنع الماء» ورأيته يكثر في أودية نواحي أبها. ولا شك أن نواحي عقيق الحِسَاء كانت غنية بالمياه الجوفية.

وقبل أن يصل الوادي إلى ذي الحُليفة. يسير محاذياً جبل عَيْر، حدّ حرم المدينة من الجنوب ـ منكسراً نحو الشمال الغربـي، ويكون جبل عير في شرقيه الشمالي. وفي هذا الجزء قرى «العلاوة» و «الوسطة» ثم يصل إلى ذي الحليفة عند نهاية جبل عَيْر. ويؤخذ من اسم ذي الحليفة أنه كان مستنقع ماء فالحُليفة، تصغير «حلفة» نبات أطرافه محددة كأنها أطراف سعف النخل، ينبت في مغايض الماء.

وكان ذو الحليفة منزل رسول الله ﷺ، إذا خرج من المدينة لحج أو عمرة، حيث ينزل في خروجه تحت شجرة في موضع المسجد الذي بذي الحليفة، ولهذا سمي مسجد الشجرة. فإذا قدم راجعاً هبط بطن الوادي، فإذا ظهر من بطن الوادي أناخ بالبطحاء التي على شفير الوادي الشرقية، فعرّس ـ نام ـ حتى

---

(١) خاخ، ويُقال: روضة خاخ، من معالم العقيق، بالقرب من حمراء الأسد، على الصفة اليسرى لوادي عقيق الحسا، قبل ذي الحليفة، على مسافة حوالي خمسة وعشرين كيلاً من المدينة النبوية.

يصبح، فيصلي الصبح. . وفي ذي الحليفة أتى الآتي رسول الله وقال له: إنك في وادٍ مبارك.

وفي ذي الحليفة كانت مزارع أبـي هريرة، وسعيد بن زيد. وقد مضى ذكرهما في المعالم. وعند ذي الحليفة يعدل الوادي شرقاً حتى سدّ عروة على وادي العقيق، بالقرب من قصر عروة وآباره المشهورة. في سند حرّة الوبْرة، حيث يعقها الوادي من طرفها ثم يتجه الوادي نحو الشمال، ويتجاوز العرصتين ــ الكبرى، والصغرى ــ ويفيض من زغابة حيث يلتقي وادي بطحان، ووادي قناة، ثم ينطلق إلى الغابة (الخليل). . .

والعرصة: الساحة الواسعة من الأرض، ويظهر أن العرصتين أوسع ما يكون على ضفاف الوادي، لتباعد الجبال في نواحيهما، وهذا ظاهر في العرصة الصغرى التي يوجد فيها قصر الضيافة، والعرصة الكبرى التي يوجد فيها بئر عثمان (رومة)، والعرصتان من أخصب أرض العقيق، وأطيبها هواءً وماءً.

ومن معالم العقيق في حوضه: الجماوات الثلاث، جمع جمّاء، وهي هضبات كبار قائمة بطرف العقيق على شفيره الغربـي، وسميت جماوات، لأنها دون الجبال، أو تشبيهاً لها بالشاة الجّماء التي لا قرون لها. وأولها: جماء تُضارِع، وهي التي يشاهدها الإنسان عندما يهبط من المدرج إلى بئر عروة ــ جسر عروة على العقيق في طريق ذي الحليفة ــ وهي من الصخر الأسود. وتليها إلى الشمال جماء أم خالد، وهي تميل إلى الحمرة، والجماوتان متصلتان. أما جماءُ العاقر، أو العاقل فهي مفصولة عنهما بطريق، وتنحرف نحو الشمال الغربـي.

هذا الوادي المبارك (العقيق) يظهر ــ من قراءَة النصوص الصحيحة ــ أنه لم يكن مأهولاً في الجاهلية التي سبقت الإسلام، ولا نعرف أحداً كان يملك فيه أرضاً، أو يزرع أرضاً، إلا ما رُوي في الصحيح أنَّ عثمان بن عفان، اشترى ــ في العهد النبوي ــ بئر رومة ــ في عرصة العقيق ــ من رجل مُزني،

أو غفاري، كما سيأتي بيانه عند الحديث عن «معالم العقيق».

وكان بنو سَلِمة، أقرب الناس سكناً من وادي العقيق، في نواحي مسجد القبلتين ــ ولكن مزارعهم كانت في حرة الوبرة ــ الغربية ــ ولم نعرف أنهم كانوا يزرعون عرصات العقيق، مع قُرْبها من منازلهم(١).

قلتُ: إن وادي العقيق بالمدينة لم يكن مأهولاً، وأريد بوادي العقيق، حدّه الذي يبدأ من ذي الحليفة (آبار علي) حتى مصبته في زغابة، عند ملتقى سيول

---

(١) أما ما رواه ابن شبّة في تاريخ المدينة (ص ١٤٩) عن ابن شهاب قال: «وُجد قبرٌ على جمّاء أم خالد ــ على ضفاف العقيق ــ أربعون ذراعاً في أربعين ذراعاً مكتوب في حجر فيه: أنا عبد الله من أهل نينوى، رسول رسول الله عيسى ابن مريم إلى أهل هذه القرية، فأدركني الموت، فأوصيت أن أُدفن في جماء أم خالد».

فهو خبر لا يصح سنداً، ولا متناً. أما السند، ففيه اثنان من أعلام الكذب، والوضع أما أحدهما: فهو يزيد بن عياض بن جُعْدبة، سئل الإمام مالك عنه، فقال: أكذبُ من الكذابين. وقال عنه النسائي: إنه كذاب، وقال ابن معين: كان يكذب.

وأما الثاني: فهو عبد العزيز بن عمران: قال ابن حبان: كان يروي المناكير عن المشاهير وقال عمر بن شبه: كان كثير الغلط. وقال البخاري: منكر الحديث، لا يكتب حديثه..

وأما المتن: ففيه أن القبر (أربعون ذراعاً في أربعين ذراعاً.. وهذا لا يصحّ، لأن مساحة القبر تكون ٢٠٠٠ × ٢٠٠٠ سم، يعني ٢٠ × ٢٠ متراً. وإذا كان طول القبر عشرين متراً لزعمهم أن الناس قبلنا طوال الأجسام، فما معنى أن يكون عرض القبر عشرين متراً؟ ومن الذي حفر هذا القبر، ولم نعرف أن أهل يثرب اتبعوا دين المسيح عليه السلام؟ وأما قوله: رسول عيسى ابن مريم إلى أهل هذه القرية، فلا يصحّ أيضاً، لأنَّ رسالات الأنبياء السابقين على الإسلام، كانت محدودة المكان والزمان، وقد أرسل عيسى إلى أهل فلسطين، وكانت لغته السريانية. وانظر روايات أخرى لهذا الخبر عن ابن زبالة، أحد أركان الكذب، في كتاب وفاء الوفا ص ١٥٨. وفيه أن صاحب القبر رسول سليمان بن داود إلى أهل يثرب... أقول: إن تاريخ المدينة قبل الإسلام محشو بالأساطير والخرافات والإسرائيليات، ويحتاج من مؤرخي المدينة إلى جُهْد لغربلته ونخله، لأن مثل هذا الخبر يبني عليه المستشرقون قصوراً من التأويلات، ثم تعود إلينا على أنها حقائق علمية.

المدينة الثلاثة، أما حدُّه من ذي الحليفة، فاذهب صعداً إلى النقيع، فقد كانت بعض نواحيه مأهولة، كما سيأتي بيانه في هذا البحث. والدليل على أن العقيق لم يكن مملوكاً، وأنه كان مواتاً، أن رسول الله ﷺ، أقطعه بلال بن الحارث المزني [الإصابة، ترجمة بلال بن الحارث ـ والمغني لابن قُدامة ٥/ ٥٧٠]. ولم تحدد الأخبارُ جزءاً من العقيق، فظاهر النصّ أن النبـيّ ﷺ أقطع بلال بن الحارث العقيق كله، بعيده وقريبه. [وفا / ١٠٤٠].

وقد ذكر البكري في إقطاع رسول الله العقيق لبلال بن الحارث قولين: فقال: وإنما أقطع رسول الله ﷺ بلالاً العقيق، وهو من المدينة، وأهل المدينة أسلموا راغبين في الإسلام غير مكرهين، ومَنْ أسلم على شيء فهو له؛ لأن أبا صالح[1] روى عن ابن عباس، أنَّ رسول الله لما قدم المدينة، جعلوا له كلَّ أرض لا يبلغها الماء، يصنع فيها ما شاء، قال ذلك أبو عبيد. قال: وقال بعضُ أهل العلم: إنما أقطع رسول الله بلالاً العقيق، لأنه من أرض مُزينة ـ وكان بلال بن الحارث من مزينة ـ ولم يكن لأهل المدينة. [معجم ما استعجم ٩٥٣]. ولكن في هذين القولين نظر: أما قوله فيما رواه عن ابن عباس «جعلوا له كلَّ أرض لا يبلغها الماء» فإنَّ أرض العقيق يبلغها الماء، ويمكن استنباط الماء من أرضه. فلا ينطبق على وادي العقيق هذا الحكم.

وأما قوله، فيما رواه بعض أهل العلم (أن العقيق من أرض مُزينة) فهذا قول مردود أيضاً، فلو كان العقيق ملكاً لمزينة، ما أقطعه رجلاً من مزينة، وقد أسلمت مُزينة قبل أن يكون إقطاعُ الوادي لبلال، كما سيأتي بيانه في زمن الإقطاع. ولم تذكر المصادر أنَّ العقيق القريب من المدينة (من ذي الحليفة إلى زغابة) كان من منازل مُزينة. وذكروا من منازلها في نواحي المدينة: الروحاء على مسافة ٧٤ كيلاً في طريق بدر. والفرع، على مسافة مئة وخمسين كيلاً جنوب المدينة، ومن أوديتهم، وادي ريم، على مسافة ستين كيلاً من المدينة

---

(١) أبو صالح هذا، اسمه ميزان البصري.

ومن جبالهم «وَرِقان» يبعدُ عن المدينة سبعين كيلاً نحو الجنوب. وجبل قدس «أدقس» ويطل على وادي الفرع. ويذكرون أيضاً في أعالي العقيق، قُرب النقيع. [انظر: المعالم الأثيرة ــ مادة مزينة ــ للكاتب].

والصحيح، أن رسول الله ﷺ، أقطع بلالاً العقيق، لأنه أرض عاديّة تباعد الزمن بين المالك الأول، وبين الزمن النبويّ، حتى أصبحت لا يُعرف لها مالك. قال عليه الصلاة والسلام: «عاديُّ الأرض لله ولرسوله ثم هو بَعْدُ لكم» رواه أبو عُبيد في «الأموال» وعاديُّ الأرض: التي كان بها ساكن في آباد الدهر فانقرضوا فلم يبق منهم أنيس. وإنما نسبها إلى «عاد» لأنهم كانوا مع تقدمهم ذوي قوة وبطش وآثار كثيرة، فنُسب كلُّ أثرٍ قديم إليهم. [المُغْني ٥/ ٥٦٤].

ويظهر من نصوص الأخبار، أن العقيق الذي أقطعه الرسولُ ــ عليه الصلاة والسلام ــ بلالاً، كان قريباً من عُمران أهل المدينة، أو كانت بعض أطرافه قريبة من العمران، لما ذكر ابن قُدامة في «المُغْني» قال: «فأما ما قرب من العامر (من الموات) ولم يتعلق بمصالحه، ففيه روايتان: إحداهما: يجوزُ إحياؤه لأن النبيّ ﷺ أقطع بلال بن الحارث العقيق، وهو يعلم أنه بين عمارة المدينة، لأنه مواتٌ لم يتعلق به مصلحة العامر، فجاز إحياؤه كالبعيد. [المغني ٥/ ٥٦٧]. وهذا ينطبق على العقيق المجاور للمدينة لكن قوله: «بين عمارة المدينة» فيه نظر، فقد كان العقيق في أطراف عمارة المدينة، وكلمة «بَيْن» تقتضي الإحاطة، والإحاطة لم تكن حاصلة. ثم إن القُرب والبُعْد ليس لهما حدٌّ معروف، وإنما يُعرفان بالعُرْف.

والظاهر أن عُمران المدينة كان بعيداً عن مواطن الإقطاع، لأنَّ الليث بن سعد، حدّد المكان الذي يجوز إقطاعُه، ولا يتعلق بمصالح العامر أن يكون على مسافة غَلْوة، وهي خُمْس الفرسخ، فإذا كان الفرسخ يقارب ثمانية أكيال (٨٠٠٠م) فإن خمس الفرسخ (١٦٠٠م) وهو حدٌّ مقبول لأقرب مناطق العقيق من عمران المدينة في بداية الهجرة النبويّة.

وقال أبو حنيفة: حدُّ البعيد، الذي يجوز إقطاعه من موات الأرض، هو الذي إذا وقف الرجل في أدناه، فَصاح بأعلى صوته، لم يسمع أدنى أهل المصر إليه، وهذا تحديد غير مفهوم، ولا يُعدُّ تحديداً، لأن الأصوات تختلف في قوتها، حسب الناس، والوقت، فالصوت في النهار غيره في هدأة الليل. وقال ابن قُدامة: إنَّ التحديد لا يُعرف إلا بالتوقف ولا يُعرف بالرأي ولم يرد في الشرع تحديدٌ لذلك، فوجب أن يرجع في ذلك إلى العُرْف وقول مَنْ حدّد ــ بالغَلْوة، أو بسماع الصوت ــ تحكُّمٌ بغير دليل، وليس ذلك أولى من تحديده بشيء آخر، كميل ونصف ميل (والميل ٢٦٦٦م) ونحو ذلك، وهذا التحديدُ الذي ذكراه ــ الليث وأبو حنيفة ــ والله أعلم، يختص بما قرب من المصر أو القرية، ولا يجوز أن يكون حدّاً لكل ما قرب من عامرٍ لأنه يُفضي إلى أنَّ مَنْ أحيا أرضاً في موات، حرم إحياء شيء من ذلك الموات على غيره، ما لم يخرج عن ذلك الحدّ. [المغني ٥/٥٦٨].

ويظهر من أحكام إحياء الموات، أن أرض العقيق، بعيدها وقريبها، لم تكن تتعلق بها مصلحة أهل المدينة، ولم يكونوا يستفيدون منها بوجه من الوجوه، لأنَّ ابن قُدامة يذكر الأماكن التي لا يجوز إحياؤها، فيقول: «وكذلك ما تعلق بمصالح القرية، كفنائها، ومرعى ماشيتها، ومحتطبها، وطرقها، ومسيل مائها، لا يُملك بالإحياء، ولا نعلمُ فيه خلافاً بين أهل العلم، وكذلك حريم البئر والنهر والعين وكل مملوك لا يجوز إحياء ما تعلق بمصالحه، لقوله عليه الصلاة والسلام «مَنْ أحيا أرضاً ميتةً في غير حقّ مسلم، فهي له» مفهومُه: أنَّ ما تعلّق به حقُّ مسلم لا يُملك بالإحياء، ولأنه تابع للملوك ولو جوزنا إحياءه لبطل الملك في العامر على أهله.

وأكثر ما عرفنا من بيوت، وبساتين وآطام أهل المدينة قبل الإسلام، محصورةٌ بين الحرتين الشرقية والغربية، وبين جَبَلَيْ أُحد في الشمال، وعيْر في الجنوب وأما ما بَعْد الحرّة الغربية حيث يمتد وادي العقيق على طول الحرّة من

الجنوب في ذي الحليفة إلى الشمال، حيث الغابة، فلم يذكروا فيها مساكن وبساتين.

متى كان الإقطاع:

نأخذ من نصوص الأخبار، أنَّ الإقطاع تم بعد فتح مكة، في المدة الكائنة بين الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ثمان من الهجرة ــ حيث وصل رسول الله إلى المدينة قافلاً من فتح مكة ــ واليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، حيث توفي رسول الله ﷺ.

وقد حددت هذه المدّة، لأن ابن شبة يروي أن رسول الله ﷺ أقطع بلال بن الحارث المُزني، العقيق، وكتب له فيه كتاباً، نسخته:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما أعطى محمدٌ رسول الله بلال بن الحارث، أعطاه من العقيق ما أصلح فيه معتملاً» وكتب معاوية. [تاريخ المدينة ج ١/ ١٥٠].

ومعاوية بن أبي سفيان ــ رضي الله عنهما ــ الذي كتب نسخة الإقطاع، أسلم أو أعلن إسلامه، عام الفتح في رمضان سنة ثمان من الهجرة، ولم يرجع رسول الله إلى المدينة إلا في أواخر شهر ذي القعدة من السنة نفسها، وكانت الوفاة سنة ١١هـ في ربيع الأول.

وكان بلال بن الحارث قدم في وفد مُزينة سنة خمس من الهجرة، وشاركت القبيلة في فتح مكة، وكان بلالٌ صاحب لواء مزينة، وشاركت أيضاً في غزوة حُنين.

* هل أقطع رسول الله بلالاً العقيق كلَّه؟

نقل ابن قدامة في «المُغْني» أن رسول الله ﷺ أقطع بلال بن الحارث العقيق أجمع» [٥/ ٥٧٠]. ونقل السمهودي، أن رسول الله أقطع بلال بن الحارث كلَّ العقيق، بعيده وقريبه [وفا/ ١٠٤٠].

ولكن نسخة الإقطاع تقول «أعطاه من العقيق ما أصلح فيه مُعْتملاً» و «مِنْ» تدل على التبعيض. ولعلهم فهموا معنى «كلية العقيق» من قوله: «ما أصلح فيه معتملاً» ويكون المعنى: أعطاه من العقيق الذي أصلح فيه معتملاً، ولو أصلح العقيق كلَّه، كان داخلاً في الإقطاع. ولكن قد تكون «ما» هنا مصدرية ظرفية، ويكون المعنى: أعطاه من العقيق مدة إصلاحه فيه معتملاً، ومع الظرفية، تبقى «من» للتبعيض. ويؤيد التبعيض، ما رواه ابن شبة قال: جاء بلال بن الحارث إلى رسول الله ﷺ، فاستقطعه أرضاً، فقطعها له طويلة عريضة» [تاريخ المدينة ١/ ١٥٠]. ولم يحدد اسم الإقطاع.

ولعلّ الذي روى أن الرسول عليه السلام، أقطع بلالاً «العقيق» أراد عقيقاً معهوداً من أعقة المدينة، حيث قسّم بعضهم عقيق المدينة إلى أجزاء، وأطلق على كل جزء اسم العقيق، فقال القاضي عياض: وهما عقيقان، أدناهما: عقيق المدينة، وهو أصغرُ وأكبرُ، فالأصغر فيه بئر رومة والأكبر فيه بئر عروة. والعقيق الآخر على مقربة منه، وهو من بلاد مزينة، وهو الذي أقطعه النبيّ ﷺ بلال بن الحارث، وأقطعه عمرُ الناس. والعقيق الذي جاء فيه «إنك بوادٍ مبارك» هو الذي ببطن وادي ذي الحُليفة، وهو الأكبر منهما ـ أي ـ من العقيقين المنقسم أحدهما إلى الكبير والصغير. [معجم البلدان ـ عقيق].

فالأعقة عند عياض أربعة، ونصَّ على أن العقيق الذي أقطع لبلال بن الحارث يقع ما بين بئر عروة، وذي الحليفة. والله أعلم.

* بداية استبحار العمران بوادي العقيق؛ في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قال ابن قدامة رحمه الله: إنَّ مَنْ أقطعه الإمام شيئاً من الموات لم يملكه بذلك، لكن يصيرُ أحقَّ به، كالمُتحجّر الشارع في الإحياء، بدليل ما ذكرنا من حديث بلال بن الحارث حيثُ استرجع عمرُ منه ما عجز عن إحيائه من العقيق الذي أقطعه إياه رسول الله ﷺ، ولو ملكه لم يجز استرجاعه... لكن المُقْطع

يصير أحقَّ به من سائر الناس وأولى بإحيائه، فإنْ أحياه، وإلا قال له السلطان: إنْ أحيْيته وإلا فارفع يدك عنه، كما قال عمر لبلال بن الحارث المزني: إنَّ رسول الله لم يُقطعك لتحجزه دون الناس، وإنما أقطعك لتُعمّر، فخذْ منها ما قدرت على عمارته ورُدَّ الباقي. [المغني ٥/ ٥٧٩].

ويبدو أن الإقطاع بقي في حوزة بلال بن الحارث مدّةً تزيد على ثلاث سنوات ثم ظهر عجزه عن إحياء الأرض، لما روى الماوردي، في الأحكام السلطانية بأن عمر بن الخطاب جعل أجل إحياء الإقطاع ثلاث سنين. [ص ١٩١].

وكانت مسألة إحياء الأرض، وتوزيعها بين المسلمين تشغلُ عمر بن الخطاب لكثرة الناس في عهده في المدينة، حيث وفدت إليها جموعُ المسلمين، وأصبحت عاصمة كبرى، تنطلق منها جيوش الفتح، ويقدم إليها مَنْ لم يحْظ برؤية رسول الله ﷺ، لالتقاء الصحابة وأخذ العلم عنهم.. ولذلك كثُر الناس في المدينة ولم تعد تتسع لهم بحيزها المعروف في أول الهجرة...

وعندما تولى عمر الخلافة دعا بلال بن الحارث وقال له: «قد علمت أن رسول الله لم يكن يمنع شيئاً سُئله، وإنَّك سألته أن يُعْطيك العقيق فأعطاكه فالناسُ يومئذٍ قليل لا حاجة لهم، وقد كثُر أهلُ الإسلام واحتاجوا إليه، فانظر ما ظننت أنك تقوى عليه فأمسكه واردد إلينا الباقي، نقطعه» وكان عمر بن الخطاب مصراً على طلبه، لما يرى من حاجة المسلمين إلى أرض العقيق ولذلك يروي ابنُ شبة، أن بلالاً أبى ردّ ما أقطعه رسول الله، فقال عمر: والله لتفعلنَّ، بصيغة التوكيد، فأخذ منه ما عجز عن عمارته فقسّمه بيْن المسلمين.

وقوله: «فقسمه بين المسلمين» هناك روايات تحدد المسلمين الذين أقطعهم عمر بن الخطاب ما أخذه من بلال بن الحارث، ويُفهم منها أن عمر بن الخطاب أقطع ما أخذه من بلال بن الحارث لقومٍ من مزينة، لما روى ابن شبة عن الحارث بن بلال بن الحارث عن أبيه (أن عمر بن الخطاب قال لأبيه) إن

النبيّ ﷺ لم يُعطك لتحجره على الناس، قال: فأقطع عمر رضي الله عنه العقيق بيننا» [تاريخ المدينة ١/ ١٥٠]. وقوله «بيننا» القائل: بلال بن الحارث، أو ابنه الحارث[1]، و«بيننا» مضافة إلى «نا» المتكلمين، تعني أن الذين أقطعهم عمرُ العقيق.. بعد بلال بن الحارث، من قبيلة مزينة، أو أقرباء بلال بن الحارث. ويؤيد هذا المعنى رواية أُخرى تقول: «إن رسول الله أقطع بلالاً أرضاً، فلما كان عمرُ رضي الله عنه، ترك في يده ما يُعمّر وأقطع بقيتها عتيره»[2] [تاريخ المدينة ١/ ١٥١] ولعلها: عترته، أو عشيره، والضمير فيها يعود إلى بلال بن الحارث.

ولم نعرف ممن أقطعهم عمر بن الخطاب.. من العقيق، إلا خوات بن جبير الأنصاري رضي الله عنه، حيث روى ابن شبة عن عروة قال: أقطع عمر رضي الله عنه العقيق، حتى انتهى إلى أرض فقال: ما أقطعتُ مثلها، فقال خَوّات بن جُبير، أقْطعْنيها، فأقطعها إياه [تاريخ المدينة ١٥١].

ونعرف عدداً من الصحابة كانوا يسكنون العقيق، أو كانت لهم فيه مزارع ولكننا لا نعرف كيف حصلوا على الأرض، ومتى سكنوا العقيق؛ أذكر منهم سعيد بن زيد العدويّ أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، توفي بالعقيق، فحمل إلى المدينة. ومنهم أبو هريرة رضي الله عنه، وكان له أرضٌ قرب ذي الحليفة. وفي الجُرْف ــ وهو من العقيق ــ توفي المقداد بن الأسود. وعبد الرحمن بن عوف كانت له أرض بالجرف، وبالجرف أيضاً مالٌ (بستان) لعمر بن الخطاب.

---

(١) جاء في رواية «المغني» لابن قدامة، أن المتحدث هو الحارث بن بلال، قال: وذكر سعيد في سننه، حدثنا عبد العزيز بن محمد عن ربيعة قال: سمعت الحارث بن بلال بن الحارث يقول: إن رسول الله أقطع بلال بن الحارث العقيق، فلما ولي عمر بن الخطاب قال: ما أقطعك لتحتجنه، فأقطعه الناس» [٥/ ٥٧٠] وقال: «فأقطعه الناس» ورواية ابن شبة «بيننا».

(٢) عتيره: هكذا جاءت.. وشرحها المحقق «العتير» الأقرباء ونسب ذلك للسان العرب.. وليس فيه «العتير» وإنما هو «العتيرة» شاة تُذبح. والأقرباء هم «العترة» بدون ياء، ولعلها تكون «العشير»: بمعنى العشيرة.

ونقل الفيروزأبادي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه خلج خليجاً حتى صبّه في باطن بلد من الجرف وجعله لبناته من نائلة بنت الفرافصة [المغانم ص ٨٨]. ويبدو أنَّ صنع عثمان بن عفان كان في أيام خلافته.

ويبلغ وادي العقيق ذروة عمرانه في العصر الأموي، وبداية العصر العباسي، وربما بقي مُزْدهراً حتى نهاية القرن الثالث، من أعالي الوادي إلى أسافله على امتداد يزيد على عشر أكيال، ولعلّ أقرب وصف وصلنا لعصر عُمران العقيق ما كتبه أبو علي الهجري، الذي عاش في القرنين الثالث والرابع، وسكن وادي العقيق، ونقل إلينا وصْف الهجري للعقيق، البكري في كتابه «معجم ما استعجم» ص ١٣٣١، والسمهودي في وفاء الوفا ص ١٠٥٣، وحقق النصّ الأستاذ حمدُ الجاسر في كتابه «أبو علي الهجري، وأبحاثه في تحديد المواضع» ص ٢٩٧. قال أبو علي الهجري: إنَّ سيل الوادي (العقيق) يُفضي إلى الشجرة التي بها مُحْرَمُ رسول الله ﷺ، ثم يلي ذلك مزارعُ أبي هريرة رضي الله عنه، ثم تتابع القصورُ يَمْنةً ويَسْرة بها منازل الأشراف من قريش وغيرهم، فيها يتبدَّوْن، منها منازل عن يمين الجائي من مكة بسفح جبل عَيْر.. ويذكر أسماء أصحاب عدد من القصور.. ووجاه ذلك في قبالة جمّاء تُضارع منازل .. ووجاهها في صِيْر حرّة الوَبْرة مزارعُ عروة بن الزبير وبئره، وأسفل منها البئرُ التي تُعرف ببئر المغيرة بن أبي العاص، وأسفل منها بئرُ زياد بن عبد الله المداني وحوضُها، وضفائرُ قصْر المراجل، والزّبيني، قصْر سكينة بنت الحسن.. وقصور فوق الزبيني لإسحق بن أيوب متتابعة وفوقها قصورٌ كثيرةٌ لغير واحد.. ثم يذكر العرصات وما فيها من القصور، وأشهرها قصر سعيد بن العاص.. ثم يفضي السيلُ إلى الجُرْف، وفيه سقايةُ سليمان بن عبد الملك.. ويلي ذلك الزغابةُ، وفيها مزارع وقصور... إلخ والأسماء التي أضيفت إلى القصور، منها الأموي، ومنها العباسي.

وهؤلاء الذين عَمَرُوا العقيق في العصر الأموي، منهم مَنْ أقطع أرضه،

ومنهم مَنْ اشتراها ممن أُقطع، لأننا نفهم من أخبار العقيق، أن مساحاتٍ من أرض العقيق بقيت بيد أمير المؤمنين، أو أمير المدينة، وأصبحت مما يُسمّى اليوم، أملاك الدولة، لأنهم قالوا: إن بني أمية كانوا يمنعون البناء في العرْصة، وأنَّ سلطان المدينة لم يُقطع فيها قطيعة إلا بإذن الخليفة [وفا/ ١٠٥٤]. ويروى في قصة بناء قصر عروة بن الزبير أن أحد القرشيين من سكان العقيق، وشى به عند أمير المدينة، أنه حمل على حقّ السلطان، فهدم أميرُ المدينة جنابذه وضفائره وسد بثاره فلما وصل الخبر إلى الوليد بن عبد الملك، كتب إلى أمير المدينة: ما عُروةُ ممن يُتّهم فدعه وما انتقص من حقّ السلطان. [وفا/ ١٠٤٤].

قلت: إن عمران العقيق بقي مزدهراً حتى نهاية القرن الثالث، ثم أخذ بالتقلص وهجره أهله، وقبعوا وراء أسوار المدينة. وقد بدأ حبلُ الأمن ينقطع منذ أواخر القرن الثاني، لما روي أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً من مُزينة على وادي النقيع.. فلم تزل الولاةُ يولّون عليه والياً منذ عهد رسول الله يستعمله والي المدينة، حتى كان داودُ بن عيسى، فتركه سنة ثمان وتسعين ومئة وإنما تركه داودُ، لأنَّ الناسَ جَلَوا عنه للخوف ذلك الزمان، فلم يبق فيه أحدٌ يستعملُه عليه. ولا شك، أن بناء سورٍ حول المدينة، يمثل حال الخوف الذي كان يعيش فيه أهل المدينة في مركز السكان، فكيف يكون حال الناس الموزّعين في الأطراف؟ وقد ذكرت المصادرُ أنَّ أول سور بني حول المدينة كان سنة ٢٦٣هـ، بناه إسحق بن محمد الجعدي. ونقل عن ابن خلكان أن أول مَنْ بنى على المدينة سوراً، عضدُ الدولة ابن بويه، بعد الستين وثلاثمائة (سنة ٣٦٠هـ) في خلافة الطائع لله بن المطيع لله. [تاريخ معالم المدينة، لأحمد ياسين الخياري ص ٢٥١]. وربما بقي العقيق خاوياً من سُكّانه من بداية القرن الخامس حتى بداية العصر الحديث، وبقي مع ذلك متنزهاً لهم يخرجون إليه في النهار، ويختبئون ليلاً وراء الأسوار.

● **الملك عبد العزيز يحكم في قصة إقطاع العقيق:**

قبيلة مُزَينة (المزيني) في العصر الحديث، عند رجالها أَدلةٌ، على أنها امتداد لقبيلة مُزَينة المضرية التي ورد ذكرها في الجاهلية وصدر الإسلام، وخصها رسول الله ﷺ بالمدح مع عدد من القبائل، حيث قال: «قريشٌ والأنصار وجُهينة ومُزينة وأسلمُ وغِفارُ، وأشجعُ، مواليَّ، ليس لهم مولى دون الله ورسوله» [البخاري ك ٦١ باب ٦].. وبناءً على ذلك، فهم ورثة بلال بن الحارث المزني، الذي أقطعه رسول الله العقيق، وتمسكوا بروايتين في تاريخ المدينة لابن شبة، تنصُّ على أن عمر بن الخطاب، استرجع ما لم يعتمله بلال من الإقطاع النبويّ، ووزعه على أقارب بلال من بني مُزينة، وبهذا لم يخرج الإقطاع من القبيلة. وروى صاحب كتاب «قبيلة مُزينة» أن الشريف سعد بن زيد، الملقب «الشقدمي» أمير المدينة، جدد لقبيلة مُزينة نسخة الإقطاع، ولم يحدد تاريخ التجديد. وروى مُساعد بن مسلم المزني، صاحب كتاب «قبيلة مزينة» عن الشيخ عايض بن عثيان الهويملي المزيني، أن وثيقة تجديد الإقطاع قرأها الشيخ عبد العزيز بن صالح، على الشيخ عبد الله بن زاحم، وكان إذ ذاك مساعداً له سنة ١٣٦٨هـ.. وتجعل الوثيقة الحرّة الغربية في المدينة من الإقطاع، ولذلك قال: إن الدولة العثمانية لما أرادت إدخال السكة الحديدية إلى المدينة، وأن تجعل طريقها إليها من الجهة الغربية دافعت مزينةُ عن أرضها، وألّبت قبائل الحجاز على الحكومة التركية، عندئذٍ قررت الحكومةُ التركيةُ شراء الأرض، ودفعت ثمنها لقبيلة مزينة.

وروي عن أحد شيوخ مزينة ممن عاصروا الملك عبد العزيز: أن الملك عبد العزيز ــ رحمه الله ــ لما دخل المدينة جاءَه رؤساء مزينة وعلى رأسهم حجاب بن نحيث وذكروا له أرضهم وأخبروه بما معهم من الوثائق، فدعا الملك الشيخ عبد الله بن زاحم ــ رحمه الله ــ فسأله عن قضيتهم، فقال

الشيخ: هذه قضيةٌ قديمة قد توالت عليها قرون، وبحث موضوعها كثير من العلماء في المدينة، وهي تأخذ كلَّ غربي المدينة وجزءاً من شمالها، فقال الملك: اقض لهم بها، فتوقفَ الشيخ عن القضاء ـ فقال الملك: ما هو الحلُّ في نظرك؟ قال الشيخ: لا يمكن أن يحلَّ مشكلتها إلا حاكم ينظرُ للصالح العام.. فأخذ الملكُ تلك الوثيقة من أيديهم وحكم في القضية بما حكم به عمر بن الخطاب في صدر الإسلام، وقال: مَنْ أحيا من هذه الأرض فهي له، وإنْ أحياها كلها، ومن كان من مُزينة في نجد وأراد شيئاً من هذه الأرض فليحيى ما شاء منها وهي له، وما عدا ذلك فإن الأرض لله يُورثها مَنْ يشاء، ولا يمكن أن تبقى مُزينة مالكة أطراف المدينة وهي لا تعمل بها، ولا تسكنها، ويُمنع عنها الآخرون. [قبيلة مزينة ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢].

ويؤخذ من توقف الشيخ عبد الله بن زاحم عن الحكم في القضية: الاختلاف بين العلماء في حدود العقيق الذي أقطعه رسول الله لبلال بن الحارث، فهناك مَنْ يرى أنه محصور بين بئر عروة ـ وذي الحُلَيفة، كما جاء في تقسيم عياض للعقيق. وهناك خلاف حول مَنْ أقطعه عمرُ العقيق، بعد بلال، فقد يكون أقطعه لأقرباء بلال بن الحارث، يضاف إليه ما بقي بيد بلال منه، لأن عمر لم يأخذ من بلال الإقطاع كلّه. وأما حكم الملك عبد العزيز فهو مبني على أمرين: الأول: على الوراثة التي يراها بنو مزينة للعقيق. والثاني: كون العقيق في بداية العهد، كان في أكثره مواتاً[1]، مضى على خرابه قرون، فكأن الإقطاع السابق ـ في صدر الإسلام ـ قد انتهى، لأن الإقطاع مشروط بالإحياء، وإطلاق

(١) مما يدل على أن العقيق كان مواتاً في بداية العهد السعودي، أن عبد القدوس الأنصاري، طبع كتابه «آثار المدينة» سنة ١٣٥٣هـ وجاء فيه قوله: فما هوت دولة بني أمية حتى ذوى العقيق ثم صار في خبر «كان» إلى الآن، ولا ندري هل تعود إليه نضارته ومتى؟ [ص ٢٢٧].

يد مزينة في إحيائه مجدّداً، يُعدُّ إقطاعاً جديداً، لا علاقة له بالإقطاع الذي كان في صدر الإسلام. والله أعلم.

أعلام ومعالم في وادي العقيق:

نزل وادي العقيق عددٌ من الصحابة والتابعين، ممن كان لهم ذِكْرٌ يؤثر وجهاد محمود ومنزلة متقدمة، لأنهم جمعوا بين العلم والعمل، وعملوا لدنياهم وآخرتهم، فذاع ذكرهم في الخافقين، وكُتب اسمهم في سجل الخالدين، أذكر منهم:

١ ــ سعيد بن زيد بن عمرو العدويّ: أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، زوج فاطمة بنت الخطاب، أخت عمر بن الخطاب، التي كان إسلام أخيها على يديها جاهد مع رسول الله ﷺ، وحضر اليرموك، وفتح دمشق. كانت له أرض ودار بالشجرة من ذي الحليفة بالعقيق المبارك، وتوفي بالعقيق سنة ٥١هـ فحُمل إلى المدينة ودفن بها. وكانت له مع جارته في العقيق أروى بنت أويس قصة. حيث ادّعت أن سعيد بن زيد انتقص من أرضها وأضافه إلى أرضه، واستعدت عليه مروان بن الحكم أمير المدينة، فترك سعيدٌ ما ادعت، فجاء سيلٌ فأبدى عن ضفيرتها فإذا حقُّها خارجٌ عن حقّ سعيد، فجاء سعيد إلى مروان فركب معه والناس حتى نظروا إليها. وكان سعيد بن زيد مستجاب الدعوة، فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها واجعل قبرها في دارها، فقالوا: إنها عميت وسقطت في بئرها فماتت. وروى البخاري أن سعيد بن زيد قال: «أنا أنتقصُ من حقها شيئاً؟ أشهد لسمعتُ رسول الله يقول: مَنْ أخذ شبراً من الأرض ظلماً يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين». [البخاري ك ٤٦ ب ١٣]. وانظر [الإصابة ــ ترجمة سعيد].

٢ ــ أبو هريرة الدوسي، تُوفي سنة ٥٧هـ. وولي إمارة المدينة مرات أيام معاوية ابن أبـي سفيان. مع علمه الغزير، وكثرة حفظه الحديث النبوي، شُهر أنه صاحب زَرْع. لما روى البخاري عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ

أمسك كلباً فإنه ينقص كلَّ يوم من عمله قيراطٌ، إلا كلب حَرْث أو ماشية» وفي صحيح مسلم عن ابن عمر أنَّ النبـيّ ﷺ أمر بقتل الكلاب إلا كلب صيد أو كلب غنم. فقيل لابن عمر: إن أبا هريرة يقول: أو كلب زرع، فقال ابن عمر: إن لأبـي هريرة زرْعاً. قال ابن حجر: يقال: إن ابن عمر أراد بذلك الإشارة إلى تثبيت رواية أبـي هريرة وأن سبب حفظه لهذه الزيادة دونه أنه كان صاحب زرع دونه، ومن كان مشتغلاً بشيء احتاج إلى تعرّف أحكامه(1). [الفتح ٥/٦]. ونقل السمهودي في [وفا ٢/٢٠٩]: كان أبو هريرة نزل الشجرة قبل أن تكون مزدرعاً، فمرّ به مروان بن الحاكم، وقد استعمله معاوية على المدينة فقال: مالي أراك هاهنا! ؟ قال: نزلتُ هذه البريّة، مع أني أصلي في مسجد رسول الله بذي الحليفة، فأقطعه مروان أرْضه، وضفرها(2) له، فتصدق بها أبو هريرة على ولده.

٣ ــ سعد بن أبـي وقاص، رضي الله عنه، توفي سنة ٥٨هـ بالعقيق، وحمل إلى المدينة، فصُلي عليه في المسجد النبوي. ومآثره لا تحصىٰ. روى ابن حجر في الإصابة، أن سعد بن أبـي وقاص حين رأى اختلاف الصحابة وتفرقهم، بعد مقتل عثمان، اشترى أرضاً ميتةً ثم خرج واعتزل فيها بأهله. وجاءَه ابن أخيه هاشم بن عتبة فقال: هاهنا مئة ألف سَيْف يَرونْك أحقّ بهذا الأمر ــ الخلافة ــ فقال: أريدُ منها سيفاً واحداً إذا ضربتُ به المؤمن لم يصنعْ شيئاً، وإذا ضربتُ به الكافر قطع، وفي رواية أنه قال: أعطني سيفاً، يقول: هذا مؤمن وهذا الكافر. وفي روايات أنه كان ينزل في «قَلَهيّ» وهي لا تعرف بهذا الاسم

---

(1) يظهر من نصوص الأحاديث أن أبا هريرة عمل في الزراعة بعد العهد النبوي، لأنه كان يلازم رسول الله، فكثر حفظه الحديث فقال الناس: أكثر أبو هريرة، فقال معللاً: إن المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، والأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم (البساتين) [انظر: البخاري، كتاب العلم، باب حفظ العلم].

(2) ضَفَر الشعر ونحوه، نسج بعضه على بعض، وقد يكونون أخذوا منه: الضفر، والضفيرة حول الأرض، وهو ما يُبنى في وجه السيل. والضَّفْر: ما تجمع من الرمل وعظم. والضفر أيضاً: البناء بحجارة بغير كلس ولا طين..

اليوم، وربما تكون في نواحي بئر الماشي في طريق الهجرة، على مسافة حوالي أربعين كيلاً من مركز المدينة النبوية. وبئر الماشي، يعدُّه بعضهم من العقيق الأقصىٰ، من ذي الحليفة إلى حمىٰ النقيع، لأنَّ مَنْ ترجم لسعد قال: إنه كان يسكن العقيق.

٤ ــ سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص القرشي الأموي.. كان له يوم مات النبي ﷺ تسع سنين، وتوفي سنة ٥٩هـ بقصره، بعرْصة العقيق. كان من فصحاء قريش، ولهذا ندبه عثمان فيمن ندب لكتابة القرآن. روى ابن حجر في الإصابة: أن عربية القرآن أُقيمت على لسان سعيد بن العاص، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله ﷺ... ولي الكوفة، وولي المدينة[1] أيام معاوية.. وكان مشهوراً بالكرم والبر حتى شهد إذا سأله السائلُ وليس عنده ما يعطيه، كتب له بما يريدُ أن يُعطيه مسطوراً، فلما مات كان عليه ثمانون ألف دينار، فوفاها عنه ابنه، عمرو الأشدق.

قال السمهودي: ابتنى سعيد بن العاص بالعَرْصة قصراً في سُرَّتها، واحتفر بها، وغرس النخل والبساتين، وكان نخلها أبكر شيء بالمدينة. وقال: وكان نخلُ سعيد بالعرصة لا يطير حمامها، وهو الذي ذكره أبو قطيفة في غربته، وفضّله على دمشق، فقال:

والقصرُ ذو النخيل فالجمّاءُ بينهما ... أشهى إلى النفس من أبواب جَيْرون

.. ومكان القصر داخل سورِ قصر الضيافة في المدينة.

٥ ــ عروة بن الزبير: من التابعين، وأحد الفقهاء السبعة في المدينة، توفي سنة ٩٤هـ. قال السمهودي: فلما كانت سنة إحدى وأربعين، أقطع مروان بن الحكم، عبد الله بن عياش المخزومي القرشي، أرضاً في العقيق، فاشترى عروة موضع قصره وأرضه وبئاره من عبد الله بن عياش (توفي

---

(١) ولي إمارة المدينة من سنة ٤٩ ــ ٥٦هـ. ويبدوا أنه بنى قصره في هذه المدّة، لأنها كانت مدة الاستقرار في المدينة، فقد ولاه عثمان الكوفة، ورجع إلى المدينة ودافع عن عثمان أيام الحصاره، ثم اعتزل الفتنة وسكن الطائف.

سنة ٦٤هـ).. وابتنى واحتفر وحجر وضفر، وقيل له: إنك لست بموضع مدر، فقال: يأتي الله به من النقيع، فجاء سيل فدخل في مزارعه، فكساها من خليج كان خلجه... وكان قصره، وآباره، ومزارعه، بالقرب من الجسر الممتد على وادي العقيق، في الطريق إلى ذي الحليفة، ويسمى جسر العقيق، أو جسر عُرْوة.

وقولهم: إن عروة اشترى موضع قصره من عبد الله بن عياش، لا يعني أنه اشترى منه الإقطاع يوم أقطعه مروان سنة ٤١هـ.. ولعلّ عروة اشترى من ورثة عبد الله بن عياش، لأن عروة ولد سنة ٢٣هـ وفي سنة الإقطاع كان صغيراً، وقد يكون بدأ البناء في خلافة الوليد بن عبد الملك[1]، وفي إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة لأن قصة الوشاية به أنه أخذ من أرض السلطان، كانت في إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة سنة ٨٦هـ.

.. هذا، وكانت بئر عروة مشهورة بعذوبة مائها، قال الزبير بن بكار: «رأيتُ الخُرّاج من المدينة إلى مكة وغيرها ممن يمرُّ بالعقيق، يخففون من الماء حتى يتزودوه من بئر عروة، وإذا قدموا منها بماء، يقدمون به على أهلهم يشربونه في منازلهم عند مقدمهم، قال: ورأيتُ أبـي يأمر به فيغلى ثم يجعل في القوارير ثم يهديه إلى أمير المؤمنين هارون بالرقّة.. وقد أكثر الشعراء من ذكر بئر عروة سنذكر نماذج منه عند الحديث عن العقيق في الشعر العربـي».

٦ ــ بئر رومة: تقع بئر رومة فيما سموه «العقيق الصغير» في عرصة العقيق الكبرى، بقُرْب مجتمع الأسيال، قبلي الجُرْف، وشمال مسجد القبلتين.

---

(١) يغلب على الظنّ أنه بنى قصره، بعد سنة ٧٤هـ. وقبل هذا التاريخ لم يكن له مستقرّ بالمدينة فروى الذهبـي أن عروة وفد على ابن عباس بالبصرة وهو عامل عليها، ثم لحق بمصر وتزوج هناك وربما بقي حوالي عشر سنوات، وفي أيام سلطان أخيه عبد الله أقام بمكة تسع سنين، يعني مدة ولايته، قال الذهبـي: لما قتل ابن الزبير خرج عروة إلى المدينة بالأموال فاستودعها، وسار إلى عبد الملك، فقدم عليه قبل البريد بالخبر، ثم كان استقراره بالمدينة بعد مقتل أخيه. [سير أعلام النبلاء ٤/٤٢١].

ولا زال مكانها معروفاً، يقصده مَنْ يريد دراسة الآثار في المدينة النبوية[1] ولكن هذه البئر أصبحت معطلة، مع غزارة الماء في بقعتها، حيث حُفرت بئر بجانبها لسقاية بستانها في العصر الحديث، وقد يقال لها اليوم «بئر عثمان» والمقصود عثمان بن عفان رضي الله عنه، لأنَّ قصة البئر في الإسلام مقرونة باسم عثمان بن عفان. نقل ابن حجر في «الفتح» عن «البغوي» في «الصحابة» قال: «لما قدم المهاجرون المدينة، استنكروا الماء، وكانت لرجل من بني غفار، عين يُقال لها «رُومة» وكان يبيعُ منها القربة بمُدّ (تمر) فقال له النبيّ ﷺ: «تبيعُنيها، بعينٍ في الجنة؟ فقال: يا رسول الله، ليس لي ولا لعيالي غيرها» فبلغ ذلك عثمان رضي الله عنه، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبيّ ﷺ فقال: أتجعل لي فيها ما جعلت له؟ قال: نعم. قال: قد جعلتُها للمسلمين» [الفتح ٥/٤٠٧].

وروى البخاري في كتاب «الوصايا»: «أن عثمان رضي الله عنه، حيث حوصر، أشرف عليهم وقال: أنشدكم الله، ولا أنشد إلا أصحاب النبيّ ﷺ: ألستمْ تعلمون أنَّ رسول الله قال: «مَنْ حفر رُومة فله الجنة، فحفرتُها؟.. قال: فصدقوه».

وأصح الآثار فيها ما ذكرتُه، أما الآثار التي تنسبها إلى يهوديّ ـ في الجاهلية ـ وإلىٰ «المُزني» فهي ضعيفة. أما اليهودي: فلأنَّ اليهود ـ لعنهم الله ـ لم يكن لهم أملاك في سافلة المدينة، وإنما كانت مساكنهم في عواليها. وأما مَنْ قال: إنها لمزنيّ، فلعله اعتمد على قصة إقطاع العقيق لبلال بن الحارث المزني... ولا يصح ما نقله السمهودي [ص ١٠٤٢] أن بلالاً باع رومة من

(١) الطريق إليها للقادم من ناحية المسجد النبوي، يبدأ من ثنية الوداع الشامية، ويمشي في طريق أبي بكر الصديق (سلطانة) متجهاً نحو الجامعة الإسلامية، وقبل مفترق الطرق يكون على اليمين.

عثمان.. لأن قصة البئر كانت في أول الهجرة، وإقطاع العقيق لبلال، كان بعد فتح مكة، حيث كتب معاوية بن أبـي سفيان نسخة الإقطاع، بعد إسلامه. وقد استشكل في رواية البخاري «قوله: مَنْ حفر رومة..» كيف يقول: «حفر» وكانت محفورة في الجاهلية ثم اشتراها عثمان ولم يحفرها؟ أجاب ابن حجر رحمه الله بأنها كانت «عيناً» كما في روية البغوي. ولا مانع أن يحفر فيها عثمان بئراً، ولعل العين كانت تجري إلى بئر فوسّعها وطواها، فنسب حفرها إليه، أقول: لعلَّ عثمان، بعد أن اشتراها، نزحها، وعمقها ليكثر ماؤها، وتكفي المسلمين. وتروى «رومة» مضافة إلى «بئر» فيقال: «بئر رومة» وتروى: مفردة «رومة» وجاءَت عند البخاري بالصيغتين؛ وتفسير ذلك: أن رواية «رومة» يُراد «بئر رومة أو «عين» رومة. فالعين اسمها «رومة» ورواية: «بئر رومة» تكون البئر مضافة إلى العين، لأن البئر يأتيها ماؤها من عين تسمى «رومة» ويحتمل أن يكون اسم الرجل الذي كان يملكها «رومة» بدليل قولهم «بئر رومة» الغفاري. فوصف «رومة» بالغفاري، يدل على أنه اسم إنسان. ولو كان الوصف للبئر، لقالوا: «الغفارية» لأن البئر مؤنثة وكذلك إذا كانت «رومة» اسم امرأة، أو كان وصْفاً، «لرومة» على أنه اسم العين.

والاسم «رومة» بالهمز، أو بغير همز، عربـي قديم لا شك فيه، ومعناه: الغراء الذي يُلصقُ به ريش السهم.

٧ ــ الغابة، وبِرْكة الزبير:

«الغابة» تأتي بعد اجتماع السيول الثلاثة، فتعدُّ امتداداً لوادي العقيق، وتبدأ من غربـيّ جبل أُحد، شمال المدينة النبوية، فيما يسمى اليوم «الخليل» وقد ذكرتُها في وادي العقيق، لأنها معلم أثير، يُذكر في السُّنَّة، والسيرة حيث روى البخاري في كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر، عن سهل بن سعد الساعدي: «أرسل رسول الله إلى فلانةٍ ــ امرأة سماها سهلٌ ــ مري غلامك

النجار أن يعمل لي أعواداً أجلس عليهن إذا كلمتُ الناس، فأمرتْه، فعملها من طرفاء الغابة». وفي مغازي رسول الله ﷺ، غزوة «الغابة» بعد الحديبية، وقبل خيبر. وقصتها أن عُيينة بن حصن الفزاري أغار على لقاح رسول الله بالغابة، وفيها رجل من بني غفار وامرأة له، فقتلوا الرجل، واحتملوا المرأة في اللقاح، وكان أول مَنْ علم بهم سلمة بن الأكوع، غدا يريد الغابة متوشحاً قوسه ونبله.. حتى إذا علا ثنية الوداع نظر إلى بعض خيولهم، فأشرف في ناحية سلع، ثم صرخ «واصُبحاه» ثم خرج يشتد في آثارهم.. [تهذيب السيرة النبوية لابن هشام ص ٢٣٥].

.. ورواية ابن هشام للقصة تدل على أن الغابة، تبدأ من المحلة المسماة اليوم «العيون» لأن ابن الأكوع رأى بعض خيول المغيرين من ثنية الوداع. وثنية الوداع ـ الشامية ـ تطلُّ على محلة العيون، ولو كان المغيرون في غابة محلة الخليل، ما استطاع رؤيتهم لبُعْد المسافة أولاً، ولأن الأرض كثيفة الشجر، ربما لا يُرى الراكب فيها. والله أعلم.

وتذكر الغابة أيضاً في أموال الزبير بن العوّام رضي الله عنه، لما روى البخاري في كتاب «فرض الخمس» باب: «بركة الغازي في ماله حيّاً وميتاً..» أن الزبير يوم قتل ـ قُبيل معركة الجمل ـ لم يدع ديناراً ولا درهماً إلا أرضيْن منها الغابة.

.. قال عبد الله بن الزبير: «فحسبت عليه من الدين فوجدتُه ألفي ألف ومائتي ألف.. وكان الزبير اشترى الغابة بسبعين ومائةِ ألفٍ، فباعها عبد الله بألف ألف وستمائة ألف.. الحديث». وهذا يدل على خصب تربتها، وكثرة مائها ومقدار ما بذل الزبير في إصلاحها.. وبشرقي الغابة قريباً من سفح أحد الشمالي، كانت توجد بركة ٢٥ × ٢٥ م وعمقها متر، تسمى «بركة الزبير» لعلها كانت تنسقي أراضي الزبير منها وفي مقدمتها هذه الغابة في عهد ازدهارها واستثمارها. [آثار المدينة ـ للأنصاري ص ١٨٢].

٨ ـــ حرّة الوَبْرة، ومسجد القبلتين، والعنابس:

أما حرّة الوبرة، فهي الحرة الغربية، وكانت تقع في ضاحية المدينة الغربية، ولكنها أصبحت اليوم في وسط العمران؛ ويمشي وادي العقيق بمحاذاة طرفها الغربـي من الجنوب إلى الشمال، وربما كان مجراه منها لأنهم قالوا «إنه عقٌّ في الحرّة» أي شقّ، وتلتقي حرة الوبرة زميلتها حرّة واقم الشرقية في ناحيتها الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية.. ومن تحت طرفها الغربـي قصر عروة وبئره وبعض قصور العقيق، وهي إحدى اللابتين اللتين تحدان المدينة، بل حرم المدينة.

ومسجد القبلتين: كان يقوم على هضبة مرتفعة من حرّة الوبرة في طرفها الشمالي الغربـي ويشرف على عرصتي العقيق الصغرى والكبرى، وكان محله في منازل بني سَلِمة، وفيه على أصح الأقوال نزل على رسول الله الأمر بالتحول إلى الكعبة، عندما كان في زيارة أم بشر بن البراء بن معرور في بني سَلِمة [الفتح ١/٥٠٣]. ويفاخر وادي العقيق اليوم ـــ وما أكثر مفاخره ـــ بمسجد القبلتين، لكونه أصبح ثالث المساجد في المدينة، بعد المسجد النبوي، ومسجد قباء، حيث بُني على طراز تنشرح له قلوب المؤمنين.

والعنابس: لعلها مجموعة مزارع وآبار، كانت لعنبسة بن سعيد بن العاص، وكانت منطقة زراعية تعلو سطح الحرّة الغربية (الوبْرة) بعد مزارع عروة شمالاً، وقد ينطبق عليها اسم «أم جماجم» في العصر الحديث، ولكن اسم «العنابس» هو الاسم الرسمي لهذه المنطقة.

وحوض وادي العقيق بأجمعه، خصب، صالح للزراعة، والحياة على ضفافه، لأن طبيعة أراضي الأودية، تكونُ من أصلح الأماكن للحياة.. وقد رأينا من وصف بعض مواطن الوادي، وتاريخ عُمْرانه، أنه كان مأهولاً بالسكان، ثلاثة قرون متوالية من بدء عمرانه في صدر الإسلام، ولم يهجره أهله عندما هجروه لبخله عليهم بالعطاء وإنما هجروه عندما عجزت الدولةُ الإسلامية عن توفير الأمن

والأمان للناس المنتشرين على ضفافه، وبدلاً من العمل على إبعاد أسباب الخوف، عملت على إحلال الرعب في نفوس الناس، فبنت حول المدينة سوراً، وضاعفت العداوة أو العداء، بين أهل الحاضرة وأهل البادية.

فالحكم على وادي العقيق من الناحية الاقتصادية، لا يكونُ مبنياً على دراسة تاريخ قرن أو قرون، وإنما يكون بناءً على دراسة طبيعة الأرض. ووادي العقيق وادٍ عاديّ قديم، لا يعرف أحدٌ متى كان، بل كان منذ أن خلق الله الأرض، وسوّاها على هذا الشكل، وأنزل الأمطار عليها لتكون نعمة لبني آدم. واتساعُ نَهْر الوادي، وعمقه يدلان على أن الأمطار لم تكن تنقطع، وأن سيله كان دائماً ومتدفقاً، وإذا حصل الجدب سنةً أو سنتين، فقد يتوالى الغيثُ بعد ذلك سنوات، وقد عايشنا هذه الحال في العقد الأخير من القرن الرابع عشر الهجري، حيث كان السيلُ يأتي في كل عام، وتبقى مياهه في الوادي أشهراً. وحكى لنا ذلك مَنْ سبقنا من الشيوخ.. فكان الوادي إذن، في الزمان السابق، سادّاً حاجة سكانه من الماء، للزراعة، والريّ والرعي.

وفي العصر الحديث توالت سنواتُ جفاف، واستُنبطت مياه الوادي ــ بالآلات ــ ثم أُريقت للزراعة بطريقة غير اقتصادية، فأدّى ذلك إلى أنْ غارت مياه كثير من آباره.. ومع ذلك فإننا لو حسبنا لهذا الزمن حسابه، ما وقع الذي نحن فيه. وكان من الواجب إقامة سدود كثيرة متوالية على الوادي لتحتفظ الأرض بمائها سنوات طويلة.

ومع هذا كله، فإن حاضر الزراعة في هذا الوادي يدلُّ على خصب تربته، وقابلية أشجاره للنماء، بقليل من الماء..، وحدائقه، ومزارعه اليوم تنبىء عن ذلك.. وانظر مثالاً لذلك: مزارع الجُرْف، وحدائق النخيل، والرّحمة، ومزارع من الأشجار الحرجية في ساحة مستشفى الملك فهد، وساحة قصر الضيافة، وساحات الجامعة الإسلامية، ومزرعة بئر رومة.. الخ.

أثر وادي العقيق في الشعر العربي:

في بلاد العرب كلها أودية وأنهار، وحدائقُ وأزهار، تغنّى أهلها بجمالها وقالوا أجزل الأشعار.. ولكنني لم أذقْ شعراً أرقَّ وأعذبَ وأسلس، وأخفَّ على السمع، وأعلق بالنفس وأسرع إلى القلب، من شعر قيل في وادي العقيق، ولم أجد وادياً أثّر في أهله، وأسال طباعهم رقّةً، وأذاب نفوسهم تشوقاً كما كان لوادي العقيق من الأثر في أهله ومحبيه.

قد يكون للشعر الأندلسي جمال الشعر العقيقي وعذوبتُه، ولكنه لا يصل إلى مرتبة الشعر المدني بعامة، والشعر العقيقي بخاصة...

في الشعر الأندلسي جمالٌ وعذوبة، ولكنهما مقرونان بالصَّخب وكثرة الألوان الصناعية إنه شعْر يبهر النظر ويطرب الأذن.. أما شعر العقيق، فإنه ينساب إلى النفس من جميع مجاريها، فيأسر القلب والروح. شعر الأندلس يذهب رنينُه وبهاؤه بعد فراقه، وشعر العقيق يعلق بالنفس فلا يفارقها.. إنه الفرق بين الصنعة والطبيعة، وجمال الروح وجمال الظاهر، وبين الكَحَل في العينين، والتكحّل إنه الفرق بين الجمال المطبوع والتجمّل المصنوع، كما قال أبو الطيب في الموازنة بين جمال البادية المطبوع، وجمال الحاضرة المصنوع:

ما أوْجه الحضر المسْتحسناتُ به	كأوجه البدويات الرعابيب
حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتطرية	وفي البداوة حُسْنٌ غير مجلوب
أين المَعيزُ من الآرام ناظرةً	وغير ناظرةٍ في الحُسْن والطيب
أفدي ظباءَ فلاةٍ ما عَرَفْنَ بها	مَضْغَ الكلام ولا صَبْغ الحواجيب

.. وكنتُ قد اتهمت نفسي بالمبالغة في هذا الحكم، وقلتُ لعله من شدة الولوع والحبّ ولكنني وجدتُ أهل الشرق والغرب وافقوني عليه، وقالوا بقولي، أو قلتُ بقولهم وجمعنا الحبُّ على غير ميعاد:

روى صاحب العقد الفريد قال: قال هارون الرشيد للمفضّل الضبـي: أنشدنا بيتاً أوله أعرابيٌّ في شملته هبَّ من نومته، وآخره مدنيٌّ رقيق غذي بماء العقيق، قال المفضل: هوّلت عليَّ يا أمير المؤمنين، فليت شعري، بأيّ مَهْر نفتضُّ عَروس هذا الخدْر؟ قال هارون، هو بيت جميل حيث يقول:

ألا أيهـــا النّـــوّامُ ويْحَكُـــمُ هُبُّـــوا   أسـائلكـم: هـل يقْتـلُ الـرجـلَ الحـبُّ

. . [العقد ٦/ ٢٢٧].

والشاهد في القصة، قوله: «مدني رقيق غذي بماء العقيق» وكأنه جعل رقة الشعر المدني نابعة، من شُرب الشعراء، ماء العقيق.

وقال ابن عبد ربه في وصف شعر المدينة، يعيب مَنْ لم يخترْ منه لألحانه: ونظيرُ هذا من سوء الاختيار، ما تخيره أهلُ الحذق بالغناء، والصانعون للألحان من الشعر القديم والحديث، فإنهم تركوا منه «الذي هو أرقّ من الماءِ وأصفى من الهواء، وكلَّ مدنيّ رقيق قد غُذي بماء العقيق» [العقد ٧/ ٨٤] وقال البكري في تفسير أبيات للأحوص «هذا الشعر لشاعر إسلامي حضري مدني غذّي بماء العقيق، لم يدخل باديةً قطُّ» [التنبيه ١/ ١٨٧].

. . ومع هذا التأثير السحري في نفوس الشعراء. . فإنَّ الشعر الذي وصلنا في وصف وادي العقيق، قليل. . فما السرُّ في ذلك؟ لعلَّ قوة السحر عطلت لغة الكلام. . فوادي العقيق، أمام مَنْ يزوره ويلقاه، ديوانُ شعر، يقول لقاصديه: اقرؤوا. . وأنى للمسحور أن ينقل صورة السحر؟ إن الشاعر يعجز أن ينقل صورة ما رأى، لأنها رؤية القلب والروح. . إنه يقف عاجزاً أمام سحر التاريخ، وقصص المجد، وبركة السماء. . وصفاء الهواء، وبهجة المنظر، وروعة الجمال. . .

وأكثر ما وصلنا من الشعر العقيقي: في التشوق والحنين إليه، وذِكْر مواطن

الأهْل والخلان في مرابعه، وأعلامه..، من ذلك قول ابن أبـي عاصية السلمي، يتشوق إلى المدينة وهو باليمن عند معن بن زائدة:

فهلْ نـاظِـرٌ مـن خَلْف غُمْـدان مُبْصِرٌ ... ذُرى أُحُـدٍ رُمْـتَ المـدى المتـراخيـا
فلـو أنَّ داءَ اليـأس بـي وأعـانني ... طبيـبٌ بـأرواح العقيـق شفـانيـا

.. وقوله «داء اليأس» يعني إلياس بن مضر، كان أصابه السُّلُّ فكانت العرب تدعو السُّلّ «داء اليأس» [تاريخ المدينة لابن شبة ١/٢٨٦].

.. ومن أرقّ ما قيل في التشوق إلى وادي العقيق وأهله، ومعالمه؛ قول عبد السلام بن يوسف:

علـى سـاكنـي بَطْـن العقيـق سـلامُ ... وإنْ أسهـرونـي بـالفِـراقِ ونـامـوا
حَظَـرتـمْ علـيَّ النـومَ وهـو مُحلّـل ... وحَلّلتـم التعـذيـبَ وهـو حـرام
ألا ليت شعري هل إلى الرمل عَوْدةٌ ... وهـل لـي بتلـك البـانتيـن لِمَـام
وهـل نَهْلـةٌ مـن بئـر عـروة عـذْبـةٌ ... أُداوي بهـا قلبـاً بَـراهُ أُوامُ

وقال أبو قطيفة عمرو بن الوليد الأموي حين أخرج عبد الله بن الزبير بني أمية من الحجاز إلى الشام:

ليـت شعـري وأيـن منـي ليـتُ ... أعلـى العَهْـد يلْبُـنٌ فبـرام
أم كعهـدي العقيـقُ أم غيّـرتْـه ... بَعْـديَ الحـادثـاتُ والأيـامُ
حـال مـن دون أن أحـلَّ بـه النـأ ... يُ وصـرْفُ الهـوى وحـربٌ عُقـام
أقطّـعُ الليـلَ كلَّـه بـاكتئـابٍ ... وزفيـر فمـا أكـادُ أنـامُ
نحـو قـومـي إذْ فـرّقـت بيننـا الـدا ... رُ وحـادتْ عـن قَصْـدهـا الأحـلام

.. وقال يذكرُ قصر سعيد بن العاص في العرْصة، ويفضّله على دمشق:

القصـرُ فـالنخـلُ فـالجمّـاءُ بينهمـا ... أشهى إلى القلب من أبواب جَيْرون

إلـى البـلاط فمـا حـازت قـرائنُـه دورٌ نـزخْـنَ عـن الفحشـاء والهـون

.. والعقيـقُ مـن معـالـم المـدينـة النبـويـة التي تهفـو القلـوب للصـلاة في مسجدها، والسلام على محمد ﷺ، وهو ميقات كلّ من مرَّ بالمدينة حاجاً أو معتمراً، ولذلك كثر ذكرُه وذكْرُ معالمه في شعر الحنين إلى المواطن المقدسة، والمديح النبوي.

فقال الشاعر يحيى بن يوسف الصرصري، قتله التتار سنة ٦٥٦هـ:

ذَكَـر العقيـقَ فهـاجَـه تـذكـارُه صَـبٌ عـن الأحْبـاب شَـطَّ مـزارُه
وهفـت إلـى سَلْـعٍ نـوازعُ قلْبـه فتضـرمـت بيـن الجـوانـحِ نـارُه
كَلِـفٌ بـرامـة مـا تـألـق بـارقٌ مـن نحـوهـا إلا بـدا إضمـاره
يشتـاقُ واديهـا ولـولا حبُّهـا لـم يُصْبـه وادٍ زهـت أزهـاره

.. وقال يمدح النبيّ ﷺ:

بَيْـن العقيـق وبيـن سلـع مَـرْبـعُ للقلـب فيـه وللنـواظـر مَـرْتَـعُ
عَطِـرُ الثـرىٰ أرجٌ كـأنَّ لطيمـةً مـن مسـك داريـن بـه تتضـوع
كَلَفـي ببـانـاتِ العقيـق وإنَّمـا وَجْـهُ اشتيـاقـي بـالحجـاز مُبَـرْقـع
عَجَبـاً لجسـمٍ بـالعـراقِ مُخَلَّـفٍ وفـؤاده مُغـرى بطيبـة مُـولَـعُ

.. واشتد شوق الأندلسيين إلى طيبة، فكان العقيقُ رمز المدينة، فقال أحدهم:

يـا راحـلاً يبغـي زيـارة طيبـةٍ نلْـتَ المُنـى بـزيـارة الأخيـارِ
حـيّ العقيـق إذا وصلـت وصـف لنـا وادي منـى بـأطـايـبِ الأخبـارِ

هواء وادي العقيق نقيٌّ ومنعشٌ وصحيّ، والعيش فيه رغيد. وتجد الأبدان فيه نشاطاً، والعقول صفاءً، وفي أفيائه تتفتحُ المواهبُ وتجود بالعطاء.. هذا

الذي نؤمن به، ونراه واقعاً محسوساً في الماضي والحاضر، ونرفض كل حكم طبـي أو جغرافي يخالف ما آمنّا به. . .

فالعقيق وادٍ مبارك، باركه الله على لسان نبيّه ﷺ، ولا بدَّ أن تشمل البركةُ توفّر أسباب العيش الهنيّ في المكان المبارك، ومن أسباب العيش الهنيّ التي خلقها اللَّهُ تعالى، وأنعم بها على عباده: الهواء النقيّ، والعيش الرخيّ، وصحة الأبدان. . وإخبار النبـيّ ﷺ بوقوع شيء، فإنه واقع لا محالة، لأنه ينطق بلسان الوحي.

والعقيق جزء من المدينة النبويّة: وقد دعا النبـيّ ﷺ، فقال: «اللهم بارك لنا في مُدّنا وفي صاعنا، وصححْها لنا. .». والدعاءُ يشمل عصر الرسول عليه السلام، والأعصر التالية.

وثبت في الصحيح، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخلُ المدينةَ المسيح (الدجال) ولا الطاعون». [البخاري كتاب الطب، باب ٣٠].

. . ويشهد لهذا، الواقع والتاريخ: فإننا لم نقرأ أن وباءً عاماً جاء إلى المدينة فقتل منها جماعاتٍ، وإنما يأتي إلى ساكنها المرضُ الذي يأتي إلى الناس، عندما يتعرضون للأسباب التي خلقها اللَّهُ تعالى لإحداث المرض. . ، ويبلغ الناسُ من العمر المقدر لهم عند الله تعالى ما يبلغه الناس في بقاع المعمورة. . .

وإذا كان للمناخ والهواء والماء من تأثير على الإنتاج البشري، فإنَّ مناخ المدينة، ومنها العقيق، قدَّم لنا نماذج بشرية لا تتكرر في عطائها العبقري. . فالمدينة منذ فجر الإسلام ما زالت ينبغُ فيها الرجال في المجالات التي يتوجهون إليها، فمن المدينة وفي المدينة قدّم الخلفاءُ الراشدون والصحابة الأبرار من العطاء للإنسانية ما لم يقدمه رجالٌ في كلِّ بقاع الأرض. . فالمثل الأعلى للدولة الإسلامية ــ بعد الرسول عليه السلام الموحى إليه ــ في الإدارة والسياسية

والحرب والسلم، إنما كان نتاج عبقريات تعيش في المدينة، وتتنفس من هوائها، وتعيش من أجوائها. وفي المدينة كان عباقرة العلم والفقه: في عهد الصحابة نذكر أبا هريرة أُنموذجاً للحفظ وصفاء الذهن، وفي عهد التابعين، ظهر أنموذج الفقهاء السبعة الذين حفظوا الرسالة السماوية، وفهموها، وانتقل منهم الفقه والاجتهاد إلى بقاع المعمورة.. وفي الطبقة الثانية من التابعين نبغ الإمام ابن شهاب الزهري، الذي فاق العقول الآلية الحديثة في دقة حفظه وفطنته ثم يأتي الإمام مالك الذي ملأ الدنيا فقهاً وعلماً، وتابع سيرك في القرون التالية وانبش في تاريخ المدينة، فإنك واجدٌ عبقريات تفوق أهل عصرها...

.. إذا لم يكن الإنتاج البشري مقياساً لحسن المناخ ـ بعد توفيق الله تعالى ـ ما المقياس إذن؟...

لقد قال النبيّ ﷺ، عندما أقبل على المدينة «هذه طابة» ومن معانيها طيب العيش، وطيب الهواء، وطيب المناخ.. والرسول صادق فيما أخبر عنه وفيما أحسّ به، ونحن نقول بقول نبينا ﷺ، فالمدينة، ومنها العقيق، طابة، وطيبة، ومحبوبة ومحمودة، والطيوب تعبق في أنحائها، تشمها في غدوك ورواحك.. وجاء في الأحاديث الضعيفة: أن رسول الله ﷺ ركب إلى العقيق، ثم رجع فقال: «يا عائشة، جئنا من هذا العقيق، فما ألين موطئه وأعذب ماءَه» قالت: فقلت: يا رسول الله، أفلا ننتقل إليه، قال: «كيف وقد ابتنى الناسُ؟» [السمهودي عن ابن زبالة ١٠٣٨]. وإذا لم يصح الحديث: سنداً، فإنه يصح متناً، بمعنى أن الحديث الذي يكون موضوعاً، يعبّر عن حقيقة الشيء الذي يتحدث عنه، وإذا لم يصح هذا الحديث، لأن ابن زبالة راويه، فإنه يعبّر عما كان يراه الناس في وادي العقيق من لين العيش وطيب الهواء.

ربما لا يرى آخرون ما رأيت، ولا يحسون بما أحسستُ، ولكنني أكتب للمؤمنين المحبين وكل مَنْ زار المدينة، مُحباً، فإنه يشم طيوبها قبل أن يدخل حرمها، فإذا وصل إليها أعجبه العيش فيها وأحبَّ طول الإقامة بها.. نعم، إنه

الحقيقة والحبُّ معاً، وأنت إذا لم تكن مُحباً للمكان الذي تسكن فيه، فإنك تكرهه ويتكالب عليك المرض فيه، ولو كان شِعْبَ بوّان، الذي وصفه المتنبي وأعجب به أو كان غوطة دمشق التي فضلها شوقي على جنان الأرض، أو زهراء الأندلس التي تغنى بها ابن زيدون.. روى البخاري في صحيحه، أن رجلاً أتى النبيّ ﷺ فقال: «أخي يشتكي بطنه فقال: اسقه عسلاً، ثم أتاه الثانية فقال: اسقه عسلاً، ثم أتاه الثالثة فقال: اسقه عسلاً، ثم أتاه فقال: فعلتُ، فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً، فسقاه فبرأ». ونحن نقول لمن كان في المدينة وادّعى السقم من هوائها: كذبت وصدق رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، لقد دعا رسول الله ربّه أن يصحح هواءَ المدينة، واستجاب الله دعاء رسوله، فمن طلب الصحة بغير هواء المدينة، فقد كذب.

• • •

الفصل السابع

في المجتمع والبيت

سنن وأخلاق وعادات



ـ ١ ـ

يوم الجمعة، عيد أُسبوعيّ

من المتفق عليه أن هذا اليوم كان يسمّى «العروبة» فهل سمّي «الجمعة» أيضاً في الجاهلية؟ هناك أقوال في ذلك، ولكن الذي ترجحه الروايات المسندة، أن هذا الاسم إسلاميّ، والأقوى أنه سمي «الجمعة» لاجتماع الناس فيه، وأن أول مَنْ جعله يوماً لاجتماع المسلمين أهلُ المدينة، ويشهدُ لذلك ما رواه عبد الرزاق بإسنادٍ صحيح عن ابن سيرين قال: «جمّع أهلُ المدينة قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ، وقبل أن تنزل الجمعة، فقالت الأنصار: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه كلَّ سبعة أيام وللنصارى كذلك فهلمَّ فلنجعل يوماً نجتمعُ فيه، فنذكر الله تعالى، ونصلي ونشكره فجعلوه يوم العروبة، واجتمعوا إلى أسعد بن زرارة، فصلّى بهم يومئذٍ». ويشهد لهذا الخبر المرسل الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه بإسناد حسن عن كعب بن مالك قال: كان أول مَنْ صلى بنا الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة، أسعد بن زرارة».

وعليه فإن الصحابة اختاروا يوم الجمعة بالاجتهاد، ولا يمنع ذلك أن يكون النبيّ ﷺ علمه بالوحي وهو بمكة فلم يتمكن من إقامتها ولذلك جمّع بهم أول ما قدم المدينة.

ومن ذلك التاريخ فإن يوم الجمعة أول الأسبوع شرعاً، وقد يسمى الأسبوع كله (جمعة)، وكانوا يسمون الأسبوع سبتاً.

وجاء في الأحاديث والآثار تسمية يوم الجمعة عيداً، لما روى أحمد وأبو داود وابن ماجة والنسائي والحاكم، وصححه علي بن المديني: «عن زيد بن أرقم، وسأله معاوية هل شهدت مع رسول الله ﷺ عيدين اجتمعا، قال: نعم، صلى العيد أول النهار ثم رخّص في الجمعة، فقال: مَنْ شاء أن يجمّع، فليجمّع» [عن مسند أحمد ٤/ ٣٧٢]. وفي [نيل الأوطار ٣/ ٢٨٢] عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قد اجتمع في يومكم هذا عيدان، فمن شاء أجزأه من الجمعة، وإنّا مجمعون». وعن وهب بن كيسان قال: «اجتمع عيدان على عهد ابن الزبير..» الحديث [نيل الأوطار ٣/ ٢٨٢] وعن عطاء قال: اجتمع يوم الجمعة ويوم الفطر على عهد ابن الزبير فقال: عيدان اجتمعا في يوم واحد.. الحديث. [عن نيل الأوطار ٣/ ٢٨٢].

وكانوا يخصّون يوم الجمعة بما يكون في يوم العيد من لباسٍ حَسَنٍ، وطيب وطعام؛ لما روى أبو داود عن ابن سَلَام أنه سمعَ النبيَّ ﷺ يقول على المنبر في يوم الجمعة: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته». وروى أحمد عن أبي سعيد عن النبيّ ﷺ قال: «على كلّ مسلم الغُسْلُ يوم الجمعة ويلبس من صالح ثيابه، وإن كان له طيب مسَّ منه» [عن نيل الأوطار ٣/ ٢٣٤] وجاء في قصة أسعد بن زرارة، وكونه أول مَنْ صلّى الجمعة في المدينة قبل الهجرة النبوية أن المسلمين اجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم قبل الهجرة النبوية أن المسلمين اجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذٍ ركعتين وذكّرهم فسمّوا الجمعة حين اجتمعوا إليه فذبح لهم شاةً فتغدّوْا وتعشّوا منها. [نيل الأوطار ٣/ ٢٣١].

وبوّب البخاري في كتاب الجمعة باب قوله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فَضْل الله﴾. وأورد فيه حديث سهل بن سعد في قصة المرأة التي كانت تطعمهم بعد الجمعة، وفيه قول سهل: «وكُنَّا نتمنَّىٰ يوم الجمعة لطعامها ذلك» ونقل ابن حجر في الفتح [٢/ ٤٢٧] في تفسير الأمر من قوله

تعالى: ﴿فانتشروا..﴾ بأنه أمر للإباحة وقيل هو واجب في حقّ مَنْ لا شيء عنده ذلك اليوم، فأُمر بالطلب بأيّ صورة اتفقتْ ليفرح عياله ذلك اليوم، لأنه يوم عيد.

.. وربما كان الناس ينقطعون عن العمل في النصف الأول من النهار، لما جاء في حديث التفاضل بين الساعين إلى صلاة الجمعة.. فمن راح في الساعة الأولى، فكأنما قرّب بدنة.. وإلى الساعة الخامسة، فكأنما قرّب بيضة.. الحديث [البخاري ــ كتاب الجمعة باب ٤].

وفيه حثٌّ على الذهاب إلى المسجد قبل الصلاة، هذا مع الحث على الاغتسال قبلها ولبس أحسن الثياب وتخصيص يوم الجمعة بثياب خاصة غير ثياب العمل وهذا يقتضي أن يخرج المسلم من بيته بهيئته النظيفة إلى المسجد.

● ● ●

ـ ٢ ـ

يـوم العيـد

روى النسائي بإسناد صحيح عن أنس قال: «قدم النبـيُّ ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: قد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منهما يوم الفطر ويوم الأضحى».

فكان يوما العيد يَوْمي فرحٍ وسرور ولعبٍ، يُباح فيهما اللعب والإنشاد، لما روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت الأنصارُ يوم بُعاث، قالت وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: أمزاميرُ الشيطان في بيت رسول الله وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: إنَّ لكل قوم عيداً وهذا عيدُنا». وفي رواية قال رسول الله: «دعهما».

وروى البخاريُّ أيضاً عن عائشة: «وكان يوم عيد يلعبُ فيه السودان بالدرق (الترس) والحراب».

ولُبس الثياب الجديدة، أو لُبس الثياب النظيفة، أو أحسن ما عند الإنسان من اللباس، كانت سنةً متّبعة: والأصل في ذلك الاغتسال والتطيب ولبس أحسن الثيـاب يـوم الجمعـة، لأنـه يـوم اجتمـاع المسلميـن، وجـاء فـي المـوطـأ أن رسول الله ﷺ قال: «ما على أحدكم لو اتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبـي مهنته».

وبوّب البخاري في كتاب العيدين «باب العيدين والتجمل فيه» أي في العيد.

وروى ابن حجر في شرح الباب عن البيهقي بإسناد صحيح إلى ابن عمر أنه كان يلبس أحسن ثيابه في العيدين.

وقد وردت آثار تدلُّ على وجود التهنئة في يوم العيد، ولكنها ليست قويّة فقد نقل ابن حجر في [الفتح ٢/٤٤٦] عن ابن عديّ من حديث واثلة أنه لقي رسول الله ﷺ يوم عيد فقال: «تقبّل الله منا ومنك، فقال: نعم، تقبّل الله منا ومنك». قال: وفي إسناده محمد بن إبراهيم الشامي وهو ضعيف وقد تفرّد به مرفوعاً، وخولف فيه. فروى البيهقي من حديث عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «ذلك فعلُ أهل الكتابيّن». قال ابن حجر: وإسناده ضعيف أيضاً. قال وروينا في «المحامليات» بإسناد حسن عن جبير بن نفير قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ، إذا التقوا يوم العيد يقول بعضهم لبعض: «تقبّل الله منا ومنك». فإذا صح هذا الخبر، فيكون هو الأصل في قول الناس اليوم: «كلّ عام وأنتم بخير» ولكن العبارة المأثورة أجمل، لأن فيها صيغة دعاء بقبول العبادة.

وكانت صلاةُ العيد تُقام في أرض خلاء، في نواحي مسجد المصلى الذي يسمى اليوم «جامع الغمامة» وإنما أُقيم المسجد في العصور المتأخرة.

ويشهد صلاة العيد ــ أو يحضر جمع المسلمين، الرجال، والنساء والصبيان وقد تشهده النساءُ الحيّض أيضاً ولا يصلين. لما روى البخاري في كتاب العيدين عن حفصة بنت سيرين قالت: كُنَّا ــ في البصرة ــ نمنع جوارينا أن يخرجْنَ يوم العيد، فجاءَت امرأة فنزلت قصر بني خلف ــ في البصرة ــ فأتيتها، فحدثتْ أن زوْج أُختها غزا مع النبي ﷺ ثنتي عشرة غزوة، فكانت أختُها معه في ست غزوات، فقالت: فكنّا نقوم على المرضى، ونداوي الكَلْمىٰ، فقالت:

يا رسول الله، على إحدانا بأس، إن لم يكن لها جلباب أن لا تخرج ـ أي إلى مشهد العيد ـ فقال: لتلبسها صاحبتها من جلبابها، **فليشهدْن الخير ودعوة المسلمين**.

وقالت حفصة: فلما قدمتْ أُمُّ عطية، أتيتُها فسألتُها: أسمعتِ في كذا وكذا، قالت: نعم ـ بأبي ـ وقلما ذكرت النبي ﷺ إلا قالت: بأبي ـ قال: ليخرج العواتق ذوات الخدور، أو قال: العواتق وذوات الخدور، ويعتزل الحيّض المصلى ـ لا يُصلِّين العيد، ولِيَشْهدْنَ الخير ودعوة المؤمنين قالت: فقلتُ لها: آلحيّض؟ قالت: نعم. أليس الحائض تشهد عرفات، وتشهد كذا وكذا. أقول: وأهل المدينة اليوم يسمون صلاة العيد «المشْهد» فيقول أحدهم للآخر: هل حضرتَ المشهد. . وهم لا يعلمون السبب في ذلك. . وما زال يحضر إلى صلاة العيد الرجال والنساء والصبيان. ويحرص أهل المدينة على حضور «المشهد» حتى تضيق بهم الساحات على رحبها حول المسجد النبويّ، ولكنهم لا يعرفون بجواز حضور المرأة الحائض، فلا يحضره إلا مَنْ تصلّي من النساء، ولكن يحضره الصبيان الصغار، مَنْ صلى منهم ومَنْ لم يصل. . ولعل هذا موروث من القديم، وإذا صحَّ أن نعدَّ عمل أهل المدينة اليوم حجة، كما فعل الإمام مالك في الموطأ ـ فإننا ندعّم به، رأي مَنْ قال بوجوب خروج النساء إلى شهود العيدين سواءٌ كنَّ شواب، أم لا، وذوات هيئات ـ حُسْن وجمال ـ أم لا.

فقد رأى بعضُ العلماء أن ذلك منسوخ، وأن ذلك كان في أول الإسلام والمسلمون قليل، فأريد التكثير بحضورهنَّ إرهاباً للعدوّ. . وأُجيب عن ذلك بأن الحكمة إظهار شعار الإسلام بالمبالغة في الاجتماع ولتعمّ جميع المسلمين البركة. وأما قولهم إن ذلك كان إرهاباً للعدو، ففيه نظر، لأن الاستنصار بالنساء والتكثير بهنّ في الحرب دال على الضعف. .

• • •

— ٣ —

المرأة: المكانة، والعمل

(أ) مكانة المرأة في البيت:

اجتمع في المدينة الأنصار، وأكثرهم من الأوس والخزرج، والمهاجرون، وكثرتهم من أهل مكة القرشيين، وكان لكل قومٍ أخلاق وعادات اجتماعية تختلف عن عادات الآخرين، فكان لا بدَّ من التأثّر والتأثير، ثم الاستقرار على خُلُقٍ يجد من القرآن الكريم والسنة النبوية تعضيداً.. وهذا ما كان في أمر المرأة ومنزلتها الاجتماعية، أو منزلتها في بيت زوجها، بل منزلتها عند زوجها.. ويمثل منزلة المرأة عند أهل مكة، ومنزلتها عند أهل المدينة وما استقرَّ عليه الحال، القصة التالية التي رواها البخاري في مواضع متعددة من صحيحه [٥١٩١/٥٨٤٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لم أزل حريصاً على أنْ أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبكما﴾ حتى حجَّ وحججتُ معه، وعدل ــ أي مال عن الطريق ليقضي حاجته ــ وعدلتُ معه بأداوة فتبرّز ثم جاء فسكبتُ على عليه منها فتوضأ، فقلتُ له: يا أمير المؤمنين مَنْ المرأتان من أزواج النبيّ ﷺ: اللتان قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبكما﴾ قال: واعجَباً لك يا ابن عباس: هما عائشة وحفصة، ثم استقبل عمر الحديث يسوقه، قال: «كُنا معشر قريش نغلبُ النساءَ، فلما قدمنا على الأنصار، إذا قومٌ تغلبُهم نساؤهم فطفِق

نساؤنا يأخذْن من أدب نساء الأنصار ــ وفي رواية أخرى: فلما جاء الإسلام، وذكرهنَّ الله، رَأَيْنَ لهنَّ بذلك علينا حقّاً، من غير أن نُدْخلهُنَّ في شيء من أُمورنا ــ فصخبَتْ عليَّ امرأتي فراجعتني، فأنكرتُ أن تراجعني، قالت: ولِمَ تُنكِرُ أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبيّ ﷺ ليراجعْنه، وإنَّ إحداهنَّ لتهجره اليوم حتى الليل، فأفزعني ذلك فقلتُ لها: قد خاب مَنْ فعل ذلك منهنّ، ثم جمعتُ عليَّ ثيابي فنزلتُ فدخلتُ على حفصة (ابنته) فقلتُ لها: أي حفصةُ أتغاضب إحداكُنَّ النبيَّ ﷺ حتى الليل، قالت: نعمْ».

وفي القصة أنَّ جاره الأنصاري طرق عليه الباب وأخبره أن رسول الله اعتزل أزواجه أو طلقهنّ، . . قال عمر: فدخلتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجعٌ على رمال ــ نسيج ــ حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرِّمالُ بجنْبه، متكئاً على وسادة من أَدَمٍ حشوها ليف، فسلّمتُ عليه ثم قلتُ وأنا قائم، يا رسول الله، أطلقْت نساءَك؟ فرفع بصره، فقال: لا، فقلت: الله أكبرُ، ثم قلتُ وأنا قائم أستأنس: يا رسول الله لو رأيتنا وكنّا معشر قريش نغلبُ النساء، فلما قدمنا المدينة، إذا قوم تغلبهم نساؤهم فيتبسم النبي ﷺ. . الحديث».

قال ابن حجر في الفتح [٩/ ٢٩١]: وفي الحديث أنَّ شدة الوطءِ على النساء مذموم، لأن النبي ﷺ أخذ بسيرةِ الأنصارِ في نسائهم وترك سيرة قومه.

(ب) **عمل المرأة:**

١ ــ **الأعمال البيتيّة**، وما قد يكون من اختصاص الرجال، مما يتصل بالبيت، وبخاصة في العهد النبوي عندما كان جلُّ الرجال مشغولين بالجهاد، ولم يكن المال موفوراً للاستعانة بالخادم. وقصة أسماء بنت أبي بكر، زوج الزبير بن العوام مثال لما كانت المرأة تقوم به من الأعمال البيتية. حيث روى البخاري عن أسماء [ح ٥٢٢٤] قالت: «تزوجني الزبير وما له في الأرض مال، ولا مملوك ولا شيء غير ناضح وغير فرسه. فكنتُ أعلف فرسه وأستسقي الماء وأخرز غَرَبه، وأعجن، ولم أكن أُحْسِن الخبز، وكان يخبزُ لي جاراتٌ لي من

الأنصار وكُنَّ نسوةَ صدْقٍ، وكنتُ أنقل النوى من أرض الزبير ــ التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ، فجئتُ يوماً والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله ﷺ، ومعه نفرٌ من الأنصار، فدعاني ثم قال: إخْ إخْ، ليحملني خلفه، فاستحييتُ أن أسير مع الرجال، وذكرْتُ الزبير وغيْرته ــ وكان أغْير الناس ــ، فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييتُ، فمضى، فجئتُ الزبير.. (فأخبرته بالقصة) قالت: حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم[1] تكفيني سياسة الفرس، فكفتني».

قال ابن حجر في [الفتح ٩/ ٣٢٤]: وكان السبب الحامل على الصبر على ذلك شغل زوجها وأبيها بالجهاد وغيره مما يأمرهم به النبيّ ﷺ ويقيمهم فيه وكانوا لا يتفرغون للقيام بأمور البيت بأن يتعاطوا ذلك بأنفسهم، ولضيق ما بأيديهم على استخدام مَنْ يقوم بذلك عنهم فانحصر الأمرُ في نسائهم فكنَّ يكفينهم مؤنة المنزل ومَنْ فيه، ليتوافروا على ما هم فيه من نصر الإسلام، مع ما ينضم إلى ذلك من العادة المانعة من تسمية ذلك عاراً محضاً.

وقد استدلَّ بهذه القصة على أنَّ على المرأة القيام بجميع ما يحتاج إليه زوجها من الخدمة، وحمله أُناسٌ على أنها تطوعت بذلك ولم يكن لازماً وقيل: لو لم يكن ذلك العمل لازماً ما سكت أبوها مثلاً على ذلك مع ما فيه من المشقة عليها، ولا أَقَرَّ النبيُّ ﷺ ذلك.

ومن الأعمال الشاقة التي كانت تقوم بها المرأة، ولم تذكرها أسماءُ في قصتها، طحْن الشعير أو القمح على الرَّحىٰ، لإعداد الدقيق للخبز. وقد شكت فاطمة رضي الله عنها من ذلك، لما روي عن علي بن أبي طالب «أن فاطمة ــ عليها السلام ــ اشتكت ما تلقىٰ من الرحىٰ مما تطحنه، فبلغها أن

(١) الخادم: يقع على الذكر والأنثى. ونقل ابن منظور عن ابن سيدة: أن الذكر خادم والأنثى خادم وخادمة عربيتان فصيحتان.

رسول الله ﷺ أُتي بسَبْي، فأتته تسأله خادماً، فلم توافقه، فذكرت لعائشة، فجاء النبي ﷺ فذكرت ذلك عائشةُ له، فأتانا، وقد أخذْنا مضاجعنا فذهبنا لنقوم، فقال: على مكانكما، حتى وجدتُ بَرْد قدمه على صدْري، فقال: ألا أدلّكما على خير مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله أربعاً وثلاثين واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وسبحا ثلاثاً وثلاثين، فإن ذلك خير لكما مما سألتماه» [رواه البخاري ٣١١٣]. وفي رواية أن رسول الله قال لهما: والله لا أُعطيكم وأدعُ أهل الصفَّة تطوي بطونهم من الجوع، لا أجد ما أنفقُ عليهم، ولكن أبيعهم وأنفقُ عليهم أثمانهم».

ومنهم مَنْ كان يختار الزوجة القادرة على الخدمة وإدارة شؤون البيت ويفضلها على غيرها. فعندما قال رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله، هلاّ بكراً تلاعبها وتلاعبك! قال جابر: «هَلَك أبي وترك لي تسع أخوات فكرهتُ أنْ أجمع إليهنّ جارية خرقاء مثلهن، ولكن امرأة تقومُ عليهنّ وتمشطهنّ». وكان جابر قد تزوج امرأة ثيباً، وفضّلها على البكر، لخبرة الأولى في العمل المنزلي. وقد استفادوا من الخبر مشروعية خدمة المرأة زوجها ومن كان منه بسبيل من ولدٍ وأخٍ وعائلةٍ، ولا حرج على الرجل في قصده ذلك من امرأته، وإن كان ذلك لا يجب عليها، لكن يؤخذ منه أن العادة جاريةٌ بذلك. فلذلك لم ينكره النبيُّ ﷺ.

٢ ــ **التمريض**: روى البخاري عن الرُّبَيِّع بنت معوّذ قالت: «كُنَّا مع النبي ﷺ، نسقي، ونداوي الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة».

والأمثلة لذلك كثيرة: ففي السيرة النبوية لابن هشام، في قصة سعد بن معاذ، لما أصيب يوم الخندق، قال رسول الله ﷺ: اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب، وكانت رفيدة تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة مَنْ كانت به ضيعة من المسلمين. [٢/ ٢٣٩] وذكر القصة أيضاً ابن حجر في الإصابة نقلاً عن الأدب المفرد للبخاري.

وقال ابن سعد بل هي «كُعيبة بنت سعيد الأسلميّة»، التي كانت تكون في المسجد لها خيمة تداوي المرضى والجرحى، وكان سعد بن معاذ حين رُمي عندها، تداوي جرحه حتى مات.

وفي ترجمة أم أيمن، مولاة النبي ﷺ، وحاضنتُه، أنها حضرت غزوة أُحد وكانت تسْقي الماء وتداوي الجرحى، وشهدت خيبر. [الإصابة].

وفي ترجمة أم زياد الأشجعية من الإصابة، أنها خرجت مع النبي ﷺ في غزوة خيبر سادسة ست نسوة، فبلغ النبي ﷺ، قالت: فبعث إلينا، فقال: بإذن مَنْ خرجتن، ورأينا في وجهه الغضب، فقلنا: خرجنا ومعنا دواء نداوي الجرحى، ونناول السهام ونسقي السويق.

وفي ترجمة أم سنان الأسلمية قالت: لما أراد رسول الله الخروج إلى خيبر، قلتُ: يا رسول الله، أخرج معك أخرز السقاء وأداوي المريض والجريح إن كانت جراح، فقال رسول الله ﷺ: اخرجي على بركة الله فإن لك صواحب قد كلمنني وأذنت لهنّ من قومك ومن غيرهم فإن شئت فمع قومك، وإن شئت، فمعنا، قلتُ: معك، قال: فكوني مع أُمّ سلمة. وانظر ترجمة أم كبشة القضاعية، وأم روقة الأنصارية، وليلى الغفارية. وألفاظ العموم تدل على الكثرة، ففي «العتبية» قال مالك: كان النساء يخرجن مع رسول الله ﷺ في غزوه، يسقين الماء ويداوين الجرحى.

٣ ـ **الماشطة**: الماشطة هي المرأة التي تحسن مشاطة الشعر، ولكنهم أطلقوها علىٰ المرأة التي تزيّن النساء، وتعدّهن في ليلة العرس. كما يقولون في أيامنا «حلاقة النساء» وهي تقوم بالتزيين العام للمرأة، كأنه من باب إطلاق الجزء على الكلّ. أو لأن تزيين الشعر وتمشيطه هو أكثر ما يعطي المرأة زينتها.. وفي بعض الأقاليم العربية اليوم، كانوا يسمّون حلاق الرجال «مُزيّن» وكنّا نقول: أنا ذاهب إلى المُزيّن، وزينت شعري، سواءٌ حلقته أم قصرته.. ويؤخذ من أخبار

النساء في صدر الإسلام، أن المرأة قامت بهذا العمل للنساء ففي ترجمة أم رعلة القشيرية من الإصابة، نقل ابن حجر بإسناد واهٍ أن أم رعلة وفدت على رسول الله ﷺ وقالت: «يا رسول الله إني امرأة مقيِّنة[1]، أُقَيِّنُ النساء وأُزينهنّ لأزواجهنّ، فهل هو حوب فأثبط عنه، فقال لها يا أم رعله قينيهنّ وزينيهنّ إذا كَسَدْنَ». وفي [فتح الباري ٣/٣١٨]: «وأما قول أم أيمن «أنا قينت عائشة» فمعناه زينتُها».

وفي السيرة النبويّة لابن هشام [٢/٣٣٩) قال ابن إسحق: «ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفيّة بنت حيي بخيبر، أو ببعض الطريق، وكانت التي حملتْها لرسول الله ﷺ ومشطتها، وأصلحت من أمرها أُم سُليم بنت ملحان أم أنس بن مالك، فبات بها رسول الله في قُبّة له..».

وفي ترجمة آمنة بنت عفّان، أخت أمير المؤمنين عثمان، نقل ابن حجر عن ابن الكلبي: أنها كانت في الجاهلية ماشطة...

٤ ـ **التجارة، والحِسْبة**: في ترجمة «قَيْلة» الأنمارية، أو الأنصارية: قال ابن حجر في «الإصابة» أخرج حديثها ابن ماجه قالت: قال[2] رسول الله ﷺ عند المروة يحلّ من عمرة له. فقلت: إني امرأة أشتري وأبيع فأستام[3] أكثر مما أريد ثم أنقص.. الحديث. وفيه «لا تفعلي» ونقل أنها كانت برزة من النساء بآخرة. وفي ترجمة الحولاء العطارة من الإصابة، بسندٍ واهٍ عن أنس بن مالك قال: كان

(١) قانت المرأةُ المرأةَ، تقينُها قَيْناً، وقيّنتْها: أي: زينتها. ومنه قيل للمرأة: مقيِّنة، أي: أنها تزيِّن. قال الجوهري: سميت بذلك لأنها تزين النساء، شبهت بالأمة، لأنها تصلح البيت وتزينه. وفي حديث عائشة: «كان لها درع ما كانت امرأة تقيّنُ في المدينة إلا أرسلت تستعيره. قال: تقيّنُ: أي: تُزَيَّن لزفافها.

(٢) قوله: قالت: قال رسول الله.. لم يذكر ماذا قال رسول الله ﷺ. والظاهر أنه أراد إثبات صحبتها وسماعها من رسول الله، لأنه نقل بعد ذلك قولها: «يحلّ من عمرة له».
والأرجح أنَّ (قال): من القيلولة، والقائلة. وهي استراحة منتصف النهار فيقال: قال، يقيل، قيلولة. [القاموس المحيط].

(٣) أستامُ: أغالي في ثمن السلعة التي أبيعها.

بالمدينة امرأة عطّارة تسمى «الحولاء بنت تويت، فجاءَت حتى دخلت على عائشة، فقالت: يا أم المؤمنين إني لأتطيب كلَّ ليلة وأتزيّن كأني عروس أزفُّ، فأجيء حتى أدخل في لحاف زوجي، أبتغي بذلك مرضاة ربـي فيحوّل وجهه عني.. فقالت لها عائشة: لا تبرحي حتى يجيء رسول الله فلما جاء قال: إني لأجد ريح الحولاء، فهل أتتكم وهل ابتعتم منها شيئاً.. الحديث». وذكر ابن حجر «الحولاء» امرأة عثمان بن مظعون، وقال: يحتمل أن تكون هي العطّارة إن كانت قصتها محفوظة، فإن عثمان بن مظعون كان مشهوراً بالإعراض عن النساء.

وفي ترجمة «مليكة» والدة السائب بن الأقرع قال ابن حجر: كانت تبيع العطر فقال لها النبـيُّ ﷺ: ألك حاجة؟ قالت: تدعو لابني.. الحديث.

أقول: وإذا صحت أخبار النساء العطارات، فإنهن يبعن العطر إلى النساء في البيوت، وليس في السوق.. لما جاء في ترجمة أسماء بنت مخربة ــ وهي أم أبـي جهل ــ في «الإصابة» عن الربيّع بنت معوذ قالت: دخلت في نسوة من الأنصار على أسماء بنت مخربة أم أبـي جهل، في خلافة عمر بن الخطاب، وكان ابنها عياش بن عبد الله بن أبـي ربيعة يبعث إليها من اليمن بعطر، فكانت تبيعه إلى الأعطية[1] فقالت لي: أنت بنت قاتل سيده، قلتُ: لا، ولكني بنت قاتل عبده قالت: حرام عليَّ أن أبيعك من عطري شيئاً، قلتُ: وحرام عليَّ أن أشتري منه شيئاً، فما وجدْتُ لعطرٍ نتناً غير عطرك...

وأما الحِسْبَة: فشاهدها، ما ذكره ابن عبد البر في ترجمة سمراء بنت نُهيك أنها أدركت النبـي ﷺ، وعُمّرت، وكانت تمرُّ في الأسواق، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتنهى الناس عن ذلك بسوط معها.

وجاء في ترجمة الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس العدويّة أنها أسلمت

(١) إلى الأعطية: أي تبيعه بالدَّين إلى حين وقت العطاء الذي يأخذونه من بيت المال.

قبل الهجرة وهي من المهاجرات الأُول، وكانت من عُقلاء النساء وفضلاهُنَّ، وكان رسول الله ﷺ يزورُها، ويقيلُ عندها[1]، وكانت اتخذت له فراشاً وإزاراً

(١) روى البخاريُّ في كتاب الجهاد باب ٣٨ عن أنس «أن النبيَّ ﷺ لم يكن يدخل بيتاً بالمدينة غير بيت أم سُليم (أم أنس بن مالك) إلا على أزواجه، فقيل له: فقال: إني أرحمها قُتِلَ أخوها معي». وفي كتاب الاستئذان من البخاري «باب مَنْ زار قوماً فقال (من القيلولة) عندهم» عن أنس «أنَّ أم سُليم كانت تبسط للنبي ﷺ نِطْعاً، فيقيل عندها على ذلك النِّطْع قال: فإذا نام النبيُّ ﷺ أخذتْ من عرقه وشعره فجمعته في قارورة، ثم جمعته في سُكٍّ (نوع من الطيب) وهو نائم...». وعن أنس رضي الله عنه «كان رسول الله ﷺ، إذا ذهب إلى قُباء يدخل على أُم حرام بنت ملحان ـ خالة أنس ـ، فتطعمه وكانت تحت عبادة بن الصامت، فدخل يوماً فأطعمته، وجعلتْ تفلّي رأسه.. الحديث».
قال ابن حجر رحمه الله: [الفتح ١١/٧٩]: وفي هذا الحديث (الأخير) خدمة المرأة الضيف بتفلية رأسه. وقد أشكل هذا على جماعة.
فقال ابن عبد البرّ: أظنُّ أنَّ أُم حرام أرضعت رسول الله، أو أختها أم سُلَيم، فصارت كلٌّ منهما أمه أو خالته من الرضاعة، فلذلك كان ينام عندها، وتنالُ منه ما يجوز للمحرم أن يناله من محارمه. ثم ساق بسنده إلى يحيى بن إبراهيم بن مزين قال: إنما استجاز رسول الله ﷺ أن تفْلي أم حرام رأسه لأنها كانت منه ذات محرم من قبل خالاته، لأنَّ أم عبد المطلب جدّه كانت من بني النجار. ومن طريق يونس بن عبد الأعلى قال: قال لنا ابن وهب: أُم حرام إحدى خالات النبيّ ﷺ من الرضاعة ولذلك كان يقيل عندها وينام في حجرها وتفلي رأسه. قال ابن عبد البرّ: وأيهما كان فهي محرم له.
وقال آخرون: إنما كانت خالةً لأبيه أو جدّه عبد المطلب.
وقال ابن الجوزي: سمعتُ بعض الحفّاظ يقول: كانت أُم سُليم أُخت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ من الرضاعة.
وقال آخرون: بل كان النبيُّ ﷺ معصوماً، يملك أرَبَه (أو إِرْبه) عن زوجته، فكيف عن غيرها، مما هو المنزه عنه، وهو المبرّأ من كل فعل قبيح وقول رفث، فيكون ذلك من خصائصه.
وقال ابن العربي: يحتمل أن يكون ذلك قبل الحجاب. وَرُدَّ، بأن ذلك كان بعد الحجاب جَزْماً. وقد كان ذلك بعد حجة الوداع. =

ينامُ فيه.. وكان عمر بن الخطاب يقدّمها في الرأي ويرعاها ويفضلها وربما ولاها شيئاً من أمر السوق (الإصابة). ولكن قال ابن العربي في «أحكام القرآن» عند قوله تعالى: ﴿إني وجدتُ امرأة تحكمهم﴾ «وقد رُوي أن عُمر قدّم امرأة على حِسْبة السوق. ولم يصحّ، فلا تلتفتوا إليه وإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث». ولكن وجّه بعضهم قصة توليتها السوق أنَّه في أمرٍ خاص يتعلق بأمور النساء. لأنَّ المرأة لا يتأتّى لها أنْ تبرز إلى المجالس وتخالط الرجال

= وقال عياض: إنَّ الخصائص لا تثبت بالاحتمال، وثبوت العصمة مسلم، ولكن الأصل عدم الخصوصية، وجواز الاقتداء به في أفعاله حتى يقوم على الخصوصية دليل.

وقال الدمياطي: ذهل كلُّ مَنْ زعم أنَّ أمَّ حرام إحدى خالات النبي ﷺ من الرضاعة أو من النسب، وكلُّ مَنْ أثبت لها خؤولة تقتضي محرمية لأن أمهاته من النسب واللاتي أرضعنه معلومات، ليس فيهن أحد من الأنصار البتة، سوى أم عبد المطلب، وهي سلمى بنت عمرو، بن زيد بن لبيد بن خراش بن عامر.

وأم حرام: هي بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر المذكور فلا تجتمع أُمُّ حرام وسلمى إلا في عامر بن غنم جدهما الأعلى، وهذه خؤولة لا تثبت بها محرمية، لأنها خؤولة مجازية وهي كقوله لسعد بن أبي وقاص «هذا خالي» لكونه من بني زهرة وهم أقارب أمه آمنة، وليس سعدٌ أخاً لآمنة من النسب ولا من الرضاعة.

وإذا تقرر هذا، فقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ، كان لا يدخل على أحد من النساء إلا على أزواجه إلا على أم سُليم، فقيل له، فقال: أرحمها، قُتِلَ أخوها معي، يعني: حرام بن ملحان وكان قُتِل يوم بئر معونة.

قال ابن حجر: وقد انضاف إلى ذلك كون أنس خادم النبيّ ﷺ وقد جرت العادة بمخالطة المخدوم خادمه وأهل خادمه، ورفع الحشمة التي تقع بين الأجانب عنهم.

وقال الدمياطي: على أنه ليس في الحديث ما يدلُّ على الخلوة بأمّ حرام، ولعلّ ذلك كان مع ولدٍ أو خادم أو زوج أو تابع.

قال ابن حجر: وهو احتمالٌ قوي، لكن لا يدفع الإشكال من أصله لبقاء الملامسة في تفلية الرأس، وكذا النوم في الحجر.

وأحسن الأجوبة: دعوى الخصوصية، ولا يردّها كونها لا تثبت إلا بدليل؛ لأن الدليل على ذلك واضح والله أعلم.

وتفاوضهم مفاوضة النظير للنظير، لأنها إن كانت فتاةً حَرُمَ النظرُ إليها وكلامُها وإنْ كانت مُتجالَّة برزه لم يجمعْها والرجال مجلسٌ تزدحمُ فيه معهم.

فتكون خلاصة هذه الفِقر: إن كانت عملت المرأة في التجارة، في صدر الإسلام، نفترض واحدة من الحالات التالية:

الأولى: أن تشتري، أو تُشْترى لها البضاعة وتبيعها إلى النساء، وفي هذه الحال، تحمل بضاعتها وتذهب إلى النساء في بيوتهن. فقد جاء في الصحيح عن عائشة أنها أخبرت رسول الله أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير فيحتمل أنَّ تاجرة جاءت إلى البيت فاشترت منها.

الثانية: أن تدير تجارتها وهي في بيتها بواسطة العبيد والموالي.

الثالثة: أن يكون ذلك في بداية الهجرة قبل أن يُضرب الحجاب، لما ورد من أسباب إجلاء بني قينقاع عن المدينة. قال ابن هشام: «كان من أمر بني قينقاع أنَّ امرأة من العرب قدمتْ بجَلَبٍ لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجَلَسَتْ إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبتْ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها، فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءَتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً. . . الخ [٢/٤٨].

وكان حصار بني قينقاع في شوال من السنة الثانية.

• • •

ـ ٤ ـ

اللَّهو، واللَّعبُ

قال عليه الصلاة والسلام: «كل شيء يلهو به الرجلُ باطلٌ، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق». [رواه النسائي في كتاب الخيل].

وبوّب البخاري في كتاب الجهاد «باب اللهو بالحراب ونحوها» وذكر حديث لعب الحبشة عند النبـيّ بحرابهم.

وخرّج البيهقي عن عبد المطلب بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «الهوا والعبوا، فإني أكره أنْ أرى في دينكم غلظة».

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «روّحوا القلوب ساعةً وساعة» قال العِجلوني في «كشف الخفاء»: رواه الديلمي وأبو نعيم والقضاعي، ويشهد له ما في صحيح مسلم وغيره من قوله ﷺ: «يا حنظلة ساعةً وساعة» وفي المناوي، قال أبو الدرداء: «إني لأجمُّ فؤادي ببعض الباطل ـ أي اللهو الجائز ـ لأنشط للحق». وقال علي ـ رضي الله عنه ـ «أجمّوا هذه القلوب، فإنها تملُّ، كما تملُّ الأبدان».

هذه الشواهد تدل بمجموعها على إباحة اللهو واللعب في أشياء لا ينهى عنها الشرع.. فما اللُّعَب، والملاهي التي كانت معروفة فجر الإسلام والعصر الراشدي؟

هناك لُعَبٌ للصبيان، وملاه للكبار.. وقد وصلتنا أخبار تسمّي بعض أنواع اللهو، ومن الأخبار ما هو صحيح ومنها ما هو دون الصحيح وفي رأينا، أن ما صح خبره، كان موجوداً تاريخاً وحدثاً واقعاً، وما لم يصح خبره، قد يكون موجوداً في الواقع، ولكن الضعف يعتريه من ناحية حدوثه من أشخاص الرواية، أقصد أن اللعبة المسماة تكون موجودة في العصر الذي نؤرّخ له، ولكن الشك يأتي من ناحية: كون فلان الصحابي أو التابعي، لعب هذه اللعبة. فالاختلاف يكون في سند القصة، وليس في وقوع اللعبة. وسوف أذكر فيما يلي بعض اللُّعب التي كان يلهو بها أهل العصر.. ولا بدَّ من التنبيه إلى أننا سمينا أنواع اللهو لعباً، لأنه يتحقق منها غرض اللعب، وهو الترويح عن النفس. ومع ذلك فإن اللعب الإسلامية كلها للتدريب والتربية. وقد سمى رسول الله ﷺ الرمي بالقوس، وسياسة الفرس، لهواً، مع أنهما يؤديان للتدريب على أدوات الحرب. وتزوج جابر بن عبد الله، فسأله رسول الله ﷺ: أبكراً أم ثيباً؟ قال: قلت: ثيباً، قال: «فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك» [البخاري ٥٠٧٩] وفي رواية «وتضاحكها وتضاحكك» وفي حديث آخر «وتعضّها وتعضّك» فذكر اللعب، والضحك والعضّ، مع أن الزواج يحقق رسالة كبرى، تختبىء وراء ما ذكر، وهذا ما وقعت عليه:

* **اللعب بالبنات**: البنات: جمع بنت، والمقصود الصورة التي تمثّل البنت. والشاهد لهذه اللّعبة، ما رواه البخاري عن عائشة قالت: «كنتُ ألعب بالبنات عند النبيّ ﷺ، وكان لي صواحب يلعبْن معي، فكان رسول الله ﷺ، إذا دخل، ينْقَمِعْن (يتغيبن ويختبئن) منه، فيسرّبْهن إليَّ فيلعبْن معي» [ك الأدب ب ٨١].

قال ابن حجر: استدلّ بهذا الحديث على جواز اتخاذ صور البنات واللُّعب من أجل لعب البنات بهنَّ، وخُصَّ ذلك من عموم النهي عن اتخاذ الصور، وبه جزم عياض ونقله عن الجمهور، وأنهم أجازوا بيع اللعب للبنات لتدريبهن من صغرهن على أمر بيوتهن وأولادهن.

وقال بعض العلماء إنه منسوخ، وقال آخرون إن الباء في قولها «بالبنات» بمعنى «مع» يعني مع البنات الآدميات. ولكن هناك شواهد تعكّر على ما قالوه، منها رواية تقول: «وكنَّ جواري يأتين فيلعبن بها معي» وفي رواية «كنتُ ألعب بالبنات وهُنّ اللعب».

وأخرج أبو داود والنسائي عن عائشة قالت: قدم رسول الله من غزوة تبوك أو خيبر فهبت ريح فكشفت ناحية السّتْر عن بنات لي، فقال: ما هذا يا عائشة؟

فقالت: بناتي. ورأى بينهنَّ فرساً له جناحان، فقال: ما هذا؟ قلتُ: فرس. قال: وما هذا الذي عليه، قلتُ: جناحان. قال: فرس له جناحان؟ قلتُ: أما سمعت أنه كان لسليمان خيل لها أجنحة؟ فضحك حتى بدت نواجذه. [عن الفتح ١٠/٥٢٧].

ومهما كان الحكم، فإن الروايات تثبت وجود هذه اللعبة في المدينة، وهي من خواص الأطفال، أو البنات دون البلوغ.

* **الأرجوحة**: بوّب أبو داود في سننه «باب في الأُرجوحة» وروى حديث عائشة، قالت: «تزوجني رسول الله ﷺ، وأنا بنت سبع أو ست، فلما قدم المدينة، أتتني نسوةٌ، **وأنا على أُرجوحة**، فذهبن بي وهيأنني، وصنعنني، فأتىٰ رسول الله ﷺ فبنى بي وأنا ابنة تسع» [السنن ٢١٢١].

والشاهد «وأنا على أرجوحة» والأرجوحة: خشبة يوضع وسطها على تلّ، ثم يجلس غلام على أحد طرفيها، ويجلس غلام آخر على الطرف الآخر، فترجّح الخشبة بهما، ويتحركان، فيميل أحدهما بالآخر. أما الحبل الذي يعلق ويركبه الصبيان فاسمه «الرجّاحة» وفي المراسيل «أن رسول الله أمر بقطع المراجيح» وإسناده ضعيف. وهو جمع مرجوحة.

* **الدِّرَكْلَة**: بكسر الدال وفتح الراء، وسكون الكاف أو «الدِّرَقْلة» قال ابن منظور في لسان العرب: هي لعبةٌ يلعبُ بها الصبيان، وقيل: هي لعبة للعجم،

معرّب. قال ابن دُرَيْد: أحسبها حبشية معربة وقال أبو عمرو: هو ضرب من الرقص، وقال الأزهري قرأت بخط شمّر قال: قُرِىء على أبـي عُبيد وأنا شاهد، في حديث النبـيّ ﷺ أنه مرّ على أصحاب الدِّركْلة، فقال: «جدّوا يا بني أرفدة، حتى يعلم اليهود والنصارى، أن في ديننا فُسْحة».

وفي مادة «درقل» في «اللسان» ودرْقَلَ: رقص. قال شمّر: قال محمد بن إسحاق: قدم فتيةٌ من الحبشة على رسول الله ﷺ يُدرْقلون، أي: يرقصون. قال: والدِّرَقْلة: الرقص، والدرقلة: لعبة العجم معرّبة.

لكن بَوّب البخاري في كتاب الجهاد «باب الدرّق» وفي كتاب العيدين باب «الحراب والدّرق يوم العيد» وروي عن عائشة «وكان يوم عيد» يلعب فيه السودان بالدَّرق والحراب. . . الحديث.

ويظهر أن اللعبة اشتق اسمها من «الدرق» لأن استخدام الدرق أساس في هذا الرقص. والدرق: ضرب من التروس، واحده الدرقة. والذي يقوي هذا القول قول رسول الله «جدوا يا بني أرفدة» وفي صحيح البخاري «دونكم يا بني أرفدة» ونقل ابن حجر في «الفتح» الحديث الذي نقله ابن منظور في اللسان، على أنه من تتمة الحديث الذي روتْه عائشة فقال: وروى السراج من طريق أبـي الزناد عن عروة عن عائشة أنه ﷺ قال يومئذ: «لتعلم اليهود أن في ديننا فُسحة، إنـي بُعثتُ بحنيفيّة سمحة» وسياق الحديث أنهم كانوا يلعبون في المسجد. وبنو أرفدة: قيل: لقب للحبشة، وقيل: هو اسم جنسٍ لهم، وقيل: اسم جدّهم الأكبر، والله أعلم. [الفتح ٢/ ٤٤٤].

* **عَظْمُ وضّاح**: جاء في لسان العرب: وفي حديث المبعث: أن النبـيّ ﷺ، كان يلعب وهو صغير مع الغلمان بعظم وضّاح، وهي لعبة لصبيان الأعراب، يعمدون إلى عظْم أبيض فيرمونه في ظلمة الليل، ثم يتفرقون في طلبه، فمن وَجَده منهم، فله القمر. قال: ورأيت الصبيان يصغرونه فيقولون «عُظَيم وضّاح».

وفي كتاب [لعب العرب، لأحمد تيمور] قال: وفي ألف باء، للبلوي: ولصبيان العرب لعب أخر ذكرها ابن قتيبة في تفسير حديث رسول الله ﷺ: أنه بينما يلعب وهو صغير مع الغلمان «بعظم وضّاح» مرَّ عليه يهوديّ، فدحاه، فقال: لتقتلن صناديد هذه القرية. قال: وعظم ضاح: لعبة للصبيان بالليل، وهو أن يأخذوا عظماً أبيض شديد البياض، فيلقونه ثم يتفرقون في طلبه، فمن وجده منهم ركب أصحابه. وهذه اللعبة، إنْ صحت، أوصحت روايتها، فهي من ألعاب أهل مكة، وقد تكون لعبةً عامة في بلاد العرب. ومن العجيب أننا كنا نلعب هذه اللعبة أيام الطفولة في خان يونس، بلواء غزة، وكنا نسميها «عظيم الراح» فيقول مَنْ يقذف العظمة «عظيم الراح» ويرد عليه أقرانه «وين لقى وين راح» أي: أين ذهب. وراح بمعنى ذهب. ثم يبدأ الأولاد بالبحث عن العظم.

* **الكُرَّج**: قال في لسان العرب «هو الذي يُلْعبُ به، فارسيّ معرب وهو بالفارسيّة «كُرّه» قال جرير:

لبستُ سلاحي والفرزدق لعبةٌ   عليها وشاحا كُرَّجٍ وجلاجله

وقال:

أمسى الفرزدق في جلاجل كُرَّج   بعد الأُخَيطل ضَرَّةً لجرير

.. قال الليث: الكُرّج يُتحذ مثل المُهْر يُلعبُ عليه».

وفي «الروض الأنف» في ذكر مخنثي المدينة: وربما لعب بعضهم بالكُرَّج. وفي مراسيل أبي داود: أن عمر بن الخطاب رأى لاعباً يلعب بالكرَّج، فقال: «أمّا أنا، لولا أني رأيتُ رسول الله ﷺ أقرّك ما أقررتك». وفي رواية «لولا أني رأيتُ هذا يلعب به على عهد النبيّ ﷺ، لنفيته من المدينة». قال محققه الشيخ شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات، رجال الشيخين. (المراسيل ٣٤٩).

* **القِرْقُ**: قال صاحب اللسان: والقِرْقُ: الذي يُلعب به وقال في التهذيب: والقرْقُ: لعب السُّدَّر. ومن كلامهم: استوى القرق فقوموا بنا أي: استوينا في اللعب، فلم يَقْمُر واحدٌ منا صاحبه.

وقيل: القِرْق: لعبة للصبيان، يخطون في الأرض خطا ويأخذون حصيات فيصفّونها. قال ابن أبـي الصلت:

وأعـــلاقُ الكـــواكـــب مُـــرْســـلاتٌ   كخيْـــل القِـــرْق غـــايتهـــا النِّصـــابُ

.. شبـه النجـوم بهـذه الحصيـات التـي تصـفّ. وغـايتهـا النّصـاب، أي: المغرب الذي تغرب فيه.

قال أبو إسحق الحربـي في «القِرْق» الذي جاء في حديث أبـي هريرة: إنه كان ربّما يراهم يلعبون بالقِرْق فلا ينهاهم. قال: القِرْق: بكسر القاف، لعبة يلعب بها أهل الحجاز، وهو خط مربّع، ثم يخط من كل زاوية من الخط الأول إلى الخط الثالث، وبين كل زاويتين خط، فيصير أربعة وعشرين خطا. وقال أبو إسحق: هو شيء يلعب به، وسميت الأربعة عشر.

* **السُّدَّر**: وفي مادة سدر من اللسان، ذكر معلومات حول اللعبة السابقة. فقال: ولعبة للعرب يقال لها السُّدَّر، والطُّبَن، وقال ابن سيده: والسُّدَّر: اللعبة التي تسمى «الطُّبَنُ» وهو خط مستدير تلعب بها الصبيان. وفي حديث بعضهم: رأيتُ أبا هريرة يلْعبُ السُّدَّر. قال ابن الأثير: «هو لعبة يلعب بها، وتكسر سينها وتضم وهي فارسية معربة، وفيه حديث يحيـى بن أبـي كثير: السُّدَّر هي الشيطانة الصغرى، يعني أنها من أمر الشيطان».

* **وفي طبن من اللسان**: الطّبْنُ: القِرْقُ، والطُّبْنُ والطِّبن والطَّبْن خط مستدير يلعب به الصبيان يسمونه الرحى قال الشاعر:

مـــن ذِكْـــر أطـــلال ورسْـــم ضـــاحـــي   كـــالطِّبْـــن فـــي مُخْتلـــف الـــريـــاح

وقال ابن الأعرابـي: الطبن: هذه اللعبة التي تسمى السُّدَّر، وأنشد:

يَبِتْـــنَ يلعبْـــنَ حـــوالـــيَّ الطَّبَـــنْ

الطَّبَنُ هنا: مصدر؛ لأنه ضرب من اللعب، فهو من باب: اشتمل الصمّاء. والطُّبَنُ: اللُّعَبُ.

وقال الجوهري: والطُّبْنَةُ: لعبةٌ يقال لها بالفارسية سَدَرة، والجمع طُبن.

وأنشد أبو عمرو:

تَـدَكّلَـتْ بَعْـدي وألهتْهـا الطُّبَـنْ ونحـن نعـدو فـي الخبـار والجَـرَنْ

.. والتدكل: ارتفاع الرجل في نفسه، والطبَنُ: واحدتها طُبْنة.

* **الصفير بالحَمَام**: في مراسيل أبـي داود أن رسول الله قال: «ثلاث من الميسر: القمار والضرب بالكعاب والصفير بالحمام».

وفي اللسان: الصَّفَّارة: هنة جوفاء من نحاس يصفر فيها الغلام للحمام ويصفر فيها بالحمار ليشرب. ولكني لم أعرف كيف يكون الصفير للحمام نوعاً من اللعب؟ (انظر لعبة طيران الحمام الآتية).

* **التَّشَبُّه بالحيوانات للإضحاك.**

في مراسيل أبـي داود عن الحسن عن النبـيّ ﷺ: «أنه مرّ بقوم يطيفون برجل وهو يضحكهم فقال: ما هذا؟ قالوا: رجلٌ يتشبه بالحمار يضحك أصحابه فقال: سبحان الله، وما يؤمن هذا ــ وقد أحسن الله صورته ــ أن يحوله الله في صورة حمار».

* **بنات قضَّام**: نقل أحمد تيمور في كتاب «لعب العرب» عن المحبي في «ما يعوّل عليه» بنات قضّام، ويقال: بنات قُضّامة، لعبة لأهل المدينة تعمل من صحف، ويقال أيضاً: بنت قُضّامة، بضم القاف والتشديد. ثم قال في موضع آخر: بنت مقضمة، هي لعبة لأهل المدينة، تعمل من الصحف البيض، ويقال لها: بنت مقضم أيضاً، وبنات قضامة.

وفي لسان العرب: وفي حديث الزهري: قُبض رسول الله والقرآن في العُسُب والقُضُم: وهي الجلود البيض. واحدها: قضيم، ويجمع أيضاً على قَضَم، بفتحتين كأَدَم وأديم.

ومنه الحديث: أن النبيّ ﷺ دخل على عائشة وهي تلعب ببنت مُقضّمة: هي لعبة من جلود بيض، ويقال لها: بنت قُضّامة بالضم والتشديد.

قال ابن برّي: ولعبة أهل المدينة اسمها بنت قُضّامة، بضم غير مصروف، تُعمل من جلود بيض. والقضيم: النطع الأبيض، وقيل: من صحف بيض من القضيمة، وهي الصحيفة البيضاء.

* **طيران الحمام**: قال ابن عساكر في «الأوائل» أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا وانتهى سمن الناس **طيران الحمام** والرمي على الجلاهقات فاستعمل عليها عثمانُ رجلاً من بني ليث سنة ثمان من خلافته، فقصها وكسر الجلاهات.

قال الجواليقي في «المُعّرب» الجلاهق: الذي يرمي به الصبيان، وهو الطين المدور المُدَمْلَق يُرمى به عن القوس. فارسي، وأصله بالفارسية «جلاهة» الواحدة: جُلاهِقة، والاثنتان: جلاهقتان.

وقال ابن دريد: الجلاهق: الذي يلعب به الصبيان، وهو البندق. وهي بندقة من طين يرمى بها عن قوس.

وفي «الصحاح» الجلاهق: البندق، ومنه قوس الجلاهق وأصله بالفارسية «جله» وهي «كبة» والكثير «جلها» وبه سمي الحائك.

وقال المحقق (ف. عبد الرحيم): بالفارسيّة «جله» كبة غزل. و «جولاهه» الحائك ويبدو أن الصبيان كانوا يستعملون كبة الغزل للرمي بها وهكذا اكتسب اللفظ معنى «البندق».

وربما كانت للعُبة طيران الحمام، طرائق أُخرى غير ما ذُكر: فقد ذكر المصعب الزبيري في «نسب قريش ص ٤٢٧» أن نوفل بن مساحق، كانت له ناحيةٌ من الوليد بن عبد الملك، وكان الوليد يعجبُه الحمام، ويتّخذ له ويطيّره، فأدخل نوفل بن مساحق عليه وهو عند الحمام، فقال له الوليد: إني خصصْتك

بهذا المدخل لأُنسي بك، فقال: يا أمير المؤمنين إنك والله ما خصصتني ولكن خسستني، إنما هذه عورة وليس مثلي يُدْخل على مثل هذا، فسيّره إلى المدينة وغضب عليه.

وروى الطبراني عن عبادة بن الصامت قال: «اشتكى رجل إلى رسول الله الوحشة فقال له رسول الله ﷺ: اتخذ زوجاً من حمام».

وروى ابن السّني، وابن عساكر عن معاذ بن جبل أن علياً كرم الله وجهه شكا إلى النبيّ ﷺ الوحشة فأمره أن يتخذ زوج حمام ويذكر الله في هديره. وكانت بالمدينة على عهد مالك بن أنس دار تعرف بدار قُدامة، كان الناس يلعبون فيها بالحمام، وهي التي أشار إليها مالك، حيث عاب على تلميذه ابن الماجشون سؤاله عن مسألة واضحة فقال له: أتعرف دار قدامة.. وكانت داراً يلعب فيها الأحداث بالحمام، يريد أن ينسبه إلى اللعب وصغر السن.

أقول: إن خبر الإمام مالك كان في العصر العباسي، ولعلّ العناية بالحمام كانت امتداداً لبداية سابقة.. وفيها دليل على أن العناية بالحمام تكون غالباً من شأن الأحداث.

* **اللَّعب بالطيور (العصافير)**: روى البخاري في كتاب الأدب عن أنس قال: كان النبيّ ﷺ أحسن الناس خُلُقاً، وكان لي أخ يقال له أبو عُمَير، وكان إذا جاء ـ النبيُّ ﷺ قال: يا أبا عُمَيْر ما فعل النُّغَير ـ نُغَرٌ كان يلعب به.. الحديث (٦٢٠٣).

وفي رواية «كان لي أخٌ يقال له أبو عُمير، وكان له نُغَرٌ يلعب به فمات، فدخل على رسول الله ﷺ ذات يومٍ حزيناً، فقال: ما شأنُه قال: مات نُغَرُه فقال له: يا أبا عُمير ما فَعَل النُّغَير.

قال الجوهري: النُّغَيْر: تصغير نُغَر، بوزن «رُطَب» وهو طائر صغير

كالعصفور، وقيل: فراخ العصافير. قال عياض: والراجح أنه طائر أحمر المنقار، وأهل المدينة يسمونه: البلبل.

ومع وجازة هذا الحديث فقد استنبط منه بعض العلماء أربعمائة فائدة ومن فوائده في هذا الباب: جواز لعب الصغير بالطير، وجواز ترك الأبوين ولدهما الصغير يلعب بما أُبيح اللعب به، وجواز إنفاق المال فيما يتلهى به الصغير من المباحات، وجواز إمساك الطير في القفص ونحوه، وقصّ جناح الطير، إذْ لا يخلو حال طير أبي عُمير منهما [انظر: الفتح ١٠/ ٥٨٤].

الوحش في المسكن: روى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة قالت: «كان لآل رسول الله ﷺ وحشٌ، فإذا خرج رسول الله ﷺ، لعب واشتد وأقبل وأدبر فإذا أحس برسول الله ﷺ قد دخل، ربض فلم يترمرم ما دام رسول الله في البيت كراهية أن يؤذيه».

قولها: لم يترمرم: أي: سكن ولم يتحرّك. (عن اللسان) ولم أعرف نوع الوحش الذي أخبرت عنه. فالوحش: كل شيء من دوابّ البرّ مما لا يستأنس.. هل تكون هرَّة؟ فالقطط هي التي تحبّ اللعب.. أما الكلاب فهي محرّمة في البيوت.

* **السبق بين الخيل**: روى البخاري عن عبد الله بن عمر قال: أجرى رسول الله ﷺ، ما ضُمّر من الخيل من الحفياء إلى ثنية الوداع، وأجرى ما لم يُضَمَّر من الثنية إلى مسجد بني زُريق. قال ابن عمر: وكنتُ فيمن أجرى.

وفي رواية أُخرى: «إن رسول الله سابق بين الخيل التي لم تضمّرْ.. وأن عبد الله بن عمر، كان سابق بها».

قال ابن حجر: وفي الحديث مشروعية المسابقة، وأنه ليس من العبث بل من الرياضة المحمودة الموصلة إلى تحصيل المقاصد في الغزو، والانتفاع بها

عند الحاجة[1].

* **اللهو بأدوات الحرب**: روى البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: مرّ النبيُّ ﷺ على نفرٍ من أسلم ينتضلون، فقال النبيُّ ﷺ: «ارموا بني إسماعيل فإنَّ أباكم كان رامياً...» الحديث (٢٨٩٩) وقوله: «ينتضلون»، أي: يترامون، والتناضل: الترامي للسبق. ونضل فلانٌ فلاناً إذا غلبه.

وعن أبي هريرة قال: «بينما الحبشةُ يلعبون عند النبيّ ﷺ بحرابهم دخل عمر، فأهوى إلى الحصى، فحصبهم بها، فقال النبيّ ﷺ: دعهم يا عمر.

● ● ●

(١) هل يدخلُ في هذه المشروعية المسابقة بين الخيل في العصر الحديث؟
فالخيل لم تَعُدْ من القوة التي أمر الله بإعدادها لحرب الأعداء. مع غلاء ثمن الخيل وكثرة النفقة عليها، وحاجة المجاهدين إلى هذا المال لشراء الأسلحة الصغيرة.

ـ ٥ ـ

في (الزواج): سُنَنُه، وعاداتُه

قد يُظَنُّ أن موضوع (الزواج) مبتوت الصلة بكتب التاريخ، وأن مكانه كُتب الفقه. وجاء هذا الظنُّ من المفهوم الشائع للتاريخ، ومن مضمونات الكتب التي تُعَنْوَنُ باسم التاريخ. وجلُّ كتب التاريخ، تهتم بالأمراء والقواد، وما دار بينهم من حروب وفتن، وما كان أيامهم من أحداث حربية. وأهملت هذه الكتب دراسة المجتمعات، والأفراد في أسواقهم ومزارعهم. . .

ولكن ما السبب في وقْف التاريخ على أحداث الحروب، وتولية الأمراء وخلعهم؟ قد يكون السبب في ذلك، المفهوم الأول للسيرة النبويّة.

فقد مرّت الرواية بمرحلتين:

الأولى: رواية كلّ ما يتصل بالحياة النبويّة من البعث حتى الوفاة: أقواله، وأفعاله، وشواهد حاله.

الثانية: التخصص: فقد انفرد أقوام برواية أحاديث الأحكام الفقهية ودونوها في كتب سميت كتب الحديث: سواء منها ما بوّب على أبواب الفقه، أو ما بوّب على أسانيد الصحابة.

وانفرد بعض الرواة، برواية المغازي النبوية، وسميت كتبهم «المغازي» أو «السيرة النبوية».

أما التأليف في الحديث، فقد توقّف موضوعه عند الوفاة النبوية، لأنه يتصل بشخص النبيّ ﷺ، وكلُّ ما ألف في الحديث في العصور التالية لا يخرج عن حدود هذه المدة الزمنية. . .

وأما التأليف في السيرة، فقد بنى عليه المؤلفون فيما بعد تاريخ الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس. فالرسول عليه السلام رأس الحكومة الإسلامية، والخلفاء من بعده يمثلون الحكومة الإسلامية أيضاً ولأن كتب السيرة النبوية اهتمت بالمغازي فقط، فكذلك اهتم مؤلفو التاريخ بالفتوحات في العهد الراشدي، وتابعوا اهتمامهم بالفتوحات في العصر الأموي. . ولكن الأحداث الحربية في العهود التي تلت العهد النبوي، لم تقتصر على الفتوحات، فقد تداخلت معها الحروب التي نتجت عن الفتن، فاضطروا أن يسجلوا هذه الأحداث، وهكذا تتابع المؤلفون في التاريخ كل كتاب يبدأ ــ غالباً ــ بالمغازي النبوية، ثم فتوحات العهد الراشدي ثم ما كان في العصر الأموي:

. . وجاء اقتصار كتب التاريخ على أحداث الحروب. . لأنهم ربطوا بين التاريخ والأمراء، فهذا العهد النبوي، وهذا العهد الراشدي. . أبو بكر، فعمر فعثمان فعلي. . وهذا العهد الأموي. . ثم تربط الأحداث بالأمير. . والأمير هو القائد الأعلى للجيش. . .

ولكن التاريخ الحقيقي ليس تاريخ الحروب فقط، فموضوع التاريخ: الإنسان والزمان، ومسائله: أحوالهما المفصّلة للجزئيات، تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان (الإعلان بالتوبيخ ــ للسخاوي).

. . وموضوع الزواج، يتصل بالإنسان الذي جعله التاريخ موضوعه: والإنسان حَرْبٌ وسلم، وزراعة وتجارة، وعادات وتقاليد، فهو يجمع في سلوكه (الدين والدنيا). . والدين ثابت لا يتغيّر، ولذلك فإن أحكامه تتناولها كتب الفقه. وأما الدنيا، فهي متغيّرة، تعتورها أطوار، ولذلك فإن كتب التاريخ تتناول أطوارها.

والأحكام الشرعية: لم تلغ العادات كلها، ولم تمنع من إحداث أخلاق دنيويّة جديدة، على شرط ألا تتعارض مع النص الشرعي.

(والـزواج): تحكمـه النصـوص الشـرعيـة، والعـادات الاجتمـاعيـة التـي لا تتعارض مع النصوص الشرعية. بل تحكمه أحياناً عادات اجتماعية يكرهها الشرعُ والمؤرخ يتناول العادات المحمودة في الشرع، والعادات المكروهة على أنها أحداث واقعة في زمن معين. . .

ومن فوائد دراسة الزواج في التاريخ: أنه يقدمُ لنا تفسيراً لأحوال المجتمع الاقتصادية والاجتماعية، لاتصال الزواج الوثيق بهما: فالمهر كثرته وقلته، وولائم الزواج، والملابس، والكفاءة بين الزوجين وعادات زفاف العروس. . . كل هذه تتغير بتغير الحال الاقتصادي وتتبدل بتبدل العوايد الاجتماعية.

ومن فوائد دراسة (الزواج) في التاريخ أنه يقدم لنا تفسيراً لكثير من العادات التي تحكم حياتنا في الزواج، ولا نعلم بدايتها.

وسوف أتناول في هذه الفقرة بعض الجوانب من الزواج وتوابعه، مما يتصل بعاداته، وشعائره الاجتماعية.

١ ــ ألفاظ «الزِّواج» النّكاح:

يستخدم في هذا الباب عدد من الألفاظ تُعَدُّ غالباً من باب «الكناية».

(أ) النكاح: هو اللفظ المستخدم في كتب الحديث والفقه، وتبوّب الأبواب والفصول به. وهو في «اللغة» الضمُّ والتداخل. ويستخدم في الوطء ويستخدم في «العقد» وقالوا: إنه لم يرد لفظه، أو ما اشتق منه إلا للعقد في القرآن الكريم. وهو في الشرع: حقيقة في العقد، ومجاز في الوطء وقيل هو مجاز في العقد، وحقيقة في الوطء.

ويستخدم منه: نكح: الثلاثي، ويتعدى إلى مفعول واحد. و «أنكح» ويتعدى إلى مفعولين.

(ب) **وأما «الزِّواج»**: فهو اسم مولّد في العصر الحديث غالباً. وهو الاسم الشائع في الكتب والكتابات، وتتداوله الألسنة.

وقلتُ: إنه مولّد في العصر الحديث لأنني لم أجد مَنْ استخدمه في القرون السابقة فقد قرأت، كتاب النكاح في موطأ الإمام مالك، المتوفى سنة **١٧٩هـ** وقرأت كتاب النكاح ـ في صحيح البخاري المتوفى سنة **٢٥٦هـ**. وقرأت شرح صحيح البخاري، لابن حجر المتوفى سنة **٨٥٢هـ**. وكتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن من كتاب العقد الفريد ٧/ ٨٨ ـ وما بعدها. والمؤلف ابن عبد ربه المتوفى سنة **٣٢٨هـ**. . .

لم أجد في هذه الكتب لفظ «الزواج» وقرأتُ مادة «زوج» في القاموس المحيط، ومختار الصحاح، فلم يذكرا هذا اللفظ. وفي مادة «زوج» في اللسان، جاءَت مرّة واحدة في هذا السياق قال أبو حنيفة الدينوري: «هاج المُكَّاءُ للزّواج» يعني به السِّفاد. والمعروف أن السِّفاد: نَزْو الذكر على الأنثى، إذا كان من السباع والطير، والبعير والثور.

واستخدموا من مادة «زوج» زوّج، وتزوّج، والتزوّج، والتزويج. والزواج: من المفترض أن فعله «زاوج» ليكون المصدر على وزن «فعال» بكسر الفاء، ولكن المنطوق به اليوم «الزَّواج» بفتح الزاي وليس له وجه في الصرف.

ولم أجد فعل «زاوج» في اللسان، والقاموس، ومختار الصحاح ووجدتها في «المعجم الوسيط» فقال: زاوجه، مزاوجة، وزواجاً: خالطه وزاوج بينهما قرن. وقال: الزواج: اقتران الزوج بالزوجة، أو الذكر بالأنثى. ويبدو أن أهل عصرنا، فرّوا من «النكاح» إلى «الزواج» للتشابه بين مادة «نكح» ومادة (ن ا ك) المستقبحة، والله أعلم.

(جـ) **الزِّفاف**: وفعله «زَفَّ» والزِّفاف: نقل العروس من بيت أهلها إلى بيت زوجها. ويقال أيضاً: الزَّفَّة.

(د) **البناء**: وفعله: بنى: يُقال: بنى فلان على أهله، وبنى بأهله. وكأنَّ الأصل فيه، أنَّ الداخل بأهله كان يضرب عليها قبةً ليلة دخوله ليدخل بها فيها، فيقال: بنى الرجل على أهله، وقيل لكل داخل بأهله: بانٍ.

(هـ) **الإهداء، والهداء**: يقولون: أهدى العروسَ إلى بعلها: زفّها إليه. وهدى العروس إلى زوجها، هداءً،: زفها إليه. وفعلها: هدى يهدي وهداية: أي يدلها على الطريق. أو أهدى يُهدي إهداءً، والاسم: الهديّة.

٢ ـــ الخِطْبة، والعَقْد؛ وما يتبعهما:

(أ) **الخِطْبة**: بكسر الخاء: وفعلها: خطب، يخطُب، من باب نصر. والرجل خاطب، والجمع خُطّاب. والخِطبة: من مقدمات النكاح. بل تسبق عقد النكاح. فهي مرحلة مستقلة، لا يترتب عليها حقوق مالية بين الخاطب والمخطوبة، فموافقة المخطوبة أو وليّها على الخِطْبة، لا يُعَدُّ عقد نكاح.

بدليل الحديث: «نهى النبيُّ ﷺ أن يبيعَ بعضُكم على بيع بعض، ولا يخطب الرجل على خِطْبة أخيه، حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب».

وفي رواية «ولا يخطُبُ الرجل على خِطْبة أخيه حتى ينكح أو يترك». ذلك أنَّ موافقة المخطوبة، أو وليها على الخِطْبة، يعقبها تفتيش عن حال المخطوبة في النواحي التي ترغّب في التزوّج، قبل أن يُعْقَد النكاح فعن جابر بن عبد الله، أن رسول الله قال: «إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أنْ ينظر منها إلى ما يدعو إلى نكاحها، فليفعل».

قال جابر: «فخطبتُ امرأةً من بني سلمة، فكنتُ أختبىء لها، حتى رأيتُ منها بعض ما دعاني إليها» [رواه أبو داود].

وعن المغيرة بن شعبة، أنه خطب امرأة، فقال له رسول الله ﷺ: «أنظرتَ إليها؟ قال: لا، قال: انظر إليها، فإنه أحرى أن يُؤْدم بينكما». أي: أجدر أن يدوم الوفاق بينكما. [رواه النسائي] وروى عبد الرزاق، وسعيد بن منصور: أن

عمر بن الخطاب، خطب إلى عليّ ابنته أم كلثوم ــ بنت فاطمة ــ فذكر له صغرها، فقال: أبعثُ بها إليك، فإنْ رضيتَ فهي امرأتك، فأرسل إليها، فكشف عن ساقها فقالت: لولا أنك أمير المؤمنين لصككتُ عينيك. [عن المغني لابن قدامة ٦/ ٥٥٤].

وقد يرسلُ الخاطب إلى المخطوبة مَنْ يتعرف على صفاتها الخَلْقية التي لا تُعْرَفُ إلا بالمخالطة، أو بالجوار.. وقد بعث رسول الله ﷺ أُمَّ سليم إلى امرأة فقال: «انظري إلى عرقوبها، وشمّي معاطفها، وفي رواية شمي عوارضها» [رواه أحمد، والحاكم والبيهقي].

(ب) **عقد النكاح**: ويكون باجتماع الطرفين: الخاطب، ووليّ المخطوبة والشهود، ويتلفظ الطرفان بألفاظ تدل على الرغبة في عقد النكاح ويسمّى المهر في هذا المجلس.

(جـ) **الجهاز**: يؤخذ من الأخبار المرويّة، أن أهل الفتاة يجهزون ابنتهم قبل ذهابها إلى بيت زوجها، ويعدّون لها ملابس خاصة بليلة العرس: فقد روى النسائي عن علي رضي الله عنه قال:

«جهّز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل، وقربة، ووسادة حشوها إذْخر».

فإذا لم تجد العروس ثوباً جديداً تلبسه ليلة البناء، استعارت من نساء المدينة، لما روى البخاري، عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال: «دخلتُ على عائشة رضي الله عنها، وعليها درْعُ قِطْرٍ ــ قُطْن ــ ثمنُ خمسة دراهم فقالت: ارفع بَصَرك إلى جاريتي، انظر إليها، فإنها تُزْهىٰ أنْ تلبسه في البيت، وقد كان لي منهُنَّ درْعٌ على عهد رسول الله ﷺ، فما كانت امرأة تُقيَّنُ بالمدينة، إلا أرسلتْ إليَّ تستعيره»(١). [كتاب الهبة ــ باب الاستعارة للعروس عند البناء].

---

(١) قال ابن الجوزي: أرادت عائشة رضي الله عنها، أنهم كانوا أولاً في حال ضيق وكان الشيء المحتقر عندهم إذ ذاك، عظيم القدر. وفي الحديث: إن عارية الثياب أمر معمول به مرغب فيه وأنه لا يُعدُّ من الشنع.

(د) في ليلة الزفاف: في ليلة الزفاف، تجتمع النسوة في البيت الذي تُزَفُّ فيه العروس إلى زوجها، وتقوم واحدة منهنَّ بإصلاح شأنها، وتزيينها وربما غنيّنَ، وضربن بالدفّ. . .

وفي قصة السيدة عائشة ما يدل على ذلك، حيث روى البخاري عن عائشة قالت: «تزوجني النبيّ ﷺ وأنا بنتُ ستّ سنين ــ أي عقد عليَّ ــ فقدمنا المدينة، فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج، فوعكْت، فتمزَّق شعري فوفى جُميمة، فأتتني أُمي أم رومان، وإني لفي أُرجوحة ومعي صواحب لي فصرخت بي فأتيتُها، لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذتْ شيئاً من الماء فمسحتْ به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوةٌ من الأنصار في البيت فقُلْنَ: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهنَّ فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضُحىً فأسلمنني إليه وأنا يومئذٍ بنتُ تسع سنين».

وذكر الرواة من النساء اللواتي حضرْن الزفاف، أسماءَ بنت يزيد بن السكن، وقالوا هي التي زينتْ عائشة، وورووا عنها قالت: «لما أقعدْنا عائشة لنجليها على رسول الله ﷺ، جاءَنا فقرَّب إلينا تمراً ولبناً. .» [الفتح ٩/ ٢٢٣]. وبوّب البخاري في كتاب النكاح باب «النسوة اللاتي يهدين المرأة إلى زوجها». وروى عن عائشة أنها زفتْ امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبيُّ الله ﷺ: «يا عائشة، ما كان معكم لهو، فإن الأنصار يعجبهم اللهو» وفي رواية: «قوم فيهم غزل» ويقصد من اللهو أو الغزل: الغناء، والضرب على الدّف. لما روى النسائي: «إنه رخّص لنا في اللهو في العرس». ورووا أن رسول الله علمهم ما يقولون:

أتينـــاكـــم أتينـــاكـــم ... فحيّـــانـــا وحيّـــاكـــم

ولولا الذهب الأحمـ. . ... ـر مـا حلّـت بـواديكـم

ولـولا الحنطـة السمـرا ... ءُ مـا سمنـتْ عـذاريكـم

.. ويظهرُ أنَّ النساء كُنَّ يحضرْن العُرْس لغرض رؤية العروس، وحضور مشهد الزفاف، كما يفعل الناسُ في أيامنا، وقد يأخذون معهم أطفالهم.. فقد بوّب البخاري باب «ذهاب النساء والصبيان إلى العرس» وروى عن أنس بن مالك قال: «أبصر النبيّ ﷺ نساءً وصبياناً مُقْبلين من عرس فقام مُمْتنّاً..» أي قام إليهم مسرعاً مشتداً فرحاً بهم.

ويحضرُ أيضاً الرجالُ في مجلس خاص، ليلةَ الزفاف، لما روى البخاري عن سهل بن سعد قال: «لما أعرس أبو أسيد الساعدي، دعا النبيّ ﷺ وأصحابه، فما صنع لهم طعاماً ولا قرّبه إليهم إلا امرأتُه أُم أُسَيْد».. ومما يدل على أن ذلك ليلة العرس، ما جاءَ في رواية أخرى: «أنَّ أبا أُسيد الساعدي دعا النبيّ ﷺ لعُرسه، فكانت امرأته خادمهم يومئذٍ، وهي العروس..» [البخاري ٥١٨٣].

وعن أبي سعيد مولى أبي أُسيد قال: «تزوج فحضره عبد الله بن مسعود، وأبو ذرّ، وحُذيفة وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ، فحضرت الصلاة فقدموه وهو مملوك فصلّىٰ بهم ثم قالوا له: إذا دخلتَ على أهلك فصلِّ ركعتين ثم خُذ برأس أهلك فقل: اللهم بارك لي في أهلي، وبارك لأهلي فيّ، وارزقهم منّي وارزقني منهم، ثم شأنك وشأن أهلك» [المغني لابن قدامة ٦/ ٥٣٩].

(هـ) الوليمة: يظهر من النصوص أن وليمة العرس كانت تكون بعد الزفاف، وربما كانت في اليوم الثاني، أي: في صبيحة العرس. لما روى أنس بن مالك قال: كنتُ أعلم الناس بشأن الحجاب حين أُنزل وكان أول ما أُنزل في مُبْتَنَى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش: أصبحَ النبيّ ﷺ بها عروساً، فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا وبقي رهْط منهم عند النبيّ ﷺ فأطالوا المكث.. الحديث. [البخاري ٥١٦٦].

وفي قصة بناءِ النبيّ ﷺ على صفيّة بنت حُيي قال أنس: «حتى بلغنا سدَّ

الصهباء، حلّتْ، فبنى بها رسول الله ﷺ، ثم صنع حيساً (طعاماً) في نِطْع صغير، ثم قال لي: آذنْ مَنْ حولك، فكانت تلك وليمتَه على صفيّة..» [البخاري رقم ٤٢١١].

ويُؤْخذ من مجموع الأقوال في الوليمة أنها ليست بواجبة، أو أنها واجبة بما يقدر عليه الرجل، كَثُر أو قلّ، ولكن يظهر من بعض الشواهد حرص الرجال على أن تكون الوليمة مشهودة يحضرها جمْع غفير، ويقدم فيها من أحسن الطعام. وقد أخذتُ هذا من قصة الإمام علي رضي الله عنه حيث روي عنه قوله: «فلما أردتُ أنْ أبتني بفاطمة، بنت رسول الله ﷺ، واعدْتُ رجلاً صوّاغاً من بني قينقاع أنْ يرتحل معي فنأتي بإذخر، أردتُ أن أبيعه الصوّاغين وأستعين به في وليمة عُرسي..» [البخاري ٣٠٩١]. ويؤخذ من هذا السياق أنه كان يُعِدُّ العُدّة لوليمة كبيرة، مع عُسْره.

.. ولم تذكر كتب اللغة شاهداً جاهلياً لوجود «الوليمة» لفظاً ومعنى في الجاهلية.

فالمادة اللغوية الأصلية للوليمة «الوَلْم، والوَلَمُ: حزام السرج والرجل والوَلْم: القيد. والوَلْمةُ: تمام الشيء واجتماعه. وأولم الرجلُ: إذا اجتمع حَلْقُه وعقْله. وكل هذا تقليب لغوي لم يذكروا له شاهداً وأما «الوليمة» وهي طعام العرس والإملاك.. فشواهدها من الحديث النبويّ. فهل تعدُّ كلمة الوليمة، إسلامية؟ وهل سُنّتْ الوليمة في الإسلام، ولم تكن في الجاهلية؟.

أقول: لعلها إسلامية، لأنهم لم يذكروا أن رسول الله عمل وليمة عندما تزوّج من خديجة. ولو كانت عادة جاهلية ما احتاج عبد الرحمن بن عوف أن يذكره رسول الله بالوليمة، حيث قال له رسول الله ﷺ: أَوْلِمْ ولو بشاة.

وتزوج رسول الله ﷺ عائشة بعد الهجرة بسبعة أشهر، ولم يَرْوُوا أنَّ رسول الله صنع وليمة. لعلّها سُنَّتْ بعد ذلك.

ويظهر أن الوليمة في كتب الحديث يُراد بها طعام العُرْس بخاصة، ولكن لفظ الوليمة قد يطلق على غير طعام العرس مقيداً، أو مضافاً. لأن لفظ الوليمة مأخوذ من «الوَلْم» وهو الجمع، وزناً ومعنى، لأن الزوجين يجتمعان أو اجتماع الناس فيه، لأن الوليمة لا تكون للزوجين، وإنما تكون للناس الذين يُدْعَوْن إليها. والاجتماع يحصل في كل دعوةٍ إلى طعام.. وذكروا أن الولائم ثمانية، ولم ينسبوها إلى عصر، ويظهر أن أكثرها إسلامي وها هي الولائم:

١ ــ **الإعذار**: طعام الختان: روى الإمام أحمد في مسنده عن الحسن، أن عثمان بن أبي العاص الثقفي، دُعي إلى خِتان فأبى أن يجيب فقيل له، فقال: إنّا كُنّا لا نأتي الختان على عهد رسول الله، ولا نُدعَى له. وعثمان، توفي حوالي سنة ٥١هـ. ولعلّ الختان الذي دعي إليه في البصرة لأنه كان يسكنها. فهل يكون الاحتفال بالختان بدعةً ابتدعوها بعد العهد النبوي؟ أو أنه كان موجوداً ولم يكن يُدعى إليه الناس؟ ولكن ابن منظور نقل رجزاً فيه «الإعذار» بمعنى طعام الختان ولم ينسبه، وهو:

كُلُّ الطعامِ نشتهي ربيعه　　　الخُرْس والإعذارُ والنَّقيعة

.. ونقل أن الإعذار، مأخوذ من «العُذْرة» وهي قلفة الصبيّ. وكأنهم شبهوها بعُذرة البنت البكر، قبل الافتضاض.

.. ويسمى أيضاً: العِذارُ، والعذيرةُ، والعذير، كله طعام الختان.

٢ ــ **والخُرس**: بضم الخاء المعجمة وسكون الراء: الطعام الذي يصنع لسلامة المرأة من الطَّلْق.. ويظهر أن الأصل في هذا الطعام، يصنع لتقوية المرأة، وتعويضها ما فقدته من دماء، إن كان هناك نزيف، فيأكل مَنْ حضر بعد الولادة للتهنئة بالسلامة منه.

٣ ــ **والنقيعة**: الطعام الذي يُصنع عند قدوم المسافر، مشتقة من النقع وهو الغبار، لأن المسافر يأتي وعليه غبار السفر، وقيل: النقيعة من اللبن إذا

بَرَد. والثاني عندي أقوى من الأول، لعلّ المسافر يسقونه اللبن بعد تبريده، في أول وصوله. أما غبار السفر فإن المسافر يزيله عن نفسه إذا غسل وجهه أو توضأ. إلا إذا أرادوا أن ما يسقونه للمسافر يزيل غبار السفر من حَلْقه.

وقد بوّب البخاري في كتاب الجهاد «باب الطعام عند القدوم، وكان ابن عمر يُفْطِرُ لمن يغشاه». وروى عن جابر «أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ــ من إحدى غزواته ــ نحر جزوراً أو بقرة».

قال ابن بطال: فيه إطعام الإمام والرئيس أصحابه عند القدوم من السفر، وهو مستحبٌّ عند السلف، ويسمّى النقيعة.

وأما قوله: «وكان ابن عمر يُفْطِر لمن يغشاه» ذلك أن ابن عمر كان إذا سافر، أفطر، وإذا قدم صام إما قضاءً إن كان سافر في رمضان وإما تطوعاً إن كان في غيره، لكنه يفطر أول قدومه لأجل الذين يغشونه للسلام عليه والتهنئة بالقدوم. فكان إذا قدم من سفر أطعم مَنْ يأتيه ويُفطر معهم.

٤ ــ **العقيقة**: اسم لما يذبح عن المولود في اليوم السابع: واختلف في اشتقاقها، فقيل: أصلها الشعر الذي يخرج على رأس المولود. وسميت الشاة التي تذبح عنه في تلك الحالة عقيقة لأنه يُحلق عنه ذلك الشعر عند الذبح.

وقيل: مأخوذة من العقّ وهو الشقُّ والقطع، وسميت الشاة المذبوحة بذلك لأنها تعقُّ مذابحها أي تشقُّ وتقطع، وقيل: هي الشعر الذي يحلق. وقيل: الشاة التي تُذبح والشعر، كل منهما يسمى «عقيقة» يقال: عقَّ يعقّ إذا حلق عن ابنه عقيقته وذبح للمساكين شاة.

ومن الشواهد لتسمية الشاة عقيقة حديث «للغلام عقيقتان، وللجارية عقيقة». وتكون عقيقة بمعنى معقوقة.

وهناك شواهد لوجود العقيقة في الجاهلية، مما أخرج ابن حبّان في صحيحه عن عائشة قالت: «كانوا في الجاهلية إذا عقّوا عن الصبيّ خضبوا قطنة بدم العقيقة، فإذا حلقوا رأس الصبيّ وضعوها على رأسه، فقال النبيّ ﷺ:

اجعلوا مكان الدم خلوقاً». وروى أبو داود عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: «كُنَّا في الجاهلية. .» فذكر نحو حديث عائشة لكن ورد خبرٌ بإسناد ضعيف أن النبيّ ﷺ عقّ عن نفسه بعد النبوّة. . [عن الفتح ٩/ ٥٩٥]. فإذا كان العقُّ موجوداً في الجاهلية، لماذا لم يعقّ عبد المطلب عن محمد ﷺ، مع أن الروايات تذكر أنهم فرحوا بمولده؟ إذا صح الخبر، يكون رسول الله ﷺ، أعاد العقيقة، ليذكر عليها اسم الله تعالى وكانوا في الجاهلية لا يفعلون ذلك. والله أعلم.

٥ ــ **الوكيرة**: للسكن المتجدد، مأخوذ من الوكر وهو المأوى والمستقرّ قال ابن منظور: الوكْرةُ، والوكيرة، والوَكرة ــ بفتحتين ــ الطعام يتخذه الرجل عند فراغه من بنيانه فيدعو إليه. ولم أعرف له تأريخاً لكنه إن كان جاهلياً فسوف يكون مقصوراً على أهل المدر، أي: أهل المدن والقرى والله أعلم.

٦ ــ **الوضيمة**: طعام المأتم، وطعام المأتم نوعان: طعام السُّنَّة، وهو أنْ يصنع الناسُ طعاماً ويرسلونه إلى أهل الميت، وشاهده: حديث «اصنعوا لآلِ جعفرٍ طعاماً فقد أتاهم ما يشغلهم» رواه الخمسة. وهناك الطعام المكروه، وهو أن يجتمع الناس عند أهل الميت بعد دفنه فيصنع أهلُ الميت طعاماً للناس. ولم أعلمْ إن كانت هذه العادة جاهلية أم طارئة؟ ولكن يؤخذ من الأخبار أنها كانت موجودة في عهد الصحابة، لما روى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي، الصحابي (توفي سنة ٥٤هـ) قال: «كُنَّا نَعُدُّ الاجتماع إلى أهل الميت، وصنعةَ الطعام بعد دفنه من النياحة».

لكن جاء في «منتقى الآثار» قال عبد الرزاق: كانوا يعقرون عند القبر بقرةً أو شاةً في الجاهلية فقال عليه السلام: «لا عَقْر في الإسلام» [رواه أحمد وأبو داود]. قال الخطابي: كان أهل الجاهلية يعقرون الإبل على قبر الرجل الجواد، يقولون نجازيه على فعله لأنه كان يعقرها في حياته فيطعمها الأضياف فنحن نعقرها عند قبره حتى تأكلها السباع والطير، فيكون مُطعِماً بعد مماته كما كان مُطْعِماً في حياته.

٧ ــ **المأدُبة**: الطعام الذي يُتَّخذ بلا سبب. وقيل: كل طعام يصنع لدعوة.

٨ ــ **القِرى**: طعام الضيف.

٩ ــ **التُّحْفة**: طعام الزائر.

١٠ ــ **الوليمة**: طعام العرس: منهم من خصصه لما يصنع بعد العرس وجعل الطعام الذي يصنع قبل العرس، أو عند الإملاك «الشُّنْدخيّة».

(و) **النِّثَار**: من الفعل، نَثرَ الشيء، أي: رمى به مُفرَّقاً. وتحدث الفقهاء عن حكم نثر اللوز، والسكر على الحاضرين في العرس، وقد ينثر الأغنياء الدراهم والدنانير. قال المتنبي في وصف ما فعله سيف الدولة بالأعداء:

نَثَرْتَهُمُ فَوْقَ الأُحيْدبِ نَثْرةً كما نُثِرتْ فوق العروسِ الدراهِمُ

.. والظاهر من الأخبار أنه شيءٌ مُحْدَثٌ، فكرهه قوم، وأباحه آخرون والتمس الفريقان أدلة من الأحاديث النبوية، ومأثور الصحابة: أما الذين كرهوه، فقد قاسوه على ما رواه البخاري عن عبد الله بن يزيد قال: «نهى النبيّ ﷺ عن النُّهْبَى..» [كتاب المظالم ٢٤٧٤]. وبوّب البخاري «باب النُّهْبَى بغير إذن صاحبه» أي: صاحب الشيء المنهوب. والنُّهبى: بضم النون، من النهب، وهو أخذ المرء ما ليس له جهاراً قال ابن حجر: ونهب مال الغير غير جائز، ومفهوم الترجمة، أنه إذا أذن جاز، ومحله في المنهوب المشاع، كالطعام يُقدم للقوم، فلكل منهم أن يأخذ مما يليه، ولا يجذب من غيره إلا برضاه.

قال: وكره مالك، وجماعةٌ النهب في نثار العرس، لأنه إما أن يُحمل على أن صاحبه أذن للحاضرين في أخذه، فظاهره يقتضي التسوية، والنهي يقتضي خلافها، وإما أن يحمل على أنّه علّق التمليك على ما يحصل لكلّ واحدٍ، ففي صحته اختلاف، فلذلك كرهه..

فالإمام مالك ومن وافقه اعتمد على النهي العام.. ولكن عنوان البخاري يدل على الجواز إذا كان مأذوناً به، ونِثارُ العروس، مأذون به.

.. فالذين كرهوه، لم يثبت عندهم نصٌّ على وجوده في العهد النبوي.

وأما الذين أباحوه، فاعتمدوا على القياس، والنصّ:

أما القياس: فلما روى أبو داود عن عبد الله بن قرط قال: «قُرّب إلى رسول الله ﷺ خمس بدنات أو ست فطفقن يزدلفْن إليه.. فنحرها رسول الله ﷺ، وقال كلمة لم أسمعها، فسألتُ مَنْ قرُب منه فقال: قال: مَنْ شاء اقتطع». وهذا جارٍ مجرى النثار.

وأما النصُّ، فهو حديث أخرجه أبو جعفر الطحاوي، بإسنادٍ ضعيف عن معاذ بن جبل[1]، أن النبيّ ﷺ حضر ملاك رجلٍ من الأنصار، فخطب، وأنكح الأنصاري، وقال: على الأُلفة والخير، والطائر الميمون دفّفوا على رأس صاحبكم، فدُفّفَ عليه، فجاءَ الجواري معهنّ الأطباق فيها اللوز والسكر، فنُثر عليهم، فأمسك القوم أيديهم فلم يمدوها إلى الأطباق، فقال عليه السلام: ألا تنهبون؟ قالوا: أنت نهيت عن النهبة، قال: إنما نهيتُ عن نهبة العساكر، أما العرسان فلا أنهاكم عنه. ثم قال معاذ: فرأيت رسول الله يجاذبهم ويجاذبونه في الانتهاب. وقد استشهد الطحاوي بهذا الحديث على أنَّ النثار بنحو اللوز والسكر غير مكروه. ولكن البيهقي قال: لا يثبت في هذا المعنى شيء.

وأنا ذكرته، لا لأثبتَ حكماً، أو أنفيه، وإنما أردتُ التأريخ.. فإذا لم يثبت الحديث، أو لم يثبت حضور النبيّ ﷺ قصة النثار المذكورة فقد يكون النّثار موجوداً، وإن لم يوجد في العهد النبويّ، فقد يكون حدث في زمن الخلفاء الراشدين، وبخاصة زمن عثمان، حيث بلغ الوُسْعُ غايته بكثرة الأموال [المغني، لابن قدامة ٧/ ١١].

---

(١) قال ابن حجر في [الفتح ٩/ ٢٢٢] والحديث رواه الطبراني في الكبير، بسند ضعيف وأخرجه في الأوسط بسندٍ أضعف وأخرجه أبو عمرو البرقاني في كتاب «معاشرة الأهلين» وفي سنده أبان العبدي وهو ضعيف.

(ز) **ألفاظ الدعاء والتهنئة في النكاح:**

١ ــ **ما تقوله النسوة للعروس وأهل العروس:** جاء في حديث عائشة: «تزوجني النبي ﷺ، فأتتني أمي فأدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر».

٢ ــ **ما يقوله أهل العروس عند إهداء بنتهم:** جاء في إحدى طرق تزويج عائشة أن أُمها ــ أم رومان ــ أجلستها في حجر رسول الله ﷺ ثم قالت: «هؤلاءِ أهلك يا رسول الله، بارك الله لك فيهم».

٣ ــ **ما يقوله أهل العروس لبنتهم:** . . . لم أجد نصاً في هذا المقام.

٤ ــ **ما يقوله محارم العروس من الرجال، لزوج ابنتهم:** لم أجد نصاً في هذا المقام وأول لقاء يكون بين وليّ البنت، والرجل الخاطب، يوم العقد، ولم أجد من أقوالهم في هذا المجلس إلا لفظ القبول: زوجتك، أو أنكحتك، أو ما يدل على معنى التزويج.

وفي قصة خطبة رسول الله عائشة «أن رسول الله أرسل خولة بنت حكيم إلى أبـي بكر يخطبُ عائشة، فقال لها أبو بكر: وهل تصلح له؟ إنما هي بنت أخيه، فرجعتُ فذكرتُ ذلك للنبيّ ﷺ، فقال لها: ارجعي فقولي له: أنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي، فأتيت أبا بكر فذكرتُ ذلك له، فقال: ادعي رسول الله ﷺ، فجاء فأنكحه» [الفتح ٩/ ١٢٤]. ولم يذكروا فيه دعاءً.

وفي قصة خطبة عمر من أم كلثوم بنت علي بن أبـي طالب: فقال عليّ: «فإنْ رضيتَ فهي امرأتك» ولم يذكر دعاءً.

وقد بوَّب النووي في كتاب «الأذكار» باب بيان أدب الزوج مع أصهاره في الكلام. وقال: اعلم أنّه يستحبُّ للزوج أن لا يخاطب أحداً، من أقارب زوجته بلفظ فيه ذكْر جماع النساء أو تقبيلهنَّ، أو معانقتهن أو غير ذلك من أنواع

الاستمتاع بهنَّ، أو ما يتضمن ذلك أو يستدلُّ به عليه، أو يُفْهم منه. وروى عن البخاري ومسلم، عن علي رضي الله عنه قال: «كنتُ رجلاً مذّاءً، فاستحييتُ أنْ أسأل رسول الله ﷺ، لمكان ابنته مني، فأمرتُ المقدادَ فسأله».

وقد يُفْهم من سياق كلام النووي أن محارم المرأة من الرجال، لم يكونوا يهنئون زوج ابنتهم يوم بنائه بها.

وقد رأيت من عادات بعض أقاليم العرب في أيامنا، أن الرجال من أهل المرأة، لا يحضرون الحفل الذي يقيمه الرجلُ يوم بنائه، وإنما يحضره الرجالُ من أقارب الرجل. . وتحضر النسوة فقط مع بنتهم ليلة الزفاف. .

فهل يكون هذا موروثاً من صدر الإسلام؟

٥ ـ ما يقوله المهنئون بعامّة، للرجل:

(أ) قال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف حين أخبره أنه تزوّج: «بارك الله لك».

وقال رسول الله ﷺ حين أخبره أنه تزوج «بارك اللَّهُ عليك».

وفي رواية أنه ﷺ كان يقول لمن تزوّج: «بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير».

وفي رواية «اللهم بارك لهم، وبارك عليهم».

وفي رواية ضعيفة «على الأُلفة والخير والبركة، والطير الميمون والسعة في الرزق».

وقد جمعها الناسُ في أيامنا بكلمة «مُبارك» والعامة تقول «مبروك» وهو خطأ، لأنّ فعله «بارك» واسم المفعول «مُبَارك».

(ب) وقد يقولون اليوم «بالرِّفاءِ والبنين» فما أصل هذا اللفظ، وهل كان مستعملاً في صدر الإسلام؟

روى النسائي والطبراني عن عقيل بن أبي طالب، أنه قدم البصرة، فتزوج امرأة فقالوا له: «بالرِّفاءِ والبنين» فقال: لا تقولوا هكذا، وقولوا كما قال رسول الله ﷺ: «اللهم بارك لهم وبارك عليهم».

ونقل ابن حجر عن بَقِيّ بن مخلد عن رجل من تميم قال: «كنا نقول في الجاهلية بالرفاء والبنين، فلما جاء الإسلام، علمنا نبينا، قال: قولوا: بارك الله لكم وبارك فيكم وبارك عليكم».

والرِّفاء: الالتئام والاتفاق والبركة والنماء. وفي حديث أبي هريرة الذي رواه أبو داود [٢١٣٠] والترمذي [١٠٩١]: كان النبي ﷺ إذا رفّأ إنساناً، قال: بارك اللّهُ لك... أي: دعا له بالترفئة. وفي رواية «إذا رفّأ إنسانٌ» ويكون معناها «تزوّج» لأن في معنى «رفّأ»، معنى التزوّج، وهو الاجتماع. واختلفوا في علّة النهي عن القول «بالرِّفاء والبنين»: فقيل لأنه لا حَمْدَ فيه ولا ثناء، ولا ذكر الله. وقيل: لما فيه من الإشارة إلى بغض البنات، لتخصيص البنين بالذكر، وأما الرِّفاء: فمعناه الالتئام، من رفأت الثوب، ورفوته رفواً ورفاء، وهو دعاء للمتزوج بالالتئام والائتلاف فلا كراهية فيه.

وقال ابن المنير: الذي يظهر أنه ـ ﷺ ـ كره اللفظ لما فيه من موافقة الجاهلية، لأنهم كانوا يقولونه تفاؤلاً لا دُعاءً.

٦ ـ **ما يقوله الزوجُ لزوجه، والزوج لزوجها**: لم أقع على نصّ على أن أحد الزوجين يوجّه للآخر كلمة تهنئة أو دعاء. والمرويّ: دعاءٌ يقوله الرجلُ عندما يدخل على زوجته، ودعاءٌ عند الجماع.

(ح) **الهدية للعروسين**: عن أنس بن مالك قال: «كان النبيُّ ﷺ عروساً بزينب بنت جحش، فقالت لي أم سليم: لو أهدينا لرسول الله ﷺ هديّةً، فقلتُ لها: افعلي. فعمدتُ إلى تمر وسمن وأقط، فاتخذت حيسةً في بُرمة فأرسلت بها معي إليه.. الحديث» [البخاري ٥١٦٣].

(ط) مقاييس الجمال، وأنواع زينة المرأة:

١ ـ لعلَّ بعض عناصر الجمال في المرأة، يقدّمها لنا الحديث، بل الخبر الذي رواه البخاري عن أُم سلمة أنَّ النبـيَّ ﷺ كان عندها ـ وفي البيت مُخَنَّثٌ، فقال المخنث لأخي أم سلمة عبد الله بن أبـي أُمية: إنْ فتح اللَّهُ لكم الطائف غَداً، أدلّك على ابنة غيلان: فإنها تُقبلُ بأربع وتدبرُ بثمان، فقال النبـيُّ ﷺ: «لا يَدْخُلَنَّ هذا عليكم» [كتاب النكاح ٥٢٣٥].

ونقل ابن حجر في الفتح [٩/ ٣٣٤] رواية عن ابن إسحق يروي عن محمد بن إبراهيم التيمي: قال: كان مع النبـيّ ﷺ في غزوة الطائف مولى لخالته فاختة بنت عمرو، مُخَنّث، يُقال له «ماتع» يدخل على نساء النبـيّ ﷺ، ويكون في بيته، لا يرى رسول الله أنه يفطن لشيء من أمر النساء، مما يفطن له الرجال، ولا أن له أربة في ذلك فسمعه يقول لخالد بن الوليد: يا خالد، إن افتتحتم الطائف فلا تنفلتَنَّ منك بادية بنت غيلان بن سلمة الثقفي، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، فقال رسول الله ﷺ حين سمع ذلك منه: لا أرى هذا الخبيث يفطنُ لما أسمعُ، ثم قال لنسائه: «فلا تُدخِلْنَ هذا عليكنَّ».

قال ابن حجر: المخنّث، بكسر النون وبفتحها: مَنْ يشبه خَلْقُه النساء في حركاته وكلامه وغير ذلك. فإن كان من أصل الخلقة، لم يكن عليه لوم، وعليه أن يتكلف إزالة ذلك. وإن كان بقصد منه، وتكلَّف له فهو المذموم. ويطلق عليه اسم مخنث سواء فعل الفاحشة أو لم يفعل، وقال ابن حبيب: المخنث: هو المؤنث من الرجال، وإن لم يعرف منه الفاحشة مأخوذ من التكسر في المشي وغيره.

قالوا: وقوله: «تُقبلُ بأربع وتدبر بثمان» معناه أن أعكانها ينعطفُ بعضها على بعض، وهي في بطنها أربع طرائق وتبلغ أطرافها إلى خاصرتهما، في كل جانب أربع، ولإرادة العكن ذكر الأربع والثمان، فلو أراد الأطراف لقال: بثمانية.

وقال الخطابي: يريد أن لها في بطنها أربع عُكن، فإذا أقبلت رؤيت مواضعها بارزة متكسراً بعضها على بعض، وإذا أدبرت كانت أطراف هذه العكن الأربع عند منقطع جنبيها ثمانية. قال ابن حجر: وحاصله: أنه وصفها بأنها مملوءَة البدن. بحيث يكون لبطنها عُكنٌ، وذلك لا يكون إلا للسمينة من النساء. قال: وجرت عادة الرجال غالباً في الرغبة فيمن تكون بتلك الصفة.

ونقل ابن حجر في [الفتح ٩/ ٣٣٥] وصفاً آخر يقول: «إن أقبلت قلتَ تمشي بستّ وإن أدبرت قلتَ تمشي بأربع» كأنه يعني يديها ورجليها وطرفيْ ذاك منها مقبلة، ورُدْفَيْها مدبرة، وإنما نقص إذا أدبرت لأن الثديين يحتجبان حينئذٍ. وزاد في وصف آخر «وتدبر بثمان، بثغر كالأقحوان، إن قعدت تثنّتْ وإن تكلّمتْ تغنَتْ، وبين رجليها شيء مخبوء مثل الإنكاء المكفوء».

وقد يُفسّر بعض الصفات المذكورة، ما رواه ابن ماجه عن عائشة «أرادت أُمي أن تعالجني للسُّمنة لتدخلني على النبي ﷺ، فما استقام لها ذلك، حتى أكلتُ الرُّطب بالقثّاء، فسمنتُ كأحْسَن سمنة».

وروى النسائي عن عائشة: «لما تزوجني النبيُّ ﷺ عالجوني بغير شيء، فأطعموني القثّاء بالتمر، فسمنتُ عليه، كأحسن الشحم». [عن الفتح ٩/ ٥٧٣].

وقال كعب بن زهير في مقدمة قصيدته التي اعتذر فيها للنبي ﷺ:

وما سُعادُ غداة البَيْنِ إذْ رحلوا ... إلا أغنُّ غَضيضُ الطرف مكحول

تجلو عوارض ذي ظَلْم إذا ابتسمتْ ... كأنهُ مُنهل بالراحِ معلول

٢ ـ **أنواع زينة المرأة**: منها ما كان مباحاً، ومنها ما كان مكروهاً، أو محرّماً. أما الزينة المباحة؛ أو المستحبة للمرأة، لأنها من باب استحباب تزيّن المرأة لزوجها: فنذكر منها:

* **الاستحداد**: وجاء شاهده في أحاديث كثيرة منها ما رواه البخاري عن جابر: «إذا دخلتَ ليلاً، فلا تدخل على أهلك، حتى تستحدّ المُغيبة، وتمتشط

الشَّعثة» [٥٢٤٦]. يريد إذا كان الرجل مسافراً سفراً طويلاً وعاد. قال ابن حجر: تستحدّ، بحاء مهملة، أي: تستعمل الحديدة وهي الموسى. والمُغيبة، بضم الميم وكسر المعجمة بعدها تحتانية ساكنة ثم موحدة مفتوحة، أي: التي غاب عنها زوجها. والمراد: إزالة الشعر عنها. وعبر بالاستحداد، لأنه الغالب استعماله في إزالة الشعر، وليس في ذلك منع إزالته بغير الموسىٰ.

* **والامتشاط**: وشاهده في الحديث السابق.

* **والاكتحال**: بوّب البخاري: باب: الكحل للحادّة ــ في كتاب الطلاق. وروى أنَّ امرأة توفي زوجها، فخشوا على عينيها، فأتوا على رسول الله ﷺ فاستأذنوه في التكحّل، فقال: «لا تكتحل». لأنَّ الاكتحال نوع من الزينة الممنوعة على المرأة المعتدّة.

وفي حديث آخر عن أُمِّ عطية «كُنَّا نُنهى أن نُحدَّ على ميّت فوق ثلاث إلا على زوج، أربعة أشهر وعشراً، ولا نكتحل، ولا نطيّب. . .» الحديث.

* **الختان**: «قال عليه الصلاة والسلام»: الفِطْرةُ خمس «الخِتانُ، والاستحدادُ، ونَتْفُ الإبط، وتقليم الأظفار، وقصُّ الشارب». وأخرج أبو داود من حديث أُم عطيّة أنَّ امرأة كانت تختنُ بالمدينة، فقال لها النبيُّ ﷺ «لا تنهكي، فإنّ ذلك أحظى للمرأة». وقال: إنه ليس بالقويّ.

قال ابن حجر في [الفتح ١٠/ ٣٤٠]: وله شاهدان من حديث أنس، ومن حديث أم أيمن عند أبي الشيخ في كتاب العقيقة، وآخر عن الضحاك بن قيس عند البيهقي.

وروى الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص أنه دُعي إلى خِتان فقال: «ما كُنَّا نأتي الختان على عهد رسول الله ﷺ ولا نُدعى له». قال ابن حجر [١٠/٣٤٣]. وأخرجه أبو الشيخ من رواية فبيَّن أنه كان ختانَ جارية. والشاهد فيه: أن ختان المرأة كان موجوداً، ولكنه لم يكن تقام له وليمة يُدعى إليها الناس. ولذلك قالوا: إن السنّة إظهار ختان الذكر وإخفاء ختان الأُنثى.

قال الماوردي: ختان المرأة، قطع جلدةٍ تكون في أعلى فرجها فوق مدخل الذكر كالنواة أو كعرف الديك، والواجب قطع الجلدة المستعلية منه دون استئصاله.

وقال ابن حجر: وأفاد الشيخ أبو عبد الله بن الحاج في «المدخل» أنه اختُلف في النساء: هل يخفضْنَ عموماً، أو يفرّق بين نساءِ المشرق فيخفضن ونساء المغرب فلا يخفضْن، لعدم الفضلة المشروع قطعها منهن بخلاف نساء المشرق.

* **الخضابُ والطيب**: «عن عائشة قالت: كانت امرأة عثمان بن مظعون تخضُبُ وتُطيّب فتركتْه، فدخلت عليَّ، فقلتُ: أمشْهَدٌ أم مغيب (أي: أزوجك شاهد أم غائب). فقالت: مشهد. قالت: عثمان لا يريد الدنيا ولا يريد النساء...» الحديث. [رواه أحمد]... قال الشوكاني في [نيل الأوطار ٤/١٩٣]: المراد أن ترك الخضاب والطيب، إن كان لأجل غيبة الزوج، فذاك، وإن كان لأمر آخر، مع حضوره فما هو، فأخبرتها أن زوجها لا حاجة له في النساء. فهي في حكم مَنْ لا زوج لها، واستنكار عائشة عليها ترك الخضاب والطيب يشعر بأن ذوات الأزواج يَحْسنُ منهن التزين للأزواج بذلك.

وروى الإمام أحمد عن كريمة بنت همّام قالت: «دخلتُ المسجد الحرام، فأخْلَوْه لعائشة، فسألتْها امرأة: ما تقولين يا أم المؤمنين في الحِنّاء؟ فقالت: كان حبيبي ﷺ يَعجبُه لونُه ويكره ريحه، وليس بمحرّم عليكنَّ عند كل حيضة».

* **الحُليّ**: ومن الحلي المذكورة في صدر الإسلام.

* **الخاتم**: بوّب البخاري: الخاتم للنساء، وكان على عائشة خواتيم الذهب. وفي حديث خطبة العيد «فأتى النساءَ فأمرهنَّ بالصدقة فجعلن يُلْقين الفتخ، والخواتيم في ثوب بلال».

* **والفَتَخ**: بفتح الفاء ومثناة فوق بعدها خاء معجمة، جمع فَتْخة. قال

عبد الرزاق: الفتخ: الخواتيم العظام كانت في الجاهلية. وقال ثعلب: كُنَّ يلبسنها في أصابع الأرجل. وقال الأصمعي: هي الخواتيم التي لا فُصُوص لها.

* **الخلاخيل**: جاءَت في حديث رواه مسلم في قصة خطبة العيد وصدقة النساء.

* **السِّخاب**: في حديث يوم العيد «فجعلت المرأةُ تصدَّقُ بخُرصها، وسِخابها» وهو جمع سُخُب. قال الخطابي قلادة تُتَّخذُ من طيب ليس فيها ذهب ولا فضة. وقال الداودي: من قرنفل. وقال الهروي: هو خيط من خرز يلبسه الصبيان والجواري. وقيل: شيء يُعمل من الحنظل، كالقميص والوشاح.

* **الخُرْص**: بضم الخاء وسكون الراء: الحلقة الصغيرة من ذهب أو فضة.

* **القلادة**: أو العِقد: في كتاب التيمم: عن عائشة: قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كُنَّا بالبيداء، انقطع عِقْدٌ لي. فأقام رسول الله على التماسه.. الحديث. [البخاري ٣٣٤]. وذكروا أن هذا العِقْد كان لأسماء بنت أبي بكر، استعارته عائشة منها. وكان من جَزْع ظفار والجَزْع: خرز يمني.

القُرْط: بضم القاف وسكون الراء: ما يحلى به الأذن، ذهباً كان أو فضة... وجاء ذكره في قصة صدقة النساء يوم العيد.

وجاء في الأحاديث أنواع من **الزينة المكروهة أو المحرمّة**، ولكن يبدو أن بعض النسوة كُنَّ يفعلنها مع النهي عنها، وجُلُّ ما ذكروه من الزينة المكروهة تصنعه النساء في أيامنا.

جاء في الحديث الصحيح «لعن اللَّهُ الواشمات والمستوشمات، والمتنمّصات، والمتفلّجات للحسن، المغيرات خلق الله تعالى». وفي الصحيح «أُتي عُمرُ بامرأة تَشِمُ.. الحديث» [البخاري ٥٩٤٦].

* **الوشم**: والمستوشِمَة: التي تطلب الوشم. والوشم: أن يُغْرز في العضو إبرة أو نحوها حتى يسيل الدم، ثم يُحشى بنورة أو غيرها فيخضرّ وقال أبو داود في السُّنن: الواشمة: التي تعمل الخيلان في وجهها، بكحل أو مداد.. وقد يكون في الشفة، وقد يكون في اللثة، وقد يكون في اليد وقد يُجعل ذلك نقشاً، وقد يجعل دوائر، وقد يكتب اسم المحبوب.

* **الفلج**: والمتفلجة هي التي تطلبه: والفلج: انفراج ما بين الثنيّتين والتفلج: أنْ يُفرج بين المتلاصقين بالمبرد ونحوه، وهو مختص عادة بالثنايا والرباعيات.

ويستحسن من المرأة، فربما صنعته التي تكون أسنانها متلاصقة لتصير متفلجة وقد تفعله الكبيرة توهم أنها صغيرة، لأن الصغيرة تكون غالباً مفلَّجة جديدة السن، ويذهب ذلك في الكبر.

* **وَصْل الشعر وتصفيفه**: رُوي أن امرأة جاءَت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني أنكحت ابنتي، فأصابتها الحصبة أو الجدري فسقط شعرها وقد صحّتْ وزوجها يستحثنا بها، وليس على رأسها شعر، أفنجعل على رأسها شيئاً نجملها به، أو قالت: أفأصل شعرها؟.. فسبَّ رسول الله الواصلة والمستوصلة.

وفي حديث «ونساءٌ كاسيات عاريات رؤوسهنَّ كأسنمة البُخت».

والبخت: ضرب من الإبل عظام الأسنمة.. شبه رؤوس النساء بها لما رفعْن من ضفائر شعورهن على أوساط رؤوسهن تزييناً وتصنْعاً، وقد يفعلن ذلك بما يكثرن به شعورهنّ.

* **النّماص**: .. وهي متنمّصة، والنامصة التي تفعله. والنماص إزالة شعر الوجه بالمنقاش (الملقط) ويقال: إنه خاص بإزالة شعر الحاجبين لترفيعهما أو تسويتهما.. وقد تكون مقرونة الحاجبين فتزيل ما بينهما، توهم البلج.

وعلى معنى خصوصية «النماص» بإزالة شعر الحاجبين، يمكن أن نسميه «التزجيج».

قال ابن منظور: «والزَّجَجُ: رقة محط الحاجبين ودقتهما وطولهما وسبوغهما واستقواسهما. وقيل: الزجج: دقة في الحاجبين وطول. والرجل: أزجّ، وحاجب أزجّ، ومزجج.

وزججت المرأة حاجبها بالمزجّ: دققتْه وطولته. وقيل: أطالتْه بالإثمد.

قال الراعي:

إذا ما الغانياتُ بَرَزْنَ يوماً وَزَجَّجْنَ الحواجب والعيونا

... والبيت من شواهد النحويين على أن الواو في قوله «والعيونا» عطفتْ عاملاً محذوفاً بقي معموله، والأصل: وكحلن العيونا. وقيل: عطفت الواو معمول عامل غير مذكور على معمولٍ آخر يجمعهما معنى واحد، وهما: التحسين».

● ● ●

ـ ٦ ـ

الأطـعـمـة

جاء في كُتب الأحاديث أسماء عدد من الأطعمة المعروفة في العهد النبوي، ولسنا على يقين بأن الأسماء التي ذكروها للأطعمة، كانت معروفة فقد تكون الأسماء من وضع الرواة لصفة الطعام الذي رُوي لهم.. وسواءٌ أعرف الاسم أم لم يعرف، فإن المؤرخ يهمه الصفة وليس الاسم.. وصفة الطعام رويت في الأخبار الصحيحة، فهي ثابتة الوقوع.

وأنقل أولاً أسماء أطعمة العرب التي ذكرتها المصادر اللغوية والأدبية، ثم أثني بالأطعمة التي نُقلت إلينا أخبارها في صدر الإسلام، للموازنة بين الأطعمة العامّة، والأطعمة الخاصة.. وقد نقلت أسماء أطعمة العرب عن [العقد الفريد جـ ٨ كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب، وفقه اللغة للثعالبي ـ الباب الرابع والعشرون].

أولاً ـ أطعمة العرب:

* **العصيدة**: دقيق يلتُّ بالسمن ويطبخ. وذكر لها الثعالبي أحوالاً: قال: إذا كانت العصيدة ناعمة فهي الوطيئة. فإذا تَخُنَتْ: فهي النُفَيْتة، فإذا زادت قليلاً فهي النُّفيثة ـ بالثاء، فإذا زادت فهي اللفيتةُ، فإذا انعقدتْ وتعلّكت، فهي العصيدة.

* **السَّخينةُ**: طعام يُتّخذُ من دقيق دون العصيدة في الرقّة، وفوق الحَسَاء،

يأكلونها في شدّة الدهر وغلاء السعر، وعجف المال وكانت تصنعه قريش في الجاهلية، فعيّرتْ به. فقال حسان[1]:

زعمــتْ سخينــةُ أن ستغلــبُ ربَّهــا ولَيُغلَبَــنَّ مُغــالــب الغَــلاَّبِ

* **الحريقةُ**: أن يُذَرَّ الدقيقُ على ماءٍ ولبنٍ حليبٍ، فيُحْتَسى. وهي أغلظ من السخينة، يُبقي بها صاحبُ العيال على عياله إذا عضّه الدهر.

* **الصَّحيرة**: اللبن يُغْلى ثم يُذَرُّ عليه الدقيق.

* **العَذيرةُ**: دقيقٌ يحلبُ عليه لبنٌ ثم يُحمى بالرَّضْف[2].

* **العكيسة**: لَبَنٌ يُصبُّ على الشحم المذاب. **والعكيس**: الدقيق يصب عليه الماء.

الفريقةُ: حُلْبةٌ تُضَمُّ إلى اللبن والتمر، وتقدّم إلى المريض والنفساء.

* **الرغيدة**: اللبن الحليب يُغلى ثم يُذَرُّ عليه الدقيق حتى يختلط، فيُلْعَقُ.

* **الآصِيَة**: دقيق يُعجن بلبنٍ وتمرٍ.

---

(١) لم أجد هذا البيت في ديوان حسان، مع وجود قصيدة من وزنه وقافيته. ووجدتُه في السيرة النبوية في آخر قصيدة للشاعر كعب بن مالك بمناسبة يوم الخندق. ورواية البيت:

جــاءَت سخينــةُ كــي تغــالــبَ رَبَّهــا فَلَيُغْلَبَــنَّ مُغــالــبُ الغــلاّب

وجاء في الحاشية: سخينة: لقب قريش في الجاهلية، وذكروا أن قُصَيّاً كان إذا ذبح ذبيحة بمكة أتى بعجزها فصنع منه خزيرة ــ وهو لحم يطبخ ببُرّ ــ فيطعمه الناس، فسميت قريش بها سخينة. وقيل: إن العرب كانوا إذا قحطوا أكلوا العلهز، وهو الوبر والدم وتأكل قريش الخزيرة فنفست عليهم ذلك، فلقبوهم «سخينة».

(٢) الرَّضْف: الحجارة التي حميتْ بالشمس أو النار. واحدتها «رَضْفَة». وقيل: الرَّضْفُ: الحجارة المحماة يُوغَرُ بها اللبن. والرضيف: اللبن يُغْلى بالرضْفة. وفي حديث الهجرة: «فيبيتان في رِسْلها ورضيفها» الرضيف: اللبن المرضوف وهو الذي طرح فيه الحجارة المحْماة ليذهب وَخَمُه [عن لسان العرب ــ رضف].

* **الرَّهِيّة**: بُرٌّ يُطْحَنُ بين حجرين ويصبُ عليه لَبَنٌ.

* **الوليقة**: طعام يُتخذ من دقيق وسمن ولبن.

* الخزيرة: شَحمةٌ تذاب، ويُصب عليها ماء ثم يطرح عليه دقيق، فليلبّك به.

* **الرغيغة**: حَسْوٌ من دقيق وماء.

* **الرَّبيكة**: طعام يُتخذ من بُرٍّ وتمر وسمن.

* **التَّلْبينة**: حَسَاءٌ يُتخذ من دقيق أو نُخالة ويُجعل فيه عسل. وإنما سميت تلبينة تشبيهاً لها باللبن، لبياضها ورقتها. وكان إذا اشتكى أحدهم منزله لم تنزل البرمة (القدر) حتى يأتي على أحد طرفيه، ومعناه حتى يُبِلّ من علته أو يموت.

* **البكيلة**: السَّمْنُ يُخلط بالأَقط. وقيل: هي الدقيق يُخلط بالسويق ثم يُبَلُّ بماءٍ أو سمن أو بزيت. وقيل: هو الأقط المطحون تبْكُلُه بالماء كأنك تريد أن تعجنه. وقيل: هما السويق والتمر يُبلان باللبن.

* **الحَيْسُ**: الأقط، بالسمن والتمر.

* **المجيع**: التمر باللبن.

البسيسة: السويق بالأقط والسمن والزيت. وهي أيضاً: الشعير بالنوى وتكون للإبل. ويقال: البسيسة: كل شيء خلطته بغيره.

* **الضّباب**: الخردل بالزبيب.

* **البريك**: الزّبد بالرُّطب.

* **الخبيط**: اللبن الرائب والحليب.

* **النَّخيسة**: لَبَنُ الضأنِ بلبن الماعز.

* **العَبِيثة**: طعام يُطبخ ويجعل فيه جراد.

* **المضيرة**: سُميت بذلك لأنها طُبخت باللبن الماضر، وهو الحامض.

* **الحريرة**: الحساء من الدسم والدقيق.

ثانياً ـ الأطعمة في صدر الإسلام:

* **الدُّبَّاء**: روى البخاري عن أنس: أن خيّاطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: «فذهبتُ معه إلى ذلك الطعام، فقرّب إلى رسول الله ﷺ خبزاً ومرقاً فيه دُبَّاءٌ وقديد فرأيت النبيّ ﷺ يتتبّعُ الدُّبّاء من حوالي القصعة..»،

والدُّبّاء: اليقطين، أو القرع، وربما يكون خاصاً بالمستدير منه الذي يميل طعمه إلى الحلاوة. ولا زال يعرف في المدينة بهذا الاسم، وتجود زراعته في أرض المدينة.

* **الأُدْم**: جمع إدام: وجاء في الحديث «ودخل رسول الله ﷺ يوماً بيت عائشة، وعلى النار بُرْمةٌ تفور، فدعا بالغَدَاء، فأُتي بخُبز وأُدْم من أُدم البيت، فقال: ألم أر لحماً؟ قالوا: بلى يا رسول الله، ولكنه لحم تُصدِّق به على بريرة، فأهدته لنا، فقال: هو صدقة عليها، وهديّة لنا». والشاهد: الأُدْم: وقد اختلفوا في تفسيره، والجمهور أنه ما يؤكل به الخبز بما يطيبه، سواء أكان مرقاً أم لا. والظاهر أنه يدخل فيه كل ما يسمى اليوم «حواضر البيت» ولو كان غير مطبوخ، كالجبن، والزيتون والزعتر الخ.

* **الخبز بالسَّمن**: روى البخاري (٥٣٨١): «فأتت أُم سليم بذلك الخبز، فأمر به ففُتَّ، وعصرت عليه أم سُليم عُكَّة ـ وعاء سمن ـ لها، فأَدَمَتْه.. فأكلوا حتى شبعوا..».

* **الخُبْزُ**: (أنواعه) أكثر ما عُرف في العهد النبوي خبز الشعير، يصنع أقراصاً.. لما جاء في حديث أنس.. قال أبو طلحة لأُم سليم: «هل عندك من شيء؟ فأخرجت أقراصاً من شعير..» [البخاري ٥٣٨١]. ولكنهم خبزوا الخبز المرقق، أو الرقاق بعد العهد النبوي، لما روى ابن ماجة عن أبي هريرة أنه زار قومه فأتوه برقاق، فبكى، وقال: «ما رأى رسول الله ﷺ هذا بعينه. وفي حديث

أنس عن البخاري (٥٣٨٥) ما أكل النبـيّ ﷺ خبزاً مرققاً. وفي رواية ولا خُبزَ له مُرقّقٌ قَطُّ».

* **الخَزيرة**: جاء في الصحيح أن عِتْبان بن مالك، دعا النبـيّ ﷺ إلى بيته، ليصلي فيه فيتخذه مصلى.. قال عتبان: «وحبسناه على خزيرٍ صنعناه..». وحبسناه: أي منعناه من الرجوع عن منزلنا لأجل خزير صنعناه له ليأكل منه.. واختلفوا في تفسير الخزيرة، وبيان أخلاطها:

فقيل: هي ما يُتخذ من الدقيق على هيئة العصيدة لكنه أرقُّ منها.

وقيل: دقيق يخلط بشحم.

وقيل: أن يؤخذ اللحم فيقطع صغاراً ويصبُّ عليه ماءٌ كثير، فإذا نضج ذُرّ عليه الدقيق. فإن لم يكن فيها لحم فهي **عصيدة** وقيل: مرق يُصفّى من بلالة النخالة ثم يطبخ.

وقيل: حساء من دقيق ودسم.

* **الأَقِط**: عن أنس قال: «بنى النبـيّ ﷺ بصفيّة، فألقى بالتمر والأقط والسمن». يريد أن هذه وليمة العرس.

والأقط: جُبْن اللّبن المستخرج زُبْدُه.

* **الحَيْس**: والحيسة: جاء في الصحيح أن أمّ سليم أرادت أن تهدي لرسول الله ﷺ عندما كان عروساً بزينب بنت جحش «فعمدت إلى تمرٍ وسمن وأقط، فاتخذت حيسة في بُرْمة، فأرسلت بها إليه». وجاء الحيس أيضاً في قصة زواج النبـيّ ﷺ بصفيّة، في الطريق بين خيبر والمدينة... وقالوا: وقد يكون الحيس من التمر والسمن والفتيت، أو الدقيق، بدل الأقط.

* **السِّلْقُ والشعير**: عن سهل بن سعد قال: «كانت فينا امرأة، تجعل على أربعاءَ ــ جمع ربيع وهو الجدول الصغير ــ في مزرعة لها سِلْقاً، فكانت إذا كان

يومُ الجمعة، تنزع أُصول السِّلْق، فتجعله في قدْر، ثم تجعل عليه قبضةً من شعير تطحنها فتكون أصولُ السِّلْقِ، عَرْقَه ـ أي يقوم مقام اللحم ـ وكنا ننصرف من صلاة الجمعة، فنسلّمُ عليها، فتقرّب ذلك الطعام إلينا، فنلْعقه، وكُنَّا نتمنى يوم الجمعة لطعامها ذلك» [البخاري ٩٣٨].

قلتُ: ونحن اليوم ـ نجمع بين السِّلْق، والعدس، ليس عليهما إلا الزيت، فإذا نضج نفتُّ فيه الخبز، فيكون من ألذّ أنواع الطعام. . .

* **التَّلْبينة**: روي عن عائشة، أنها كانت إذا مات الميّتُ من أهلها فاجتمع لذلك النساءُ ثم تفرقْنَ، إلا أهلها وخاصتها، أمرت ببرمة من تلبينة فطبخت، ثم صُنع ثريد فصُبّتْ التلبينة عليها ثم قالت: كُلْن منها، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «التلبينة مجمّةٌ لفؤاد المريض تَذْهبُ ببعض الحُزْن».

والتلبينة: حَسَاءٌ يعمل من دقيق أو نخالة، ويجعل فيه عسل، أو لبن وسميت تلبينة تشبيهاً لها باللبن في بياضها ورقتها.

* **الثريد**: جاء في الحديث الصحيح: «فَضْلُ عائشة على النساء كفضْل الثريد على سائر الطعام».

والثريد: أن يثرد الخبز، أي يُفتُّ بمرق اللحم، وقد يكون معه اللحم. ومن أمثالهم «الثريد أحدُ اللحمين».

وهو ما يسمى اليوم «الفتُّ» والفتُّ إذا أُطلق، أُريد به الخبر المفتوت في مرق اللحم. فإذا كان غير ذلك، فإنه يقيّد، فيقال «فتة حمّص» ويقال «الفتوش» لما يُفتُّ في مادة السلطة.

* **القديد**: عن عبد الرحمن بن عابس عن أبيه قال: قلتُ لعائشة: أنهى النبيّ ﷺ أن تؤكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث؟ قالت: «ما فعله إلا في عام جاع الناسُ فيه، فأراد أن يُطعم الغنيّ والفقير وإن كُنَّا لنرفعُ الكُراع فنأكله بعد خمس عشرة». . ويأكلونه قديداً وهو اللحم المملوح المجفف في الشمس. . .

وفي حديث أنس «رأيت النبيّ ﷺ أُتي بمرقةٍ فيها دبَّاءٌ وقديد».

* **القثّاء بالرُّطب**: عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال: «رأيتُ النبيّ ﷺ يأكل الرطب بالقثاء».

وروينا قبل هذا في مقاييس الجمال، أن أم عائشة أطعمتها الرطب بالقثاء لتسمنها.

* **السويق**: عن سويد بن النعمان، «أنه خرج مع رسول الله عام خيبر، حتى إذا كانوا بالصهباء، فصلى العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا بالسويق، فأمر به فثرّي، فأكل رسول الله وأكلنا..» [البخاري ٢٠٩]. والسويق: دقيق الشعير أو القمح، يُقلى بالزيت ثم يُجفّف. وقد وصفه أعرابي فقال: عُدَّةُ المسافر وطعام العجلان وبلغة المريض. وقوله «ثُرّي» أي: بلّل بالماء لما لحقه من اليبس.

وغزوة السويق: سميت بذلك، لأن المشركين كانوا يحملون السويق، فتخفّفوا منه عند هروبهم.

الأُتْرُجّ: قال ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجّة طعمها طيب وريحها طيّب». رواه الشيخان.

البيض: عن ابن عمر: رفعه «أن نبياً من الأنبياء اشتكى إلى الله الضعف فأمره بأكل البيض». ذكره السيوطي في «الطب النبوي» عن البيهقي في شعب الإيمان. قال ابن القيّم: وفي ثبوته نظر.

* **البصل**: روى أبو داود (٣٨٢٩) عن عائشة: «إن آخر طعام أكله رسول الله ﷺ، كان فيه بصل».

* **البطيخ بالرطب**: عن أنس، أن رسول الله ﷺ: «كان يأخذ الرطب بيمينه والبطيخ بيساره، فيأكل الرطب بالبطيخ، وكان أحبَّ الفاكهة إليه». رواه الحاكم في المستدرك ولم يصححه.

وإذا صح الخبر، فيكون المقصود بالبطيخ، البطيخ الأخضر، لأنه يشبه القثّاء. أو المقصود بالبطيخ عجّور الشمام قبل أن يصفرّ ويحلو. وفي بعض أقاليم العرب يسمّون الشمّام الأصفر (بطيخ أصفر) وفي لسان العرب: البطيخ: من اليقطين الذي لا يعلو ولكن يذهب حبالاً على وجه الأرض. وقوله: «من اليقطين» فإن الذي يشبه اليقطين، ثمراً وورقاً هو الشمام. أما البطيخ فإن ورقه وثمره بعيد الشبه عن اليقطين. والله أعلم.

* **البلح بالتمر**: عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلوا البلح بالتمر، فإن الشيطان إذا نظر إلى ابن آدم يأكل البلح بالتمر يقول: بقي ابن آدم حتى أكل الحديث بالعتيق».

رواه النسائي وابن ماجه.

* **التمر بالخبز**: عن يوسف بن عبد الله بن سلام قال: «رأيتُ النبيّ ﷺ أخذ كسرة من خبز شعير فوضع عليها تمرة، وقال: هذا إدام هذه» رواه أبو داود والترمذي.

* **الخلّ**: عن جابر، أن النبيّ ﷺ، سأل أهله الإدام، فقالوا: ما عندنا إلا خلّ، فدعا به، وجعل يأكل ويقول: «نعم الإدام الخلّ» رواه مسلم. وروى ابن ماجه «نعم الإدام الخل، اللهم بارك في الخلّ، ولم يفتقر بيت فيه الخلّ».

* **الزيت**: وهو زيت الزيتون: وفيه حديث: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة». رواه الترمذي وابن ماجه.

* **الجُمّار**: عن ابن عمر قال: «كنتُ عند النبيّ ﷺ وهو يأكل جمّاراً فقال: من الشجر شجرة كالرجل المؤمن، فأردتُ أن أقول هي النخلة فإذا أنا أحْدثُهم، قال: هي النخلة». والجُمّار: قلْب النخلة، عند أصول الجريد، يكون أبيض اللون لذيذ الطعم.

* **التمر**: التمر بمفرده، كان غذاء القوم في كثير من أيامهم في العهد

النبوي. فعن عائشة «توفي النبـيّ ﷺ حين شبعنا من الأسودين التمر والماء». وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «بيتٌ لا تمر فيه، جياعٌ أهله» [رواه مسلم] وعن جابر أن رسول الله قال: «نعم السحور التمر» [رواه ابن حبان].

* **اللحوم**: أكلوها مطبوخة ومشوية.. وربما كان المطبوخ أكثر، لكثرة بركته وليثردوا فيه. وأكثر لحومهم: من الإبل، والبقر والغنم، وليس الترتيب مقصوداً.

وأكلوا «الجراد» لما روى البخاري عن ابن أبـي أَوْفى قال: «غزونا مع النبـيّ ﷺ سبع غزوات، كُنَّا نأكل معه الجراد».

* **والدجاج**: لما روى أبو موسى الأشعري قال: «رأيتُ النبـيّ ﷺ يأكل دجاجاً».

* **والأرنب**: وكانوا يصيدونه: لما روى أحمد والنسائي عن أبـي هريرة قال: «جاء أعرابـيٌّ إلى رسول الله بأرنب قد شواها.. فوضعها بين يديه، فأمسك رسول الله ﷺ فلم يأكل، وأمر أصحابه أن يأكلوا». وروى أحمد والنسائي وابن ماجه عن محمد بن صفوان «أنه صاد أرنبين فذبحهما، فأتى رسول الله ﷺ، فأمره بأكلهما». وروى البخاري عن أنس قال: «أنفجنا ـ أثَرْنا ـ أرنباً ونحن بمرّ الظهران، فسعى القوم فلغبوا، فأخذتُها فجئتُ بها إلى أبـي طلحة فذبحها فبعث بوركها إلى النبـيّ ﷺ فقبلها» [٥٥٣٥].

* **والضَبُّ**: لما روى البخاري عن خالد بن الوليد قال: «أُتي النبـيّ ﷺ بضبّ مشوي، فأهوى إليه ليأكل، فقيل له: إنه ضبٌّ، فأمسك يده، فقال خالد: أحرامٌ هو؟ قال: لا ولكنه لا يكون بأرض قومي، فأجدني أعافُه، فأكل خالدٌ، ورسول الله ﷺ ينظرُ إليه» [٥٤٠٠].

* **والحوت**: عن جابر قال: بعثنا النبـيّ ﷺ، ثلاثمائة راكب وأميرنا أبو عبيدة نرصُد عيراً لقريش، فأصابنا جوع شديد.. وألقى البحرُ حُوتاً يقال له

العنبر، فأكلنا نصف شهر وادّهنا بودكه حتى صلحت أجسامنا، قال: فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه فنصبه فمرَّ الراكب تحته.. فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «كلوا رزقاً أخرجه الله، أطعمونا إن كان معكم، فأتاه بعضهم بعضوٍ فأكله» [البخاري ٥٤٩٤].

• • •



فهرست الجزء الأول

الفصل الثاني

المدينة (يثرب) دار الهجرة

الفصل الثالث
المغازي والسرايا

الفصل الرابع
الحركة العلميّة

الفصل الخامس

الحرف والأعمال

الفصل السادس

مؤسسات الحكومة الإسلامية في المدينة النبويّة

● ● ●